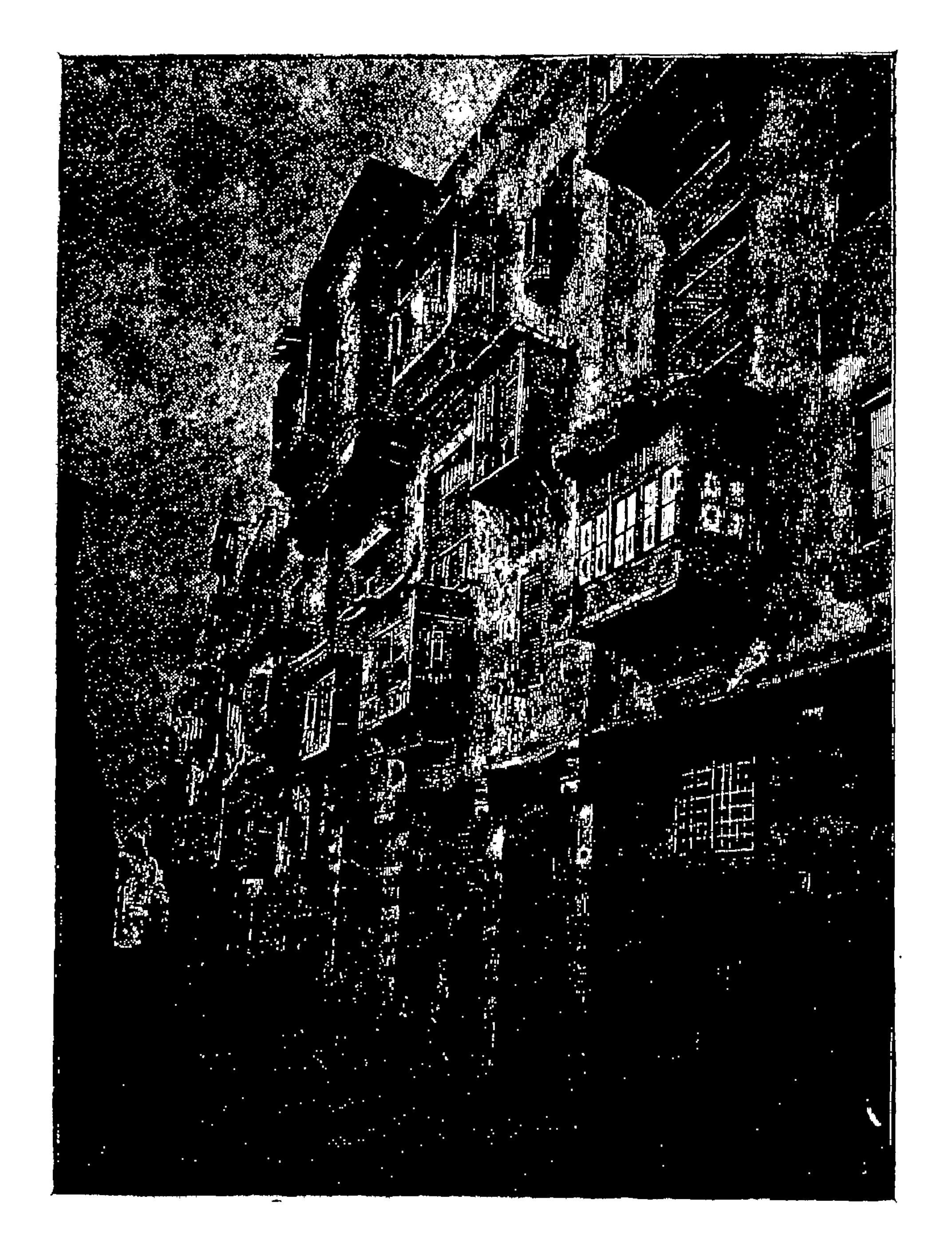
كتاب الشعب
٩٣

بدائع الزهور
في وقائع الدهور





كتاب الشعب

المختار من

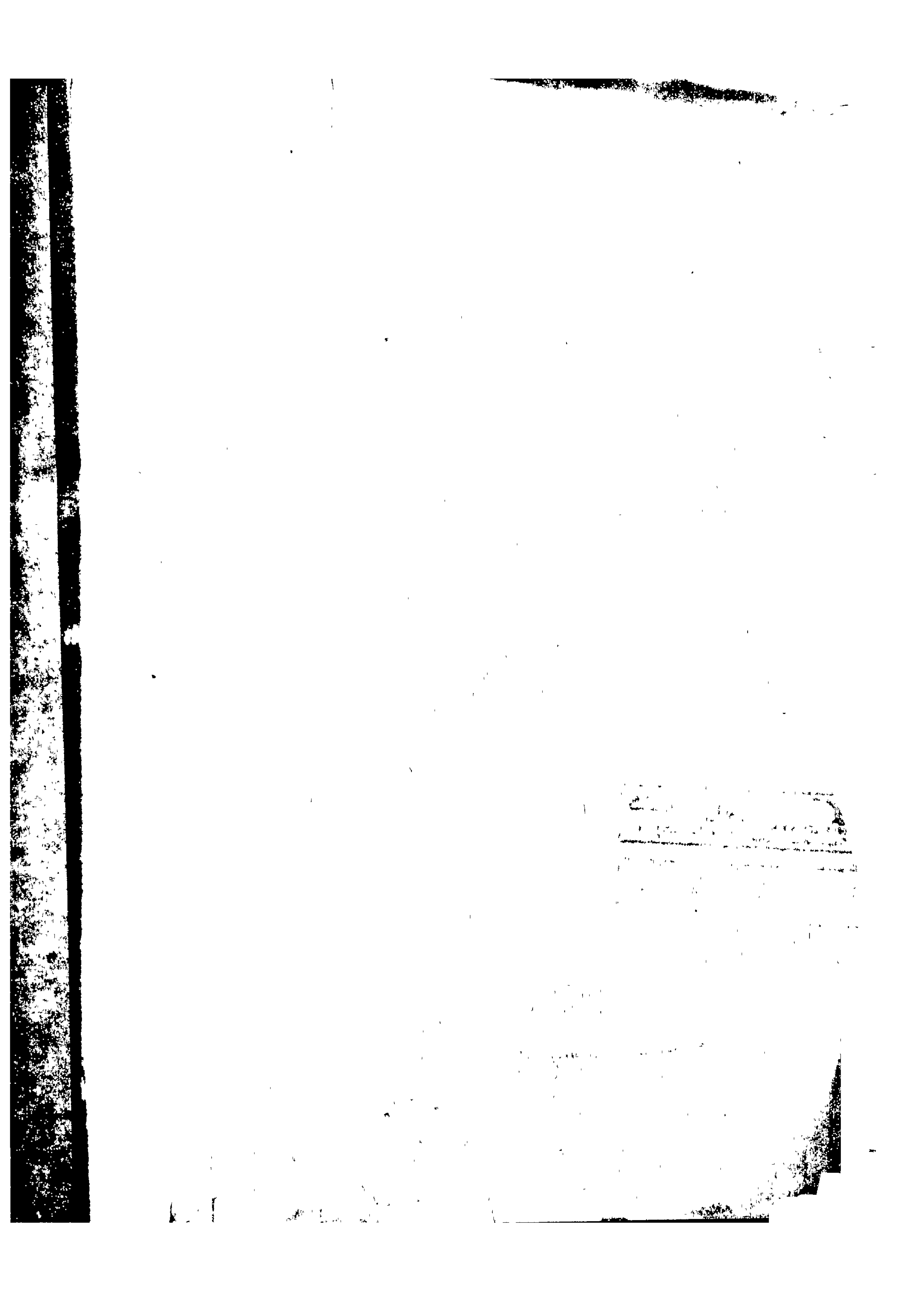
بدائع الزهور في وقائع الدهور

تأليف

محمد بن أحمد بن إياس
الحنفي المصري



مطابع الشعب
١٩٦٠

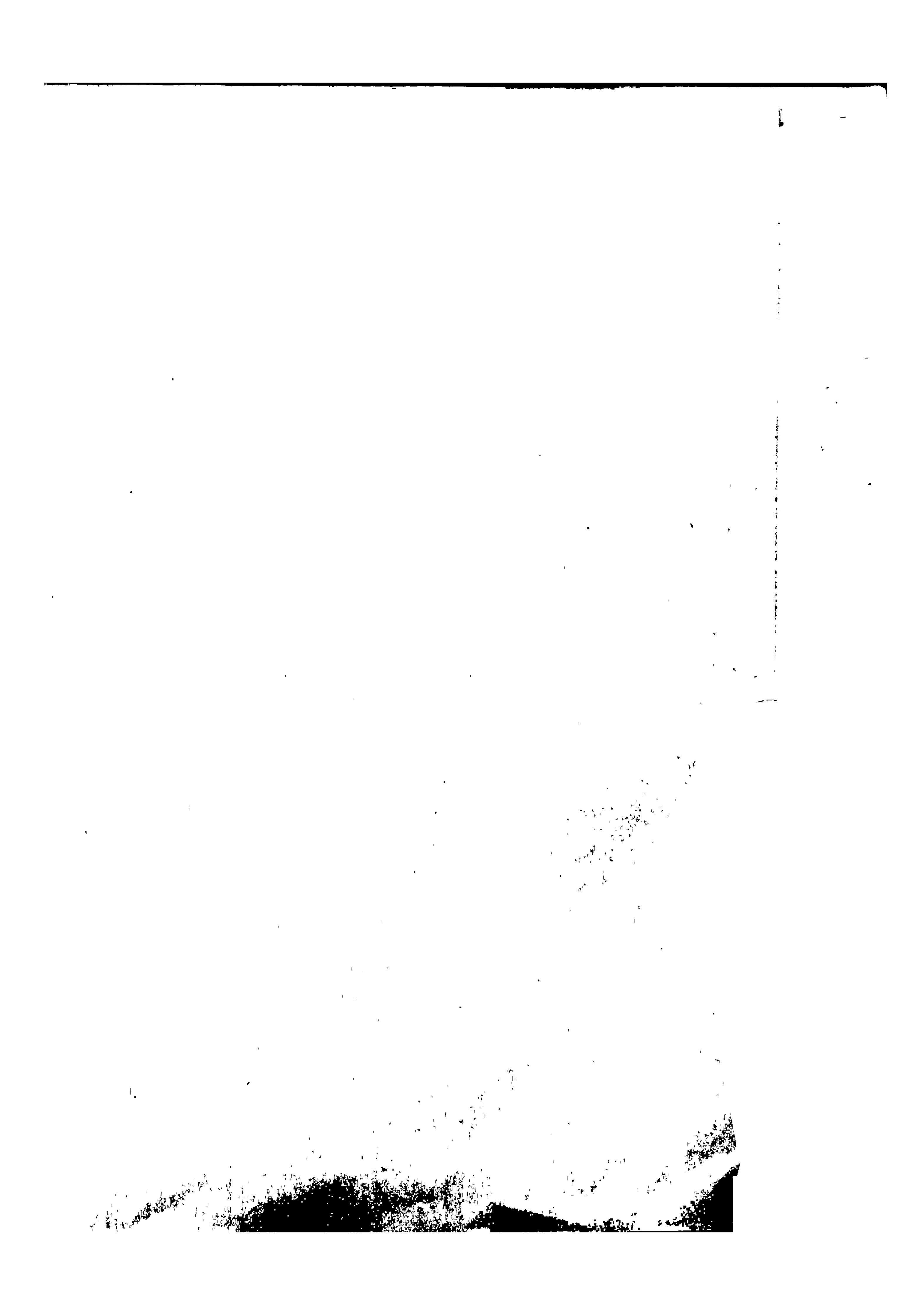




سيقع القارىء على فقرات يعجب فيها من تفكير القوم فى عصر ابن اياس . وقد أثبتناها ليعلم جيلنا ، وكل جيل يأتى من بعده ، أن لكل جيل أوهامه وضلالاته ...

ولكى تثبت أقدامنا على السبيل السوىّ ، علينا أن نراجع أفكارنا ... فنأخذ الطيب من الحق ، ونذر الخبيث من الضلالات والأوهام ، حتى لا تسخر الأجيال القادمة من أفكارنا حين تصبح تراثا ...

كتاب الشعب



هو الذى كان يرمى الفتن بينه وبين الأمراء ، وهو الذى كان يحدث فى القاهرة أبواب الظلم ، حتى يجلب لأستاذه الدعاء من كل أحد من الناس ، حتى كرهوه وتمنوا زواله وعود الملك الناصر محمد بن قلاون الى الديار المصرية .

وفى أثناء قتلة السلطان لاجين حضر الى القاهرة الأمير بكتاش أمير سلاح ، وكان مسافرا مع طائفة من العسكر الى البلاد الشامية ، فلما أن حضر نزل اليه كرجى ونوغان اللذان قتلا السلطان لاجين فقبض عليهما وقتلهما شر قتلة ، وكان بين قتلهما وقتل السلطان لاجين ليلة واحدة .

ثم ان الأمراء اجتمعوا فى القلعة وضربوا مشورة فيمن يولونه سلطانا فوقع الاتفاق منهم على عود الملك الناصر محمد بن قلاون من الكرك ، فأرسلوا اليه نجابا الى الكرك بالحضور فأبطأ عليهم وأقامت مصر بلا سلطان أحدا وأربعين يوما حتى حضر الملك الناصر من الكرك وعاد الى الملك .

عود الملك الناصر محمد بن قلاون

عاد الملك الناصر محمد بن قلاون الى السلطنة بالديار المصرية ، وهى السلطنة الثانية . دخل القاهرة يوم الخميس ثامن جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة . فلما دخل القاهرة زينت له زينة عظيمة ودقت له الكئوسات ، فلما طلع القلعة لبس خلعة السلطنة — وهى جبة سوداء بطوق ذهب وعمامة سوداء وسيف بداوى متقلد به — وحملت القبة والطير على رأسه ، ومشت الأمراء بين يديه حتى جلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء الأرض من كبير وصغير ، وفى ذلك يقول الشيخ علاء الدين الوداعى رحمه الله هذين البيتين :

الملك الناصر قد أقبلت دولته مشرقة الشمس
عاد الى كرسيه مثل ما عاد سليمان الى الكرسى

ثم ان الملك الناصر عمل الموكب ، وخلع على من سيذكر من الأمراء وهم : الأمير أقوش الأفرم واستقر به نائب الشام ، وخلع على الأمير سلار المنصورى واستقر به نائب السلطنة ، وخلع على الأمير بيبرس الجاشنكير ، واستقر به اتابك العساكر ، وأعيد الأمير سنقر الأعسر الى الوزارة ، وخلع على الأمير حسام الدين لاجين وأعيد الى الاستدارية ، وأنعم على جماعة كثيرة من مماليك أبيه بتقادم ألوف ، وأنعم على جماعة أيضا من المماليك بالاقطاعات السنية ، وتم أمره فى المملكة وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة .

سنة تسع وتسعين وستمائة (١٢٩٩ م)

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن غازان ملك التتار قد زحف على البلاد ووصل أوائل عسكره الى الفرات ، وهو فى عسكر ثقيل لا يحصى .

وغازان هذا هو ابن أرغون ، بن ابغا ، بن هلاكو الذى أخرب بغداد ، وقتل الخليفة ، وجرى منه ما جرى .

وكان سبب مجىء غازان وزحفه على البلاد هو أن قفجق ، نائب الشام ، لما بلغه أن الملك المنصور لاجين أرسل بالقبض عليه أخذ أولاده وعياله وبركه وماله ، وخرج من الشام وتوجه هاربا الى القان غازان ، وحسن له أن الملك الناصر صغير ، وأن الأمراء والعسكر بينهم الخلف ، وأنه اذا زحف القان غازان على البلاد لا يجد من يرده عنها ... فعند ذلك جمع القان غازان عساكر عظيمة ، نحو مائتى ألف مقاتل .

فلما وصل الخبر الى الديار المصرية اضطربت الأرض واجتمعت الأمراء بالقلعة وضربوا مشورة ، فوقع الاتفاق على أن الأتابكى بيبرس الجاشنكير يتوجه الى جلب ومعه خمسمائة مملوك قبل خروج السلطان ، فخرج الأتابكى بيبرس على جرائد الخيل مع العسكر . ثم خرج الملك الناصر محمد بعده فى خامس عشر صفر ، وكان صحبته الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله والقضاة الأربعة ، وكان قاضى القضاة الشافعى حينئذ شيخ الاسلام : تقى الدين ابن دقيق العيد . وخرج مع السلطان سائر الأمراء والعسكر ، فجد السلطان فى المسير حتى وصل الى دمشق فى ثامن ربيع الأول سنة تسع وتسعين وستمائة ، ثم خرج من دمشق فتلاقى مع جاليش غازان فى مكان يعرف بسلمية قرب بعلبك ، فوقع بينهما واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، وقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، فانكسر عسكر السلطان وهرب الملك الناصر الى بعلبك ، ونهب بركه وسائر برك العسكر ، ولم يبق معه من العسكر الا طائفة يسيرة .

ثم ان القان غازان زحف على ضياع الشام ونهب ما فيها وسبى أهلها . فلما بلغ أهل الشام ذلك خافوا على أنفسهم من غازان فيما فعله بأهل الضياع ، فتشاوروا مع جماعة من العلماء الذين كانوا بدمشق ، وخرجوا الى غازان يطلبون منه الأمان ، فخرج قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعى ، والشيخ زين الدين الفارقى ، والشيخ تقى الدين ابن تيمية الحرانى ، والقاضى نجم الدين ابن الصرصرى ، والقاضى عز الدين بن تركى ، والشيخ عز الدين بن القلانسى ، والقاضى جلال الدين القزوينى ، وغير هؤلاء جماعة من العلماء والصلحاء . فلما دخلوا على غازان ووقفوا بين يديه ، وقف الترجمان وتكلم مع القان غازان فى أمرهم وانهم جاءوا يطلبون الأمان منه ، فقال له غازان : « قل لهم انى قد أرسلت اليهم الأمان قبل حضورهم عندى » ... فرجعوا الى دمشق واجتمع فى جامع بنى أمية الجم الغفير ، وقرءوا على الناس الأمان الذى أرسله القان غازان الى أهل دمشق . فلما قرىء عليهم ذلك الأمان وسمعوه فرح الناس بذلك ، وحصل عندهم سكون بعد ما كانوا فى اضطراب من أمر غازان .

ثم حضر الأمير قفجق الذى كان نائب الشام وهرب الى غازان ونزل بالميدان الأخضر وأرسل يقول لنائب قلعة الشام : « سلم الينا القلعة ولا تحوجنا الى أن نحاصرك وتغلب بعد ذلك » . فأرسل نائب القلعة يقول لقفجق : « ليس لك عندى جواب الا السيف . وكيف أسلم القلعة والملك الناصر على قيد الحياة ؟ » .

فلما بلغ غازان ذلك حاصر القلعة ، ونصب عليها المجانيق ، وأحرق البيوت التى حولها فلم يقدر عليها .

ثم بلغه أن الملك الناصر تراجع اليه العسكر وهو قاصد نحو الشام . فلما كان يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الأولى رحل غازان عن دمشق وترك بها أميرا من التتار يقال له الأمير قطلو شاه بيك ومعه عسكر من التتار ، وولى الأمير قفجق نائب الشام كما كان أولا ... هذا ما كان من أمر القان غازان .

وأما ما كان من أمر الملك وأمر عسكره فانه لما انكسر ودخل الى بعلبك أقام بها أياما ، ثم قصد التوجه الى الديار المصرية ، وجدّ فى السير حتى وصل الى القاهرة ، فدخل على حين غفلة وطلع القلعة ، وقد نهب جميع ما كان معه من البرك وكذلك الأمراء والعسكر . فلما طلع القلعة فتح الزردخانة وفرق ما كان فيها من الملبوس والسلاح على العسكر ، ثم فتح حزائن المال وأنفق على

أخبار مصر

وما ورد فيها من الآيات العظيمة والأحاديث النبوية ، وما خصت به من الفضائل والمحاسن والعجائب دون غيرها من البلاد ، وما قاله الشعراء فى وصفها .

اعلم — وفقك الله — أن مصر من أجل البلاد قدرا .

قال تعالى مخبرا عن فرعون أنه قال : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى؛ أفلا تبصرون ؟ » .

وأما بالاشارة والايماء فمنها قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ؟ » . يعنى مصر .

وأما ما ورد فيها من الأخبار النبوية فمنها قوله صلى الله عليه وسلم : « اذا فتح لله عليكم بعدى مصر فاتخذوا منها جندا كثيفا ... فذلك الجند خير أجناد الأرض ، لأنهم فى رباط الى يوم القيامة » .

ذكر حدود ارض مصر ومسافتها

قال أبو الصلت أمية الأندلسى ان حد أرض مصر فى الطول من مدينة برقة الى عقبة ايلة ، وذلك لحو من أربعين يوما . ومسافة حدها فى العرض من مدينة أسوان من أعمال الصعيد الى العريش عند الشجرتين ، وذلك نحو من ثلاثين يوما فى مسافة العرض منها .

وكان اقليم مصر متصلا بالعمارة على شاطىء النيل كأنها مدينة واحدة مشتبكة بالأشجار المثمرة بالفواكه اليانعة والقرى العامرة ، حتى قيل ان المسافر كان يسير من اسكندرية الى أسوان بلا زاد ، بل يسير فى ظل وأشجار وفواكه الى أن يصل الى مدينة أسوان فى قرى عامرة بالناس لا يحوجونه الى زاد يحمله معه .

ذكر ما عد من فضائل مصر

قال أبو الريحان : « ولد بمصر من الأنبياء موسى وهارون عليهما السلام ، وولد بها يوشع ابن نون ، ودخل اليها عيسى بن مريم وأقام بقرية بالصعيد يقال لها أهناس .

ودخل مصر من الأنبياء ابراهيم الخليل عليه السلام ، ويعقوب ويوسف والأسباط وارمياء ، ودخل اليها دانيال ولقمان الحكيم عليهم السلام . ودخل اليها من السادة التابعين جماعة ، ودفن بها من العلماء جماعة كثيرة كما سيأتى ذلك فى مواضعه .

وكان من أهلها مؤمن آل فرعون الذى أثنى الله تعالى عليه فى القرآن ، ومنهم آسية امرأة فرعون التى أخبر الله تعالى عنها فى كتابه ، ومن أهلها سحرة فرعون الذين آمنوا فى ساعة واحدة مع كثرتهم .

ما خصت به مصر من المحاسن والعجائب دون غيرها من البلاد

قال صاعد الغوثى فى كتاب طبقات الأمم :

« ليس فى بلد أعجوبة الا وفى مصر مثلها ... أو أعجب منها » .

وقيل ان بمصر من الأنواع ثلاثين نوعا لا توجد فى الدنيا :

فمنها معدن الزمرد والذبابى ، ولا يوجد فى الدنيا الا بها . قيل يوجد فى نواحى البهنسا .

ومنها معدن الشب والملح ، ولا يوجد الا بها .

ومنها الأبنوس الأسود ، ولا يوجد الا بها .

ومنها مقاطع الرخام الملون الفستقى والسماقى والطروى وغيره من أنواع الرخام .

ومنها الأفيون وهو عصارة ماء الخشخاش ، ومنافعه لا تنكر .

وبها دهن البيلسان ، ولا يوجد الا بها فى أرض المطرية ، وهو الذى تتغالى ملوك النصارى فى ثمنه ولهم فيه اعتقاد عظيم .

وبها السمك الرعاد ، ونفعه للحمى اذا علق على المحموم برى .

وبها الحيات التى يعمل منها الدرياق ومنافعها لا تنكر .

وفيها الاسقنقور ومنافعه لا تنكر .

وبها الحطب الصنط الذى هو سريع الاشتعال بطىء الخمود .

وبها القمح اليوسفى .

وبها دهن السلجم .

وبها معامل التنانير التى يعمل بها البيض ويوقد عليها بالنار فتحاكى نار الطبيعة فى حضانة الدجاجة فيخرج منها الفراريج وهى من أعظم ماكول مصر ، ولا يعمل هذا فى بلد غير مصر .

وبها النارنج والاترنج المدور ، قيل انه حمل من أرض الهند وزرع بمصر بعد سنة ثلثمائة من الهجرة ولم يكن بمصر قبل ذلك .

وكان بها نوع يقال له البنج وهو مثل اللوز الأخضر ، وكان من محاسن مصر ولكن انقطع منها فى سنة سبعمائة من الهجرة .

وكان بها الماسكة ومنافعها لا تنكر .

وبها الخوخ الزهرى الأحمر ولا يوجد الا بها .

وبها العسل النحل المصرى وهو أطيب من غيره من الأشربة وله فضيلة دون غيره .

وبها نتاج الخيل والبغال والحمير تفوق على غيرها من البلاد .

وبها الطرز الأسيوطية وكانت لا توجد الا بها .

وبها الثياب الديبقية . كانت تعمل بمدينة تنيس ، يبلغ ثمن الثوب منها مائة دينار .

وبها جلال الخيل والبراقع والطنافس لا تعمل الا بها .

وبها المقاطع الشرب لا تعمل الا بدمياط ، ولها خاصية دون غيرها .

وبها العرس والنمس ، ولهما فضيلة لا تنكر فى أكل الثعابين حتى قيل : لولا العرس والنمس لما سكنت مصر .

وبها البطيخ الصيفى ، ومنافعه لا تنكر . قيل

نقلت زريعتــه الى مصر من بلاد الهنــد فى أيام القبط .

وبها الرخام المرمر ، ومنافعه لا تنكر .

وبها القرط الذى تربط عليه الحيول فى زمن الربيع .

وبها الكتان ، ومنافعه لا تنكر .

وبها الخيار شنبر ، ومنافعه لا تنكر .

ومن أجل منافعها ماء النيـل المبـارك وسرعة هضمه للأكل . قال بعض الحكماء ، « لولا ماء الليمون على أهل مصر لوخموا من حـلاوة ماء النيل » .

وبها ماء العوسج ، ومنافعه لا تنكر .

ومن فضائل مصر أن الرخامة الخضراء الفستقية التى فى الحجر عند الكعبة أصلها من مصر ؛ بعثها الى مـكة محمـد بن طريف ، مولى العباس بن محمـد ، فى سنة احـدى وأربعـين ومائتين من الهجرة ، وبعث معها رخامة أخرى فستقية وضعت على سطح الكعبة عنـد الميزاب . وقبل طولهما ذراع بالعمل وثلاث أصابع ، وعرضهما مثل ذلك . ذكره الفاكهى فى تاريخ مكة .

قال المسعودى : « ان كل قرية من قرى مصر تصلح أن تكون مدينة على انفرادها » .

وقد قال الله تعالى فى حق قرى مصر : « وابعث فى المدائن حاشرين » .

قال القضاعى : « لم يكن فى الأرض ملك أعظم من ملك مصر . ولو ضرب بينها وبين سائر قرى الدنيـا سور لاستغنى أهلهـا بما فيها عن سائر البـلاد . ولو زرعت كلها لوفت بخراج الدنيـا بأسرها » .

وهى أكثر البـلاد كنوزا وعجائب وأنهارا ، ولا سيما ما فى بلاد الصعيـد من البرابى ، وما أودعت من العـلوم والحكم والطلسمات وغـير ذلك .

قيل سئل بعض الحكماء : « متى تطيب أرض مصر ؟ » . قال : « اذا اعتـدل هواها ، وارتفع وباها ، وطاب مرعاها » .

وقال بعض الحكماء : « اذا بلغت زيادة النيـل ثمانية عشـر ذراعا وهبط ، كانت العاقبة فى ذلك حدوث وباء بالديار المصرية فى تلك السنة » .

قال كعب الأحبار رضى الله عنه : « من أراد أن ينظر الى شبه جنـة الفردوس فلينظر الى أرض مصر » . قيل قبل طلوع الشمس فى زمن ربيعها ، اذا اطردت أنهارها ، وغردت أطيـارها ، وأينعت أزهارها .

وقد قال القائل فى المعنى :

ما مثل مصر فى زمان ربيعهـا
لصفاء ماء واعتـلال نسـيم

أقسمت ما تحوى البلاد نظيرها
لما نظرت الى جمـال وسـيم

ووصف بعض الحكماء أرض مصر فقـال : « ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسـكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر كهرمة صفراء » ...

فان أرض مصر فى شهر أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء فتصير الأرض بيضاء من افتراش الماء عليها ، وتصير ضياعها مثل الكواكب فى السـماء فلا يصل اليها أهلها الا فى الزوارق .

وأما المسكة السوداء فان أرض مصر فى شهر بابه وهاتور وكيهك ينصرف عنها الماء فتصير مثل المسكة السوداء .

وأما الزمردة الخضراء فان أرض مصر فى شهر

طوبة وأمشير وبرمهات يكثر فيها الزرع فتصير الأرض خضراء مثل الزمردة .

وأما الكهرمة الصفراء فان أرض مصر فى شهر برمودة وبشنس وبؤنة يدرك فيها الزرع ويحصد فتصير مثل السبيكة الذهب الصفراء .

وقد قيل فى المعنى :

كل وقت بمصر أمر عجيب
نحن منه فى السعد كالأغنياء

ذهب حيثما ذهبنا ، ودر
حيث درنا ، وفضة فى الفضاء

ومن محاسن مصر ... قال القضاعى : « ان مصر يوجد بها فى كل شهر من الشهور القبطية نوع من المأكولات والمشمومات . فيقال رطب توت ، ورمان بابه ، وموزهاتور ، وسمك كيهك ، وماء طوبه ، ورميس أمشير ، ولبن برمهات ، وورد برمودة ، ونبق بشنس ، وتين بؤنه ، وعسل أبيب ، وعنب مسرى » .

ومن محاسن مصر أيضا السبع زهرات التى تجتمع فى وقت واحد فى أواخر فصل الشتاء ، ولم يكن هذا ببلد غيرها ، وهى : النرجس ، والبنفسج ، والبان ، والورد النصيبى ، والزهر (وهو زهر النارنج) ، والياسمين ، والورد الجورى ، ويعرف أيضا بالقحانى ، وهو آخر هذه السبع زهرات التى تجتمع فى وقت واحد .

أما النسرين — وان كان من أعظم الزهور رائحة — فانه غير معدود فى جملة الزهور السبع التى تجتمع فى وقت واحد ، لأنه يأتى فى آخر أيام الورد ... فلا يلحق النرجس ولا يلحق البنفسج ، فلم يكن معدودا فى جملة هذه السبع زهرات التى تجتمع فى وقت واحد لأجل تأخره عن بقية الأزهار .

وقد نظمتها فى هذا المقطوع وهو قولى فى المعنى :

ياطيب وقت بمصر فيه قد جمعت
سبع من الزهر تحويها البساتين

بنفسج نرجس زهر وبان لنا
ورد نصيبى وجورى وياسمين

وقيل ان الذى ينقطع من الفواكه والأزهار فى سائر البلاد فى زمن الشتاء يوجد بمصر .

* * *

ومن محاسنها أن أهل مصر لا يحتاجون فى زمن الشتاء الى التدفى بالنار كما تعانيه أهل الشام ، ولا فى زمن الصيف الى أن يدخلوا تحت الخيش من شدة الحر كما تعانيه أهل مكة .

قال أبو الصلت : « أهل مصر خصوا بالأفراح فيها دون غيرهم من جميع الأمم » .

وقيل ان أهل مصر لا يهتمون بأمر الزاد كما هى عادة غيرهم من الأمم ، كأنما حوسبوا وفرغوا من الحساب .

وكان بمصر من الفلاسفة والحكماء القدماء : هرمس وبقراط وجاليسوس والينوس وفيداغورس ، ولما ماتوا دفنوا بمصر . وكان بها من الحكماء فى دولة الاسلام الرئيس علاء الدين بن نفيس صاحب كتاب الموجز ، والرئيس أبو على بن سينا .

ومما تفتخر به مصر على سائر البلاد أن سلطانها خادم الحرمين الشريفين وله الميزة على سائر ملوك الأرض كما قال القائل :

اذا البلاد افتخرت لم تزل
مصر لها [illegible] وفضل

وكيف لا تفتخر [illegible]
أرجائها السلطان والنيل

ماقاله الشعراء فى وصف مصر
من كل معنى غريب

قال ابن الوردى رحمه الله تعالى :

ديار مصر هى الدنيـا ، وسـاكنها
هـم الأنام ... فقابلهـا بتقبيـل
يامن يبـاهى ببغـداد ودجلتهـا
مصر مقـدمة والشرح للنيـل

وقال الصلاح الصفدى :

من شـاهـد الأرض وأقطـارها
والنـاس أنـواعا وأجنـاسـا
ولا رأى مصر ولا أهلهـا
فمـا رأى الدنيـا ولا النـاسا

وقال الشيخ علاء الدين الوداعى :

رو بمصر وسـكانهـا
شوقى ، وجدد عهدى الخالى
وصف لنا القرط ، وشنف به
سمعى ، وما العاطل كالحالى
وارو لنا ياسـعد عن نيلهـا
حديث صـفوان بن عسـال

وقال البها زهير :

يارعى الله أرض مصر ، وحيـا
ما مضى لى بمصر من أوقـات
حبذا النيـل والمراكب فيـه
مصـعدات بنا ومنحـدرات
هات زدنى من الحديث على النيـ
ـل ، ودعنى من دجـلة والفرات

وقال ابن فضل الله :

يحق لمصر أن تتيه اذا جـرى
بها النيل وامتدت اليه عيـون
فما مثـله من زائر لقدومـه
تقـر عيـون اذ تقـر العيـون

وقال ابن الصائغ الحنفى :

ارض بمصـر فتـلك أرض
من كل فـن لهـا فنـون
ونيلهـا العـذب ذاك بحـر
ما نظـرت مثـله العيـون

وقال الشهاب المنصورى :

تقول لنا مصر : أنا خير موطـن
ولا ناس فى الأمصار أظرف من ناسى
فان تك أوقات السرور نضـيرة
فلا تقطعـوها فى الا بمقيـاسى

وقال رضى الله عنه :

اعملوا أهـل مصر لله شـكرا
وقليـل من العباد الشـكور
ان مصر أسـقى الاله ثراهـا
بلـد طيب ورب غفـور

المُقَوْقَس

كان اسمه جريج بن ميناهى ، وقد أدرك نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كانت سنة ست من الهجرة (٦٢٧ م) بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب ابن أبى بلتعة رضى الله عنــه ومعه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه فيه الى الاســلام . فلما دخل حاطب مصر وجد المقوقس بثغر اسكندرية ، فتوجه اليه ، وكان يصيف بمصر ويشتى بالاسكندرية [1] . فلما دخل عليه هو له كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أخذه قبله ووضعه على رأسه ، ثم قرأه وعلم ما فيه وقال لحاطب : « نعلم أنه نبى مرسل ، وقد أخبرنا المسيح بذلك » .

ثم بعث مع حاطب الى رســول الله صلى الله عليه وسلم هدية عظيمة ، وهى ألف مثقــال من الذهب ، وعشرون ثوبا من قباطى مصر ، وجارية تسمى مارية وأخرى تسمى شيرين ، وغلام خصى يسمى مابور ، وبغلة تسمى دلدل ، وحمار يسمى عفيرا وقيل يعفور ، وعسل من عسل بنها .

وأكرم حاطبا غاية الاكرام وبعثه بتلك الهدية ، فلما وصلت الى النبى صلى الله عليه وسلم قبلها منه ، واستسلم مارية فأسلمت على يديه ، ووهب أختها شيرين الى حسان بن ثابت . وكانت البغلة والحمار أحب دوابه اليه .

ولما دخل على مارية حملت منه بابراهيم فعاش ثمانية عشر شهرا ومات .

قال صلى الله عليه وسلم : « ستفتحون بعدى أرضا يذكــر فيها القــيراط . فاذا افتتحتمــوها فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم نسبا وصهرا » . قال ابن شهاب : « كنى بالنسب عن هاجــر ، أم اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليه الســلام ، فان أصلها من مصر . وكنى بالصهر عن مارية القبطية ، فان أصلها من مصر أيضا » .

واستمر المقوقس قائما بملك مصر نحو احدى وثلاثين سنة حتى افتتح عمرو بن العاص رضى الله عنــه الديار المصرية فى سنة عشرين من الهجــرة النبوية فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنــه وأرضاه .

---

(١) لعله يعنى مكثي ذلك .



عمرو بن العاص

وابتداء دولة الإسلام

قال الكندى : لما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أرسل جيشا الى مصر ، وكان أمير الجيش عمرو بن العاص رضى الله عنه فلما وصل الى مصر أقام يحاصر أهلها ثلاثة أشهر ، وكان المقوقس فى قصر الشمع ، وكان قصر الشمع مطلا على بحر النيل ، وكانت السفن ترسو تحته . فلما رأى المقوقس أن العرب أشرفوا على أخذ المدينة نزل فى مركب من باب قصر الشمع وتوجه الى نحو الاسكندرية هاربا ، وكان يعلم أن العرب لا بد أن تملك مصر ، وسبب ذلك ...

قال أبو الحسن المسعودى : كان بقصر الشمع فى الكنيسة المعلقة صنم من النحاس الأصفر راكب على جمل من النحاس الأصفر ، وهو زى العرب وعلى رأسه عمامة وفى رجليه نعلان من جلد ، فكانت القبط والروم اذا تظالموا فى شيء بينهم واعتدى بعضهم على بعض يتحاكمون عند ذلك الصنم النحاس ، ويقفون بين يديه فيقول المظلوم للظالم : « أنصفنى قبل أن يجيء هذا الرجل الأعرابى فيأخذ الحق لى منك ان رضيت أو لم ترض » . فكانوا يعنون بذلك عمرو بن العاص رضى الله عنه .

وقيل كان بالاسكندرية باب لا يزال مغلقا دائما وعليه أربعة وعشرون قفلا ، فعزم على فتحه المقوقس . فلما قوى عزمه على ذلك اجتمعت عليه القسيسون والرهبان وسألوه ألا يفتح ذلك الباب وأن يجعل عليه قفلا كما فعل من تقدمه من الملوك ، فلم ينته عن فتحه ، فقالوا له نحن نعطيك ما خطر ببالك أنه فيه من المال ولا تفتحه ، فلم يسمع لهم شيئا وفتحه . فلما دخل فيه لم يجد به شيئا من المال ، ورأى على حيطانه منقوشا تصاوير العرب وهم على خيولهم بعمائمهم وسيوفهم فى أوساطهم وهم على الابل . ورأى فى صدر ذلك المكان كتابة بالقلم الرومى ، فأتى بمن قرأ ذلك الخط ، فاذا معناه : اذا فتح هذا المكان تملك العرب المدينة فى تلك السنة التى يفتح فيها ... فكان الأمر كذلك ، وملكت العرب المدينة فى تلك السنة . وكان كل من ملك مدينة الاسكندرية يجعل على ذلك الباب قفلا ، وهذه الأقفال بعدد من ملك المدينة من ملوك القبط .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما فرغ من الصلاة : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا فتحت عليكم بعدى مصر فاتخذوا منها جندا كثيفا ... فذلك الجند خير أجناد الأرض » . فقيل : « ولم ذلك يارسول الله ؟ » . فقال : « لأنهم فى رباط الى يوم القيامة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مصر كنانة الله فى أرضه ... ما كاد أهلها أحد الا كفاهم الله تعالى مؤنته » .

قال ابن المتوج : « لما فتح عمرو بن العاص مصر واستقر بها ، قصد التوجه الى مدينة الاسكندرية ، فتوجه اليها بمن معه من العربان ، فلما وصل اليها حاصر أهل المدينة أشد المحاصرة ، وكان المقوقس بها مقيما ، فلما أشرف على فتحها

أرسل المقوقس يسأله فى الصلح وأن يجعل عليه الجزية » .

قال ابن لهيعة : «وكان سبب فتح الاسكندرية أن عمرو بن العاص لما طال عليه أمر الحصار أتى اليه رجل يقال له ابن بسامة — وكان بوابا على باب المدينة — فقال لعمرو بن العاص : أتؤمننى على نفسى وعيالى وأنا أفتح لك الباب ؟ فأجابه عمرو الى ذلك ففتح له الباب فدخل عمرو ومن معه من المسلمين فملكوها وأسروا المقوقس » .

فلما فتحت مدينة الاسكندرية أرسل بذلك الى الخليفة وكتب اليه كتابا وهو يقول فيه : « أما بعد ، فانى قد فتحت مدينة لا أقدر أن أصف لك ما فيها غير أنى قد وجدت بها اثنى عشر ألف بقال يبيعون صنف البقولات فى جوانب المدينة من بعد العصر ، ووجدت بها ألف مركب من مراكب الروم الكبار ، ووجدت بها نحو ستمائة ألف يهودى وقد هرب أكثرهم الى بلاد الروم من البحر ، وقد أوجبت الجزية على من بقى منهم غير النساء والصبيان ، فقررت على كل رأس منهم دينارين فى كل سنة ، فكان الذى بقى نحو خمسين ألف يهودى » .

فكتب اليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « من كان فى يدك من اليهود أو النصارى فخيره بين الاسلام ودينه . فان أسلم فهو من جملة المسلمين ... له مالهم ، وعليه ما عليهم . وان لم يسلم فعليه الجزية عن كل رأس ديناران » .

ثم ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى عمرو بن العاص تقليدا بولاية مصر وأرسله على يد معاوية بن خديج ، وذلك فى سنة عشرين من الهجرة ، فكان أول من تولى على مصر نيابة عن الخلفاء .

قيل لما ملك العرب مدينة الاسكندرية جاءت الروم الى قسطنطين بن هرقل ، وقالوا له : « أتترك الاسكندرية فى أيدى العرب وهى مدينتنا الكبرى ؟ » . فتوجه قسطنطين الى الاسكندرية فى ألف مركب مشحونة بالرجال المقاتلين ، فلما وصل الى قرب الاسكندرية بعث الله تعالى عليهم ريحا عاصفا فأغرقت تلك المراكب كلها بمن فيها من الرجال ولم ينج منهم أحد . وأما قسطنطين ملك الروم فألقته الريح بصقلية فسأله أهلها عن أمره فأخبرهم بأمر الريح وتغريق المراكب فقالوا له : « قد أفنيت من بقى من عسكر الروم وجئت الينا ، فلو دخلت العرب الى بلادنا لم يجدوا من يردهم » . فاجتمع عليه أهل صقلية وقتلوه وكفى الله المؤمنين القتال .

قال ابن وصيف شاه : « لما فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية أقام بها مدة ورجع الى مصر ، فاجتمع رأيه بأن يبنى هناك مدينة ظاهر قصر الشمع ، فابتدأ ببناء مدينة وسماها مدينة الفسطاط . وسبب تسميتها بمدينة الفسطاط أن عمرو بن العاص لما فتح مصر نزل بمن معه من العربان فى الفضاء ونصب هناك فسطاطه ، فلما قصد التوجه الى الاسكندرية أمر بنزع ذلك الفسطاط فوجدوا عليه عش يمامة وقد أفرخت عليه ، فقال عمرو بن العاص : « دعوا الفسطاط — يعنى الخيمة — مكانه لا تهدوه احتراما لليمامة التى قد عششت عليه » .

فلما توجه الى الاسكندرية وفتحها ، وقصد الرجوع الى مصر قالوا له لما دخل الى مصر : « فى أى مكان تنزل ؟ » . فقال فى مكان تركت به الفسطاط ، أى الخيمة . فلما بنى هناك هذه المدينة سميت مدينة الفسطاط بسبب ذلك . وكانت الفسطاط مدينة عظيمة جليلة بها عدة مساجد وحمامات وطواحين ومعاصر ، وكان أولها من حدرة ابن قميحة وآخرها عند الرصد . ولم تزل هذه المدينة عامرة ساكنة الى دولة الفاطمية الى خلافة

العاضد بالله ، فحرقت عندما استولى الفرنج على الديار المصرية كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه فى أخبار الدولة الفاطمية .

قال ابراهيم بن وصيف شاه : « ان فى سنة احدى وعشرين من الهجرة كان فتح مدينة دمياط على يد المقداد بن الأسود رضى الله عنه ، وكان ملك هذه المدينة شخصا من القبط يقال له الهاموك خال المقوقس صاحب مصر . وكان للهاموك ولد يسمى شطا ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وأسلم تلك الليلة ، ودلهم على مسالك المدينة فاستولوا عليها ليلا وملكوها فقاتل معهم شطا قتالا شديدا حتى قتل فى المعركة ، وكان قتله فى ليلة الجمعة فى النصف من شعبان من سنة احدى وعشرين من الهجرة ودفن خارج دمياط فى مكان قتل به ، وقبره يزار الى الآن رحمة الله عليه » .

قال ابن عبد الحكم : « لما استقر عمرو بن العاص بمصر جاء اليه القبط وقالوا له : « أيها الأمير ان لنيلنا سنّة كل سنة لا يجرى الا بها » . فقال لهم : « وما هى ؟ » فقالوا : « اذا كان ليلة اثنتى عشرة من شهر بؤنة من الشهور القبطية عمدنا الى جارية بكر وأخذناها من أبويها غصبا أو رضا ، وجعلنا عليها الحلى والحلل ثم نلقيها فى بحر النيل فى مكان معلوم » . فلما سمع عمرو بن العاص ذلك قال لهم : « هذا الأمر لا يكون فى الاسلام أبدا ». فأقام أهل مصر شهر بؤنة وأبيب ومسرى وتوت من الشهور القبطية ، ولم يجر فيها النيل لا قليلا ولا كثيرا ، فهم أهل مصر بالجلاء ...

« فلما أن رأى عمرو بن العاص ذلك كتب كتابا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأرسله على يد نجاب ، فلما وصل الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كتب بطاقة وأرسلها الى عمرو بن العاص ، وأمره أن يلقيها فى بحر النيل ، فلما وصلت الى عمرو بن العاص فتح تلك البطاقة وقرأ ما فيها واذا فيها مكتوب :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

« من عبد الله عمر بن الخطاب الى نيل مصر المبارك .

« أما بعد ، فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر . وان كان الله تعالى الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك » ...

« فلما وقف عمرو على ما فى البطاقة ألقاها فى النيل كما أمره أمير المؤمنين عمر ، وقد ألقاها فى النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد ، وعيد الصليب يكون سابع عشر توت من الشهور القبطية ، وكان قد أجلى غالب أهل مصر من عدم جريان الماء . فلما أصبح الناس يوم عيد الصليب رأوا النيل زاد فى تلك الليلة ستة عشر ذراعا فى دفعة واحدة . وقد قطع الله تلك السنة السيئة عن أهل مصر ببركة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه » .

وفى سنة ثلاث وعشرين من ولايته على مصر ابتدأ ببناء جامعه الكبير الذى بمصر — وهو المسمى به — وكان واقفا على قبلته نحو سبعين رجلا من الصحابة ، فهو أول جامع بنى فى الاسلام بمصر ، وهو جامع مبارك وفيه الدعاء مجاب .

قال ابن وصيف شاه ان عمرو بن العاص سأل المقوقس وقال له : « لقد وليت على مصر احدى وثلاثين سنة فأخبرنى بما يكون فيه عمارة أراضى مصر » . فقال له المقوقس : « انى رأيت الذى يقوم بعمارة مصر حفر خلجانها ، واصلاح جسورها ، وسد ترعها ، ولا يؤخذ خراجها الا من غلالها ، ويحجر على عمالها من المطل ، ويمنعون من الرشا ، وترفع عن أهلها المعاون والهدايا ليكون ذلك قوة على وزن الخراج » .

قال المسبحي :

« كان بمصر فى الزمن الأول مائة وخمسون كورة ، فى كل كورة مدينة ، وكان لكل كورة ثلثمائة وخمس وستون قرية . فلما خربت عند قدوم بختنصر اليها ، ثم أعيدت بعد ذلك ، صار بها خمس وثمانون كورة ، ثم انها تناقصت من بعد ذلك الى أن كانت دولة عمرو بن العاص فصار بها نحو أربعين كورة . وقد اشتملت على ألفين وثلثمائة وخمس وتسعين قرية دون الكفور ، وذلك عند ما خربت وتناقص خراجها فجباها عمرو بن العاص فبلغ اثنى عشر ألف ألف دينار . وكان خراجها فى زمن الفراعنة ستة وتسعين ألف دينار » .

ثم ان عمرو بن العاص أقام على مصر الى أن توفى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وتولى من بعده الامام عثمان بن عفان ، فعزل عمرو ابن العاص عن ولايه مصر وولى عبد الله بن أبى السرح ، فكانت مدة ولاية عمرو بن العاص على مصر فى هذه المرة نحو ست سنين الا أشهرا ، ثم عاد الى ولايته بمصر ثانيا كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .



ولاة مصر بعد عمرو بن العاص

قال الكندى : « كان عبـد الله بن أبى السرح أخا الامام عثمان بن عفان من الرضاع ، فلما تولى على مصر رحل عنها عمرو بن العاص وأتى المدينة الشريفة ، فلما استقر ابن أبى السرح بمصر جبى خراجها فى تلك السنة أربعة عشر ألف ألف دينار ، فلما وصل خراج مصر الى الامام عثمان بن عفان نظر الى عمرو بن العاص وقال : « لقد درت اللقحة بعدك ياعمرو » . فقال له : « نعم ، ولكن أجاعت أولادها ، وان هذه الزيادة التى أخذها عبد الله ابن أبى السرح انما هى على الجماجم » . فانه أخذ عن كل رأس دينارا خارجا عن الخراج فحصل لأهل مصر بسبب ذلك الضرر الشامل ، وكانت هذه أول شدة وقعت لأهل مصر فى مبتدأ الاسلام .

وأقام عبد الله بن أبى السرح فى ولايته على مصر الى أن مات فى سنة ست وثلاثين من الهجرة ، وقيل انه مات بفلسطين ودفن بها ، فكانت مدة ولايته على مصر نحو اثنتى عشرة سنة ، فانه تولى على مصر سنة خمس وعشرين وتوفى فى سـنة ست وثلاثين .

❋ ثم تولى من بعده الأمير قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى الأنصارى — وكان من الصحابة — فأقام فى ولايته على مصر نحو اثنتى عشرة سنة ، فانه تولى على مصر سنة خمس وعشرين وتوفى فى سنة ست وثلاثين .

❋ ثم تولى من بعده الأمير مالك بن الحارث النخعى بن الأشتر — وكان من الصـحابة — فتولى على مصر فى خلافة الامام على رضى الله تعالى عنه ، وأقام فى ولايته عليها الى أن مات بها ودفن بها ، وقيل انه مات مسموما ، فلما بلغ الامام موته حزن عليه حزنا شديدا وقال : « لقد كان لى كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وسلم » .

الولاة زمن الامويين

❋ ثم تولى من بعده الأمير محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه . تولى على مصر فى خلافة معـاوية بن أبى سفيان فى سنة ثمان وثلاثين من الهجرة ، وأقام بمصر حتى قتل . وكان سبب قتله أن محمد بن أبى بكر هذا كان من جملة من اجتمع على قتل الامام عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو فى داره يوم المقتلة فيما زعموا ، واستغفر الله من ذلك . فلما تولى محمد على مصر ثار عليه الشيعة بسبب ثأر عثمان بن عفان ، وكان الذين ثاروا عليه من الشيعة معاوية بن خـديج ومسلمة بن مخلد وبشر بن أرطاة وغيرهم من الشـيعة ، فأتوا من الشام ، فلما دخلوا الى مصر خرج اليهم الأمير محمـد بن أبى بكر رضى الله عنـه وقاتلهم قتالا شديدا . وكان — مع صغر سنه — شجاعا بطلا ، فكان هو وأخوه عبـد الرحمن يقاتلان الشـيعة ومعهما بعض العسكر ، فلما قويت عليهم الشيعة تفرق عنهما العسكر ، فانكسر الأمير محمد وهرب واختفى فى بعض الخرابات ، فلما حثوا فى طلبه قالت لهم عجوز : « أتريدون الأمير محمد بن أبى بكر ؟ » . فقالوا لها : «نعم» . فقالت : « أتعطونى الأمان لأخى وأنا أدلكم عليه . » فقالوا لها : « نعم

قـد أعطينا الأمان لأخيك » . وكان أخوها يبيع الفجل فى مدينة الفسطاط ، فدلتهم على مكانه . فلما دخلوا عليه وجدوه قـد كده العطش فقال لهم : « بالله اسقونى شربة من المـاء » . فقال له معاوية بن خديج : « لا سـقانى الله ان سقيتك . أنسيت منعك الماء لعثمان بن عفان وهو محصور فى الدار ؟ » . فقال : « أكرمونى لأجل أبى بكر » . فقال له معاوية بن خـديج : « لا أكرمنى الله ان أكرمتك . أنسيت ما فعلته يوم قتلة عثمان ؟ فـلا أمان لك عندنا » . ثم تقدم اليه معاوية بن خديج وضرب عنقـه بالسيف ثم جره برجله وطاف به فى المدينة ، ثم أدخل جثته فى جوف حمار ميت وأحرقه حتى صار فحما . فكانت قتلته فى رابع عشر صفر سنة ثمان وثلاثين من الهجرة . وكانت مدة ولايته على مصر خمسة أشهر ، وكان له من العمر لما قتل ثمان وعشرون سـنة ، وكان مولده فى عام حجة الوداع . وتوفى أبوه أبو بكر وله من العمر نحو سنتين ونصف . قيل لما قتل الأمير محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أخذ رأسه وجثته زمام الخادم ودفنهما خارج مدينة الفسطاط وبنى هناك مسجدا ، وهو الى الآن يعرف بمسجد زمام ويزار الى الآن .

قال الكندى : « لما قتل الأمير محمـد أرسل معاوية بن خديج قميصه الذى قتل فيه وهو بدمه الى المدينة الشريفة . فلما وصـل الى دار الامام عثمان بن عفان اجتمع عصبة عثمان ونساؤه وأظهروا الفرح والسرور فى ذلك اليوم . ثم ان نائلة زوجة عثمان لبست القميص ورقصت به بين الرجال .

✻ ثم من بعده أعيـد الأمير عمرو بن العاص الى ولايته بمصر ، وهى الولاية الثانية . تولاها فى خلافة معاوية بن أبى سفيان فى سنة ثمان وثلاثين من الهجرة . واسـتمر فى ولايتـه الى أن مرض وسلسل فى المرض ، فلما أشرف على الموت أحضر ما كان جمعه من الأموال وقال لولده عبـد الله ، وكان يقاربه فى السن — قيل كان بين مولد عمرو ابن العاص وبين مولد ابنه عبد الله نحو ثلاث عشرة سنة — فقال عمرو لولده عبد الله : « اذا أنا مت فاردد هذه الأموال التى جمعتها الى أربابها » . فلما مات الأمير عمرو بن العاص أرسل معاوية بن أبى سفيان يقول لعبد الله : « نحن أحق بهذه الأموال التى جمعها عمرو لدفع العدو » . فأرسل من أخذها وأدخلها فى بيت المال ، فقيل لعبد الله : « ما كان قدر ذلك المال ؟ » . فقال : « كان سـبعين جرابا من جلد ثور كاملة » .

وكانت وفاة الأمـير عمرو بن العاص فى ليـلة عيد الفطر فى سنة ثلاث وأربعين من الهجرة . فلما كان يوم عيد الفطر أخرج نعشه الى الجامع ووضع فى المحراب حتى تكاملت الناس وصلوا عليه بعد صلاة العيد ، ثم حمل ودفن فى مقـابر الفسطاط على طريق الحاج . ومات رضى الله عنـه وله من العمر نحو خمس وتسعين سنة ، وكانت مدة ولايته الثانية نحو ست سنين الا أشهرا .

✻ ثم تولى من بعده الأمير عقبة بن أبى سفيان ، أخو أمير المؤمنين معـاوية . فلما تولى على مصر أقام بها مدة يسيرة دون السنة ومات ودفن بمصر .

✻ ثم تولى من بعده الأمير عقبة بن عامر الجهنى ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورديفـه ، وهو الذى تسند اليـه الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . تولى على مصر فى سنة أربع وأربعين من الهجرة ، وأقام بها الى أن مات شهيدا فى يوم النهروان رضى الله عنه ، فكانت مدة ولايته على مصر سـنتين وثلاثة أشهر [1] . وكانت وفاته فى

(١) الذى فى « شذرات الذهب » و « أسد الغابة » ان وفاة عقبة بن عامر سنة ثمان وخمسين ، وفى صفحة ٣٠١ من الجزء الاول من خطط المقريزى أنه عزل عن مصر سنة ٤٧ للهجرة .

سنة سبع وأربعين من الهجرة ، ودفن بالقرافة الصغرى وقبره يزار الى الآن بالقرافة .

* ثم تولى من بعده الأمير مسلمة بن مخلد ، واستمر على ولايته بمصر حتى مات ، فكانت مدة ولايته خمس سنين .

* ثم تولى من بعده الأمير سعيد بن يزيد ابن علقمة الأزدى . تولى على مصر فى سنة اثنتين وستين من الهجرة ، فكانت مدة ولايته سنتين .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الرحمن ابن جحدم القرشي . تولى فى أيام عبد الله بن الزبير فى سنة أربع وستين من الهجرة ، فلم تطل أيامه بمصر وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد العزيز بن مروان ، وهو أبو العبد الصالح عمر رضى الله عنه . قيل لما تولى عبد العزيز بن مروان على مصر وقع بها الطاعون ، فرحل عبد العزيز عن مدينه الفسطاط وتوجه الى حلوان — وهى من قرى مصر — فأقام بها مدة ، وقيل ولد بها ابنه عمر ، فكانت أخبار المدينة تأتيه فى كل يوم الى حلوان بما يحدث فى البلد من الموت وعدة من يموت بها وغير ذلك من الأخبار ، فلم يزل عبد العزيز مقيما بحلوان حتى طعن ومات بها فحملوه فى نعش من حلوان الى مدينة الفسطاط وقد تغيرت رائحته ، وكان حول نعشه مجامر النار وهى مطلقة بالبخور حتى دخل الى مدينة الفسطاط فدفن بها . قال ابن عفير : « لما كان الأمير عبد العزيز بحلوان كان له فى كل ليلة ألف جفنة تصف حول داره وهى ملآنة بالطعام تفرق على الفقراء والمساكين بجراية الخبز . وكانت له مائة حلة كبيرة تحمل على عجل وفيها الطعام فيطاف بها على قبائل العرب التى حوله ، واستمر ذلك فى كل ليلة الى أن مات » .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن عبد الملك ابن مروان ، فكانت ولايته على مصر فى سنة ست وثمانين من الهجرة ، وكانت مدة ولايته نحو خمس سنين .

* ثم تولى من بعده الأمير قرة بن شريك العبسى . تولى على مصر فى سنة تسعين من الهجرة ، فلم تطل ولايته الا أياما وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده عبد الملك بن رفاعة الفهمى . تولى على مصر مرتين وطالت بها أيامه حتى مات ودفن بها .

* ثم تولى من بعده الأمير أيوب بن رحيسل الأصبحى . تولى على مصر فى سنة احدى ومائة من الهجرة فى خلافة عمر بن عبد العزيز فأقام بها نحو سنة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير بشر بن صفوان . تولى على مصر ثلاث مرات ثم عزل عنها فى سنة ثمان وعشرين ومائة فى خلافة مروان الحمار .

* ثم تولى من بعده الأمير حنظلة بن صفوان الفهمى أخو بشر ، وهو الذى نقلت قبائل بنى قيس الى مصر فى أيامه ، وذلك فى سنة ثمان وعشرين ومائة ، ولم يكن قبل ذلك بمصر من بنى قيس أحد . واستمر الأمير حنظلة واليا على مصر حتى توفى فى سنة تسع وعشرين ومائة .

* ثم تولى من بعده الأمير محمد بن عبد الملك ابن مروان فأقام فى ولايته على مصر سبعة أشهر وخمسة أيام ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير الحر بن يوسف ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير حفص بن الوليد العامرى ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده أخوه الوليد بن رفاعة ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الرحمن بن خالد الفهمى ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير حسان بن العتاهية التجيبى ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير حوثرة بن سهل الباهلى ، وكان رجلا حليما قليل الغضب . قيل ان رجلا من العرب دخل عليه وهو قائم يريد الدخول الى حرمه ، فجاء اليه الرجل الأعرابى وحدثه فى حاجة له ، فوضع الأعرابى نصل سيفه على رجل الأمير حوثرة وطال معه فى الحديث ، وجعل يغوص بالسيف فى رجله حتى أدماها وهو صابر ، حتى فرغ الأعرابى من كلامه وخرج من عنده فدعا حوثرة بمنديل ومسح به الدم عن رجله فقيل له : « لم لا نحيت رجلك من تحت سيفه أيها الأمير أو أمرته برفع سيفه عن رجلك ؟ » فقال : « خشيت أن أقطع عليه كلامه وهو فى حاجته » .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الحميد بن المغيرة بن سعيد الفزارى ، فأقام على ولاية مصر نحو سنتين ثم عزل عنها . قال ابن وصف شاه : « ان أرض مصر أجدبت ووقع بها الغلاء فى زمن عبد الحميد بن المغيرة فرهن حلى نسائه عند التجار واشترى منهم قمحا وفرقه على الفقراء . فلما عزل عقب ذلك عن مصر وقف اليه التجار بسبب الرهن فأمر ببيعه حتى قضى ما كان عليه من الدين الذى للتجار وكان نحو عشرة آلاف دينار ، ثم رحل عن مصر والناس عنه راضون » .

* ثم تولى من بعده الأمير عبيد الله بن مروان الحمار ، وهو آخر من تولى على مصر من عمال الخلفاء من بنى أمية . ومما وقع للأمير عبيد الله هذا ... قال ابن وصيف شاه : « لما انتقلت الخلافة الى بنى العباس ، وولى عبد الله السفاح ، توجه عبد الله بن على العباسى الى الشام فى طلب من بقى من بنى أمية ، ثم أرسل بالقبض على الأمير عبيد الله بن مروان الحمار أمير مصر ، فلما أن بلغ الأمير عبيد الله ذلك دخل الى خزائن أمواله وأخذ منها عشرة آلاف دينار ذهبا ثم أحضر اثنى عشر بغلا وحملها ذلك المال وشيئا من القماش والفرش وغير ذلك ، وأخذ معه جماعة من العبيد والغلمان ، ثم شد على وسطه خريطة فيها جواهر فاخرة مثمنة وخرج من مصر هاربا ، فتوجه الى نحو بلاد النوبة . فلما وصل هناك وجد مدائن خرابا وبها قصور محكمة البناء ، فنزل فى بعض تلك القصور ، وأمر غلمانه بكنسها فكنست وفرشت فيها فرشه وما كان معه من تلك الفرش الفاخرة ، ثم قال لبعض غلمانه ، وكان ممن يثق بعقله : « امض الى ملك النوبة وخذ لى منه أمانا على نفسى من القتل » . فخرج الغلام وتوجه الى ملك النوبة ، فغاب ساعة ، ثم عاد ومعه قاصد من عند ملك النوبة ، فلما دخل عليه قال له ان الملك يقرئك السلام ويقول لك : « أجئت اليه محاربا أم مستجيرا ؟ » . فقال له الأمير عبيد الله : « رد عليه منى السلام وقل له : قد جاء اليك ليستجير بك من عدو يريد قتله » . فمضى ذلك القاصد بالجواب ، فغاب ساعة ورجع وقال له : « ان الملك قادم عليك فى هذه الساعة » . فقال عبيد الله لغلمانه : « افرشوا ما معنا من الفرش الفاخرة » . وجعل مرتبة فى صدر المكان برسم ملك النوبة ، وجلس يرتقب مجيئه .. فبينما هو على ذلك اذ دخل عليه غلامه ، وقال له ان ملك النوبة قد أقبل ، فقام الأمير عبيد الله وصعد على أعلى القصر ونظر الى ملك النوبة فاذا هو رجل أسود طويل القامة نحيف الجسد ، وعليه بردان قد اتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ، ومعه عشرة من السودان حوله ومعهم حراب بأسنة تلمع . فلما رآه الأمير عبيد الله

استصغر أمره واحتقره ، فلما قرب من المكان الذى فيه عبيـد الله أتاه من عسكره نحو عشرة آلاف رجل من السودان فى أيديهم الحراب ، فلما دخل ملك النوبة على عبيـد الله وأحاط ذلك العسكر بالمكان الذى فيه عبيد الله ووقعت عين ملك النوبة على الأمير عبيد الله ، بادر الى يد الأمير عبيد الله وقبلها ، فأشار اليه عبيد الله بأن يجلس على تلك المرتبة التى وضعها له فأبى وصار يدفع تلك الفرش الفاخرة برجله ، فقال عبيد الله للترجمان : « لم لا يقعد الملك على تلك المرتبة التى وضعناها له ؟ » . فقال له الترجمان فى ذلك فقال ملك النوبة : « قل للأمير : كل ملك لا يكون متواضعا لله فهو جبار عنيـد متكبر » . ثم انه جلس بين يدى الأمـير عبيد الله وجعل ينكت فى الأرض بأصبعه طويلا . ثم انه رفع رأسـه الى الأمير عبيد الله وقال له : « كيف سلبتم من ملككم وأخذ منكم وأنتم أقرب الناس الى نبيكم ؟ » . فقال له عبيد الله : « ان الذى سلب منا ملكنا أقرب الى نبينا منا » . فقال له ملك النوبة : « فكيف أنتم تلوذون الى نبيكم بقرابة وأنتم تشربون ما حرم عليكم من الخمور ، وتلبسون الديباج وهو محرم عليكم ، وتركبون فى السروج الذهب والفضة وهى محرمة عليكم ولم يفعل نبيكم شيئا من هذا . وبلغنا أنك لما وليت على مصر كنت تخرج الى الصيـد ، وتكلف أهل القـرى ما لا يطيقون ، وتفسـدون الزرع على الناس ، وتروم الهدايا والتقادم من أهل القرى ... وكل هذا لأجل كركى تصيده قيمته سبعة أنصاف أو ثمانية » ... فصار ملك النوبة يعدد على الأمير عبيد الله جملة ذنوب ، والأمير عبيد الله ساكت لا يتكلم بحرف واحد ، ثم قال له ملك النـوبة : « فلما استحللتم ما حـرمه الله عليكم ، سلبتم من ملككم وأخذ منكم وأوقع الله بكم نقمة لم تبلغ غايتها منكم ، وأنا أخاف على نفسى ان أنزلتـك عندى أن تحل بى تلك النقمـة التى حلت بكم ، والبلاء عام والرحمة مخصوصة » . ثم قال له : « ارحل من أرضى بعد ثلاثة أيام والا أخذت جميع ما معـك وقتلتك شر قتـلة » . فلما سمع الأمير عبيـد الله ذلك خرج من أرض النـوبة فى يومه ورجع الى مصر فقبض عليه عمال الخليفة المنصور العباسى وبعث به الى بغداد ، فسجنه المنصـور حتى مات فى السجن . وهو آخر من تولى على مصر فى دولة الخلفاء الأموية من العمال .

الولاة فى العهد العباسى

وأما من تولى على مصر من العمـال فى دولة الخلفاء العباسية فجماعة كثيرة ، أكثر ممن تولوا فى دولة بنى أمية ، وكانوا يسمون عمال الخراج بمصر . وكانت الخلفاء تشترط على عمال مصر فى تقليدهم ، الخيل العربية ، والأثواب الديبقية شغل تنيس ، والمقاطع الشرب الاسكندرانية ، والطرز الصـعيدية ، وأجلال الخيل . وتشـترط عليهم ضـيافة العسل النحـل المصرى من عسل بنهـا ، وتشـترط عليهم البغـال والحمير وغير ذلك من الأصناف التى لا توجد الا بمصر .

* فكان أول من تولى مصر فى دولة الخلفاء العباسية الأمير صالح بن على بن عبد الله العباسى ، تولى على مصر فى سـنة ثلاث وثلاثين ومـائة ، فتولى على مصر مرتين .

* ثم تولى من بعده الأمير أبو عون عبد الملك الأزدى ، فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير موسى بن كعب — وهو أبو عيينة — تولى على مصر فى سـنة احدى وأربعين ومائة فلم تطل أيامه بها ، وكانت مدة ولايته على مصر دون السنة .

※ ثم تولى من بعده الأمير محمد بن الأشعث الخزاعى ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

※ ثم تولى من بعده حميد بن قحطبة ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

※ ثم تولى من بعده الأمير يزيد بن حاتم المهلبى . تولى فى سنة سبع وأربعين ومائة ، وفى أيامه وقع الغلاء بمصر وشرقت الأراضى من خسة النيل . وفى هذه السنة أخذ قاع النيل فجاء الماء القديم ذراعا وعشرين أصبعا ولم يعهد مثل ذلك فى السنين الماضية . فكان منتهى الزيادة فى تلك السنة اثنى عشر ذراعا وستة عشر أصبعا ، فشرقت البلاد فى تلك السنة وحصل للناس الضرر الشامل ، ووقع الغلاء بمصر حتى ماجت المدينة بأهلها ومات الأمير يزيد بعد ذلك بمدة يسيرة .

※ ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن عبد الرحمن فلم تطل أيامه بها ، ومات .

※ فتولى من بعده الأمير محمد أخو عبد الرحمن عم عبد الله ، ثم عزل عنها بعد مدة يسيرة .

※ ثم تولى من بعده الأمير موسى بن على ، وعزل عنها بعد مدة يسيرة .

※ ثم تولى من بعده اللخمى فى أيام الخليفة المهدى فلم تطل أيامه بها وعزل عن ولاية مصر فى سنته ، ولم يستقم أمره بها .

※ ثم تولى من بعده الأمير عيسى بن لقمان فلم تطل أيامه بها .

※ ثم تولى من بعده الأمير واضح المنصورى فلم تطل أيامه .

※ ثم تولى من بعده الأمير منصور بن يزيد فلم تطل أيامه بها .

※ ثم تولى من بعده الأمير يحيى بن داود فى أيام الرشيد فلم تطل أيامه بها .

※ ثم تولى من بعده الأمير سالم بن سودة ، تولى أيضا فى أيام الرشيد فلم تطل أيامه بها .

※ ثم تولى من بعده الأمير ابراهيم بن صالح العباسى ، تولى على مصر فى سنة خمس وستين ومائة . وكان الرشيد قد زوجه بابنته غالية ، فلما تولى على مصر لم يستقم بها حاله فعزله الرشيد عنها .

※ ثم تولى من بعده الأمير موسى بن مصعب مولى خثعم ، تولى على مصر فى سنة سبع وستين ومائة فلم تطل أيامه بها .

※ ثم تولى من بعده الأمير أسامة بن عمرو المعافرى ، تولى على مصر فى سنة تسع وستين ومائة فلم تطل أيامه بها .

※ ثم تولى من بعده الأمير فضل بن صالح العباسى فلم تطل أيامه بها .

※ ثم تولى من بعده الأمير على بن سليمان العباسى ، فلم تطل أيامه بها .

※ ثم تولى من بعده موسى بن عيسى العباسى فلم تطل أيامه بها .

※ ثم تولى من بعده الأمير مسلمة بن يحيى الأحمسى ، تولى على مصر سنة اثنتين وسبعين ومائة فلم تطل أيامه بها .

※ ثم تولى من بعده الأمير محمد بن زهير الأزدى فلم تطل أيامه بها .

※ ثم تولى من بعده داود المهلبى ، تولى على مصر سنة ثلاث وسبعين ومائة هو والأمير محمد ابن زهير الأزدى سنة واحدة .

※ ثم تولى من بعده الأمير ابراهيم بن صالح العباسى . وفى أيامه توفى الامام الليث بن سعد

رضى الله عنه ودفن بالقرافة . وكانت وفاته فى سنة خمس وسبعين ومائة ، وذلك فى يوم الجمعة رابع عشر شعبان — وهى الولاية الثانية — فأقام بها حتى توفى فى سنة ست وسبعين ودفن بمصر .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن المسيب الضبى فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير اسحق بن سليمان العباسى ، تولى على مصر فى سنة سبع وسبعين ومائة .

* ثم تولى من بعده الأمير هرثمة بن أعين فى سنة ثمان وسبعين ومائة فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الملك بن صالح العباسى ، تولى فى سلخ سنة ثمان وسبعين ومائة فأقام دون الشهر ومات ودفن بمصر .

* ثم تولى من بعده الأمير عبيد الله ابن الخليفة المهدى العباسى ، تولى على مصر فى سنة تسع وسبعين ومائة فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير موسى بن عيسى العباسى ، تولى على مصر ثلاث مرات ، وأقام فى آخر ولايته الى سنة ثمانين ومائة .

* ثم تولى من بعده الأمير عبيد الله ابن الخليفة المهدى ثانيا ، فأقام فى ولايته على مصر هذه الثانية نحو سنة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير اسمعيل بن صالح العباسى ، فأقام على ولايته بمصر دون السنة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير اسمعيل بن عيسى فى سنة اثنتين وثمانين ومائة .

* ثم تولى من بعده الليث بن الفضل الأسدى ، تولى على مصر فى سنة أربع وثمانين ومائة ثم عزل عنها .

* وتولى من بعده الأمير أحمد بن اسمعيل العباسى ، تولى على مصر فى سنة تسع وثمانين ومائة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن أحمد العباسى الذى يقال له ابن زينب ، تولى على مصر فى سنة تسعين ومائة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير حسين بن جميل ، تولى على مصر فى أواخر سنة تسعين ومائة ثم عزل عنها فى مدة يسيرة .

* ثم تولى من بعده الأمير مالك ابن دلهم الكلبى فى سنة اثنتين وتسعين ومائة ، فلم تطل بها أيامه وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير جانم حسن بن البجباج ، تولى على مصر فى سنة ثلاث وتسعين ومائة ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها

* ثم تولى من بعده الأمير جانم بن هرثمة ابن أعين ، فأقام على ولاية مصر مدة يسيرة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير جابر بن الأشعث الطائى ، تولى على مصر فى سنة خمس وتسعين ومائة ، فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبادة بن محمد فى سنة ست وتسعين ومائة فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده المطلب بن عبد الله الخزاعى فى سنة ثمان وتسعين ومائة . وفى أيامه توفى القاضى بكار بن قتيبة الحنفى رضى الله عنه ، وكان الرشيد ألزمه أن يتولى القضاء بمصر فتولى القضاء على كره منه . وكانت له كرامات خارقة للعادة ، وكانت وفاته فى سنة تسع وتسعين ومائة ، ودفن بالقرب من باب الزعلة عند المجراة .

* ثم عزل المطلب عن مصر ، وتولى العباس ابن موسى العباسى فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم أعيد المطلب ثانى مرة فأقام مدة يسيرة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده السرى بن الحكم فى سنة تسع وتسعين ومائة فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن طاهر الخزاعى . وكان من حذاق العمال بمصر ، وهو الذى نقل زريعة البطيخ العبدلى الى مصر ولم يكن بها قبل ذلك منه شىء ، وكان ظهوره بمصر فى سنة مائتين من سنى الهجرة فى أيام عبد الله بن طاهر ، واليه ينسب فيقال البطيخ العبدلى . وأقام عبد الله ابن طاهر على ولاية مصر ثم عزل عنها .

* ثم أعيد السرى بن عبد الحكم الى ولاية مصر ثانيا وذلك فى سنة احدى ومائتين فأقام بها مدة ومات ودفن بمصر .

* ثم تولى من بعده ابنه محمد بن السرى ، وفى أيامه توفى الامام الشافعى محمد بن ادريس رضى الله عنه ، وكانت وفاته فى ليلة الجمعة فى سلخ شهر رجب الفرد سنة أربع ومائتين من الهجرة ودفن بالقرافة الكبرى مقابل تربة القاضى بكار . وقيل مات بعلة البطن ومات وله من العمر أربع وخمسون سنة . وكان مولده بمدينة غزة فى سنة خمسين ومائة ، وهى السنة التى توفى فيها الامام أبو حنيفة رضى الله عنه .

قيل لما مرض الامام الشافعى أوصى بألا يغسله الا أمير البلد . فلما مات حضر محمد ابن السرى أمير البلد ، فقيل له : « ان الامام أوصى بألا يغسله الا أنت » . فقال : « هل توفى الامام وعليه دين ؟ » . فقيل له : « نعم » . فحسبوا ما عليه من الدين فاذا هو سبعون ألف درهم ، فقضاها عنه محمد بن السرى ، وقال هذا غسلى اياه ، وانما كنى عن الدين الذى عليه لأقضيه عنه .

وقيل ان الامام الشافعى أوصى اذا مات بأن السيدة نفيسة رضى الله عنها تصلى عليه . فلما مات أحضروا نعشه عندها فضربت لها ستارة وصلت عليه من خلفها ، ثم حمل من عندها ودفن فى تربته كما تقدم ذكر ذلك .

وقيل ان الامام الشافعى رضى الله عنه لما ساح فى الأرض فى طلب الحديث ، وقصد التوجه الى نحو مصر ، أنشد فى حلقة درسه قبل أن يدخل الى مصر هذين البيتين من نظمه حيث قال :

وانى أرى نفسى تتوق الى مصر
ومن دونها عرض المهامه والقفر

فوالله ما أدرى : أللعز والغنى
أساق اليها ، أم أساق الى قبرى ؟

فكان الأمر كذلك ودفن بمصر ، وكانت وفاته فى أيام الخليفة المأمون .

وأما نسبه — رضى الله عنه — فهو : محمد ابن ادريس بن عثمان بن شافع بن السائب ، متصل النسب الى عبد مناف أحد أجداد رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فهو قرشى . وأما أمه فهى فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين بن الامام على رضى الله عنه .

* وقد قال الكرمانى فيه هذه الأبيات :

الشافعى امام كل أئمة
تربو فضائله على الآلاف

لكننى أوتيت بدعا بارعا
فى وصفه هو سيد الأوصاف

ختم النبوة والامامة فى الهدى
بمحمدين هما لعبد مناف

قيل ان أم الشافعي رضى الله عنه رأت فى منامها وهى حامل أن نجما خرج من بطنها وله ضوء عظيم فسقط بأرض مصر ، ثم طار منه فانتشر فى سائر الآفاق . فقصت هذه الرؤيا على بعض المعبرين فقال لها : « سيخرج من بطنك مولود ويكون من كبار العلماء ، ويخص علمه أهل مصر دون غيرها من البلاد ، ثم ينتشر علمه فى سائر الآفاق » ... وكان كذلك .

وكان الامام — رضى الله عنه — حسن الخلق ، قليل الغضب ، سخى النفس . وقد عاصر الامام مالك بن أنس رضى الله عنه ، وقرأ عليه الموطأ فى المدينة الشريفة . وعاصره أيضا الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه .

ومما يحكى عن الامام الشافعي رضى الله عنه أنه قال : « كنت فى المسجد جالسا ، واذا بلص قد سرق نعلى من غير علمى ، ثم مضى الى بيتى فقال للجارية ان الامام قد سرق نعله ، ولم يجد ما يمشى فيه ، فأرسلوا له نعلا حتى يجىء به الى البيت . فبينما أنا جالس فى المسجد واذا بالجارية قد أقبلت من باب المسجد ومعها نعل فقلت لها : وما هذا ؟ فقالت : قد جاء الينا رجل وقال لنا ان الامام قد سرق نعله ولم يجد ما يجىء به الى البيت فأتوا اليه بنعل غيره فعلمت ان القائل للجارية هو اللص ، فتعجبت من لطافة هذا اللص اذ لم يدعنى أجىء الى بيتى حافيا » .

ومن فضائل الامام الشافعي رضى الله عنه أن فى مدة حياته لم يقع الطاعون بمصر وهو بها ، ولا وقع فى غيرها من البلاد فى مدة حياته طاعون وذلك لنحو من خمسين سنة ... نقل ذلك ابن حجر .

ومن هنا نرجع الى أخبار أمراء مصر .

* ثم تولى من بعد محمد بن السرى أخوه عبيد الله بن السرى ، تولى على مصر فى سنة ست ومائتين من الهجرة .

وفى أيامه توفيت السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وكانت وفاتها فى شهر رمضان سنة ثمان ومائتين من الهجرة ، ودفنت بالمراغة . وكان لها كرامات خارقة ، وأسرار صادقة .

قال شمس الدين بن خلكان فى تاريخه : هى نفيسة بنت الامام حسن بن زيد بن الحسن بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين . أتت من مكة الى مصر مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق رضى الله عنه . وقيل بل دخلت مصر مع أبيها الأمير حسن . وقيل كان لها أولاد من زوجها اسحق ابن جعفر الصادق رضى الله عنه . قال ابن خلكان ان الامام الشافعي رضى الله عنه حضر عندها وأخذ عنها الحديث . وبالجملة ان الدعاء عند قبرها مجاب . وقيل ماتت ولها من العمر نيف وسبعون سنة .

* ثم أعيد الأمير عبد الله بن طاهر الى ولايته على مصر ثانيا ، فأقام مدة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عيسى بن يزيد الجلودى . تولى على مصر فى سنة ثلاث عشرة ومائتين ، فأقام بها نحو سنة ثم عزل عنها .

* وتولى الأمير عمير بن الوليد التميمى ، تولى على مصر فى سنة أربع عشرة ومائتين ، فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها .

* ثم أعيد الأمير عيسى بن يزيد ثانيا ، ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده عبدويه بن جبلة . تولى على مصر فى سنة خمس عشرة ومائتين ، فأقام بها مدة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عيسى بن منصور

المرافقى . وفى أيامه خرج أهل مصر عن طاعة الخليفة المأمون ، وامتنعوا عن وزن الخراج ، وطردوا العمال عن البلاد ، وكانت فتنة عظيمة بمصر حتى كادت أن تخرب عن آخرها ، وعظم الأمر حتى قدم الخليفة المأمون الى مصر وخمدت هذه الفتنة ، ومهد البلاد ، وعزل عيسى بن منصور المرافقى عن مصر .

* ثم تولى من بعده الأمير نصر السعدى المسمى كيدر ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده المظفر ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عيسى بن منصور المرافقى ، فأقام بها مدة ثم عزل عنها فى سنة تسع عشرة ومائتين .

* ثم تولى من بعده الأمير موسى بن على ، فكانت مدة ولايته على مصر نحو شهر ويومين وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده مالك بن كيدرة ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده على بن يحيى الأرمنى فى سنة خمس وعشرين ومائتين ، ولم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده هرثمة بن نصر الجبلى .

* ثم تولى ابنه جانم .

* ثم تولى اسحق بن يحيى .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الواحد المسمى حوط . تولى على مصر فى سنة ست وثلاثين ومائتين فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده عنبسة بن اسحق بن شمر . تولى على مصر فى سنة ثمان وثلاثين ومائتين . وفى أيامه أتى بنو الأصفر الى ثغر دمياط ، وهجموا على أهلها ، وقتلوا جماعة من المسلمين وأسروا منهم جماعة ، فجاء الخبر الى مصر بذلك فى يوم عيد النحر ، فنودى بالنفير عاما ، فخرج أهل الفسطاط جميعا وتوجهوا الى ثغر دمياط ، وتحاربوا مع بنى الأصفر ، فانتصر عليهم عنبسة وأسر منهم جماعة وهرب الباقون جميعا ، ورجع عنبسة الى مدينة الفسطاط فأقام بعد ذلك مدة ومات ودفن بها .

* ثم تولى من بعده الأمير يزيد بن عبد الله التركى ، وكان من الموالى . تولى على مصر فى أيام الخليفة المتوكل على الله جعفر ، وهو الذى بنى المقياس الجديد فى جزيرة الفسطاط وأبطل المقياس الذى بناه أسامة بن زيد التنوخى فى أيام خلفاء بنى أمية ، وصار العمل فى قياس النيل على هذا المقياس الجديد الى الآن . وكان بناؤه فى سنة سبع وأربعين ومائتين .

* ثم تولى من بعده مزاحم بن خاقان التركى ، فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده ابنه أحمد ، ولم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده أرخور التركى ، وكان من الموالى . تولى فى أيام المتوكل فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير محفوظ بن سليمان . تولى فى أيام المتوكل أيضا فكان يقول : « انى تأملت أرض مصر فوجدتها اذا بلغ النيل ستة عشر ذراعا فقد وفى خراج مصر تاما ، وان زاد ماء النيل بعد ذلك ذراعا واحدا نقص من الخراج مائة ألف دينار لما يستبحر من بطون الأراضى التى هى واطية ، واذا زاد خمسة عشر ذراعا ثم هبط حصل للناس الضرر الشامل واستسقى أهل مصر لذلك

وقع بها الغلاء . ولو أن أراضى مصر تزرع كلها
وفت بخراج الدنيا كلها بأسرها » .

قال محفوظ بن سليمان أمير مصر : « تبقى على
خراج مصر فى أيام المتوكل ثلثمائة ألف دينار ،
رسل فأحضرنى فى الحديد . فلما وصلت الى
داد دخلت عليه بعد أن فرغ من صلاة الفجر وأنا
أعقل من الوهم ، فأصبته جالسا وفى يده درج
تتوب بماء الذهب . فلما أبصرنى قال : من أنت ؟
لت : عبدك محفوظ بن سليمان . فقال : ويحك !
ساعة دخلت علىّ فيها ! فقلت : فى ساعة خير
مير المؤمنين . فقال : هل تدرى ما فى هذا الدرج
ى فى يدى ؟ فقلت : لا والله ياسيدى . فقال :
مما أنزل على دانيال عليه السلام . يقول الله
لى : « عند تناهى شدتى يكون فرجى ، وعند
ول بلائى يكون رجائى ، وفى مثلى فليطمع
امعون » . اذهب يامحفوظ فقد وهبت لك
عليك من المال ووليتك على مصر ، فامض
شدا . وأمر بنزع قيودى وخلع على خلعة
ية » .

وقد قيل فى المعنى :

ما خاب عبد على الله الكريم له
توكل صادق فى السر والعلن

حاشاه أن يحرم الراجى اجابته
اذا دعاه لكشف الهم والحزَن

واستمر الأمير محفوظ بن سليمان فى ولايته على مصر حتى مات ودفن بها فى سنة أربع وخمسين ومائتين .

* ثم تولى من بعده الأمير أحمد بن محمد بن المدبر . فلما تولى على مصر أحدث بها أنواعا من المظالم فى جهات متعددة : منها أنه حجر على الأطرون بعد ما كان مباحا للناس ، ومنها أنه قرر على الرعاة ما كانوا يرعونه من المراعى فى الفلاة ، وصير عليهم قدرا معلوما ، ومنها أنه قرر على صيادى السمك قدرا معلوما ، وأحدث أشياء كثيرة من هذا النمط ... فهذه أول شدة لحقت أهل مصر من المظالم . وقد انحط خراجها فى هذه الأيام الى الغاية حتى بقى ثمانمائة ألف دينار بعدما كانت تجبى فى أيام خلفاء بنى أمية اثنى عشر ألف ألف دينار بغير مكوس .

ثم صارت مصر تتزايد من هذه الأحوال الفاسدة ، وقد آل أمرها الى الخراب ، حتى تولى أمرها الأمير أحمد بن طولون ، واستقل بها ، وانفرد وادعى بها الأمر لنفسه ... وذلك فى أيام محمد المعتز بالله بن جعفر المتوكل .



الدولة الطولونية

قال ابراهيم بن وصيف شاه : « كان طولون والد الأمير أحمد أصله من مماليك الخليفة المأمون ، فولد له الأمير أحمد هذا ، فلما انتشأ طلع شجاعا بطلا عالى الهمة سعيد الحركات ، تولى على مصر فى أواخر خلافة المتوكل فى سنة خمس وخمسين ومائتين . ولما دخل مصر كان فى أضيق حال ، يحتقره كل من يراه . قيل كان بمصر رجل من الأعيان يقال له على بن معبد البغدادى ، وكان فى سعة من المال ، فلما بلغه حضور الأمير أحمد خرج الى تلقيه ، فلما رآه فى ضيق حال أرسل اليه عشرة آلاف دينار فقبلها ، ورأى بها موقعا ، وحظى ذلك الرجل عنده ، فكان لا يتصرف فى شىء من الأمور الا برأى ذلك الرجل . وتضاعفت عنده منزلته الى الغاية » .

قال ابن وصيف شاه : « لما تولى الأمير أحمد ابن طولون على مصر أخذ فى أسباب عمارة قرى مصر وعمارة جسورها وقناطرها ، وحفر خلجانها وسد ترعها ، فاستقامت أحوال الديار المصرية فى أيامه بعد ما كانت قد تلاشى أمرها الى الخراب ، وانحط خراجها فى أيام من تقدمه من العمال . فلما حصلت العمارة والعدل عم الرخاء سائر أعمال الديار المصرية حتى بيع القمح فى أيامه كل عشرة أرادب بدينار ، وعلى هذا فقس فى جميع البضائع . ووصل خراج مصر فى أيامه — مع وجود هذا الرخاء — أربعة آلاف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار غير المكوس » .

قال ابن وصيف شاه : « فلما تم أمر الأمير أحمد ابن طولون فى ولايته على مصر ، واستقامت أحواله بها استكثر من مشترى المماليك الديالمة حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك ، وبلغ مشترى عبيده أربعين ألفا من العبيد الزنج ، واستكثر من شناترة العرب حتى بلغت عدتهم سبعة آلاف انسان . فعند ذلك سطا على الخلفاء ، وادعى الخلافة لنفسه بمصر ، وانفرد بخراجها . فحاربه الخليفة المعتضد بالله أشد المحاربة فلم يقدر عليه ، فخضع له وأرسل يخطب ابنة ابنه الأمير خمارويه — وهى الست قطر الندى — فأصدقها مائة ألف دينار . وأتت من مصر الى بغداد فى محفة ، وكانت مدة توجهها من الديار المصرية الى بغداد ستة أشهر ، فكانت تمشى كما تمشى السحابة . فلما حضرت الى بغداد دخل عليها المعتضد بالله وزفت عليه ، وكان لهما مهم عظيم . وأحبها المعتضد بالله حبا شديدا ، وأقامت معه حتى ماتت » .

قيل ان النجوم تطايرت فى السماء شرقا وغربا فى أيام الأمير أحمد بن طولون وذلك سنة احدى وأربعين [1] ومائتين ، فارتاع الأمير أحمد من ذلك وأحضر أرباب الفلك وسألهم عن ذلك فما أجابوا بشىء ، فصار الأمير أحمد متطيرا من ذلك فدخل عليه الشاعر المسمى بالجمل — وهو جالس فى موكبه — وأنشده هذه الأبيات :

قالوا تساقطت النجو	م لحادث أبدا عسير
فأجبت عند مقالهم	بجواب محتنك خبير
هذى النجوم الساقطا	ت رجوم أعداء الأمير

(1) لعلها احدى وستين .

، الأمير أحمد بذلك ، وخلع على الشاعر
لعة سنية .

ن وصيف شاه : « خرج الأمير أحمد بن
وما على سبيل التنزه الى نحو الأهرام ،
، يسير اذ غاصت قوائم فرسه فى الأرض ،
ف ذلك المكان ، فلما كشفه اذا هو مطلب
، يوسفية ، فنقلها الى خزائنه على ظهور
لشكاير » .

حاله فأخذ فى أسباب بناء الجامع المعروف
ن بناؤه فى سنة ستين ومائتين . قيل انه
، بنائه مائة ألف دينار .

قضاعى ان الأمير أحمد بن طولون وضع
ذا الجامع على مكان يسمى جبل يشكر ،
ا الجبل يشرف على بحر النيل قبل حفر
كتين اللتين احداهما تعرف ببركة الفيل ،
تعرف ببركة قارون . وقيل ان جبل يشكر
ور باجابة الدعاء ، وسبب ذلك أن موسى
م ناجى ربه عليه فى بعض الأوقات ، وهو
رك . قيل ان النمل دار على محراب هذا
وضعوا أساسه ، فبنوا على ذلك الخط
مه النمل المحراب ، ويسمى محراب النمل
ورئى النبى صلى الله عليه وسلم فى
مرار يصلى فى ذلك المحراب . فلما بنى
د هذا الجامع قرر به جماعة من العلماء
، وأجرى عليهم الرواتب والصدقات ،
، كل يوم راتب من الطعام والخبز — حتى
الفاكهة وغير ذلك — وكان هذا مستمرا
م . وأنشأ به مارستانا برسم الضعفاء ،
قبل ذلك بمصر مارستان غيره ، فكان
على هذه الرواتب والصدقات فى كل يوم
ى دينار .

الأمير أحمد يرسل فى كل سنة الى فقراء
بغداد مائة ألف دينار برسم الصدقات ، ويرسل
اليهم فى كل سنة بكسوة الشتاء والصيف دائما فى
مدة ولايته على مصر .

قال الشيخ أبو الحسن بن حماد ، وكان من
كبار العلماء : « كنت راقدا فى بعض الليالى فى
منزلى ، واذا بالباب يدق فى نصف الليل ، فنظرت
من الطاق ، واذا برجال ومعهم مشاعل ، فوقفوا
على باب منزلى ، فقلت : ما تريدون ؟ قالوا :
أبا الحسن ابن حماد ؟ فقلت : هاهو أنا . فقالوا :
امض فان الأمير أحمد قد طلبك فى هذه الساعة .
فارتعدت أعضائى ، فخرجت معهم وركبت بغلتى
وأنا آيس من الحياة . فلما وصلت الى دار الأمير
أحمد دخلت وسلمت على حاجب الباب فقال لى :
ادخل وخذ فى مشيك عن يمينك ، واحترز أن تقع فى
البحرة . وكانت ليلة مظلمة من ليالى الشتاء .
فمشيت حتى بلغت ضوء الشمع ، فوقفت هناك
ساعة واذا بالأمير أحمد فى قبة لطيفة وهو نائم
على ظهره وبين يديه شمعتان ، فوقفت طويلا ، فلما
علم بى قال : أبو الحسن ؟ فقلت : نعم . فقال :
ادخل . فدخلت ووقفت بين يديه فقال لى : اجلس
فجلست ، فقال لى : لأى شىء تصلح هذه القبة ؟
وكانت قبة لطيفة يجلس فيها نحو أربع أنفس ،
فقلت : تصلح للذكر وقراءة القرآن ومطالعة العلم
ومنادمة المحبين . فتبسم ثم قال : ما تقول فى هذه
المسألة ؟ فقلت : يقول الأمير أيده الله بنصره . فقال:
ما تقول فيمن سلط على شىء ففعله ... فهل يعذب
عليه ؟ قال أبو الحسن : فعلمت أن المسألة ناشئة
عنه ، فقلت على الفور : لو كان كل مسلط معذبا
لكان ملك الموت أشد الناس عذابا يوم القيامة .
فلما سمع ذلك استوى جالسا وقال : كيف قلت ؟
فقلت : لو كان كل مسلط معذبا لكان ملك الموت
أشد الناس عذابا يوم القيامة . ثم سكت طويلا

وقال : انصرف الى منزلك . فخرجت من عنده وأنا لم أصدق بالنجاة . فلما خرجت من عنــده تبعنى الحاجب بكيس فيه مائة دينار ، وانصرفت الى منزلى وأنا أرعد من الخوف » .

قال ابن وصيف شاه : « كان راتب مطبخ الأمير أحمد بن طولون فى كل يوم ألف دينار تصرف فيما يحتاج اليه أمر الطعام والحلوى والفاكهة والسكر والشمع وغير ذلك . وكان منتهى حكمه من مصر الى الفرات ، ومن مصر الى بلاد المغرب » .

قال جامع السيرة الطولونية : « كان بمدينة عين شمس — وهى التى تسمى الآن المطرية — صنم من الكــذان الأبيض على قدر خــلقة الانســان المعتدل ، وكان محكم الصــناعة يكاد أن ينطق ، فقصد الأمير أحمد أن ينظر اليه ، فنهاه عن ذلك بعض الكهــان وقال له : أيها الأمير ، لا تنظر الى هذا الصنم فما نظر اليه أحد من ولاة مصر الا عزل عنها فى سنته . فلم ينته الأمير أحمد عن ذلك وركب وتوجه الى مدينة عين شمس ، ولم يزل حتى رأى ذلك الصنم ، فأمر باحضار القطاعين فكسروه قطعا ولم يبق له أثر . فلما رجع الأمير أحمد الى داره لم يقم بعــد ذلك سوى عشرة أشهر ، ثم مرض وتسلسل فى المرض ، فاضطربت مصر بسبب مرضه وخرج الناس قاطبة الى الصحارى ، وفعلوا مثــل ما يفعلون فى الاستسقاء ، فخرج الناس حفاة وعلى رءوسهم المصاحف ، وخرج اليهود وعلى رءوسهم التوراة ، وخرج النصارى وعلى رءوسهم الأناجيل ، وخرج الأطفال من المكاتب وعلى رءوسهم الألواح ، وخرج سائر العلماء والصلحاء وهم يدعون الله تعالى له بالعافية والشفاء » .

فاستمر الأمير أحمد فى ذلك المرض حتى مات به ، فكانت وفاته فى سنة تسع وستين ومائتين ، فكانت مدة ولايته بمصر نحو اثنتى عشرة سنة ، وكان يقول فى مرضه : « رب ارحم من جهل مقدار نفسه وقد أبطره وغره حلمك ياأرحم الراحمين » .

وكان الأمير أحمد ملكا عادلا فى الرعية كريما سخيا ، منقادا الى الشريعة ، يحب العلماء والصلحاء . وكان يصلى على من يموت فى البلد — من فقير أو غنى — بنفسه ، ويحضر دفنهم ، ويحب فعل الخير ، كثير البر والصــدقات ، وكان له اشــتغال بالعلم وطلب الحديث ، وكان نافذ الكلمة وافر الحرمة ... حكم فى أيام ولايته من مصر الى الفــرات ، ومن مصر الى بلاد المغرب ، وعم العدل منه سائر الجهات حتى تخيروه على خلفــاء بغــداد . وكانت أفعاله جميلة ... غير أنه كان ســفاكا للدماء ، شــديد الغضب ، سيىء الخلق ، قيل مات فى حبسه ثمانية عشر ألف انسان .

ولما مات الأمير أحمــد دفن بالقــرب من باب القرافة . قال بعض الثقات : كنت أرى شيخا من أهل العلم يقرأ على قبر الأمير أحمد بن طولون فى كل يوم ، ثم رأيته ترك القراءة ورجع عن ذلك ، فسألته عن سبب ذلك فقال لى : كان للأمير أحمــد على بعض احسان فأحببت أن أصله بعد موته بشىء من القرآن ، فرأيته فى بعض الليالى فى المنام فقال لى : يافلان ، لا تبق تقرأ على قبرى شيئا ، فالى ما تمر بى آية الا قيل لى أما سمعت هذه الآية فى دار الدنيا ... فهلا كنت تعمل بها ؟ وما رأيت أشد على رؤساء الدنيا من الحجاب فى كتمهم لحوائج المظلومين عن الحكام . ثم أنشد يقول :

ولو أنا اذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حى

ولكنا اذا متنا بعثنــا ونسأل بعد ذا عن كل شى

مع أن الأمير أحمد كان فيــه الخير ، وأبطل فى أيامه جمــلة مكوس كانت حــدثت بمصر ، أيام أحمد بن المدبر .

قال ابن وصيف شاه : « لما توفى الأمير أحمد بن طولون خلف من الأولاد ثلاثة وثلاثين ولدا ، منهم سبعة عشر ذكورا وباقى ذلك اناث ، وخلف من الذهب العين عشرة آلاف ألف ألف دينار ، وخلف من المماليك المشتروات سبعة آلاف مملوك ، ومن العبيد السود أربعة وعشرين ألف عبد ، وخلف من الخيول سبعة آلاف فرس ، ومن البغال والحمير ستة آلاف رأس ، وخلف من الجمال عشرة آلاف جمل ، ومن المراكب الحربية والشوانى ألف مركب ، وخلف من اللؤلؤ والجواهر واليواقيت مائة صندوق ، وخلف من التحف والفرش ما لا يحصى عدده ... وهذا خارج عن الضياع والأملاك والبساتين وغير ذلك » .

وكان خراج مصر فى أيامه أربعة آلاف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار بعد اسقاط المكوس — وهو نحو مائة ألف دينار — مع وجود الرخاء وانحطاط سعر الغلال فى زمانه .

ولما مات رثاه بعض الشعراء بهذه الأبيات :

خذ القناعة من دنياك وارض بها
واقصد لنفسك منها راحة البدن

وانظر لمن قد حوى مصرا وما جمعت
هل راح منها بغير القطن والكفن

ولما مات الأمير أحمد بن طولون تولى من بعده ابنه خمارويه .

الأمير خمارويه

تولى على مصر بعد أبيه الأمير أحمد ، ومشى على نظامه وطريقته ، واستكثر من المماليك وزاد فى عسكره شنائرة العرب الشجعان حتى بلغوا نحو عشرة آلاف انسان . وكان يحب الجياد من الخيل فاستكثر منها حتى ضاقت بها الاصطبلات ، وكان لها أنساب مثبتة فى الدواوين كأنساب الناس المعروفة .

قال ابن وصيف شاه : « كان الأمير خمارويه مولعا بالعمارات وغرس الأشجار . قيل انه أنشأ ميدانا بالقرب من جامع أبيه ، ونقل اليه الأشجار من سائر البلاد الهندية والشامية حتى من خراسان ومن مكة ومن اليمن ، فكان به سائر الفواكه وسائر الرياحين ، حتى الكادى والقرنفل والسنبل والزعفران وجوز الهند وغير ذلك من أنواع الفواكه والزهورات والرياحين والأشياء الغريبة التى لم تزرع قط بمصر ، ثم زرع أشياء من أنواع الرياحين وجعلها كالسطور تقرأ ، مثل « حسبنا الله ونعم الوكيل » وما أشبه ذلك من الألفاظ ، ووكل بتلك السطور رجالا بأيديهم مقاريض من الذهب والفضة يصلحون بها ما يفسد من الأوراق ويخرج عن قالب الاعتدال فى الأحرف حتى يستقيم الكلام فى معناه . ثم انه ألبس قوائم الأشجار الكبار بالنحاس الأصفر وطلاه بالذهب ، فكانت الشمس اذا طلعت على تلك الأشجار لا يقدر أحد أن ينظر اليها من شدة اتقاد ذلك النحاس المموه بالذهب ، وكان يسحق المسك والكافور وينثره على تلك الرياحين السطور ...

« وصنع فى ذلك البستان بحيرة كبيرة وملأها من الزئبق . وكان يضع على ذلك الزئبق فراشا من جلد خباه أنعم من الحرير ، وكان له حركات تمتلىء بالريح ثم يسد فاه بحبل ويطرح ذلك الفراش على ذلك الزئبق وينام عليه » .

قال بعض المؤرخين ان خمارويه هذا كان يعتريه ضربان المفاصل ، وكان يضع ذلك حتى يجد له راحة وينام ساعة من الليل .

قال ابن وصيف شاه : « خرج خمارويه يوما

الى الفضاء على سبيل التنزه ، فلقيه أعرابى فأخذ بعنان فرسه وأنشد :

ان السنان وحد السيف لو نطقا
لحدثا عنك فى الهيجاء بالعجب

أفنيت مالك تعطيه وتبذله
يا آفة الفضة البيضاء والذهب

فلما سمع خمارويه هذه الأبيات قال لغلامه : ادفع اليه ما معك فى الخريطة . فوجد فيها خمسمائة درهم فدفعها اليه . فقال الأعرابى : زدنى أيها الأمير فمثلك من يزيد . فقال خمارويه للمماليك : اطرحوا عليه مناطقكم وسيوفكم ، وكانت مسقطة بالذهب . فقال الأعرابى : ومن يحمل لى ذلك ؟ فأمر له ببغل ، فحمل ذلك ومضى . فلما رجع خمارويه الى قصره فرق على المماليك سيوفا ومناطق عوضا عما أخذ منهم .

الافضل امير الجيوش بدر الجمالى

واستمر خمارويه فى ولايته على مصر حتى توفى بها ودفن عند أبيه ، ثم تولى من بعده ابنه الأفضل أمير الجيوش بدر الجمالى . وهو صاحب سوق مرجوش .

قال القضاعى : ان الأفضل هذا هو الذى حفر خليج أبى المنجى ، وكان المتولى أمر حفر هذا الخليج أبو المنجى شعيا اليهودى فعرف به من يومئذ . وقال القضاعى ان الأفضل هو الذى بنى المسجد المطل على بركة الحبش المعروف الآن بالرصد ، وانما سمى بالرصد لأنه كما قيل كان فوقه صورة من النحاس الأصفر قدرها نحو قنطار وهى مركبة على أعمدة من الرخام الأبيض بسبب تحرير الساعات لأجل وقت دخول الصلاة . ولم ينسب الى الحاكم بأمر الله فى بنائه شىء وانما هى اشاعة بين الناس فى نسبته الى الحاكم .

ومن الحوادث فى أيام الأفضل أنه فى يوم الجمعة ثانى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين ، هاجت بالديار المصرية ريح سوداء ، واشتد هبوبها ، وأظلم الجو حتى ظهرت النجوم بالنهار ، فارتاع الناس من ذلك وتوجهوا الى المساجد يبتهلون الى الله تعالى بالدعاء . فلم تزل تلك الرياح عاصفة من العصر الى المغرب ، ثم بعد ذلك سكن الريح وانجلت تلك الظلمة وعادت الناس الى دكاكينهم بعد ما تركوها مفتوحة ومضوا الى المساجد .

وفى أيامه توفى الشيخ بنان الجمال رضى الله عنه ، وكان صاحب كرامات خارقة ، ودفن تحت الجبل المقطم بالقرافة .

واستمر الأفضل فى ولايته على مصر حتى مات بها ودفن فى المسجد الذى فى حارة برجوان . وكانت وفاته فى سنة احدى وتسعين ومائتين .

هارون بن بدر الجمالى

ثم تولى من بعده ابنه هارون ، فلما تولى على مصر لم يستقم أمره بها وعزل عنها ، فكانت مدة ولايته على مصر ثمانية أشهر وأياما .

❋ ❋ ❋

❋ ثم تولى من بعد الأمير شيبان من ولد الأمير أحمد بن طولون ، وكان يكنى بأبى المناقب . تولى على مصر فى سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، فلم تطل مدته بها وعزل عنها .

❋ ثم تولى من بعده الأمير عيسى الدنوشرى ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها . ومن الحوادث فى أيامه أنه وقعت صاعقة عظيمة فى مدينة الفسطاط فأحرقت عدة أماكن .

❋ ثم تولى من بعده أبو الحسن المسمى

بكا الأعور . تولى على مصر فى سنة ثلاث وثلثمائة ، فأقام بها مدة يسيرة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده شخص يسمى تكين التركى . تولى على مصر مرتين ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده شخص يسمى هلال ابن بدر المصرى فى سنة تسع وثلثمائة ، ولم نطل أيامه بها ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده شخص يسمى أحمد ابن كيغلغ ، فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها .

* ثم أعيد تكين التركى الى ولايته بمصر ثالث مرة ، فكانت ولاية أحمد بن كيغلغ وعود تكين فى سنة واحدة وهى سنة احدى عشرة وثلثمائة . ولم تزل الأحوال مضطربة بمصر حتى ابتدأت دولة الاخشيدية .



الدولة الإخشيدية

قال الكندي : ان أول من تولى بمدينة فرغانة يسمى الاخشيدى ، فكان أول من تولى منهم أحمد بن كيغلغ ، ومحمد بن طغج ، وأبو القاسم على ، وأبو بكر بن محمد بن طغج ، وخادمهم كافور . وأما أحمد بن كيغلغ ومحمد بن طغج فتوليا على مصر كل واحد منهما مرتين ، ولم تطل أيامهما بها .

* وأما أبو القاسم على فانه تولى على مصر فى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة ، وفى أيامه وقع الغلاء بمصر واستمر تسع سنين متوالية . وسبب ذلك أن النيل كان ينتهى فى زيادته الى خمسة عشر ذراعا وأربعة عشر أصبعا ، واستمر فى كل سنة يزيد هذه الزيادة الخسيسة الى سنة تسع وأربعين وثلثمائة ، فوقع الغلاء بسبب ذلك فى هذه السنين .

* ثم توفى عقيب ذلك الأمير أبو القاسم على الاخشيدى ، وتولى الأمير أبو بكر بن محمد ابن طغج على مصر مدة طويلة نحو عشرين سنة . وفى أيامه استقامت أحوال الديار المصرية ، وانصلحت أحوال الناس ، واستكثر من العساكر ورتب لهم الرواتب والجوامك فى كل شهر ، فبلغت عدة عساكره بمصر والشام نحو أربعمائة ألف فارس ، وبلغ خراج مصر فى أيامه ألفى ألف دينار . قيل ان الوزير عمل لأولاده فى ليلة الغطاس فوانيس شمع مزهر ، فكان مصروف ذلك مائة وعشرين ألف دينار .

واستمر الأمير أبو بكر فى ولايته على مصر حتى توفى فى سنة خمس وخمسين وثلثمائة ودفن بمصر ، فكانت مدة ولايته بها نحو عشرين سنة .

ولما مات الأمير أبو بكر رثاه الشاعر الماهر أبو الطيب المتنبى بهذه الأبيات :

هو الزمان مشت بالذى جمعا
فى كل يوم ترى من صرفه بدعا

لو كان ممتنع تغنيه منعته
لم يصنع الدهر بالاخشيد ما صنعا

ذاق الحمام فلم تدفع عساكره
عنه القضاء ولا أغناه ما جمعا

لو يعلم اللحد ما قد ضم من كرم
ومن فخار ومن نعماء لاتسعا

يالحد طل ان فيك البحر محتبسا
والليث مهتصرا والجود مجتمعا

يايومه لم تخص الفجع فيه لقد
كل الورى بردى الاخشيد قد فجعا

* ولما مات الأمير أبو بكر تولى من بعده خادمه أبو المسك كافور الاخشيدى . فلما تولى على مصر مشى على طريقة أستاذه الأمير أبى بكر وأطاعه أهل مصر . ثم انه استجدّ فى عسكره جماعة كثيرة من طوائف البربر . ومما وقع له أنه كان جالسا فى موكبه فى يوم عيد فدخل عليه طائفة من التكرور وهم يرقصون ومعهم طبل وطنبور ، فلما رقصوا بين يديه طرب منهم وحرك كتفيه ، ثم انه استدرك فارطه فصار يحرك كتفيه فى كل ساعة من الليل والنهار حتى مات ، وقال : هذا مرض يعترينى . ولم يخرج عن ناموسه .

قيل وكانت علامة على مراسيمه « القلم بمده ، والسيف بحده ، والعبد بسعده ، لا بأبيه ولا بجده » .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى فى تاريخه : « كان راتب كافور الاخشيدى فى مطبخه فى كل يوم ألفى رطل من اللحم البقرى ، وسبعمائة رطل لحم ضأن ، ومائة طير أوز ، وثلثمائة طير دجاج ، وثلثمائة فرخ حمام ، وعشرين فرخ سمك كبار ، وعشرين رميسا رضع ، وثلثمائة صحن حلوى ، وسبعة أفراد فاكهة ، وألف كوز تفاح ، ومائة قربة من السكر ، وألف كماجة ، وخمسة أفراد بقولات . وكان يحضر على سماطه الخاص والعام » .

قيل وقعت زلزلة عظيمة بمصر فى أيامه فخاف الناس من ذلك ، وهربوا الى الجبال ، فدخل محمد بن عاصم الشاعر على كافور وهو فى موكبه فأنشده قصيدة عظيمة منها هذا البيت :

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها
لكنها رقصت من عدله طربا

فلما سمع كافور ذلك أجازه على هذه القصيدة بألف دينار ، وهذه الجائزة التى هيجت المتنبى حتى دخل الى مصر ومدح كافورا بقصائد سنية وهى ثابتة فى ديوانه الى الآن .

قيل وقع حريق عظيم فى أيامه بمصر ، وعملت النار من سوق البزازين الى قيسارية العسل ، ودخل الليل والنار على حالها ، فبات الناس على وجل من ذلك ، فركب كافور وأمر المنادى ينادى بأن من جاء بقربة فيها ماء فله مائة درهم ، فجاء الناس بالقرب وفيها الماء فأطفأوا تلك النار ، فكان عدة ما احترق فى هذه الواقعة ألفا وسبعمائة دار غير البضائع والأقمشة التى احترقت للناس .

وفى أيامه وقع الغلاء بمصر . وسبب ذلك أن النيل بلغ فى الزيادة الى اثنى عشر ذراعا وتسعة عشر أصبعا ثم هبط ، فشرقت الأراضى ووقع الغلاء ، وكان ذلك فى سنة ست وخمسين وثلثمائة .

قال الكندى : « وكان من آثار عجائب القدماء الى أيام كافور الاخشيدى حوض من رخام أخضر مدور وعليه كتابة لا تقرأ بالقلم القديم ، وهذا الحوض كان فى بحر النيل عند طرا ، فاذا جلس فيه واحد من الناس أو أربعة وحركوه يعدى بهم من جانب الى جانب . فأخذه كافور من البحر وألقاه فى البر فبطل فعله من يومئذ » .

واستمر كافور الاخشيدى فى ولايته على مصر الى أن مات فى سنة سبع وخمسين وثلثمائة ودفن بالقرافة الصغرى ، فكانت مدة ولايته على مصر نحو ثلاث سنين ، وهو آخر من تولى على مصر من الأمراء .

قال ابن وصيف شاه : « تولى على مصر من الأمراء اثنان وسبعون أميرا ، أولهم عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وآخرهم أبو المسك كافور الأخشيدى ، ودفن غالبهم بمصر . ومن مبتدأ ظهور الاسلام من حين فتحت مصر على يد عمرو ابن العاص وأخذها من يد المقوقس عظيم القبط لم ينفرد بملك مصر أحد من أمرائها ويستغل خراجها له سوى الأمير أحمد بن طولون فى مدة ولايته عليها » .

ولما مات الأمير كافور اضطربت أحوال الديار المصرية غاية الاضطراب ، وطمع أهل القرى فى الجند ، وامتنعوا عن وزن الخراج ، فعند ذلك كتب أعيان مصر الى المعز الفاطمى — وكان ببلاد الغرب — بأن يحضر الى الديار المصرية ، ويتسلم المدينة ويتولى عليها . فلما وقف المعز

على تلك المكاتبات أرسل الى مصر الأمير جوهر القائد الصقلى ، ومعه مائة ألف من عساكر الغرب ، فكان دخول جوهر القائد الى مصر فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، فلما دخل الى مصر لم تعجبه مدينة الفسطاط ، فأخذ فى أسباب عمارة القاهرة .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى فى تاريخه : « لما أراد جوهر القائد أن يبنى سور القاهرة اختط أساس المدينة وجمع أرباب الفلك وأمرهم بأن يختاروا له مطلعا سعيدا حتى يضع فيه أساس المدينة ، فجعل على كل جهة من أساس المدينة ، قوائم من الخشب ، وبين كل قائمة منها حبلا وفيه أجراس من نحاس ، ثم وقفت الفلكية ينتظرون دخول الساعة الجيدة والطالع السعيد حتى يضعوا فيه الأساس . وكان لهم اشارة مع البنائين اذا حركوا تلك الأجراس يلقون ما بأيديهم من الحجارة اذا سمعوا حس الأجراس . فبينما هم واقفون لانتظار الساعة السعيدة ، واذا بغراب وقع على تلك الحبال فتحركت تلك الأجراس فظن البناءون أن الفلكية قد حركوا لهم الحبال التى فيها الأجراس ، فألقوا ما بأيديهم من الحجارة فى أساس السور ، فصاح عليهم الفلكية : لا لا ، القاهر فى الطالع » . يعنون المريخ ، واسمه عندهم «القاهر» ، فقضى الأمر ... » . فكان كما قيل :

يريد المرء أن يعطى مناه
ويأبى الله ألا ما يريد

وكان بناء سور القاهرة فى سنة تسع وخمسين وثلثمائة من الهجرة ، وبنى أولا بالطوب اللبن ، فلما فرغ بناء السور أرسل الأمير جوهر القائد يعرف المعز بفراغ بناء السور فقدم اليها .



الدولة الفاطمية

المعز لدين الله الفاطمي

قال الشيخ شمس الدين الذهبي فى نسبه : « هو المعز أبو تميم معدّ بن المنصور اسماعيل ابن القائم بالله محمد بن المهدى عبيد الله المغربى الفاطمى » . وكان مولده ببلاد الغرب بمدينة أفريقية فى يوم الجمعة تاسع عشر من شوال سنة احدى وأربعين وثلثمائة . وهو رابع خليفة من بنى عبيد الله ببلاد المغرب بمدينة أفريقية .

وفى سبب شرف هذه الفاطمية أقوال كثيرة . فمن الناس من قد نسبهم الى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن الناس من قد نسبهم الى الحسين بن محمد بن أحمد بن قداح ، وكان أصل القداح من أبناء المجوس ، وهذا الأمر عند أرباب التواريخ فى نسبهم مشهور وأكثر الاتفاق عليه .

قال الذهبى : « وكان قدوم المعز الى مصر فى سابع عشر شهر رمضان سنة احدى وستين وثلثمائة ، وقد انقرضت دولة الاخشيدية بموت الأمير كافور » .

قال الشيخ عماد الدين بن كثير : « لما دخل المعز الى مصر دخل معه ألف وخمسمائة جمل موسوقة ذهباً عينا . وكان معه من القماش والتحف مالا يسمع بمثله ، فمن جملة ذلك كان معه قبة من البلور وهى قطعتان يجلس فيهما نحو أربع أنفس ، فكانت اذا نصبت فى الليلة المقمرة تخفى ضوء القمر من شعاعها . وكان معه أربع خواب من البلور كل خابية تسع قدر راوية من الماء ، وكان معه غير ذلك من التحف والعجائب » .

قيل لما أراد المعز أن يتوجه الى مصر حمل معه أجداده الذين ماتوا بمدينة أفريقية ، فحملهم فى توابيت من خشب ، فلما دخل الى مصر دفنهم بالقرافة الكبرى .

قال ابن كثير : « لما دخل المعز الى مصر رأى ما بناه جوهر القائد فلم يعجبه ، وعاب عليه ما بناه ، وقال له : « لقد بنيت هذه المدينة فى وطيئة لا هى بحرية ولا هى جبلية » . وكان قصد المعز لو بناها على شاطىء النيل » .

وقيل ان المعز سمى « القاهرة » أولا « المنصورية » ، فلما بلغه ما وقع للفلكية من أمر القاهر غير اسمها فقال سموها « القاهرة » ، فاستمرت من ذلك اليوم على هذا الاسم .

وقد قالت فيها الشعراء أشعارا كثيرة :

لله قاهرة المعز لأنها
بلد تخصص بالمسرة والهنا
أو ما ترى فى كل قطر منية
من جانبيها فهى مجتمع المنى

وقال آخر فيها :

مصر لها الأفضال اذ لم تزل
على العدا منصورة ظاهرة
ما غولبت ، كلا ولا قوهرت
الا وكانت مصر والقاهرة

قال المسبحى : لما استقر المعز بمصر انفرد بها ولم يدخل تحت طاعة الخلفاء العباسية ، وادعى الخلافة لنفسه بمصر ، وقال نحن أفضل من الخلفاء العباسية لأننا من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان الخلفاء الفاطمية يحكمون من مصر الى الشام الى حلب الى الفرات الى مكة والمدينة الشريفة الى القدس والخليل ، وصارت مصر وبلاد المغرب مملكة واحدة . وكانت الخلفاء العباسية يحكمون من الفرات الى بغداد وأعمالها الى سائر بلاد الشرق . وكان يخطب لكل خليفة منهما فى الجهات التى تحت حكمه باسمه فقط .

ثم ان المعز استكثر من العساكر بمصر فكانوا ما بين كنانة وروم وصقالبة وبربر ومغاربة ، وكانوا فى العدد لا يحصون لكثرتهم حتى قيل : لم يطأ الأرض — بعد جيوش الاسكندر بن فليبش الرومى الكبير — أكثر من جيوش المعز الفاطمى . ثم انه بنى قصر الزمرد مكان دار الضرب ، وكان جوهر القائد وزيره ومدبر مملكته .

وجوهر هذا هو الذى بنى الجامع الأزهر ، وكان بناؤه فى سنة احدى وستين وثلثمائة . وكانت له فى مصر حرمة وافرة ، وكان خراج مصر فى أيامه ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار . وكان خراج مصر قد انحط فى أيام من تولى قبله من الأمراء فجدد الأمير جوهر ما فسد من عمارة القناطر والجسور وغير ذلك حتى استقامت أحوال الديار المصرية فى أيامه .

ولما تولى المعز على مصر منع القبط مما كان يعمل فى يوم النيروز من صب المياه على الناس فى الطرقات ، وايقاد النار فى تلك الليلة ، وكانوا يخرجون فى ذلك عن الحد . ومنعهم أيضا مما كان يعمل فى ليلة الغطاس من النزول فى المراكب وضرب الخيام على شاطىء بحر النيل عند المقياس ، فأشهر النداء بابطال ذلك جميعه ، وهدد من يفعل ذلك بالشنق ، فرجع الناس عن ذلك فى أيامه ، وكان يحصل من هذه الأفعال غاية الفساد بمصر فى تلك الأيام .

قال المسبحى فى تاريخه ان امرأة وقفت للمعز وهو فى موكبه وأنشدت :

تحطمنا ريب الزمان كأننا

زجاج ولكن لا يعاد له سبك

فقال لها المعز : « من أنت أيتها المرأة ؟ » . فقالت : « أنا زوجة الأمير أبى بكر بن محمد بن طغج الاخشيدى صاحب مصر » . فقام اليها المعز ، وقال : « ما حاجتك ؟ » . فقالت : « انى قد أودعت بغلطاقا لى عند شخص يهودى ، فأقام عنده مدة ، ثم انى طلبته منه فأنكره ، فقلت له : خذ منه ما تختار من جواهره وأعطنى الباقى ، فأبى وامتنع من الاعطاء ، وأنكر ذلك أصلا » . فلما سمع المعز ذلك أرسل خلف اليهودى وسأله عن أمر البغلطاق الذى أودعته عنده زوجة الأمير أبى بكر الاخشيدى ، فأنكره ولم يعترف به ، فأمر بشنقه . فلما تحقق ذلك اعترف به فأمره المعز باحضاره ، فلما أحضره بين يديه تحير مما فيه من الجواهر واللآلىء . ثم انه وجد اليهودى قد سرق من صدر ذلك البغلطاق درتين فسأله عن ذلك فاعترف أنه باع هاتين الدرتين بألف وستمائة دينار ، فأخذ المعز ذلك البغلطاق من اليهودى وأمر بشنقه فشنق ، ثم دفع ذلك البغلطاق الى زوجة الاخشيدى فسألته أن يأخذه منها على سبيل الهدية فأبى من قبول ذلك ، فأخذته وانصرفت وهى داعية له .

وكان المعز يحب العدل والانصاف بين الرعية ،

غير أنه كان رافضيا سبابا للصحابة فى يوم الجمعة على المنابر . قال المسبحى : ان المعز كان يميل الى علم الفلك ، فأخبره جماعة من المنجمين بأن عليه قطعا شديدا فى يوم كذا وكذا ، فى شهر كذا وكذا ، ثم أشاروا عليه بأن يختفى فى سرب تحت الأرض حتى تمضى عنه تلك القطوع . فاختفى فى سرب نحو أربعة أشهر ، فلما طالت غيبته على جنده ظنوا أنه قد رفع الى السماء فكان الفارس من عسكره اذا نظر الى الغمام فى السماء ينزل عن فرسه ويقول : « السلام عليك يا أمير المؤمنين » ... فلم يزالوا على ذلك حتى ظهر من ذلك السرب وجلس على سرير ملكه وهم يحسبون أنه كان فى السماء وأتى اليهم .

قال المسبحى : « كان للمعز أخت تسمى الست سيدة الملك ، قيل انها توفيت فى خلافة أخيها المعز فوجد لها من الذهب العين ثلثمائة صندوق ، ومن الفصوص الياقوت الملونة واللؤلؤ خمس ويبات ، ووجد لها مدهنا من الياقوت الأحمر وزنه سبعة وعشرون مثقالا لم يحص له ثمن ، ووجد لها من الشقق الحرير الأحمر ثلاثين ألف شقة » . قال بعض المؤرخين وكانت أخت المعز — مع وجود هذه السعة — أزهد الناس فى الدنيا ، وكانت لا تأكل الا من ثمن غزلها دائما حتى ماتت .

واستمر المعز فى الخلافة حتى مرض وسلسل فى المرض حتى مات ، فكانت وفاته فى ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة ، وكان له من العمر لما توفى نحو احدى وأربعين سنة . وهو أول خلفاء بنى عبيد الله بمصر ، ودفن عند سيدى زين العابدين جد السيدة نفيسة ، وتربته بين الكيمان عند حدرة ابن قميحة . وكانت مدة خلافة المعز بمصر أربع سنين وشهرا ويومين .

وكان المعز رجلا عادلا عاقلا حازما لبيبا فصيحا شاعرا وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

ما بان عذرى فيك حتى عذرا
وبدا البنفسج فوق ورد أحمرا
همت بقبلته عقارب صدغه
فاستل ناظره عليها خنجرا

ولما مات المعز تولى من بعده ابنه العزيز .

العزيز بالله

هو العزيز بالله ، أبو منصور ، نزار ، بن المعز لدين الله معدّ الفاطمى العبيدى ، وهو الثانى من خلفاء بنى عبيد بمصر .

بويع بالخلافة بعد موت المعز فى سنة خمس وستين وثلثمائة ، وكان مولده بمدينة القيروان فى سنة أربع وخمسين وثلثمائة ، فلما تم أمره فى الخلافة بمصر، استقر بجوهر القائد مدبرا لأمر مملكته كما كان فى أيام أبيه المعز .

وكان العزيز يحب العدل فى الرعية ، وينصف المظلوم من المظالم ، وكان كريما جوادا ممدوحا ، فأحبته الرعية وصفا له الوقت بالديار المصرية . ثم انه استكثر فى عسكره من المماليك الديالمة والمصامدة والأتراك المغل . واستقر بالقاضى يعقوب ابن كلس وزيرا .

قيل لما تولى العزيز الخلافة دخل عليه عبد الله بن حسن الجعفرى الشاعر يهنئه بالخلافة بعد موت أبيه فأنشده هذه القصيدة منها :

عمت خلافته مصرا فصار بها
كأنه الشمس فيها حلت الحملا
ان المعز الذى لا خلق يشبهه
الا العزيز ابنه ان قال أو فعلا

فان مضى كافل الدنيا فصار لها
من بعـــده كافلا يغنى بما كفلا
أضحت ملوك بنى الدنيا له خدما
وما حـــوت كل دار منهم نفلا

حكى المسبحى فى تاريخه أن العزيز لما تم أمره بمصر استقر بشخص من النصارى عاملا بمصر على سائر جهاتها ، وكان يقـال له نسطروس ، واستقر بشخص من اليهود عاملا على سائر جهات دمشق وكان يقال له منشا . فحصل من النصرانى لأهل مصر غاية الظلم والأذى ، وحصـــل من اليهــودى لأهل دمشق غاية الظلم والأذى . فاتفق أن العزيز ركب يوما وشق من القاهرة فزينت له ، فعمد بعض الناس الى مبخرة من حديد وألبسها ثياب النساء وزينها بازار وشعرية ، وجعل فى يدها قصـــة على جريدة وكتب فيها :

« بالذى أعز جميـــع النصـــارى بنسطروس ، أعز جميع اليهود بمنشا ، وأذل جميع المســـلمين بك ... الا ما رحمتهم وأزحت عنهم هذه المظالم ؟ » .

فلما مر العزيز على تلك الصورة ظن أنها امرأة ولها حاجة ، فطلب قصتها فلما قرأها اشـــتد به الغضب ، وأمر بشـــنق ذلك النصرانى نسطروس فشنق على باب القصر ، وأرســـل بشنق منشـــا اليهودى فشنق على أحد أبواب دمشق ، واحتاط على جميع أموالهما من صامت وناطق

ومن الحوادث فى أيامه أن فى سنة سبع وسبعين وثلثمائة ولدت امرأة بمدينة تنيس جارية لها رأسان ووجهان فى عنق واحد ، وكان أحد الوجهين أبيض اللون والآخر أسمر اللون وفيه سهولة ، وكل وجه منهما كامل الخلقة ، وهـــذان الوجهان فى جسد واحد ، فكانت أم تلك المولودة ترضع كل واحد منهما على انفراد ، فحملت هذه المولودة الى العزيز من تنيس الى مصر حتى شاهدها فوجه لأمها شيئا من المال ، ثم عادت الى تنيس فعاشت هذه المولودة مدة يسيرة ثم ماتت .

وفى أيامه فى سنة تسع وسبعين وثلثمائة حدث بمدينة تنيس فى ليلة الجمعة ثامن عشر ربيع الأول حادث فيـــه أرعدت السماء وأبرقت ، وأظلم الجو وظهر فى السماء أعمدة من نار تلتهب ، فأضاءت منها الدنيا ، ثم اشتدت تلك الحمرة ، وجاءت عقب ذلك ريح سوداء فيها غبار حار يأخذ بالأنفاس من شدة حره ، فارتاع الناس من ذلك وأيقنوا بالهلاك ، وصار يودع بعضهم بعضا ، فضج الناس الى الله تعالى بالدعاء . ولم يزل على ذلك من بعد العشاء الى طلوع الفجر حتى خمدت الريح وخمدت تلك الأعمدة النار وزالت الحمرة من الجو . فلما لاح الصباح طلعت الشمس وهى محمرة ، فأقامت على ذلك خمسة أيام حتى اعتدلت .

قال أبو القاسم عبـــد المجيد القرشى ان فى سنة احدى وسبعين وثلثمائة صـــيدت سمكة بمدينة تنيس من البحر المالح فكان طولها من رأسها الى ذنبها ثمانية وعشرين ذراعا ونصف ذراع ، وكان عرضها خمسة عشر ذراعا ، وكان فتح فمها تسعة وعشرين شبرا ، وكان لها يدان كل يد طولها ثلاثة أذرع ، وكان لها عينان كعينى البقر ، ولسان كلسان الثور العظيم ، وكانت ملساء وفى جلدها غلظ . فلما صيدت أمر والى تنيس بأن يشق بطنها ويحشى ملحا ، فوضعوا فى جوفها مائة أردب ملح ، فكان الرجل يدخل فى جوفها وهو حامل قفاف الملح قائما غير منحن ، فأمر نائب تنيس بحملها الى القـــاهرة حتى يشاهدها الخليفة العزيز فشاهدها وتعجب من خلقتها .

وكانت مدينة تنيس هـــذه من أجل المدائن ، وكانت بالقرب من دمياط . قال المسعودى : « كان

طول مدينة تنيس من الجنوب الى الشمال ثلاثة آلاف ذراع ومائتى ذراع ، وكان عرضها من المشرق الى المغرب ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وثمانين ذراعا بالعمل ، وكان لها تسعة عشر بابا مصفحة بالحديد ، وكان بها عدة مساجد نحو مائة وستين مسجدا ، وبكل مسجد منارة ، وكان بها ستة وثلاثون حماما ، وكان بها مائة معصرة للزيت والشيرج والقصب ، وكان بها مائة وستون طاحونا ، وكان بها من الحوانيت ألفان وخمسمائة حانوت برسم البضائع ، وكان بها من المناسج للقماش نحو خمسة آلاف منسج يصنعون فيها الثياب الشرب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا ، وكانوا ينسجون بها أثوابا تسمى البدنة تنسج بالذهب صناعة محكمة يباع الثوب منها بمائة دينار ، وكانت تحمل منها الى بغداد ، وكان يعمل بها طرز من الكتان بغير ذهب يباع كل طراز منها بمائة دينار وهو بغير ذهب ، وكان بهذه المدينة النخل والكرم وسائر أصناف الأشجار . وكانت صحيحة الهواء كثيرة الطير والسمك ، وكان أهلها يدخرون بها ماء النيل فى جباب فلا يفسد ولو أقام بها دهرا طويلا . ولم تزل مدينة عامرة الى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة حتى جاء اليها نحو أربعين مركبا موسوقة جماعة من الفرنج فحاصروا أهلها ، فلما أشرفوا على أهل المدينة هرب أهلها الى ثغر دمياط وتركوا المدينة فاستولى عليها الفرنج وملكوها ونهبوا ما فيها ثم ألقوا فيها النار فاحترقت كلها ، ثم أخذوا ما قدروا عليه من الغنائم وتركوا المدينة خرابا ورحلوا عنها . واستمرت على ذلك الى سنة أربع وعشرين وستمائة فى دولة الملك الكامل محمد بن أيوب فأمر بهدم ما بقى من سورها وبيوتها ، واستمرت خرابا من يومئذ الى الآن » .

قال المسبحى ان فى أيام العزيز نزار هذا ظهر السمك البلطى بالنيل ، ولم يكن به قبل ذلك منه شيء ، وهو من أسماك البحر المالح . وفى أيامه أيضا ظهر السمك اللبيس ببحر النيل ولم يكن منه قبل ذلك شيء ، وهو أيضا من أسماك البحر المالح هرب ودخل الى البحر الحلو . وانما سمى لبيسا لأنه يشبه البورى فالتبس به فسمى لبيسا » .

واستمر العزيز بالله نزار فى الخلافة بمصر حتى توفى ، وكانت وفاته فى شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة ، وكانت مدة اقامته فى الخلافة بمصر احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وأياما ، وكان خيار بنى عبيد قاطبة . ولما مات تولى من بعده الحاكم بأمر الله منصور .

الحاكم بأمر الله

هو الحاكم بأمر الله ، أبو على منصور ، ابن العزيز نزار بن المعز معد الفاطمى العبيدى ، وهو الثالث من خلفاء بنى عبيد الله بمصر ، بويع بالخلافة بعد موت أبيه العزيز فى يوم الثلاثاء سلخ شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة من الهجرة . وكان مولده بالقاهرة فى يوم الخميس سادس عشر جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وثلثمائة . فلما تولى الخلافة أظهر العدل بين الرعية وسار فى الناس سيرة حسنة ، وأخذ فى أسباب بناء جامعه الذى هو داخل باب النصر ، وكان مبتدأ عمارته فى سنة تسع وثمانين وثلثمائة . ولما تم أمره فى الخلافة بمصر أفرد لليهود حارة زويلة وأمرهم بأن يسكنوا بها ولا يخالطوا المسلمين فى حاراتهم . ثم انه بعد مدة أمرهم بأن كلا منهم يدخل فى دين الاسلام فخافوا

منه وأسلموا كلهم ، ثم أذن لهم بالعودة الى دينهم فارتد منهم فى يوم واحد أكثر من سبعة آلاف يهودى ، ثم انه أمر بهدم كنائسهم ، ثم انه أعادها كما كانت عليه أولا .

وفى أيامه توفى الأمير جوهر القائد وزير المعز ، فلما مات وجد له من الأموال ما لا يحصى . فمن جملة ذلك من الذهب العين ستمائة ألف ألف دينار ، ومن الدراهم أربعة آلاف ألف درهم ، ومن اللؤلؤ الكبار واليواقيت أربعة صناديق مجلدة ، ومن القصب الزمرد ألف قصبة ، ومن الثياب الديباج ورقّ تنيس خمسة وسبعين ألف قطعة ، ووجد عنده دواة من الذهب طولها ذراع وهى مرصعة بالدر والياقوت ، فقوم ما عليها من الجواهر باثنى عشر ألف دينار . ووجد عنده لعبة من المسك والعنبر الخام اذا نزع ثيابه ألبسها عليها . ووجد فى داره مائة مسمار من الذهب على كل مسمار منها عمامة لون . ووجد عنده من المعالق الذهب والفضة ثلاثة آلاف معلقة . ووجد عنده عشرة آلاف زبدية صينى وبلور وفضة . ووجد عنده أربع قدور من الذهب وزن كل قدر مائة رطل ذهب ، قيل كان يطبخ المسلوقة فيها . ووجد عنده سبعمائة خاتم بفصوص من الياقوت والزمرد والماس ، ووجد عنده ثلاثة آلاف نرجسية ذهب وفضة وبلور وصينى ... هذا كله خارج عن البغال والجمال والخيل والعبيد والجوارى والفرش والأملاك والضياع وغير ذلك .

ولما مات الأمير جوهر القائد دفن بالقرافة الكبرى . ثم ان الحاكم بأمر الله لما توفى الأمير جوهر القائد استقر بالأمير برجوان عوضه بالوزارة . وبرجوان هذا هو صاحب الحارة المنسوبة اليه ، وكان من أمراء الحاكم ، وكان الحاكم يخشى من سطوة برجوان ولا يتصرف فى شىء من أمور المملكة الا برأيه ، وصار معه كالمحجور عليه فأقام على ذلك مدة طويلة فما أطاق ذلك ، فندب الى برجوان من قتله وهو خارج من الحمام .

فلما قتل برجوان احتاط الحاكم على موجوده فوجد له أكثر مما وجد لجوهر القائد ، فمن جملة ذلك وجد له من الذهب العين مائتا ألف ألف دينار ، ومن الدراهم الفضة خمسون اردبا ، ووجد له من القماش مائتان واحدى وستون بقجة ، ووجد له ألف سروال من البعلبكى العال ، وفى كل سروال نافجة مسك وتكة حرير أبيض ، ووجد له ألف قميص حرير اسكندرى وألف منديل حرير شغل اسكندرية ، ووجد عنده من كل صنف من القماش ألف قطعة ، ووجد عنده من الجواهر اثنا عشر صندوقا ... هذا خارج عن الأملاك والضياع والخدم . ووجد عنده من البقر والأنعام والجاموس ما يباع لبنه فى كل سنة بثلاثين ألف دينار على يد أبى الحسن بن يزيد العامل . ووجد له من الحواصل والمناخات ما لا يحصى لكثرته ، فصار الحاكم ينقل فى موجود برجوان فى كل يوم دفعتين من حارة برجوان الى قصر الزمرد الذى كان عند دار الضرب على مائتى جمل نقلتين فى كل يوم نحو أربعين يوما .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى : « لما قتل برجوان صار الحاكم ما على يده يد ، فعند ذلك طغى وتجبر وصار يفعل أشياء متضادة لا تقع الا من المجانين الذين فى عقلهم خلل .

« فمن ذلك أنه مر يوما بحمام الذهب الذى بمصر فسمع بها ضجيج النساء وهن فى الحمام ، فأمر بأن يسد عليهن باب الحمام ، فسدوه عليهن من وقته وساعته بالحجر الفص ، فاستمرت فى الحمام حتى مات الجميع فى الحمام ولم يجدوا لهن من حميم ولا شفيع .

« ومنها أنه منع الناس من بيع الزبيب ، وأمر بحرق الكروم وقطعها ، فقطع منها نحو مائة ألف كرم .

« ومنها أنه منع الناس من بيع العسل الأسود وكسر منه نحو اثنى عشر ألف مطر .

« ومنها أنه منع الناس من أكل الملوخية وأكل القرع ، وكتب قسائم على الفلاحين ألا يزرعوا شيئا من الملوخية ولا القرع . وعلل تحريم الملوخية بكون أبى بكر الصديق كان يميل اليها ، وعلل تحريم القرع بكون عائشة بنت أبى بكر كانت تميل اليه ... وقيل انه طلع يوما على جماعة يأكلون ملوخية فضربهم بالسياط ، وطاف بهم فى القاهرة ، ثم أمر بأن تضرب أعناقهم عند باب زويلة .

« ومنها أنه نهى عن بيع السمك الذى لا قشر له ، ونهى عن بيع الرطب ، ونهى عن زرع الترمس .

« ومنها انه أمر بقتل الكلاب ، فقتل منها نحو ثلاثين ألف كلب .

« ومنها أنه صار يوقد الشمع فى مجلسه ليلا ونهارا ، ثم انه صار يجلس فى الظلام ، واستمر على ذلك مدة طويلة .

« ومنها أنه أمر الناس بأن يغلقوا الأسواق بالنهار ويفتحوها بالليل ، وجعل الليل مقام النهار فى جميع أحوال الناس فامتثلوا منه ذلك واستمروا عليه دهرا طويلا ، ثم انه مر فى بعض الأيام على شيخ يعمل فى التجارة من بعد العصر فوقف عليه وقال : « ألم أنهكم عن ذلك ؟ » . فقال له الشيخ : « يا أمير المؤمنين ، أما كان الناس يسهرون بالليل ؟ ... فهذا من جملة السهر » ... فتبسم وتركه ، ثم أعاد الناس الى ما كانوا عليه فى الأول يتقاضون أشغالهم بالنهار .

« ومنها أنه كان يسب الصحابة ، وأمر بكتابة ذلك على سائر أبواب المساجد والجوامع ، فأقام على ذلك مدة ، ثم انه أمر بمحو ذلك .

« ومنها أنه هدم قمامة وبنى مكانها مسجدا ثم أعادها على ما كانت عليه قمامة . وكان يبنى عدة مدارس ويقرر بها المشايخ والصوفية ثم يقتلهم ويهدم تلك المدارس .

« ومنها أنه كان يعاقب جماعة من خواصه بسلب الألقاب ، فاذا غضب على أحد سلب لقبه مدة طويلة لا يدعوه بذلك اللقب فيصير ذلك الرجل فى حزن وبكاء حتى يرد عليه لقبه فيكون عنده ذلك عيدا .

« ومنها أنه أمر طائفة اليهود بأن يعملوا فى أعناقهم اذا خرجوا الى الأسواق قرم خشب وزن كل قرمة خمسة أرطال ، وأمر النصارى بأن يعملوا فى أعناقهم صلبانا من حديد قدر ذراع ، وأمرهم بأن يلبسوا المآزر الفسيحة ، وألا يركبوا بهيمة ، فأقاموا على ذلك مدة ثم أعادهم الى ما كانوا عليه .

« ومنها أنه أمر الناس اذا ذكر اسمه الخطيب فى يوم الجمعه وهو على المنبر تقوم الناس صفوفا اعظاما لذكره واحتراما لاسمه ، فكان يفعل ذلك فى سائر مملكته حتى فى الحرمين الشريفين وبيت المقدس .

« ومنها أنه كان يلبس جبة صوف أبيض ويركب على حمار عال أشهب يسمى القمر ، ويطوف فى أسواق مصر والقاهرة ، ويباشر حسبة البلد بنفسه ، وكان معه عبد أسود طويل عريض يمشى فى ركابه يقال له مسعود ، فان وجد أحدا من السوقة غش فى بضاعته أمر ذلك العبد مسعودا بأن ...

... ...

والحاكم واقف على رأسه . وقد صار مسعود هذا مثلا عند لطفاء أهل مصر اذا مزحوا مع أحد يقولون احضر له يا مسعود ...

« ومنها أنه أبطل صلاة التراويح نحو عشر سنين ثم أعادها كما كانت أولا .

« ومنها انه كان يحب أهل العلم والصلحاء ثم يغضب عليهم ويقتلهم . وأقام يلبس الصوف مدة سبع سنين ثم ترك ذلك ولبس الحرير .

« ومنها أنه كان يركب على حماره الأشهب المدعو بالقمر فينزل عنه عند باب جامعه الذى عند باب النصر ويأخذ بيد من يختار من غلمانه فيرقده ويشق بطنه بيده ثم يخرج مصارينه بيده فيرميها الى الكلاب ويترك المقتول مكانه حتى يدفنه أهله ، وكان يعذب جماعة من خواصه بالنار ، وقتل جماعة كثيرة من العلماء منهم أبو أسامة — وكان من كبار العلماء — ومنهم جبارة اللغوى . قيل ان الشيخ جبارة هذا كان يعرف للكلب فى اللغة ثلثمائة اسم فى لغات العرب ، ومنهم الهروى وغير ذلك من العلماء .

« ومنها أنه كان عنده شجاعة واقدام مع جبن وادبار ، وكان يحب الكرم ويكثر من البخل ، وكان يحب فعل الخير ويتبعه بشيء من الشر ، ويحب العدل فى الرعية ويتبعه بشيء من الظلم والجور » .

فكان كما قال القائل فى المعنى :

أرى فيك أخلاقا حسانا قبيحة
وأنت لعمرى كالذى أنا واصف

قريب بعيد ، باذل متمنع
كريم بخيل ، مستقيم مخالف

كذوب صدوق ، ليس يدرى صديقه
أيحقوه من تخليطه أم يلاطف

فلا أنت ذو غش ، ولا أنت ناصح
وانى لفى شك لأمرك واقف

كذاك لسانى هاج لك مادح
كما أن قلبى جاهل بك عارف

قال القاضى شمس الدين بن خلكان فى تاريخه ان الحاكم بأمر الله كان يعبد الكواكب كما كان جده المعز ، وكان له اشتغال بأمر المطالب وله فى ذلك أخبار كثيرة .

حكى بعض المؤرخين ان رجلا أودع عند رجل جرابا فيه ألف دينار وسافر الى الحجاز ، فلما عاد طلب ذلك الجراب من الرجل فأنكره ، فشكا ذلك الرجل أمره الى الحاكم ، فقال له الحاكم : « اقعد لى فى الشارع ، فاذا مررت بك فقم الى وتحدث معى » . فلما فعل ذلك ومر عليه الحاكم قام له وتحدث معه وأطال معه الحديث ، فمر به الرجل الذى عنده الجراب فرأى صاحب الجراب يتحدث مع الحاكم حديثا طويلا ، فلما مر الحاكم ومضى أحضر ذلك الرجل الجراب ودفعه الى صاحبه وقال له : « تذكرت وديعتك وهاهى » فوجده الرجل بختمه لم يفتح ، فمضى به ذلك الرجل الى الحاكم وعرفه بما جرى له مع الرجل ، فقال له الحاكم : « خذ جرابك وامض الى سبيلك » . فلما أصبح رأى ذلك الرجل الذى كان عنده ذلك الجراب مشنوقا على باب داره والناس يتحدثون فى أمره .

قال ابن كثير : « وقع الغلاء بمصر فى زمن الحاكم فى سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، فاجتمع الناس تحت قصر الزمرد واستغاثوا بالحاكم فى أن ينظر فى أحوال الناس فقال لهم الحاكم : « اذا كان الغد أتوجه الى جامع راشدة وأعود من مصر ، فان وجدت فى طريقى مكانا خاليا من الغلة ضربت عنق صاحب ذلك المكان » . ثم انه توجه الى جامع راشدة وتأخر هناك الى ما بعد العصر ، فما بقى أحد من أهل مصر والقاهرة الا وحمل ما عنده من الغلال ووضعها فى الطريق الذى يمر عليه الحاكم ، فلما رجع من جامع راشدة وجد الغلال قد امتلأت بها الطرقات وشبعت

أعين الناس ، فقرر مع أصحاب الغلال أن أحـدا لا يدخر فى بيته شيئا من الغلال ، وقرر معهم أسعار كل صنف من الغلال بثمن معين لايزيد ولا ينقص ، فعند ذلك سكن الوهج الذى كانت فيه الناس ، ووقع الرخاء فى مصر وسائر أعمالهـا ، وذلك من شدة رعب الناس من الحاكم ومن سطوته ... فكان كما قيل فى المعنى :

صاحب أخا الشر لتسـطو به
يوما على بعض صروف الزمان
فالرمـح لا يرهب أنبوبـه
الا اذا ركـب فيه السـنان

وفى هذه السـنة — وهى سنة سـبع وثمانين وثلثمائة — توفى ابن زولاق صاحب تاريخ مصر ودفن بها .

ومن النكت المضحكة ما قيل ... كان فى زمن الحاكم قاض بمصر يقال له النطاح . وسبب ذلك أنه كان له طرطور وفيه قرنان من قرون البقر ، فيضعه الى جانبه ، فاذا جاءه خصمان يتحاكمان عنده وجار أحدهما على الآخر يلبس القـاضى ذلك الطرطور الذى فيه القرنان ويتباعـد وينطح الخصم الذى يجور على صاحبه ، فاشتهر أمره بين الناس بهـذه الواقعة . فبلغ أمره الى الحاكم فأرسل خلفه ، فلما حضر بين يديه قال له : « ما هذا الأمر الذى قـد اخترعته حتى قبحت سيرتك بين الناس ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين ، أشتهى أن تحضر مجلسى يوما وأنت من خلف ستارة لتنظر ماذا أقاسى من العوام ، فان كنت معذورا فيهم والا عاقبنى بما تختار » . فقال له الحاكم : « أنا غدا أحضر مجلسك حتى أرى ما تقول » . فلما أصبح الحـاكم أتى الى مجلس ذلك القـاضى وقعد من خلف سـتارة ، فأتى الى القاضى خصمان ، فادعى أحدهما على الآخر بمائة دينار فاعترف المدعى عليه بها ، فأمره القاضى بدفع ذلك الى صاحبه فقال المدعى عليه : « انى معسر فى هذا الوقت ، فقسطوا على ذلك على قدر حالى » . فقال القـاضى للمدعى : « ما تقول ؟ » . فقـال : « أقسطها عليه فى كل شهر عشرة دنانير » . فقال المديون : « لا أقدر على ذلك » . فقال القاضى : « تكون خمسة دنانير » . فقال المديون : « لا أقدر على ذلك » . فقال القاضى : « تكون دينارين » . فقال المديون: « لا أقدر على ذلك » . فقال القاضى: « تكون دينارا » . فقال المديون : « لا أقدر على ذلك » . فلا زال القاضى يدرجـه حتى قال له : « تكون عشرة دراهم فى كل شهر » . وهو يقول : « لا أقدر على ذلك » . فقال له القـاضى : « وما القدر الذى تقدر عليه فى كل شهر . فلعل أن يرضى به خصمك » . فقال المديون : « أنا لا أقدر على أكثر من ثلاثة دراهم فى كل سنة ، بشرط أن يكون خصمى فى السجن لئلا يحصل معى هذا القدر ولا أجد خصمى فيذهب منى » .

فلما سمع ذلك الحاكم لم يملك عقله وخرج من خلف الستارة وقال للقاضى : « انطح هذا النجس الشيطان والا فأنا أنطحه ... » . وكان الحاكم أحمق من القاضى .

وقال الشـيخ شمس الدين الذهبى فى تاريـخ الاسلام : « لا زال الحاكم بأمر الله يتزايد فى الظلم والجـور ، واستخف بأهـل مصر حتى أنه ادعى الربوبيـة من دون الله كما فعل فرعون ، فكان اذا مر فى الطرقات والأسـواق يقول له جماعـة من العوام : « يا واحد يا أحد ! يا محيى يا مميت ! » . وكانت جماعة من جهـال العوام يسجدون له كلما رأوه ، ومن لم يفعل ذلك ضرب عنقه .

ثم انه ادعى فى وقت أنه يعلم علم الغيب ، فكان يقول لأمرائه ووزرائه : « يا فلان ، أنت فعلت فى بيتك البارحة ماهو كيت وكيت . وأنت يافلان قلت

البارجة ماهو كيت وكيت » ... وكان ذلك باتفاق يعتمده مع العجائز اللاتي يدخلن الى بيوت الأمراء والوزراء وغير ذلك من أعيان أهل مصر . فلما زاد الأمر فى ذلك كتب اليه بعض الناس رقعة ورمى بها وهو فى معظم موكبه ، وكان فى الرقعة هذه الأبيات :

بالجور والظلـم قد رضينا
وليس بالـكفر والحمـاقه
ان كنـت أوتيت علم غيب
بين لنـا كاتب البطـاقه

فلما قـرأ تلك الرقعة سكت عن الكلام فى أمر ما كان يدعيه من علم الغيب .

روى ابن كثير أن الفاطمية كانوا يدعون الشرف ويقولون نحن أفضل من العباسية ، لأننا من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان بعض العلماء الذين يتواجهون لهم أثبت لهم نسبا فاسدا بأنهم من ولد الامام على رضى الله عنه وليس بصحيح ، وانما هم من ولد ديصان بن سعيد — وكان أصله مجوسيا — وقد وافق على ذلك جماعة من العلماء ، مثل أبى حامد الاسفراينى ، والشيخ أبى الحسن القدورى وغير ذلك من العلماء .

وكان الحاكم يذكر نسبه فى كل جمعة وهو على المنبر يخطب ، وكانت الناس ترفع اليـه الرقاع فى أشغالهم وهو على المنبر ، فرفعت اليه رقعة فيهـا مكتوب هذه الأبيات :

انا سـمعنا نسبا منـكرا
يتلى على المنـبر فى الجامع
ان كنت فيما قلته صـادقا
فانسـب لنا نفسك كالطائع
وان ترم تحقيـق ما قلتـه
فاذكر لنا بعد الأب السابع
أو لا دع الأنساب مستورة
وادخل بنا فى النسب الواسع
فان أنسـاب بنى هاشـم
يقصر عنها طمـع الطامـع

فلما قرأ تلك الرقعة رجع عما كان يدعيه من أمر النسب .

واسـتمر الحاكم على ماذكرناه من أمر هـذه الأفعال الشنيعة ، ومخالفته لأمر الشريعة ، حتى قتل . وكان سبب قتله أن أخته ست النصر لما زاد أخوها من هذه الفعال أراد قتلها ، فـلما تحققت ذلك — وكانت من النساء المدبرات — أخذت فى تدبير الحيلة على قتل أخيها ، فخرجت تحت الليل وأتت الى دار الأمير سيف الدين بن رواش ، وكان اكبر أمراء الحـاكم . فلما دخلت عليـه اختلت به وعرفته أنها أخت الحاكم فبالغ فى تعظيمها ، فقالت له : « أنت تعلم ما قد فعله أخى بالرعية من القتل والجور وخراب البـلاد ، وقد عول على قتـلى وقتلك » . فقال لها الأمير سيف الدين : « وكيف الحيلة فى قتله ؟ » . فقالت له : « الرأى عندى أنك تندب اليه جماعة من العبيد السود يقتلونه اذا خرج الى حلوان ، فانه ينفرد بنفسه فى الطريق ، فيخرجون عليه ويقتلونه . فاذا قتل تكون أنت المدبر للمملكة من بعده ، وتولى ولده عليا » . فاتفقا على ذلك ثم مضت الى قصرها ، فلما أصبح النهار خرج الحاكم على عادته الى نحو حلوان ، فأرسل الأمير سيف الدين خلفه عشرة من العبيد السود الغلاظ الشداد ، وأعطى لكل عبد منهم خمسمائة دينار وعرفه كيف يقتله . فسبقه العبيد الى حلوان ، فلما وصل الحاكم هنالك نزل بالقصبة التى فى حلوان بشرقى البلد ، فخرج عليه أولئك العبيد فقتلوه هنالك ، فلما أبطأ خبره على العسكر خرجت اليه جماعة من الجند يلتمسون رجوعه ومعهم جنائب الموكب بالسروج

الذهب والكبابيش ، فصاروا يخرجون الى حلوان فى كل يوم ينتظرون رجوعه مدة سبعة أيام ، فلما أبطأ عليهم فوق السبعة أيام ، خرج الأمير مظفر الحاجب ومعه جماعة من العسكر — وكانت عساكر الحاكم ما بين ترك وديلم ومصامدة وصقالبة وروم وعبيد سود وغير ذلك — فلما وصلوا الى آخر القصبة التى بحلوان وجدوا حماره الأشهب المدعو بالقمر ، وقد قطعت يداه ورجلاه ، وعليه السرج واللجام ، فتبعوا أثر الحمار فوجدوا ثياب الحاكم وكان عليه سبع جبب صوف بيض ورأوا فيها آثار ضرب السكاكين ، فلم يشكوا بعد ذلك فى قتله . فلما رجعوا الى القاهرة أشيع قتل الحاكم .

وكان قتله فى شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة، وكانت مدة خلافته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمسا وعشرين سنة وأياما ... ولم ينل أهل مصر من أفعاله مكرمة ، وصاروا معه فى قمع سمسمة ، وصبروا على أذاه فى هذه المدة وقد قاسوا منه أى شدة حتى فرج الله عنهم هذه الكربة العظيمة فكان كما قيل :

ودهر قطعناه بضيق وشدة
ونحن على نار قيام على الجمر
صبرنا له حتى أزيل وانما
تفرج أيام الكريهة بالصبر

وفى هذه المدة قتل الحاكم من الناس ما لا يحصى عددهم من العلماء والفقهاء وغير ذلك .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى : « ولما قتل الحاكم صار جماعة من الجهال المغفلين من وادى التيم من نواحى الشام يعتقدون حياة الحاكم الى الآن ، ويقولون لابد أن يظهر فى آخر الزمان ويعود الى الخلافة ، وأنه هو المهدى لا محالة ، ويحلفون الى الآن بغيبة الحاكم » .

الظاهر لدين الله

هو الظاهر لدين الله على ، بن منصور بن نزار ابن المعز معد ، وهو الرابع من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمية بمصر ، بويع له بالخلافة بعد أبيه الحاكم بأمر الله فى شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة ، وتلقب بالظاهر لدين الله . تولى الخلافة وله من العمر نحو ست عشرة سنة ، وكانت عمته ست النصر أخت الحاكم هى القائمة بأمور دولته ، والأمير سيف الدين بن رواش .

وفى أيامه اضطربت أحوال الديار المصرية والبلاد الشامية ، واستولى على البلاد الشامية الأمير حسان شيخ عربان جبل نابلس ، وصار يستخرج خراجها لنفسه ، ونزع أيدى العمال عنها .

وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة من خلافته توفيت ست النصر أخت الحاكم بأمر الله ، فظهر لها موجود عظيم من المال والجواهر والقماش والتحف لا يحصى لكثرته ، ووجد لها أربعة آلاف جارية ما بين بيض وسود ومولدات ، فمنهن ألف وخمسمائة أبكار والبقية ثيبات ، ووجد عندها ثلاثون زيرا صينيا مملوءة من المسك السحيق ، وأما بقية الموجود فما ضبط لكثرته .

ومن الحوادث فى أيامه جاءت الأخبار من مكة أن رجلا أعجميا قد حضر الى مكة وجماعة من الأعاجم معه فأظهروا أنهم يريدون الحج ، فأقاموا فى مكة مدة ، ثم غافلوا الناس فى وقت القائلة ودخلوا الحرم وقلعوا الحجر الأسود من مكانه وكسروه ثلاث قطع ، فأدركهم الناس وأمسكوهم فقطعوا أيديهم وصلبوهم على أبواب الحرم ، ثم ان الناس أعادوا الحجر الأسود الى مكانه ولصقوا ماكسر منه .

وفى أيام الظاهر هذا أذن لأقباط مصر فيما كان يعمل فى ليلة الغطاس بالديار المصرية ، وكان هذا الأمر قد بطل من أيام المعز كما تقدم ، وكان من أجل المواسم بمصر . وذلك أن ليلة الغطاس — وهى فى الجادى عشر من شهر طوبه — تجتمع جماعة من المسلمين وجماعة من الأقباط النصارى عند شاطىء النيل قدام المقياس ، فتنصب هناك الخيام على جانبى النيل وتوضع فيها الأسرة لأعيان القبط من الرؤساء ، وكان البحر يمتلىء بالمراكب والزوارق ، ويجتمع فيها السواد الأعظم من الخاص والعام من المسلمين والنصارى ، فاذا دخل الليل تزين المراكب بالقناديل وتشعل فيها الشموع ، وكذلك على جوانب الشطوط من بر مصر والروضة ، وكان يشعل على الشطوط فى تلك الليلة أكثر من ألف مشعال وألف فانوس وتنزل رؤساء القبط فى المراكب ، وكان ينفق فى تلك الليلة من الأموال ما لا يحصى فى مآكل ومشارب ، وتتجاهر الناس بشرب الخمر ، وتجتمع أرباب الملاهى وأرباب الملاعب من كل فن ، ويخرج الناس فى تلك الليلة عن الحد فى اللهو والفرجة ، ولا يغلق فى تلك الليلة دكان ولا درب ولا سوق ، وكانوا يهادون رؤساء الأقباط فى تلك الليلة بأطنان القصب والبورى والحلوى القاهرية والكمثرى والتفاح الفتحى والسفرجل والأترج والنارنج والليمون المراكبى وطاقات النرجس وغير ذلك من الأنواع اللطيفة ، وكانوا بعد العشاء يغطسون فى بحر النيل — النصارى مع المسلمين سوية — ويزعمون أن من يغطس فى تلك الليلة يأمن من الضعف فى تلك السنة . فلما كان وقت الغطاس نادى الخليفة الظاهر بألا يختلط النصارى بالمسلمين عند الغطاس ، وكان فى قصر جده المعز الذى يشرف على بحر النيل يتفرج على ذلك المهرجان الذى يحصل فى تلك الليلة . وكان المعز لما قدم الى مصر ورأى ما يحصل فى ليلة الغطاس من المفاسد العظيمة امر بابطال ذلك ، واستمر ذلك باطلا من سنة اثنتين وستين وثلثمائة الى سنة خمس عشرة وأربعمائة ، فأمر الخليفة الظاهر باعادة ذلك حتى يتفرج عليه .

قال المسبحى : ان فى الدولة الفاطمية كان رؤساء القبط يضربون فى يوم خميس العدس خراريب من ذهب ويفرقونها على أرباب الدولة برسم التبرك . وكانوا يضربون من هذه الخراريب نحو خمسمائة مثقال ، فبطل ذلك جميعه من مصر من جملة ما بطل من القواعد القديمة .

واستمر الخليفة الظاهر لدين الله فى الخلافة بمصر حتى توفى ، وكانت وفاته فى يوم الأحد خامس عشر شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، وكانت مدة خلافته بمصر عشر سنين وتسعة أشهر [1] .

ولما مات الظاهر لدين الله تولى من بعده ابنه المستنصر بالله أبو تميم .

المستنصر بالله

هو المستنصر بالله أبو تميم ، معد ، بن الظاهر لدين الله على بن منصور الحاكم بأمر الله ، وهو الخامس من بنى عبيد الله الفاطمى . بويع له بالخلافة بعد موت أبيه الظاهر لدين الله فى يوم الأحد خامس عشر شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، فتولى الخلافة بمصر وله من العمر سبع سنين وعشرون يوما . وكان مولده بالقاهرة فى سنة ثمانى عشرة وأربعمائة [2] . وهو الذى خطب له البساسيرى على منابر بغداد مع وجود خلفاء بنى العباس ، وهذا لم يقع لأحد من أقاربه من خلفاء بنى عبيد الله .

(١) الذى فى المقريزى ان مدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية اشهر وأيام ، وهو الصواب .

(٢) فى المقريزى انه ولد فى السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ٤٢٠ .

ولما تم أمره فى الخلافة استقر بالحسن بن على البازورى وزيرا ، وهــو الذى جمع بين الوزارة وقضاية القضاة الشافعية ، ولم تقع هذه لمن قبله من الوزراء . فلما مات البازورى استقر بأبى نصر العلاجى وزيرا ، فقبض أبو نصر العلاجى على ابن الأنبارى وزير الحاكم بأمر الله فاعتقله بخزانة البنود وصادره وأخذ جميع أمواله ، ثم قطع رأسه ودفنها بخزانة البنود ، فما مضى قليل حتى قبض المستنصر على أبى نصر العلاجى ، واعتقله فى خزانة البنود وصادره وأخذ أمواله وأمر بقطع رأسه .فلما أرادوا أن يحفروا لأبى نصر العــلاجى فى خزانة البنود ليواروا رأسه فيها ظهر من تلك الحفرة رأس فسألوا العلاجى عن ذلك فقال هذا رأس ابن الانبارى وأنا قتلته ودفنته فى هذه الحفرة ثم أنشد يقول :

رب لحد قد صار لحدا مرارا

ضــاحكا من تزاحم الأضداد

فقطعوا رأس العلاجى ودفنوهــا على رأس ابن الأنبارى ... والجزاء من جنس العمل .

ومن الحوادث فى زمن المستنصر بالله : أنه فى سنة احدى وخمسين وأربعمائة وقع الغلاء العظيم بمصر، فكان يعادل الغلاء الذى وقع فى زمن يوسف عليه الصلاة والسلام . وقد أقام هذا الغلاء بمصر سبع سنين متوالية والنيل فى تلك الســنين لم يبلغ فى الزيادة الا اثنى عشر ذراعا وأحد عشر اصبعا ، وكان القاع ثلاثة أذرع واحد عشر اصبعا . ففى هذه المدة أكلت الناس بعضها بعضا ، وبيع فيهــا القمح بثمانين دينارا كل أردب ، وبمائة وعشرين دينــارا كل أردب . ثم اشتد الأمر حتى بيع كل رغيف فى زقاق القناديل بخمسة عشر دينــارا ، وأكلت الناس الميتة والكلاب والقطط حتى قيل بيع كل كلب بخمسة دنانير ، وبيع كل قط بثلاثة دنانير ، وقيل كان الكلب يدخل الى الدار فيأكل الطفل الصغير وهو فى المهد وأمه وأبوه ينظران اليه فلا يستطيعان النهوض لدفعه عن ولدهما من شدة الجوع وعدم القوة . ثم اشتد الأمر حتى صــار الرجل يأخذ ابن جاره ويذبحه ويأكله ولا ينكر ذلك عليه أحد من الناس . وصار الناس فى الطرقات اذا قوى القوى على الضعيف يذبحه ويأكلــه . وصارت طائفة من الناس يجلسون على السقائف وبأيديهم حبال فيها كلاليب ، فاذا مر بهم أحد من النــاس ألقوا عليه تلك الحبــال ونشلوه بتلك الكلاليب فى أسرع وقت ، فاذا صار عندهم ذبحوه فى الحال وأكلوه بعظامه . وقيل ان الوزير ركب يوما على بغلة ودخل الى دار الخلافة فلما نزل عنها أخذت من غلمانه وأكلت فى الحال ، فأمســكوا الذين فعلوا ذلك وشنقوهم وعلقوهم على الخشب، فلما باتوا أصبحوا لم يجدوا أحدا من المشانيق ، وقــد أكلوا من فوق الخشب ، ولم يبق منهم غير لعظام على الأرض .

قال المسبحى فى تاريخه : « كان بمدينة الفسطاط حارة تسمى حارة الطبق ، وكان فيها نحو عشرين دارا ، كل دار تساوى فى الثمن ألف دينار ، فبيعت بيوت هذه الحارة كلها بطبق من الخبز — كل دار برغيف — فسميت من يومئذ حارة الطبق » .

وقال الشيخ أبو الفرج بن الجوزى : « خرجت امرأة من مدينة الفسطاط ومعها ربع من اللؤلؤ الكبار وقالت : « من يأخذ منى هــذا اللؤلؤ ويعطينى عوضه قمحا ؟ » . فلم تجد من يأخذ منها ذلك اللؤلؤ ويعطيها عوضه قمحا . فلما أعيت من ذلك ألقته على الأرض وقالت : « اذا لم تنفعنى وقت الحاجة فلا حاجة لى بك » . ثم تركته ومضت، فأقام ذلك اللؤلؤ مرميا على الأرض ثلاثة أيام ولم يوجــد من يلتقطه ، وكان كل أحد من النــاس مشغولا بنفسه عن كل شىء » .

الخلافة ستين سنة وأربعة شهور ، وهذه المدة لم تتفق لأحد قبله من الخلفاء الفاطميين ولا العباسيين ، ولكنه قاسى فى هذه المدة مشقات عظيمة شديدة كما قيل فى المعنى والأمثال « من أراد البقاء فى الدنيا فليوطن نفسه على المصائب » .

ولما مات المستنصر تولى من بعده ابنه أحمد المستعلى بالله .

المستعلى بالله

هو المستعلى بالله أحمد ، بن المستنصر بالله ، ابن الظاهر ، بن الحاكم ، وهو السادس من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى . بويع بالخلافة بعد موت أبيه المستنصر بالله فى ثانى عشر ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة .

ومن الحوادث فى أيامه أن الفرنج استولوا على بيت المقدس وملكوه ، وقتلوا جماعة كثيرة من المسلمين وأسروا من الباقى نحو ألف انسان ، وذلك فى سنة احدى وتسعين وأربعمائة ، وأخذوا من قبة الصخرة أربعين قنديلا من الذهب والفضة ، وزن كل قنديل ألف درهم من الفضة ، وأخذوا التنور النحاس الكبير ، وأقاموا مالكين بيت المقدس نحو ثلاث سنين .

وفى أيام المستعلى كسفت الشمس ، وغاب جميعها ، وأظلمت الدنيا حتى ظهرت النجوم وقت الظهر ، وأقامت على ذلك الى آخر النهار حتى انجلت .

واستمر المستعلى فى الخلافة بمصر الى أن مرض ومات فكانت وفاته فى يوم الثلاثاء تاسع صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، وكانت مدة خلافته بمصر سبع سنين وشهرين .

ولما مات تولى من بعده ابنه الآمر بأحكام الله .

الآمر بأحكام الله

هو الآمر بأحكام الله ، أبو على المنصور ، بن المستعلى بالله أحمد ، وهو السابع من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى . بويع بالخلافة بعد موت أبيه المستعلى بالله فى تاسع صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة . ولما أن تولى الخلافة بمصر طاش وسار فى الناس أقبح سيرة ، وصار يتجاهر بالمنكرات ، واشتغل باللهو والطرب وشرب الخمر ، فاضطربت أحوال الديار المصرية فى أيامه ، وجاءت الأخبار بأن الفرنج استولوا على مدينة عكا وطرابلس ونابلس وغير ذلك من أعمال البلاد الشامية ، وأشرفوا على أخذ الديار المصرية ووصلوا الى العريش ، وكان ملك الفرنج يسمى بردويل[1] ، فلما وصل الى العريش مرض هناك مرضا شديدا ومات ، فكتم أصحابه موته خوفا من المسلمين ، وشقوا بطنه ورموا مصارينه ، ثم دفنوها بالعريش ، وقد صار الناس الى الآن كلما مروا بالعريش رجموا ذلك المكان الذى دفنت فيه مصارين بردويل — ويسمى الى اليوم سبخة بردويل — وأما جثته فحملت الى القمامة التى ببيت المقدس ودفنت هناك .

وفى أيامه وقع الغلاء بمصر ، وتناهى سعر القمح الى ثلاثين دينارا ثمن الأردب الواحد ، فأقام الأمر على ذلك نحو ستة أشهر ، وتراجع الأمر قليلا قليلا ، وانحط سعر القمح عن ذلك القدر ، وكثرت الغلال فى العرصات .

وكان القائم بتدبير أمور الديار المصرية المأمون البطايحى الوزير ، فساس الناس فى هذه الغلوة أحسن سياسة ، ولم يحصل فى الديار المصرية من

(١) هو « بلدوين » .

الاضطراب كما حصل فى أيام المستنصر مما تقدم ذكـــره .

قيل : هجم رجل فى زمان الغـلاء على بعض المغاربة وهو يأكل فى رغيف ، فلما رآه ستر الرغيف منه ، فقال له ذلك الرجل : « أما سمعت الحديث : طعام واحد يكفى اثنـين ؟ » فقال له المغربى : « ذلك فى ضوء السراج ... اذا كان لواحد يكفى جماعة . وأما فى هــذا الرغيف فلا أطعمك منــه لقمة » . فمضى عنه الرجل ولم يطعمه شيئا .

وسبب هذا الغلاء أن النيل بلغ فى الزيادة الى خمســة عشر ذراعا وأصبعا ثم هبــط ، فشرقت البلاد ، وحصل للناس الضرر الشامل ، ورســم الخليفة للبطرك بأن يتوجــه الى بلاد الحبشــة بسبب توقف النيل ، ولم يفــد توجه البطــرك شــيئا .

وفى سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ابتدأ الآمر بأحكام الله فى عمارة جامعه الذى بناه عند سوق مرجوش المسمى بجامع الأقمر ، وأنفق على بنائه مائتى ألف دينار ، وكان له صــهريج يمتلىء من مسارب الخليج الحاكمى .

وفى سنة تسع عشرة وخمسمائة قبض الآمــر على الوزير المأمون البطايحى ، وقتله ثــم صلبه واحتاط على موجوده ، فظهر له من الأموال ما لا يحصى . فمن ذلك مائة صندوق ما بين ذهب عين ودراهم فضة وجواهر فاخرة ، ووجد عنده مائة بكرنية مملوءة من الكافور العنصورى ، وهــذا الصنف عزيز الوجود . ووجــد عنده ثلثمــائة صندوق فيها قماش جسمه مابين حرير وصوف ودق تنيس ودمياط ، ووجــد عنده من العــود القمارى مائة من وأشياء كثيرة لا تنحصر ، فحمل ذلك الى قصر الخلافة .

فلما قتل الآمر الوزير البطايحى لم يقم بعــده الا مدة يسيرة وقتل الآخر . وكان سبب قتله أنه توجه الى بر الروضــة على سبيل التنزه ، فأقام هناك يوما وليلة ، فلما رجع الى القاهرة مر على جسر الروضــة الذى كان بالقــرب من الجزيرة الوسطى ، فلما عبر الجسر وثب عليه جماعة من العبيد السود فضربوه بالسكاكين تحت الليــل — وكان سكران — فوقع عن فرســه فحملوه الى القاهرة وطلعوا به الى قصره فمات من وقته ، فكانت وفــاته فى ليلة الثلاثاء العشرين من ذى القعــدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة من الهجرة ، وكانت مدة خــلافته بمصر نحو تسع وعشرين سنة وشهرين . ومات عن غير ولد فتولى من بعده ابن عمه المستنصر بالله .

الحــافظ لدين الله

هو أبو الميمون عبد المجيد الحافظ لدين الله ، ابن المستنصر بالله ، وهو الثامن من خلفــاء بنى عبيد الله الفاطمى . بويع بالخلافة بعد قتل الآمر بأحكام الله ، وكان الحافظ لدين الله رجلا حليما ، لين الجانب ، قليل الأذى ، فطمعت فيه الرعية ، واضطربت فى أيامــه أحــوال الديار المصرية ، واستولت الفرنج على البلاد ، وكثر منهم الفساد ، وطمع الفلاحون فى أهل مصر ، وامتنعوا من وزن الخراج ، وتعطل الأمر وما راج .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى : « ان الشيخ أبا عبد الله الأندلسى دخل الى مصر فى أيام الخليفة الحافظ — وكان الشيخ أبو عبد الله له يد طائلة فى عــلم السيمياء — فأحضره الحافظ بين يديه وقال له : « أرنا شيئا من علم السيمياء » . فامتنع من ذلك ، فألح عليه ، فأراه مساحة القصر كأنها لجة ماء وفيها سفينة كبيرة وحولها شوانى حربية ،

فوقع بينهما الحرب والقتال ، فكانت بينهم السيوف تلمع ، وسحائب القسى تمطر ، والبنود تخفق ، والرءوس تهدر ، والدماء تسيل ... فلا يشك الناظر فى حقيقة ذلك . ثم ان أصحاب السفينة سلموا الى أصحاب الشوانى فساروا بها والطبول تضرب والبوقات تزعق حتى غابوا عن الأبصار . ثم ذهبت تلك اللجة الماء التى كانت فى القصر بأمواج تتلاطم كالجبال . فلما رأى الحافظ ذلك تعجب منه ، وكان حوله جماعة من خواصه فأشاروا عليه بقتل الشيخ أبى عبد الله ، وقالوا هذا يفسد عقول الناس ، فلم يوافقهم الحافظ على قتله . ثم قال للشيخ : « أرنى شيئا فى هؤلاء الذين قد أشاروا بقتلك » . فقال له الشيخ : « مرهم يمضوا الى منازلهم » . فقال الحافظ لمن حوله : « انصرفوا الى منازلكم » . فلما انصرفوا صار كل من يركب دابته يراها فى صفة الثور العظيم ، ولها فى رأسها قرون طوال ، فتحيروا فى ذلك ، ورجعوا الى الحافظ ، وذكروا له ما جرى لهم فى دوابهم ، فضحك وقال لهم : « افدوا دوابكم منه » . فما منهم الا من أعطاه شيئا حتى أطلق لهم دوابهم » .

قيل ان الحافظ كان يشتكى بألم القولنج ، فصنع له الحكيم شبرماه الديلمى طبل باز من المعادن السبعة ، وهو مرصود فى وقت معلوم ، فكان من خاصية هذا الطبل اذا ضرب عليه أحد خرج منه ريح ، وهذه الفائدة كانت لدفع القولنج ، وكان الحافظ يعتريه هذا المرض فصنع له ذلك الطبل بسبب القولنج .

قيل لما ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر الديار المصرية استعرض حواصل الخلفاء الفاطمية فوجد ذلك الطبل فى علبة ، فأخذه بعض الأكراد وضرب عليه بيده فخرج منه ريح فخنق من ذلك ورمى الطبل من يده على الأرض فكسره ، فبطل فعله من حينئذ ، فندم على كسره صلاح الدين يوسف غاية الندم .

واستمر الحافظ بالخلافة بمصر حتى توفى ، فكانت وفاته فى جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وكانت مدة خلافته تسع سنين وسبعة أشهر . ولما مات تولى من بعده ابنه الظافر بالله .

الظافر بالله

هو الظافر بالله ، أبو المنصور اسماعيل ، بن الحافظ ، بن المستنصر بالله ، وهو التاسع من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى . بويع بالخلافة بعد موت أبيه الحافظ ، وكان له من العمر لما تولى الخلافة سبع عشرة سنة . وكان شابا جميل الصورة ، حسن الهيئة ، وكان يميل الى اللهو والطرب وشرب الراح ، وكان يهوى ابن وزيره عباس ، وينزل اليه ويبيت عنده فى غالب الأوقات ، وامتحن به غاية الامتحان . قيل انه أهدى فى بعض الأوقات الى ابن الوزير صينية من ذهب فيها ألف حبة من اللؤلؤ الكبار ، وفصوص من الياقوت الأحمر والأصفر والزمرد الدنانى ، وألف نافجة من المسك ، وعشرة آلاف دينار . ومن العجائب أن الوزير عباسا وولده نصرا لم ينفع فيهما شىء من ذلك ، وقتلا الظافر عقيب ذلك كما سيأتى ذكره فى موضعه .

ومن الحوادث فى أيام الظافر أن فى سنة احدى وخمسين وخمسمائة وقع وباء عظيم بين أرض الحجاز واليمن ، وكان بينهما نحو من عشرين قرية ، فدخل الوباء فى ثمانى عشرة قرية منها فأفناهم عن آخرهم حتى لم يبق منهم انسان . فكانت مواشيهم سائبة لا قانى لها ، ولا يستطيع أحد من الناس أن يدخل الى تلك القرى ، وكل

من دخل الى تلك القــرى هلك من وقته بالطعن ومات . وأما القريتان اللتان حول تلك القرى فما عندهما شعور بما جرى على من حولهما من القرى مما أصابهم من الفناء والطعن ، ولم يمت من هاتين القريتين طفل واحــد ... فسبحان القــادر على كل شيء .

ومن هنا نرجع الى أخبار الظافر بالله . قيل كثر الكلام بين الناس فى حق الوزير عباس بسبب ابنه نصر ، فلما نزل الظافر الى بيت الوزير عباس على جرى عادته وبات عنده ، ندب اليه من قتله تحت الليــل ورماه فى بئر ... فلما أصبح الوزير طلع الى دار الخلافة ودخل الى القصر ، فقال لبعض الخدام : «أين أمير المؤمنين ؟» . فقال له الخدام : « ان ابنك نصرا يعرف أين هو ؟ » . ثم ان الوزير عباسا دخل الى دور الحرم وأخرج الأمير عيسى بن الظافر ، وأحضر القضــاة وأرباب الدولة وقال : « ان أمير المؤمنين الظافر نزل البارحة فى مركب فانقلبت به فغرق ومات . والرأى عندى أننا نولى الأمير عيسى الخلافة عوضــا عن أبيــه الظافر ، ونلقبه بالفائز بنصر الله » . وتراضوا على ذلك . ثم بعد ذلك شاع بين الناس أن الوزير عباسا قد قتل الظافر ، فانقلبت الجند على الوزير عبــاس بسبب ذلك .

وكانت قتلة الظافر فى ليلة الأحد ثانى صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة من الهجرة ، وكانت مدة خلافته أربع سنين وسبعة أشهر وأياما .

والظافر هذا هو الذى بنى الجامع المعــروف الآن بجامع الفاكهــــانى ، وهــو بالقــرب من الشــوايين .

الفــائز بنصر الله

هو الفــائز بنصر الله ، أبو القاسم عيسى ، بن الظافر ، بن الحافظ ، بن المستنصر ، وهو العاشر من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى . بويع بالخلافة بعد قتل أبيــه الظافر بالله ، وكان سبب بيعته أن الوزير عباسا لما قتل الظافر طلع الى القصر وأحضر القضاة والشهود وقال لهم ان الظافر نزل البارحة فى مركب فانقلبت به فغرق ، ثم هجم الوزير على ابن الظافر وهو فى دور الحرم وأخذه من عند أمه وحمله على كتفه ففزع منه واضطرب — وكان له من العمر ست سنين — فأحضره بين القضاة وولاه الخلافة ، واستمرت معــه الطربة عمالة حتى كبر ومات بعد مدة وهو يضطرب فى كل وقت .

فلما تم أمره فى الخلافة وأطاعه الجند ، صار يخشى من الوزير عباس ولا يقر له قرار ، فاستعان على قتله بشخص يسمى طلائع بن رزّيك — وكان متوليا على منيــة ابن خصيب — فجمع عسكرا عظيما من العربان وقصد التوجه الى القاهــرة . فلما بلغ الوزير عباسا ذلك أخذ ما قدر عليه من الأموال والتحف وهرب نحو البــلاد هو وولده نصر ، فكان كما قيل :

حكى غــراب البــين فى شــؤمه
لــكن اذا جئنــا الى الحــق زاغ

فبينما هو فى أثناء الطريق اذ خرجت عليه طائفة من الفرنج فأسروه ، وأخذوا ما كان معه من الأموال والتحف ، فلما جاءت الأخبار بذلك الى القاهرة احتاط الفــائز على موجود الوزير عباس جميعه ، وولى الوزارة طلائع بن رزيك عوضا عن عباس ، فخلع عليه وتلقب بالصالح بالله ، فأطاعه الجنــد وأحبوه ، وكانت له حرمة وافرة فى القاهرة . وهو

الذى بنى الجامع المنسوب اليه المشهور بجامع الصالح الذى هو خارج باب زويلة ، وكانت الوزراء تتلقب يومئذ كألقاب الخلفاء .

ثم ان الصالح هذا أرسل الى طائفة الفرنج الذين أسروا الوزير عباسا يطلبه منهم ، وأرسل اليهم هدية ومالا نحو عشرة آلاف دينار ، فلما وصل ذلك الى الفرنج أرسلوا الوزير عباسا وولده نصرا الى الصالح وهما فى الحديد ، فلما دخلا القاهرة كان يومهما يوما مشهودا لم يسمع بمثله ، فأمر الفائز بأن يصلب الوزير عباس وولده نصر على باب القصر ، فصلبا وأخذ الفائز بثأر أبيه الظافر قبل العصر ، فكان كما قيل فى الأمثال : « الموت فى طلب الثأر ، خير من الحياة فى العار » .

وفى أيام الفائز هذا نقلت رأس الحسين رضى الله عنه من عسقلان الى القاهرة ، وذلك فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وسبب ذلك أن رأس الحسين كانت بعسقلان ، فلما تولى الفرنج على عسقلان خاف المسلمون على رأس الحسين فأحضروها الى القاهرة فى علبة ، وبنى لها الفائز هذا المشهد ودفنها به . قيل ان رأس الحسين نقلت الى ثلاثة أماكن قبل أن تحضر الى القاهرة بمدة .

وفى أيام الفائز استعرضت عساكر القاهرة ، فكانت نحو خمسين ألف مقاتل على أجناس مختلفة ، وكان بمراكبه عشر مراكب مشحونة بالرجال والسلاح بسبب الجهاد ، وهذا مع وجود تلاشى أمر الخلفاء الفاطمية وضعف شوكتهم .

واستمر الفائز فى الخلافة بمصر حتى مرض ومات ، وكانت وفاته فى يوم الجمعة سابع رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وتوفى وله من العمر احدى عشرة سنة وأشهر ، ومات بالطعن ، وكانت مدة خلافته بمصر خمس سنين وأشهرا ولما مات تولى من بعده ابن عمه عبد الله العاضد بالله .

العاضد بالله

هو العاضد بالله ، أبو محمد عبد الله ابن الحافظ ، بن المستنصر ، وهو الحادى عشر من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى . بويع بالخلافة بعد موت ابن عمه الفائز فى رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة . قيل ان الخليفة المعز لما قدم الى الديار المصرية قال لبعض علماء مصر : « اكتب لنا ألقابا تصلح للخلافة ، حتى اذا تولى منا أحد تلقب بها » . فكتب له ألقابا كثيرة آخرها العاضد بالله ، فاتفق أن آخر من تولى منهم تلقب بالعاضد بالله ، وبه انقرضت دولتهم . ولم يكن لهم من المساوىء سوى أنهم كانوا رافضة يسبون الصحابة فى كل جمعة على المنابر .

ولما أن تولى العاضد استمر الصالح وزيرا ، فأقام على ذلك مدة ومات ، فتولى عوضه فى الوزارة شاور بن مجير السعدى .

ومن الحوادث فى أيام العاضد أن الفرنج استولوا على الديار المصرية ودخلوا بمراكبهم الى بحر النيل ونزلوا على مدينة الفسطاط التى تقدم ذكرها لأنها كانت بالقرب من بركة الحبش من الرصد ، فأحاطت عساكر الفرنج بمدينة الفسطاط ، وأشرفوا على أخذها ، وكان ملك الفرنج يسمى مرى ، وكان معه نحو سبعين مركبا مشحونة بالمقاتلين . فلما رأى الخليفة العاضد عين الغلب ، وصار الفرنج يأسرون جماعة من المسلمين وينهبون أموالهم ، وقرروا على أهل مصر والقاهرة أموالا جزيلة ، وأخذوا فى أسباب جبايتها ... فعند

ذلك أشار الوزير على الخليفة بحرق مدينة الفسطاط خوفا من الفرنج أن يملكوها ، فأذن له الخليفة فى حرقها ، فجمع الوزير العبيد وأحرقوها . وكانت هذه المدينة من أجلّ المدائن ، وقد أنشأها عمرو بن العاص فى مبتدأ الاسلام عند فتح مصر ، وقد تقدم ذكر ذلك عند فتوح مصر . فلما قدم المعز من الغرب وبنى القاهرة تلاشى أمر مدينة الفسطاط .

وكانت القاهرة فى غاية العمارة والتحصين ، فلما أحرقت مدينة الفسطاط تحول الناس الى القاهرة قيل بلغ كراء الجمل من مدينة الفسطاط الى القاهرة عشرة دنانير كل نقلة ، وصارت النار عمالة فى مدينة الفسطاط واحدا وخمسين يوما حتى صار الدخان يرى من مسيرة ثلاثة أيام ، فلما رأى الفرنج ذلك خافوا ورحلوا عن مصر .

قال عبد الله بن عبد الحكم : « وكان ذلك سببا لخراب مدينة الفسطاط ، وصارت من يومئذ كيمانا يوجد فيها الأعمدة الرخام الأبيض الى الآن . وكان أولها من حدرة ابن قميحة وآخرها عند الرصد ، وكان حرقها وخرابها فى سنة أربع وستين وخمسمائة » .

وقال ابن المتوج ان الخليفة العاضد لما استولى مرى ملك الفرنج على مصر أرسل العاضد الى الملك العادل نور الدين الشهيد صاحب دمشق بأن يرسل الى أهل مصر نجدة ويدركهم قبل أن تملك الفرنج المدينة ، فأرسل نور الدين الشهيد الى مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب هو واخوته ، فلما قدموا الى مصر تسامع بهم الفرنج فرحلوا عن مصر . ولما رحلوا قويت شوكة بنى أيوب بمصر ، فخاف منهم العاضد ، فخلع الوزير شاور بن مجير الدين السعدى من الوزارة ، وولى أسد الدين شيركوه أخا أيوب عم صلاح الدين يوسف عوضا عن السعدى .

ثم ان أسد الدين صلب الوزير ابن مجير الدين السعدى على باب القاهرة لكونه أشار بحرق مدينة الفسطاط ، ثم ان أسد الدين لما تم أمره فى الوزارة تلقب بالمنصور — وكانت الوزراء تتلقب بمثل ألقاب الخلفاء — فلما تولى الوزارة أقام حرمة مصر الى الغاية ، وهابه الناس ، فأقام فى الوزارة مدة يسيرة ومات فجأة على حين غفلة .

فلما مات أسد الدين شيركوه تولى من بعده الوزارة صلاح الدين يوسف بن أيوب وتلقب بالناصر . فلما تولى صلاح الدين بن أيوب على مصر ضعفت شوكة الخليفة العاضد ، ومالت الجند الى صلاح الدين يوسف . ثم ان نور الدين الشهيد أرسل يقول له : « اقطع الخطبة من مصر عن اسم العاضد » . فلما قطع الخطبة عن اسمه حصل له قهر عظيم ، وصار مع صلاح الدين كالمحجور عليه ... لا يتصرف فى الأمور الا بعد مشورة صلاح الدين ، فما أطاق العاضد ذلك ، فقيل انه ابتلع فص ألماس فمات من يومه .

وكانت وفاته فى يوم الاثنين عاشر المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة من الهجرة ، وكانت مدة خلافته بمصر اثنتى عشرة سنة وستة أشهر وأياما ، وبه انقطعت دولة بنى عبيد الله الفاطمى عن الخلافة بمصر ، وبه ختمت أخبار الخلفاء الفاطمية من بنى عبيد الله .

وقد قامت دولة الخلفاء الفاطمية بمصر مائتين وثمانيا وستين سنة .

الدولة الأيوبية

الملك الناصر

كان أولهم الملك الناصر ، أبا المظفر يوسف ، ابن أيوب ، بن شادى ، بن مروان الكردى . وكان أصلهم من أذربيجان من بلاد الكرج ، ولكن أصلهم أكراد .

وكان مولد صلاح الدين يوسف بقلعة تكريت فى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة . وكان أبوه أيوب فى خدمة زنكى أبى نور الدين الشهيد ، فلما توفى زنكى صار أيوب وأولاده فى خدمة نور الدين الشهيد ، ثم ارتقى نور الدين حتى بقى صاحب البلاد الشامية .

فلما تلاشى أمر الخليفة العاضد ، واستولت الفرنج على الديار المصرية ، أرسل يطلب من نور الدين الشهيد نجدة بسبب الفرنج ، فأرسل اليه أسد الدين شيركوه أخا أيوب عم صلاح الدين يوسف . فلما توفى أسد الدين تولى من بعده فى الوزارة أيام العاضد صلاح الدين يوسف . فلما توفى العاضد تولى من بعده على مصر صلاح الدين يوسف نيابة عن نور الدين الشهيد بتقليد منه .

وكان سبب موت العاضد أن نور الدين الشهيد لما أرسل الى صلاح الدين يقول له : « اقطع الخطبة عن اسم العاضد بالله » ... أرسل صلاح الدين يقول لنور الدين الشهيد : « ان أهل مصر لا يطاوعونى على ذلك ، وأخشى أن يثبوا على بسبب ذلك » . فأرسل نور الدين الشهيد يقول لصلاح الدين ثانيا : « لابد من ذلك » .

فلما رأى صلاح الدين أن نور الدين الشهيد مصمم على ذلك ، جمع أعيان أهل مصر وذكر لهم ما قاله نور الدين الشهيد ، فقالوا له : « وكيف يكون ذلك ؟ » . فقال شخص من أبناء العجم يسمى الأمين ، وكان من أهل العلم : « أنا أفتح لكم باب هذا الأمر » .

فلما كان يوم الجمعة ثانى المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة ، صعد ذلك الشخص الأعجمى الى المنبر قبل صلاة الجمعة ، ودعا الى الخليفة المستضىء بالله العباسى خليفة بغداد . فلما صعد المنبر ودعا الى المستضىء لم يتكلم أحد من الناس ولا أنكروا . فلما كان ثانى جمعة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة أن يقطعوا اسم الخليفة العاضد من الخطبة ، وأن يدعوا باسم الخليفة المستضىء بالله العباسى ، ففعلوا ذلك .

فلما بلغ العاضد ذلك انقهر وعمد الى فص من الألماس فابتلعه ، فمات من يومه ودفن . فكانت وفاته فى عاشر المحرم كما تقدم .

فلما مات العاضد أرسل نور الدين الشهيد الى صلاح الدين تقليدا بولاية مصر نيابة عنه .

قيل لما استولى صلاح الدين يوسف على حواصل الخلفاء الفاطمية استعرض ما فيها من السلاح والأموال ، فأرسل الى نور الدين ما استحسنه من السلاح الفاخر والتحف ، وصار

بعد ذلك يبيع ما فضل من السلاح وغيره نحو عشر سنين غير ما اصطفاه لنفسه .

ثم ان صلاح الدين صار مستوليا على مصر نيابة عن نور الدين الشهيد حتى توفى نور الدين محمود بن زنكى . وكانت وفاته فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، ودفن بدمشق فى جامع الكلاسة ، وكان يلقب بالملك العادل ، وهو المجاهد المرابط فاتح بيت المقدس من أيدى الفرنج ، وفاتح الثغور الاسلامية من البلاد الشامية ، وهو الذى تعصب لبنى العباس ورد لهم الخطبة بمصر وأعمالها ، وأبطل ما كان يخطب باسم الفاطمية .

قال الهروى ان فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة انخسفت المغارة المدفون فيها ابراهيم الخليل عليه السلام ، فنزل اليها جماعة فوجدوا فيها ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام ، وقد بليت أكفانهم ، وهم مستندون الى حائط المغارة وعلى رءوسهم قناديل من ذهب وفضة . فلما بلغ نور الدين ذلك أمر بأن تجدد لهم أكفان جدد ، وأن يسد عليهم ما انخسف من المغارة .

فلما توفى نور الدين الشهيد انفرد صلاح الدين يوسف بمملكة الديار المصرية والبلاد الشامية ، وصفا له الوقت ، فأزال ما كان بمصر من العساكر المختلفة — وكانوا ما بين صقالبة وكدالة ومصامدة وأرمن وشناترة العرب والعبيد السود — فمحا تلك الطوائف جميعها ، واتخذ بمصر عساكر من الأكراد خاصة ، فكانت عدتهم اثنى عشر ألف فارس من شجعان الرجال الذين لا يكلون من الحروب .

ثم ان صلاح الدين يوسف نظر فى أحوال الرعية ، وأمر باسقاط المكوس جميعها التى حدثت فى أيام الفاطمية ، وكتب بذلك مسامیح بخط القاضى عبد الرحيم الفاضل صاحب ديوان الانشاء ، وقرئت على المنابر فى الجوامع بعد صلاة الجمعة ، وكان قدر ما أبطله من المكوس فى كل سنة ما ينوف عن مائة ألف دينار . فلما قرئت تلك المسامیح ضج له الناس بالدعاء وأحبته الرعية فكان كما قيل :

دولته للأنام عيد
باق وأيامه مواسم
قد أظهر العدل فى الرعايا
وأبطل الجور والمظالم
هذا الذى عنه أخبرتنا
طوالع النجم والملاحم
يصير الشاة فى حماه
تمشى مع الذئب والضياغم

قال ابن الأثير : « لما كانت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، أمر الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب ببناء سور القاهرة بالحجر الفص المنحوت ، وكان القائم على بنائه الأمير بهاء الدين قراقوش الخصى الحبشى » . فأبطل السور القديم الذى كان قد بناه الأمير جوهر القائد فى أيام المعز الفاطمى كما تقدم .

وكان جوهر القائد بنى السور أولا بالطوب اللبن فى سنة احدى وستين وثلثمائة عندما قدم من القيروان ، وآثار السور القديم باقية عند الباب المحروق الى الآن .

قال ابن الأثير ان دور السور الذى بناه صلاح الدين يوسف تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثة آلاف ذراع بالعمل ، وجعل عليه هذه الأبواب المصفحة بالحديد . وكانت عدة أبواب القاهرة خمسة عشر بابا غير ما فى السور من الأبواب الصغار ، وكان باب زويلة يسمى باب الفاضل ،

وانما باب زويلة القديم الذى فى الغرابليين عند سام بن نوح وآثاره باقية الى الآن .

قال ابن الأثير ان صلاح الدين يوسف هو الذى بنى قلعة الجبل وصارت دار المملكة ، وبطل أمر قصر الزمرد الذى كان فى القاهرة مكان دار الضرب . ولكن مات صلاح الدين ولم يتم بناء قلعة الجبل وانما أتم بناءها الملك الكامل محمد ابن أخى الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، وهو أول من سكن بقلعة الجبل من بنى أيوب .

ومن النكت اللطيفة أنه كان بدمشق خان يسمى بخان ابن الزنجارى ، وكان يفعل فيه من أنواع الفسوق مالا يوصف شرحه . فلما بلغ الملك الناصر صلاح الدين يوسف أخبار ذلك الخان أمر بهدمه فهدم وبنى مكانه جامعا وسماه جامع التوبة ، وولى خطبته والامامة الى شخص يسمى العماد الواسطى — وكان يتهم بشرب الراح وحب الملاح — فكتب بعض اللطفاء قصيدة عن لسان حال هذا الجامع ، ورفعها الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، وكان شرح هذه القصة فى هذه الأبيات :

يا مليكا أوضح الحق لدينا وأبانه
جامع التوبة قد قلدنى منه أمانه
قال : قل للملك الناصر أبقى الله شانه
يا صلاح الدين يامن حمد الناس زمانه
لى خطيب واسطى بعشق الشرب ديانه
ويحب المرد طبعا ويغنى بالجعانه
فانا فى كل حال لم أزل بالسكرخانه
فاستمع قصة حالى زادك الله صيانة

فلما وقف صلاح الدين على هذه الأبيات أمر بعزل العماد الواسطى عن خطبة الجامع ، وولى عليه شخصا من أهل الصلاح والخير .

قال المسبحى ان فى أيام صلاح الدين يوسف نزل الفرنج على ثغر مدينة دمياط فخرج اليهم صلاح الدين فى عساكر كثيرة من مصر ، وتوجه الى دمياط ، فتقاتل مع الفرنج أشد القتال ، وكانوا نحو مائتى مركب ، فأقام صلاح الدين يحاصر الفرنج على دمياط نحو خمسة وخمسين يوما فانكسر الفرنج وانهزموا نحو بلادهم مدبرين وانتصر عليهم صلاح الدين .

فلما رحل الفرنج الى بلادهم توجه صلاح الدين من هناك الى الشام فأقام بها مدة . قيل لما دخل صلاح الدين الى دمشق نزل بالميدان الكبير فجاءت اليه أرباب الملاعب من المصارعين والمتأنقين وغير ذلك ، وكان فيما جاء اليه رجل أعجمى فتكلم معه بأن يريه أعجوبة فى صنعة الشعبذة ، فأذن له فى ذلك ، فنصب خيمة لطيفة فى الميدان بين يدى السلطان صلاح الدين وأخرج من كمه كبة خيط فربط طرف ذلك فى يده ، ثم حدف تلك الكبة الخيط فى الهواء ثم تعلق بها وصعد حتى غاب عن الأبصار ، ثم سقطت بين الناس احدى رجليه وصارت تزحف على الأرض حتى دخلت الى الخيمة ، ثم سقطت احدى يديه ودخلت الى الخيمة ، ثم سقطت اليد الأخرى ودخلت الى الخيمة ، ولم تزل أعضاؤه تتساقط عضوا بعد عضو حتى سقط الرأس وصار يزحف على الأرض حتى دخل الخيمة ثم بعد ساعة خرج ذلك الرجل وهو سوى كما كان يمشى على أقدامه ، فقبل الأرض بين يدى الملك الناصر ... فبهت الناس من ذلك ، ثم ان الرجل دخل الخيمة ثانيا قدام الناس فقال رفيقه للحاضرين : « ادخلوا الخيمة فتشوا فيها » .. فدخلوا الخيمة وفتشوا فيها فلم يجدوا فيها أحدا ، ثم فكوا الخيمة ونصبوها فى مكان آخر فخرج منها ذلك الرجل وهو يمشى على أقدامه كما دخل ،

فتعجب منه الناس ومن كان حول الملك الناصر من الأمراء .

ثم ان الأمير سنقر الأخلاطى حنق من ذلك الرجل الذى صنع هذه الشعبذة فقام اليه بالسيف وضرب عنقه بين الناس ، وقال للملك الناصر ان مثل هذا لا يؤمن أن يكون جاسوسا من عند أحد من الفرنج ، ثم أراد الأمير سنقر أن يقتل رفيقه فاستجار بالملك الناصر وزعم أنه لايعرف شيئا مما كان يعمله رفيقه ، فقال له الملك الناصر : « اخرج من دمشق فى هذه الساعة ، ولا تقم بها فيقتلوك » فخرج من وقته .

قال ابن كثير ان الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب هو أول من قرر الخدام الخصيان بمدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن بها أحد من الخدام قبل ذلك ، وكان سبب تقريره للخدام أن بنى حسن لما تغلبوا على الخلفاء الفاطمية ، وأظهروا العصيان ، وصاروا يجهرون عند الأذان بقولهم : « حى على خير العمل » ، وهو مذهب الشيعة .. فلما تولى مصر الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب استمال بنى حسن ، وأغدق عليهم الأموال والهدايا حتى أذنوا له أن يجعل على المدنة الشريفة جماعة من قبله ، فقرر بالمدينة الشريفة أربعة وعشرين خادما خصيا ، وجعل عليهم شيخا من الخدام يقال له بدر الدين الأسدى ، ووقف على مجارى المدينة الشريفة بلدين من أعمال الصعيد — وهما نقادة وقبالة ، وهما الى الآن جاريتان فى أوقاف الحرمين — وكان شيخ الحرم النبوى اذا قدم من المدينة على الملوك يقومون له ويجلسونه الى جانبهم ويتبركون به لقرب عهده من تلك الأماكن الشريفة .. واستمر الأمر على ذلك الى أيام الملك الأشرف برسباى .

ومما أنشأه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بالديار المصرية من آثار الخير ، خانقاه سعيد السعداء التى بالقرب من باب النصر وأنشأ المدرسة السيوفية التى بالقرب من باب الزهومه ، وأنشأ مارستانا كان عند دار الضرب القديم ، وأنشأ المدرسة التى بجوار الامام الشافعى — وكانت ساحة — وهو الذى أقام بمجد السادة الشافعية وقدمهم على غيرهم من المذاهب ، وأنشأ المدرسة الصلاحية التى بالقدس الشريف عندما استخلص بيت المقدس من يد الفرنج ، وله غير ذلك من الآثار الحسنة أشياء كثيرة بالديار المصرية والبلاد الشامية ، واستخلص بلادا كثيرة كانت تحت يد الفرنج من البلاد الاسلامية .

واستمر الملك الناصر صلاح الدين يوسف قائما بأمور الديار المصرية حتى سافر الى البلاد الشامية فى أواخر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة . فلما دخل الى الشام أقام بها مدة يسيرة ومرض ومات ، فكانت وفاته فى صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة . ومات وله من العمر احدى وسبعون سنة .

ولما مات دفن بدمشق بمدرسة مجاهد الدين ، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية أربعا وعشرين سنة بما فيها من أيام محمود بن زنكى الشهيد .

ولما مات صلاح الدين يوسف خلف من الأولاد سبعة عشر ولدا ذكرا من صلبه ، ولم يخلف فى خزائنه لاذهبا ولا فضة ، ولم يخلف قرية ولا بستانا ولا ملكا ولا ضيعة ، وأنفذ جميع ما فى الخزائن على التجاريد والغزوات حتى فتح البلاد التى كانت بيد الفرنج .

ولما مات تولى من بعده ابنه العزيز عثمان .

الملك العزيز بالله

هو الملك العزيز بالله ، عماد الدين أبو الفتح ، عثمان بن الملك الناصر صـلاح الدين يوسف بن أيوب ، وهو الثـانى من ملوك بنى أيوب بمصر . بويع له بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بعهد من أبيه له . وكان أصغر اخوته ، وكان أخوه الأفضل أكبر منه . فلما توفى الملك الناصر صلاح الدين بدمشق ولى ابنه الأفضل على دمشق ، وولى ابنه المظفر غازى على حلب ، وولى ابنه العزيز عثمان على مصر .

وكان مولد العزيز بمصر فى جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة ، وولى ملك مصر وله من العمر نحو سبع وعشرين سنة . فلما مات أبوهم صلاح الدين وقع الخلف بين الاخوة ، ووثبوا على بعضهم ، ولم يقنع أحد منهم بما هو فيه فحصل بينهم من الفتن والحروب ما يطول شرحه عن هذا المختصر .

فلما تولى الملك العزيز على مصر وأتى من دمشق وجلس على سرير الملك لم يمش على طريقة والده الملك الناصر صلاح الدين ، وسار مع الناس فى مصر أقبح سيرة ، وقد أخطأت فيه فراسـة أبيه الناصر بما كان يرجوه فيه فكان كما قيل فى المعنى :

أملتهـم ثـم تأملتهـم
فلاح لى أن ليس فيهم فلاح

طلل وقوفى بفنـا ربعهـم
بغـير نفـع فالرواح الرواح

فأعاد المكوس التى كان أبطلها أبوه صـلاح الدين ، وزاد فى شـناعتها ، وتجـاهر بالمعـاصى والمنكرات حتى غلا سعر العنب فى أيامه لكثرة من يعصره ، وحملت أوانى الخمر جهارا من غير انكار وحميت بيوت المزارة وأماكن الحشيش ، وأباح ذلك أرباب الأمر والنهى ، وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة حتى صار يأخذ من أرباب هذه الجهات فى كل يوم ستة عشر دينارا حماية للسلطان ، فلم يقدر أحـد أن يعارض أماكن الفسـوق فى أيامه فيما يفعلون ، وصارت طاحون الحشيش عمالة فى كل يوم فى حارة المصامدة ، وكذلك بيوت المزارة فى الكبش فى مكان يقال له الغور .

قال القاضى الفاضل ان فى أيام الملك العزيز هذا وقع غلاء بسبب توقف النيل ، وتشحطت الغلال فى وقت ميسورها والقمح فى الجرون ، واضطربت أحوال الديار المصرية من قلة العدل وكثرة المعاصى والفسوق .

ومن الحوادث فى أيامه أن دارا كانت فى فم السد تعرف بدار ابن مقشر ، وكان يحصل فى أجرتها فى اليوم والليلة ما لا يتحصل من أجرة مثلها فى مدة سنة كاملة ، وذلك بسبب الفرجة يوم فتح السد اذا أوفى النيل . فلما أن كانت سنة احدى وتسعين وخمسمائة أوفى النيل على جرى عادته فأكرت الناس تلك الأماكن التى فى دار ابن مقشر بسبب الفرجة حتى ما بقى فيها مايسع قدم انسان . فبينما الناس محتبكة بها للفرجة اذ سقطت تلك الدار على من فيها من الناس فماتوا جميعا ، وكان بها ما ينوف عن خمسمائة نفس من ساء ورجال وصغار وكبار ، فأقاموا يستخرجون من فيهـا من الأموات ثلاثة أيام ، فوجدوا بهـا شخصا يعرف بأبى البقا وفيه بعض نفس ، فطلع من تحت الردم وقـد كاد أن يفارق الدنيا . فلما شم الهواء عوفى وعاش بعـد ذلك مدة طويلة ، ثم طلع الى سطح داره فى بعض الأيام ونزل وهو مستعجل فزلت رجله من ثلاث درج من سلم السطح فمات من وقته وساعته .

قال ابن المتوج : « جاء رجل من بلاد العجم الى القاهرة فأوحى الى الملك عثمان بأن الهرم الصغير الذى فى الجيزة — وهو المكسو بالحجر الصوان — تحته مطلب ، فوجه اليه الملك العزيز جماعة من الحجارين ليهدموه ، فأقاموا فى هدمه نحو شهر ولم يهدموا منه الا اليسير ، فأنفق على هدمه فى هذه المدة مالا جزيلا ، فلما أعياه ذلك تركه . وآثار ذلك النقب فيه الى الآن ، وقد نزعوا عنه بعض الحجارة الصوان .

سنة خمس وتسعين وخمسمائة (١١٩٨ م) :

فيها خرج الملك العزيز الى نحو الفيوم يتصيد على سبيل الفرجة ، فلاح له ظبى فساق خلفه فكبا به الفرس فدخل قربوس السرج فى صدره فمات من وقته ، فحمل الى القاهرة ودفن عند الامام الشافعى رضى الله عنه .

وكانت وفاته فى يوم الخميس العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، فكانت مدة سلطنته فى الديار المصرية نحو سبع سنين وأشهر .

ولما مات تولى من بعده ابنه محمد .

الملك المنصور

هو الملك المنصور محمد ، بن الملك العزيز عثمان ، بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، بن أيوب ، وهو الثالث من ملوك بنى أيوب . بويع بالسلطنة بعد موت أبيه العزيز فى العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وكان له من العمر لما تولى السلطنة نحو عشرين سنة . وكان القائم بأمور دولته الأمير بهاء الدين قراقوش — وهو صاحب الحارة المنسوبة اليه — فساس الرعية فى أيامه أحسن سياسة وأحبته الرعية ، ودعوا له بطول البقاء .

وفى أيامه توفى القاضى عبد الرحيم الفاضل صاحب ديوان الانشاء ، وهو أول من أظهر التورية فى الشعر . قال الأسعد بن مماتى : « كان القاضى الفاضل دميم الخلقة ، وكان له حدبة ظاهرة خلف ظهره ، وكان يسترها بالطيلسان حتى لا تظهر للناس » . وقد هجاه ابن عنين الشاعر بسبب حدبته بهذه الأبيات :

حاشا لعبد الرحيم سيدنا ال
فاضل ماذا تقوله السفل

يكذب من قال ان حدبته
فى ظهره من عبيده حبل

هذا قياس فى غير سيدنا
يصح أن كان يحبل الرجل

ومن النكت اللطيفة قول الأسعد بن مماتى : دخلت يوما على القاضى الفاضل ، فرأيت الى جانبه أترجة بديعة الخلقة ، فجعلت أنظر الى تلك الأترجة فقال لى الفاضل : أراك تطيل النظر الى هذه الأترجة . فقلت : أتعجب من شكلها وبديع خلقتها . فقال لى الفاضل : ولها نسبة أيضا فيما بها من الاحتداب . فقلت : الله الله يا مولانا .

ثم انى ارتجلت بيتين من الشعر وهما هذان :

للحسن ، بل لله ، أترجة
قد أذكرتنا بجنان النعيم

كأنها قد جمعت نفسها
من هيبة الفاضل عبد الرحيم

فلما سمع ذلك أعجبه وزال ما عنده مما كان قد توهمه منى .

قال الأسعد بن مماتى : ثم انى ذكرت هذه الواقعة لبعض أصحابى ، فقال لى : احمد الله اذ أنشدته ذلك من لفظك ولم تكتبهما له ... فربما

حفت عليـه فى اللفظ فيقرؤها « من هيئـة »
ضل عبد الرحيم ... فيزداد حنقا من ذلك .

واستمر الملك المنصور فى السلطنة مدة يسيرة ،
ثبت عليه أعمامه من أجل السلطنة ، وجرى بينهم
الحروب ما يطول شرحه عن هذا المختصر .

وآخر الأمر خلع الملك المنصـور من السلطنة ،
جن بقلعة الجبل واستمر مسجونا الى أن مات
لسجن ، فكانت مدة سلطنته بمصر تسعة أشهر
ما .

ولما خلع الملك المنصور تولى من بعده عم أبيه
ير أبو بكر بن أيوب .

الملك العـادل

هو الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، بن الأمير
م الدين أيوب بن شادى ، وهو الرابع من ملوك
أيوب بمصر . بويع بالسلطنة بعد خلع ابن ابن
يه المنصور محمد فى شوال سنة خمس وتسعين
خمسمائة . وكان العادل هذا فى أيام أخيه الناصر
لاح الدين يوسف قد استولى على عدة من بلاد
مرق . وكان العادل هـذا مسـعودا فى جميع
كاته ، يحب الغـزو فى سـبيل الله ، خفيف
كائب ، صبورا على الجهاد . وكان مولده بمدينة
بك فى سنة أربع وستين وخمسمائة . وكان أصغر
أخيه صلاح الدين يوسف . فلما تولى السلطنة
صر مشى على نظام الملوك القـديمة فى الحرمة
افرة ونفاذ الكلمة . قيل انه كان يشتى بمصر
صيف بالشام . وكانت مملكة مصر والشـام فى
مه مضبوطة لا يختل شىء من نظامها . واستمر
مر على ذلك ...

نة سبع وتسعين وخمسمائة (١٢٠٠ م) :

فيها توقف النيل عن الزيادة قبل الوفاء ، وثبت
على اثنى عشر ذراعا وأصبع واحد ، ثم هبط ولم
يزد بعد ذلك شيئا من الأصابع فاضطربت أحوال
الديار المصرية ، وأكلت النـاس بعضها بعضـا .
واستمر النيل على ذلك ثلاث سنين متوالية ، ولم
يزد غير عشرة أذرع ثم يهبط ، فوقع القحط بالديار
المصرية وعدمت الأقوات فى سائر أعمـال مصر ،
فصـار الناس من شـدة الجوع يأكلون القطط
والكلاب والحمير والبغال والخيل والجمال حتى
ما بقى بمصر دابة ، فصار الناس اذا قوى أحدهم
على صاحبه يذبحه بيده ويأكله ، وصـار الرجل
يذبح ابن جـاره ويأكله ولا ينكر ذلك عليـه ،
ويذبح ولده بيده ويأكله من شدة الجوع ... وهذا
كله بعـد أن فرغت الكلاب والقطط والوحوش
والطيور . وقد تناهى سعر القمح فى السنة الثالثة
الى مائة دينار كل أردب ... ولا يوجد .

ثم جاء عقيب ذلك فناء عظيم حتى مات من أهل
مصر نحو الثلثين .

قال أبو شـامة المؤرخ ان الملك العادل أبا بكر
ابن أيوب كفن من ماله فى مدة يسيرة ممن مات من
الغرباء نحو مائتين وعشرين ألف انسان ، غير من
مات من أهل المدينة فلم يحص لهم عدد حتى قيل
كان النيل اذا طلع لم يجـد من يزرع الأراضى ،
فكانت الترك تحرج بنفسـها يحرثون ويزرعـون
بأيديهم ، ويبذرون فى الأرض الغلال لعدم وجود
الفلاحين .

وقيل فقد من الأطباء فى تلك السـنة جماعة
كثيرة ... يدعونهم الى المريض فاذا حصلوا عندهم
فى الدار يذبحونهم ويأكلونهم . وكذلك النسـاء
الغواسـل ... يدعونهن الى الأموات فيذبحونهن
ويأكلونهن ، حتى قيل ان رجلا استدعى بطبيب فلما
مضى معه الطبيب جعل ذلك الرجل يكثر من ذكر
الله تعالى بطول الطريق ، فسكن روع ذلك الطبيب

بعد ما كان على وجل ، فلما وصلا الى الدار فاذا هى دار خربة ، فارتاع ذلك الطبيب فخرج اليه رجل من الخربة وقال للرجل الذى جاء بالطبيب : « وهل مع هذا البطء العظيم جئت الينا بصيد ؟ » ... فلما سمع الطبيب ذلك ولى هاربا ، وما خلص الا بعد جهد عظيم .

واستمر الأمر على ذلك مدة ثم سكن الحال ، وتراجع الأمر قليلا قليلا ، وظهرت الغلال ، وانحط سعر القمح حتى صار مرميا لا يجد من يشتريه ، وتراجع سعر كل شيء ، وانصلح الوقت وطاب ، ورجع الماء الى مجاريه فكان كما قيل فى المعنى :

اذا ما رماك الدهر يوما بنكبة
فهيىء لها صبرا وأوسع لها صدرا
فان تصاريف الزمان كثيرة
فيوما ترى عسرا ويوما ترى يسرا

ثم ان الملك العادل استمر فى السلطنة بمصر حتى خرج الى نحو الشام لتفقد الأحوال ، فمرض هناك ومات ودفن بدمشق ، فكانت وفاته فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة ، وكانت مدة سلطنته بمصر ثمانى عشرة سنة وتسعة أشهر .

وكان العادل هذا رجلا طويلا جسيما ، مدور الوجه ، شرها فى الأكل ، يأكل الخروف وحده . وكان يحب من يأكل معه مثل أكله .

ولما مات الملك العادل خلف من الأولاد ثلاثة ، وهم :

الملك محمد الكامل ، فاستمر بعد أبيه العادل على مملكة الديار المصرية .

وابنه الملك المعظم عيسى ، فاستقر بعد أبيه العادل على مملكة البلاد الشامية .

وابنة الملك الأشرف موسى شاه أرمن ، فاستقر بعد أبيه على مملكة البلاد الحلبية . وكان موسى شاه أرمن هذا بديع الحسن والجمال ، وهو ممدوح القاضى كمال الدين بن النبيه فى جميع قصائده حيث يقول من قصيدة :

يا طالب الرزق ان سدت مذاهبه
قل يا أبا الفتح يا موسى وقد فتحت

وقال فى ختم زجل :

والشفق أحمر وأصفر رايات شاه أرمن
ذا ملك بحال جالو ما خلق وليس يخلق

وفى أيام العادل أبى بكر توفى مؤيد الدين — صاحب لامية العجم — الطغرائى . وكان شاعرا ماهرا ، وله شعر جيد . وكان كاتب الملك مسعود صاحب حماه . فلما كانت الواقعة بين الملك مسعود وبين أخيه الملك محمود شاه ، انكسر الملك مسعود وولى هاربا ، فكان أول من أسر من جماعة الملك مسعود مؤيد الدين الطغرائى . فلما مثل بين يدى الملك محمود شاه — وكان بينه وبين الطغرائى عداوة بسبب مملوكه فريد الحسن — أمر بقتل الطغرائى على يد ذلك المملوك الذى كان يهواه ، فرمى عليه بالنشاب فقتله . وقيل عفا عنه ومات الطغرائى عقيب ذلك من الرجفة .

الملك الكامل

هو الملك الكامل ، ناصر الدين محمد ، بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وهو الخامس من ملوك بنى أيوب بمصر . بويع بالسلطنة بعد موت أبيه العادل فى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة . وكان الملك الكامل اكبر اخوته .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى فى تاريخه ان الملك الكامل استولى على الديار المصرية نحوا من أربعين سنة ، نصفها فى حياة أبيه الملك العادل ،

ونصفها مستقل بها بمفرده . وكان كثير الغزوات ، ويحب الجهاد ، وفتح فى أيامه فتوحات كثيرة من البلاد الشامية والمصرية .

وكان الملك الكامل يكثر من الاقامة فى العباسية ، ويقول : « هذه أحسن من مصر ، فانى اذا أقمت بها أصطاد الطير من السماء ، والسمك من الماء ، والوحش من الفضاء ، ويصل الى خبر القاهرة فى يومه مع النجباء فى كل يوم مرتين » . وكان من حبه للعباسية أنشأ بها البساتين والمناظر برسم الحرم والسرارى .

وفى أيامه توفى الشيخ الصالح أبو الحسن الدينورى ، وكان من كبار العلماء الأولياء ، وله كرامات خارقة ، ودفن بالقرب من الجبل المقطم ، وكانت وفاته فى ذى القعدة سنة ست عشرة وستمائة .

ومن الحوادث فى أيامه أن شخصا مغربيا دخل الى الديار المصرية ، وكان من علماء فن السيميا ، فأظهر لشخص من الأعيان بستانا خارج القاهرة من أحسن مايكون ، كثير الأشجار من أصناف الفواكه المثمرة ، وفيه خمس سواق دائرة ، وعدة ثيران واقفة برسم السوافى ، وحوله واقفة من حول هذا البستان . فلما رآه ذلك الرجل أعجبه فاشتراه من المغربى بألف دينار وقبضه الثمن ، وأشهد عليه المغربى بتسليم ذلك البستان بقاض وشهود ... ثم مضى ذلك المغربى الى حال سبيله وبات ذلك الرجل فى البستان الذى اشتراه ، فلما أصبح وجد نفسه بين الكيمان ولم ير شيئا من ذلك البستان الذى باعه له المغربى ، فصار يسأل من الناس : « هل كان قبل ذلك اليوم هنا بستان ؟ » . فيقولون : « ما سمعنا بهذا قط » . فصار الرجل متعجبا من ذلك ، وشاع أمره بين الناس فلما بلغ الملك الكامل ذلك طلب المغربى فلم يجده وأخذ الألف دينار ومضى الى حال سبيله . وهذه الواقعة من الغرائب .

وقال بعض المؤرخين ان ملوك اليمن أهدت الى الملك الكامل محمد شمعدانا من نحاس يخرج منه عند طلوع الفجر شخص من نحاس لطيف الحلقة يخاطب الملك قائلا : « صبحك الله بالخير ... قد طلع الفجر » ، أو صفير هذا معناه . وكان هذا الشمعدان من صنعة الميقاتية ، فأقام فى حواصل الملوك الى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم فقد .

وفى أيام الملك الكامل هذا توفى الشيخ زكى الدين العوضى ، وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد . وكان سبب موته — كما قيل — أنه كان فى خدمة الملك المظفر محمود صاحب حماه ، وكان قبل أن يلى حماه وعد الشيخ زكى الدين العوضى أنه اذا تولى حماه يعطى الشيخ زكى الدين ألف دينار . فلما تولى حماه كتب اليه الشيخ زكى الدين هذه الأبيات :

مولاى هذا الملك قد نلته
برغم مخلوق من الخالق
والدهر منقاد لما شئته
فذا أوان الوعد الصادق

فعند ذلك دفع اليه الملك المظفر الألف دينار التى وعده بها ثم ان الملك المظفر صار يرسل الشيخ زكى الدين فى الأسفار الى بعض أشغاله فصرف الألف دينار على الأسفار ولم يبق منها شىء ، فبلغ الملك المظفر أن الشيخ زكى الدين قال فى معنى ذلك شعرا :

ان الذى أعطوه لى جملة
قد استردوه قليلا قليل
فليت لم يعطوا ولم يأخذوا
وحسبنا الله ونعم الوكيل

فلما بلغ الملك المظفر ذلك أمر بحبسه ، فحبس ، فبلغه عنه أنه قال وهو فى السجن هذا البيت من قصيدة :

أعطيتنى الألف تعظيماً ومكرمة
يا ليت شعرى ! أم أعطيتنى ديتى ؟

فلما بلغ الملك المظفر ذلك أمر بخنقه ، فخنق وهو فى السجن ، ودفن تحت الليل .

سنة ثمان عشرة وستمائة (١٢٢١ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن الفرنج جاءوا الى ثغر دمياط فى مائتى مركب ، واستولوا على مدينة دمياط وملكوها . فعند ذلك اضطربت أحوال الديار المصرية ، ونادى الملك الكامل فى القاهرة بأن النفير عام ... فاجتمع من العساكر نحو عشرين ألف مقاتل ، فعند ذلك خرج الملك الكامل من القاهرة ومعه تلك العساكر فتوجه الى دمياط ، ونزل قبالة طلخا على رأس بحر أشموم ، واجتمع هناك السواد الأعظم من الخلائق ، وصار الملك يحاصر الفرنج فى دمياط ، وقد حصن الفرنج سور دمياط ، وجعلوا الجامع الكبير كنيسة . فلما دام الحصار بينهم وقع الغلاء بين عسكر السلطان الكامل حتى عدمت الأقوات وبلغ الرغيف الخبز ثقله فضة ، وبيعت بيضة الدجاجة بدينار ، وصار السكر فى مقام الياقوت الأحمر ... فكانت الخيول والبهائم تأكل من أوراق الشجر فى مدة هذه المحاصرة . وكانت المحاصرة فى ثغر دمياط ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما . وقد أسرف الافرنج فى القتل والنهب والأسر .

وسير الملك الكامل السعاة الى سائر البلاد يستحث الناس الى الحضور لأجل دفع الفرنج عن الديار المصرية . قيل كان فى مدة هذه المحاصرة عشى فى ركاب الملك الكامل شخص يسمى شمايل — وكان من جملة الجندارية — فكان يسبح فى البحر تحت الليل ، ويأتى الملك الكامل بأخبار الفرنج ، فحظى بذلك عند الملك الكامل . فلما انتصر على الأفرنج ولى شمايل المذكور القاهرة ، وصار مقربا عنده ، واليه تنسب خزانة شمايل ، وهى عبارة عن سجن يحبس فيه أصحاب الجرائم .

ولما طال حصار الملك الكامل على دمياط أنشأ هناك قرية وسماها « المنصورة » ، وبنى بها الأسواق والفنادق والحمامات ، ولا زالت تتزايد فى العمارة الى الآن .

ثم ان الملك المظفر محمود — صاحب حماه — حضر فى عسكر كثيف عند الملك الكامل ليعاونه به على دفع العدو ، فاجتمع هناك من العساكر نحو أربعين ألف مقاتل ، فجرى بينهم من القتال ما يطول شرحه عن هذا المختصر ، فلما طال الأمر على الافرنج أيقنوا بالهلاك ، وأرسلوا يطلبون من الملك الكامل الأمان على أنهم يتركون دمياط ويرحلون عنها الى بلادهم ، فاتفق الحال على أن كلا من الفريقين يعطى رهائن من أقاربه ، وعلى أن كلا من المسلمين يطلق من عنده من الأسارى ، وعلى أن الافرنج يطلقون من عندهم من الأسرى من أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ... فحلف الملك الكامل والافرنج على ذلك ، ووقع الصلح على ذلك . فأرسل ملك الافرنج عشرين ملكا من عنده رهنا الى الملك الكامل ، وأرسل الملك ابنه الأمير نجم الدين مع جماعة من الأمراء الى ملك الافرنج . . فعند ذلك سلم الافرنج مدينة دمياط الى المسلمين ، وأطلقوا من كان عندهم من الأسرى من أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف . وكذلك أطلق الملك الكامل من كان عنده من الافرنج الأسرى .

قيل لما سلم الفرنج مدينة دمياط الى المسلمين ، جاء عقيب ذلك الى الافرنج نجدة من البحر نحو مائتى مركب . وكان من جميل صنع الله تأخرها الى حين تسلم المسلمون دمياط ، لأنها لو جاءت

قبل ذلك لتقووا بهـا على المسلمين ، وأبوا عن الصلح . فلما تسلم الملك الكامل مدينة دمياط كان يوم دخوله اليها يومـا مشهودا لم يسمع بمثله ، وعمت البشائر سائر الآفاق . وكانت مدة استيلاء الفرنج على ثغر دمياط سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما ، والملك الكامل معهم فى جهاد ليلا ونهارا ، لا يكل من الحروب فى هذه المدة . وكانت هذه النصرة فى سنة تسع عشرة وستمائة .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى ان فى مدة المحاصرة حضر الى الملك الكامل أخـواه — وهما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الأشرف موسى شاه أرمن صاحب حلب وماردين — فلما حصلت هذه النصرة أحضر الملك أخويه واجتمعوا فى القصر الذى أنشأه الملك الكامل فى المنصورة ، وكان مبتدأ عمارة المنصورة فى سنة عشرين وستمائة ، فلما اجتمعوا فى القصر أحضروا سفرة الشراب بعد أن مد لهم سماط عظيم هناك . فلما جلسوا الى المنادمة بعد ما قاسوا من الافرنج أهوالا عظيمة كما قيل فى المعنى :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساء ويوم نسر

أحضر الملك الأشرف موسى جارية تغنى على عود ، فحركت العود وأنشدت تقول :

ولما طغى فرعون عكا بسحره
وجاء ليسعى بالفساد الى الأرض
أتى نحوه موسى وفى يده العصا
فأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

فطرب الملك الأشرف موسى لذلك فشق على أخيه الملك الكامل محمد هذا المعنى ، وأسرها فى نفسه ، ثم انه أرسل خلف الراجح الحلى الشاعر وأمره بأن يجيب عن ذلك المعنى بشىء — والراجح الحلى هذا أقدم من الصفى الحلى — وقد قال ابن نباتة فى معنى ذلك هذين البيتين :

يا سائلى عن رتبة الحلى فى
نظم القريض وراضيا بى أحكم
للشعر حليان ذلك راجح
ذهب الزمان به ، وهذا قيم

ثم ان الراجح الحلى نظم هذين البيتين ودفعهما الى الملك الكامل ، فأمر الملك الكامل باحضار جارية تضرب بالعود ، فحضرت فى اليوم الثانى وأخذت العود وغنت عليه بهذه الأبيات :

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا
لما قد جرى فى عصرنا وتجددا
ألا ان موسى قد أتانا وقومه
وعيسى جميعا ينصرون محمدا

فلما سمع الملك ذلك طرب له ، وأمر لكل جارية بخمسمائة دينار ، وأجاز الراجح الحلى بجائزة سنية .

ثم ان الملك الكامل دخل الى القاهرة فى موكب عظيم ومعه أخواه الملك الأشرف موسى والملك المعظم عيسى ، فأقاموا فى القاهرة مدة يسيرة وتوجها الى بلادهما .

ثم ان الملك الكامل أخذ فى أسباب بناء مدرسته الكاملية التى بين القصرين ، وكانت تسمى دار الحديث . قيل لما أن حفروا أساس هذه المدرسة وجدوا هناك صنما كبيرا من ذهب ، فأمر الملك الكامل بأن يسبك ذلك الصنم وينفق على بناء هذه المدرسة ، فبنيت من وجه حل .

وهو الذى أنشأ هذه القبة العظيمة على ضريح الامام الشافعى رضى الله عنه ، وبنى المجراة من بركة الحبش الى تربة الامام الشافعى رضى الله عنه تجرى بالماء فى أيام النيل وهى باقية الى الآن . وبنى الحوض على الطريق السالكة عند تربة الامام الشافعى رضى الله عنه . ولما ماتت أم الكامل دفنت عند الامام الشافعى داخل القبة .

وتوفى فى أيامه القاضى كمال الدين ابن النبيه ، وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد ، وهو الذى مدح بنى أيوب بقوله من قصيدة :

دمتم بنى أيوب فى نعمة
تجوز فى التخليد حد الزمان

والله لا زلتم ملوك الورى
شرقا وغربا وعلى الضمان

وكان الملك الكامل سعيد الحركات فى أفعاله ، كثير الجهاد والغزوات والفتوحات .

وفى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة فى ثانى جمادى الأولى توفى الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض رحمة الله عليه ، ودفن بالقرافة الصغرى تحت العارض بالجبل المقطم . وكان مولده بالقاهرة فى رابع ذى القعدة سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، فكانت مدة حياته أربعا وخمسين سنة وستة أشهر وأياما . ولما مات دفن تحت رجلى شيخه الشيخ محمد البقال رحمة الله عليه ، وكان أصله من حماة ، وانما سمى بابن الفارض لأن والده الشيخ شمس الدين كان من كبار أهل العلم ، وقد انفرد فى علم الفرائض ، فسمى لذلك الفارض . وكان الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض رضى الله عنه فريد عصره فى علم التصوف ، وكان له نظم فائق فى معانى الغراميات لم يسبق اليه . وقد عاصر من العلماء الشيخ أبا القاسم المنفلوطى ، والشيخ صفى الدين ابن أبى المنصور ، والشيخ شمس الدين الأيكى شيخ خانقاه سعيد السعداء ، والشيخ سعد الدين الحارثى الحنبلى المحدث ، والقاضى أمين الدين بن الرقاقى ، والشيخ جمال الدين الأسيوطى ، والشيخ شهاب الدين السهروردى رضى الله عنه ، والشيخ برهان الدين الجعبرى ، والقاضى شمس الدين بن خلكان ، والشيخ شهاب الدين بن الخيمى ، وكان له نظم لطيف ، وكان يطارح به ابن الفارض — والشيخ نجم الدين بن اسرائيل ... وغير ذلك جماعة كثيرة من العلماء والصوفية ، ولم ينكر عليه أحد منهم فى حالاته ولا نظمه ، وكانوا معه فى غاية الأدب .

ومما وقع للشيخ شرف الدين عمر بن الفارض أنه كان مقيما بجامع الأزهر ، فأراد يوما أن يتوجه الى جامع عمرو بن العاص الذى فى مصر العتيقة ، فأحضروا الى الشيخ مكاريا ليركبه الى جامع عمرو ، فقال أصحاب الشيخ للمكارى : « كم لك من هنا الى جامع عمرو ؟ » . فقال المكارى : « خلوا الشيخ يركب معى على الفتوح » . فقال الشيخ : « نعم نركب معك على الفتوح » . فركب معه الشيخ وتوجه الى جامع عمرو . فلما كان فى أثناء الطريق لقى الشيخ بعض أعيان الناس فترجل له عن فرسه فسلم عليه ثم أرسل الى الشيخ مائة دينار مع غلامه ، فقال الشيخ : « ادفعوا هذه المائة الى المكارى ، فانا ركبنا معه على الفتوح » . فدفعوا المائة دينار الى المكارى ، فبعث اليه بمائة دينار أخرى غير المائة الاولى ، فقال الشيخ : « ادفعوها الى المكارى ، فانا ركبنا معه على الفتوح » . فلما وصل الشيخ الى جامع عمرو نزل عن الحمار وصار يعتذر الى المكارى فى التقصير ، وقال : « لو دخل الينا أكثر من ذلك لدفعناه اليك » .

ثم ان الملك الكامل قصد التوجه الى دمشق لتفقد الأحوال ، فخرج من القاهرة وتوجه الى دمشق ، فلما دخلها أقام بها مدة ثم مرض ومات هناك ودفن بدمشق . وكانت وفاته فى العشرين من رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة ، فكانت مدة سلطنته بمصر نحوا من عشرين سنة .

ولما مات تولى من بعده ابنه العادل أبو بكر .

الملك العادل

هو الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، بن الملك الكامل محمد ، بن الملك العادل أبى بكر ، بن نجم الدين أيوب ، وهو السادس من ملوك بنى أيوب بمصر . بويع بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الكامل محمد . تولى الملك فى سنة خمس وثلاثين وستمائة .

وكان سبب سلطنته أنه لما توفى أبوه الملك الكامل بدمشق ، كان العادل أبو بكر هذا نائبا عن أبيه بمصر لما أن توجه الى دمشق . فلما توفى هناك الملك الكامل ، وجاءت الأخبار بموته الى القاهرة ، اتفق رأى الأمراء الذين كانوا بمصر على أن يسلطنوا الأمير أبا بكر بن الملك الكامل عوضا عن أبيه ، فسلطنوه ولقبوه بالملك العادل على اسم جده الملك العادل أبى بكر . فلما بلغ أخاه نجم الدين ، وكان نائبا بحلب ، أن أخاه تسلطن بمصر — وكان العادل أصغر من أخيه نجم الدين — شق ذلك على نجم الدين وحضر من حلب الى الديار المصرية فى أسرع مدة . فلما دخل الى مصر وثب على أخيه الملك العادل وحاربه وجرى بينهما من الحروب ما يطول شرحه عن هذا المختصر . وصار العسكر معهم فريقين : مع كل أخ فريق .

ودام الأمر على ذلك ثم قويت شوكة الأمير نجم الدين على أخيه العادل فخلعه من السلطنة وسجنه بقلعة الجبل الى أن مات ، كما سيأتى ذلك فى موضعه ، فكانت مدة ولايته على مصر سنة وشهرين وأياما . ولما خلع تولى من بعده أخوه نجم الدين .

الملك الصالح

هو الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بن الملك الكامل محمد ، بن الملك العادل أبى بكر ، بن نجم الدين بن أيوب ، وهو السابع من ملوك بنى أيوب بمصر . بويع بالسلطنة بعد خلع أخيه الملك العادل أبى بكر فى يوم الاثنين خامس عشرى ذى القعدة سنة ست وثلاثين وستمائة ، وتولى الملك وله من العمر نحو أربع وثلاثين سنة . وكان مولده فى سنة ثلاث وستمائة بمصر فى قلعة الجبل . فلما تم أمره فى السلطنة وأطاعه الجند أخذ فى أسباب تدبير ملكه ، واستكثر من مشترى المماليك حتى ضاقت بهم القاهرة ، وصاروا يشوشون على الناس وينهبون البضائع من الدكاكين ، فضج منهم الناس . وفى ذلك قال بعض الشعراء :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من
تُرْك بدولته ... يا شر مجلوب !

قد آخذ الله أيوبا بفعلته
فالناس قد أصبحوا فى ضر أيوب

فلما بلغ الملك الصالح ذلك بنى لهم قلعة فى الروضة بالقرب من المقياس ، وأسكنهم بها وسماهم المماليك البحرية . وجعل حول تلك القلعة شوانى حربية مشحونة بالسلاح معدة لقتال الفرنج اذا طرقوا البلاد فتكون هذه المماليك على أهبة ، فينزلون فى الحال فى الشوانى ويتوجهون الى قتال الفرنج ، وكان عدتهم ألف مملوك قاطنين بالقلعة لا يخالطون الناس بالمدينة ، ولهم الرواتب والجوامك عمالة بسبب ذلك . وآثار هذه القلعة باقية فى الروضة الى الآن .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى ان طائفة من هذه المماليك خرجوا من القاهرة هاربين من السلطان

فى سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، فتوجهوا الى نحو التيه ، فتاهوا به نحو خمسة أيام ، فلاح لهم فى اليوم السادس سواد فقصده فاذا هو مدينة عظيمة ولها سور ولها أبواب وهى مبنية بالرخام الأخضر ، فدخلوا اليها وطافوا بها ، فوجدوا بها أسواقا ودورا ، ووجدوا فيها صهاريج فيها ماء أحلى من العسل وأبرد من الثلج — فشربوا منه ، ووجدوا فى بعض الدكاكين التى فى أسواقها دنانير من الذهب وعليها كتابة بالقلم القديم ، فأخذوا تلك الدنانير وخرجوا من المدينة فساروا ليلة كاملة ، فلما أصبحوا وجدوا طائفة من العرب هناك فحملوهم الى مدينة الكرك فأخرجوا تلك الدنانير التى معهم الى بعض الصيارفة فاذا عليها مكتوب اسم موسى عليه السلام . وقيل ان هذه المدينة بنيت فى زمن موسى وكان يقال لها المدينة الخضراء من مدائن بنى اسرائيل ، وقد طمست بالرمال ، فتارة تنقص عنها الرمال فتظهر ، وتارة تطمها ... فلاحت الى هؤلاء المماليك وقت تناقص الرمل عنها .

وفى سنة أربع وأربعين وستمائة أنشأ الملك الصالح نجم الدين مدينة على أطراف الرمل وسماها الصالحية ، وأنشأ بها الأسواق والفنادق والمساجد ، فتزايدت فى العمارة وصارت مدينة على انفرادها .

وهو الذى أنشأ المدرستين تجاه باب الصاغة ، وهى : النجمية ، والصالحية قلعة العلماء .

ومن الوقائع فى أيامه أن الأمير شهاب الدين بن يغمور والى القاهرة أمر بشنق عشرين رجلا كانوا يقطعون الطريق على الناس ويقتلون من يظفرون به ، فلما شنقهم أمر الخفراء بحفظهم ، فلما جاء الليل عدهم الخفراء فاذا هم تسعة عشر مشنوقا ... فخاف الخفراء من الأمير شهاب الدين أن يسألهم عنه ، فقعدوا على الطريق ينتظرون من يمر بهم فيشنقونه عوضا عن ذلك الرجل ، واذا بشخص قد مر بهم فقاموا اليه وأمسكوه وشنقوه مع جملة المشانيق . فلما لاح الصباح أتى الأمير شهاب الدين وعد المشانيق فاذا هم أحد وعشرون رجلا فقال للخفراء : « ومن هذا الرجل الزائد الذى معهم ؟ » . فبهتوا ... فقال لهم : « ما شأنكم ؟ » . فقالوا : « يا أيها الأمير ، قد عددناهم فى الليل فرأيناهم ناقصين واحدا ، فمر بنا فى الليل هذا الرجل فأمسكناه وشنقناه معهم » . فقال لهم الأمير شهاب الدين : « أرونى هذا الرجل المسكين الذى وقع لكم » . فلما رآه وجده شخصا قاطع طريق وله مدة وهو محث فى طلبه ولا يقدر على تحصيله . فلما رآه سر به وتعجب من هذه الواقعة غاية العجب .

ثم ان الملك الصالح صفا له الوقت ، وكثرت مماليكه ، وطالت أيامه فى السلطنة ... فعند ذلك تعرض لقتل أخيه الملك العادل أبى بكر الذى كان فى السجن بقلعة الجبل فقتله فى ثالث شوال سنة أربعين وستمائة ودفن عند الامام الشافعى رضى الله عنه . فلما قتل الملك الصالح أخاه العادل أقام بعد قتله أياما يسيرة ، ثم ابتلاه الله تعالى بآكلة طلعت له فى وجهه فرعته الى آخره ، واستمر عليلا وثقل المرض عليه .

سنة سبع واربعين وستمائة (١٢٤٩ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن ريدا فرنسيس ، ملك الافرنج[1] ، أتى الى ثغر دمياط فى مائتى مركب مشحونة بالرجال ، غير من أتى فى البر من المقاتلين . وكان ريدا فرنسيس هذا قد استولى على غالب بلاد الأندلس وسبى أهلها ، وقتل من المسلمين ما لا يحصى عددهم ، ونهب أموالهم .

(١) هو لويس التاسع ملك فرنسا .

وكانت طائفة هذه الافرنج غير الطائفة التى جاءت فى أيام الملك الكامل محمد كما تقدم ذكر ذلك .

فلما تحقق الملك الصالح ذلك أمر باشهار النداء فى مصر والقاهرة بأن النفير عام ، ولا يتأخر صغير ولا كبير ، فان العدو قد استولى على البلاد ، ووصلت بوادره للمنصورة ... فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وماجت بأهلها .

ثم ان ملك الافرنج ريدا فرنسيس لما أحاط بثغر دمياط أرسل كتابا الى نائب دمياط يهدده فيه ويحذره ، وذكر له ما جرى على أهل الأندلس من القتل والسبى . فلما سمع أهل دمياط بذلك هربوا تحت الليل . فلما أصبح الافرنج وجدوا أبواب المدينة مفتحة وليس فيها أحد من الناس ، فظن الافرنج أن ذلك مكيدة من المسلمين ، فتمهلوا حتى ظهر لهم أن ما فى المدينة أحد من المسلمين ، فدخلوا من غير مانع وملكوها .

فلما سمع الملك الصالح بذلك نادى فى مصر والقاهرة بالرحيل ، فخرج الناس قاطبة وسائر الأمراء ، وخرج الملك الصالح فى محفة ، فانه كان مريضا على غير استواء . فلما وصل الى نحو المنصورة نزل بها ، وأمر بجمع العربان من سائر النواحى ، فاجتمع من العالم ما لا يحصى .

ثم ان الملك الصالح أحضر نائب دمياط وشنقه وشنق معه نحو خمسين أميرا بسبب خروجهم من دمياط بغير اذن من السلطان ، فعز ذلك على الأمراء وقصدوا أن يقتلوا الملك الصالح هناك فأشار بعض الأمراء بعدم ذلك ، وقال هذا غير صواب ... فصار القتال بين المسلمين والافرنج : كل فرقة تقتل من الأخرى ، وأسر جماعة كثيرة . هذا والسلطان كل يوم يتزايد فى المرض حتى أيست منه الأطباء .

فلما كانت ليلة الأحد رابع عشر شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة (١٢٤٩ م) توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد .

فلما مات الملك الصالح بالمنصورة كتم موته خوفا من الافرنج أن يطمعوا فى أخذ البلاد من أيدى المسلمين ، فحمل السلطان بعد أن مات فى زورق تحت الليل وجىء به الى قلعة الروضة فدفن بها . وقيل نقل بعد ذلك الى مقام الامام الشافعى رضى الله عنه ودفن عند أقاربه داخل القبة ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية نحو تسع سنين وسبعة أشهر وأحد عشر يوما .

ولم يشعر أحد من الناس بموته ، فكانت المراسيم تخرج كل يوم بعلامة السلطان فلا يشك من يراها انها بخط السلطان الصالح . وكانت الأمراء تجتمع فى الموكب ويظهرون أن السلطان مريض ، وكانت الأطباء تدخل على جارى العادة فى كل يوم ، وكان طبق المزاور يدخل فى كل يوم ويخرج على جارى العادة ، والمراسيم فى كل يوم رائحة من المنصورة الى القاهرة فى الاشتغال ، ولم يعلم أحد بموت الصالح فى القاهرة ... وكان القائم بتدبير هذه الأمور الأمير حسام الدين لاجين ، والأمير فارس الدين اقطاى فى هذه المدة ، حتى حضر توران شاه ابن الملك الصالح .

وكان توران شاه فى حصن كيفا ، فلما سلسل الملك الصالح فى المرض أرسلوا خلف ابنه توران شاه من حصن كيفا ، فأبطأ عليهم حتى مات أبوه . فلما حضر الى المنصورة ـ وقد جاء فى عسكر عظيم من الأكراد من عساكر حصن كيفا ـ أشيع موت الملك الصالح ، وتسلطن ابنه توران شاه عوضه .

الملك المعظم توران شاه

هو الملك المعظم توران شاه ، بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بن الملك الكامل محمد ، وهو الثامن من ملوك بنى أيوب بمصر . بويع بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب فى مستهل شهر المحرم الحرام[1] سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وكانت ولايته بعد موت أبيه بأربعة أشهر . فلما تولى نودى باسمه فى القاهرة وزينت له ودقت له الكئوسات سبعة أيام ، وتلقب بالملك المعظم ، ونودى بين العساكر فى الوطاق بالدعاء للسلطان الملك المعظم توران شاه والترحم على الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فلبس توران شاه خلعة السلطنة بالمنصورة ، وقبل له الأمراء الأرض ، وخطب باسمه على المنابر .

فلما تحقق الافرنج موت الملك الصالح طمعوا فى أخذ مصر وزحفوا الى فارسكور ، فاجتمع سائر الأمراء وتحالفوا على الجهاد فى سبيل الله تعالى .

فلما كان يوم الجمعة ثانى عشر المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة (١٢٥٠ م) ركب الأمير بيبرس البندقدارى والأمير لاجين وغيرهما من الأمراء ، وخرج معهم السواد الأعظم من العوام والفلاحين وغير ذلك وفى أيديهم المقاليع والحجارة ، وهجم المماليك البحرية وفى أيديهم السيوف والدبابيس والرماح ، ومنهم طائفة يرمون بالنشاب ، فحملوا على الافرنج حملة واحدة ... فكانت ساعة تشيب منها النواصى ، وقد تاب من هول ذلك اليوم العاصى ، فانكسر الافرنج أبخس كسرة ، وولوا مدبرين ، والله تعالى ناصر الناصرين ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم

قال الشاعر :

لله در فوارس يوم الوغى
تهوى الحياطة لا اليهم تنتمى

ذرعوا الفوارس بالرماح ، وفصلوا
بالمرهفات ، وخيطوا بالأسهم

فبلغ عدة من استشهد فى هذه الواقعة من أمراء السلطان سبعة وستين اميرا غير المماليك ، وقتل من العوام ما لا يحصى عددهم ، وقتل من الافرنج على فارسكور ما يزيد على اثنى عشر ألف انسان ، وأسر من ملوكهم سبعة ، وغنم منهم المسلمون من السلاح والقماش والخيول شيئا كثيرا لا يحصى ... حتى قيل بيع فى عسكر السلطان كل سيف بنصفين فضة ، وكل فرس بعشرة أنصاف ، وكل درع بثمانية أنصاف .

وأما ملك الافرنج ريدا فرلسيس ، وأكابر أمرائهم ، فانهم قد انحاشوا الى تل عال هناك ، وأرسلوا يسألون الأمان من السلطان ، فأرسل اليهم بعض الأمراء فقبض عليهم وقيدهم وسجنهم .

وأما ملك الافرنج فسجنه السلطان فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان كاتب السر — وكانت فى المنصورة — ووكل به طواشى يسمى صبيح الفاطمى فكان يضربه ليلا ونهارا ، ويقرره على الأموال . واستمر فى السجن وهو مقيد هو وأخوه وأقاربه ، وقد قرر عليه السلطان مالا يورده ، فأرسل الى بلاده ليحضر الأموال التى قد قررت عليه .

فلما حصلت هذه النصرة أرسل السلطان الملك المعظم توران شاه بالبشارة الى القاهرة بأخذ مدينة دمياط ، وقد توجه بهذه البشارة الأمير شهاب الدين ابن يغمور والى القاهرة ، فدخلها وهو لابس لبس

---

(١) فى « حسن المحاضرة » : ان توران شاه ملك مصر فى ذى القعدة سنة ٦٤٧ ، وقتل فى يوم الاثنين سابع عشر المحرم سنة ٦٤٨ .

ملك الافرنج : اشكرلاط مخمل أحمر بفرو سنجاب وقلنسوة ذهب . فزينت له القـاهرة ، وكان يوما مشهودا لم يسمع بمثله ... بعد أن كان الافرنج أشرفوا على أخذ الديار المصرية ، واستولوا على غالب الضياع ، ونهبوا ما فيها ، وأسروا أهلها .

قيل لما ملك المسلمون مدينة دمياط أشار الأمراء على السلطان بهـدم مدينة دمياط ، فأرسل اليها الهدادين فهدموها عن آخرها ، ولم يبق منها سوى الجامع الكبير ووقع فيها الهدم فى يوم الاثنين ثامن شعبان سنة ثمان وأربعين وستمائة ، واستمرت من يومئذ خرابا وصار مكان بيوتها أخصاصا من القش على شاطىء بحـر النيل يسكن فيهـا جماعة من الصيادين ، وسموها المنشية ، واستمرت على ذلك الى دولة الملك الظاهـر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فأمر بتجديد عمارتها ، فأرسل اليها جماعة من البنائين والحجارين . وكان ابتداء عمارتها فى سنة خمسين وستمائة (١٢٥٢ م) ، فجدد بناء سورها ، وأمر بردم فم البحـر الذى تدخل منـه مراكب الافرنج فردموه من القرابيص التى كانت هناك من الهدم القديم ، فامتنعت المراكب الكبار من الدخول الى بحر النيل من يومئذ .

ثم ان الملك الظاهر أمر باعادة السلسلة الحديد التى كانت من البر الى البر ... قيـل ان هـذه السلسلة كانت فى أيام المقوقس عظيـم القبط ثم بطلت ، فأمر باعادتها كما كانت .

ومن هنا نرجع الى أخبـار ملك الافرنج ريدا فرنسيس ، فانه لما اعتقل بدار القاضى فخر الدين ابن لقمان كاتب السر التى كانت بأرض المنصورة ، وتولى عقابه الطواشى صبيح الفاطمى ، صار يضربه فى كل يوم خمسمائة عصا ، فاستمر على ذلك الى أن تولى الملك المعز أيبك التركمانى ، فأرسل اليه فرنسيس يقول له بأن يشترى نفسه منه بمائتى ألف دينار غير التقادم ... فأفرج الملك المعز عنـه وعن أخيـه وأقاربه ، وحلفوه أيمانا عظيمة بأنه ما بقى يتعدى على بلاد المسلمين ، ولا يفسد فى البحـر والبر . فلما حلف أذن له الملك المعز بالتوجه الى بلاده ، فسار واستمر فى بلاده وأرسل الى الملك المعز ما قرره له من الأموال .

وأقام على ذلك الى أن قتل الملك المعز أيبك وتولى من بعده ابنه الملك المنصور على ، فجاءت الأخبار من البـلاد بأن فرنسيس المذكور جمـع العساكر ، وصنع مراكب كثيرة ، وقصد العود الى أخذ مدينة دميـاط . فلما بلغ المنصور ذلك جمع الأمراء وضربوا مشورة ، فاقتضى الرأى أن يرسلوا اليه مطالعة من عند السلطان بالتهديد له والحط عليه ، فكتب اليه الصاحب جمال الدين بن مطروح مطالعة وضمنها هذه الأبيات :

قل للفرنسيس اذا جئتـه
مقال نصح من قئول فصيح
آجرك الله على ما جـرى
من قتل عباد لدين المسيح
أتيت مصرا تبتغى ملكهـا
تحسب أن الزمر بالطبل ريح
فساقك الحين الى عسكر
ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصـحابك أودعتهم
بسوء تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لا ترى منهم
الا قتيلا أو أسيرا جريح
وفقـك الله لأمثالهـما
لعل عيسى منكم يستريح

ان كنت عولت على عودة
لأخذ ثأر أو لعقد صحيح
دار ابن لقمان على حالها
والقيد باق ، والطواشي صبيح

فلما وصلت هذه المطالعة الى فرنسيس وسمع هذه الأبيات ، رجع عن التوجه الى مصر ، وتذكر ما قد جرى عليه من الطواشي صبيح وما قاسى من ضربه له .

ومن هنا نرجع الى أخبار الملك المعظم توران شاه ... قيل لما حصلت هذه النصرة لتوران شاه ظن أن الوقت قد صفا له فتحول من المنصورة الى فارسكور ، فنصب له هناك برجا من الخشب على شاطيء البحر ، ثم أحضر الأسارى من الافرنج وضرب أعناقهم بين يديه بالسيف ، ثم قذفهم فى البحر ، ثم شرع يقرب جماعة من حاشيته ممن حضر معه من حصن كيفا وصار يعطيهم الوظائف السنية ، وأبعد مماليك أبيه الملك الصالح ، وأرسل الى شجرة الدر زوجة أبيه يعدها بكل سوء ، فأرسلت شجرة الدر تقول للأمراء والمماليك البحرية اقتلوا توران شاه وعلى رضاكم بكل ما يمكن .

وكان توران شاه عنده خفة ووهج فى أموره ، فكان اذا سكر يصف الشموع فى الليل قدامه ، ويأخذ السيف بيده ، ويضرب به تلك الشموع ويقول : « هكذا أفعل بالمماليك البحرية ... » . وكان أحمق جاهلا ، لا يدرى ما يضره وما ينفعه كأنه خشبة ، وكان كما قال فيه القائل :

يا جامعا لخصال	قبيحة ليس تحصى
نقصت عن كل فضل	فقد تكاملت نقصا
لو أن للجهل شخصا	لكنت للجهل شخصا

فلما بلغ مماليك أبيه ذلك أضمروا له السوء وقد تغيرت خواطرهم عليه .

فلما كان يوم الاثنين تاسع المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة (١٢٥٠ م) جلس الملك المعظم توران شاه فى الموكب والأمراء بين يديه ، وكان قد أمر رءوس النواب أن يقفوا قدامه بعصى ، وهى ملبسة بالذهب فى أيام المواكب ، فلما مضى الموكب وحضر السماط جلس الملك المعظم على السماط كجارى العادة ، فتقدم اليه جماعة من المماليك البحرية وبأيديهم السيوف فضربوه على أصابعه فقطعوها ، فقام وهرب ودخل ذلك البرج الخشب وأغلق عليه باب البرج ، فأطلقوا فى البرج النار ، فخرج منه السلطان وألقى نفسه فى البحر وصار يسبح فيه والنشاب يأخذه من كل ناحية وهو يقول : « خذوا ملككم ودعونى أرجع الى حصن كيفا » ... فلم يغثه أحد وبقى على ذلك حتى قتل فى ذلك اليوم المقدم ذكره ، فمات حريقا قتيلا غريقا ، فطلعوا به من البحر فبقى مرميا على شاطيء البحر ثلاثة أيام لم يدفن ، ثم دفن فى بعض جروف البحر ولم يعلم له قبر .

ثم ان المماليك نهبوا جميع ما كان فى الوطاق من قماش وسلاح وخيول وغير ذلك ، واستمر السماط فى ذلك اليوم ممدودا حتى تخطفته الكلاب ولم يع أحد له ، فكانت مدة سلطنة الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب نحو أربعين يوما ، ولم يدخل الى مصر ولا جلس على سرير الملك بقلعة الجبل ، ولا حكم بالقاهرة ، فكانت قتلته فى يوم الاثنين كما تقدم .

وهو آخر من تولى السلطنة بمصر من بنى أيوب ، وبه انقرضت دولة بنى أيوب ، وكانت مدة دولتهم — من حين تولى الملك الناصر صلاح الدين يوسف الى أن قتل الملك المعظم توران شاه — نحو ست وثمانين سنة الا أشهرا ، وزالت دولتهم كأنها لم تكن بمصر .

قيل لما قتل توران شاه رجعت الأمراء والعسكر الى القاهرة ، وطلعوا الى قلعة الجبل ، فوقع الاتفاق من الأمراء على سلطنة شجرة الدر عوضا عن توران شاه ، وأن يكون الأمير عز الدين أيبك التركمانى مدبر المملكة معهـا ... فسلطنوها وتحالفـوا على ذلك ، وهذا لم يقع قط بالديار المصرية ، ولا سمع بأن امرأة قد تسلطنت بها .

شجرة الدر

هى شجرة الدر ، زوج الملك الصالح نجم الدين أيوب . وهى أم ولده خليل ، فكانت تاسع من تولى السلطنة بمصر من جماعة بنى أيوب ، وقع الاتفاق على سلطنتها ، فتسلطنت فى ثانى شهر صفر سنة ثمان وأربعـين وستمائة ، وقبل لها الأمراء الأرض من وراء حجاب .

فلما تم أمرها فى السلطنة فرقت الوظائف السنية على الأمراء ، وفرقت الاقطاعات الثقال على المماليك البحرية ، وأغـدقت عليهم بالأمـوال والخيول ، وأرضتهم بكل ما يمكن ، وساست الرعية فى أيامها أحسن سياسة ، وكانت الناس عنها راضية ، وكان الأمير عز الدين أيبك التركمانى مدبر المملكة ، وكان لا يتصرف فى الأمور الا بعد مشورتها فيما تريد ، وكانت تكتب على المراسـيم فى العـلامة بخطهـا « والدة خليل » .

فلما كان يوم الجمعة خطب باسم شجرة الدر على منابر مصر ، فكانت الخطباء تقول بعد الدعاء للخليفة : « واحفظ اللهم الجبهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحـوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب » .

قال الشيخ شـمس الدين محمد بن ابراهيم الجزرى : « فلما بلغ الخليفة المستنصر بالله أبا جعفر وهو ببغداد ، أن أهل مصر قد سلطنوا امرأة أرسل يقول من بغداد لأمراء مصر : أعلمونا ان كان ما بقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ؟ وأنكر عليهم بسبب ذلك غاية الانكار ، وهـددهم وأمرهم بالرجـوع عن ذلك ... » . وقد قال القائل :

النسـا ناقصـات عقـل ودين
ما رأينـا لهـن رأيا سـنيا
ولأجـل الكمـال لم يجعل الله
تعـالى من النسـاء نبيـا

فلما بلغ شـجرة الدر ذلك خـلعت نفسها من السلطنة برضاها من غـير كره لها ، فكانت مـدة سلطنتها بالديار المصرية نحو ثلاثة أشهر الا أياما . وكانت تدبر أمور المملكة بالديار المصرية فى حياة أستاذها الملك الصالح ، وكانت ذات عقل وحـزم ومعرفة تامة بأحوال المملكة ، فسلطنوها لحسـن تدبيرها للأمور ، وسياستها للرعية ، وجعلوا الأمير عز الدين أيبك التركمانى أتابك العساكر ومشاركها فى أحوال المملكة ، فكان لا يتصـرف فى شىء من الأمور الا برأيها ... فلما خلعت نفسها من السلطنة أشار القضاة والأمراء بأن يولوا الأمير عـز الدين أيبك التركمانى السلطنة ، وأن يتزوج بشجرة الدر فتزوج بها ، ثم تولى السلطنة بعد خـلع شـجرة الدر ، فكان أول من تولى من ملوك الترك .

دولة الأتراك

المعز أيبك التركمانى

كان أولهم المعز أيبك التركمانى الصالحى النجمى ، كان أصله من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب فأعتقه ، ثم صار أميرا فى حياة أستاذه الملك الصالح ، ثم بقى أتابك العساكر بعد قتل الملك المعظم توران شاه ثم بعد خلع شجرة الدر .

تولى الملك بالديار المصرية فى يوم السبت تاسع عشرى ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة (١٢٥٠ م) وركب بشعاره وحملت على رأسه القبة والطير ، ولعبوا قدامه بالغواشى ، وجلس على سرير الملك وجميع الأمراء قبلوا الأرض بين يديه ولقبوه بالملك المعز .

فلما تم أمره فى السلطنة تقلب عليه المماليك الصالحية ، وقالوا لابد لنا من واحد من ذرية بنى أيوب نسلطنه — وكان المتكلم يومئذ من الأمراء الأمير بلباى الرشيدى ، والأمير فارس الدين أقطاى ، والأمير بيبرس ركن الدين البند قدارى ، والأمير سنقر الرومى وغير ذلك جماعة من المماليك البحرية — فوقع الاتفاق بينهم وبين المعز أيبك بأن يحضروا بشخص من بنى أيوب ، يقال له مظفر الدين يوسف من أولاد الملك مسعود صاحب بلاد الشرق — وكان عند عماته ببلاد الشرق — فأرسلوا خلفه ، فلما حضر من البلاد سلطنوه ولقبوه بالملك الأشرف . وكان له من العمر نحو عشرين سنة ، فلما تسلطن يوسف المذكور لم يعزل أيبك التركمانى من السلطنة ، بل صار معه مثل الشريك ، وكان يخطب باسمهما على منابر مصر وأعمالها ، وضربت السكة على الدنانير والدراهم باسمهما ، فلم يسع أيبك الاحتمال .

واستمر أيبك ويوسف المذكور شريكين فى السلطنة حتى قويت شوكة المعز أيبك ، وأنشأ له مماليك ، وأقام له عصبة ، فعزم رأيه على أن يقبض على الأمير فارس الدين اقطاى — وكان رأس المماليك الصالحية — فطلبه وقت الظهر ، فلما طلع الى القلعه أكمن له كمينا وراء قاعة الأعمدة وقرر معهم اذا مر بهم الأمير فارس الدين يقتلونه من غير معاودة . فلما مر بهم ووصل الى باب قاعة الأعمدة وثب عليه المماليك المعزية ، فأذاقوه كأس المنية .

فلما قتل الأمير فارس الدين أمر الملك المعز أيبك بغلق باب القلعة . فلما شاع بين الناس قتل الأمير فارس — وكان ذلك فى يوم الاثنين حادى عشرى شعبان سنة اثنتين وخمسين وستمائة — ركب سائر خشداشينه — وكانوا نحو سبعمائة انسان — فلما أن طلعوا الى الرميلة وأحاطوا بالقلعة ، رمى اليهم الملك المعز برأس الأمير فارس الدين اقطاى من فوق سور القلعة ، فلما تحقق خشداشينه قتله انفضوا خائبين ، وخرجوا على حمية ، نحو البلاد الشامية ، وهم الأمير بيبرس ركن الدين البندقدارى ، والأمير قلاون الألفى ، والأمير سنقر الأشقر ، والأمير بيسرى ، والأمير سكن ، والأمير برمق .

فلما قصدوا أن يخرجوا الى البلاد الشامية ، وجدوا أبواب القاهرة مغلقة ، فتوجهوا الى باب

القراطين ، فأحرقوه بالنار وخرجوا منه هاربين ، فسمى من ذلك اليوم باب القراطين . فلما بلغ المعز هروبهم أمر بالحوط على موجودهم . فلما خمدت تلك الفتنة ، وتشتت الأمراء الذين كان يخشى منهم المعز ، فعند ذلك قبض على الملك الأشرف يوسف الذى كان شريكه فى السلطنة وسجنه بالقلعة ، وانفرد بالسلطنة وحده .

سنة أربع وخمسين وستمائة (١٢٥٦ م) :

فيها أرسل الملك المعز أيبك يخطب بنت الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . فلما بلغ ذلك شجرة الدر تغيرت على المعز أيبك وتغير هو أيضا عليها ، لأنها كانت تمن عليه فى كل وقت وتقول له : « لولا أنا ما وصلت أنت الى السلطنة » ... وكانت قد منعته من الاجتماع بزوجته أم ولده الأمير على ، حتى انها ألزمته بطلاقها منه بالثلاث .

وكانت شجرة الدر تركية الجنس ، صعبة الخلق ، شديدة الغيرة ، قوية البأس ، ذات شهامة زائدة وحرمة وافرة ، سكرانة من خمرة العجب والتيه كما قيل فى المعنى :

كتب القتل والقتال علينا
وعلى الغانيات جر الذيول

فلما صار أيبك معها فى غاية الضنك حنق منها يوما ونزل الى مناظر اللوق وهو غضبان ، وكانت مناظر اللوق مكان الأزبكية الآن ، وكانت مطلة على بحر النيل . فلما نزل أيبك من القلعة أقام بمناظر اللوق أياما وهو غضبان ، فأرسلت اليه شجرة الدر وهى تتلطف به حتى سكن غضبه وقام وطلع الى القلعة فلاقته وقامت اليه وقبلت يده على غير عادة منها ، وكانت شجرة الدر قد أضمرت له السوء فندبت له خمسة من الخدام الخصى الروم وقالت لهم : اذا دخل الى الحمام فاقتلوه . فلما طلع الى القلعة اصطلح مع شجرة الدر وتراضيا ثم دخل الى الحمام ، فلما صار هو وشجرة الدر بها دخل عليه أولئك الخدام وبأيديهم السيوف ، فقام أيبك وقبل شجرة الدر واستغاث بها ، فقالت للخدام : « اتركوه » ... فأغلظ عليها بعض الخدام فى القول ، وقال لها : « ان تركناه حيا فلا يبقى عليك و لاعلينا » ... فقتلوه فى الحمام خنقا ، وقيل ربطوا محاشمه بوتر وجذبوه حتى مات . فلما مات حملوه وأخرجوه من الحمام وأشاعوا أنه قد أغمى عليه من الحمام فوضعوه على فراش الحمام ، وكان ذلك فى ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ست وخمسين وستمائة (١٢٥٨ م) .

فلما أصبح الصباح أشاعوا قتله بين الناس ، فركب ابنه الأمير على والمماليك المعزية ، فلما طلعوا الى القلعة وتحققوا قتله شرعوا فى تجهيزه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه فى القرافة . ثم قبض ابنه على شجرة الدر ، وسلمها الى أمه فأمرت جواريها أن يقتلنها بالقباقيب والنعال ، فضربنها بها حتى ماتت وفارقت الدنيا ... فكانت كما قيل فى الأمثال :

واقنع اذا حاربت بالسلامة
واحذر فعالا توجب الندامه
فالتاجر الكيس فى التجارة
من خاف فى متجره الخساره

فلما ماتت شجرة الدر سحبوها من رجلها ورموها من فوق السور الى خندق وهى عريانة ، فأقامت وهى مرمية فى الخندق ثلاثة أيام لم تدفن حتى قيل أن بعض الحرافيش نزل الى الخندق تحت الليل وقطع دكة لباسها لأنها كانت من حرير أحمر ، وفيها كرة من لؤلؤ ، ونافجة مسك ... فسبحان من يعز ويذل كما قيل فى المعنى :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاها وحتى سامها كل مفلس

ثم بعد ثلاثة أيام حملت ودفنت بتربتها التى بطريق السيدة نفيسة بجوار بيت الخلفاء .

وكانت شجرة الدر أصلها من جوارى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، اشتراها فى أيام أبيه الملك الكامل محمد فحظيت عنده واستولد منها ابنه خليلا ثم أعتقها وتزوج بها . وكانت معه فى البلاد الشامية مدة طويلة لما كان مستوليا على الشام ، فلما قدم الى الديار المصرية وتسلطن ، عظمت شجرة الدر فى دولة أستاذها الملك الصالح ، وصارت تدبر أمور المملكة عند غياب الملك الصالح فى الغزوات .

وكانت ذات عقل وحزم ، كاتبة قارئة ، لها معرفة تامة بأحوال المملكة . وقد نالت من العز والرفعة ما لم تنله امرأة قبلها ولا بعدها . وقد أقامت فى السلطنة نحو ثلاثة أشهر ، وخطب باسمها على منابر مصر وأعمالها ، ونفذت مراسيمها فى الآفاق بعلامتها ، وكانت علامتها على المراسيم « والدة خليل » . وكانت كثيرة البر والصدقات ، ولها أوقاف على جهات خير وصدقة . وكانت قتلها فى يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة ست وخمسين وستمائة (١٢٥٨ م) .

وأما الخدام الذين قتلوا المعز أيبك التركمانى فهرب بعضهم الى بلاد الشرق ، وصلب بعضهم على باب القلعة وأقام أياما . وكان الملك أيبك التركمانى رجلا عاقلا حليما نظر فى مصالح الرعية فى أيامه . وكان كفؤا للسلطنة ودفع العدو ، وكان يحب الجهاد فى سبيل الله تعالى مع الافرنج . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية سبع سنين ، منها مدة انفراده بالسلطنة خمس سنين وثلاثة أشهر ، وكانت مدة الأشرف يوسف الذى هو من بنى أيوب الذى شارك أيبك فى السلطنة سنة وأشهرا .

وأيبك هذا هو أول ملوك الترك . ولما قتل تولى من بعده ابنه نور الدين على .

ومن الأبيات اللطيفة التى تتضمن أسماء ملوك الترك والجراكسة — دون أسماء أولادهم — ممن تولى السلطنة بالديار المصرية ، وهم على الترتيب من مبتدأ دولتهم الى الآن ، وهى هذه :

أيبك ، قطز ، يعقبا بيبرس ذو الكمال
بعد قلاون بعد كتبغا المفضال
لاجين ، بيبرس ، بر قوق شيخ ذوالأفضال
ططر ، برسباى ، جقمق ذو العلا ، اينال
وخشقدم عنه قل بلباى ذو الأحوال
تمربغا ، قايتبا ى الفحل ذو الاقبال
وقانصوه ، جنبلا ط عنهما أقوالى
وبعدهم جاء طو من باى بالاقبال
وقانصوه بعده ذا مظهر الأهوال

الملك المنصور

هو الملك المنصور ، نور الدين على ، ابن الملك المعز أيبك التركمانى الصالحى ، وهو الثانى من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . تولى السلطنة بعد قتل أبيه الملك المعز أيبك التركمانى يوم الخميس سادس عشرى ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة (١٢٥٧ م) ، وكان له من العمر لما تولى السلطنة احدى عشرة سنة ، وكان القائم بتدبير أمور المملكة الأمير علم الدين سنجر الحلبى ، وكان الوزير يومئذ شرف الدين ابن صاعد الفائزى ، وكان قد وزر لأبيه المعز

أيضا ، وكان اسمه هبة الله ، وكان أصله من أبناء القبط ، فأسلم فى دولة الملك الكامل محمد ، وما زال يرقى الى أن بقى وزيرا بالديار المصرية فى دولة الملك المعز أيبك التركمانى ، ثم وزر لابنه الملك المنصور على .

فلما تم أمر الملك المنصور على فى السلطنة ، استقر بالأمير سيف الدين قطز المعزى ، نائب السلطنة بمصر وأتابك العساكر . وكان قطز شديد البأس ، صعب الخلق ، فقبض على الوزير شرف الدين هبة الله ، وصادره وأخذ جميع أمواله ثم صلبه على باب القلعة ، وخلع على القاضي زين الدين يعقوب بن الزبير ، واستقر به وزيرا عوضا عن هبة الله .

ومن الحوادث فى أيام الملك المنصور على هذا أن فى سنة ست وخمسين وستمائة ، فى خامس جمادى الآخرة ، جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بأنه قد ظهر فى التاريخ نار بوادى شطا شرقى المدينة ، وأنها يخرج منها شرر يأكل الحجارة . وقيل انه قبل ظهور هذه النار بخمسة أيام وقع بالمدينة زلزلة عظيمة ، وسمعوا أصواتا من السماء مزعجة . ولم تزل هذه النار مستمرة ليلا ونهارا نحو شهر ، فكان طول هذه النار أربعة فراسخ فى عرض أربعة أميال ، فصارت تأكل الحجارة حتى تصير مثل الفحم الأسود . قال الشيخ عماد الدين ابن كثير : « أخبرنى الشيخ صدر الدين على التميمى الحنفى ، قال : أخبرنى والدى الشيخ صفى الدين مدرس مدرسة البصرى أنه رأى وهو بالبصرة صفحات أعناق الابل فى الليل المظلم من ضوء تلك النار التى ظهرت بالمدينة » .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ان أهل المدينة لما رأوا تلك النار قد زاد أمرها تضرعوا الى الله تعالى ، وتابوا من ذنوب كانوا يعملونها ، وتصدقوا بالأموال على الفقراء ، ولزموا الصوم والصلاة حتى كشف الله تعالى عنهم تلك النار بعد ما أقامت نحو شهر وهى تفور . وفى ذلك يقول القائل :

بحر من النار تجرى فوقه سفن ... من الهضاب لها فى الأرض ارساء
منها تكاثف فى الجو الدخان الى ... أن عادت الشمس منه وهى دهماء
يرمى لها شرر كالقصر طائشة ... كأنها ديمة تنصب هطلاء
فيالها آية من معجزات رسو ... ل الله قد ظهرت والقوم أحياء

يشير الناظم الى ما رواه البخارى فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضىء منها أعناق الابل ببصرى » رواه فى آخر كتاب الفتن فى باب خروج النار .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة فى تاريخه : ان فى دولة الملك المنصور على بن أيبك هذا ، كان استيلاء هلاكو على مدينة بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وخراب بغداد وقتل أهلها » .

ثم قصد التوجه الى حلب وأخذ البلاد الشامية ، فعدى من الفرات فى عسكر لايحصى عدده . فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بما جرى من هلاكو ، وقد أرسل ابنه فى عسكر عظيم الى حلب ، وقد استولى على نائب ضياع حلب .

فلما تحقق الأتابكى قطز ذلك أمر بعقد مجلس وجمع سائر الأمراء والقضاة ومشايخ العلماء — وكان المشار اليه فى ذلك المجلس شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه ، وكان من أكابر علماء الشافعية ، وقد تلقب بسلطان العلماء —

فلما تكامل ذلك المجلس من الأمراء وأعيان الدولة والقضاة ومشايخ العلماء قام مدع فى ذلك المجلس وذكر هيئة سؤال فى أمر هلاكو واستيلائه على البلاد ووصوله الى حلب ، وأن بيت المال خال من الأموال ، وقد وصل العدو ، وطمع فى أخذ البلاد ، والسلطان صغير السن ، وضاعت مصالح الرعية ، وأن الوقت محتاج الى اقامة سلطان كبير تحشاه الناس ويدفع العدو ، وأن بيت المال محتاج الى المساعدة بشىء من أموال الرعيه لاقامة الجند وتجهيزهم للسفر وما يعينهم على ذلك . . فأجاب الشيخ عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه فى ذلك المجلس وقال : « اذا طرق العدو البلاد وجب على الناس قتاله ، وجاز للسلطان أن يأخذ من أموال التجار وأعيان البلد ما يستعين به على تجهيزه العسكر لدفع العدو ... لكن بشرط ألا يبقى فى بيت المال شىء من السلاح والسروج الذهب والفضة والكبابيش الزركش وأسقاط السيوف الفضة وغير ذلك ، وان كلا من الجند يقتصر على فرسه ورمحه وسلاحه ، ويساوى فى ذلك بقية العامة وقت القتال وأما اخذ أموال التجار والرعية — مع وجود ما فى بيت المال من السلاح والقماش — فلا يجوز ، لأنه من باب آخذ أموال الرعية بغير حق » .

ثم ان الأمراء تكلموا مع القضاة فى اقامة سلطان كبير لدفع العدو ، فوقع الاختيار من الأمراء والقضاة على خلع الملك المنصور على ابن الملك المعز أيبك التركمانى ، وأن يسلطنوا الأتابكى قطز . فعند ذلك خلعوا الملك المنصور على من السلطنة وولوا الأتابكى قطز .

وكان الملك المنصور على طائش العقل ، يلعب بالحمام مع أولاد الغلمان ، وكانت أمه تدبر أحوال السلطنة . فلما خلعوه من السلطنة أرسلوه وهو مقيد الى ثغر دمياط وأرسلوا معه اخوته وأمه ، فاعتقلوه ببرج السلسلة بثغر دمياط ، فأقام فى البرج الى أن مات هناك ، ودفن بثغر دمياط بعد مدة طويلة وهو فى البرج ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية سنتين وثمانية أشهر ، وكانت أيامه كلها فتن وشرور .

ومن الحوادث فى أيامه أن فى سنة ست وخمسين وستمائة ، فى رابع شهر رمضان ، وقعت احدى المسلتين اللتين بأراضى المطرية . يزعم الناس أنهما مسلتا فرعون ، وكانتا اثنتين ، فلما وقعت احداهما وجدوا فى قلنسوتها نحو مائتى قنطار نحاس أصفر ، ووجدوا فى داخل تلك القلنسوة عشرة آلاف دينار كل دينار وزنه أوقية من الذهب الأكسير الجيد ، فحمل الى الخزائن الشريفة ... ذكر ذلك الشيخ شمس الدين محمد بن ابراهيم الجزرى فى تاريخه كما شرح هناك .

وأما من توفى فى أيام الملك المنصور على ابن الملك المعز أيبك التركمانى من الأعيان فهم : الشيخ زكى الدين عبد العظيم المنذرى ، والشيخ القطب العارف بالله تعالى ، شيخ الطريقة والحقيقة الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، ودفن بصحراء عيذاب من أعالى الصعيد الأعلى . وتوفى الشيخ شعلة شيخ القراءات ، وتوفى الفاسى المغربى المالكى ، وتوفى الشيخ سعد الدين بن العربى صاحب النظم الرقيق ، وتوفى الصرصرى صاحب الديوان اللطيف ، وتوفى ابن الأبار المؤرخ ، وغير ذلك من أعيان العلماء وأعيان الناس .

ومن انشاء المعز أيبك المدرسة المعزية المطلة على بحر النيل عند رحبة الحناء عند مصر العتيقة .

الملك المظفر

هو الملك المظفر ، سيف الدين قطز المعزى ، وهو الثالث من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وكان أصله من مماليك المعز أيبك التركمانى ، ورقى فى دولة أستاذه الملك المعز ، ثم صار فى دولة ابن أستاذه الملك المنصور علىّ أتابك العساكر . فلما خلع الملك المنصور على ، وقع الاختيار على سلطنة الأتابكى قطز المعزى ، فتسلطن فى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة الحرام سنة سبع وخمسين وستمائة (١٢٥٩ م) .

فلما تسلطن وتم أمره فى السلطنة قبض على جماعة من خشداشينه من الأمراء والخدام وأرباب الدولة وغير ذلك من الأعيان وأرسلهم الى الحبوس بثغر دمياط والاسكندرية . فلما فعل ذلك استقامت أموره فى السلطنة ، وصفا له الوقت ، وأنشأ له عصبة من الأمراء ، فخلع على الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، واستقر به أتابك العساكر ، وفوض اليه جميع أمور المملكة ، وانحصرت فيه الكلمة .

ثم جاءت الأخبار بأن جاليش عسكر هلاكو ملك التتار قد وصل الى أطراف دمشق ، ونهبوا البلاد وقتلوا العباد وأطلقوا فيهم الزناد ، وكان ذلك فى صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة (١٢٦٠ م) . فلما وصل الخبر الى الديار المصرية اضطربت وماجت بأهلها ، وقد بلغهم ما فعله هلاكو فى بغداد وقتله للخليفة المستعصم بالله ، وما جرى منهم فى حق أهل بغداد من القتل والنهب وخراب البلاد كما تقدم .

ثم ان أميرا من أمراء هلاكو الذين وصلوا الى دمشق يقال له كتبغا حضر الى الملك قطز ، وصحبته أربعة من التتار ومعهم كتاب من عند هلاكو ، وكان مضمونه : من ملك الملوك شرقا وغربا ، القان الأعظم ... ونعت فيه نفسه بألفاظ معظمة ، وذكر فى الكتاب شدة سطوته وكثرة عساكره وما جرى على أهل البلاد منه ولا سيما ما فعله فى بغداد وما جرى على أهلها منه ... وأرسل يقول : « يا أهل مصر أنتم قوم ضعاف ، فصونوا دماءكم منى ، ولا تقاتلونى أبدا فتندموا » .

وشرع يذكر فى كتابه أشياء كثيرة من هذه الألفاظ الفاحشة اليابسة ، فلما أن سمع الملك المظفر قطز مضمون ما فى كتاب هلاكو أحضر الأمراء واستشارهم فيما يكون من أمر هلاكو ، فقال الأمراء : نجمع العساكر من سائر البلاد ونخرج اليه ونقاتله أشد ما يكون من القتال .

ثم ان الملك المظفر قطز نادى فى القاهرة بأن النفير عام الى الغزو فى سبيل الله تعالى . ثم انه عرض العساكر ، وارسل خلف عربان الشرقية والغربية ، فاجتمع من العساكر ما لا يحصى . ثم انه أخذ فى أسباب جمع الأموال ، فأخذ من أهل مصر والقاهرة على كل رأس من الناس من ذكر و أنثى دينارا واحدا ، وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف شهرا واحدا ، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلا ، وأخذ من الترك الأهلية الثلث من المال ، وأخذ على الغيطان والسواقى أجرة شهر ، وأحدث من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة ، فبلغ جملة ما جمعه من الأموال فى هذه الحركة ستمائة ألف دينار ، فأنفق على العسكر والعربان ، وبرز خيامه الى الريدانية .

فلما كان أواخر شهر شعبان سنة ثمان وخمسين وستمائة نزل السلطان الملك المظفر قطز من قلعة الجبل وهو فى موكب عظيم . فلما نزل بالريدانية ،

امر بتوسط كتبغافويزبك — أمير هلاكو — ومن كان معه من التتار ، ثم رحل من الريدانية ونزل بمنزلة الصالحية ، وأقام بها الى أن تكامل العسكر ، ثم رحل من الصالحية ، وجد فى السير الى أن وصل الى عين جالوت من أرض كنعان ، فتلاقى هناك عسكر هلاكو وعسكر السلطان قطز ، فكانت بينهما ساعة تشيب فيها النواصى ، وقتل من الفريقين ما لا يحصى عدده ، فكانت الكسرة على التتار ، فكسروهم وشتتوهم الى بيسان ، وكان ذلك فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان من السنة المذكورة .

ثم وقعت بينهما وقعة ثانية على بيسان أعظم من الأولى ، فقتل من التتار نحو النصف ، وغنم عسكر السلطان منهم غنيمة عظيمة من خيول وسلاح وغير ذلك .

فلما جرى ذلك توجه السلطان قطز الى نحو الشام ، فدخلها فى موكب عظيم ، وجلس للحكم ، فخلع على الأمير سنجر الحلبى واستقر به نائب الشام ، وخلع على الأمير علاء الدين ابن صاحب الموصل واستقر به نائبا ، ثم انه أخذ فى أسباب استخلاص البلاد الشامية من أيدى أولاد بنى أيوب — وكان غالبها فى أيديهم — فمهد البلاد الشامية والحلبية وولى من يختار من عصبته من الأمراء .

ثم بعد ذلك قصد التوجه نحو الديار المصرية . فلما خرج من دمشق ووصل الى قريب من أرض الصالحية ، اتفق الأمراء على قتله فكان كما قيل فى الأمثال :

لا تغترر بالحفظ والسلامه
فانما الحياة كالمدامه
والعمر مثل الكأس والدهر القدر
والصفو لا بد له من الكدر

وكان المشار اليه فى ذلك الوقت من ا[...] الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى . فلما [...] السلطان قطز الى القرين ، ركب السلط[...] الفضاء ، فرأى أرنبا فساق خلفه وساق معه ا[...] — وكان فيهم الأمير بيبرس البندقدارى — [...] ساق دنا منه الأمير بيبرس ليقبل يده — [...] السلطان قطز قد أنعم عليه بجارية مليحة من [...] التتر — فظن قطز أنه جاء يقبل يده بسبب ذ[...] فلما مد يده اليه قبض عليه وضربه بالسيف ، و[...] عليه بقية الأمراء بالسيوف فقتلوه وتركوه ميتا [...] على الأرض ، ثم ساقوا وهم شاهرون سي[...] الى أن وصلوا الى الوطاق ، فجلس الأمير بي[...] على مرتبة السلطان قطز ، وأخذ المملكة بالغ[...] فشق ذلك على جماعة من المماليك الأمراء ل[...] السلطان قطز قتل من غير ذنب ، وكان خيار [...] الترك ، وله اليد البيضاء فى قيامه لدفع التتا[...] البلاد الشامية وقد أشرفوا على الدخول الى ا[...] المصرية .

وكان قتل الملك المظفر قطز فى اليوم الخ[...] عشر من ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستم[...] ودفن هناك فى مكان قتله بالقرين . وقيل نقل [...] ذلك ودفن فى مدرسته التى بالقرب من [...] الشيخ خلف . وكانت مدة سلطنته سنة الا أ[...] ثم تولى من بعده الأمير بيبرس البندقدارى

الملك الظاهر

هو الملك الظاهر ، ركن الدين بيبرس ، العلا[...] البندقدارى الصالحى النجمى . وهو الرابع [...] ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، تس[...] بعد قتل الملك المظفر قطز فى يوم السبت الخ[...] عشر من ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستم[...] وتلقب بالملك القاهر أبى الفتوحات .

فلما تلقب بالملك القاهر عز ذلك على جماعة من العلمـاء ، فقال الصـاحب زين الدين بن الزبير : « ما تلقب أحد بهذا اللقب فأفلح . ولقد تلقب به جماعة من الملوك فلم تطل أيامهم » . فلما سمع ذلك ترك ذلك اللقب وتلقب بالملك الظاهر بيبرس . وكان أصله تركى الجنس ، أخذ من بلاده وهو صغير فبيع لشخص يسمى العماد الضائع ، ثم بعده اشتراه منه الأمير علاء الدين ايدكين البنـدقدارى . فلما قبض عليه الملك الصالح نجم الدين أيوب واحتاط على موجوده ، أخذ بيبرس من جملة الموجود . ثم ان الملك الصـالح أعتقه وجعله من جملة المماليك البحرية .

وكان بيبرس هذا شجاعا بطلا ، أظهر فى يوم وقعة الافرنج التى كانت فى المنصورة فى أيام الملك المعظم توران شاه من الشجاعة ما لا يسمع بمثله ... فلا زالت الأقدار تساعده حتى بقى أتابك العساكر فى أول دولة الملك المظفر قطز . فلما قتل قطز بقى بيبرس سلطانا كما تقدم ، فلما جلس على مرتبة السلطان قطز قبـل له الأمراء الأرض وحلفوا ألا يخونوا ولا يغدروا ولا يثبوا عليه ، وذلك الحلف على المصحف الشريف . ثم أحضر خلعة وخلع على الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب ، واستقر به أتابك العساكر عوضا عن نفسه .

فلما تم أمره فى السلطنة قصد التوجه نحو الديار المصرية ، فدخل القاهرة فى الليل ، وطلع الى قلعة الجبل . فلمـا طلع النهـار نادى المنادى فى مصر والقاهرة : « ترحموا على الملك المظفر قطز ، وادعوا بالنصر للملك الظاهر بيبرس البندقدارى » .

وكانت القـاهرة قد زينت لقدوم الملك المظفر قطز ... فلما تحقق الناس قتـل الملك المظفر قطز ، حزنوا عليـه لأنه قتل من غير موجب ، وكانت له الراية البيضـاء فى قيامه لدفع العدو عن البلاد ، وكان التتار قد أشرفوا على الدخول الى مصر .

ثم ان الملك الظاهر بيبرس عمل الموكب بقلعة الجبل ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأتابكى فارس الدين أقطاى المستعرب واستمر أتابك العساكر كما تقدم ، وخلع على الأمير لاجين الدرفيـل واستقر به دوادارا كبير ، وخلع على الأمير بلباى الرشيدى واستقر به دوادار ثانيا ، وخلع على الأمير بهـاء الدين يعقوب الشهرزورى واستقر به أمير أخور كبيرا ، وخلع على الأمير أيبك الأفرم الصالحى واستقر به أمير جاندار .

وأنعم على الأمير بدر الدين اليسرى الشمسى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير سيف الدين قلاون بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير بدر الدين بكتوت المعزى الجوكندار بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير عز الدين بيدغان — المعروف بسم الموت — بتقدمة ألف ، وأنعم على الأميربلبان الهارونى بتقدمة ألف .

وخلع على الأمير جمال الدين أقوش النجيبى واستقر به استادار العالية ، وخلع على الأمير ركن الدين اياجى ، والأمير سيف الدين بكجرى واستقر بهما حجابا ، ثم فصل الصاحب زين الدين بن الزبير من الوزارة ، واستقر بالصاحب بهاء الدين بن حنا وزيرا بالديار المصرية . والصاحب بهاء الدين بن حنا هذا هو الذى بنى مكان الآثار النبوية المطل على بحر النيـل ، واشترى الآثار الشريفة بجملة كبيرة من المال وأودعها فى ذلك المكان الذى أنشأه على بحر النيل ، وصـارت الناس يقصدون ذلك المكان بسبب الزيارة فى كل يوم أربعاء .

ثم ان الملك الظاهر بيبرس عمل الموكب ، وخلع على مملوكه الأمير بدر الدين بيليك الخازندار ، واستقر به نائب السلطنة ، وفوض اليه جميع أحوال

المملكة ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية .

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى تذكرته ان الأمير بيليك هذا كان أصله من مماليك الظاهر بيبرس ؛ اشتراه صغيرا ورباه من حين كان الملك الظاهر أمير عشرة ، واستمر فى خدمته الى أن بقى الملك الظاهر سلطانا فخلع على الأمير بيليك واستقر به نائب السلطنة ، وفوض اليه أمور المملكة جميعها ، وصار ينفذ الأمور من غير مشورة السلطان .

قيل ان التاجر الذى باع الأمير بيليك الى الملك الظاهر بيبرس كان فى سعة من المال والتجارة ، فدارت عليه الدوائر حتى افتقر وصار من جملة الحرافيش ، فلما دخل الى القاهرة قال له التجار ان مملوكك بيليك الذى بعته للملك الظاهر بيبرس قد صار عزيز مصر ، وأقبلت عليه الدنيا ، فلو أنك تدخل اليه وتذكر له حالك وما صرت اليه من الفقر فعسى ينعم عليك بشىء من الدنيا تستعين به على جور الزمان ... فكتب قصته ورفعها الى الأمير بيليك ، وكان من مضمون تلك القصة هذان البيتان :

قد صرت ، من بعد عز ، فى الهوان وقد
جار الزمان بضيق نلت منه أذى
والآن أقبلت الدنيا عليك كما
ترضي : فلا تنسني ... ان الكرام اذا

فلما قرأها الأمير بيليك قال : « من رفع هذه القصة ؟ » . فقيل له : « هذا التاجر الذى باعك للسلطان » ... فلما رآه قام اليه واعتنقه وأجلسه الى جانبه ، فشكا اليه التاجر ما قد جنى عليه الزمان بجوره ، فأنعم عليه الأمير بيليك بعشرة آلاف دينار وخلعة وفرس .

ومن هنا نرجع الى أخبار الملك الظاهر بيبرس .

فلما تم أمره فى السلطنة رسم باحضار المماليك البحرية الذين كانوا منفيين فى البلاد ، ثم أرسل عدة مكاتبات الى سائر من فى البلاد من النواب وأخبرهم بما قد جدد الله تعالى له من الملك ، وطلب منهم بذل الطاعة ، فأجابوه بالسمع والطاعة .

ثم ان الملك الظاهر لما ثبت فى السلطنة أراد أخذ خواطر الرعية بالأفعال المرضية ، ليمحو ما جناه من السيئات ، وتعود مكانها الحسنات ... فأبطل جميع ما كان أحدثه الملك المظفر قطز من أبواب المظالم عند خروجه الى تجريدة التتار ، وكتب به مسامبح ، وقرئت على منابر مصر والقاهرة ، فطابت اليه نفوس الرعية ، وضجوا له بالأدعية السنية ، فطابت به مصر ورق الهواء ، ومشى الذئب والشاة سواء .

وفيه يقول بعض الشعراء من أبيات :

لم يبق للجور فى أيامكم أثر
الا الذى فى عيون الغيد من حور

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من دمشق بأن نائب الشام سنجر الحلبى الذى كان الملك المظفر قطز ولاه نيابة الشام قد خرج عن الطاعة ، وأظهر العصيان ، وجمع أمراء دمشق وقبلوا له الأرض ، وركب فى دمشق بشعار السلطنة وتلقب بالملك المجاهد ، وكتب بذلك الى سائر أعمال البلاد الشامية ، وخطب باسمه على منابر دمشق وأعمالها .

وكان الأمير علم الدين سنجر الحلبى هذا ، لما ثقل أمره على الناس فى دولة الملك المنصور على ابن أيبك التركمانى ، قبض عليه الملك المظفر قطز قبل أن يلي السلطنة وسجنه مدة فى الاسكندرية ، ثم أفرج عنه واستقربه نائب الشام . فلما قتل الملك المظفر قطز وتولى الملك الظاهر بيبرس ، كما تقدم ، أظهر الأمير سنجر العصيان وتسلطن بالشام . فلما بلغ الظاهر بيبرس ما وقع من الأمير سنجر كتب اليه كتابا يوبخه فيه بقبيح فعله ، وأمره بالرجوع

عن ذلك ، فعادت الأجوبة بالمخالفة وعدم الطاعة ، وقد وافقه على العصيان جماعة من النواب ، واضطربت أحوال البلاد الشامية والحلبية فى أوائل دولة الملك الظاهر بيبرس ... منها ما أفسده عسكر هلاكو من نهب البلاد وقتل العباد ، ومنها عصيان النواب وسلطنة سنجر . واضطربت أحوال الملك الظاهر فى أوائل دولته ، ووثب عليه المماليك المعزية ، فقبض على جماعة من الأمراء المعزية والمماليك ، وقتل منهم جماعة ، ونفى منهم جماعة ، حتى صفا له الوقت من الكدر وأمن الحذر .

سنة تسع وخمسين وستمائة (١٢٦١ م) :

فى يوم الاثنين تاسع عشر شهر رجب حضر من بغداد الى الديار المصرية شخص من ذرية بنى العباس يقال له الامام أحمد . وهو ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ، ابن الخليفة الناصر لدين الله ، ابن الخليفة المستنصر بالله العباسى الهاشمى . فلما بلغ الملك الظاهر قدومه خرج الى تلقيه . فلما وصل الى المطرية تلاقى هناك هو والامام أحمد العباسى ، وكان الامام أحمد هذا أسمر اللون ، وأمه أم ولد حبشية . فلما وقعت عين الملك الظاهر عليه نزل عن فرسه ، ونزل الامام أحمد عن فرسه ، واعتنقا ثم ركبا ومرا فى القاهرة ، ودخلا من باب النصر ، فزينت له القاهرة ، وكان له موكب عظيم ويوم مشهود لم يسمع بمثله . فلما وصلا الى القلعة طلع الامام أحمد مع السلطان الى القلعة ، فأنزله السلطان فى قاعة الأعمدة ، فأقام بها أياما .

ثم ان الملك الظاهر قصد أن يثبت نسبا للامام أحمد بأنه من ذرية بنى العباس ، فان الخلافة كانت شاغرة من حين قتل الخليفة المستعصم بالله فى سنة ست وخمسين وستمائة ، وكان قدوم الامام أحمد الى الديار المصرية فى سنة تسع وخمسين وستمائة ، فكانت مدة شغور الخلافة نحو أربع سنين الا أشهرا .

فأمر الملك الظاهر بعقد مجلس فى قاعة الأعمدة ، وجمع القضاة ومشايخ العلماء ومشايخ الصوفية وأعيان مشايخ الأولياء وسائر الأمراء وأرباب الدولة ، وكان فى صدر المجلس المشار اليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الاسلام رضى الله عنه .

فلما تكامل المجلس ، تأدب الملك الظاهر مع الامام أحمد ، وجلس بين يديه بغير مرتبة . ثم ان السلطان أمر باحضار العربان الذين حضروا صحبة الامام أحمد من بغداد — وكان فيهم طواشى من بغداد — فشهدوا كلهم بين يدى قاضى القضاة تاج الدين الشافعى ابن بنت الأعز بأن الامام أحمد هذا هو ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ، ابن الخليفة الناصر لدين الله ، المتصل النسب الى العباس رضى الله عنه ... فثبت ذلك على يدى قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، وسجله على نفسه وحكم بصحة ذلك .

فلما ثبت نسب الامام أحمد بايعه القضاة بالخلافة ولقبوه بالمستنصر بالله ، ثم ان الامام أحمد بايع الملك الظاهر بيبرس بالسلطنة ، وفوض اليه أمر البلاد الاسلامية وما يضاف اليها وما سيفتح عليه من البلاد الكفرية .

فلما كان يوم الجمعة أمر السلطان الامام أحمد بأن يخطب ويصلى بالناس صلاة الجمعة بجامع القلعة ، فاجتمع القضاة والعلماء وسائر الأمراء بالجامع ، فخطب الامام أحمد خطبة بليغة ، وأثنى فيها على فضل الملك الظاهر الذى رد الخلافة لبنى العباس .

فلما كان يوم الاثنين رابع شهر شعبان من السنة المذكورة خرج الملك الظاهر الى نحو أرض المطرية ، وضرب هناك خيمة كبيرة ، وجلس على كرسى والأمراء بين يديه . ثم ان القاضى فخر الدين بن

لقمان كاتب السر الشريف نصب له هنـاك منبرا وصـعد عليه ، وقرأ على الأمراء تقليـد الخليفة المستنصر بالله للملك الظاهر . فلما فرغ من قراءته أحضروا للسلطان الملك الظاهر خلعة السلطنة ، وهى جبة سوداء بطوق ذهب ، وعمامة سـوداء بعذبة ذهب ، وسيف بداوى متقلد به حمائلى . فلما لبس خلعة السلطنة ركب فرسا برز بسرج ذهب وكبنوس ، ودخل القاهرة من باب النصر ، ومر بالمدينة وقد زينت له ، وهو لابس شعار السلطنة كما تقدم ، والأمراء جميعهم مشاة بين يديه ، والصاحب بهاء الدين بن حنا حامل التقليد على رأسه حتى طلع الى القلعة . وكان يوما مشهودا لم يسمع بمثله .

ثم ان السلطان كتب الى سائر أعمال مملكته بأخذ البيعة الصحيحة من الخليفة المستنصر بالله أحمد ، وهو أول خليفة بايع الملوك الترك بمصر .

ثم ان السلطان أخـذ فى أسباب تجهيز الامام أحمد وعوده الى بغداد ، فأقام له برك عظيم ، وعين معه عسكرا ، فكان جملة ما أنفقه الملك الظاهر على تجهيز الامام أحمد من المال مائة ألف دينار وستين ألف دينار .

فلما انتهى شغل الامام أحمد ، ودع السلطان ونزل من القلعة ، فنزل السلطان معه الى المطرية وسائر الأمراء ، فودع السلطان الامام أحمد وعاد الى القلعة ، وسار الامام أحمد بمن معه من العساكر السلطانية . فلما وصل الى الفرات بلغ قرابغا أمير التتار الذى استخلفه هلاكو على بغداد مجىء الامام ومعه عساكر السلطان ، فخرج اليه قرابغا فى عسكر ثقيـل من التتار ، فتلاقى العسكران على مكان يسمى الأنبار ، فحمل عسكر السلطان على التتار فكسروهم كسرة قوية ، وهرب التتار ... فلما دخل الليل هجم التتار على عسكر السلطان فأحاطوا بهم فما نجـا منهم الا من طال عمره ، ونهبوا ما كان معهم من سلاح وخيول ومال .

وأما الامام أحمد فلم يعلم له خبر ، ولا وقف له على أثر . فمن الناس من يقول انه قتل تحت الليل وقت الكبسة ، ومن الناس من يقول انه نجا بنفسه وهو مجروح مع طائفة من العرب فأقام عندهم أياما ومات ... والله أعلم . وكانت هذه الواقعة فى أواخر سنة تسع وخمسين وستمائة .

فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بما جرى للامام أحمد ، تأسف الملك الظاهر بيبرس على ذلك غاية الأسف ، وراح ما صنعه فى البارد ، فكان كما قال الشاعر فى المعنى وأجاد :

أنفقت كنـز مدائحى فى ثغره
وجمعت فيه كل معنى شـارد
وطلبت منه جـزاء ذلك قبلة
فأبى ، وراح تغزلى فى البارد

سنة ستين وستمائة (١٢٦٢ م) :

فيها جاءت الأخبـار بأن شخصا من ذرية بنى العباس يقال له الامام أحمد أيضا قد وصل الى الديار المصرية ، فلما بلغ ذلك الملك الظاهر بيبرس خرج الى تلقيه ، فلاقاه من الريدانية ، وصعد به الى القلعة وأنزله بالبرج الكبير الذى بالقلعة . وكان هذا الامام أحمد الثانى مستخفيا عند جماعة من العرب فى قرية من أعمال بغداد ، فسبقه الامام أحمد ابن الخليفة الظاهر الى مصر . فلما قتل الامام أحمد حضر الى مصر ، فعقد له الملك الظاهر مجلسا ثانيا ، وجمع فيه القضاة ، وفعل به كما فعل أولا . وكان قد حضر معه الأمير عيسى بن مهنا وجماعة كثيرة من العربان ، فشهدوا بين يدى قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز بأن هذا الامام أحمد هو ابن على ، بن أبى بكر ، ابن الخليفة المسترشد ، ابن الخليفة المستظهر ، ابن الخليفة المقتدى ، ابن محمد

الذخيرة العباسى الهاشمى ... فثبت ذلك على يد قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، وحكم بصحة ذلك .

ثم ان القضاة بايعوا الامام أحمد بالخلافة ولقبوه بالحاكم بأمر الله ، وثبت نسبه ، وتولى فى ذلك المجلس الخلافة .

ثم ان الامام أحمد بايع الملك الظاهر بالسلطنة ثانيا ، وبايع أعيان الدولة على قدر طبقاتهم ، ثم أمر السلطان بأن يخطب باسم الخليفة واسمه على منابر مصر وأعمالها ، وينقش على الدنانير والدراهم اسماهما ، وأن يقدم اسم الخليفة فى الدعاء يوم الجمعة على المنابر قبل اسمه .

ثم انه أسكن الامام أحمد فى مناظر الكبش التى أنشأها الأمير أحمد بن طولون ، وكانت مناظر الكبش مطلة على بحر النيل . ورتب له ما يكفيه فى كل يوم هو وعياله ، وأمره بأن يصعد الى القلعة فى أول كل شهر ويهنى السلطان بالشهر ... فهو أول خلفاء بنى العباس بمصر ، وهو جد الخلفاء الذين تولوا الخلافة بمصر ، فهذا كان سبب نقل الخلافة من بغداد الى مصر على يد الملك الظاهر بيبرس ، وهذا من جملة فضائله .

وقد ورد فى بعض الأخبار أن الخلافة لا تزال فى بنى العباس حتى ينزل عيسى بن مريم عليه السلام فتنقطع بعد ذلك . قال بعض الشعراء فى حق الملك الظاهر بيبرس :

ياأسد الترك ، ويا ركنهم
ويا آخذ الثأر بعد المخافه

كسرت الطغاة ، جبرت العفاة
قطعت الفرات ، وصلت الخلافه

ثم ان الملك الظاهر — لما استقرت الخلافة بمصر — جعل لكل مذهب من المذاهب قاضيا كبيرا وتحت يده نواب ، وكان قبل ذلك فى الدول المتقدمة قاض فرد كبير شافعى . وكان يولى من تحت يده نوابا من المذاهب الثلاثة . وآخر من كان يفعل ذلك قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز الشافعى ، فأبطل ذلك الملك الظاهر بيبرس ، وقرر لكل مذهب قاضيا كبيرا ويولى من تحت يده نوابا ، فهو أول من قرر القضاة أربعة ، وجعل لمصر نوابا وحدها ، وللقاهرة نوابا وحدها ، وكان ذلك فى أواخر سنة ستين وستمائة .

سنة احدى وستين وستمائة (١٢٦٣) :

فيها رتب السلطان لعب القبق . وفيها وقع الغلاء بمصر ، وشح النيل حتى عدمت الأقوات ، فأمر السلطان بجمع الحرافيش كلهم — وكانوا نحو ألفى حرفوش — ففرقهم على الأمراء ، وأخذ لنفسه منهم جانبا ، وأضاف لولده الملك السعيد منهم جانبا ، وأضاف الى الأمير بيليك نائب السلطنة منهم جانبا ، ورسم لكل واحد منهم فى كل يوم برطل خبز ونصف رطل لحم ، وأمرهم ألا يسألوا بعد ذلك أحدا من الناس .

وفيها كانت وفاة الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصارى الحموى شيخ الشيوخ بحماة ، وكان مولده فى سنة ست وثمانين وخمسمائة ، ووفاته سنة احدى وستين وستمائة ، فكانت مدة حياته خمسا وسبعين سنة . وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله فى الغزل :

سبحان مورثه من حسن يوسف ما
لم يبق فى الحجر لى والصبر من حصص

أقام للشعراء العذر عارضه
فكم لهم فى دبيب النمل من قصص

سنة اثنتين وستين وستمائة (١٢٦٤) :

وفيها حضر الى الملك الظاهر بيبرس جماعة من

ملوك الشرق يهنئونه بالسلطنة ، فمنهم الملك الصالح اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأخوه الملك المجاهد سيف الدين اسحق صاحب الجزيرة ، وأخوه الملك المظفر ... فلما قدموا على الملك الظاهر أكرمهم وأقرهم على ما بأيديهم من الممالك التى فى الشرق .

وفيها ختن السلطان ولده الملك السعيد محمدا ، ورسم للأمراء والجند وبقية الرعية أن كل من كان له ولـد فليطلع به الى القلعة حتى يختتن مـع ابن السلطان ... فأحضر الناس أولادهم فبلغ عددهم نحو ألف وستمائة وخمسة وأربعين ولدا ، خارجا عن أولاد الأمراء والأعيان ، فرسم لكل واحد منهم بكسوة على قدر مقام أبيه . وأما أولاد الحرافيش فرسم لكل واحـد منهم بكسوة ، ومائة درهم ، ورأس غنم ، واستمر المهم عمالا فى القلعة سبعة أيام .

سنة اربع وستين وستمائة (١٢٦٦ م) :

فيها سافر السلطان الى الشام ، وتوجه من هناك الى صفد فافتتحها ، وعمر بها البرج الكبير ، ورجع الى الديار المصرية .

وفيها أخرج السلطان تجريدة الى مدينة سيس . وكان باش العساكر الأمير عز الدين بيدغان المعروف بسم الموت ، والأمير قلاون الألفى ، وجماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ... فخرجوا من القاهرة فى موكب عظيم وتوجهوا الى نحو بلاد الشمال . فلما وصلوا الى مدينة سيس وحاصروها أعلن أهلها بالأمان ، ثم توجهوا الى قلعة اياس ففتحوا عدة قلاع كانت بيد الأرمن ، ثم رجع الأمراء الى الديار المصرية وهم فى غاية النصر بهذه الفتوحات العظيمة التى فتحت على أيديهم . وقد هنأ بهـذه الأبيات بعض الشعراء الأمير بيدغان عند عوده :

بقيت مدى الدنيا جمـالا لدولة
لها منك سـهم فى اللقا ورسيس

تسـوق لهـا عز الفتوح جنائبا
وأول هاتيـك الجنـائب سيس

سنة خمس وستين وستمائة (١٢٦٧ م) :

فيهـا أبطل السلطان ضمان الحشيشة ، وأمر باحراقها ، وأخرب بيوت المسكرات وكسر ما فيها من الخمور وأراقها ، ومنع الخانات من الخواطى ... وعم هذا الأمر سائر الجهات المصرية ، وبرزت المراسيم الشريفة بمنع ذلك من سـائر الجهـات الشامية ، فطهرت فى أيامه سـائر البقاع ، ومنع الناس من ذلك غاية الامتناع .

ثم أحضروا اليه فى أثناء هـذه الواقعة شخصا يسمى ابن الكازرونى ، وهـو سـكران ، فأمر بصلبه فصلب بعد حد عظيم فى مستحقه ، وعلقت الجرة والقدح فى عنقه . فلما عاين أرباب المجون والخـلاعة ما جـرى لابن الكازرونى امتثلوا أمر السلطان بالسمع والطاعة ، وقد قال القائل :

لقـد كان حد السكر من قبـل صلبه
خفيف الأذى اذ كان فى شرعنـا جلدا

فلما بدا المصلـوب قلت لصـاحبى :
ألا تب ، فان الحد قد جاوز الحـدا

قال الشيخ شمس الدين بن دانيال ، صاحب كتاب طيف الخيال : « لما قدمت من الموصل الى الديار المصرية ، فى الدولة الظاهرية ، سقى الله من سحب الأنعام عهدها ، وأعذب مشارب وردها ، فوجدت مواطن الأنس دارسـة ، وأرباب اللهو والخلاعة غير آنسة ، ومن لذة العيش آيسـة . وهزم أمر السلطان ، جيش الشـيطان . وتولى الخوان والى القاهرة اهراق الخمور ، واحراق الحشـيش وتبـديد المزور ... وشـاعت بذلك الأخبار ، ووقع الانكار ، واختفى المسـطول فى الدار ، وقـد آذى الخلاعة غاية الأذية ، وصـلب ابن الكازرونى وفى رقبته نباذية ... فدعانى بعض

أصدقائی الی محله ، وأنزلنی من عیاله وأهله .
واعتذر الیّ عن تقصیره فی الاکرام ، اذ لم یأتنی بمدام . وقال قد غلب علی ظنی أن أبا مرة [1] قد مات ، وعد من الرفات ... فقم بنا نبکیه ، ونصف الحالة ونرثیه . فابتدأت وقلت ، فی معنی هذه الواقعة التی وقعت :

مات یاقوم شیخنا ابلیس
وخلا منه ربعه المألوس
ولعالی حدسی به اذ توفی
ولعمری مماته محدوس
هو لو لم یکن کما قلت میتا
لم یغیر لأمره ناموس
أین عیناه تنظر الخمر ، اذ عط
ل منها الراووق والمحریس ؟
ومواعینها تکسرن ، والخم
ار من بعد کسرها محبوس

* * *

أین عیناه تنظر المزر قد أو
حش منه الماجور والقادوس ؟
وعجین البقول قد بددوه
وهو بالترب خلطه مبسوس
والقنانی مکسرات کما قد
کسرت فی دجی اللیالی الکئوس
وذوو القصف ذاهلون ، وقد کا
دت علی سیلها تسیل النفوس
وفتی قائل : لقد هان عندی
بعد هذا فی شربها التجریس
کم خلیع یقول : ذا الیوم یوم
— مثل ماقیل—قمطریر عبوس !
ارحلوا هذه بلاد عفاف
وسعود الخلاع فیها نحوس

(1) ابو مرة : کنیة لابلیس .

من لنا بعد ذلك الشیخ الف
وسمیر ومؤنس وأنیس
لا تری بعده فتی ضاحك الس
ن وکل یبدو له تعبیس
فسأبکیه أرمد العین حتی
لشفائی یعیش جالینوس

قال ابراهیم المعمار : لما وقفت علی قصیدة الشیخ شمس الدین بن دانیال قلت : لو أنی أدرکت ذلك الزمان لرثیت الخلاعة والمجون ، بهذا الزجل المصون :

منعونا ماء العنب یاسین
رب سلم لم یمنعونا التین
هات قل لی اذا منعنا الراح
وحرمنا من الوجوه الصباح
یش نبقی نستجلب الأفراح
والخلیع کیف تراه یعیش مسکین

* * *

علی ماء ذا العنب بکی الراووق
والشمع صار بعبرتو مخنوق
والوتر بات من الغروب للشروق
من أنینه تسمع له فی اللیل حنین

* * *

ولقد هان حضرة المحضر
وتلون ذا الزهر وتغیر
وبغیظه ریحاننا اتنصر
وعلی وجهه صلب الیسمین

* * *

والندامی جمیعهم فی شتات
حزنوا کأن مات لهم أموات
هذا قاعد یبکی علی ما فات
وذا ینذب وذا الآخر حزین

* * *

ولى صاحب زمان معى كان طبيب
جانى وقال لى مشتاق أنا يا أديب
لجريره لو انها من زبيب
أرى قلبى يرتاح لهذا الحين

* * *

فقصدنا « المنية » الى « شبرا »
ما لقينا رحنا « طنان » لخرا
وفى « قليوب » قالوا ولا نظرا
درنا من « مرصفا » الى « شبين »

* * *

وصعدنا قبلى ذا البلدان
ونبشنا « طموه » « لدير شعران »
ما أمر الطريق الى « حلوان »
أخرب الله « طره » على « التبّين »

* * *

قد تعبنا مما نجد السير
ولا أصبنا فى ذا السفر من خير
جئنا عند المسا لواحد دير
فوقفنا نزعق للشيخ أبو مرتين

* * *

ونقول له : يا أبونا قد جئناك
عسى جره بحياة رهابيناك
ويميتك ربى على ديناك
وانا ندرى انه أحسن دين

* * *

لانا نضحك عليه وتهزر
حتى لا يكبح ويتخنزر
ووهبناه من بيننا منزر
ووقفنا نخاطبه باللين

* * *

فدخل غاب زمان ونحن وقوف
واتتو تدروا ايش وقفة الملهوف
وانا ندعو ذاك الدعا الموصوف
الله يفتح وأخى يقول آمين

بعد ساعة الا وهو قد رد
جا يقول : بالله رآكم حد ؟
ونصيب من وراه شيخ يرعد
ومعه جرة اذ يصيح يا أسين

* * *

كم ندور فما لقيت عندى
الا هذه وأظنها دردى
قمت متمدد من الفرح يدى
ونصيح له من الظما أروين

* * *

أخذت نسكب منها قنينه
جبتها كالمسك رقتينه
سودا ملانه للطينه
قلت معمار دى نحسه للطين

* * *

فرجعنا ايش رجعة المكسور
قلت كيف العمل فقال ندور
فى المقيلات ونقتنع بالمزور
ولا نرجع من ذا السفر متخيبين

* * *

حين قطعنا الاياس من الخمار
جئنا نسعى له أشن المزار
قال نشرب ما عجين فقلت فشار
فما ذا الكعك أصل من ذا العجين

* * *

وأنا مالى عنه سوى ابن الكروم
والشراب المعتق المعلوم
نتبعه لو يصير بأقصى الروم
ولو انا ندخل لقسطنطين

* * *

ولا نهوى الا الشراب القديم
ومعشوق جديد يكون لى نديم

تنفق المـــال على ايش يسمى عديم
وأنا ممكن في غـــــاية التمكين

***

أرخـــوا بالله توبـــة المعمـــار
واكتبـــوها بالتبر طـــول أعمـــار
قولوا من هجـــرة النبى المختـــار
ســبعمائة ســنة خمس وأربعـــين

***

انتهى ما أوردناه مما قالت الشـــعراء فى هذه الواقعة ، ومن هنا نرجع الى أخبار التاريخ .

سنة ست وستين وستمائة (١٢٦٨ م) :

فيها توجه السلطان نحو الشام ، وحاصر مدينة انطاكية ، ففتحها فى يوم الجمعة ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة . ثم توجه الى بغراس ففتحها ورجع الى الديار المصرية وهـــو فى غاية النصرة وزينت له القاهرة .

سنة سبع وستين وستمائة (١٢٦٩ م) :

فيها حج السلطان الى بيت الله الحرام ، فخرج من القاهرة فى ثالث شوال ، وتوجه الى غـــزة ، فأخذ الاقامات التى كان عباها له نائب الشام ، ثم توجه من غزة الى الكرك ، ثم توجه من الكرك الى المـــدينة الشريفة ، فزار قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم توجه من هنـــاك الى مكة فدخلها فى خامس ذى الحجة . وكان فى تلك السنة الوقفـــة يوم الجمعة ، وكان ولد السلطان السعيد محمد توجه صحبة المحمل بالحاج المصرى ، فلمـــا قضى حجه رجع الى الشام ورجع ابنـــه الملك السعيد صحبة المحمل مع الركب المصرى .

سنة ثمان وستين وستمائة (١٢٧٠ م) :

فيها رجع السلطان الى القاهرة وأقام بها الى شهر شـــعبان ، ثم توجه الى زيارة بيت المقدس والخليل عليه السلام ، فزارهما ورجع الى الديار المصرية .

سنة تسع وستين وستمائة (١٢٧٠ م) :

فيها أرسل صـــاحب طرابلس تقـــدمة عظيمة للسلطان ، وأظهر الطاعة ، فقبلها السلطان وأقره على ما كان بيده من البلاد .

وفى هذه الســـنة رتب السلطان خيل البريد ، بسبب سرعة أخبار البلاد الشامية ، فكانت أخبار البلاد الشامية ترد عليه فى الجمعة مرتين . وقيل انه أنفق على ذلك جمـــلة مال حتى تم له ترتيب ذلك ، وكان خيـــل البريد عبـــارة عن مراكز بين القاهرة ودمشق ، وفيها عدة خيول جيدة ، وعندها رجال يعرفون بالسواقين ، ولايقدر أحد يركب من خيل البريد الا بمرســـوم سلطانى . وكان عند كل مركز ما يحتاج اليه المسافرون من زاد وعلف وغير ذلك ... وهذا كله لأجل سرعة مجىء أخبار البلاد الشامية وغيرها من البلاد . وقيل ان الملك الظاهر بيبرس هذا كان يعمل موكبا بمصر وموكبا بالشام ، وكانت خيل البريد مرصودة بسبب ذلك ، حتى لقد قال القائل فى المعنى :

يوما بمصر ، ويوما بالشآم ، ويو
ما بالفرات ، ويوما فى قرى حلب

واستمر هذا الأمر باقيـــا بعد الملك الظاهـــر بيبرس مدة طويلة ، ثم تلاشى أمره قليلا قليلا حتى بطل فى دولة الملك الناصر فرج بن برقوق عندما قدم تيمورلنك الى الشام وأخرب البلاد الشامية ، وذلك فى سنة ثلاث وثمانمائة ... فعند ذلك بطل أمر خيل البريد مع جمـــلة ما بطل من شعائر مملـــكة الديار المصرية .

سنة سبعين وستمائة (١٢٧١ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن التتار قد تحركوا على البلاد ، ووصلوا الى الفـــرات ، وملكوا البيرة ،

فخرج اليهم السلطان ومعه سائر الأمراء . وكان جاليش العسكر الأمير قلاون الألفى والأمير بيسرى ... فتلاقوا مع التتار على الفرات ، فكان بينهم وقعة عظيمة ، فقتل منهم ما لا يحصى عدده ، وأسر منهم جماعة كثيرة . فلما دخل السلطان الى البيرة خلع على نائبها وأقره على حاله ، وفرق جملة من المال على من بها من الرعية لأنهم قاتلوا التتار قتال الموت حتى كسروهم كسرة قوية ، فأقام السلطان فى البيرة أياما ثم رجع الى الشام ، فأقام بها شهرا ثم توجه الى الديار المصرية فدخلها فى موكب عظيم ، وزينت له وحملت القبة والطير على رأسه .

سنة احدى وسبعين وستمائة (١٢٧٢ م) :

فيها هجم الوباء على الديار المصرية ، ومات فى تلك السنة مالا يحصى من الخلائق من نساء ورجال وأطفال وعبيد وجوار ، وأقام نحو ستة أشهر .

سنة اثنين وسبعين وستمائة (١٢٧٣ م) :

فيها كان النيل شحيحا ، ووقع الغلاء وقلت الغلال فى سائر أعمال الديار المصرية .

وفى هذه السنة توفى الشيخ عبد العظيم ابن الجزار الشاعر ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، وكان مولده فى سنة احدى وستمائة ، ووفاته فى سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، فكانت مدة حياته احدى وسبعين سنة . وعاصر الشيخ أثير الدين أبا حيان المغربى ، والشيخ قطب الدين القسطلانى ، وغيرهما من العلماء .

ومن شعره الرقيق قوله فى نفسه :

من منصفى من معشر
كثروا على وأكثروا
صادقتهم ، وأرى الخرو
ج من الصداقة يعسر
كالخط يسهل فى السطو
ر ومحوه يتعذر
واذا أردت كشطته
لكن ذاك يؤثر

سنة ثلاث وسبعين وستمائة (١٢٧٤ م) :

فيها زوج السلطان ولده الملك السعيد محمد ببنت الأمير سيف الدين قلاون الألفى ، وكان له مهم عظيم أقام سبعة أيام بالقلعة ، وكان يظن أنه اذا زوج ابنه ببنت الأمير قلاون الألفى يكون له من بعده عونا على تقلب الزمان ، فجاء الأمر بخلاف ذلك ، فسطا الزمان عليه وأخذه من الجانب الذى يركن اليه .

سنة اربع وسبعين وستمائة (١٢٧٥ م) :

فيها جرد السلطان الى نحو بلاد النوبة . وسبب ذلك أن ملك النوبة دخل مدينة أسوان ونهب ما فيها وأحرقها . فلما بلغ السلطان ذلك أرسل الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانى استادار العالية ، والأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار ، وجماعة من الأمراء العشراوات والمماليك السلطانية ... فلما وصلوا الى النوبة تقاتلوا مع ملك النوبة على أسوان ، فانكسر ملك النوبة وهرب ، وقتل من عسكره جماعة كثيرة ، وأمسك أخوه وأولاده وأقاربه ، وغنم منهم عسكر السلطان غنائم كثيرة من جوار وعبيد وخيول وغير ذلك .

سنة خمس وسبعين وستمائة (١٢٧٦ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن التتار زحفوا على البلاد ، فخرج اليهم السلطان وتوجه الى حلب وتقاتل مع التتار فكسرهم وقتل منهم خلائق لا تحصى . وكان ملك التتار يقال له ابغا . فلما انكسر ملك التتار

هرب فتبعه السلطان الى نحو الابلستين ، فكانت بينهما هناك وقعة عظيمة قتل من الفريقين نحو مائة ألف انسان ، فانكسر ابغا ملك التتار وهرب فتبعه السلطان الى نحو زبيد ، ثم رجع من هناك السلطان الى قيسارية وحاصر أهلها ، فأرسلوا يطلبون من السلطان الأمان ، فأرسل لهم الأمان على يد الأمير بيسرى ، فسلموا المدينة فدخلها السلطان . وكان يوم دخوله الى المدينة يوما مشهودا ، فنزل بدار السلطنة وصلى بها ركعتين ، وحكم بين الناس ، وأقام بها أياما ثم رحل وتوجه الى دمشق .

سنة ست وسبعين وستمائة (١٢٧٧ م) :

فيها دخل السلطان الى حلب ، فتوعك جسده وأخذته الحمى وسلسل فى المرض ، فأسقاه الحكماء دواء مسهلا ، فأفرط فى الاسهال وثقل فى المرض ، فرحل من حلب وقصد الدخول الى دمشق ، فمات فى بعض ضياع دمشق . فلما مات كتم موته عن العسكر ، وحمل فى محفة الى أن دخل دمشق فدفن هناك ليلا . وكان موته فى يوم الخميس ثامن عشرى شـهر الله المحرم سـنة ست وسبعين وستمائة ، ومات وله من العمر نحو ستين سنة .

وكان ملكا عظيما جليلا مهيبا ، كثير الغزوات ، خفيف الركاب ، يحب السفر والحركة فى الشتاء والصيف . وكان مشهورا بالفروسية فى الحرب ، وله اقدام وعزم وقت القتال ، وله ثبات عند التقاء الجيوش فى الحرب . وكان يلقب بأبى الفتوحات لكثرة الفتوحات فى أيامه . وكان له موكب بمصر وموكب بالشام كما تقدم ذلك عند خيل البريد . وكان رنكه سبع ... اشارة لشجاعته وقوة بأسه . وكان كريما سخيا على الرعية ، باسط اليد ، يفرق الغنائم التى تحصل من الفتوحات على الرعية حتى يرغبهم فى القتال وقت الحرب . وكان محبا لجمع الأموال ، كثير المضادرات للرعية لأجل الغزوات والتجاريد ، وينفق ذلك على العسـكر . وكان مهيب الشـكل ، حسـن الوجه ، طويل القامة ، مستدير اللحية ، الغالب فى لحيته البياض . وكان مبجلا فى موكبه ، كفؤا للسلطنة ، منقادا للشريعة ، يحب العلماء والصالحين ، ويحب فعل الخير ، وله بر ومعروف وآثار ، ولا سيما رده الخلافة لبنى العباس بعدما كادت أن تنقطع عنهم ، فردها لهم كما تقدم ذلك . وقد أنفق على ذلك جملة مال حتى صارت الخلافة بمصر .

وكان خيار ملوك الترك بمصر وفى ذلك أقول :

تاريخـه فى الملوك أضحى
يحـير العـرب والأعاجم

فاكتبـه بالتبر لا بحبـر
وانسـب لأفعاله العظائم

اختـاره الله مـن امام
لقمع أهل الفسـاد صارم

قد أظهر العدل فى الرعايا
وأبطل الجـور والمظـالم

له بقلب المـلوك رعـب
أغنى عن السمر والصوارم

فالله يرحمـه كل حـين
ما دام هـذا الوجود قائم

قيـل لما توفى الملك الظاهر بيبرس كتم الأمير بيليك ، نائب السلطنة ، موته خوفا من التتار لئلا يرجعوا الى البـلاد ، ثم احتاط على خزائن المال والبرك السـلطانى ، وقصـد التوجه الى الديار المصرية ، فكانت المحفة تمشى فى الموكب وقدامها الجنائب وهو يظهر أن السلطان مريض . ورتب حضور الأطباء على العادة ، فكان لا أحد يجسر أن يقرب الى المحفة . واستمر الأمر على ذلك حتىدخل الى مصر القاهرة ، وطلع قلعة الجبل ... فعند ذلك

أشيع موت السلطان وتسلطن ولده الملك السعيد .
وقد رثاه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر كاتب السر الشريف بهذه الأبيات :

الله أكبـــر ، انهـــا لمصـــيبة
منهـــا الرواسى ، خيفـــة ، تتقلقل
لهفى على الملك الذى كانت به الدنـ
يا تطيب ... فـــكل قفـــر منـــزل !
الظـاهر الســـلطان من كانت له
منن عـــلى كل الورى وتطول
لهـــفى عـــلى آرائه تلـــك التى
مثل الســـهام الى المصالح ترســـل
لهفى عـــلى تلك العزائم كيف قـــد
غفلت ... وكانت قبـــل ذا لا تغفل
ما للـــرمال تخولتهـــا رعـــــدة
لكنها ، اذ ليس تعقـــل ، تعقـــل
ســـهم أصـــاب وما رمى من قبـــله
ســـــهم له فى كل قلب مقتـــــل
أنا ان بكيت دما فعذرى واضـــح
ولئن صـــــبرت فاننى أتمثـــــل
خلف الشـــهيد لنا الســـعيد فأدمع
منهـــــلة فى أوجـــــه تتهـــــلل

وكانت مدة سلطنة الملك الظاهر بيبرس بالديار المصرية والبلاد الشـــامية سبع عشرة سنة وشهرين ونصف شهر .

ولما مات خلف من الأولاد عشرة : ثلاثة ذكور ، وهم الملك السعيد محمد ، والملك العادل سلامش ، وسيدى خضر ولكنه لم يتسلطن . وخلف من البنات سبعا . وأما فتوحاته التى افتتحهـــا فى أيامه فهى قيسارية وأرسوف وصفد وطبريا ويافا والشقيف وانطاكية وبغراس والقصير وحصن الأكراد والقرين وحصن عكا وصافيثا والمرقبـــة وحلب وبانياس وطرسوس ، وكانت هذه البلاد بأيدى الافرنج .

وأما ما فتحه من بلاد الشرق فهى مدينة سيس ، أخـــذها بالأمان ، ودركوش وتلميش وكفر دنين ورعبان ومرزبان وكينوك وأدنة والمصيصة .

وأما الذى صار اليه من بلاد المسلمين فهى دمشق وبعلبك وقلعة الصبية وقلعة شيزر وعجلون وبصرى وصرخد والصلت وحمص وتدمر والرحبـــة وتل باشر وصهيون وقلعة الكهف والقدموس والخوابى والكرك والشوبك وبيت المقدس ومدينة الخليل عليه السلام .

وأما ما افتتحه من بلاد الســـودان فهى النوبة وأعمالها ، وافتتح قلعة العميدين من أعمال برقة ، وافتتح عدة جزائر من أعلى الجنادل .

وأما ما أنشأه من العمائر فى البلاد فهو ما جدده فى الحرم الشريف النبـــوى ، وجدد عمـــارة قبة الصخرة ببيت المقدس ، وزاد فى أوقاف الخليل عليه السلام .

وأما ما أنشاه بالديار المصرية وأعمالها ، فمن ذلك قناطر شبرامنت بالجيزة ، وعمر سور مدينة الاسكندرية ، وجدد بناء المنار الذى بها ، وعمر منارا بثغر رشيد ، وردم فم بحر دمياط بالقرابيص حتى لا تدخل اليه مراكب الافرنج ، وعمر الشوانى وأعادها الى ما كانت عليـــه بالصناعة ، وحفر بحر أشموم طناح ، وعمر القلاع التى ببلاد الشرق التى كان هلاكو ملك التتار قد أخربها ، وعمر مدرسة بدمشق .

وأما ما أنشأه فى القاهرة من العمائر فهى المدرسة التى بين القصرين بجانب المدرسة الصالحية ، وعمر الجـــامع الكبـــير الذى فى زقاق الكحـــل خارج الحسينية وأنفق عليه جملة مال من وجه حل من الغنـــائم التى كانت تفتح عليـــه من بلاد الافرنج وغيرها من البلاد — وكان هذا الجامع ساحة يلعب

فيها المماليك القبق — وجدد عمارة الجامع الأزهر ، وأعاد فيه الخطبة بعد ما أقام وهو خراب من أيام الحاكم بأمر الله ، وعمر القصر الأبلق بدمشق ، وعمر خانا بالقدس الشريف ، وجدد حفرخليج الاسكندرية وباشر حفره بنفسه ، وأنشأ ضيعة على فم وادى العباسية وسماها الظاهرية .

وأخبار الملك بيبرس كثيرة فى عدة مجلدات ، ولكن الذى ذكرناه هنا من أخباره هو الصحيح . وغالب أخباره فيها الزيادة والنقصان وهى موضوعة.

ومن انشائه بالديار المصرية القناطر التى على بحر أبى المنجى شعيا . ومن انشائه قناطر السباع التى بالقرب من ميدان الجبل ، ومن انشائه البرج الكبير الذى بقلعة الجبل عند ظريب التبر .

قال الشيخ شمس الدين بن الوردى فى ذلك :

الملك الظاهر أخباره تشنف الراحل والقاطن
تأملوا آثاره وانظروا ما فعل الظاهر بالباطن

وأما من توفى فى أيامه من أعيان العلماء فهم : شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه من أكابر علماء الشافعية ، وكان يلقب فى أيامه بسلطان العلماء ، وكانت له كرامات خارقة ، ودفن بالقرافة الصغرى . وتوفى الامام أبو شامة وكان من كبار العلماء ، وتوفى قاضى القضاة الشافعى ابن بنت الأعز ، وتوفى الشيخ أبو الحسن ابن بنت الأعز ، وتوفى الشيخ مجد الدين ابن دقيق العيد والد الشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد ، وتوفى القرطبى صاحب التذكرة ، وتوفى الشيخ ناصر الدين الطوسى ، وتوفى اللورقى وكان من كبار العلماء ، وتوفى غير هؤلاء من العلماء والأعيان جماعة كثيرة .

الملك السعيد

هو الملك السعيد أبو المعالى محمد ، بركة خان ، ابن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلائى البندقدارى الصالحى النجمى ، وهو الخامس من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية .

بويع بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الظاهر . وكان مولده فى صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة (١٢٦٠ م) وانما سمى بركة خان على اسم جده لأبيه . فلما تسلطن وجلس على سرير الملك كان القائم بتدبير دولته الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة ، فحلف الأمراء ، وتم أمره فى السلطنة ، ومشى على نظام أبيه ، واستمر على ذلك مدة يسيرة .

ثم ان الأمير بيليك نائب السلطنة مرض وسلسل فى المرض حتى مات ... وكان أميرا دينا خيرا كثير البر للفقراء والمساكين . فلما مات كثر عليه الحزن والأسف . فلما انقضت أيامه طاش الملك السعيد واستبد برأيه ، فقبض على جماعة من أمراء والده ، وهم الأمير سنقر الأشقر والأمير بيسرى ، وكانا جناحى والده . ثم استقر بالأمير آق سنقر الفارقانى نائب السلطنة عوضا عن الأمير بيليك ، فأقام فى نيابة السلطنة مدة يسيرة ، ثم قبض عليه ، وسجنه بثغر الاسكندرية ، ثم أرسل بخنقه فخنق ودفن فى السجن .

ثم ان الملك السعيد استقر بالأمير كوندك نائب السلطنة عوضا عن الأمير آق سنقر الفارقانى .

سنة سبع وسبعين وستمائة (١٢٧٨ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن نائب الشام خامر وخرج عن الطاعة ، فجرد اليه الملك السعيد وخرج بنفسه . فلما دخل الى الشام نزل بالقصر الأبلق الذى أنشأه

والده بدمشق فخامر عليه هناك جماعة من الأمراء — وقد بلغهم عنه أنه يريد قبض جماعة منهم — فلما تحققوا ذلك خرجوا من دمشق وتوجهوا الى المرج الأصفر وأقاموا هناك . فلما بلغ الملك السعيد ذلك أرسل اليهم بعض الأمراء ليمشى بينهم وبين السلطان بالصلح ، فأبوا عن ذلك وانفصل المجلس وكلهم مانع .

فلما عاد الجواب بالمنع ركبت خوند أم الملك السعيد — وكانت سافرت مع ولدها الملك السعيد الى الشام — فلما تغير خاطر الأمراء على السلطان ركبت خوند بنفسها وتوجهت اليهم فى مكان يسمى الكسوة خارج دمشق . فلما اجتمعت بهم مشت بينهم بالصلح فأبوا من ذلك ، فرجعت من عندهم والمجلس مانع .

ثم ان الأمراء الذين خامروا قصدوا أن يتوجهوا نحو الديار المصرية ، فلما بلغ الملك السعيد ذلك رحل من دمشق ، وأخذ من بقى معه من العسكر والأمراء وقصدوا التوجه الى القاهرة ، فجمع معه من عربان جبل نابلس جماعة كثيرة ، والتف عليهم جماعة من عسكر دمشق ومن عسكر صفد ومن عسكر طرابلس . فلما وصل الى غزة أنفق عليهم الأموال ، فأخذوا منه النفقة ، وتسحب من عنده العربان وعسكر دمشق وطرابلس ، ولم يبق معه من العسكر المصرى الا القليل .

فلما خرج من غزة جد فى السير حتى دخل المطرية . فلما بلغ الأمراء الذين كانوا بمصر مجىء السلطان على حين غفلة خرجوا اليه على حمية ، وكان من لطف الله تعالى فى ذلك اليوم ضباب عظيم ، فستر الله تعالى الملك السعيد حتى طلع القلعة ونجا بنفسه . فلما بلغ الأمراء أن السلطان طلع القلعة رجعوا من المطرية وحاصروا السلطان وهو بالقلعة . فلما رأى من كان حول السلطان أن حاله قد تلاشى صاروا يتسحبون من القلعة وينزلون الى الأمراء الذين فى الرميلة .

واستمر الحرب سائرا بين الأمراء وبين الملك السعيد سبعة أيام . فلما رأى الملك السعيد عين الغلب أرسل الى الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله ، فمشى بينه وبين الأمراء وقال : « ايش آخر هذا الحال ؟ وما قصدكم ؟ » فقالوا قصدنا يخلع نفسه من السلطنة ويمضى الى الكرك ويقيم بها . فرجع الخليفة الى السلطان وأخبره بذلك ... فخلع نفسه من الملك ، وشهد عليه القضاة بالخلع وخرج الى الكرك من وقته . وكان للتسفر عليه الأمير بيدغان الركنى المعروف بسم الموت .

وكانت مدة سلطنة الملك السعيد بالديار المصرية سنتين وشهرا وأياما ، وهو صاحب الحمام التى بالقرب من سوق الغنم .

سنة ثمان وسبعين وستمائة (١٢٧٩ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن الملك السعيد قد توفى الى رحمة الله تعالى ، وكان سبب موته أنه لعب بالكرة فى ميدان قلعة الكرك ، فتقنطر به الفرس ، فانكسر ضلعه فمات من يومه . وكانت وفاته فى أول هذه السنة ، ثم دفن هناك ، وقيل نقل بعد ذلك الى دمشق ، ودفن على أبيه الملك الظاهر بيبرس .

وكان الملك السعيد شابا جميل الصورة ، حسن الشكل ، كريما على الرعية .

ولما خلع الملك السعيد من السلطنة تولى بعده أخوه سلامش .

الملك العادل

هو الملك العادل سيف الدين سلامش ، ابن الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، وهو السادس من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويع بالسلطنة بعد خلع أخيه الملك السعيد ، وكان له من العمر لما تسلطن سبع سنين ونصف ، وكان يعرف بابن البدوية . وكان جلوسه على سرير الملك فى ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وكان القائم بتدبير مملكته قلاون الألفى وكان يخطب له وللعادل سلامش على منابر مصر وأعمالها ، وضربت السكة باسمهما ، وكان فى الحقيقة قلاون هو السلطان ، والسلطان ليس له الا مجرد الاسم ، والأمر كله لقلاون .

وكان الأمير بيسرى يشارك قلاون فى أمور السلطنة ، ولكن كان الأمير بيسرى مغرما بحب الصيد والخروج الى السرحات ، وكان الأتابكى قلاون يمهد لنفسه فى الباطن ، وأرسل بعزل النواب عن البلاد الشامية ، وولى من يثق به من خشداشينه . ثم انه قبض على جماعة من الأمراء الظاهرية وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية . فلما صفا له الوقت خلع الملك العادل سلامش من السلطنة ، وأرسله الى قلعة الكرك ، وأرسل معه أخاه سيدى خضرا فأقاما فى الكرك مدة ثم نقلهما الملك الأشرف خليل بن قلاون الى القسطنطينية فكانت مدة سلطنة الملك العادل سلامش بالديار المصرية خمسة أشهر وأياما .

ولما خلع سلامش من السلطنة تولى من بعده قلاون .

الملك المنصور قلاون

هو الملك المنصور سيف الدين قلاون ، أبو المعالى الألفى ، الصالحى النجمى ، وهو السابع من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . تسلطن بعد خلع الملك العادل سلامش فى يوم الأحد ثانى عشر شهر رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وتلقب بالملك المنصور ، وجلس على سرير الملك فى اليوم المذكور .

وكان أصله من مماليك آق سنقر الكاملى ، ثم قدمه الى الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب المدرسة الصالحية ، فأعتقه فى أثناء سنة سبع وأربعين وستمائة . فلما تم أمره فى السلطنة أنعم على جماعة من خشداشينه بتقادم ألوف — وهم : طرنطاى ، وكتبغا ، ولاچين ، وقفجق ، والشجاعى ، وأيبك الخازندار ، وطقصو ، وطغريل الايغانى ، وبلبان الطباخ ، وأقوش الموصلى ، وسنقر جركس وازدمر العلائى ، وقلجق وايدمر الطباخ ، وقيران الشهابى ، ومحمد الكورانى ، وابراهيم الجاكى — ثم أمر بالافراج عن جماعة من الأمراء الذين كانوا فى السجن بثغر الاسكندرية ، منهم الأمير أيبك الأفرم ، فخلع عليه واستقر به نائب السلطنة وأقام فى النيابة مدة يسيرة ، ثم استعفى من ذلك فأعفاه السلطان ورتب له ما يكفيه ، ولزم بيته .

ثم ان السلطان خلع على مملوكه طرنطاى واستقر به نائب السلطنة عوضا عن أيبك الأفرم ، وخلع على الأمير سنقر الأشقر واستقر به نائب الشام . فلما أن دخل الى الشام خرج عن الطاعة وأظهر العصيان ، ثم انه تسلطن هناك وقبلوا له الأرض بدمشق وتلقب بالملك الكامل ، فأقام على ذلك مدة يسيرة ، ثم فلت عنه الناس واضمحل أمره وقصد

أمراء الشام أن يقبضوا عليه فهرب الى صهيون .

سنة تسع وسبعين وستمائة (١٢٨٠ م) :

فيها جاءت الأخبار أن ملك التتار زحف على البلاد ، وأرسل أخاه منكوتمر فى جاليش العسكر ، وقد وصلوا الى حلب وملكوا ضياعها وأشرفوا على أخذ المدينة . فلما بلغ الملك المنصور قلاون الألفى ذلك خرج بنفسه ، هو والأمراء ، على جرائد الخيل . فلما وصل الى غزة جاءت الأخبار بأن منكوتمر أخا أبغا — لما بلغه مجىء السلطان — نهب البلاد ، وأحرق الضياع ، وقتل الرعية ، وآذى البرية ... ثم رجع الى بلاده .

فلما بلغ السلطان رجع من غزة الى القاهرة ، فجاءت الأخبار بأن التتار رجعوا الى حلب وأفحشوا فى حق الرعية أعظم ما فعلوا فى الأول ، فخرج اليهم السلطان ثانيا ، وجد فى السير فتلاقى مع عسكر التتار على المرج الأصفر ، فكان بينهما واقعة عظيمة ، وذلك فى أوائل سنة ثمانين وستمائة ، فكانت النصرة للملك المنصور قلاون ، فتقنطر منكوتمر أخو أبغا الى الأرض ، فأحاط به التتار حتى حملوه وهربوا به ، فوقع النهب فى عسكر التتار وولوا منهزمين ، وقد غنم منهم عسكر السلطان ما لا يحصى من سلاح وخيول وقماش وغير ذلك ... وكانت هذه الواقعة من الوقعات المشهورة .

ثم ان السلطان قصد التوجه الى نحو القاهرة ، فدخلها فى موكب عظيم ، وحملت على رأسه القبة والطير ، ومشت الأمراء بين يديه حتى طلع القلعة .

سنة احدى وثمانين وستمائة (١٢٨٢ م) :

فيها صفا الوقت للسلطان ، فقبض على جماعة من الأمراء ، منهم الأمير بيسرى ، والأمير بكتوت الشمسى ، والأمير كشغندى ، وجماعة كثيرة من المماليك السلطانية ومن خشداشينه ، وشرع فى انشاء مماليك ، وأنعم عليهم بتقادم ألوف ، وبالاقطاعات السنية .

وفيها تزوج السلطان الملك المنصور قلاون بخوندا شلون بنت الأمير شنكاى ، فكان له مهم عظيم بالقلعة ، وزفت عليه .

وفى هذه السنة توفى مجير الدين محمد بن تميم الدمشقى ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

وليلة بت أسقى فى غياهبها
راحا تسل شبابى من يد الهرم

ما زلت أشربها حتى نظرت الى
غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم

وفيها توفى الشيخ بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى ، وكان من أعيان الشعراء ، وله شعر جيد . فمن ذلك قوله فى معذر وقد ضمن المثل السائر :

صدوا وقد دب العذار بخده
ما ضرهم لو أنهم جبروه

هل ذاك غير نبات خد قد حلا
لكنهم لما حلا هجروه

سنة اثنتين وثمانين وستمائة (١٢٨٣ م) :

فيها ابتدأ السلطان الملك المنصور قلاون بعمارة القبة التى بين القصرين والمدرسة ، وأضاف الى ذلك قاعة القطنيين وسماها البيمارستان المنصورى . وقيل انتهى منها العمل فى مدة عشرة أشهر على ما نقله المؤرخون ، وجعل لها فى كل يوم من الرواتب ألف دينار ، ووقف عليها أوقافا كثيرة من ضياع وأملاك وبساتين وغير ذلك ، وشرط فى وقفه أشياء كثيرة من أنواع البر والخير مما لم يسبق فعله لأحد من الملوك من قبل ومن بعد ، فكان كما قال القائل :

تمشى الملوك على آثار غيرهم
وأنت تخلق ما تأتى وتبتدع

فهو من حسنات الزمان ... تحتاج اليه الملوك ، ويفتقر اليه الغنى والصعلوك .

قيل : وكان سبب بناء البيمارستان هذا أن الملك المنصور قلاون أمر مماليكه بأن يضعوا السيف فى العوام لأمر أوجب تغير خاطر السلطان عليهم ، فانهم خالفوا أمره فى شىء فعله بجهلهم ، فأمر بقتلهم ، فلعب فيهم السيف ثلاثة أيام ، فقتل فى هذه المدة ما لا يحصى عدده ، وراح الصالح بالطالح وربما عوقب من لم يجن .

فلما زاد الأمر عن الحد ، طلع القضاة ومشايخ العلم الى السلطان وشفعوا فيهم ، فعفا عنهم ، وكف عنهم القتل . فلما جرى ما جرى ، وراق خاطر السلطان ندم على ما فعله ، وبنى هذا البيمارستان ، وجعل له جملة أوقاف على رواتب بر واحسان ، وفعل من أنواع الخير ما لا يفعله غيره من الملوك ليكفر الله عنه ما فعله بالناس لعل الحسنات تذهب السيئات كما قال الله تعالى .

سنة ثلاث وثمانين وستمائة (١٢٨٤ م) :

فيها خرج السلطان الى نحو البلاد الشامية ، فوصل الى حصن المرقب ، ونصب المجانيق ، وحاصره مدة ثمانية وثلاثين يوما ، فطلب أهله الأمان ، فأخذ بالأمان ، ثم رجع الى الديار المصرية .

سنة اربع وثمانين وستمائة (١٢٨٥ م) :

فيها أرسل السلطان الأمير طرنطاى نائب السلطنة الى حصار سنقر الأشقر الذى كان نائب الشام ، وأظهر العصيان وتسلطن هناك كما تقدم . فلما وصل الأمير طرنطاى الى نحو صهيون حاصر سنقر الأشقر أشد المحاصرة ، فلما رأى سنقر الأشقر عين الغلبة ، أرسل يطلب من الأمير طرنطاى الأمان ، فأجابه الى ذلك . فلما وثق منه بالأمان نزل اليه من قلعة صهيون ، فحلف له الأمير طرنطاى أنه اذا توجه الى السلطان لا يشوش عليه ، ولا يحصل منه الا كل خير ... فأخذ عياله وأولاده وتوجه صحبة الأمير طرنطاى الى نحو الديار المصرية . فلما بلغ السلطان مجىء سنقر الأشقر خرج الى تلقيه . فلما وصل الى مسجد التين بالقرب من المطرية ، تلاقى هو وسنقر الأشقر هناك . فلما وقعت عين سنقر الأشقر على السلطان نزل عن فرسه ، ونزل السلطان أيضا ، وتعانقا . فبكى سنقر الأشقر وطلب الأمان من السلطان ، فأعطاه منديل الأمان فوضعه على رأسه . ثم ركبا وتوجها الى القلعة فى موكب عظيم ، وسنقر الأشقر راكب الى جانب السلطان . فلما طلعا الى القلعة ، خلع عليه ونزل الى مكان قد أعد له ، ونزل معه سائر الأمراء الى ذلك المكان ثم انصرفوا ، وكان ذلك فى يوم السبت ثالث عشر ربيع الأول من سنة أربع وثمانين وستمائة .

سنة خمس وثمانين وستمائة (١٢٨٦ م) :

فيها قبض السلطان على مملوكه الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، وصادره واحتاط على موجوده ، واستصفى أمواله بعد أن عصره بالمعاصير حتى كسر رجليه ، وخلعه من الوزارة ، ثم خلع على مملوكه الأمير بدر الدين بيدرا المنصورى ، واستقر به وزيرا عوضا عن سنجر الشجاعى .

وفى هذه السنة توفى الشيخ محيى الدين بن قرناص الحموى ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

أيا حسنها روضة قد غدا
جنونى فنــونا بأفنانها
أتى الماء فيها على رأسه
لتقبيل أقدام أغصــانها

سنة ست وثمانين وستمائة (١٢٨٧ م) :

فيها توعك المقام العلائى نور الدين على ، ولد السـلطان الملك المنصــور قلاون ، وكان والده المنصــور ولاه السلطنة فى أيام حيــاته ، وركب بشعار السلطنة وجلس على سرير الملك وقبــل له الأمراء الأرض ، وجلس الى جانب والده قلاون . وكان سبب سلطنته أن الملك المنصور قلاون كان كثير الأسفار الى نحو البــلاد الشامية ، فسلطن ولده نور الدين عليا ولقبه بالملك الصالح ليكون عوضه فى مصر اذا سافر الى البــلاد الشامية ، فأقام على ذلك مدة فى حيــاة والده ثم ان الملك الصالح عليا مرض مرضــا شديدا بحمى الكبد حتى أشرف على الموت .

سنة سبع وثمانين وستمائة (١٢٨٨ م) :

فيها ثقل على الملك الصالح على المرض وتفــل الدم . فلما كانت ليلة الجمعــة رابع شهر شعبان سنة سبع وثمــانين وستمائة ، توفى الملك الصالح على الى رحمــة الله تعالى . فلمــا مات حزن عليه والده الملك المنصور حزنا شديدا ، وكان الأمراء جلوسا على باب الســتارة ينتظرون ما يكون من أمره . فلما وقع الصراخ فى دور الحرم دخل الأمير طرنطاى نائب السلطنة فوجد السلطان مكشوف الرأس وكلوتته مرميــة على الأرض وهو يبكى ويصيح . فلمــا رآه الأمير طرنطاى على هــذه الحالة رمى الآخر كلوتته عن رأسه ، ثم ان بقية الأمراء دخلوا على السلطان ، وألقى الكل كلوتاتهم عن رءوسهم وأقاموا على ذلك ساعة ، ثم ان الأمير طرنطاى النائب أخذ كلوتة السلطان فى يده وقبل الأرض هــو والأمير سنقر الأشقر الذى تسلطن بدمشق ، وناولها للسلطان ، فدفعه وقال : « ايش بقيت أعمل بالملك بعد ولدى ؟ » ... ثم صبروا له ساعة ، وقام الأمراء جميعــا كلهم وقبلوا الأرض ووضعوا كلوتة السلطان على رأسه .

واســتمر العزاء قائمــا فى تلك الليلة . فلما أصبحوا يوم الجمعة أخذوا فى أسباب تجهيزه ، فأخرجوه وصــلوا عليه عند باب الســتارة ، ثم نزلوا به من باب المدرج ، فأراد الســلطان أن يمشى فى الجنازة فمنعه الأمراء من ذلك . فكان له مشهد عظيم ، وذلك فى يوم الجمعة قبل الصلاة ، فمشت قدامه النــاس قاطبــة الى تربة والــدته خوند خاتون التى فى طريق السيدة نفيسة بجوار المدرسة الأشرفية ، فدفن هناك .

فلما أصبح يوم السبت نزل السلطان الى زيارة قبر ولده وجلس عنده فى ذلك اليوم ، واســتمر المأتم ممتدا سبعة أيام .

ولما مات السلطان الملك الصــالح على ، خلف ولدا ذكرا يسمى الأمير موسى ، وهو صــاحب الربع الذى فى الغرابليين . ومات الملك الصالح وله من العمر نحــو عشرين ســنة . وكان والده قلاون أشركه فى السلطنة من سنة تسع وسبعين وستمائة ، واستمر على ذلك حتى مات فى ســنة سبع وثمانين وستمائة ، فكان أكبر أولاد قلاون . قال ابن خلكان [١] : لما مات السلطان الملك الصالح كتب القاضى محيى الدين بن عبــد الظاهر كاتب السر الشريف عن لسان أبيه الملك المنصور قلاون الى نائب الشام وغــيره من النواب مطالعــات ، ضمنها ما جرى على السلطان من فقد ولده ، فقال

(١) انظر هذا : فان ابن خلكان توفى سنة ٦٨١ والملك الصالح توفى سنة ٦٨٧ .

عن لسان والده : « نحمد الله تعالى على حزن حزنا به بالصبر أجورا فاخرة ، فكان قصدنا أن نجعله ملكا فى الدنيا فاختار الله تعالى أن يكون ملكا فى الآخرة » .

وفى هذه السنة توفى الشيخ ناصر الدين ابن النقيب ، وكان من أعيان شعراء مصر ، وله شعر جيد فى نوع التورية ، فمن ذلك قوله :

جودوا لنسجع بالمديح على علاكم سرمدا
فالطير أحسن ما يغرد عند ما يقع الندى

سنة ثمان وثمانين وستمائة (١٢٨٩ م) :

فيها فى ثالث عشر صفر خرج السلطان على حين غفلة الى نحو البلاد الشامية ، وتوجه نحو طرابلس ، وحاصر أهلها ونصب على سورها المجانيق ، واستمر يحاصرها أربعة وثلاثين يوما ففتحها بالسيف عنوة فى يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر من سنة ثمان وثمانين وستمائة ، فوردت البشائر الى الديار المصرية بفتح مدينة طرابلس وجبيل . ثم ان السلطان عاد الى الديار المصرية فزينت له وحملت على رأسه القبة والطير ، وكان له يوم مشهود لم يسمع بمثله .

وفيها جاءت الأخبار بأن ملك النوبة هجم على مدينة أسوان ونهب أسواقها وأحرق جرونها ، فجرد اليه الأمير أيبك الأفرم ، فلما أن وصل الى هناك هرب منهم ملك النوبة ، فتبعه العسكر والأمير عز الدين أيبك الأفرم الى آخر بلاد النوبة ، فغنموا منهم أشياء كثيرة — من عبيد وجوار وخيول وغير ذلك — ورجع العسكر الى الديار المصرية وهم فى غاية النصرة .

وفى هذه السنة توفى الشيخ ظهير الدين بن البارزى الدمشقى ، وكان عالما فاضلا وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

يذكرنى وجد الحمام اذا غنى
لأنا كلينا فى الهوى نعشق الغصنا

سنة تسع وثمانين وستمائة (١٢٩٠ م) :

فيها عزم السلطان الى العود الى السفر ليحاصر مدينة عكا . فخرج من القاهرة فى ثامن عشر شوال من السنة المذكورة ، فلما نزل بالريدانية وأقام بها حتى يتكامل خروج العسكر ، وجد فى جسده توعكا وحمى ، فصار الأمر فى كل يوم يتزايد عليه حتى ثقل فى المرض . وكان الملك المنصور قلاون لما مات ولده الملك الصالح علىّ ، عهد من بعده الى ولده خليل ولقبه بالأشرف . فلما سلسل السلطان ، اضطربت الأحوال ، وصار ولده خليل ينزل اليه من القلعة فى كل يوم ويتفقد أحواله ثم يرجع الى القلعة . وكانت الأمراء يدخلون على السلطان فى كل يوم صحبة الحكماء . فلما زاد الأمر على السلطان وتغير حاله منع الأمير طرنطاى الأمراء من الدخول على السلطان .

فلما تحقق الأمراء موت السلطان جاءوا الى الأمير طرنطاى النائب وقالوا له : « أنت تعلم ما بينك وبين ولد السلطان من حظوظ النفس من أيام والده . وقد صار الأمر اليه والسلطان ما بقى يرجى . ومتى صار الحكم الى ولده فهو قاتلك لا محالة ... فبادر اليه وأمسكه قبل أن يمسكك ونحن كلنا عصبتك » ... فسكت الأمير طرنطاى ساعة وقال : « كيف أمسك ابن أستاذى أو أقتله ؟ فايش يشاع على بين الناس ؟ ولكن أنا مملوك السلطان ومملوك ولده . فان رضينى وأبقانى على حالى كان الفضل له ، وان قتلنى صرت شهيدا من جملة الشهداء » .

ثم ان السلطان قلاون دخل فى النزع ، فجلس الأمير طرنطاى عند رأسه حتى مات وغمضه بيده .

فلما أصبح الصباح جاءت الأمراء على العادة فلم يمكنهم من الدخول على السلطان . ثم انه أرسل خزائن المـــال والأطلاب التى كانت مع السلطان برسم السفر . ثم ان الأمير طرنطاى أرسل عرف ولد السلطان الملك الأشرف خليل أن والده قـــد مات ، وأشار عليه أنه يقيم فى القلعـــة ولا ينزل ، ووكل به مقدم المماليك .

ثم ان الأمير طرنطاى حمل السلطان قلاون وهو ميت فى محفة وطلع به الى القلعـــة بعد المغرب ، فغسله وكفنه ونزل به فى تابوت بعـــد العشـــاء والأمراء والقضاة وأعيـــان الناس مشاة قدامه . وكثر عليه الحـــزن والأسف من النـــاس الى أن وصلوا به الى البيمارستان ، فصلوا عليه هنـــاك ودفن داخل القبة التى بين القصرين . وكانت وفاته يوم السبت سادس ذى القعدة سنة تسع وثمـــانين وستمائة ، ودفن فى ليـــلة الأحـــد ، وكانت مدة توعكه تســـعة عشر يوما . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية احدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وستة أيام ، فمات وكأنه لم يكن ... فكان كما قيل فى المعنى :

كل ابن أنثى وان طالت ســـلامته
يومـــا على آلة حـــدباء محمول

ولما مات الملك المنصور قلاون خلف من الأولاد ثـــلاثة ذكور ، وهـــم : الأشرف خليل ، والناصر محمد ، والأمير أحمد ولد بعد وفاة أبيه .

وكان المنصور قلاون حسن الشكل ، مربوع القامة ، درّى اللون . وكان قليل الكلام بالعربى ، وكان شجاعا بطلا مقداما فى الحرب ، وكان مغرما بمشترى المماليك حتى قيل انه تكامل عنده اثنا عشر ألف مملوك ، وقيل سبعة آلاف مملوك . ومما يدل على علو همته وحسن اعتقاده عمـــارة البيمارستان الذى بين القصرين ، ولا سيما ما فعله فيه من وجوه البر والصـــدقات ووقف الأوقاف الجليلة ، وشرط فى وقفه ما لم يشرطه أحـــد من الملوك قبله ولا بعـــده ، وقد كفاه ذلك شرفا فى الدنيا والآخرة .

ومن محاسنه أنه غير تلك الملابس الشنيعة التى كانت تلبسها العسكر فى الدول القديمة . قيل كانت كلوتاتهم من الصـــوف الأزرق الغميض ، وهى مضربة عريضة بغير شاش . وكانت المماليك تربى لهم ذوائب من الشعر خلفهم ويجعلونها فى أكياس حرير أحمر أو أصفر ، وكانوا يشدون فى أوساطهم بنودا بعلبكية عوضـــا عن الحـــوائص ، وكانت خفافهم برغالى أسود ، وكانوا يشدون فوق قماشهم ابزيم جلد وفيه حلق نحاس وفيها صوالق برغالى أسود ، وهى كبار يسع الصولق الواحد نصف ويبة قمح ، وكان لهم فى ذلك الابزيم معلقة من الخشب كبيرة وسكين كبيرة ، وكانت لهم مناديل من الخام قدر فوطة كبيرة لمسح أيديهم . وكانوا يربون لهم شوارب قدر السلفة الكتان . فلما تولى الملك المنصور قلاون أمر العسكر أن يغيروا هذه الملابس الشنيعة ، ويدخلوا فى الهيئة المطبـــوعة وكانت خلع المقدمين من العنتابى ، فأمر لهم بالخلع المخمل الأحمر والأخضر بالفرو السمور . وهو أول من أسكن المماليك فى أبراج القلعة وسماهم المماليك البرجية .

وأما ما افتتحه الملك المنصور قلاون فى أيامه من الفتوحات فهو المرقب وجبلة من بلاد الافرنج ، وفتح طرابلس الغـــرب ، واللاذقيـــة ، وجبيل ، والكرك والشـــوبك ... كانت بيـــد أولاد الملك بيبرس البندقدارى فأخذها منهم .

وأما ما أبطله فى أيامه من المظالم ، فهو أنه كان من قديم الزمان وظيفة تسمى ناظر الزكاة — وهو من يأخذ ممن عنده مال زكاته — فان مات ذلك

الرجل صاحب المال أو عدم ماله فيتم ذلك القدر المقرر عليه فى الدفاتر باقيا يؤخذ من أولاده أو من ورثته أو من أقاربه ولو بقى منهم واحد ... فأبطل الملك المنصور قلاون ذلك الى يومنا هذا وسطر فى صحائفه .

ومما أبطله من المظالم أيضا أنه كان يؤخذ مال من أهل مصر للمبشرين اذا حضروا يبشرون بفتح حصن أو بنصرة عسكر أو بما أشبه ذلك ، وكان يجبى من أهل مصر على قدر طاقتهم فى السعة ، فأبطل ذلك .

وكان يجبى من أهل مصر عند وفاء النيل المبارك ثمن الحلوى والفاكهة والشوى ، برسم السماط الذى يوضع فى المقياس يوم الوفاء ، فأبطل ذلك عن الناس جميعه ، وجعل مصروفه من بيت المال ، وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط .

وكان من أجلّ ملوك الترك قدرا ، وأعظمهم أخبارا وذكرا .

وأما من توفى فى أيامه من أعيان العلماء ومشايخ الاسلام ، فمن ذلك الامام العلامة محيى الدين النووى الشافعى رضى الله عنه ، وهو صاحب كتاب المنهاج . قال الشيخ شمس الدين الذهبى : ان الشيخ محيى الدين توفى وله من العمر نحو أربعين سنة ، ودفن بنوى وهى بلده . وقد رثاه الشيخ زين الدين ابن الوردى المعرى بهذه الأبيات :

لقيت خيرا يا نوى
ووقيت من ألم النوى
فلقد ثوى بك عالم
لله أخلص ما نوى
وعلا علاه بفضله
فضل الحبوب على النوى

وتوفى أيضا الشيخ برهان الدين الشافعى ابن جماعة ، والشيخ شمس الدين ابن خلكان المؤرخ ، والشيخ ناصر الدين ابن المنير ، والشيخ جمال الدين الشريشى شارح مقامات الحريرى ، وتوفى ابن النحاس النحوى ، وتوفى علاء الدين ابن النفيس شيخ الأطباء ، وتوفى غير ذلك من أعيان الناس ومن العلماء جماعة كثيرون .

ولما توفى الملك المنصور قلاون تولى من بعده ابنه الأشرف خليل .

الملك الأشرف

هو الملك الأشرف ، صلاح الدين خليل ، ابن الملك المنصور قلاون الألفى الصالحى ، وهو الثامن من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . تولى الملك بعهد من أبيه قبل وفاته ، وجلس على سرير الملك بعد وفاة أبيه قلاون ، وذلك فى يوم الأحد سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة ، وكان مولده فى سنة ست وستين وستمائة . فلما قام بشعائر السلطنة نزل من القلعة الى الميدان الذى تحت القلعة . وكان سبب نزوله الى الميدان أن الأمراء تخلوا من طلوعهم الى القلعة ، فلم يطلع منهم أحد الى القلعة ، فنزل السلطان — وهو بشعائر الملك — فجلس هنالك على كرسى ، واستحلف له سائر الأمراء ، فلما حلفوا له خلع فى ذلك اليوم على الأمير علم الدين سنجر الشجاعى واستقر به وزيرا كما كان فى أيام والده .

وكان الأشرف خليل كفؤا للسلطنة ، وجاء فيها كما ينبغى فى الحرمة والعظمة والشهامة ، وفيه يقول القائل محمد بن غانم الشاعر :

مليكان قد لقبا بالصلاح
فهذا خليل وذا يوسف
فيوسف لا شك فى فضله
ولكن خليل هو الأشرف

فلما تم أمره فى السلطنة ، وتلقب بالملك الأشرف ، عمل الموكب ، ثم قبض على الأمير طرنطاى نائب السلطنة ، وكان بينه وبين الأمير طرنطاى عداوة قديمة من أيام والده . وكان الشجاعى يكره الأمير طرنطاى ، فحسن للسلطان القبض عليه ، فقبض عليه فى ذلك اليوم وحمل الى الاعتقال ... فكان الأمر كما قالته الأمراء للأمير طرنطاى : ان الأشرف خليلا يقبض عليه . فلما قبض عليه ندم الأمير طرنطاى الذى ما قبض على الأشرف خليل قبل أن يتسلطن ، كما قيل فى المعنى :

احذر من الناس ، ولا
معترك الشك تجل
فى قلب ليث بت ... وخف
ان بت فى قلب رجل

فأقام الأمير طرنطاى بالسجن فى القلعة ثلاثة أيام ، ثم ان السلطان أمر بقتله فخنق وهو فى السجن ، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفن تحت الليل فى القرافة الصغرى .

ثم ان السلطان رسم للشجاعى بأن يحتاط على موجود الأمير طرنطاى ، فنزل الشجاعى الى بيت طرنطاى ، ورسم على مباشريه ، وقبض على جميع من كان من حاشيته ، وقبض على نسائه وسراريه ، وأحضر لهم المعاصير وعصرهم وقررهم على الأموال والذخائر ... فكان الشجاعى ينزل فى كل يوم الى بيت الأمير طرنطاى ويقرر جماعته ونساءه ويعاقبهم أشد العقوبة ، فظهر له من الأموال والتحف ما لم يسمع بمثله ، فطلعوا بذلك جميعه الى الخزائن الشريفة .

ثم ان السلطان عمل الموكب ، وخلع على الأمير بيدرا واستقر به نائب السلطنة عوضا عن الأمير طرنطاى النائب .

فلما قتل الأشرف خليل الأمير طرنطاى صفا له الوقت ، فأرسل خلف القاضى شمس الدين بن السعلوس — وكان بالحجاز من أيام الملك المنصور قلاون — بالحضور ، وحشاه بخط يده بالقلم العريض بين السطور وهو يقول : « يا شعير ! جد السير ، جاء الخير » ... وكان الأشرف خليل كثيرا ما يحشى فى مراسيمه بقلم العلامة .

وحشى أيضا مرسوما وأرسله الى دمشق لما أمر باسقاط ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل من باب الجابية من القمح خمسة دراهم من المكس ، فرسم بابطال ذلك وكتب فى مرسومه بين السطور : « وقد أمرنا بأن تكشف عن رعايانا هذه الظلامة ، ولنستجلب بذلك الدعاء الينا من الخاصة والعامة » ... فهو أول سلطان حشّى فى مراسيمه بين السطور بخطه بيده .

فلما حضر شمس الدين ابن السعلوس من مكة الى القاهرة ، خلع عليه واستقر به وزيرا مستشار المملكة ، وفوض اليه أمر السلطنة جميعها ، وأحال الناس فى أشغالهم عليه ، وفصل الشجاعى من الوزارة . وكان حضور شمس الدين ابن السعلوس من مكة فى ثالث عشر المحرم مستهل سنة تسعين وستمائة ، وقد حضر صحبة مبشر الحاج على الهجن ، وجد المسير حتى حضر الى مصر .

قيل : وكان أصل ابن السعلوس هذا من دمشق ، وكان تاجرا بها ، فحضر فى بعض السنين الى مصر ، وكان له خط جيد ، فسعى عند الأشرف خليل — وهو أمير فى أيام والده قلاون — فجعله ناظر ديوانه ، وصار يستأجر له مواضع كثيرة فى البلاد الشامية ، فيتحصل منها كل سنة جملة من المال ، فحظى ابن السعلوس عند الأشرف حتى صار نديمه ولا يصبر عنه ساعة واحدة ، واحتوى على عقله وملك لبه ... فلما بلغ الملك المنصور قلاون ذلك ، أمر بنفى ابن السعلوس الى مكة ،

فأقام بها الى أن مات المنصور قلاون وتسلطن ابنه خليل ، فأرسل نحو ابن السعلوس نجابا مطـردا كما تقدم . فلما حضر واستقر به وزيرا فوض اليه جميع أحـــوال المملكة ، فكان يركب ، ومعـه جماعـة من الأمـراء الرءوس النواب والمماليك السلطانية فى كل يوم حسبما رسم له السـلطان بذلك ، وكانت القضـاة الأربعة تركب قدامه فى أيام الموكب ، وعظم أمره حتى صارت القصص تقرأ عليه ، وينفذ أمرها من غير مشورة السلطان ، فأظهر من الكبرياء والعظمة ما لم يظهره غـيره ، وانفرد بالكلمة فى مصر دون غيره ، وصار صاحب الحـل والعقد بالديار المصرية والبلاد الشامية ، وصار يجتمع بالسلطان فى الليل فى خلوة ويقضى أشغال النـاس من سهلها لصعبها ، كما قيـل فى المعنى :

ملك اذا قابلت بشر جبينـــه
فارقته والبشر فـوق جبينى
واذا لثمت يمينـه وخرجت من
أبوابه لثم المـلوك يميـنى

سنة تسعين وستمائة (١٢٩١ م) :

فيها جرد السلطان وخرج بنفسه هو والعساكر الى حصار مدينة عكا وكانت بيد الافرنج . فلما وصل الى عكا حاصر أهلها أشد المحاصرة ، ونصب حول المدينة خمسة وسبعين منجنيقا ، وحاصرها مدة أيام فأعطاه الله النصر وفتحها بالسيف فى يوم الجمعة سـابع عشر جمادى الآخرة سنـة تسعين وستمائة . فـلما افتتحها هـدم سورها وقلعتها . وكانت عكا بيد الافرنج ، وكانوا يقطعـون على المسافرين الطريق ، ويأخذون أمـوال التجار ، ويقتلون كل من لقوه من المسلمين . فلمـا فتح الملك الأشرف خليل مدينة عكا توجه من هنـاك الى جبت وبيروت ، فافتتحهما فى تلك السنة .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى فى تاريخه : ان عكا كانت من أحسن المدائن فى العمارة والبنـاء الفاخر . فلما فتحها الملك الأشرف خليل وهـدم سورها هرب أهل المدينة منها وصارت خرابا من يومئذ ، وصار الناس من حينئذ ينقلون منهـا الرخام الملون مدة طويلة . ومن جملة ما نقل منها الباب الرخام الأبيض الذى على المدرسة الناصرية التى بين القصرين ، وكان هذا الباب على كنيسة ، فنقل الى القاهرة فأخذه الملك الناصر ابن قلاون ووضعه على باب مدرسته التى أنشأها بجـانب البيمارسـتان . قيل لما فتحت عكا قتل فى مـدة المحاصرة من الأمراء اثنا عشر أميرا ، وقتل بهـا العزى نقيب الجيوش المنصورة ، وهو صاحب سويقة العزى سميت به . وقتل يوم الفتح من المماليك السلطانية نحو مائة وعشرين مملوكا .

ثم ان الملك الأشرف خليلا لما فتح عكا رجع الى الديار المصرية وهو فى غاية النصر والعظمة ، فدخل من باب النصر ، وشق فى المدينة وزينت له . وكان يوم دخوله يوما مشهودا والأمراء مشاة بين يديه ، والأمير بيدرا نائب السلطنة حامل القبة والطير على رأسه ، ولعبوا بالغواشى الذهب بين يديه . وكان القضاة الأربعة وأرباب الوظائف راكبين بين يديه ، وكان له موكب عظيم . فلما وصل الى البيمارستان ثنى عنان فرسه ونزل وزار قبر والده قلاون ، ثم ركب وطلع الى القلعة ، فخلع على الأمراء ونزلوا الى بيوتهم ، وانفض الموكب .

ومن غـرائب الاتفـاق أن الشيخ شرف الدين الأبوصيرى — ناظم البردة — رأى فى منامه ، قبل مسير الملك الأشرف خليل الى حصار عكا فى شوال سنة تسع وثمانين وستمائة ، كأن قائلا ينشد هذه الأبيات :

قد أخـذ المســلمون عكا
وأشــبعوا الكافرين صــكا

وسـاق سلطاننـا اليهـم
خيـلا تدك الجبـال دكا

وأقسم التـرك منذ سارت
لن يتركـوا للفـرنج ملـكا

فلما انتبه الشيخ شرف الدين من منامه أخبـر بهذه الرؤيا جماعة من أصحابه . فلما توجه الأشرف خليل الى عكا فتحها الله على يديه ، فكان الأمر كما قال الهاتف فى منامه ، وأخذت عكا . وفى ذلك يقول القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر — كاتب السر الشريف — هذين البيتين :

يا بنى الأصــفر قد حل بكم
نقـمة الله التى لا تنفصـــل

نزل الأشرف فى ســاحلكم
فأبشروا منه بصـــك متصل

ولما رجع الملك الأشرف من هذه الغزوات ، عظم فى نفسه ، واستخف بالأمراء ، فأخذ فى أسـباب لقبض على جماعة منهم ، فقبض على الأمير حسام الدين لاجين السلحدار ، وكان نائبا . فلما رجع مع السلطان الى الديار المصرية بعد فتح عكا قبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بقلعة صـفد ، ثم أمسك الأمير سنقر الأشقر الذى كان قد تسلطن بدمشق كمـا تقدم ، وقبض على الأمير طقصو ، وقبض على الأمير جرمك ، ثم قبض على أميرين ما يحضرنى اسماهما ثم أرسل خلف الأمير لاجين الذى كان فى السجن بقلعة صفد ، فلما حضر أكملهم سبعة من الأمراء وسجنهم بقلعة الجبـل فى برج الحية . فلما كانت ليلة الأحـد أمر بخنق هؤلاء الأمراء جميعهم ، فخنقوا فى البرج تحت الليل . فلما أخرجوهم ليدفنوهم وجدوا الأمير لاجين نائب الشام فيه بعض نفس ، فأخبروا السلطان بذلك ، فعطف عليه وأمر بأن يفرج عنه ، فكان كما قيل : « الحى مالو قاتل ، ولو قتل ما مات » ... وكيف يموت وقد كتب الله له فى اللوح المحفوظ أن يكون سلطانا بمصر كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ؟

فلما عوفى الأمير لاجين أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف .

ثم ان السلطان أمر بالافراج عن الأمير بيسرى ، وكان فى السجن بثغر الاسكندرية . وكان سبب ذلك أن السلطان لما حضر من السفر ومر بالمدينة ، واجتاز أمام قصر بيسرى الذى كان تجاه المدرسة الكاملية ، وقف له أولاد الأمير بيسرى تحت القصر وقبلوا له الأرض — وكانوا ستة أولاد ذكور صغار وفيهم من هو رضيع — فقـال السلطان : « من هؤلاء ؟ » . فقـال له الأمراء : « هؤلاء أولاد مملوكك بيسرى » ... فرق لهم السلطان ، وقال لهم : « يحصل الخير ان شـاء الله » . فلما طلع القلعة وجرى لهؤلاء الأمراء ما جرى ، أفرج عن الأمير بيسرى وأنعم عليه بتقدمة ألف .

سنة احدى وتسعين وستمائة (١٢٩٢ م) :

فيها توجه السلطان الى نحو الشام ، فأقام بها مدة أيام ، ثم توجه الى نحو حلب ، ثم توجه من حلب الى قلعة الروم وحاصر أهلها ونصب حول المدينة ثلاثة وعشرين منجنيقا ، ففتحها بالسيف فى يوم السبت حادى عشر رجب من سنة احـدى وتسعين وستمائة ، وكانت قلعة الروم كرسى مملكة الأرمن . ثم رجع السلطان الى نحو الديار المصرية ، وطلع قلعة الجبل .

سنة اثنتين وتسعين وستمائة (١٢٩٣ م) :

فيها خرج السلطان على حين غفلة على الهجن ،

فلما خرج من القاهرة توجه الى نحو الكرك ، فاستقر بالأمير اقوش نائبا . ثم توجه من هناك الى دمشق ، فعرض عليه العسكر بدمشق ، وعين جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ليتوجهوا الى نحو سيس . فلما وصلوا الى سيس أرسل صاحب سيس يطلب الأمان ، فأرسل الأمراء يكاتبون السلطان بذلك ، فعاد الجواب من السلطان : « ان كان صاحب سيس يسلم هذه الثلاث قلاع — وهى قلعة البهنسا وقلعة مرعش وتل حمدون — فأعطوه الأمان . وان لم يسلم هذه الثلاث قلاع فحاصروه » ... فلما وصلت مراسيم السلطان بذلك سلم صاحب سيس تلك القلاع الثلاث ، وحصل الصلح ، ورجع العسكر من سيس .

ثم ان السلطان أقام بدمشق الى مستهل رجب ، ثم توجه من هناك الى نحو حمص ، فأضافه الأمير مهنا بن عيسى ثلاثة أيام بلياليها . ثم ان السلطان بدا له أن يقبض على الأمير مهنا بن عيسى وعلى اخوته ، فقبض عليهم وولى الأمير على بن حديثة عوضا عن الأمير مهنا بن عيسى .

ثم ان السلطان رجع الى دمشق ، ورسم للأمير بيدرا النائب بأن يأخذ العسكر ويتوجه الى القاهرة . فأخذ الأمير بيدرا فى أسباب التوجه الى القاهرة ، وأخذ معه الأمراء والعسكر ، ورجع الى مصر ، وأقام السلطان بدمشق على سبيل التنزه ، ثم توجه الى الديار المصرية ودخل القاهرة فى موكب عظيم وكان له يوم مشهود لم يسمع بمثله . وزينت له القاهرة بالزينة الفاخرة ، وسار فى الموكب مثل العروس ، حتى طلع القلعة وجلس على سرير المملكة أحسن جلوس .

وفى هذه اسنة توفى القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر كاتب السر الشريف ، وكان مولده فى سنة عشرين وستمائة ، فكانت مدة حيأته اثنتين وسبعين سنة ، وكان له نظم ونثر فائق ، فمن ذلك قوله :

ان كانت العشاق من أشواقهم
جعلوا النسيم الى الحبيب رسولا
فأنا الذى أتلو لهم : ياليتنى
كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

سنة ثلاث وتسعين وستمائة (١٢٩٤ م) :

فيها توجه الملك الأشرف خليل الى نحو البحيرة على سبيل التنزه ، فخرج من القاهرة فى ثالث المحرم ، فلما وصل هناك ضرب خيامه فى مكان يعرف بالحمامات — وهو غربى تروجه — فأقام هناك مدة .

ثم انه قصد أن يتوجه الى ثغر الاسكندرية ، فأرسل الصاحب شمس الدين ابن السعلوس الى ثغر الاسكندرية ليجهز الاقامات لأجل قدوم السلطان . فلما دخل ابن السعلوس الاسكندرية ، وجد غلمان الأمير بيدرا النائب بثغر الاسكندرية وقد استولوا على بهار الأمير بيدرا وأدخلوه فى الحواصل — وكان أعظم من بهار السلطان — فحصل بين ابن السعلوس وبين الأمير بيدرا تشاجر ، فأرسل ابن السعلوس يكاتب السلطان بما جرى من غلمان الأمير بيدرا وما رأى عنده من البهار وما قاله غلمان بيدرا ، وزاد على كل كلمة عشرا ، وأغلظ فى القول ... فلما سمع السلطان ما فى مكاتبة ابن السعلوس ، غضب على الأمير بيدرا أشد الغضب ، وأضمر له العطب ، فكان كما قال القائل :

يا ناقلا الىّ قول حاسدى
لا ينبغى نقل الذى لاينبغى

لا تؤذنى فى حجة النصح فما
أسمعنى السوء سوى مبلغى

ثم ان السلطان أرسل خلف الأمير بيدرا وقت الظهر . فلما حضر بين يديه وبخه بالكلام ، وقصد القبض عليه وتوعده بكل سوء ، فتلطف به الأمير بيدرا فى الكلام حتى خرج من بين يديه ، فاجتمع بالأمراء من خشداشينه واتفق رأيهم على الوثوب على السلطان .

ثم ان السلطان قصد أن يتصيد ويخلو بنفسه ، فأعطى الأمراء والعسكر دستورا بأن يتوجهوا الى القاهرة الى حين يعود السلطان ، فمضى الأمراء والعسكر الى القاهرة ، ولم يبق مع الملك الأشرف سوى بعض مماليك جمدارية . فلما كان يوم السبت خامس المحرم ركب السلطان وانفرد وحده — وليس معه سوى أمير شكار شهاب الدين بن الأشل — فلما بلغ ذلك الأمير بيدرا رجع من أثناء الطريق وقال هذا وقت انتهاز الفرصة ... قيل فى الأمثال :

وانتهز الفرصة ان الفرصه
تصير ان لم تنتهزها غصه

وان رأيت النصر قد لاح لكا
فلا تقصر واحترز أن تهلكا

فأرسل الأمير بيدرا خلف خشداشينه — وهم الأمير قرا سنقر ، والأمير لاجين ، والأمير بهادر ، والأمير آق سنقر ، وجماعة من الخاصكية — فشدوا فى أوساطهم تراكيش وسيوفا ، وركبوا خيولهم ، ثم ساقوا خلف السلطان ، فوجدوه منفردا وحده وليس معه سوى أمير شكار وبعض مماليك جمدارية ... فلما رآهم السلطان قاصدينه — وكانوا نحو عشرة من الأمراء — أحس بالشر ، وظهر له منهم الغدر . فلما أن وصلوا اليه عاجلوه بالحسام قبل الكلام . فكان أول من ابتدأه بالحسام الأمير بيدرا نائب السلطنة ، فضربه بالسيف على يده ، فصاح عليه الأمير لاجين وقال له : « ويلك ! الذى يريد أن يتسلطن يضرب هذه الضربة ؟ » . ثم ضربه الأمير لاجين على كتفه ضربة فوقع الى الأرض ... فجاء الأمير بهادر ، رأس نوبة النواب ، ونزل عن فرسه ، وأدخل السيف فى دبر السلطان وأخرجه من حلقه ، وصار كل واحد من الأمراء يظهر ما كان فى نفسه من السلطان ، ثم تركوه ميتا فى المكان الذى قتل فيه ، ثم ردوه الى الوطاق .

وتشاوروا فيمن يولونه السلطنة ، فوقع رأيهم على أن يولوا الأمير بيدرا نائب السلطنة ، فحلف له الأمراء ، ثم قبلوا له الأرض ولقبوه بالملك الأمجد ، وقيل بالملك الرحيم . ثم فكوا الوطاق وتوجهوا الى القاهرة ، فأركبوا الأمير بيدرا تحت العصايب السلطانية ، ثم شرعوا فى مسك جماعة من الأمراء . منهم الأمير بيسرى ، والأمير بكتمر السلحدار ، وغير ذلك من الأمراء .

فلما وصل هذا الخبر الى الأمراء الذين كانوا بالقاهرة ، ركبوا خيولهم على حمية سائر الأمراء والمماليك السلطانية ، فلما عدوا من الجيزة ووصلوا الى الطرانة تلاقوا هم وبيدرا هناك ، فوقع بينهم على الطرانة واقعة عظيمة ، فانكسر بيدرا ، وسار يتسحب من كان معه من المماليك ويجىء عند الأمير كتبغا . وكان بيدرا قد جمع معه من عربان الجيزة جماعة كثيرة ، فلما رأوا بيدرا قد انكسر رجعوا الى البحيرة مطرودين .

وكان بيدرا لما انكسر توجه نحو الجبل فتبعه جماعة من المماليك السلطانية ، فقبضوا عليه ، وأتوا به عند الأمير كتبغا . فلما رآه مماليك الأشرف قطعوه قطعا بالسيف ، وشقوا بطنه ، وأخرجوا كبده ، وصار كل واحد منهم يقطع منه قطعة ويأكل منها ، ثم حزوا رأسه وحملوها على

رمح ، وقصدوا التوجه الى القاهرة فطافوا برأس بيدرا فى المدينة ثم علقوها على باب بيته . فلما رأى من كان مع بيدرا من المماليك والأمراء أنه قتل ، هربوا واختفوا .

ثم ان الأمير سنجر الشجاعى نادى النواتية من شاطىء البحر بأن لا أحد من النواتية يعدى بمملوك من عسكر بيدرا ، ولا بأحد من حاشيته ... هذا ما كان من أمر الأمير بيدرا .

وأما ما كان من أمر الأشرف خليل بعد قتله ، فانه أقام بعد قتله ثلاثة أيام لم يدفن ، وهو مطروح فى البرية ، وقد أكلته الذئاب حتى قال فيه الشاعر هذا المعنى :

ألم تر أن الليث حقا تناهشت
ذئاب الفلا منه ذراعا وساعدا

ثم ان والى تروجه ، أيدمر الفخرى ، حمل الأشرف خليلا على جمل وأتى به الى القاهرة ، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه فى مدرسته التى بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها .

وكان الملك الأشرف حسن الوجه ، أبيض اللون ، مستدير اللحية ، ضخم الجسد ، كبير الوجه ، شديد البأس ، مهيبا فى أعين الناس ، كفؤا للسلطنة ، عارفا بالمملكة . وكان بطلا شجاعا مقداما على القتال ، لا يكل من الحروب ليلا ولا نهارا ، وكان مسعودا فى حركاته ، ولو طال عمره لكان يفتح غالب بلاد العراق ... ولا يعرف فى أبناء الملوك من يناظره فى العزم والشجاعة والاقدام ، وعلى هذا قد اتفق أرباب التواريخ فى ترجمته .

وكان يميل الى شرب الراح والى السماع الطيب ، وكان كثير الانهماك على اللذات ، وكان عنده معرفة بصنعة الانشاء والتوقيع ، وكان يتعاظم حتى كان يكتب فى علامته على المراسيم والمربعات حرف الخاء فقط ، اشارة الى الحرف الأول من اسمه . ومنع الموقعين أن يكتبوا لأحد من الأمراء والنواب « الزعيمى » ، وكان يقول : « من زعيم الجيوش غيرى ؟ » .

قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، كاتب السر الشريف ، قبل موته : « ما رأيت ولا سمعت بأحسن من فهم الملك الأشرف خليل . ولقد كنت أحضر بالمراسيم للعلامة ، فما علّم على مرسوم قط الا وقرأه جميعه ، وفهم ما فيه ، بل كان يخرج علينا أشياء كثيرة فى صنعة التوقيع ونرى فيها الصواب منه » .

ولكنه كان من مساويه أنه نفى الملك العادل سلامش وأخاه سيدى خضر — وهما أولاد الظاهر بيبرس البندقدارى — كانا فى الكرك ، فنفاهما الأشرف خليل الى القسطنطينية ، وقد تخيل من اقامتهما فى الكرك ، فأرسل الأمير عز الدين أيبك الموصلى فأخذهما من الكرك وأمهما معهما ، وتوجه بهما الى ثغر الاسكندرية ، ثم أرسلهما من البحر المالح الى القسطنطينية ، فلما وصلا الى هناك أكرمهما الأشكرى صاحب القسطنطينية ، وأحسن اليهما ، ورتب لهما ما يكفيهما من النفقة فى كل يوم .

وأما سلامش فأدركته المنية هناك فمات . فلما مات صبرته أمه فى تابوت الى أن اتفق عودها الى القاهرة فحملته معها وهو ميت ، فدفنوه بالقرافة . ومات سلامش وله من العمر نحو اثنتين وعشرين سنة .

وأما سيدى خضر فانه عاد الى مصر كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

ومن مساوى الأشرف خليل أنه خنق سبعة من الأمراء المقدمين فى ليلة واحدة كما تقدم . وكان سفاكا للدماء ، قتل خلقا كثيرا من الأمراء وغيرهم .

ومن مساويه أيضا أنه كان يسمع الكلام فى حق الناس بالباطل من وزيره ابن السلعوس ، وكان ذلك سببا لزوال ملكه . ولكن كان عنده العدل فى حق الرعية ، ويقضى بالحق على الأمراء المقدمين للسوقة ، ولا يراعى فى ذلك أحدا . وكان منقادا للشريعة ويحب العلماء ، وكان اذا ظهر له الحق لا يوالس عليه ، وفيه يقول بعض الشعراء :

يا أيها الملك الذى سطواته
حلمت بها الأعداء فى يقظاتها
ملك تقر له الملوك بأنه
انسان أعينها وعين حياتها
شتت شمل المال بعد وفوره
وجمعت شمل الناس بعد شتاتها

وكانت قتلة الأشرف خليل يوم السبت بعد العصر خامس عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة . ومات وله من العمر ثلاثون سنة ، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ثلاث سنين وشهرين وخمسة أيام .

وأما فتوحاته التى افتتحها فى أيامه من المدن فهى مدينة عكا وصيدا وبيروت وعثليث وبهنسا وقلعة الروم ومرعش وتل حمدون وصور .

وأما ما أنشأه من العمارات فهى قاعة الأشرفية التى بقلعة الجبل ، والمدرسة التى بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وله غير ذلك من الآثار .

وقيل بلغت عدة المماليك السلطانية فى أيامه اثنى عشر ألف مملوك .

وتوفى فى أيامه أبو جلنك الحلبى الشاعر ، وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد . ومما وقع له أنه دخل حلب ودمشق فامتدح القاضى كمال الدين ابن الزملكانى الشافعى بقصيدة سينية وجلس على الباب ينتظر الجائزة ، فأرسل له القاضى رقعة بأن يصرف له رطلان من الخبز ، فغضب أبو جلنك ومضى ... ثم بعد مدة دخل أبو جلنك الى بستان من منتزهات دمشق فأقام فيه يومه ، ثم سأل عن ذلك البستان فقيل له ان البستان لقاضى القضاة كمال الدين ابن الزملكانى المشار اليه ، فكتب أبو جلنك الحلبى على بعض حيطان ذلك البستان هذين البيتين :

لله بستان حللنا دوحه
فى جنة قد فتحت أبوابها
والبان تحسبه سنانيرا رأت
قاضى القضاة فنفشت أذنابها

فهجا القاضى بأحسن عبارة وألطف اشارة .

ولما قتل الأشرف خليل ، وجرى للأمير بيدرا ما جرى ، وقع رأى الأمراء على سلطنة محمد ابن قلاون أخى الأشرف خليل فسلطنوه ولقبوه بالملك الناصر ، وكان القائم فى ذلك الأمير كتبغا .

الملك الناصر

هو الملك الناصر محمد ، ابن الملك المنصور قلاون ، وهو التاسع من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية والبلاد الشامية ، تسلطن بعد قتل أخيه الملك الأشرف خليل فى يوم الخميس ثامن عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة .

وكان له من العمر لما تسلطن نحو تسع سنين ودخل فى العاشرة ، وكان مولده سنة اربع وثمانين وستمائة . وكانت أمه أشلون بنت الأمير شنكاى ، فلما أن تسلطن خلع على الأمير كتبغا واستقر به نائب السلطنة عوضا عن الأمير بيدرا ، وخلع على الأمير سنجر الشجاعى واستقر به وزيرا عوضا عن الأمير شمس الدين بن السلعوس ، وخلع على الأمير بيبرس الجاشنكير واستقر به استادارا وكاشف الكشاف ... وفى ذلك اليوم

طافوا برأس بيدرا على رمح ، ثم علقوها على باب القلعة .

ولما تولى الملك الناصر واستقر أمره ، قبض الشجاعى على جماعة من الأمراء ممن كانوا سببا فى قتل الأشرف خليل ... فقبض على الأمير قفجق السلحدار ، والأمير قرمش السلحدار ، والأمير بورى السلحدار ، وهو صاحب الدرب المنسوب اليه ، والأمير لاچين چركس ، والأمير مغلطاى المسعودى ، والأمير كردى الساقى وهو صاحب الحمام الذى فى المدابغ .

فلما قبض عليهم قيدهم وسجنهم فى البرج الذى فى القلعة . ثم انه قبض على جماعة من المماليك السلطانية وسجنهم بخزانة شمايل ، ثم ان الأمير بيبرس الجاشنكير تولى عقوبة هؤلاء الأمراء وصار يقررهم على من كان سببا فى قتلة الأشرف خليل . ثم رسم الأمير كتبغا بقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمروا على الجمال ، وطافوا بهم فى القاهرة ، وكان يوما مشهودا لم يسمع بمثله ، ثم وسطوهم فى سوق الخيل ومضى أمرهم .

ثم ان الشجاعى قبض على الصاحب شمس الدين بن السعلوس الذى رأى من العز والعظمة مالم يره غيره من أرباب الوظائف . فلما قبض عليه الشجاعى جعل يعاقبه ويعصره بالمعاصير حتى مات تحت الضرب ، وكانت وفاته فى يوم الأحد خامس عشر صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، فاحتاط الشجاعى على موجوده جميعه ، وصادر عياله وغلمانه وحاشيته ونساءه وأقاربه ، واستصفى أموالهم جميعها حتى صادر سائر أصحابه ، فذهبت أمواله ، وزال سلطانه ، واختفى سعده ، وظهر عكسه ، وظفرت به أعداؤه ، وتولى الدهر عنه وما دعاه ، فكان كما قيل :

لا تفرحن بخير جاء من غلط
فللزمان اساءات واحسان
وكن من الدهر ان يصحو على حذر
فما تقدمت الا وهو سكران

ومن النكت اللطيفة ... قيل ان الصاحب شمس الدين بن السعلوس لما أن رقى وبلغ من العلو ما بلغ فى دولة الأشرف خليل ، أرسل ابن السعلوس يطلب أقاربه الذين كانوا بدمشق ، فكلهم أجابوه الى الحضور الا شخصا من أقاربه يقال له زين الدين ، فانه أبى الحضور وخاف على نفسه ولم يوافق على الدخول الى مصر ، وكتب الى ابن السعلوس فى رقعة وهو يقول هذين البيتين :

تثبت ياوزير الملك ، واعلم
بأنك قد وطئت على الأفاعى
وكن بالله معتصما فانى
أخاف عليك من نهش الشجاعى

فكان الفال بالمنطق ... فما كان عن قريب حتى قتل الأشرف خليل ، وتسلم الشجاعى ابن السعلوس ، واستصفى أمواله وعاقبه حتى مات تحت العقوبة كما تقدم .

ثم ان سنجر الشجاعى لما رأى أن الوقت قد صفا له وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، استخف بالسلطان الملك الناصر محمد لصغر سنه ، فحدثته نفسه بالسلطنة ، فصار يرمى الفتن بين الأمراء وبين الأمير كتبغا نائب السلطنة ، فصار مع الأمير كتبغا فريق من العسكر ، وفريق مع الشجاعى ... فكان الشجاعى يبذل الأموال على جماعة من المماليك البرجية حتى قيل انه أنفق عليهم فى يوم واحد ثمانين ألف دينار ، واتفق معهم بأن كل من قتل أميرا وجاء برأسه من عصبة الأمير كتبغا يأخذ بيته وبركه واقطاعه . فلما بلغ ذلك الأمير كتبغا اجتمع بأعيان خشداشينه وألبسهم آلة الحرب ووقفوا فى سوق الخيل . فلما علم الشجاعى بذلك أغلق باب القلعة وعلق السنجق

السلطانى ودق الكئوسات حربى ، ثم صار ينتظر من يطلع اليه من الأمراء فلم يطلع اليه أحد ، وصار الأمير كتبغا يحاصر القلعة وقطع عنها الماء ، فلما كان يوم الجمعة ثالث عشر من صفر نزل المماليك البرجية من القلعة على حين غفلة ووقعوا مع الأمير كتبغا واقعة قوية حتى كاد الأمير كتبغا أن ينكسر . ثم كسرت عصبة الأمير كتبغا فاجتمع معه الأمير بيسرى ، والأمير بكتاش أمير سلاح ، والأمير بكتوت العلائى ، والأمير أيبك الموصلى ، والأمير آق سنقر ، والأمير بلبان الحسنى ، وغير هؤلاء جماعة كثيرة من الأمراء الأربعين والأمراء العشراوات والمماليك السلطانية ... فوقعوا مع المماليك البرجية واقعة قوية ، فانكسر المماليك البرجية وطلعوا الى القلعة منهزمين ، وليس لهم من ناصر ولا معين .

ثم ان خوند أشلون ، أم الملك الناصر محمد ، أرسلت خلف الأمير كتبغا من باب السلسلة ، وتحدثت معه من أعلى السور ، وقالت له : « ايش قصدك حتى نفعله ؟ ... ان كان قصدك أن خلع ابنى من السلطنة فافعل » . فقال الأمير كتبغا : « أعوذ بالله السميع العليم ! والله لو بقى من أولاد أستاذنا بنت عمياء ما أخرجنا الملك عنها ، ولا سيما ابن أستاذنا رجل وفيه كفاءة لذلك . وانما قصدنا القبض على الشجاعى واخماد الفتنة » ... فانفصل الأمر على ذلك .

فلما سمع من كان من عصبة الشجاعى ما جرى صاروا ينزلون من القلعة ويجيئون الى الأمير كتبغا ، فلا زالوا على ذلك حتى لم يبق عند الشجاعى الا القليل . فلما رأى الشجاعى عين الغلب أرسل يطلب الأمان من الأمير كتبغا ، فلم يعطه كتبغا أمانا ولا وافقه بقية الأمراء على ذلك .

ثم ان الشجاعى دخل الى السلطان فى صورة أنه يستشيره فيما يكون هذا الأمر وما يفعل فى ذلك ، فقال له السلطان : « يا عمى ايش آخر هذا الحال الذى أنتم فيه ؟ » . فقال له الشجاعى : « هذا كله لأجلك يا ابن أستاذى ... فانهم قصدوا أن يخلعوك من السلطنة ويمسكونى أنا » . فقال له السلطان : « يا عمى ، أنا أعطيك نيابة حلب واخرج اليهم فى هذه الساعة لتستريح منهم » .فلم يوافق على ذلك الشجاعى وأغلظ على السلطان فى القول ، فقام اليه المماليك الذين كانوا عند السلطان وأمسكوه وقيدوه وأرسلوه الى البرج .

فبينما هو فى أثناء الطريق اذ خرج عليه جماعة من المماليك البرجية فقتلوه ، وقطعوا رأسه ووضعوها فى فوطة حرير ، وكان الذى قتل الشجاعى شخصا من المماليك يقال له بهاء الدين أقوش . فلما خرج برأس الشجاعى الى باب القلعة رآه بعض المماليك البرجية الذين هم من عصبة الشجاعى ، فقالوا له : « ما معك فى هذه الفوطة ؟ » . فقال : « خبز سخن أرسله السلطان الى الأمراء ليعلموا أن عندنا الخبز كثير » . فتركوه حتى مضى ونزل من القلعة ... ولو علموا أن معه رأس الشجاعى لقتلوه شر قتلة

فلما نزل الى الرميلة رمى برأس الشجاعى بين يدى الأمير كتبغا . فلما رأى الأمراء رأس الشجاعى توجه كل واحد منهم الى بيته ، وخمدت الفتنة ، ولم يبق شر بينهم .

ثم ان الأمير كتبغا رسم بأن يطوفوا برأس الشجاعى فى مصر والقاهرة ، فطافوا بها وهى على رمح ، والمشاعلية تنادى عليها ، وكان أكثر الناس من أهل مصر والقاهرة يكرهون سنجرا الشجاعى ، فصاروا يعطون المشاعلية شيئا من الفضة ويأخذون منهم الرأس ويدخلون بها الى دارهم ، ولا يزالون يصفعونها بالقباقيب والنعال حتى يشتفوا منه ، وطافوا بها فى الحارات والأزقة حتى طافوا بها فى حارات زويلة ، وصار اليهود يدخلون بها الى

بيوتهم ، ولم يزالوا يصفعونها بالنعال حتى اشتفوا منها ، وربما كانوا يبولون عليها ، فأقاموا على ذلك ثلاثة أيام متوالية حتى قيل كان مع المشاعلية برنية خضراء يحصلون فيها الفضة التى تدخل عليهم من الناس ، فقيل انهم ملأوا البرنية ثلاث مرات فضة ... ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الوقائع ، وهى من الغرائب .

قيل كان سنجر الشجاعى هذا رجلا طويلا عريضا ، كامل الخلقة ، أبيض اللون ، أشقر اللحية ، مهيب الشكل ، قاسى القلب ، مظلم الصورة ، عسوفا كثير الأذى ، اذا ظفر بأحد لا يرحمه ، ولا يراعى فى الأنام خليلا ... فلما أن قتل لم يرث له أحد من الناس فكان كما قال القائل :

لا تفعل الشر فتسمى به
واقعل الخير تجاز عليه
أما ترى الحية من شرها
يقتلها من لا تؤامى عليه

فلما قتل الشجاعى وخمدت الفتنة ، طلع الأمراء عند السلطان وجمعوا المماليك البرجية ، وكانوا يسكنون فى أبراج القلعة ، فرسم الأمير كتبغا بأن ينزلوا من القلعة ويسكنوا فى الأبراج التى فى سور القاهرة خلف البرقية ، فسكنوا بها — وكانوا نحو أربعة آلاف وسبعمائة مملوك — فرتب لهم الأمير كتبغا ما يكفيهم فى كل يوم ، وشرط عليهم أنهم لا يركبون ولا يخرجون من الأبراج .

ثم ان الأمير كتبغا قبض على جماعة من الأمراء الذين كانوا من عصبة الشجاعى ، وهم : الأمير بيبرس الجاشنكير أستادار العالية ، وقبض على الأمير اللقانى أمير أخور كبير ، وقيدهم وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية . ثم أفرج عن جماعة من الأمراء الذين كانوا مسجونين بالثغر المذكور ، وهم : الأمير قفجق السلحدار ، والأمير عبد الله حامل الخبر ، والأمير قرمش ، والأمير بورى ، والأمير لاچين جركس ، والأمير مغلطاى المسعودى ، والأمير كردى الساقى ، والأمير عمر شاه السلحدار ... فلما حضروا خلع عليهم وأعادهم الى وظائفهم واقطاعاتهم .

سنة اربع وتسعين وستمائة (١٢٩٤ م) :

فى يوم عاشر المحرم ثار جماعة مماليك الأشرف خليل تحت الليل ، وفتحوا باب سعادة وهجموا على اصطبلات الناس . فلما طلع النهار أرسل الأمير كتبغا فقبض على من فعل ذلك من المماليك ، وقطع أيديهم ، وصلب على باب زويلة منهم جماعة ووسط منهم جماعة ، وكانوا نحو ثلثمائة مملوك .

فلما جرى ذلك اجتمع الأمراء وضربوا مشورة وقالوا قد فسدت الأحوال لكون السلطان صغير السن ، وطمع المماليك فى حق الرعية ، ومن الرأى أن نولى سلطانا كبيرا يقمع المماليك عن هذه الأفعال . فعند ذلك وقع الاتفاق من الأمراء على خلع الملك الناصر محمد ، وأن يولوا كتبغا ، فخلعوا الملك الناصر من السلطنة وولوا كتبغا ، فكانت مدة سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاون فى هذه المرة أحد عشر شهرا وأياما .

الملك العادل كتبغا

هو الملك العادل كتبغا ، بن عبد الله المنصورى ، وهو العاشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . تسلطن بعد خلع الملك الناصر محمد

ابن قلاون فى حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة ، وتلقب بالملك العادل ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء .

وكان أصله من سبايا التتار ، أخذه الملك المنصور قلاون فى وقعة حمص الأولى ، وذلك فى سنة تسع وخمسين وستمائة ، فصار من جملة مماليك السلطان قبل أن يلى السلطنة ، فلما تسلطن جعله أمير عشرة ، ثم بقى مقدم ألف . فلما قتل الأشرف خليل وتولى أخوه محمد جعله نائب السلطنة ثم بقى سلطانا . فلما تم أمر كتبغا فى السلطنة استقر بالأمير لاجين نائب السلطنة عوضا عن نفسه . وكان الأمير لاجين ممن تواطأ على قتلة الملك الأشرف . فلما تولى أخوه محمد هرب الأمير لاجين — وكان من عصبة بيدرا — فاختفى لاجين مدة طويلة نحو سنة ، فكان مقيما فى خزانة أحمد بن طولون . ثم ان الأمير كتبغا شفع فيه عند الملك الناصر محمد بن قلاون ، فقابله به ، فرضى عليه السلطان ، وأنعم عليه بتقدمة ألف . فلما تسلطن كتبغا جعله نائب السلطنة ، وفوض اليه أمور المملكة جميعها ، وجعل الأمير بهادر حاجب الحجاب .

ثم ان الأمير كتبغا لما ثبت أمره فى السلطنة صار يقرب خشداشينه وينعم عليهم بتقادم ألوف وبالاقطاعات السنية ، وقويت شوكته وراج أمره فى السلطنة وصار له عصبة .

سنة خمس وتسعين وستمائة (١٢٩٥ م) :

فيها أجدبت البلاد وشح النيل ، وقد وصل الى اثنى عشر ذراعا ثم هبط ، فشرقت الأراضى ووقع الغلاء والقحط بالديار المصرية ، وشحط سعر القمح الى مائة وسبعين درهما كل أردب ، وكذلك الفول ، وبلغ سعر اللحم كل رطل سبعة دراهم ، وبيع كل فروج بخمسة عشر درهما ، وبيعت البيضة الواحدة بأربعة دراهم ، وبيعت التفاحة والرمانة والسفرجلة كل واحدة منها بثلاثين درهما . واشتد الأمر على الناس حتى أكلوا الكلاب والحمير والبعال والخيل والجمال ، ولم يبق عند أحد شيء من الدواب ... حتى قيل صار يباع الكلب السمين بخمسة دراهم ، والقط بثلاثة دراهم . فلما طال الأمر على الناس أرسل الله تعالى اليهم جرادا كثيرا فأكل الناس منه شيئا كثيرا حتى قيل كان يباع منه كل أربعة أرطال بدرهمين . وقد عم هذا الغلاء سائر البلاد ... حتى البلاد الشامية ، حتى مكة والمدينة وسائر أعمال الديار المصرية .

ثم أعقب هذا فناء عظيم حتى صار الناس يتساقطون موتى فى الطرقات ... قيل مات فى هذه السنة من الناس نحو الثلث ، حتى كفن الملك العادل كتبغا من ماله فى مدة يسيرة من مات من العربان على الطرقات نحو مائتين وسبعين ألف انسان ، فجافت منهم الحارات والأزقة ، وصار الرجل يكون ماشيا فيقع ميتا فى الحال . وفى ذلك يقول ابن المعمار :

يا طالبا للموت قم واغتنم
هذا أوان الموت ما فاتا
قد رخص الموت على أهله
ومات من لا عمره ماتا

ثم كشف الله عن الناس هذه الكربة ، وتراجع الأمر قليلا قليلا ، وانحطت الأسعار ، وانصلح الحال كما كان أولا ، وزالت تلك الشدة العظيمة فكان كما قيل :

قل لمن يحمل هما ان هذا لا يدوم
مثل ما تفنى المسرات كذا تفنى الهموم

وفى هذه السنة — وهى سنة خمس وتسعين وستمائة — توفى الشيخ الزاهد الناسك سيدى

فتح الأسمر رحمة الله عليه . وهو فتح بن عثمان الأسمر التكروري المراكشي ، قدم من مراكش الى دمياط على سبيل التجريد ، وكان يسقي في دمياط الماء في الأسواق احتسابا من غير أن يأخذ من أحد شيئا ، وكان يلازم الصلاة في المسجد مع الجماعة ، وكان لا يرى الا وقت الصلاة ، واذا سلم الامام عاد الى انعكافه . واستمر على ذلك حتى توفي في ليلة الجمعة ثامن شهر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وستمائة ، ودفن بثغر دمياط بجوار مسجد الفتح وقبره يزار الى الآن ، وقد قيل في المعنى :

لعمرك ما دميـــاط الا حبيبة
تهيم الورى منها بأحسن منظـر
لها ناظر منها يصـــول بأبيض
ويطعن من فتح القـوام بأسمر

وفي هذه السنة أيضا كانت وفاة الشيخ سراج الدين الوراق ، الشاعر الماهر ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيـد . وكان مولده في سنة خمس عشرة وستمائة ، ووفاته في سـنة خمس وتسعين وستمائة ، فكانت مدة حياته نحو ثمانين سنة . ومن شعره لنفسه قوله :

واخجلتي وصحائفي سودا غـدت
وصحـائف الأبـرار في اشراق !
وموبخ لي في القيـامة قـائل :
أكـذا تكون صحـائف الوراق ؟

ومما وقع للسراج الوراق أن الشيخ نصـير الدين الحمامي قال له : « قد عملت قصيـدة في الصـاحب تاج الدين السبكي ، وأشتهي أن تثني عليها اذا قرئت بحضرتك » ... فلما أنشدها النصير الحمامي بحضرة الشيخ سراج الدين أنشـأ على الفور ارتجالا وهو يقول :

شـاقني للنصـير شـعر بديـع
ولمثـلي في الشـعر نقـد بصـير
ثم لمـا سـمعت باسـمك فيـه
قلت نعـم المـولى ونعـم النصير

ومن هنا نرجع الى أخبار كتبغا .

سنة ست وتسعين وستمائة (١٢٩٦ م) :

فيها سافر السلطان الى البـلاد الشامية بسبب تمهيد البلاد ، فلما دخل الشام صلى بها الجمعة ، ثم في يوم السبت لعب في ميدان دمشق بالكرة وأقام بها أياما وعزل من عزل وولى من ولى ، ثم قصد التوجه الى الديار المصرية . فلما رحل من دمشق ووصل الى وادي فجمـة ، وقع بين الأمير لاجين نائب السلطنة وبين جماعة من الأمراء كلام فبادر الأمير لاجين وقبض على جماعة من الأمراء ، منهم الأمير بنجاص العادلي ، والأمير بكتوت الأزرقي ، وكانا جناحي الملك العادل كتبغا . فلما بلغه ذلك رجع الى دمشق في نفر قليل من العسكر .

فلما رجع كتبغا الى دمشق احتوى الأمير لاجين على خـزائن المـال ، وركب تحت العصـائب السلطانية ، وقصد التوجه الى الديار المصرية ... هذا ما كان من أمر الأمير لاجين .

وأما ما كان من أمر الملك العادل كتبغا فانه لمـا رجع الى دمشق ، أقام بها ثلاثة عشر يوما وهو بقلعة دمشق ، وقد أطاعه أهلها وتعصبوا له ، فما مضى قليل حتى جاءت الأخبـار من القـاهرة بأن لاجين قد تسلطن بمصر وتلقب بالملك المنصور ، فعند ذلك انحل برم الملك العادل كتبغا وانصرف عنه الناس .

فلما كان يوم الخميس ثامن ربيـع الأول من السنة المذكورة ، وصل الى دمشق الأمير حسام الدين لاجين استادار العالية ، وعلى يده مراسيم لقضاة دمشق وللأمراء ، فاجتمعوا بدار السعادة وقرأوا مراسيم السلطان لاجين على القضاة والأمراء

بأن يحضروا الملك العـادل كتبغا ويشهدوا عليه بالخلع من السلطنة ، فقام قاضى القضاة بدر الدين ابن جماعة الشـافعى — هو والأمير لاچين الاستادار — ودخـلوا على العـادل كتبغا وهو بقلعة دمشق ، وتكلموا معه . فلما رأى كتبغا عين الغلبة أذعن وأشهد على نفسه بالخـلع .

ثم فى يوم الاثنين وصـل الى دمشـق الأمير قفجق المنصورى ، وقد استقر نائب الشام . فلما دخل دمشق نزل بدار السعـادة ، وأرسل خـلف العـادل كتبغا وقال له : « ان السلطان المنصور لاچين يسـلم عليك ، ورسم لك بأن تتوجه الى مدينة صرخد ويرتب لك ما يكفيك » ... فقال : « السمع والطاعة ! » .

وخرج من يومه الى صرخد وهو معزز مكرم ، ومعه عياله ومماليكه وغلمانه وبركه ، وتوجه الى صرخد فأقام بهـا ... فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والديار الشامية الى أن خلع من السلطنة نحو سنتين الا شهرين .

فلما توجه الى صرخد أقام بها الى سنة تسع وتسعين وستمائة ، فلما عاد الملك الناصر محمد بن قلاون الى السلطنة فى المرة الثانية أنعم على الملك العادل كتبغا بمملكة حماة وأعمالها . وكان الملك الناصر يميل الى كتبغا دون أبيه ، فاستمر كتبغا فى حماه الى أن مات ، وكانت وفاته فى يوم عيد النحر من سنة اثنتين وسبعمائة ، ودفن بحماه ، ثم نقل بعد ذلك الى دمشق ودفن بسفح جبل قاسيون .

وكان كتبغا رجلا قصير القامة ، أجرد اللحية ، أسمر اللون ، وكان موصـوفا بالشجاعة ، وكان دينا خيرا سليم الباطن . ومات وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة .

ومن صفاء باطنه أنه قرب الأمير لاچين وشفع فيه من القتل عند الملك الناصر محمد بن قلاون .

وكان لاچين ممن تعصب على قتل الأشرف خليل . ولما أن تسلطن كتبغا استقر بالأمير لاچـين نائب السلطنة ، وفوض اليـه أمور السلطنة جميعها . وكان لاچين فى قلبه الغدر لكتبغا حتى وثب عليه وخلعه من السلطنة وجرى عليه ما جرى . وكان لاچين يظهر المحبة لكتبغا وهو فى الباطن بخلاف ذلك كما قيل فى المعنى :

والخِل كالماء : يبدى لى ضمائره
مع الصفاء ، ويخفيها مع الكدر

الملك المنصور

هو الملك المنصور حسـام الدين لاچين ، ابن عبد الله المنصورى ، وهو الحادى عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويع بالسلطنة بعد خلع الملك العادل كتبغا ، وذلك فى نصف شهر صفر سنة ست وتسعين وستمائة ، وتلقب بالملك المنصور ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء ودقت له الكئوسات .

وكان أصله من مماليك الملك المنصور قلاون . فلما تم أمره فى السلطنة خلع على خشداشينه ، وهم الأمير قرا سنقر المنصورى ، واستقر به نائب السـلطنة عوضا عن نفسـه ، وأنعم على مملوكه منكوتمر بتقدمة ألف ، ثم خلع على الأمير سنقر الأعسر واستقر به وزيرا .

ثم أخذ فى أسباب عمارة جامع أحمد بن طولون وكان خرابا بغير سقف مدة مائة وسبعين سنة ... وكان لاچين ، لما قتل بيدرا وجرى ما تقدم ذكره ، اختفى فى جامع أحمد بن طولون فى المئذنة مدة طويلة حتى شفع فيه العادل كتبغا عند الملك الناصر محمد بن قلاون ، فلما ظهـر ورضى عليه الناصر محمد نذر فى نفسه ان صار سلطانا ليعمرن جامع

أحمد بن طولون كما كان . فلما صار سلطانا عمره ورتب فى سطح الجامع دكة بسبب الميقاتية لتحرير الوقت ، ووقف على ذلك أوقافا كثيرة الى الآن تصرف للميقاتية ، وأحيا رسوم هذا الجامع بعد ما كانت قد درست .

ومن محاسن الملك المنصـــور لاجين أنه أرسل خلف أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الذين كانوا بالقسطنطينية من حين نفاهم الملك الأشرف خليل بن قلاون ، فأحضرهم الى مصر . فأما سلامش ابن الملك الظاهر فانه أدركته المنية فى القسطنطينية ، فأتوا به — وهو ميت — فى سحلية ، ودفن بالقرافة الصغرى . وكان يسمى ابن البدوية ، وكان جميل الصورة ، مليح الشكل . وأما أخوه سيدى خضر فانه أقام بالقاهرة مدة ثم طلب من السلطان لاجين دستورا بأن يحج ، فأذن له فى ذلك ، فسار الى الحجاز وحج ورجع الى مصر ، وأقام بها مدة ومات ودفن مع أخيه سلامش ، وبه انقرضت أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى .

ثم ان السلطان لاجين قبض على الأمير قرا سنقر — نائب الســـلطنة — وسجنه ، واستقر بمملوكه منكوتمر نائب السلطنة ، فعـــز ذلك على بقيـــة الأمراء ، ولم يكن منكوتمر أهلا لذلك .

سنة سبع وتسعين وستمائة (١٢٩٧ م) :

فيها راك السلطان البلاد المصرية ، وهو الروك الحسامى . وكان ابتداء ذلك فى سادس جمادى الأولى من السنة المذكورة . وكان المتكلم فى ذلك شخصا من المباشرين يقال له التاج الطويل ، فشرع فى كتب قوائم بمساحة البلاد وأسمائها .

وكانت البلاد المصرية مقسومة يومئذ على أربعة وعشرين قيراطا ، منها أربعة قراريط للســـلطان ، ومنها عشرة قراريط للأمراء والاطلاقات ، ومنها عشرة قراريط للجند كلهم ... فرسم الســـلطان للمباشرين بأن يكفوا الأمراء بعشرة قراريط مع الأجنـــاد ، وزاد الذين قد تشكوا من الأجنـــاد قيراطا ، وبقى للسلطان ثلاثة عشر قيراطا ، فشكا الجند وضجوا من ذلك . وكان المتكلم فى ذلك الأمير منكوتمر النائب ، فصار يقابح الأمراء والجند أنحس مقابحة ، وعادى سائر العسكر بسبب ذلك ... فنفرت قلوبهم عن السلطان لاجين ، وتمنى كل أحد زواله ، وكثر الدعاء عليه من الناس ، وكان مملوكه منكوتمر من سيئات الدهر ، أظلم خلق الله تعالى وأنحسهم .

فلما كان ثامن رجب من السنة المذكورة فرقت المثالات بما تقرر عليه المال مع الأمراء والجند وهم غير راضين بذلك .

ثم لما مضى أمر ذلك أشار الأمير منكوتمر على السلطان بأن يقبض على جماعة من الأمراء فقبض على جماعة منهم الأمير ايلبك الحموى وغيره من الأمراء ، ثم أرسل بالقبض على قفجق نائب الشام ، فلما بلغه ذلك خرج من الشام هاربا وخرج معه الأمير بكتمر الأبوبكرى والأمير نزلار وغيرهم من الأمراء الذين كانوا بدمشق . فلما خـــرجوا من دمشق توجهوا الى القان الأكبر غازان ملك التتار ، وكان هذا سببا للفتنة العظيمة التى وقعت بينه وبين عسكر مصر كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

وفى هذه السنة سأل الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله السلطان بأن ينعم له فى أن يحج ، فأنعم له فى ذلك ، ورسم له بألف دينار فأخذها وحج فى تلك السنة ، ثم عاد مع الحجاج الى القاهرة .

سنة ثمان وتسعين وستمائة (١٢٩٨ م) :

فيها توجه السلطان الى القصر الكبير ، وكان صائما ، وكان ذلك يوما شديد الحر فجلس فى القصر

الى وقت الفطور وهو يلعب بالشطرنج ، وكان عنده القاضى حسام الدين الرازى الحنفى ، وامامه محب الدين ابن العسان ، وشيخ العرب يزيد . فلما جلس فى القصر الى وقت المغرب بلغ ذلك جماعة من المماليك الأشرفية — وكان فى قلبهم من السلطان لاچين شيء لأنه كان من جملة من تواطأ على قتل أستاذهم الملك الأشرف خليل — فقالوا هذه ليلة الفرصة ، فاتفقوا مع جماعة من المماليك البرجية بأن يهجموا على السلطان بعد العشاء وهو فى القصر .

وكانت تلك الليلة نوبة شخص من السلحدارية يقال له نوغان الكرمانى ، فاتفق معه شخص يقال له كرجى — وهو مقدم المماليك البرجية — على أن يدخل المماليك ، ويهجموا عليه بعد العشاء ويقتلوه . فلما دخل وقت المغرب أفطر السلطان فى القصر واستمر يلعب فى القصر الى وقت العشاء ، فتقدم كرجى مقدم المماليك البرجية الى الشمعة ليصلحها ، فرمى الفوطة على النمجاة والسلطان منكب على الشطرنج وهو لا يدرى ما خبىء له فى الغيب ، فالتفت اليه السلطان وقال له : « غلقت أبواب الأطباق على المماليك البرجية ؟ » فقال له : « نعم » . فشكره وأثنى عليه .

وكان المماليك البرجية واقفين بالسيوف فى دهليز القصر ، فلما فات وقت العشاء تقدم كرجى الى السلطان وقال له : « ياخجم ، أما تصلى العشاء ؟ » فقال له السلطان : « نعم » . وقام ليصلى العشاء فضربه كرجى بالسيف على كتفه فهدله ، فقام السلطان ليأخذ النمجاة فلم يجدها ، فقبض على كرجى ورماه الى الأرض فجاء اليه نوغان الكرمانى وأخذ النمجاة وضرب بها السلطان على رجله ضربة قوية فقطعها ، فصاح عليه القاضى حسام الدين الرازى : « ويلكم ! كيف تقتلون أستاذكم ؟ » . فانقلب على ظهره السلطان ووقع الى الأرض ميتا ، فتركوه مكانه ومضوا وأغلقوا عليه باب القصر ، وتركوا عنده الامام والقاضى حسام الدين الرازى .

ثم ان كرجى توجه تحت الليل الى الأمير منكوتمر النائب — وكان ساكنا بدار النيابة بالقلعة — فدق عليه الباب وقال له : « ان السلطان يدعوك » . فأنكر ذلك ، وقال لكرجى : « لعلك قتلت السلطان » . فقال له كرجى : « نعم قتلناه وجئنا اليك نقتلك يانحس » . وكان بين كرجى وبين الأمير منكرتمر حظ نفس من قديم الزمان .

ثم ان كرجى أحرق الباب ودخل على منكوتمر وقبض عليه وتوجه به الى الجب الذى بالقلعة فحبسه به ، وكان بالجب جماعة من الأمراء مسجونون ، وكان منكوتمر سببا لسجنهم كما تقدم . فلما رأوا منكوتمر دخل عليهم قتلوه شر قتلة ... هذا كله جرى فى القلعة تحت الليل وأهل المدينة لم يشعروا بشيء من ذلك ، فلما طلع النهار شاعت الأخبار فى المدينة بما جرى .

ثم ان الزمام شرع فى تجهيز السلطان ، فغسل وكفن ونزل من القلعة فى تابوت هو والأمير منكوتمر ودفنا بالقرافة الصغرى ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان ، فكانت مدة سلطنة الملك المنصور حسام الدين لاچين بالديار المصرية الى أن قتل سنتين وشهرين وأياما ، وكانت قتلته فى ليلة الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وستمائة . ومات وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة .

وكان رجلا طويل القامة ، أشقر اللون واللحية، أزرق العينين ، مهيب الشكل ، وكان موصوفا بالفروسية ، شجاعا بطلا ، وكان دينا خيرا أبطل فى أيامه من المكوس التى كانت بالديار المصرية أشياء كثيرة، ولم يكن من سيئاته سوى مملوكه منكوتمر

العسكر ... فأعطى كل مملوك ثمانين دينارا ، وجماعة منهم أعطاهم خمسة وسبعين دينارا ، وجماعة منهم خمسة وستين دينارا ، وأعطى مماليك الأمراء كل واحد خمسين دينارا ثم أنفق على عسكر الشام الذين حضروا بصحبته ، فأعطى كل واحد منهم عشرة دنانير ذهبا ، وعشرة أرادب شعيرا ، وعشرة أرادب قمحا . ثم أنفق على سائر الأمراء والمقدمين والطبلخانات والعشراوات لكل واحد منهم على قدر مقامه . وكان القائم فى تدبير مملكته الأمير سلار نائب السلطنة والأتابكى بيبرس الجاشنكير .

ثم ان الملك الناصر قصد العود الى محاربة غازان ، فبرز بخيامه فى الريدانية ، وخرج من القاهرة ثانيا . وكان صحبته الخليفة الامام احمد والقضاة الأربعة وسائر الأمراء والعساكر . فلما أقام فى الريدانية تشكى العسكر وتغلبوا عليه فأنفق عليهم نفقة ثانية لترفع أحوالهم ، ثم رحل من الريدانية وجد فى السير ، فتقدم فى جاليش العسكر الأمير سلار نائب السلطنة ، والأتابكى بيبرس الجاشنكير فلما وصل الجاليش الى دمشق تلقاهم الأمير قفجق وأظهر الطاعة للسلطان وباس الأرض ، واجتمع بالأمراء وأشار عليهم بأن السلطان يرجع الى القاهرة ولا يدخل دمشق ، وسيجيئه الأمر كما يختار .

فعند ذلك رجع السلطان الى القاهرة ، وكان رجوعه اليها فى ثامن عشر شهر رمضان من سنة تسع وتسعين وستمائة .

ومن النكت اللطيفة أن الملك المنصور قلاون — أستاذ الأمير قفجق المذكور — خرج يوما الى نحو المطرية فى أيام النيل على سبيل التنزه ومعه جماعة من الأمراء من أخصائه ، فانشرح السلطان فى ذلك اليوم وذبح خروفا سمينا بيده ، فلما حضر السماط قدموا ذلك الرميس بين يديه فقطعه بيده ، ثم أخذ الكتف منه وجرده من لحمه وتركه ساعة حتى جف ، ثم لوحه على النار قليلا قليلا ، ثم أخرجه ونظر فى لوح الكتف ساعة وأطال التأمل ، ثم تفل عليه وألقاه من يده وظهر فى وجهه الغضب ... فسأله بعض الأمراء عن ذلك — بعد ما سكن غضبه — فقال : « ان وليتم قفجق بعدى نيابة الشام يحصل منه غاية الفساد . فلا تخرجوه بعدى من مصر لئلا تتعبوا من أمره » . فكان الأمر كما قاله الملك المنصور قلاون . والملوك لهم فراسة فى الأمور قبل وقوعها كما قيل فى المعنى :

يرى العواقب فى أثناء فكرته
كأن أفكاره بالغيب كهان

لا طرفة منه الا تحتها عمل
كالدهر لا دولة الا لها شان

ولم يزل الأمير قفجق ممقوتا فى دولة الملك المنصور قلاون حتى مات قلاون وتسلطن خليل ولده ، الى أن تسلطن الملك المنصور لاجين فاستقر بالأمير قفجق نائب الشام . فلما ظهر له منه عين العصيان أرسل بالقبض عليه فهرب قفجق الى القان غازان وحسن له بأن يزحف على البلاد كما تقدم من أخباره .

قال القاضى محيى الدين بن فضل الله : « حكى لى الأمير قفجق ، بعد أن جرى ما جرى ، ورجع الى القاهرة ، وتلاقى عسكر السلطان مع عسكر غازان فكاد غازان أن ينكسر وهم بالهرب ، فطلبنى ليضرب عنقى ، لأنى كنت السبب فى مجيئه الى دمشق ، فلما حضرت بين يديه قال لى : ما هذا

الحال ؟ فقلت : ما ثم الا الخير والسلامة ... فأنا أخبر بعسكرنا فان لهم أول صدمة ثم يولون عن القتال . فالقان يصبر ساعة فما يبقى قدامه أحد منهم . فصبر ساعة فكان ما قاله صحيحا . ولما انكسر عسكر مصر أراد أن يزحف عليهم بما معه من العسكر فقلت فى نفسى : متى زحف عليهم لم يبق منهم أحد . فقلت له : القان يصبر ساعة فان عسكر مصر لهم حيل وخداع ، وربما يكون لهم كمين وراء الجبل فيخرج علينا فننكسر فسمع لى ، ثم وقف ساعة حتى أبعدتم عنا ولم يبق منكم أحد قدامه ... فلو زحف عليكم ما بقى منكم أحد . فلولا أنا ما سلم منكم أحد » .

فكان الأمر كما قيل :

ولو شئت قابلت المسىء بفعله
ولكننى أبقيت للصلح موضعاً

ومن هنا نرجع الى أخبار الملك الناصر محمد ابن قلاون .

ثم فى هذه السنة وصل الخبر من البحيرة بأن قد اختلفت طائفتان من العرب — وهما جابر ومرديس — ونهبوا ضياع البحيرة ، وأحرقوا الجرون ، فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وعين لهم السلطان تجريدة ... فكان باش العساكر الأمير بيبرس المنصورى أمير دوادار كبير ، وصحبته جماعة من الأمراء نحو عشرين أميرا ، ما بين طبلخانات وعشراوات ، فخرجوا من القاهرة على الفور ، وجدوا فى السير الى أن وصلوا الى تروجه ، ووقعوا مع العرب فكسروهم وهربوا الى الجبال حتى لم يبق منهم أحد ، فأحاط العسكر بجمالهم وأغنامهم وأولادهم ونسائهم ، ثم عاد الأمراء الى القاهرة وهم فى غاية النصرة ... فخلع السلطان على الأمير بيبرس خلعة ، ونزل الى بيته فى موكب عظيم .

سنة سبعمائة من الهجرة النبوية (١٣٠٠ م) :

فيها كان خليفة الوقت الامام أحمد الحاكم بأمر الله ، وسلطان العصر الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاون ، وقاضى القضاة من الشافعية شيخ الاسلام تقى الدين ابن دقيق العيد .

وأما الأمراء أرباب الوظائف : فالأمير سلار المنصور نائب السلطنة ، والأمير بيبرس الجاشنكير أتابك العساكر المنصورة ، والأمير بيبرس المنصورى دوادار كبير ، والأمير سنقر الأعسر وزير ، والأمير لاجين استادار ، والأمير عز الدين أيدمر نقيب الجيوش المنصورة ، والأمير أقوش الشمسى حاجب الحجاب ، والأمير ناصر الدين ابن الشيخ واليا بالقاهرة . وبقية الأمراء لم نذكرهم هنا خوف الاطالة ولكن سيأتى ذكرهم فى مواضعه .

وأما أرباب الوظائف من المتعممين ، فالقاضى محيى الدين ابن فضل الله كاتب السر الشريف ، والقاضى بهاء الدين بن الحلى ناظر الجيوش المنصورة ، والقاضى كريم الدين بن السديد ناظر الخواص الشريفة .

وكان شاعر الوقت يومئذ الشيخ صدر الدين ابن الوكيل ، كان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن شعره ونظمه الرقيق قوله من قصيدة خمرية :

عناصر أربع فى الكأس قد جمعت
وفوقها الفلك السيار والشهب
ماء ونار هواء أرضها قدح
وطوقها فلك والأنجم الحبب
وان أقطب وجها حين تبسم لى
فعند بسط الموالى يحفظ الأدب

وفى أثناء هذه السنة جاءت الأخبار بحركة التتار وقد وصل أوائلهم الى الفرات ، فجمع السلطان الأمراء ، وضربوا مشورة فى ذلك الخبر ، فقال السلطان للأمراء : « أنتم تعلمون أنى رجعت مكسورا من التتار تلك المرة ، ونهب جميع بركى ، وذهبت الأموال ... والآن لم يبق فى بيت المال لا دينار ولا درهم ، فمن أين أنفق على العسكر ؟ » .

فاتفق رأى الأمراء على أن يوزعوا النفقة على المباشرين وأعيان التجار ومساتير الناس ، ثم ندبوا الى ذلك الأمير سنقرا الأعسر وزير الديار المصرية فشرع فى استخراج الأموال من الناس ، فتحصل من ذلك فوق مائتى ألف دينار . ثم ان السلطان أنفق على العسكر وخرج من القاهرة قاصدا نحو البلاد الشامية . فلما أن وصل الى غزة جاءت الأخبار من حلب بأن نائب حلب كسر التتار كسرة قوية ، ورجعوا الى بلادهم هاربين . فلما بلغ السلطان رجع الى القاهرة من غزة ، وكان سبب رجوعه ... قيل ان العسكر تغلبوا عليه هناك وقصدوا منه نفقة ثانية من قلة التبن والشعير ، فانه كان لا يوجد .

ثم ان السلطان عين من الأمراء بكتمر السلحدار وجماعة من الأمراء بأن يتوجهوا من غزة الى حلب ويقيموا بها الى أن يظهر ما نكون من أمر التتار . ثم ان السلطان رجع الى القاهرة ، ودخل فى موكب عظيم ، وطلع الى القلعة ، وانقضى ذلك الأمر .

سنة احدى وسبعمائة (١٣٠١ م) :

فيها توفى الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله ، وكانت وفاته فى ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى من سنة احدى وسبعمائة ، وكان قدومه من بغداد فى سنة تسع وخمسين وستمائة ، وذلك فى دولة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى . وأقام فى الخلافة نيفا وأربعين سنة ، وهو أول خلفاء بنى العباس بمصر . ولما مات دفن بمشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وبنيت له هناك قبة .

ولما مات الامام أحمد تولى من بعده ابنه المستكفى بالله أبو الربيع سليمان ، وهو ثانى خلفاء بنى العباس بمصر واليه تنسب الخلفاء الى الآن بمصر .

سنة اثنتين وسبعمائة (١٣٠٢ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن أميرا من أمراء القان غازان ، يقال له قطلوشاه ، قد دخل الى حلب على حين غفلة من أهلها ومعه طائفة من عسكر التتار ، وذكروا أن بلادهم قد اضمحلت هذه السنة وقصدهم الاقامة بحلب حتى يشتروا لهم مغلا ... وكل ذلك حيل وخداع .

ثم بعد أيام دخل منهم جماعة نزلوا بالمرعش ، فأرسل نائب حلب يكاتب السلطان بذلك فلما جاء هذا الخبر عين السلطان جماعة من الأمراء المقدمين عدتهم ستة من الأمراء ، وعين ألف مملوك من المماليك السلطانية فخرجوا من القاهرة على الفور مسرعين . فلما وصلوا الى غزة تواترت الأخبار بوصول غازان الى الرحبة ، وأن نائب الرحبة تلطف به وأرسل له بالاقامة مع ولده ومنعه من محاصرة المدينة .

فلما أن بلغ السلطان ذلك أحضر الأمير سلار النائب ، والأتابكى بيبرس الجاشنكير ، وضربوا مشورة فى ذلك ، فأشاروا على السلطان بالخروج قبل أن يتمكن العدو من البلاد ، فنادى السلطان فى جميع أماكن القاهرة للعسكر بالرحيل من كبير وصغير .

ثم ان السلطان أحضر جماعة من عربان الشرقية ومن عربان الغربية ، ونادى بالنفير عاما ، وخرج

مسرعا على جرائد الخيل ، وكان معه الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان والقضاة الأربعة وسائر الأمراء والعسكر من كبير وصغير . فلما رحلوا من الريدانية تقدم الأتابكى بيبرس الجاشنكير مع جماعة من العسكر قدام السلطان .

فلما وصلوا الى الشام جاءت الأخبار بأن جاليش غازان قد وصل الى قرب حماة ، فأرسل الأتابكى بيبرس يستحث السلطان فى سرعة الحضور ، فجدَ السلطان فى السير حتى وصل الى الشام فى مستهل شهر رمضان من السنة المذكورة .

ثم ان السلطان لم يقم بالشام ، وبرز الى قتال عسكر غازان ... فكان مع السلطان من العساكر المصرية والشامية وعربان جبل نابلس نحو مائتى ألف انسان ، وكان مع غازان مثل ذلك أو أكثر . فتلاقى العسكران على مرج راهط تحت جبل غباغب ، فكان بين الفريقين هناك واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان ، فكانت النصرة يومئذ للملك الناصر محمد بن قلاون على القان غازان ، فقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، وأسر من عسكر غازان نحو الثلث ، وقتل من أمراء مصر الأمير حسام الدين لاجين استادار العالية ، والأمير أوليا بن قرمان ، والأمير سنقر الكافورى ، والأمير آيدمر الشمسى المقشاش ، والأمير أقوش الشمسى الحاجب ، والأمير عز الدين نقيب الجيوش المنصورة ، والأمير علاء الدين بن التركمانى ، والأمير حسام الدين على بن ساخل ، والأمير سيف الدين بهادر الدكاجكى ... هؤلاء غير من قتل من أمراء دمشق الشام وحماه وحلب وطرابلس وغزة وغير ذلك من الأمراء . وقتل من المماليك السلطانية والأمراء نحو ألف وخمسمائة مملوك ، هذا خارجا عن العربان والمشاة والعبيد والغلمان وغير ذلك .

فلما دخل الليل حالت الظلمة بين العسكرين ، فالتجأ عسكر غازان الى أعلى الجبال ، وباتوا يوقدون النيران ، وبات عسكر السلطان محدقين بهم كالحلقة . فلما لاح الصباح من يوم الأحد رابع شهر رمضان عاين عسكر التتار الهلاك من العطش والجوع ، فصاروا يتسحبون فى الأودية أولا بأول ، فحمل عسكر السلطان عليهم فصيروهم رمما ، وأسروا منهم ما شاءوا ، فامتلأت من قتلاهم القفار ، وضجوا كما قال فيهم القائل :

مشوا متسابقى الأعضاء فيهم
لأرجلهم بأرؤسهم عثار
اذا فاتوا السيوف تناولتهم
بأسياف من العطش القفار

فلما وصلت هذه النصرة للملك الناصر محمد ، أرسل الأمير بكتوت الفتاح بأخبار هذه النصرة الى الديار المصرية ، ثم ان السلطان رحل من المكان الذى وقعت فيه الواقعة ودخل الى دمشق وصحبته الخليفة المستكفى بالله سليمان والقضاة الأربعة ، فنزل بالقصر الأبلق . وكان يوم دخوله الى دمشق يوما مشهودا لم يسمع بمثله ، وزينت له دمشق زينة عظيمة ، فأقام بدمشق أياما ثم قصد التوجه نحو الديار المصرية ، فوصل الى القاهرة فى ثالث عشرى شوال من سنة اثنتين وسبعمائة ، فدخل الى القاهرة وكان يوما مشهودا ، والأسارى من عسكر التتار قدامه وهم فى جنازير حديد ، وصناجق غازان منكوسة ، وطلائعه معكوسة . فشق السلطان من القاهرة وطلع الى القلعة . وقد غنم العسكر من التتار — لما انكسروا — أشياء كثيرة من خيول وسلاح وقماش وغير ذلك من الغنائم . وكانت هذه النصرة على غير القياس ، فان غازان كسر الملك الناصر قبل ذلك كسرة قوية ، ونهب جميع ما كان معه ومع العسكر من خيول

وسلاح وبرك وغير ذلك كما تقدم ، فكان كما قيل فى المعنى :

فيوم علينا ويوم لنا
ويوم نساء ويوم نسر

ومن الحوادث فى هذه السنة أن فى الثالث والعشرين من ذى الحجة وقعت زلزلة عظيمة بالديار المصرية وسائر أعمالها ، وكانت قوة عملها بثغر الاسكندرية ، فهدمت سورها والأبراج . وهدمت جانب المنار ، وفاض ماء البحر المالح حتى غرقت البساتين . وأما بالديار المصرية فهدمت أكثر جدران الجامع الحاكمى ، وهدمت مئذنة المدرسة المنصورية ومئذنة جامع الظاهر الذى فى الشوايين ، وهدمت مئذنة جامع الصالح الذى عند باب زويلة ، وهدمت جانبا من حيطان جامع عمرو بن العاص . وقد تشقق من هذه الزلزلة الجبل المقطم ، وخرج الناس الى الصحراء وظنوا أنها القيامة . وأقامت الزلزلة تعاود الناس مدة عشرين يوما ، وسقطت الدور على الناس ، وهلك تحت الردم من الناس ما لا يحصى . وقيل ان شخصا كان يبيع اللبن فسقطت عليه داره فظن الناس أنه قد مات ، فأقام تحت الردم ثلاثة أيام بلياليها ، فلما شالوا عنه الردم ، وجدوا فيه الروح وقد تصلبت عليه الأخشاب فسلم ، وكان معه جرة فيها لبن فوجدت معه كما هى سالمة وفيها اللبن .

وكانت هذه الزلزلة فى قوة الحر ، فجاء عقيبها ريح أسود فيه سموم ، فلفح حتى أغمى على الناس منها .

وقيل كانت هذه الزلزلة متصلة الى دمشق والكرك والشوبك وصفد وغالب البلاد الشامية ، وفى ذلك يقول بعضهم :

زلزلت الأرض فخاف الورى
وابتهلوا الى العزيز الحكيم
فليذكروا مع خوفهم قوله
زلزلة الساعة شىء عظيم

سنة ثلاث وسبعمائة (١٣٠٣ م) :

فيها خرج الأمير بيبرس الدوادار لعمارة ما انهدم من الأبراج والأسوار بمدينة الاسكندرية بسبب ما حصل من الزلزلة ، فكان عدة ما سقط من الأبراج سبعة عشر برجا وستا وأربعين مئذنة

ثم ان جماعة من الأمراء التزموا بترميم ما انهدم من الجوامع بالديار المصرية بسبب الزلزلة ، وصرفوا على ذلك من أموالهم شيئا كثيرا .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار بموت القان غازان الذى جرى منه ما تقدم ذكره ، فكان غازان هذا من أولاد هلاكو الذى جرى منه فى بغداد ما جرى . وقيل ان غازان مات مسموما ... سمته زوجته فى منديل الفرش . وكان موته بالقرب من همذان ، وحمل الى تبريز ودفن بها . وكان أخذ فى أسباب جمع عساكر ، وقصد بأن يزحف على البلاد الشامية ، وكفى الله المؤمنين القتال . وفى ذلك يقول الشيخ علاء الدين الوداعى :

قد مات غازان بلا علة
ولم يمت فى السنة الماضيه
بل شنعوا فى موته فانثنى
حيا ولكن هذه القاضيه

سنه اربع وسبعمائة (١٣٠٤ م) :

فيها حضر الى الأبواب الشريفة صاحب دنقلة من أعمال الصعيد ، وكان صحبته هدايا جميلة من رقيق وجمال وأبقار حبشية وغير ذلك ، فخلع عليه السلطان خلعة وأنزله بدار الضيافة .

وفيها كانت وفاة قاضى القضاة الشافعى شيخ الاسلام تقى الدين بن دقيق العيد رحمه الله تعالى .

وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم ، وكان من طلبة الشيخ عز الدين بن عبد السلام . وكان له نظم رقيق ، فمن ذلك قوله فى نوع الجناس التام :

تهيم نفسى طربا عند ما
أستلمح البرق الحجازيا
ويستخف الوجد عقلى وقد
لبست أثواب الحجا زيا
ياهل ترى أقضى منى من منى
وأنحر البدن المهاريا
وأرتوى من زمزم فهى لى
ألذ من ريق المها ريا

سنة خمس وسبعمائة (١٣٠٥ م) :

فيها ابتدأ الأتابكى بيبرس الجاشنكير بعمارة خانقاه التى برحبة باب العيد قبالة الدرب الأصفر ، وكتب له الشيخ شرف الدين بن الوجيه ختمة مكتوبة بالذهب فى سبعة أجزاء فى ورق قطع البغدادى بقلم الشعر ، فصرف على أجرة نسخها ألفا وسبعمائة دينار . وكتبها برسم هذه الخانقاه التى أنشأها ، فكانت هذه الختمة من محاسن الزمان ، وأودعها بها .

سنة ست وسبعمائة (١٣٠٦ م) :

فيها وقع الغلاء بالديار المصرية ، وتشحطت الغلال واشتد سعرها ، وهاجت الناس على بعضها ، وعز الخبز من الأسواق ، وبلغ ثمن الرغيف درهم فضة ، فأقام الأمر على ذلك مدة يسيرة ، ثم تراجع الحال قليلا قليلا الى أن انحط السعر ، وظهرت الغلال .

وفيها توفى الشيخ الزاهد العارف بالله تعالى سيدى يافوت العرشى رضى الله عنه ودفن بنواحى الاسكندرية . وفيها توفى الشيخ زين الدين الفارقى ، وتوفى الشيخ صدر الدين بن الوكيل صاحب الأشعار اللطيفة ، وتوفى الشيخ ضياء الدين الطوسى شارح الحاوى .

سنة سبع وسبعمائة (١٣٠٧ م) :

فيها وقع بين السلطان وبين الأمير سلار نائب السلطنة ، وثارت بينهما الفتنة وكثر القيل والقال ، ودبت بينهما عقارب التشاحن .

ثم انه فى يوم الاثنين عمل السلطان الموكب ، وقبض فى ذلك اليوم على جماعة من الخاصكية الذين هم من عصبة الأمير سلار النائب — وهم : يلبغا التركمانى ، وخاص ترك العلائى ، وبكتمر الفارسى — فرسم لهم السلطان بأن يتوجهوا الى القدس ، فعز ذلك على الأمير سلار .

وفيها أظهر صاحب اليمن — وهو الملك المؤيد هزبر داود — المخالفة للسلطان ، ومنع ما كان يرسله فى كل سنة من الهدايا والتقادم الى السلطان ، فعز ذلك على الملك الناصر ، وعين له تجريدة ، وشرع فى عمارة مراكب تسمى جلبات ، وعين جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية . فلما شرع فى ذلك دخل الشتاء فأهمل هذا الأمر وبطل .

سنة ثمان وسبعمائة (١٣٠٨ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بحركة التتار . فلما بلغ السلطان ذلك عين تجريدة وبها جماعة من الأمراء المقدمين وهم : الأمير جمال الدين آقوش الموصلى المسمى قتال السبع ، وهو صاحب الغيط المنسوب اليه ، والأمير شمس الدين الدكز السلحدار . وعين جماعة من الأمراء والطبلخانات والعشراوات والمماليك السلطانية ، ورسم لهم بأن يتقدموا ويقيموا فى مدينة حلب الى أن يصير من أمر التتار ما يكون . فلما شرعوا فى أمر السفر ، وهموا بالخروج الى حلب ، جاءت الأخبار من عند

نائب حلب بأن التتار وقع بينهم خلف ورجعوا الى بلادهم ، فبطل أمر التجريدة .

ثم ان السلطان أظهر أن يحج فى تلك السنة ، وعبى له سنيحا عظيما . فلما كان فى يوم السبت خامس عشرى شهر رمضان من السنة المذكورة خرج السلطان من القاهرة ، وصحبته جماعة من الأمراء ، وهم الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى استادار العالية ، وهو صاحب الجامع الذى فى بولاق ، والأمير حسام الدين لاجين قرا أمير مجلس ، والأمير آل ملك الجوكندار ، والأمير بلبان المحمدى أمير جاندار ، والأمير أيبك الرومى ، والأمير بيبرس الأحمدى ، وغير ذلك من الأمراء والطبلخانات والعشراوات والمماليك السلطانية . فخرج السلطان من القاهرة وتوجه الى الصالحية فعيد بها عيد الفطر ، ثم رحل وأظهر أنه يقيم بالكرك الى أن يخرج المحمل من القاهرة ، فرحل من الصالحية وتوجه الى الكرك فدخل اليها فى يوم الأحد عاشر شهر شوال .

فلما دخل المدينة زينت له زينة عظيمة . ولما وصل الى خندق قلعة الكرك وقف حتى مدوا له جسرا من الخشب ليعبر عليه . فلما عبر عليه ومشى تكاثرت حوله المماليك ، فانكسر ذلك الجسر من تحت أرجلهم بعد أن تقدم فرس السلطان بخطوتين ، فسقط المماليك المشاة فى الخندق ، فانصدع منهم جماعة كثيرة ، ومات منهم واحد فى تلك الساعة .

فلما طلع السلطان الى قلعة الكرك وأقام بها ، جمع الأمراء الذين كانوا معه وصرح لهم بما كان عنده من الكمين فى خاطره من الأمير سلار والأتابكى بيبرس الجاشنكير ، ورسم الى الأمراء الذين توجهوا معه الى الكرك بأن يرجعوا الى القاهرة ، وأنه قد اختار الاقامة بالكرك .

ثم ان السلطان رسم لنائب الكرك بأن ينزل من القلعة هو وجماعته ، فتحول فى الحال ونزل من القلعة بمن كان معه من الرجال ، واستقر السلطان بقلعة الكرك . وكان السلطان قرر مع الأمراء الذين بمصر أنه اذا خرج المحمل من القاهرة يلاقيهم من العقبة ، وكان قرر معهم أن حريم السلطان يتوجهون صحبة المحمل وهو يلاقيهم من هناك .

فلما كان سابع عشر شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة وصحبته حريم السلطان — وكان أمير المحمل فى تلك السنة الأمير جمال الدين خضر بك ابن نوكبة — فلما وصل الحاج الى العقبة أرسل السلطان فأخذ عياله من هناك والسنيح ومضوا الى الكرك .

فلما وصلوا الى هناك رسم السلطان للأمراء بالعود الى الديار المصرية ، وأعاد صحبتهم خزائن المال والجنائب والعصائب السلطانية والهجن والكبابيش الزركش التى كانت معه برسم سفر الحجاز ، وكتب مع الأمراء مرسوما يتضمن أن السلطان رغب عن الملك ، واختار الاقامة بالكرك ، وأن الأمراء الذين بالقاهرة يختارون لهم من يولونه سلطانا .

ثم ان الملك الناصر محمد خلع نفسه من الملك وأشهد عليه بذلك ، فمضى الأمراء من عنده .

فلما كان يوم السبت ثالث عشرى شوال دخل الأمراء الذين كانوا صحبة السلطان فى الكرك الى القاهرة ، فلما بلغ الأمراء الذين كانوا بمصر مجىء الأمراء على حين غفلة ركبوا جميعا وطلعوا الى الرميلة ووقفوا بسوق الخيل ، فقرءوا عليهم مرسوم السلطان بأنه قد رغب عن الملك وأشهد على نفسه بالخلع واختار الاقامة بالكرك .

فلما سمع الأمراء ذلك ضربوا مشورة مع بعضهم وقالوا : « ان راددنا السلطان فى العود الى

الملك نخشى ألا يسمع ... ويطمع العربان فى البلاد الى أن يعـود الجواب الينا بمـا يكون » ... ثم انفضوا ولم ينتظم لهم حال .

فلما كان وقت الظهر من ذلك اليوم ركب سائر الأمراء وطلعـوا الى القلعـة ، واجتمعوا فى دار النيـابة ، وضربوا مشورة فيمن يولونه سلطانا ، وكانت الكلمة يومئذ مجتمعـة بين سـلار نائب السلطنة وبين الأتابكى بيبرس الجاشنكير ، فطال بينهما الجدال فى أمر السلطنة .

فأما الأمير سـلار فامتنع من السـلطنة بكل ما يمكن ، وحلف على ذلك بالطـلاق الثلاث من نسائه .

فلما جـرى ذلك وقع الاختيـار على سلطنة الأتابكى بيبرس الجاشنكير . وأما الأمير سـلار فبقى نائب السلطنة على عادته . ثم تحالف سـائر الأمراء على ذلك وأنهم يكونون كلمة واحدة .

ثم أحضروا خلعة السلطنة والفرس الى بيبرس الجاشنكير ، وتولى السلطنة . فكانت مدة سلطنة الناصر محمـد بن قلاون فى هذه المـرة — وهى السلطنة الثانية — عشر سنين وأياما .

قيل وكان سبب توجه الملك الناصر الى الكرك أنه كان مع سلار النـائب وبيبرس الجـاشنكير كالمحجور عليـه ، لا يتصرف فى شىء من أمـور المملكة الا باختيارهما ، حتى قيل انه طلب خروفا وميسا بدريا فمنع من ذلك ، وقيل له حتى يجىء القـاضى كـريم الدين كاتب الأمـير بيبرس الجاشنكير ... فغضب السلطان من ذلك ، وأظهر أنه يريد الحج فى تلك السنة ، فلما خرج من القاهرة توجه الى الكرك وأقام بهـا كما تقـدم ، وأخذ عياله من العقبة .

وسيعود بعد ذلك الى الملك كما سيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى .

الملك المظفر

هو الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصـورى ، وهو الثـانى عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويع بالسـلطنة بعد خلع الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاون ، وتلقب بالملك المظفر ، فركب بشعار السـلطنة من الايوان الأشرفى ، وحملت القبة والطير على رأسه ، ومشت الأمراء بين يديه حتى جلس على سرير الملك ، والأمراء قبلوا له الأرض ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء ، وذلك فى يوم السبت بعد العصر الثالث والعشرين من شهر شوال من سنة ثمان وسبعمائة .

فلما تم أمره فى السلطنة خلع على الأمير سلار واستقر به نائب السلطنة على عادته ، وخلع على الصاحب ضياء الدين النشائى واستقر به وزيرا ، وخلع فى ذلك على جماعة كثيرة من الأمراء والمباشرين حتى قيل انه خلع فى ذلك اليوم ألفين ومـائتى خلعة ، ما بين كوامل سمور ومتمرات وغير ذلك .

سنة تسع وسبعمائة (١٣٠٩ م) :

من الحوادث فيهـا أن النيل توقف عن الزيادة واستمر الى آخر مسرى ، ودخلت أيام النسىء وهو على ذلك ، ثم نقص فضج الناس وماجوا فى بعضهم ، وتشحطت الغـلال ، وارتفع الخبز من الأسواق ، وضج العوام .

ثم ان السلطان رسم بكسر السد من غير وفاء ، لأن النيل كان نقص عن الوفاء ثلاثة أصابع ، فكسر السد سابع توت من الشهور القبطية . ولم يخلق المقياس لذلك ، لأن التخليق لا يكون الا بالوفاء .

فلما كان السابع والعشرون من توت نقص النيل جملة واحدة ، فكان منتهى الزيادة فى تلك السنة

خمسة عشر ذراعا وسبعة عشر اصبعا ، فشرقت البلاد بسبب ذلك . وقد قال النصير الحمامى فى هذه الواقعة :

ان عجل النوروز قبل الوفا
عجل للعالم صفع القفا
فقد كفى من دمعهم ما جرى
وما جرى من نيلهم ما كفى

ثم ان العوام صنعوا كلاما ولحنوه ، وصاروا يغنونه فى اماكن التفرجات وغيرها ، وهو هذا :

سلطاننا ركين ونائبو دقين
يجينا الماء من اين
هاتوا لنا الأعرج يجى الماء يدحرج

وكان السلطان بيبرس الجاشنكير لقبه ركن الدين ، فسماه العوام « ركين » .

وكان الأمير سلار أجرد ، فى حنكه بعض شعرات ، لأنه كان من التتر ، فسماه العوام «دقين» .

وكان الملك الناصر محمد بن قلاون به بعض عرج ، فسماه العوام « الأعرج » .

فلما فشا بين الناس هذا الكلام بلغ السلطان بيبرس ، فرسم بقبض جماعة من العوام نحو ثلثمائة انسان ، فضرب منهم جماعة بالمقارع ، وأشهرهم فى القاهرة ، ورسم بقطع ألسنة جماعة منهم .

ثم ان السلطان بيبرس بلغه عن بعض الأمراء أنهم كاتبوا الملك الناصر وهو بالكرك ، فقبض على جماعة منهم ونفاهم الى ثغر الاسكندرية ، وقبض على جماعة من المماليك السلطانية ونفاهم نحو قوص ، وكانوا نحو ثلثمائة انسان ، فلما وقع ذلك من الملك المظفر نفرت منه قلوب الرعية من الترك والعوام ، واختار كل أحد من الناس عود الملك الناصر محمد .

ثم صار جماعة من المماليك الناصرية ينسحبون تحت الليل ويتوجهون الى الملك الناصر بالكرك ، ويتركون بيوتهم وأولادهم . فلما بلغ الملك المظفر بيبرس ذلك أرسل الى الملك الناصر محمد ، الأمير مغلطاى والأمير قطلوبغا وبيدهما كتاب الى الملك الناصر ، مضمون تلك المطالعة تهديد الملك الناصر ووعيده بكل سوء ، وأرسل يقول له : « ان لم ترجع عن مكاتبتك الى الأمراء ، والا جرى عليك كما جرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ونفيهم الى القسطنطينية ... وأنت تعلم ذلك فلا تحوجنا الى أن نفعل ذلك كما فعل أخوك الأشرف خليل بأولاد الظاهر بيبرس » كما تقدم . فلما وصلت مطالعة الملك المظفر الى الملك الناصر محمد اشتد غضبه على الأمير مغلطاى وقطلوبغا اللذين أرسلها الملك المظفر ، وضرب الأمير مغلطاى بالمقارع لأنه أغلظ عليه فى القول ، ثم اعتقله هو والأمير قطلوبغا فى الجب .

ثم ان الملك الناصر أرسل مكاتبة الى نائب حلب والى نائب طرابلس ، والى نائب صفد ، والى نائب حماة ، يقول لهم فيها : « لما اشتد علىّ الضنك من الأمراء خرجت لهم من مصر ، وتركت لهم الملك ، ورضيت من الدنيا بأحقر المساكن وأضيق الأماكن ليستريح خاطرى من النكد ... فما تراجعوا عنى ، وارسل المظفر يهددنى بالنفى الى القسطنطينية مثل أولاد الظاهر بيبرس البندقدارى ، وأرسل يطلب منى مالاً لا أقدر عليه . وأنتم تعلمون ما لوالدى الملك المنصور عليكم من حق العتق والتربية . وما أظنكم ترضون لى بهذا الحال . فاما أنكم تكفون عنى أذى هؤلاء الأمراء الذين يتعصبون على ، واما أنى أتوجه الى بعض بلاد التتار وألتجىء اليهم قبل ما يرسلنى الملك المظفر الى بلاد الكفار » .

ثم أرسل الملك الناصر الى النواب مطالعة الملك المظفر التى أرسلها له بالتهديد ، وكان الذى توجه الى النواب بمطالعة الملك الناصر شخصا يسمى

تاج الدين أوزان من أبناء العجم . فلما وصلت هذه المطالعات الى النواب أخـذتهم الحمية على ابن أستاذهم ، وتعصبوا له ، وأرسلوا يقولون له : « متى أردت أن تتحرك الى التوجه الى مصر فنحن طوع يدك ومماليك أبيك » ... فلما عاد الجواب الى الملك الناصر بذلك أخذ فى أسباب التوجه الى مصر ، فخرج من الكرك ومعه جماعة من العربان ، فلما وصل الى البرج الأبيض من أعمـال البلقـاء أرسل نائب الشام أقوش الأفرم يعرف الملك المظفر بذلك ، وكان نائب الشام هذا من عصبة المظفر ، فلما وقف الملك المظفـر على مطالعة نائب الشام وتشاور مع الأمير سلار النائب عينوا الى الملك الناصر تجريدة ، وعينوا بها من الأمراء الأمير سيف الدين بلغار — صهر الملك المظفر — والأمير عز الدين أيبك البغدادى ، والأمير شمس الدين الدكز السلحدار ، والأمير أقوش الذى كان نائب الكرك ، وعين معهم ألفى مملوك من المماليك السلطانية .

ثم ان الملك المظفر أنفق على العسـكر المعين للتجريدة ، فجهزوا أمرهم فى سبعة أيام ، ثم خرجوا من القاهرة يوم السبت تاسع رجب من سنة تسع وسبعمائة . فلما نزلوا بالريدانية أقاموا هناك يوما وليلة ، ثم عادوا الى القـاهرة . وكان سبب عود الأمراء أن ورد كتاب من عند نائب الشام بأن الملك الناصر تسلم الشام ودخل اليها فى موكب عظيم وزينت له ، وكان يوم دخوله يوما مشهودا ، وأن جميع النواب دخلوا تحت طاعته ومشوا فى ركابه ، وهم : نائب طرابلس ، ونائب حماة ، ونائب صفد ، ونائب حمص ، وكل نائب بعسكر ... فدخل الى الشـام فى موكب عظيـم ، وكان الأمير بهـادر — المعروف بالحاج بهادر — حامل القبة والطير على رأسـه الى نزوله بالقصر بميـدان دمشق ، فحضر اليـه السنجرى نائب قلعة دمشق بسماط عظيم . ثم ان الملك الناصر خلع على الأمير أقوش الأفرم ، وأقره نائب الشام على عادته ، وخلع على الأمير اسـتدمر كرجى وأقره نائب طرابلس على عادته ، وخلع على الأمير تمر الساقى وأقره نائب حمص على عادته ، وخلع على نائب حمـاه وأقره على عادته ، ثم حضر الأمير قرا سنقر المنصورى نائب حلب وصحبته العساكر الحلبية ، فخلع عليه وأقره على عادته فى نيابة حلب .

ثم لما كان يوم الجمعة خطب باسم الملك الناصر فى ذلك اليوم على منابر دمشق ، فلما بلغ الملك المظفر بيبرس ذلك كله اضطربت أحواله ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ونسى حلاوة اللحم بمـرارة الأشنان ، وقد قال القائل فى المعنى :

ياطالب الدنيـا الدنية ، انهـا
شرك الردى وقـرارة الأكـدار
دار متى ما أضحكت فى يومها
أبكت غـدا ... تبا لها من دار !

فلما كان يوم الثلاثاء سادس عشر شهر رمضان دخل المقر السيفى سلار النائب ومعه جماعة من الأمراء الى الملك المظفـر بيبرس ، وقالوا له : « يامولانا السلطان ، ان غالب الأمراء والمماليك السلطانية قد تسحبوا من القـاهرة وتوجهوا الى الملك الناصر ، وقد وقع الاختيار على عوده ، ومن الرأى أن ترسل الى الملك الناصر لتسأله فى مكان تتوجه اليه أنت وعيالك فلعله أن يجيبك الى ذلك . وان لم تبادر الى هذا والا دهمتك العساكر وهجموا عليك وأنت هنا » . فقال له المظفر : « ومن يتوجه الى الملك الناصر بهذه الرسالة ؟ » . فأشار عليـه الأمـراء بالأمير بيبرس الدوادار الكبير والأمير بهادر آص ، فكتب معهما الملك المظفر كتابا الى الملك الناصر وهو يترفق به فيه ، ويسأله أن ينعم عليه بمكان يتوجه اليه هو وعياله : اما الكرك ، واما صهيون ، واما حماه .

ثم ان الملك المظفر أحضر القضاة الأربعة ، وخلع

نفســه من الملك وأشهد عليه بذلك ، وجهز ذلك الاشهاد على يد الأمير بيبرس والأمير بهادرآص ، وخرجا من يومهما وتوجها الى الشام .

ومن عجائب الاتفاق أن الساعة التى خلع فيها الملك المظفر نفسه من الملك كانت هى الساعة التى ركب فيها الملك الناصر من الشام وخرج قاصدا نحو الديار المصرية ، ودام فيها الملك الناصر فى السلطنة مدة طويلة الى أن مات على فراشه كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه . فلما توجه الأميران المذكوران الى الملك الناصر برسالة الملك المظفر ، أقام الملك المظفر بعد ذلك أياما وهو على جمرة نار ، لايقر له قرار . ثم دخل خزائن بيت المال ، وأخـذ منها ما قدر عليه من الأموال والسـلاح والتحف ، وعين معه من المماليك الذين هم من مشترياته سبعمائة مملوك ، وأخذ صحبته الأمير بكتوت الفتــاح ، والأمـير أيدمـر المعـروف بالحظيرى ، والأمير قجماس .

فلما كان يوم الأربعاء سادس عشر شهر رمضان نزل الملك المظفر من القلعــة بعد العشــاء من باب القرافة ، وأخذ معه من الأسطبل الساطانى ثلاث طوائل خيل من الخيول الخواص . فلما بلغ العوام نزوله من القلعــة اجتمعوا ، ووقفوا له عند باب القرافة ، ورجموه بالحجارة والمقاليع ، وسبوه سبا قبيحا ... فلولا أنه شعلهم بشىء من الفضة نثرها عليهم والا كانوا قتلوه لا محــالة ، فانه كان قد أفحش فى حق العوام وشوش على جماعة منهم كما تقــدم ذكر ذلك .

فلما خلص منهم توجه من بركة الحبش الى نحو أطفيح ، وقصد التوجه الى نحو أسوان .

فلما أصبح الصبــاح أشيع هروب الملك المظفر ونزوله من القلعــة . فلما جرى ذلك دخل الأمير سلار النائب ، وختم على خزائن بيت المال ، وأطلق من كان مسجونا من الأمراء فى الأبراج بالقلعة .

ثم انه أرسل يكاتب الملك الناصر بما جرى من أمر الملك المظفر بيبرس ، وأرسل كتابا بهذه الواقعة على يد الطنبغا الجمدار .

ولما كان يوم الجمعة خطب بأسم الملك الناصر على منابر القاهرة قبل دخوله اليها .

هذا ما كان من أخبار الملك المظفر بيبرس ... وأما ما كان من أمر الملك الناصر فانه لما خرج من الشام ووصل الى غزة لاقاه الأمير بيبرس الدوادار والأمير بهادر آص اللذان أرسلهما الملك المظفر ، فقدما اليه مطالعة الملك المظفر والخلع الذى أشهد به على نفســه . فلما رأى ذلك الملك الناصر فرح وقال : « الحمد لله الذى صان دماء المسلمين عن القتــال ! » . وخلع على ذينك الأميرين الخلــع السنية .

ثم ان الملك الناصر كتب أمانا وأرسله الى الملك المظفر على يد الأمير بيبرس والأمير بهادرآص ، وعادا الى مصر فوجــدا الملك المظفــر توجه الى أطفيح . فلما رأيا ذلك أرسلا له ذلك الأمان وهو فى أطفيح ... فكانت مدة غيبة الأميرين سبعة أيام ذهابا وايابا الى أن عادا بالجواب .

ثم ان الملك الناصر خرج من غزة ، وجــد فى السير فوصل الى بركة الحاج فى سلخ شهر رمضان فعيد هناك ، فخرج اليه الأمير سلار النائب وقبل له الأرض ، وكذلك سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر والقضاة الأربعة وأعيان الناس . ثم ان الملك الناصر صلى صــلاة العيد هنــاك ، وطلع الى القلعة فى موكب عظيم ، وحملت القبة والطير على رأسه ، وفرشت تحت حوافر فرسه الشقق الحرير من بين الترب الى أن طلع الى القلعــة وجلس على سرير الملك ... وقد قال القائل فى المعنى :

فاستبشرت مصــر وهنــأ بعضهــا
بعضــا بعــودته الى الأوطـــان

عودُ الملكِ الناصر

عاد الملك الناصر محمد بن قلاون الى السلطنة ، وهى السلطنة الثالثة .

فلما كان يوم الخميس ثانى شوال سنة تسع وسبعمائة ، فيه عمل السلطان الموكب ، وطلع الى القلعة الخليفة المستكفى بالله سليمان ومعه القضاة الأربعة ، وبايع الملك الناصر بالسلطنة ، ولبس خلعة السلطنة — وهى جبة سوداء وعمامة سوداء بعذبة زركش وسيف بداوى متقلد به — فجلس على سرير الملك وجميع الأمراء من كبير وصغير قبلوا له الأرض وهو جالس فى الايوان الأشرفى . ثم خلع على سائر الأمراء والنواب الذين حضروا معه خلع الاستمرار ، وخلع على الخليفة المستكفى بالله سليمان والقضاة الأربعة وأرباب الدولة من أصحاب الوظائف

ثم فى ذلك اليوم قبل الأرض الأمير سلار النائب ، وطلب من السلطان أن يعفيه من النيابة ، وأن يقيم بالشوبك لأنها كانت جارية فى جملة اقطاعه ... فأجابه السلطان الى ذلك ، وخلع عليه خلعة السفر وخرج من يومه الى الشوبك ، فكانت مدة نيابته بالديار المصرية احدى عشرة سنة وأياما . وكان مستحقا للسلطنة أكثر من المظفر بيبرس الجاشنكير ، ولكن كان سلار قانعا بالنيابة . وهو نافذ الكلمة ، وافر الحرمة ، كثير المال ... فقنع بذلك عن السلطنة كما قيل فى المعنى :

اذا منعتك أشجار المعالى
جناها الغض فاقنع بالشميم

ثم ان السلطان عمل الموكب الثانى ، وخلع على الأمير بكتمر الجوكندار واستقر به نائب السلطنة عوضا عن سلار . ثم ان السلطان أرسل الأمير بيبرس الدوادار والأمير بهادرآص الى الملك المظفر بيبرس ، وكان قد توجه نحو اخميم من أعمال الصعيد . فلما اجتمعا به تلطفا معه فى القول حتى استخلصا منه ما كان أخذه من بيت المال من الأموال والتحف ، وكذلك ما كان أخذه من الخيول الحواص ، وأخذا منه ما كان معه من المماليك ، ثم قالوا له ان السلطان يقول لك : « امض الى الكرك وأقم بها ، وهو يرسل اليك من هناك عيالك وأولادك » . فقال الملك المظفر : « السمع والطاعة » . ورحل من يومه وتوجه من هناك من طريق السويس .

ثم ان الأمير بيبرس الدوادار والأمير بهادرآص رجعا الى القاهرة ومعهما الأموال والخيول والمماليك الذين كانوا مع المظفر . فلما حضروا الى الملك الناصر وبلغه توجه المظفر من جهة السويس الى الكرك ، أرسل اليه الأمير استدمر كرجى وهو فى أثناء الطريق ، فقبض عليه وأحضره الى الأبواب الشريفة ، فطلع الى القلعة فى الليل ، وذلك فى ليلة الخميس رابع عشر ذى القعدة . فلما طلع الى القلعة أودعه السلطان فى البرج .

فلما كان صبيحة يوم الخميس وقت الظهر فى خلوة ، متل بين يديه ووبخه بالكلام ، وعدد له ما وقع من القبائح فى حقه ، ثم أمر بخنقه بين يديه فخنق بوتر حتى مات وقضى نحبه ، وذلك فى يوم الخميس رابع عشر ذى القعدة من سنة تسع وسبعمائة . فلما مات أرسله السلطان الى زوجته ، وأمر بأن يدفن فى تربة بالقرافة فدفن هناك مدة ... ثم ان بعض الأمراء تداخل على السلطان بأن ينقل ويدفن فى خانقاته التى أنشأها عند الدرب الأصفر بالقرب من خانقاه سعيد السعداء ، فكانت مدة سلطنة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير بالديار المصرية أحد عشر شهرا وأياما .

وكان بيبرس مليح الشكل ، أبيض اللون ، أشقر اللحية ، أشهل العينين ، وافر العقل ، حسن السيرة ، وكان كفؤا للسلطنة ، كثير البر والخير والمعروف والصدقات .

سنة عشر وسبعمائة (١٣١٠ م) :

فيها خلع السلطان على الأمير بكتمر الناصرى الحاجب واستقر به وزيرا .

ثم ان السلطان بلغه أن أخا الأمير سلار النائب وجماعة من الأمراء الذين هم من عصبة الأمير سلار يقصدون الوثوب على السلطان . فلما تحقق ذلك بادر وقبض على أولئك الأمراء الذين نقل عنهم أمر الوثوب — وكانوا نحو أربعة عشر أميرا — وقبض معهم على أخى الأمير سلار وأودعهم السجن .

ثم ان السلطان أرسل يكاتب سلار بما وقع من أخيه ، وأرسل الى سلار بالحضور الى القاهرة ليزول أمر القال والقيل من بين الناس . ثم ان السلطان أرسل فى هذه الرسالة الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، وأمره ان لم يجىء سلار طوعا يقبض عليه ويحضره كرها ، فأخذ سنجر الجاولى مراسم السلطان وتوجه الى سلار — وكان مقيما بالكرك وقيل بالشوبك — فلما وصل اليه الجاولى أجاب الى الحضور . فلما حضر الى الأبواب الشريفة ، أودعه السلطان فى السجن بالقلعة ، فأقام به أياما وأشيع موته . وكان أصله من مماليك الملك الصالح على بن قلاون ، وقد تقدم ذكر ذلك فى أخبار قلاون .

وقيل لما سجن الأمير سلار بعث اليه السلطان بطعام ، فلما وصل اليه الطعام ومثل بين يدى سلار أبى أن يأكل ، ورده على السلطان وأظهر الحمق . فلما بلغ السلطان ذلك منع عنه الأكل والشرب ، فأقام على ذلك أياما ، فلما تزايد به الجوع أكل أخفافه وهو فى السجن . ولما بلغ السلطان ذلك رق له وأرسل من يقول له ان السلطان قد رضى عليك ، ففرح وقام ومشى خطوات ثم وقع ميتا من شدة الجوع .

وكان سلار مربوع القامة ، غليظ الجسد ، أسمر اللون ، خفيف اللحية ، له بعض شعرات فى حنكه ... وكان من التتار ، وكان شديد البأس ، صعب الخلق ، قوى الغضب . وكان لطيف الذات فى ملبسه ، واليه ينسب السلارى الى الآن والمناديل السلارية . وقد اقترح أشياء كثيرة فى الملبوس وقماش الخيل وآلة الحرب ، وهى منسوبة اليه الى اليوم . وكان كثير البر والصدقات ، وله آثار ومعروف ، وكان فى سعة من المال والعيال مما لا يحصى لكثرته .

ولما مات سلار تولى أمر دفنه الأمير سنجر الجاولى ، ودفنه فى مدرسته الجاولية التى عند الكبش . ثم ان السلطان احتاط على موجوده فظهر له من الأموال والتحف ما لم يسمع بمثله فى خزائن الملك . قال الشيخ محمد الكتبى : « وقفت على قوائم بخط القاضى جمال الدين بن الغويرة تتضمن ما قد اشتملت عليه تركة الأمير سلار النائب — وذلك أول ما ضبط فى أول يوم وهو يوم الأحد سادس عشر جمادى الأولى من سنة عشر وسبعمائة — فمن ذلك صناديق افرنجى مصفحة بنحاس ضمنها فصوص ، منها فصوص ياقوت أحمر كهرمان رطلان ، وفصوص بلخش رطلان ونصف ، وفصوص زمرد بابى عشرون رطلا ، وفصوص ألماس وعين الهر ثلثمائة قطعة ، ولؤلؤ كبير مدور كل حبة وزن مثقال مائة وخمسون حبة . ووجد عنده صناديق فيها ذهب عين مائتا ألف دينار ، ومن الفضة أربعمائة ألف درهم وأحد وسبعون ألف درهم » .

ثم فى يوم الاثنين سابع عشره وجد له من الذهب العين خمسة وخمسون ألف دينار ، ومن الفضة ألف ألف درهم ، ومن الفصوص المختلفة رطلان ، ووجد له مصوغ من ذهب — ما بين خلاخيل وأساور — وزن أربعة قناطير مصرى . ووجد عنده صحون فضة وأطباق وأهوان ذهب وطشوت فضة وزن ستة قناطير .

ثم فى يوم الثلاثاء ثامن عشره وجد له من الذهب العين خمسة وأربعون ألف دينار ، ومن الفضة ثلثمائة ألف وثلاثون ألف درهم . ووجد عنده صحنات فضة للصناجق ؛ وقطريات فضة ثلاثة قناطير .

ثم فى يوم الأربعاء تاسع عشره وجد عنده من الذهب العين ألف ألف دينار ، ومن الفضة ثلثمائة ألف درهم . ووجد عنده أقبية حرير عمل الدار ملون بفرو سنجاب ... العدة أربعمائة قباء . ووجد عنده من السروج الذهب مائة سرج ، والكل بمياثر زركش على مخمل أحمر . ووجد له — عند صهره الأمير موسى — ثمانية صناديق لم يعلم ما فيها . ووجد له من الشقق الحرير الطرد وحش وغيره ألف شقة . ووصل صحبته من الكرك من الذهب العين مائة ألف دينار ، ومن الدراهم أربعمائة ألف درهم . ومن الخلع الملونة ثلثمائة خلعة . ووجد عنده من الخيام ست عشرة نوبة ، وحزكات خشب بغشاء أطلس أحمر مرقوم مزركش . ووجد عنده من الخيول الخاص ثلثمائة رأس دون الدشار ، ومن البغال مائة وعشرون قطارا ، ومن الجمال مائة وعشرون قطارا ... هذا كله خارج عما وجد له من الأملاك والضياع والمعاصر والشون والمراكب والعبيد والخدم والمماليك والجوارى وغير ذلك . ووجد عنده من الأغنام والأبقار ما لا يحصى . ووجد عنده من الغلال ثلثمائة ألف أردب فى الشون ... ومع هذا كله مات من شدة الجوع فى السجن بالقلعة ! ثم بعد أيام ظهر له مخبأة فى داره ظهر فيها أكياس ذهب لا يعلم لها عدد ، ووجد له فى بيت قريب من بيت الخلاء مخبأة فيها ذهب عين مسبوك بغير أكياس لا يعلم له عدد .

قيل كان متحصل الأمير سلار هذا فى كل يوم من أجرة أملاكه وضياعه ومستأجراته وحماياته مائة ألف دينار . ومن العجائب أن الأمير سلار أقام فى نيابة السلطنة بمصر احدى عشرة سنة ... فكيف حوى هذه الأموال العظيمة فى هذه المدة اليسيرة والذى يظهر لى اما أنه كان قد ظفر بكنز من كنوز القدماء ، واما أنه كان أخذ هذه الأموال والتحف من خزائن بيت المال عندما توجه الملك الناصر الى الكرك — وقد كانت مفاتيح بيت المال بيد سلار لا يمكن منها الملك الناصر بشىء — ولكن لما مات سلار رجع كل شىء لأصله ، وقد قيل فى المعنى :

اجمع وأنت من الدنيا على حذر
واعلم بأنك بعد الموت مبعوث
واعلم بأنك ما قدمت من عمل
محصى عليك وما خلفت موروث

وفى هذه السنة ، وهى سنة عشر وسبعمائة ، كانت وفاة الشيخ شمس الدين بن دانيال الحكيم ، وهو صاحب كتاب طيف الخيال . وكان شاعراً ماهرا وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله فى حرفته :

ياسائلى عن حرفتى فى الورى
وضيعتى فيهم وافلاسى
ما حال من درهم انفاقه
يأخذه من أعين الناس

وفيها توفى الشيخ شمس الدين السروجى ، شارح كتاب الهداية ، وكان من كبار الحنفية . وتوفى التوريزى محدث مكة .

سنة احدى عشرة وسبعمائة (١٣١١ م) :

فيها عظم أمر الملك الناصر محمد بن قلاون حين جاءت الأخبار من افريقية ببلاد الغرب أنه قد خطب باسمه فيها على المنابر . وكان سبب ذلك أن صاحب افريقية — وهو أبو يحيى اللحيانى — قدم على الملك الناصر فى هذه السنة ، وقال له : « أرسل معى عسكرا الى افريقية ، فاذا فتحت المدينة وملكتها ألتزم للسلطان بأن أقيم نفسى بها نائبا عن السلطان » ... فعين معه السلطان تجريدة نحو مائة مملوك ومعهم أمير عشرة ، فلما توجهوا نحو افريقية تسامعت بهم العربان وأهل النواحى ، فالتفت عليهم جماعة من العربان والمغاربة ، فعظم أمر أبى يحيى ومشى على بلاد تونس وغيرها من البلاد ، فحاصر مدينة افريقية حتى فتحها ، ودخل اليها وعلى رأسه الصناجق السلطانية والعساكر المصرية ، فطرد من كان بها وملكها وخطب فيها باسم الملك الناصر محمد بن قلاون كما قرر معه ، واستمر بها ورجع العسكر الى القاهرة وذلك فى شهر رجب من السنة المذكورة .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن السلطان خلع على الأمير كراى المنصورى ، واستقر به نائب الشام ، فأقام بها مدة يسيرة ، وأرسل فقبض عليه وأعاد الأمير أقوش الأفرم الى نيابة الشام وكان بالكرك . ثم ان السلطان قبض على الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة بمصر وسجنه ، وخلع على الأمير بيبرس الدوادار المنصورى واستقر به نائب السلطنة عوضا عن بكتمر الجوكندار .

وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن نائب الشام والأمير قرا سنقر المنصورى هربا من الشام وتوجها الى نحو بلاد التتار ، وقد بلغهما أن السلطان يروم القبض عليهما فهربا من أجل ذلك .

سنة اثنتى عشرة وسبعمائة (١٣١٢ م) :

فيها حضر رسل صاحب اليمن وصحبتهم هدايا عظيمة ، فقبلها السلطان وأكرم قصاده .

وفيها حضر ملك النوبة الى الأبواب الشريفة وصحبته هدايا عظيمة ، فمن جملة ذلك ألف رأس رقيق وخمسمائة جمل وخمسمائة بقرة خيسية .

وفيها قبض السلطان على الأمير بيبرس الدوادار الذى استقر نائب السلطنة وسجنه واستقر بالأمير أرغون الدوادار الناصرى فى نيابة السلطنة بمصر عوضا عن بيبرس الدوادار ، ثم خلع على الأمير تنكز الحسامى واستقر به نائب الشام عوضا عن أقوش الأفرم . قيل لما تولى الأمير تنكز نيابة الشام جعل السلطان نيابة دمشق أكبر من نيابة حلب — وكانت فى قديم الزمان نيابة حلب أكبر من نيابة الشام — ثم خلع على الأمير سودون الناصرى واستقر به نائب حلب عوضا عن الأمير قفجق المنصورى .

وفيها عمر السلطان الناصر جامعه المسمى بالجديد الذى عند موردة الحلفاء ، وكان النيل يجرى من تحته صيفا وشتاء . قيل لما أراد عمارة هذا الجامع نقل حجارته من صنم كان عند قصر الشمع يقال له السرية . قيل كان مقابل ذلك الصنم الذى عند الأهرام فى بر الجيزة الذى يقال له أبو الهول . قيل عمل من ذلك الصنم قواعد للأعمدة الكبار التى فى الجامع .

وفيها عمر السلطان سور الميدان الكبير الذى تحت القلعة ، وابتدأ بعمارة الميدان الكبير الذى عند موردة الجبس بالقرب من خليج أروى .

وفيها حضر مملوك نائب حلب وأخبر السلطان بأن التتار قد تحركوا على البلاد ، فلما تحقق السلطان ذلك عرض العسكر وأنفق عليهم فعبوا حالهم فى سبعة أيام ، ثم خرج السلطان من القاهرة فى أوائل شهر رمضان وقصد التوجه الى حلب بسبب التتار ، فلما وصل الى غزة وردت عليه الأخبار بأن التتار بلغهم مجىء السلطان فخافوا ورحلوا عن مدينة الرحبة وتوجهوا الى بلادهم ، وقد كسرهم نائب الرحبة كسرة قوية . فلما تحقق السلطان ذلك قوى عزمه بأن يسافر من هناك الى الحجاز الشريف ، وقد سميت هذه التجريدة « الكذابة » ... ثم ان السلطان رد جماعة من الأمراء والعسكر الى القاهرة ، وأخذ معه بعض أمراء ومماليك سلطانية وتوجه من هناك الى الحجاز الشريف . فلما قضى حجه رجع من هناك الى الشام وأقام بها الى أوائل شهر صفر من سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، فدخلها ثالث عشر صفر ، وكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت له المدينة زينة عظيمة ، وحملت على رأسه القبة والطير ، وفرشت له الشقق الحرير من التبانة الى القلعة ، ومشت الأمراء بين يديه حتى طلع الى القلعة ، وكان له موكب عظيم وهذه هى الحجة الأولى .

وفى أثناء السنة — وهى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة — كانت وفاة الشيخ نصير الدين الحمامى وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

كدرت حمامى بغيبتك التى
تكدر فيها العيش من كل مشرب
فما كان صدر الحوض منشرحا بها
وما كان قلب الماء فيها بطيب

وقال فى المعنى :

لى منزل معروفه ينهل غيثا كالسحب
أقبل ذا العذر به وأكرم الجار الجنب

وفى هذه السنة توفى أبو جبارة شارح « الشاطبية » ، وكان من أعيان العلماء .

سنة ثلاث عشرة وسبعمائة (١٣١٣ م) :

فيها سافر السلطان الى نحو بلاد الصعيد لتمهيد البلاد ، فان العربان كانوا قد زادوا فى الفساد . فلما توجه السلطان هناك ضيق عليهم حتى رحلوا الى الجبال ، فماتوا من الجوع والعطش ، فأسر منهم نحو النصف وحملهم الى القاهرة فى مراكب وهم فى الخشب ، فسجن منهم جماعة واستعمل منهم جماعة أخر فى حفر الجسور وهم فى جنازير حديد .

ولما عاد السلطان من بلاد الصعيد أقام عند الأهرام فى بر الجيزة آياما على سبيل التنزه — وكان ذلك فى شهر رمضان — فلما قرب عيد الفطر طلع الى القلعة وعيد بها .

وفى هذه السنة شرع السلطان فى روك البلاد الشامية — وهو الروك الناصرى — فأمر باحضار كتاب الجيوش الشامية ، وحضر نائب غزة وجماعة من الأجناد الشامية والغزاوية ، وتكلموا فى ذلك وكتبوا المثالات والمناشير وأرسلوها على يد الأمير قجليس السلحدار . ولما وصل الى الشام سلم الأوراق والمناشير الى نائب الشام ففرقها على العساكر الشامية .

وفى هذه السنة تحولت سنة اثنتى عشرة وسبعمائة الخراجية ، الى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة الهلالية .

سنة اربع عشرة وسبعمائة (١٣١٤ م) :

فيها شرع السلطان فى عمارة القصر الأبلق الذى

بقلعة الجبل ، وهو عبارة عن ثلاثة قصور متداخلة فى بعضها ، وهى خمس قاعات وثلاثة مراقد .

قال بعض المؤرخين ان الملك الناصر محمدا هذا أكمل عمارة هذه القصور الثلاثة المتداخلة فى عشرة أشهر ، فلما انتهى العمل جمع فيها سائر الأمراء حتى القضاة الأربعة ، وقرأ فيها ذلك اليوم ختمة ، ومد بها سماطا عظيما ، وملأ الفسقية التى فى القصر الكبير سكرا بماء ليمون ، فأكل من ذلك السماط الخاص والعام ، وأحضر السلطان للأمراء القمز فشربوا منه ، ووقف رءوس النواب على الفسقية يملأون السكر للناس بالطاسات . وخلع السلطان فى ذلك اليوم على المعلمين والمهندسين والمرخمين والنجارين والفعلة نحوا من ألفين وخمسمائة خلعة ، ما بين متمرات وكوامل وخلع وأقبية وغير ذلك ، وفرق من الأموال على الفقراء فى ذلك اليوم نحو خمسين ألف دينار ، وكان ذلك اليوم يعرف بالسلطانى ... ذكر ذلك صاحب كتاب زبدة الأفكار فى أخبار الملك الناصر .

سنة خمس عشرة وسبعمائة (١٣١٥ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن تنكز نائب الشام جمع سائر النواب وتوجه الى نحو ملطية ، فحاصر أهلها ومن كان بها من الأرمن ، فطلبوا منه الأمان ، ففتحها بالأمان فى يوم الاثنين الثانى والعشرين من المحرم من سنة خمس عشرة وسبعمائة .

وفى هذه السنة راك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون البلاد المصرية — وهو الروك الناصرى بعد الروك الحسامى — فزاد عن الروك الحسامى فى مواضع ونقص فى مواضع .

وفى هذه السنة — وهى سنة خمس عشرة وسبعمائة — كانت وفاة الشيخ شمس الدين محمد ابن العفيف ، وكان مولده سنة اثنتين وستين وستمائة ، فكانت مدة حياته ثلاثا وخمسين سنة . وكان شاعرا ماهرا ، رقيق الشعر والنظم ، وله شعر جيد ، فمن تغزلاته اللطيفة قوله :

ياساكنا قلبى المعنى ... وليس فيه سواه ثانى
لأى معنى كسرت قلبى ... وما التقى فيه ساكنان

سنة ست عشرة وسبعمائة (١٣١٦ م) :

فيها جرد السلطان العساكر نحو صحراء عيذاب بأعالى بلاد الصعيد بسبب فساد العربان ، فخرج فى هذه التجريدة ستة أمراء مقدمين وألفا مملوك ، فتوجهوا الى بلاد البجاة وجاوزوا الأقاليم الثلاثة فلم يظفروا بأحد من العربان العصاة ، فرجعوا الى القاهرة من غير طائل . وكان قوت العسكر فى هذه التجريدة الذرة والماء من الحفائر ، وكانت العرب فى الجبال فلم يظفروا منهم بأحد يلوح .

وفى هذه السنة كانت وفاة الشيخ علاء الدين ابن المظفر الكندى الشهير بالوداعى ، وكان مولده سنة أربعين وستمائة ، ووفاته سنة ست عشرة وسبعمائة ، فكانت مدة حياته ستا وسبعين سنة . وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

لقد سمح الزمان لنا بيوم
غدا فيه السمى مع السمىّ
تجمعنا كأنا ضرب خيط
علىّ فى علىّ فى علىّ

سنة سبع عشرة وسبعمائة (١٣١٧ م) :

فيها جرد السلطان العساكر الى نحو مدينة أحد ، فطرقوها على حين غفلة ، فهرب أهلها منها ، فملكها عسكر مصر من غير محاصرة .

وفى هذه السنة توجه السلطان الى غزة ، وتوجه من هناك الى زيارة بيت المقدس فزاره ، ثم توجه

الى زيارة الخليل عليه السلام فزاره ، ثم رجع الى الديار المصرية وذلك فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

وفى هذه السنة وفى النيل فى التاسع والعشرين من أبيب وزاد عن الوفاء نصف ذراع ، فكسر بعد العصر خوفا من قوة عزم الماء .

وفيها أمر السلطان بتوسعة الجامع الذى فى القلعة ، فوسعه وبنى به المئذنة الخضراء ، وزخرفه بالرخام الملون وبنى به القبة الخضراء ، وقيل انتهت منه العمارة فى أربعة أشهر وخمسة وعشرين يوما .

سنة ثمانى عشرة وسبعمائة (١٣١٨ م) :

فيها جرد السلطان العسكر الى نحو برقة بسبب فساد العربان لأنهم قد منعوا غنم الزكاة وأظهروا العصيان ، فجرد اليهم السلطان وأخذ أغنامهم وجمالهم وقتل منهم جماعة وهرب الباقون الى نحو بلاد الغرب .

وفى هذه السنة أجرى السلطان ماء النيل من البحر الى قلعة الجبل ، وعمل مجراة جارية على قناطر مبنية بالحجر ، وركز للمياه آبارا ، وجعل عليها سواقى نقالة فى عدة أماكن .

وفى هذه السنة عمر السلطان الحوش الكبير الذى بالقلعة وزرع به بستانا ، ونقل اليه الأشجار والرياحين من سائر الأماكن حتى من البلاد الشامية ومن مكة ، وطلع فيه الكادى وجوز الهند وغير ذلك من الفواكه .

وفى هذه السنة قوى عزم السلطان على أن يحج فى تلك السنة — وهى الحجة الثانية — فعين معه جماعة من الأمراء المقدمين اثنى عشر أميرا ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات ثلاثين أميرا . وحج مع السلطان فى تلك السنة الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماه ، وحج صحبة السلطان من المباشرين القاضى علاء الدين بن الأثير كاتب السر الشريف ، والقاضى فخر الدين ناظر الجيوش المنصورة ، والقاضى كريم الدين ناظر الخواص الشريفة ، وغير ذلك من المباشرين ... فخرج السلطان من القاهرة فى تاسع ذى القعدة ، فجدّ فى السير حتى دخل الى مكة قبل الصعود بثلاثة أيام ، فكنس مكان الطواف ومسحه بيده ، ثم صعد الى الجبل وقضى مناسك الحج ورجع الى مكة وأقام بها أياما وفرق على الفقراء الذين بمكة جملة من المال ، وأبطل أشياء كثيرة من المكوس التى كانت بمكة .

ثم توجه الى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل المدينة الشريفة وهو ماش على أقدامه حافيا . فلما دخل المدينة فرق على الفقراء خمسين ألف دينار ، ثم توجه الى نحو القاهرة فدخلها فى أوائل صفر ، وكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهوداً .

سنة تسع عشرة وسبعمائة (١٣١٩ م) :

فيها تزوج السلطان بنت أزبك خان صاحب الموصل ، فحضرت من بلاد الشرق الى مصر فى محفة مرقومة بالذهب ، فطلعت الى القلعة وكان لها مهم عظيم ، ودخل عليها السلطان وحظيت عنده .

وفى هذه السنة كانت وفاة الشيخ شهاب الدين محمود أبى الثناء . وكان عالما فاضلا ، ناظما ناثرا ، وله شعر جيد ونثر رقيق ، فمن شعره قوله :

لقد سلبوا نومى ولم تدر مقلتى
وقد سلبوا قلبى ولم تشعر الأعضا
وطلقت نومى والجفون حوامل
فمن أجل ذا فى الخد أبقت لنا فرضا

سنة عشرين وسبعمائة (١٣٢٠م) :

فيها جرد السلطان العساكر الى مدينة سيس ، فطردوا من كان بها من الأرمن وملكوها ، وأقاموا بها نائبا من قبل السلطان ثم رجعوا الى القاهرة وهم فى غاية النصرة .

وفى هذه السنة توفى قاضى القضاة جلال الدين القزوينى .

سنة احدى وعشرين وسبعمائة (١٣٢١م) :

فيها حجت خوند زوجة الملك الناصر — وهى خوند طغاى أم ولده أنوك — فحج معها القاضى كريم الدين ناظر الخاص ، وكان أمير المحمل فى تلك السنة الأمير قجليش أمير سلاح وجماعة من الأمراء العشراوات ، فخرجت من القاهرة فى ثامن شوال ، وحجت فى محفة مرقومة بالذهب ، وسافر صحبتها الكثوسات والعصائب السلطانية ، فحجت ورجعت الى القاهرة فى عاشر المحرم ، فنزل السلطان الى تلقيها ، فتلقاها من بركة الحاج ، ودخلت فى موكب عظيم والأمراء مشاة قدام محفتها حتى طلعت الى القلعة .

وفى هذه السنة جرد السلطان العساكر الى قلعة اياس ومدينة سيس ... وذلك أنه لما رحل عنها عسكر السلطان ورجعوا الى القاهرة رجعت اليها الأرمن وطردوا النائب الذى كان فيها من قبل السلطان ، فلما بلغ السلطان ذلك أرسل اليها تجريدة عظيمة كان بها من الأمراء الأمير طرجى أمير مجلس ، والأمير ألماس حاجب الحجاب — وهو صاحب الجامع الذى بالقرب من سوق الغنم — والأمير بهادر آص ، والأمير سنجر الجمقدار ، والأمير كجكر العلمى ، والأمير أقوش الأشرفى ، وغير ذلك من الأمراء العشراوات ، وألفان من المماليك السلطانية . ولما وصلوا الى سيس حاصروها أشد المحاصرة حتى هرب من كان بها من الأرمن ، وقتلوا من أهلها ما لا يحصى عدده ، وفتحوها بالسيف ، وأخربوا سورها وتركوها خاوية على عروشها ، وزال عنها زخرفها ونقوشها ، وجعلوا بها نائبا قد رماه الدهر فى النوائب . وعن لسان نائب سيس يقول بعض الشعراء :

قالوا اجعلوا فيها لنا نائبا
جيوش سيس ... قلت رأى تعيس
لو أن ذا الحاكم فى سلطنة
ما تركونى أبقى بسيس

ثم رجع العسكر المصرى الى القاهرة وتركوا نائب سيس تحت مكتوبه .

وفى هذه السنة رسم السلطان الملك الناصر بعمارة ميدان المهارة الذى عند قناطر السباع ، وأنزل أمير أخور كبير لعمارته ، فعمره بالطوب اللبن واتنجز العمل منه فى أسرع مدة .

سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة (١٣٢٢م) :

فيها تغير خاطر السلطان على القاضى كريم الدين ابن السديد — ناظر الخواص الشريفة — فقبض عليه وعلى ولده ، وقد كان نال من العز ما لم ينله جعفر البرمكى فى أيام هارون الرشيد ، وكان الملك الناصر قد صير له التصرف فى الخزائن والأموال من غير حرج ، فكانت الأمراء والأعيان يركبون فى خدمته ، وينزلون معه الى بيته . ولما تغير خاطر السلطان عليه احتاط على موجوده ، واستصفى أمواله وذخائره ولم يترك له لا قليلا ولا كثيرا ، وصادر نساءه وغلمانه وحاشيته ، ثم بعد ذلك نفاه الى نحو الشوبك هو وولده .

ثم ان السلطان خلع على القاضى تاج الدين ابن عبد الوهاب واستقر به ناظر الخواص الشريفة عوضا عن كريم الدين . ثم ان السلطان نقل القاضى

كريم الدين من الشوبك الى أسوان من أعمال بلاد الصعيد ، فتوجه من هناك وهو مقيد بالحديد وسجن هناك فى أسوان ، فأقام فى السجن مدة يسيرة ومات ... قيل انه عمد الى خشبة وعمل فيها حبلا وخنق به نفسه ، فمات وهو فى السجن بأسوان . فلما مات أحضر السلطان ولده وعاقبه وقرره على الأموال والذخائر فأظهر مخبأة فى دهليز بيته فوجد فيها من الذهب العين مائتى ألف دينار ، ومن الفصوص والتحف ما لا يحصى ... هذا بعد ما أخذه السلطان منه فى المصادرة أولا وثانيا ، فكان كما قيل فى المعنى :

احذر مداخلة الملوك ولا تكن
ما عشت بالتقريب منهم واثقا

فالغيث غيثك ان ظمئت وربما
ترمى بوارقه اليك صواعقا

وحكى بعض المؤرخين عن القاضى كريم الدين هذا أنه شرب فى بعض الأيام دواء ، فجمع وردا كان فى القاهرة ففرش منه فى داره ما قدر عليه حتى فى دهاليز بيت الخلاء وعلى الملاقى ، وداس منه الناس ما داسوا ، وأخذوا منه ما أخذوا ، ثم ان العبيد والغلمان أخذوا ما فضل من ذلك الورد فباعوه بخمسة آلاف درهم . وكان القاضى كريم الدين له بر ومعروف ، وأنشأ جامعا بجزيرة أروى ، وأنشأ خانقاه بالقرافة الصغرى ، ووقف عليها الأوقاف الجليلة . وفيه يقول ابن نباتة :

يا كريما موافق الاسم للفعـ
ـل وأنسى فى الفضل كل قديم

لا تخف نبوة الحوادث فالله
كريم يحب كل كريم

وقيل مات القاضى كريم الدين وله من العمر نحو من ستين سنة .

سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة (١٣٢٣م) :

فيها ابتدأ الملك الناصر محمد بن قلاون بعمارة خانقاه سرياقوس . قيل ان الملك الناصر رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وأشار عليه أن يبنى فى هذا المكان خانقاه ، فبنى هذه الخانقاه . فلما كملت قرر بها الصوفية ، ووضع فى هذه الخانقاه ربعة مكتوبة بالذهب مثل الربعة التى فى خانقاه بكتمر التى بالقرافة ، وجعل فيها حضورا ، وقرر الشيخ مجد الدين الأقصرائى شيخا بها وكان من كبار العلماء . فلما كملت العمارة نزل السلطان هناك وعمل بها وليمة عظيمة ، وحضر فيها القضاة الأربعة وأعيان الناس من العلماء .

ثم ان السلطان عمر حول هذه الخانقاه البيوت الجليلة ، ورغبوا فى سكناها ، وصارت مدينة على انفرادها ، وتزايدت فى العمارة ، وبنى بها الملك الأشرف برسباى مدرسة عظيمة وجعل فيها خطبة ، وبنى فيها عدة مساجد ، وكان الملك الناصر محمد بن قلاون قرر بهذه الخانقاه جماعة آفاقية قاطنين بها ليس لهم حرفة ، وفى ذلك يقول المعمار :

قد صار فى الخانقاه عرف
من فعلهم وهو شر عادة

لا يدفعون النصيب فيها
الا لمن يترك الشهادة

سنة اربع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٤م) :

فيها حضر الى الأبواب الشريفة موسى ملك التكرور وصحبته هدايا جليلة الى السلطان . وسبب توجهه الى مصر أنه قصد الحج فى تلك السنة فحج ورجع الى بلاده .

وفى هذه السنة رسم السلطان بحفر الخليج الناصرى . وسبب ذلك أن الخليج القديم ، المسمى بخليج الذكر ، كان قد تلاشى أمره وعمى ، فأمر

السلطان بحفر هذا الخليج ، وجعل مبدأه من عند موردة الجبس الى أن أوصله بالخليج الحاكمى من عند زقاق الكحل ، ثم وزع حفره على جماعة من الأمراء بالقصبة الحاكمية . وسبب ذلك أن الأمراء الذين تعاونوا على حفره كان لهم بلاد تنتفع بالرى من هذا الخليج ، فوزع السلطـان حفره عليهم ، فاحتفلوا به وحفروه حتى نبع الماء من أرضه ، وانتجز منه العمل فى مدة شهرين . فلما أخذوا فى اسباب حفره أرادوا أن يوصلوه بالخليج الحاكمى من كوم الريش ، فأشار عليهم شخص من الصالحين يقال له الشيخ على الرطلى بأن يمشوا به من بركة قرموط ، فعطفوا به من عند القنطرة العسراء ومشوا به الى الخليج الحاكمى وطلعوا من قبالة زقاق الكحل . والى الشيخ على الرطلى تنتسب بركة الرطلى ، وكان هذا المكان قديما يعرف بأرض الطبالة . فلما مشى هذا الخليج الناصرى بالماء جاء أحيا من خليج الذكو وأكثر مياها . قيـل لما أوفى النيـل فى تلك السنة ودخل الماء الى الخليج الناصرى كان له يوم مشهود ، ونزل السلطان واجتمع الأمراء يوم كسر سده ، وفى ذلك يقول الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى :

ولرب أقطـع قـال لى بيتا وقد
كسر الخـليج وجاء كالطـوفان
أجرى لنا السلطان بحرا ثانيـا
مالى بشـــكر نوالهن يدان

وفى هذه السنة ابتـدأ الأمير بكتمر ـــ حاجب الحجاب ـــ بحفر بركته المعروفة الآن ببركة الرطلى ، وأجرى اليها الماء من الخليج الناصرى ، وعمل لها جسرا بينها وبين الخليج . وأرض البركة جارية الى الآن فى وقف الأمير بكتمر الحاجب .

وفى هذه السنة برزت المراسيم الشريفة الى نائب حلب بأن يروك البلاد الحلبية كما فعل فى البـلاد الشامية ، فخرج أمير من الأمراء العشراوات ومعه جمـاعة من المباشرين بسبب ذلك ، فتوجهوا من القاهرة الى حلب وراكوا البلاد الحلبية حكم البلاد الشامية ، فجميع البلاد المصرية والشامية والحلبية الآن فى الروك الناصرى .

سنة خمس وعشرين وسبعمائة (١٣٢٥ م) :

فيها رسم السلطان بابطال الضرب بالمقارع من سائر أعمال مملكته ، وكتب بذلك مراسيم شريفة وقرئت على منابر مصر والشام بابطال ذلك .

وفى هذه السنة وقع الغلاء بمصر وسائر أعمالها ، وتشحطت الغلال وماجت الناس على بعضها .

وفى هذه السنة أجرى السلطان عين ماء بمكة ـــ وهى العين المعروفة بعين بازان ـــ فحصل لأهل مكة بهـا غاية النفـع ، وهى الى الآن جارية يعم نفعها أهل مكة .

سنة ست وعشرين وسبعمائة (١٣٢٦ م) :

فيها عمل السلطان الموكب ، وقبض على الأمير طشتمر المعروف بحمص أخضر ، وقبض على الأمير قطلوبغا الفخرى . فأما الأمير طشتمر حمص أخضر فشفع فيه الأمراء ، فأفرج عنه السلطان من يومه وأما الأمير قطلوبغا الفخرى فأرسله السلطان الى دمشق بطالا . واستمر طشتمر ممقوتا عند السلطان فانه كان شديد البأس ظالم الصورة ، وفيه يقول المعمار رحمه الله تعالى :

لمـا طغى طشتمر واعتـــدى
تفـاءل النـــاس بأفوالهـا
دنا حصاد الحمص المعتـدى
ولم تـزل مصر بأفوالهــا

وفى هذه السنة عمرت القرية المعروفة بالنحريرية من أعمال الغربية ، وكان سبب انشائها أن الأمير

شمس الدين سنقر السعدى — نقيب الجيوش المنصورة — كانت هذه الأرض فى اقطاعه جارية ، فعمر بهـا الأمير سنقر السعدى جامعا وطاحونا وخانا ، ثم تزايدت فى العمارة وسكن بها جماعة كثيرة من الفلاحين ، فبلغ خراجها فى كل سنة خمسة عشر ألف دينار ، فبلغ ذلك الملك الناصر ، فأخذها من الأمير سنقر السعدى وصارت من جملة بلاد السلطان ، وتزايدت فى العمارة حتى صارت بلدا كرسيا .

سنة سبع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٧ م) :

فيها توفى الأمير سنقر السعدى — نقيب الجيوش — عند حدرة البقر المسماة بالسعدية .

وفى هذه السنة أمر السلطان باحضار القاضى محيى الدين بن فضل الله العمرى — كاتب سر الشام — فلما حضر الى الأبواب الشريفة خلع عليه السلطان ، واستقر به كاتب السر الشريف بمصر . وهو الذى يقول فيه الشيخ جمال الدين بن نباتة :

يا سائلى عن كاتب السر الذى
يعزى علاه الى أب أواه
هذاك غيث الله محيى الأرض من
بعد الممات ، وذاك فضل الله

ومما يحكى عن القاضى محيى الدين هذا أنه كان اذا دخل على الملك الناصر فى وقت العلامة يجمع ما فيها من الرمل الذى يتناثر من العلامة بحضرة السلطان ، فيجمع ذلك كله ولا يرمى منه شيئا ، ويضعه فى مرملته التى لنفسه ، ويقول : « هذا رمل سعيد لا يرمى منه شىء » . فكان اذا كتب شيئا رمله من ذلك الرمل الذى جمعه من العلامة بحضرة السلطان .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة صاحب حماة — وهو الملك المؤيد عماد الدين — وصحبته هدايا جليلة وتقادم عظيمة ، فأكرمه السلطان غاية الاكرام ، وأقام بالقاهرة أياما ثم توجه الى بلاده .

سنة ثمان وعشرين وسبعمائة (١٣٢٨ م) :

فيها برزت المراسيم الشريفة ببناء قناطر على الخليج الناصرى الذى حفره السلطان الملك الناصر ، فبنى قنطرة عند الميدان الكبير بموردة الجبس ، وبنى قنطرة تعرف الآن بقنطرة قديدار . قيل ان الأمير قديدارا كان مشرفا على عمارتها فنسبت اليه ، وبنى قنطرة بظاهر باب البحر ، وبنى قنطرة عند بركة قرموط تعرف الآن بقنطرة العسرا ، وبنى قنطرة عند بركة الرطلى تعرف الآن بقنطرة الحاجب كان مشرفا على عمارتها فنسبت اليه ، وبنى قنطرة عند زقاق الكحل تعرف الآن بالقنطرة الجديدة ... فهذه القناطر من انشاء الملك الناصر محمد بن قلاون .

سنة تسع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٩ م) :

فيها حفر السلطان الملك الناصر البركة الناصرية المنسوبة اليه المجاورة للميدان الكبير ، وأجرى اليها الماء من الخليج الناصرى .

وفى هذه السنة أخرج السلطان ولده الأمير أحمد الى مدينة الكرك ورسم له بأن يقيم بها ، فعبى له سنيحا عظيما وتوجه الى هناك .

سنة ثلاثين وسبعمائة (١٣٣٠ م) :

فيها عمر السلطان القصر الكبير الذى فى الميدان عند البركة الناصرية ، وعمل تحته بستانا عظيما ، وكان ينزل هناك ويقيم معه الحريم ، ويركب من هناك المواكب الجليلة ، ويطلع الى القلعة والأمراء بين يديه بالشاش والقماش والعسكر مشاة بين يديه حتى يطلع الى القلعة .

وفى هذه السنة رسم السلطان بهدم الايوان

الأشرف الذى كان بالقلعة ، فهدمه وبناه على هذه الصـفة الموجودة الآن ، وعقد فوقه هذه القبـة العظيمـة ، وكان يعمـل فيه المواكب العظيمـة ، وتجتمع به الأمراء ويكثر فيه الزحام من العسكر حتى قال فيه بعض الشعراء رحمه الله :

ما كان يكفى حـر ذا الا
يـوان حتى ازداد قبـه
فكأننى فيـه خـرو
ف قد شـوى من تحت كبه

وفى هذه السنة هدم السلطان دور الحرم التى كانت بالقلعة وأنشأها عمارة جديدة وتبـاهى فى بنائها .

وفى هذه السنة حضر الى الأبواب المقر السيفى تنكز نائب الشام يزور السلطان ، فأنزله فى الميدان الكبير عند الناصرية ، وبالغ فى اكرامه وتعظيمه . وأحضر صحبته تقادم عظيمة الى السلطان والأمراء ما بين خيول وفراش وقماش وغير ذلك .

سنة احدى وثلاثين وسبعمائة (١٣٣١ م) :

فيها رسـم السلطان بأن يعمـل باب للكعبة الشريفة جديد من الخشب السنط الأحمر ، فعمل وصفحوه فوق الخشب بصفائح الفضـة ، فكان زنتها ثلاثين ألف درهم . فلمـا قلع الباب العتيق وزنوا ما كان عليه من الفضة فكان زنتها ستين رطلا ، فأنعم بها الملك الناصر على بنى شيبة خدام البيت الشريف ، فتقاسموه بينهم . وهذا الباب كان عمله الخليفة العباسى الملقب بالمقتفى بالله فى سـنة اثنتين وخمسين وخمسمائة من الهجرة .

سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٢ م) :

فيها شرع السـلطان فى التـوجه الى الحجاز الشريف ، وهى الحجة الثالثـة ، فيـها خرج من القاهرة فى سابع شوال . وكان سبب هذه الحجة أن السلطان لما عمل هذا الباب الجديد للكعبة قصـد أن يوضع على باب الكعبة بحضرته ، فحج فى تلك السنة ، وكان بصحبته الملك الأفضل محمـد ابن الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صـاحب حماه ، وكان مع السلطان من الأمراء الأمير بكتمر الساقى وولده الأمير أحمد ابن أخت الملك الناصر ، والأمير أيدمر الخطيرى ، والأمير جنكى ابن البابا — وهو صاحب الدرب المنسوب اليه — والأمـير بيبرس الأحمدى ، والأمير بهادر المعزى ، والأمير ايدغمش — وهو صاحب الخوخة المنسوبة اليه — والأمير قطز أمير آخور كبير ، والأمـير طقزدمر — وهو صاحب القنطرة المنسوبة اليه — والأمير سـنجر الجاولى ، والأمير قوصون ، والأمير صوصـون ، والأمير طاير بغا ، والأمير بشتاك العمرى — وهو صاحب الجامع المنسوب اليه — والأمير أقبغا آص الجاشنكير ، والأمير طقتمر الخازن — وهو صاحب الدرب المنسوب اليـه — والأمير تمر الموسوى ، والأمير أيدمر أمير خازندار ، والأمير مسعود حاجب الحجـاب ، والأمير صـاروجا نقيب الجيـوش المنصورة — وهو صاحب الجامع الذى عند بركة الرطـلى — وغـير ذلك من الأمـراء الطبلخانات والعشراوات ... فكانت عدة من حج مع السلطان من الأمراء فى تلك السنة اثنين وسبعين أميرا ما بين مقدمى ألوف وغـير ذلك ، فكانت مـدة غيبـة السلطان فى هذه السفرة الى الحجـاز ذهابا وايابا أربعة وخمسين يوما لا غير .

ومما وقع للسلطان الملك الناصر فى هذه الحجة أن صهره الأمير بكتمر الساقى الأتابكى لما حج معه هو وولده الأمير أحمد ، فلما قضوا حجهم ورجعوا مرض الأتابكى بكتمر فى أثناء الطريق ، فلما وصل الى عيون القصب ثقل عليه المرض فمات هنـاك ودفن بعيون القصب ، وكانت وفاته فى ثانى المحرم

من سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة . ثم مرض ولده الأمير أحمد أيضا ومات بنخل ودفن بها ، ثم بعد مدة نقل الأتابكى بكتمر وولده الأمير أحمد الى القاهرة ودفنا هنـــاك فى الخانقاه التى أنشأها بالقـــرافة الصغرى بالقرب من الجبل المقطم . وكان الأمـــير بكتمر أصـــله من مماليـــك الملك المظفر بيبرس الجاشنكير ، فلما مات الملك المظفر أخـــذه الملك النـــاصر محمد من جملة موجوده ، فحظى بكتمر عند الملك الناصر حتى جعله ساقيا ، ثم صار يرقى فى دولة الملك الناصر حتى بقى أتابك العســـاكر . ثم ان الملك الناصر زوج الأتابكى بكتمر بأختـــه بنت الملك المنصور قلاون . وكان الملك الناصر ينزل الى بيت الأتابكى بكتمر وينفرد عنده وينـــام فى بعض الأوقات حتى يتفرج على بركة الفيل ، فان الأمير بكتمر كان ساكنا فى البيت الذى بالقرب من المدرسة الجاولية ، فصار الأتابكى بكتمر صاحب الحل والعقد فى دولة الملك الناصر ، ولا يتصرف الملك الناصر فى شىء من المملكة الا بعد مشـــورة الأتابكى بكتمر ، وكان لا يهدى للملك الناصر شىء من التقادم الا ويهدى للأتابكى بكتمر مثله أو أحسن منه ، فكثرت أموال الأتابكى بكتمر حتى قيل : كان فى اسطبله مائة سطل نحاس بيد مائة سائس ، وتحت يـــد كل سائس طوالة خيل من الخيـــول الخاص ، وحوى من الأموال والجواهر والتحف ما لم يحوه قبله أحد من الأمراء ، فلما ثقل أمـــره على الملك الناصر لم يتمكن من القبض عليه ، فلما حج معه بلغ الملك الناصر أن الأتابكى بكتمر يقصد قتله فى طريق الحجاز ويتسلطن هناك ، فبادر اليه الملك الناصر ودس عليه من سقاه سما هو وولده الأمير أحمد ابن أخت الملك الناصر فماتا وهما فى أثناء الطريق راجعين كما تقدم ذكر ذلك .

قال بعض المؤرخين : لما مات الأتابكى بكتمر بعيون القصب احتاط الملك على موجوده الذى كان معه بطريق الحجاز فوجد معه خمسمائة تشريف ما بين خلع أطلس ومتمرات وكوامل وغـــير ذلك ، ووجد معه عدة قيود وجنازير فى خوشخانات ... فعند ذلك تحقق الملك صحة ما نقل عن الأتابكى بكتمر فى أمر أنه قصد قتل السلطان هناك .

وكان الأتابكى بكتمر يغلظ على السلطـــان فى القول اذا رأى منه الجور فى حق الرعية ، وكان يحجر عليه فى ذلك ، وكان السلطان يرجع الى قول الأتابكى بكتمر فى غالب الأمور ولا يخالفه فى شىء اذا أصر عليه .

وكان صفة الأتابكى بكتمر : أبيض اللون مشربا بحمرة ، أسود اللحية ، معتدل القامة ، وافر العقل ، حسن العبارة فى كلامه ، عليه سكينة ووقار . وكان قليل الأذى فى حق الرعية ، وله بر ومعروف ... فمن ذلك أنه أنشأ خانقاه فى القـــرافة الصـــغرى بالقـــرب من الجبل المقطم ، وقرر بهـــا صوفيـــة وحضورا ، ووقف عليها أوقافا كثيرة ، ووضع بها ربعة عظيمة مكتوبة كلها بالذهب ، قيل ان مصروفها نحو ألف دينار ، وهى موجودة الى الآن . وكان بهذه الخانقاه حمام وفرن وطاحون وســـاقية وجنينة ، وكان بها جماعة من الصوفية قاطنون بها ، وكان له آثار كثيرة بمصر والشام .

فلما مات الأتابكى بكتمر قرب السلطان الأمير قوصـــون ورقاه . قيل انه أنعم عليـــه بزردخانة الأتابكى بكتمر ، فقوم ما فيها من السلاح وغـــيره فكان بنحو ستمائة ألف دينار . ثم ان السلطـــان زوّج الأمـــير قوصون باحدى بنـــاته . ولم يزل قوصون يرقى فى أيام الملك الناصر حتى فاق على الأتابكى بكتمر فى أيامـــه . قيل وقع يوما بـــين الأتابكى بكتمر وبين الأمير قوصون تشاجر فقال قوصون للأتابكى بكتمر : « أنا ما نقلت من الأطباق

الى الاسطبلات ، بل أخذنى السلطان من شخص تاجر كنت فى خدمته . فلما أخذنى السلطان اتفق أن فى ذلك اليوم توفى واحد من الخاصكية الثقال فأنعم على السلطان باقطاعه وبركه وبيته ، وصرت خاصكيا فى ذلك اليوم . وسبب ذلك أن التاجر الذى كنت عنده لما قال له السلطان : بعنى هـذا المملوك ، قال التاجر : هو حر لوجه الله تعالى ، فأخذنى السلطان برضاى ، ولم أقعد فى طبقـة ، ولم آكن تحت حكم أغا ، ولم أبـع مثل بقيـة المماليك ... » .

فلما سمع الأمير بكتمر ذلك سكت عنـه ولم يجبه عن ذلك بشىء .

وفى أثناء هذه السنة ـ وهى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ـ حضر الى الأبواب الشريفة الأمير مهنا ابن الأمير عيسى من عربان آل فضل ، وأحضر معه تقادم عظيمة للسلطان ، فخلع عليه وأقره على حاله شيخ آل فضل .

سنة اربع وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٤ م) :

فيها حضر الى الأبواب الشريفة المقر السـيفى تنكز نائب الشام ، وكان يزور السلطان فى كل سنة مرة ، وصحبته الهدايا والتقادم . فلما حضر أنزله السلطان فى الميـدان الكبير الذى عنـد البركة الناصرية ، وبالغ السـلطان فى اكرامه وتعظيمه ، وكان ذلك آخر اجتماعه بالسلطان وهو فى عـزة وعظمة وقد تناهى سعده ، فأقام بالقاهرة ثم توجه الى الشام ، فخلع عليه السلطان خلعـة عظيمة ، ونزل من القلعة فى موكب عظيم والأمراء فى خدمته حتى رحل من القاهرة .

سنة خمس وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٥ م) :

فيها أفرج السـلطان عن جماعة من الأمراء الذين فى السجن بثغر الاسكندرية ، وهم : الأمير بيبرس حاجب الحجاب ، والأمير تمر السـاقى ، والأمير غانم بن أطلس خان ، والأمير طغلق ، والأمير بلاط اليونسى ، والشيخ على الأوجاقى ، والأمير يلزعى ، والأمير بنجاص ، والأمير لاجين الغمرى ، والأمير بيبرس العلمى ، والأمير كجلى ... فلما حضر هؤلاء الأمراء الى القاهرة خلع عليهم السلطان ثم أعادهم الى اقطاعاتهم وقبض على جماعة من الأمراء نحو ذلك وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية .

وفى هذه السنة رسم السلطان بعمارة قنطرة على بحر أبى المنجا عند شيبين القناطر .

وفيها جاءت الأخبار من حلب بأن الأرمن ملكوا مدينة سيس وطردوا من كان بهـا من المسلمين ، فرسم السلطان لنائب حلب بأن يتوجه اليهم ومعه العساكر الحلبية ، فخرج اليهم فى سابع عشرى شهر رمضان ، فحاصر من كان بها من الأرمن ، وأحرق الضياع التى حولها ، وأسر جماعة من الأرمن نحو ثلثمائة انسان . فلما بلغ ذلك من كان من الأرمن بقلعة اياس ، ثاروا على من كان عندهم فى المدينة من المسلمين ، وحشروهم فى فنـدق ، وأحرقوا ذلك الفندق ، فاحترق فيه من المسلمين نحو ألفى انسان ما بين رجال ونساء وصغار ، وذلك فى يوم العيد ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

سنة ست وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٦ م) :

فيها رسم السلطـان للمقـر السيفى تنكز نائب الشام بعمارة قلعة جعبرة ، فتوجه اليها تنكز وعمرها فى أسرع مدة ، ورتب بها الرجال الحرسية ، وجعل لها نائبا مقيما بها ، وأودع فيها السلاح ، وكتب بذلك محضرا وأرسله الى السلطان .

وفى هذه السـنة توجه الأمير أزدمر الشمسى ـ نائب بهنسا ـ الى قلعة درنده وحاصر أهلها ،

فطلبوا منه الأمان فأمنهم ، فسلموه القلعة فأقام بها نائبا من قبل السلطان . ثم توجه الى قلعة النقير فحاصرها ، ففعل أهلها مثل ما فعل أهل قلعة درندة ، وأقام بها نائبا من قبل السلطان .

وفى هذه السنة وقع الغلاء بالديار المصرية ، فبيع القمح كل أردب بسبعين درهما ، وعدم الخبز من الأسواق ، وماجت الناس على بعضها ، فرسم السلطان بفتح شونه ففتحوها وباعوا منها فانحط السعر الى أن صار الأردب بثلاثين درهما . ولما أن دخل شهر رمضان كثر فيه القمح حتى ما بقى أحد يشتريه ولا يقلبه ، وسكن وهج الناس .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن السلطان الملك الناصر تغير خاطره على الخليفة المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ، ورسم له بأن يتحول من مناظر الكبش ويسكن بقلعة الجبل ، فتحول من يومه وطلع الى القلعة هو وعياله ، فأنزله السلطان فى البرج الكبير الذى أنزل فيه الظاهر بيبرس البندقدارى الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله عند قدومه من بغداد ، فاستمر الخليفة المستكفى بالله ساكنا فى البرج ، ومنعه السلطان من الاجتماع بالناس ومن النزول الى المدينة ، فأقام على ذلك نحو خمسة أشهر . ثم ان بعض الأمراء تشفع فيه فرسم له السلطان باعادته الى مناظر الكبش كما كان أولا .

وفيها أرسل السلطان تجريدة الى سيس بسبب فساد الأرمن .

وفيها حضرت الى الأبواب الشريفة الحرة زوجة ملك الغرب طالبة الحج ، فأهدت الى السلطان هدية جليلة ، ومن جملتها أعجوبة وهو ثور أصفر فاقع اللون كامل الخلقة ، وفى وسط ظهره من الجانب الأيمن كتف طالع من رءوس أضلاعه ، وهو بمرفق وذراع وحافر مفروق مثل حوافر البقر ، فكان يطوف بالقاهرة ويجبى عليه — كما يفعل بالسباع — وهو بجبل من حرير أصفر .

سنة سبع وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٧ م) :

فيها قبض النشو — ناظر الخواص الشريفة — على ابن فضيل شيخ مدينة ملوى ، وكان له دواليب ومعاصر ، وكان يزرع فى كل سنة من القصب الحلو خمسمائة فدان . فلما قبض عليه النشو وجد عنده فى حاصله أربعة عشر ألف قنطار سكر ، ومثلها قطر نبات ، ومثلها عسل أسود ... هذا كله خارج عن العبيد والجوارى والغلال وغير ذلك . فحمل جميعه الى الحواصل السلطانية ، وأقام ابن فضيل فى الترسيم مدة ، ثم أفرج عنه السلطان ، وخلع عليه وأعيد الى عمله بمدينة ملوى .

سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٨ م) :

فيها رسم السلطان للخليفة المستكفى بالله سليمان بأن يتوجه هو وأولاده وعياله الى نحو مدينة قوص من أعمال بلاد الصعيد وأن يقيم بها ، فخرج من يومه — هو وعياله وأولاده — فشق ذلك على الناس وتأسفوا غاية الأسف على ذلك ، وفى ذلك يقول الشيخ زين الدين ابن الوردى :

أخرجوكم الى الصعيد لأمر
غير مخز فى ملتى واعتقادى

لا يغيركم الصعيد وكونوا
فيه مثل السيوف فى الأغماد

قيل : وكان سبب تغيير خاطر السلطان على الخليفة المستكفى بالله أنه رفعت قصة الى الملك الناصر وعليها خط الخليفة سليمان ليحضر محمد بن قلاون الى مجلس الشرع أو يوكل ، فشق ذلك على الملك الناصر وبقى فى خاطره شىء من الخليفة

سليمان حتى نفاه الى قوص ، فأقام بها الى أن مات فى شهر شعبان سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، فكانت مدة خلافته بمصر خمسا وثلاثين سنة وسبعة أشهر .

فلما نفاه السلطان الى قوص أقامت مصر بلا خليفة أربعة أشهر والسلطان يتروى فيمن يوليه الخلافة . وكان الخليفة المستكفى بالله لما توجه الى مدينة قوص عهد الى ولده أحمد ، وثبت عهده على يد قاضى قوص بشهادة أربعين رجلا من العدول ، فلم يمض الملك الناصر ذلك العهد لما فى نفسه من الخليفة سليمان ، فجمع القضاة الأربعة ، وعقد مجلسا بسبب ذلك ، فلما رأى القضاة ذلك العهد تمسكوا بحكم قاضى قوص ، فانفض المجلس ولم يول السلطان أحمد بن المستكفى بالله وصمم على عدم ولايته ، ثم ولى ابراهيم أخا المستكفى بالله على حين غفلة ، ولقبوه بالواثق بالله . وكان ذميم السيرة ... قال قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر فى تاريخه : « ان العوام كانت تسمى ابراهيم هذا لما تولى الخلافة « المستعطى بالله » لقذارة نفسه وسوء تدبيره » .

سنة تسع وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٩) :

فيها ظهرت بالقاهرة امرأة تسمى الخناقة ، وكانت تحتال على النساء والأطفال وتخنقهم وتأخذ ثيابهم ، فشاع أمرها بين الناس ، فلا زالوا يحتالون عليها حتى أمسكوها وشنقوها على باب زويلة ، وكان لها يوم مشهود لما علقت للشنق .

وفى هذه السنة تغير خاطر السلطان على النشو — ناظر الخواص الشريفة — وسلمه للأمير بشتاك الناصرى حاجب الحجاب يعاقبه . فلما تسلمه عاقبه حتى مات تحت العقوبة ، واستصفى أمواله . وكان السلطان قد قرب النشو عنده فى أعلى المراتب ، وأمن من قبله ، فكان كما قال الامام على كرم الله وجهه : « من أمسى من الدنيا وهو على جناح أمن أصبح منها وهو على قوادم خوف » . فلما مات النشو استقر السلطان بصهر النشو فى نظارة الخاص ، فجاء أظلم من النشو ، وفيه يقول المعمار :

قد أخلف النشو صهر سوء
قبيح فعل كما تروه
أراد للشر فتح باب
فأغلقوه وسمروه

سنة اربعين وسبعمائة (١٣٤٠ م) :

فيها توفى أنوك ولد الناصر محمد بن قلاون ، وكان بديع الجمال مليح الشكل ، وكان السلطان يحبه دون سائر اخوته ، ومات وله من العمر نحو عشرين سنة ، فتأسف عليه السلطان أسفا شديدا . وقد رثاه الصلاح الصفدى رحمه الله حيث قال :

مضيت وكنت للدنيا جمالا
وجرعت النجوم الزهر فقدك
ومن عجب الليالى فيك ألا
يموت أبوك ياأنوك بعدك
وكان الفأل بالمنطق .

وفيها توفى الشيخ فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمرى . وكان عالما فاضلا ناظما للشعر ، وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

فسر لى عابر مناما ... فصل فى قوله وأجمل
وقال : لا بد من طلوع ... فكان ذاك الطلوع دمل

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى : « كنت بدمشق فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، والشيخ

فتح الدين بن سيد الناس بمصر ، فكتبت اليه وأنا بدمشق أقول له :

كان سمعى فى مصر بالشيخ فتح الد
ين يجنى الآداب وهى طرية
يا لها غربة بأرض دمشق
أعوزتنى الفواكه الفتحية

وفى هذه السنة تغير السلطان على المقر السيفى تنكز نائب الشام ، فأرسل الأمير بشتاك الناصرى ، والأمير يلبغا اليحياوى ، وصحبتهم جماعة من المماليك السلطانية ، ثم كتب مراسيم الى أهل دمشق على يد هؤلاء الأمراء بأن يكونوا لهم عونا على القبض على تنكز نائب الشام . وكان تنكز هذا أصله من مماليك الملك المنصور حسام الدين لاجين ، وتولى الملك الناصر فأخذ تنكز من جملة موجود لاجين ، فصار من مماليك الناصر محمد ، ثم جعله خاصكيا ، ثم بقى أمير عشرة ، ثم بقى أمير طبلخانات ، ثم بقى مقدم ألف ... كل ذلك فى دولة الملك الناصر محمد . ثم جعله نائب الشام فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة عوضا عن الأمير أقوش الأفرم . واستمر تنكز فى نيابة الشام ثمانيا وعشرين سنة ، فعظم أمره ، وكثرت أمواله ، وكان له عند السلطان منزلة عظيمة حتى كان يكاتبه فى المراسيم « أعز الله أنصار المقر الكريم العالى » . وزاده فى الألقاب عن العادة ، وكان السلطان لا يفعل شيئا من أمور المملكة حتى يرسل ويشاور تنكز عليها .

وكان تنكز يزور السلطان فى كل سنة مرة وصحبته الهدايا الجليلة والتقادم العظيمة ، ويقيم بمصر أياما ، ثم يخلع عليه السلطان خلعة ويتوجه الى الشام .

واستمر تنكز على ذلك حتى أوقعوا بينه وبين السلطان ، ودبت بينهما عقارب الفتن ، فأرسل السلطان بالقبض عليه . فلما وصل اليه بشتاك الناصرى والأمير يلبغا اليحياوى ، قالوا له . « ان السلطان رسم لك بأن تحضر الى القاهرة حتى يزوج ابنته بابنك » . فقال تنكز : « أنا لى شغل فى هذا الشهر ، ولكن امضوا أنتم الى القاهرة وأنا أحضر أنا وولدى بعدكم » . فأغلظوا عليه فى العبارة ، وأغلظ هو أيضا عليهم ، فأرسلوا كاتبوا السلطان بذلك ، وأثخنوا جراحات تنكز عند السلطان . فلما سمع السلطان هذا الجواب ازداد حنقه على تنكز ، وعين اليه الأمير طاجار الدوادار الكبير بالقبض عليه . ولو أن تنكز حضر الى السلطان صحبة الأمير بشتاك والأمير يلبغا ما حصل له من السلطان الا كل خير .

فلما وصل الأمير طاجار الدوادار قال لتنكز : « قم احضر عند الساطان والخيرة لك » . فقال له تنكز : « امض أنت وأنا بعد ثمانية أيام أحضر عند السلطان » . فرجع الأمير طاجار عند السلطان ، وما أبقى ممكنا فى حق تنكز من الأذى .

فلما سمع السلطان ذلك عين الى تنكز تجريدة ثقيلة من القاهرة ، ورسم للنواب كلهم أن يمشوا على تنكز . فلما وصلت التجريدة الى الشام ، ومشت على تنكز جماعة من النواب ، حاصروه وهو بالشام ، فطلب منهم الأمان ، ونزل اليهم فقبضوا عليه وقيدوه ، وذلك فى ثالث عشر ذى الحجة سنة أربعين وسبعمائة .

ولما أمسك تنكز احتاطوا على موجوده من صامت وناطق ، فالذى قد ضبط من الذهب العين ثلثمائة ألف دينار وستون ألف دينار ، ومن الفضة النقدية ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ، ووجد له من الفصوص الياقوت والبلخش واللؤلؤ الكبار ثلاثة صناديق ، ووجد عنده من الطراز

الزركش والحوائص الذهب والخلع الأطلس مائة وخمسون بقجة ، ومن القماش الصوف وغير ذلك خمسمائة بقجة ، ووجد عنده من الفراش والبرك والأوانى ما حمل الى القاهرة على مائة وخمسين جملا ، ووجد له ودائع عند النــاس مائتا ألف دينار ، ومن الفضة ألف ألف ومائة ألف درهم ، وظهر له من الأملاك والضياع بمصر والشام ما قوم فى كل سنة بمائة ألف دينار .

فلما وصل تنكز الى القاهرة حمل موجوده الى الخزائن الشريفة ، ورسم له بالتوجه الى السجن بثغر الاسكندرية ، فسجن بها . ولما سجن أقام بالسجن أربعين يوما وهو مقيد ، ثم ان السلطان رسم بخنقه ، فأرسل اليه الحاج ابراهيم بن صابر مقدم الدولة فخنقه بالسجن وغسله وصلى عليه ودفنه بثغر الاسكندرية ... فذهب ماله ، وتخلى عنه سلطانه . وقد قيل :

لا فهم فى الدنيــا لمســتيقظ
بلمحها بالفكــرة البــاصرة
ان كدرت عيشــته ملهــا
وان صــفت كدرت الآخرة

قيل : « ثلاثة لا يؤمن اليها : المال وان كثر ، والملوك وان قربوا منك ، والمــرأة وان طــالت صحبتها » .

ثم ان تنكز أقام مدفونا بثغر الاسكندرية مدة يسيرة ، ثم ان بعض الأمراء شفع فيه بأن ينقل ويدفن فى مدرسته التى أنشأها بدمشق ، فرسم السلطان بنقله وهو ميت الى دمشق فى أواخر سنة أربعين وسبعمائة . وفيه يقول الشيخ صلاح الدين الصفدى :

الى دمشــق نقلوا تنكــزا
فيالهــا من آيــة ظــاهرة
فى جنــة الدنيــا له جثــة
وروحــه فى جنــة الآخــرة

وقال فيه أيضا رحمه الله تعالى :

فى نقل تنكــز سر أراده الله ربــه
أتى به نحو أرض يحبهــا وتحبــه

وكانت صفة تنكز : أسمر اللون ، خفيف العوارض طويل القامة ، حسن الشكل ، وافر العقل ، سديد الرأى ، حسن السياسة . وكان دينا خيرا ، كثير البر والخــير ، وله معروف وآثار للخــير بمصر والشام ، وكان طاهر الذيل عن ... غير أنه كان صعب الخلق شديد الغضب ، اذا غضب على أحد لم يرض عنه أبدا .

وكانت مدة نيابته بدمشق ثمانيا وعشرين سنة ، وهذا لم يتفق لنائب قبله . وكانت أهل دمشق عنه راضية فى مدة ولايته .

سنة احدى وأربعين وسبعمائة (١٣٤١ م) :

فيها توفى القاضى محيى الدين بن فضل الله العمرى كاتب السر الشريف . فلما توفى استقر ولده القاضى شهاب الدين بن فضل الله عوضه ، فجاء فى المنصب أعظم من والده . وكان عالما فاضلا ، وله نظم ونثر ، وألف كتابا فى صنعة الانشاء ، وصار العمل عليه الى الآن بين الموقعين فى الانشاء ، وصار عمدة الموقعين ، وبه يقتدون . وقد قال منشيه فى المعنى :

ياطالب الانشــاء خــذ علمه
عنى ، فعــلمى غــير منكور
ولا تقف ببــاب غيرى فمــا
تدخــــله الا بدســـتور

وفى هــذه السنة تزايدت عظمة الملك الناصــر محمد بن قلاون ، وكثرت مماليكه حتى صار راتبه ورواتب مماليكه كل يوم من اللحم الضانى ستة وثلاثين ألف رطل . وبالغ فى مشترى المماليك حتى

قيل بلغت مشترواته اثنى عشر ألف مملوك . وهو أول من اتخذ الشاش والقماش للعسكر والأقبية المفتوحة ، واتخذ الطرز الذهب والحوائص الذهب والسيوف المسقطة بالذهب والأقبية القاقم . وهو أول من رتب المواكب فى القصر على هذا الترتيب الحسن ، ورتب شرب السكر بعد السماط فى القصر والأمراء مجتمعون ، ورتب وقوف الأمراء فى المواكب على قدر منازلهم وكذلك أرباب الوظائف من المتعممين. وقد طالت أيامه فى السلطنة — بخلاف من تقدمه من الملوك — وصفا له الوقت ، وصار غالب الأمراء والنواب مماليكه ومماليك والده قلاون ، ولا يعلم لأحد من الملوك آثار مثله ومثل مماليكه ، حتى قيل قد تزايدت فى أيامه الديار المصرية والبلاد الشامية فى العمائر مقدار النصف من جوامع وقناطر وجسور وغير ذلك من العمائر والانشاء .

قال الشيخ سيف الدين أبو بكر بن أسد فى تاريخه : « لقد وقفت على تاريخ الملوك السالفة ، فما سمعت لأحد من الملوك بما للمالك الناصر محمد بن قلاون من المواقع الحسنة . فانه خطب له فى أماكن لم يخطب فيها لأحد من الملوك ، وكاتبه سائر الملوك من مسلم وكافر ، وهادوه وهابوه ، وصار جميع عسكر مصر فى قبضته من كبير وصغير » .

وفيه يقول الشيخ صفى الدين الحلى :

الناصر السلطان قد خضعت له
كل الملوك ... مشارقا ومغاربا

ملك يرى تعب المكارم راحة
ويعد راحات الفراغ متاعبا

ترجى مكارمه ويخشى بطشه
مثل الزمان ... مسالما ومحاربا

فاذا سطا ، ملأ القلوب مهابة
واذا سخا ، ملأ العيون مواهبا

ولم يزل الملك الناصر قائما على سرير ملكه حتى مرض وسلسل فى المرض ومات على فراشه فى ليلة الخميس العشرين من ذى الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة . ومات وله من العمر ثمان وخمسون سنة ، ودفن فى يوم الخميس المذكور على والده قلاون داخل القبة التى أنشأها قلاون بين القصرين . وكانت له جنازة مشهودة ، وكثر عليه الأسف والحزن من الناس .

وقد رثاه بعض الشعراء رحمه الله بهذه الأبيات :

حكم المنية فى البرية جارى
ما هذه الدنيا بدار قرار

ومكلف الأيام ضد طباعها
متطلب فى الماء جذوة نار

طبعت على كدر ، وأنت تريدها
صفوا من الأقذار والأكدار

واذا رجوت المستحيل فانما
تبنى الرجاء على شفير هار

فالعيش نوم ، والمنية يقظة
والمرء بينهما خيال سار

جاورت أعدائى ، وجاور ربه
شتان بين جواره وجوارى

وكانت مدة سلطنة الملك الناصر محمد هذا بالديار المصرية والبلاد الشامية ثلاثا وأربعين سنة وثمانية أشهر وأياما ، وذلك دون خلعه من الولاية نحو أربع سنين وأيام .

ولما مات خلف من الأولاد أحد عشر ولدا ذكرا دون البنات ، فالذى تولى السلطنة من أولاده بعده ثمانية ، وهم : سيدى أبو بكر ، وسيدى أحمد ، وسيدى كجك ، وسيدى شعبان ، وسيدى اسماعيل ، وسيدى حاجى ، وسيدى حسن ،

وسيدى صالح ... فهؤلاء تولوا السلطنة كما سيأتى . وأما من لم يل السلطنة فثلاثة ، وهم : سيدى رمضان ، وسيدى حسين ، وسيدى يوسف . وأما من توفى من أولاده فى حال حياته من الذكور فأربعة ، وهم : سيدى ابراهيم ، وسيدى محمد ، وسيدى أنوك ، وسيدى على ... فهذا مجموع ما جاءه من الأولاد الذكور دون البنات .

وأما فتوحاته التى فتحها فى أيامه فآمد وملطية ، ودرنده ، وقلعة اياس ، وبهنسا ، والمرعش ، وتل حمدون ، وقلعة النقير ، وقلعة نجيبة ، والهارونية ، وكاورا ، واسفندكار ، وغير ذلك من الفتوحات .

وحج فى أيامه ثلاث حجج ، وزار بيت المقدس والخليل عليه السلام ثلاث مرات ، وسافر الى حلب والشام عدة مرار .

وأما نوابه بالديار المصرية فالأمير كتبغا ، والأمير سلار ، والأمير بكتمر الجوكندار ، والأمير بيبرس الدوادار المنصورى ، والأمير أرغون الناصرى مملوكه .

وأما وزراؤه بالديار المصرية : فالأمير سنجر الشجاعى ، والصاحب تاج الدين بن حنا بن الصاحب بهاء الدين بن حنا ، والصاحب فخر الدين الخليلى تولى الوزارة فى أيامه مرتين ، والأمير سنقر الأعسر ، والأمير أيبك البغدادى ، والصاحب شمس الدين محمد بن الشيخى ، والأمير أيبك الأشقر ... وهو أول من تسمى مدبر المملكة . وتولى شخص يسمى ابن عطاء ، وتولى شخص يسمى بدر الدين محمد بن التركمانى ، وتولى الصاحب أمين الدين بن الغنام ، تولى الوزارة فى أيامه ثلاث مرات ، والأمير بكتمر الحاجب ، والأمير مغلطاى الجمالى ... فهؤلاء وزراؤه .

وأما قضاته الشافعية : فالشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد ، والشيخ بدر الدين بن جماعة المقدسى ، والشيخ جمال الدين الزرعى ، والشيخ جمال الدين القزوينى ، والشيخ عز الدين بن جماعة .

وأما كتاب سره : فالقاضى شرف الدين بن فضل الله ، والقاضى علاء الدين بن الأثير ، والقاضى شهاب الدين محمود أبو الثناء ، والقاضى محيى الدين بن فضل الله ، وولده القاضى شهاب الدين صاحب كتاب الانشاء فى صنعة التوقيع .

وأما نظار جيوشه : فالقاضى بهاء الدين بن الحلى . وتولى شخص يسمى الفخر — وهو صاحب القنطرة المنسوبة اليه — تولى فى أيامه مرتين . وتولى القاضى قطب الدين بن شيخ السلامية ، والقاضى شمس الدين بن التاج ، والقاضى مكين الدين بن قزوينة ، وهو صاحب الغيط المنسوب اليه . وتولى شخص يسمى حمال الكفاة ... فهؤلاء نظار جيوشه .

وأما نظار خواصه : فالقاضى كريم الدين بن السديد ، وتولى شخص يسمى النشو ، ثم تولى صهر النشو .

وأما دواداراته : فالأمير عز الدين أيدمر الناصرى ، والأمير أرغون الناصرى ، والأمير رسلان ، والأمير الجاى الناصرى ، والأمير صلاح الدين يوسف بن الأسعد ، والأمير بغا ، والأمير طاجار الناصرى .

وأما ما أنشاه فى أيامه من البناء فهو القصر الكبير الأبلق والقصران اللذان يليانه ، وعمر الايوان الكبير وعقد فوقه القبة العظيمة ، وعمر الجامع الكبير الذى بالقلعة ، وعمر الجامع الجديد المطل على بحر النيل عند موردة الحلفاء ، وأنشأ الخانقاه التى بسرياقوس ، وعمر الحوش الكبير الذى بالقلعة ، وعمر دور الحرم التى بالقلعة ، وعمر المجراة وأجراها من بحر النيل الى القلعة ،

وعمر سور الميـدان الذى تحت القلعـة ، وعمر الميدان الكبير الذي عند البركة الناصرية ، وبنى القصر الكبير وميدان المهـارة الذى عنـد قناطر السـباع ، وحفر الخليج الناصرى من موردة الجبس الى زقاق الكحل . ومن انشائه الدهيشة المطلة علي الحوش السلطاني وهي من محاسن الزمان . وأنشأ عدة قناطر كما تقدم ، وحفر البركة الناصرية المنسوبة اليه وأجرى اليها المـاء من الخليج الناصرى ، وعمر قناطر أم دينار وقناطر شيبين وقناطر أبو صوير وقنـاطر اللبيني ، وعمر الجسر الذى بشبرامنت ، وعمر جسرا بالفيوم ، وجدد عمارة الرصد ، وجدد عمارة جامع راشده الذي عند دير الطين ، وجدد عمارة مشهد السيدة نفيسة رضى عنها ووضع به المحراب على التحرير الصحيح ، وعمر زاوية الشيخ رجب التى تحت القلعة ، وعمر الاصطبل السلطانى ، وجدد عمارة الطبلخانات السلطانية ، وعمر زربية بثغر دمياط ، وله غير ذلك آثار كثيرة بمصر والشام .

وأما ما أبطله فى أيامه من وجوه الظـلم فهو ضمان الغوانى . وكان عبـارة عن أخذ مال من النساء البغـايا ، وذلك لو خرجت أجل امرأة فى القاهرة تقصد البغاء ، ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة ، وأقامت بما يلزمها من القـدر المعين عليها ، لـما قدر أكبر من فى مصر يمنعها عن البغـاء وعمل الفاحشة . وكان يحصل من ذلك لنساء الأكابر وبناتهم غاية الفساد ولا يقدر أحـد يمنعهن من ذلك ، فأبطل الناصر ذلك وسـطر فى صحائفه الى يوم القيامة ... وكان يتحصل من هذه الجهة جملة مال كثير .

وأبطل أيضا فى أيامه ما كان يؤخذ ممن يبيع ملكا عن كل ألف درهم عشرون درهما ، فأبطل ذلك جميعه ... وكان يتحصل من ذلك جملة مال .

وفى الجملة ان الملك الناصر محمد بن قلاون كان من أجل الملوك قدرا وأعظمهم نهيا وأمرا ، وأكثرهم معروفا وبرا ، وقد جبلت القلوب على محبته سرا وجهرا .

ولما مات تولى من بعده ابنه المنصور أبو بكر .

الملك المنصور

هو الملك المنصور سيف الدين أبو بكر ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون . وهو الثالث عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، بويع بالسلطنة بعد موت أبيه بعهد منه له . وكان فى أولاده من هـو أكبر منه ، ولكن الملك الناصر اختار من بين أولاده هذا ، فقدمه عليهم ، وعهـد له من بعده ، فهو أول من تسلطن من أولاد محمد ابن قلاون .

لبس شعار الملك ، وجلس على سرير الملك فى يوم الخميس حادى عشر ذى الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، وله من العمـر نحو عشرين سنة . وقبل الأمراء له الأرض بالقصر الكبير . فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمـير طقـزدمر صـاحب القنطـرة التى على الخليج الحاكمى ، واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية ، وخلع على الأمير قوصون وهو صاحب ... [1] واستقر به أتابك العساكر ، وخلع على الأمير طشتمر المعروف بحمص أخضر واستقر به دوادارا كبيرا على عادته . ثم دبت عقارب الفتن بين قوصون والأمير طاجار ، وصار العسكر فرقتين : فرقة مع الأمير قوصون ، وفـرقة مع الأمير طاجار الداوادار . ولم يخضع أحدهما لصاحبه .

(١) كذا فى الاصل .

ثم ان الأمير طاجار الدوادار حسن للسلطان أن يقبض على الأتابكى قوصون وهو فى الخدمة بالقصر الكبير ، فأسر السلطان ذلك الى بعض الخاصكية ، وكان السلطان من طبعه الخفة والوهج ، فتوجه ذلك الخاصكى الذى أسر اليه السلطان الى الأمير قوصون ، وذكر له ذلك ، وأخبره بما قد عزم عليه السلطان من مسكه . وقد قيل فى المعنى :

اذا المرء أفشى سره بلسانه
ولام عليه غيره فهو أحمق
اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه
فصدر الذى يستودع السر أضيق

فلما تحقق الأتابكى قوصون ذلك اجتمع بالأمير أيدغمش أمير أخور كبير وجماعة من الأمراء ، وذكر لهم ذلك ، فاتفقوا على خلع الملك المنصور أبى بكر . فلما كان يوم الموكب امتنع الأتابكى قوصون عن طلوع القلعة ، فاضطربت الأحوال فى ذلك اليوم . ثم ان الأتابكى قوصون طلع القلعة فى ذلك اليوم بعد انفضاض الموكب بعد الظهر على حين غفلة ، وقبض على السلطان الملك المنصور أبى بكر وأرسله الى السجن بمدينة قوص ، وأرسل معه أخويه — وهما سيدى يوسف وسيدى رمضان — فكانت مدة الملك المنصور أبى بكر فى السلطنة نحو ثلاثة أشهر ، وكان خلعه فى شهر صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة .

ثم ان الأتابكى قوصون قبض على الأمير طاجار الدوادار ، والأمير بشتاك الناصرى ، وجماعة من الأمراء ، وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ، ثم قبض على جماعة من المماليك السلطانية . فلما وصل الملك المنصور الى قوص ، أرسل الأتابكى قوصون الى متولى ناحية قوص بأن يقتل الملك المنصور وهو فى البحر ، فقتله وقطع رأسه وأرسلها الى الأمير قوصون فى الدس ، وكتم موت الملك المنصور عن الناس ، ولكن أشيع ذلك ... فهذا أول ملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون ، وكان ذلك من أكبر ذنوب الأتابكى قوصون ، وبه زال أمره .

الملك الأشرف

هو الملك الأشرف علاء الدين كجك ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون ، وهو الرابع عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثانى من أولاد محمد بن قلاون . ولى السلطنة بعد قتل المنصور أبى بكر .

تولى الملك وجلس على سريره فى يوم الاثنين حادى عشرى صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، فتولى الملك وله من العمر سبع سنين أو أقل ، فتصرف فى الأحكام صغيرا ، وأوتى — على صغر سنه — ملكا كبيرا ، فكان سابورى الولاية ، صغير السن الى الغاية . وأما تسميته بكجك فهو لفظ أعجمى معناه بالعربى صغير ، فان والده لحظ فيه حال التسمية أنه سيلى بعده الملك وهو صغير ، والملوك لهم فراسة فى الأمور قبل وقوعها .

ثم ان الأتابكى قوصون عمل بالموكب ، وأجلس السلطان على تخت المملكة ... وأحضر خلعة ولبسها ، واستقر نائب السلطنة وأتابك العساكر ، ثم تحول وسكن فى دار النيابة بالقلعة ، وتصرف فى أمور المملكة بحسب ما يختاره ، فنفى الأمير طقزدمر نائب السلطنة الى دمياط ، وقبض على جماعة من الأمراء ، وعزل من عزل ، وولى من ولى ، وظن أن الوقت قد صفا له ... فكان اذا حضرت العلامة أخذ قوصون بيد السلطان كجك والقلم فى يده ، ويريه كيف يكتب على المراسيم والمناشير .

وكان الأمر كله بيد قوصون ، والسلطان معه مثل العصفور بيد النسور ... فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وتعطلت البلاد الشامية ، وعصت النواب ، ووقع الخلف بين الأمراء بمصر ، ووقفت أحوال الرعية ، وحصل للناس غاية الأذية . وقد قال القائل بالمعنى :

سلطاننا اليوم طفل ، والأكابر فى
خلف ، وبينهم الشيطان قد نزغا

فكيف يطمع من مسته مظلمة
أن يبلغ السؤل ، والسلطان مابلغا ؟

ثم ان الأتابكى قوصون صار يمسك فى كل يوم جماعة من المماليك السلطانية ، وأرسل الى الطنبغا نائب الشام بالقبض على طشتمر حمص أخضر نائب حلب . فلما بلغ طشتمر ذلك توجه الى الكرك ، وأخذ الأمير أحمد بن الملك الناصر محمد بن قلاون لأنه كان مقيما بالكرك من أيام والده الملك الناصر كما تقدم . فلما خرج الأمير أحمد من الكرك تسامعت به النواب ، فجاء اليه الأمير قطلوبغا الفخرى نائب طرابلس ، وحضر نائب حماه ونائب صفد وقصدوا التوجه الى مصر ، وأن يسلطنوا الأمير أحمد عوضا عن أخيه الملك كجك ، وأن يقبضوا على الأتابكى قوصون . فلما خرجوا من الكرك توجهوا الى نحو الشام ليقبضوا على الطنبغا نائب الشام لأنه كان من عصبة قوصون ، فأرسل الطنبغا يطلب من النواب الأمان وأن يكون معهم تحت طاعة الأمير أحمد بن الناصر . فلما خرج النواب على حمية قاصدين الديار المصرية وبلغ ذلك الأتابكى قوصون ، أراد أن يقبض على الأمير أيدغمش أمير أخور كبير . فلما بلغ الأمير أيدغمش ذلك ركب هو والأمير آق سنقر والأمير يلبغا اليحياوى وجماعة من الأمراء وطلعوا الى الرميلة وأحاطوا بالقلعة .

ثم ان الأمير أيدغمش نادى للعوام بأن ينهبوا بيت الأتابكى قوصون ، ونادى للعسكر أن كل من لم يكن له فرس فليحضر الى الاصطبل السلطانى ويأخذ له فرسا ... فطلع اليه العسكر قاطبة ، ففرق عليهم فى ذلك اليوم عدة خيول من الاسطبل السلطانى . فلما تحقق الأتابكى قوصون أن الركبة عليه جلس بالقلعة وحصنها . ثم ان العوام دخلوا بيت قوصون وأحرقوا بابه ، ونهبوا ما فى اسطبله من الخيول والبغال ، ونهبوا حواصله وما كان فيها من برك ونحاس وسلاح وصينى وسكر وغير ذلك وقوصون ينظر اليهم من شباك ، فقال لبعض الأمراء الذين فى الاسطبل : « يامسلمين ، أما تحفظون هذا المال الذى تنهبه العوام ؟ .. اما أن يكون لى أو للسلطان » ، فقالوا له : « الذى معك من الأموال والتحف يكفى السلطان ... وهذا شكرانه للعوام من عندك » .

ثم ان العسكر صاروا كلما رأوا أحدا من مماليك قوصون ، أو من حاشيته فى الطرقات ، قتلوه شر قتلة . واستمر الحال على ذلك الى العصر من ذلك اليوم ، فأرسل قوصون يطلب الأمان من الأمير أيدغمش ، وقد تسحب من كان عنده من الأمراء والمماليك ، فهجم عليه الأمير أيدغمش وقبض عليه وقيده وسجنه بالزردخانة . فلما تحقق العوام مسك قوصون نهبوا خانقاته التى هى خارج باب القرافة ، وجامعه الذى بالقرب من بركة الفيل . ثم ان الأمير أيدغمش صار يمسك من كان من عصبة قوصون من الأمراء والخاصكية ، ثم أرسل الأتابكى قوصون تحت الليل الى ثغر اسكندرية وهو مقيد فسجن بها ، فعمد أهل مصر وصوروا صورة قوصون فى العلاليق وقد سمروه ، وفى ذلك يقول المعمار :

شخص قوصون رأينا | فى العلاليق مسمر
تعجبنا منه لما | جاء فى التسمير سكر

وكان الأتابكى قوصون أميرا عظيما مليئا مهيبا ، وصار فى دولة الملك الأشرف كجك صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وتصرف فى أمور المملكة بحسب ما يختاره من ذلك .

فلما أمسك قوصون وسجن ، خلع الأشرف كجك من السلطنة ، ودخل الى دور الحرم ، وصار الأمراء والعسكر ينتظرون قدوم الأمير أحمد من الكرك حتى يتسلطن ، فخطب باسمه فى القاهرة قبل حضوره ، وتلقب بالملك الناصر الى أن حضر وتولى السلطنة كما سيأتى ذلك فى موضعه ... فكانت مدة سلطنة الملك الأشرف كجك بالديار المصرية الى أن خلع خمسة أشهر وأياما ، فلم تكن الا كسنة من النوم أو يوم أو بعض يوم . وأقام فى الأسر والاعتقال بدور الحرم الى أن مات على فراشه فى دولة أخيه الملك الكامل شعبان ، كما سيأتى ذلك فى موضعه .

ولم يتسلطن من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون أصغر منه سنا .

الملك الناصر شهاب الدين

هو الملك الناصر ، شهاب الدين أحمد ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون ، وهو الخامس عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثالث من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون .

دخل القاهرة وبويع بالسلطنة بعد خلع أخيه كجك ، وجلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء الأرض فى يوم الاثنين عاشر شوال سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة . فلما جلس على سرير الملك ، وتم أمره فى السلطنة — وكان أكبر اخوته سنا ، وأرجحهم فى العين وزنا ، فهو ليثهم الغالب ، وشهابهم الثاقب — ولكن خابت فيه الظنون ، وقيل معلم مجنون ، فوقع منه أمور لا تقع الا ممن أصيب فى عقله ... وذلك أنه أمر بقتل سبعة من الأمراء الذين كانوا فى السجن بثغر الاسكندرية .

فلما فعل ذلك نفرت منه قلوب العسكر . ثم انه خلع على الأمير طشتمر حمص أخضر واستقر به نائب السلطنة بمصر ، وخلع على الأمير قطلوبغا الفخرى واستقر به نائب الشام عوضا عن الطنبغا ، وخلع على الأمير أيدغمش امير أخور واستقر به نائب حلب عوضا عن الأمير طشتمر حمص أخضر ، واستقر بجماعة من الأمراء فى وظائف من أمسك منهم وسجن ... فاستمر الأمر على ذلك نحو ثلاثة وثلاثين يوما .

ثم انه قبض على الأمير طشتمر حمص أخضر وقيده وسجنه بالقلعة ، ثم انه أرسل جماعة من المماليك السلطانية خلف الأمير قطلوبغا الفخرى الذى استقر به نائب الشام وقبض عليه وهو فى أثناء الطريق وقيده — وكان هذان الأميران سببا فى سلطنته — فما شكره أحد من الناس على ذلك .

ثم انه أقام فى السلطنة الى سلخ ذى القعدة من سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، فتوجه الى السفر ، فخرج فى يوم الاثنين ومعه جماعة من الأمراء والعسكر ، فلم يعلم أحد أين يريد . فلما خرج من القاهرة توجه قاصدا نحو الكرك الذى هو محط رحاله وبغية آماله . وكان لما أضمر على التوجه الى الكرك دخل الى الخزائن السلطانية وأخذ منها ما قدر عليه من الأموال الجزيلة والتحف الجليلة ، فوصل الى الكرك يوم الثلاثاء من ذى الحجة ، فعمل عيد النحر بها . وكان لما توجه الى السفر أخذ الأمير طشتمر حمص أخضر

معه وهو مقيد فى محفة : ثم أحضر الأمير قطلوبغا الفخرى بين يديه وهو مقيد لما وصل الى الكرك ، فأمر باعتقاله فى قلعة الكرك هو والأمير طشتمر .

سنة ثلاث واربعين وسبعمائة (١٣٤٢ م) .

فى خامس المحرم اجتمع الأمراء فى سوق الخيل، وقالوا : « ان أحوال المملكة ضائعة ، والسلطان لا يلتفت لشىء من ذلك . فأرسلوا كاتبوه فى الحضور الى مصر ، فان حضر فذاك ، وان لم يحضر فولوا غيره » . فكتبوا كتابا عن لسان الأمراء كلهم ، وأرسلوه على يد خاصكى يقال له طقتمر الصلاحى ، فأخذ الكتاب ومضى الى الكرك فوصل فى حادى عشر المحرم . فلما اجتمع بالسلطان وقرأ ما فى الكتاب كتب للأمراء جواب ذلك الكتاب الذى أرسلوه وهو يقول فيه : « ان الشتاء قد دخل . وانى قد اخترت الاقامة بالكرك الى أن يمضى الشتاء وبعد ذلك أحضر الى مصر » . ثم أخرج الأمير طشتمر حمص أخضر والأمير قطلوبغا الفخرى من السجن ، ووسطهما بالسيف فى ميدان قلعة الكرك بحضرة ذلك الخاصكى طقتمر الصلاحى ... وهذا الأمر لا يقع الا من المجانين الذين فى عقلهم خلل ، مع أن هذين الأميرين كانا سببا لسلطنته ؛ ولكن :

لا تفعل الأعداء فى جاهل

ما يفعل الجاهل فى نفسه

ومما قاله ابراهيم المعمارى فى الأمير طشتمر حمص أخضر :

جننت بالملك لما	أتاك بالبسط ماجن
وقد أمنت الليالى	ياحمص اخضر وداجن

وقوله فيه أيضا :

أوردت نفسك ذلا	ورد النفوس المهانة
وبالدنا حزت مالا	ملأت منه الخزانة
وكم عليك قلوب	ياحمص اخضر ملانه

وقال فيه بعض الشعراء :

طوى الردى طشتمرا بعد ما

بالغ فى دفع الأذى واحترس

عهدى به كان شديد القوى

أشجع من يركب ظهر الفرس

ألم تقولوا حمصا أخضرا

تعجبوا بالله كيف اندرس

وقال فيه آخر :

لما رجعت الينا

من بعد ذا البعد والبين

خلناك تحنو علينا

يا حمص اخضر بقلبين

فلما رجع طقتمر الصلاحى من عند الملك الناصر أحمد الى القاهرة ، وأخبر عن هذين الأميرين وما جرى عليهما ، فعند ذلك نفرت منه قلوب العسكر قاطبة . فلما قرأوا كتابه وعلموا أنه اختار الاقامة بالكرك ، ضربوا مشورة فيمن يولونه السلطنة ، فوقع الاتفاق على سلطنة أخيه اسماعيل ابن الملك الناصر محمد ، فخلعوا الناصر أحمد من السلطنة ، وولوا اسماعيل .

وكانت مدة سلطنة الناصر أحمد بالديار المصرية شهرين واثنى عشر يوما لا غير ، وأقام بالكرك حتى قتل كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

وكانت سلطنته كالحلم فى المنام ، كما قيل فى ذلك :

فلم يقم الا بمقدار أن

قلت له أهلا أخى مرحبا !

الملك الصالح

هو الملك الصالح علاء الدين ، أبو الفداء اسماعيل ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون ، وهو السادس عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وهو الرابع من أولاد الملك الناصر محمد ابن قلاون . بويع بالسلطنة بعد خلع أخيه الناصر أحمد فى يوم الخميس ثانى عشر المحرم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، فلما جلس على سرير الملك وتم أمره فى السلطنة خلع على الأمير آق سنقر السلارى واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية ، وخلع على الأمير أيدغمش واستقر به نائب الشام ، وخلع على الأمير طقزدمر واستقر به نائب حلب ، وقبض على الأمير الطنبغا الماردينى — وهو صاحب الجامع الذى فى البرادعيين — وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية . ثم عزل من عزل وولى من ولى ، فما اختلف عليه اثنان ، ولا قيل هذان خصمان ، فسار فى الناس سيرة حسنة ، وبسط العدل ، وأكثر فى الرعية من البذل ، وعامل خاصكية أبيه بالمعروف وبذل لهم الألوف بعد الألوف .

سنة اربع واربعين وسبعمائة (١٣٤٣ م) :

فيها تغير خاطر السلطان على الأمير آق سنقر نائب السلطنة ، فقبض عليه وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ، ثم خلع على الحاج آل ملك واستقر به نائب السلطنة عوضا عن آق سنقر السلارى .

والأمير آل ملك هذا هو صاحب الجامع الذى فى الحسينية . وكان الأمير آل ملك له بر ومعروف ، ولما تولى نيابة السلطنة أمر بهدم خزانة البنود التى كانت سجنا يحبسون فيها أصحاب الجرائم ثم صارت حارة يسكن فيها طائفة من الأرمن ، ويجتمع فيها طائفة من المناحيس والمقامرين فيحصل منهم غاية الفساد ، فهدمها وبنى مكانها مسجدا فلم يصل أحد فيه لما قد تقدم فيه من الفساد وسفك الدماء ، وكثرة من به من القتلى مدفونا ، فصار هذا المسجد مقفلا دائما لا يصلى فيه أحد من الناس ، وبقى مهجورا . وقد قال فيه بعض الشعراء :

أنا مسجد سميت بيت عبادة ... عارى الملابس ليس فىَ حصير
هجر المؤذن والجماعة جانبى ... وجفانى التهليل والتكبير
الشمع فى خلل المساجد مشعل ... وفناء ربعى مظلم مهجور
ما جاء فى القرآن فى عبارة ... واليوم للشيطان فىَ عبور
هل مبلغ عنى الأمير شكايتى ... فلعله يرثى لمن هو بور

سنة خمس واربعين وسبعمائة (١٣٤٤ م) :

فيها أرسل السلطان تجريدة الى أخيه الناصر أحمد وهو فى الكرك ، فحاصروه أشد المحاصرة فلم يقدروا عليه ، والسلطان يخرج له تجريدة بعد تجريدة وهو لايمل من القتال ، وقد حصن قلعة الكرك فلم يقدروا على أخذها ، واستمر على ذلك حتى نفد جميع ماكان عنده من المال والغلال ، فضرب مابقى عنده من السروج الذهب والكبابيش وخلط مع الذهب النحاس ، فكان الدينار الذى ضربه يساوى خمسة دراهم فضة ، وأنفق ذلك على العسكر الذين هم بقلعة الكرك ، وقد هلكوا من الجوع والعطش والعرى ، فلما طال عليهم الأمر تفرقوا

من حوله وقد أقاموا معه فى المحاصرة نحو ثلاث سنين

فلما كان يوم الاثنين ثانى عشرى صفر ، طلب الملك الناصر أحمد من العسكر الأمان ، ونزل اليهم فقيدوه وأرسلوا يعلمون السلطان الملك الصالح بذلك ، فأرسل اليه الأمير منجك اليوسفى فقطع رأسه وأحضرها الى القاهرة فى علبة . وكانت قتلته فى أواخر صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة . وكان الناصر أحمد أشجع اخوته ، وأحسنهم شكلا ، وأكبرهم سنا ... لكنه كان سىء التدبير ، قليل المعرفة ، الغالب عليه الجهل وقوة الرأس وقلة الثبات فى الأمور . وقيل لما وضعوا رأسه بين يدى أخيه الملك الصالح سجد لله شكرا وأمر بدفنها .

سنة ست واربعين وسبعمائة (١٣٤٥) :

فيها مرض السلطان وسلسل فى المرض الى أن مات يوم الخميس حادى عشرى ربيع الأول سنة ست وأربعين وسبعمائة ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاث سنين وشهرا ونصفا . وكان خيار أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون ، وله بر ومعروف على جهات خير ، فمن ذلك أنه وقف ضيعة تسمى بيسوس وجعلها مرصدة على كسوة الكعبة الشريفة . وكان يحب العدل والانصاف بين الرعية ، وساس الملك فى مدة ولايته أحسن سياسة ... ولم يزل على ذلك الى أن مات على فراشه — بخلاف اخوته — فكثر عليه الأسف والحزن من الناس ، وقد رثاه الصلاح الصفدى بقوله :

مضى الصالح المرجو للبأس والندى
ومن لم يزل يلقى المنا بالمنايح
فيا ملك مصر ، كيف حالك بعده
اذا نحن أثنينا عليك بصالح ؟

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى تاريخه ان الملك الصالح اسماعيل هذا كان — على مذهب بعض الخلفاء — يميل الى حب الجوارى المولدات الحبش والسود ، وكان يحب من يمدح له فى ذلك ، فكانت الشعراء يكثرون له فى معنى ذلك . قال بعضهم :

يكون الخال فى خد قبيح
فيكسوه الملاحة والجمالا
فكيف يلام معشوق على من
يراه كله فى العين خالا ؟

وقال آخر فى أسماء الجوارى :

اذا زار الحبيب على اشتياق
فقد زال العنا وقت الصباح
وان وافتك خمر مع نسيم
فقد دام السرور بالانشراح

ومثله فى المعنى :

بدا السعد لى حين زار الحبيب
وجاء الهنا ودام السرور
وجاءت نسيم بتفاحة
مباركة من غزال نفور

الملك الكامل

هو الملك الكامل شعبان ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون . وهو السابع عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الخامس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون . بويع بالسلطنة بعد موت أخيه الملك الصالح اسماعيل بعهد منه له . وكان شعبان هذا هو أخا الملك الصالح اسماعيل شقيقه ، جلس على سرير الملك ، ولبس شعار السلطنة فى يوم الخميس حادى

عشري ربيع الأول سنة ست وأربعين وسبعمائة ، وفيه يقول الشيخ جمال الدين بن نباته :

طلعـة سـلطاننا تبـدت
بكامل السـعد فى الطلوع
واعجب لهاتيك كيف أبدت
هـلال شـعبان فى ربيع

فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب ، وقبض على جماعة من الأمراء ، منهم الأمير آل ملك نائب السلطنة ، فأقام بالقلعة فى البرج أياما ثم أفرج عنه وولاه نيابة صفد ، فخرج من يومه ، فلما وصل الى العريش أرسل بالقبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية . ثم عمل الموكب وخلع على الأمير ارقطاى واستقر به نائب السلطنة عوضا عن آل ملك . ثم قبض على الأمير قمارى استادار العالية وأرسله الى السجن بثغر دمياط . ثم أرسل بالقبض على الأمير طقزدمر نائب الشـام وسجنه بالكرك . وخلع على الأمير يلبغا اليحياوى واستقر به نائب الشام عوضا عن طقزدمر .

وفى هذه السنة توفى الملك الأشرف كجك أخو السلطان ، وكان مقيما بدور الحرم من حين خلع من السلطنة الى أن مات .

سنة سبع وأربعين وسبعمائة (١٣٤٦ م) :

فيها طاش الملك الكامل شعبان ، وصار يخرج الاقطاعات بمال معلوم ، وصـار يصـادر أرباب الوظائف من المباشرين ويأخـذ أموالهم قهرا ... فتقلقلت منه الناس .

وفيها جاءت الأخبار بأن يلبغا اليحياوى — نائب الشام — خامر وأظهر العصيان ، فجمع السلطان الأمراء وشـاورهم فى أمر نائب الشـام ، فوقع الاتفـاق على أن السلطان يرسـل الأمير منجك اليوسفى لكشف الأخبار ، فتوجه الأمير منجك نحو الشام من يومه . ثم ان السلطان عرض العسكر وقصد التوجه الى الشام بسبب عصيان النائب .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن السلطان طلب أخويه : الأمير حاجى ، والأمير حسينا ، فأرسل اليهما الساقى سرور الزينى ، فقال لهما : « امضيا كلما السلطان » . فقالا : « نحن اليوم ضـعاف وقد شربنا الدواء » . فلما رد الجواب على السلطان بذلك أرسل اليهما الأمير الزمام صواب الطولونى ، فقال لهما : « امضيا كلما السلطان والخيرة لكما » . فقالا له مثل ما قالا لسرور الزينى . فلما رد الجواب على السلطان بذلك ، اشـتد غضبه على أخويه ، وأرسـل خلف الأمير أسـتدمر الكاملى والأمير قطلوبغا الكركى ، فلما حضرا قال لهما : « انى طلبت أخى حاجى وأخى حسينا فأبيا عن الحضور الى » ، فقال الأمير أستدمر الكاملى للأمير أرغون العـلائى زوج أم السلطان : « ادخـل أنت اليهما وأخرجهما » . فدخـل الأمير أرغون وأخرجهما غصبا وهما يتباكيان . فلما حضرا بين يدى السلطان قبلا له الأرض وقالا له : « يامولانا السـلطان ، لا تؤاخذنا فاننا كنـا شربنا دواء » . فقال لهمـا السلطان : « كذبتما ... ما أنتما الا مخـامران على » . فأخـرج الأمير حاجى ختمة كانت معه وحلف عليها أنه ما امتنع عن الحضور الا لكونه كان ضعيفا وشرب الدواء ، فلم يصدقه السلطان فى ذلك . ثم جاءت أمهاتهما ، وحلفن للسـلطان ، وكشفن رءوسهن له وقلن : « والله ما امتنعا عن الحضور الا لكونهما شربا الدواء » ... فلم يقبل منهن السلطان ذلك ، وقال لهن : « أنتن نسـاء قليلات العقول » . ثم أمر بادخال أخويه الى موضع فى الدهيشة ، ورسـم عليهما السلطان بجماعة من الخدم ، فباتا تلك الليلة فى الدهيشة ، فلما أصبح الصباح طلب السلطان عشرين فص حجر مسقط ،

وحملى جير وجبس ، وقصد أن يدخل أخويه فى مكان عقد تحت الدهيشة ويبنى عليهما بالحجر ، ويجعل ذلك المكان قبرا لهما .

فلما كان يوم الاثنين ، ثالث عشرى شهر جمادى الأولى من سنة سبع وأربعين وسبعمائة ، دخل بعض الخاصكية على السلطان وقت صلاة الصبح وأخبره بأن الأمير ملكتمر الحجازى قد لبس آلة الحرب هو ومماليكه وتوجهوا الى قبة الهواء التى تحت القلعة — وكان السلطان قد عول على القبض عليه أيضا — فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله ، فأرسل الى زوج أمه أرغون العلائى وقال له : « ما الخبر ؟ » . فقال له : « ان ملكتمر الحجازى ، وأرغون شاه ، وجماعة من الأمراء لبسوا آلة الحرب وتوجهوا نحو قبة الهواء » .

فلما تحقق السلطان ذلك فتح باب الزردخانة ، وفرق منها الملبوس ، وأمر بشد الخيول ... فلم يجد أحدا عنده من المماليك غير بعض مماليك صغار كتابية ، فركب السلطان ووقف على باب السلسلة ، ودقت الكئوسات حربيا ، ثم مشى الى الطبلخانات ووقف ينتظر من يطلع اليه من الأمراء والعسكر فلم يطلع اليه أحد ، فبقى واقفا ساعة حتى طلعت الشمس . ثم مشى وقصد نحو قبة الهواء — ولم يكن معه من الأمراء سوى الأمير أرغون العلائى زوج أمه ، والأمير أستدمر الكاملى ، والأمير قطلوبغا الكركى ، والأمير جوهر السجرلى مقدم المماليك ، وبعض مماليك صغار تحت الصنجق — فتقدم الى آخر الصوة فبرز اليه الأمير أرغون شاه ، والأمير قرا بغا القاسمى ، والأمير آق سنقر ... وضربوا عليه يزك ، ووقع بينهما القتال ، فبرز الأمير يلبغا أروس الى الأمير أرغون العلائى زوج أم السلطان فضربه بطبر على وجهه فسقط عن فرسه الى الأرض ، فقبضوا عليه وأسروه .

فلما رأى ذلك من كانوا حول السلطان تسحب أكثرهم من حوله ولم يبق معه أحد الا القليل من المماليك ، فزحف عليه الأمراء ، فهرب فى أربعة مماليك صغار ، وتوجه نحو باب السلسلة .

فلما ولى السلطان مهزوما قبضوا على من معه من الأمراء المقدم ذكرهم . فلما توجه الى نحو باب السلسلة وجده مقفلا ، فصار يسأل بعض الأوجاقية فى أن يفتح له الباب حتى يطلع الى القلعة وهو سائق . فلما دخل الحوش أراد أن يقتل أخويه حاجى وحسينا ، فلم يفتح له الخدام باب الدهيشة ، فرجع الى بيت أمه واختفى فيه ، وكانت أمه ساكنة بالقلعة .

هذا ما كان من أمر الملك الكامل شعبان بعد كسرته . وأما ما كان من أمر الأمراء الذين وثبوا على السلطان ، فانهم لما انكسر السلطان وولى مهزوما ، قبضوا على الأمراء الذين كانوا معه وشكوهم فى زناجير . وأما مقدم المماليك جوهر السجرلى فانه كان واقفا تحت الصنجق فقطعوه بالسيوف ، ثم ساقوا الى الرميلة وطلعوا من السلسلة الى القلعة ، فوقفوا على باب الستارة وقالوا للخدام : « أين ابن أستاذنا سيدى حاجى ؟ » فقالوا لهم : « فى الدهيشة هو وأخوه سيدى حسين » فدخلوا الحوش ، وطلعوا الدهيشة ، وأخرجوا سيدى حاجى وقبلوا له الأرض وقالوا له أنت سلطاننا ...

ثم انهم طلبوا الملك الكامل شعبان فلم يجدوه ، فقال لهم بعض الخدام : « قد اختفى فى بيت أمه » . فهجموا عليه فى بيت أمه فلم يجدوه ، فأمسكوا الجوارى وأرادوا توسيطهم ، فأقروا بأنه فى بيت الأزيار ، فهجموا عليه فوجدوه واقفا

بين الأزيار وقد ابتلت أثوابه بالماء ، فقبضوا عليه ومضوا به الى الدهيشة وسجنوه فى المكان الذى كان به أخواه .

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى ، حكى لى الأمير ستبغا — استدار الصحبة — قال : « هيأنا السماط على أن الملك الكامل شعبان يأكل منه ، ثم أفردنا منه شيئا لسيدى حاجى وسيدى حسين اللذين كانا فى السجن بالدهيشة ، فخرج الى السماط سيدى حاجى وجلس فى صدره وأكل منه ، ثم دخلنا بالطعام الذى كنا أفردناه لسيدى حاجى وأخيه حسين الى الملك الكامل شعبان فأكل منه وهو فى السجن الذى كان فيه أخواه ... » . فسبحان القادر على كل شىء ... ان فى الليل والنهار عجائب . وقد قال القائل :

لا تأمنن للدهر وهو مسالم
سلس القياد فقد يكون محاربا

واحذر تقلبه ، ولا تعجب له
ان أركب الماشى وأمشى الراكبا

وقال آخر :

كم حاربتنى شدة بجيشها
فضاق صدرى من لقاها وانزعج

حتى اذا آيست من زوالها
جاءتنى الألطاف تسعى بالفرج

ثم ان الملك الكامل أقام محبوسا فى المكان الذى فى الدهيشة ثلاثة أيام ، ثم ان أخاه حاجى أرسل اليه من يخنقه وهو فى السجن فخنق ، وكانت قتلته فى ليلة الخميس ثالث جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية سنة وشهرين ونصفا . ولما مات دفن مع والده داخل القبة التى بين القصرين .

وكانت صفة الملك الكامل شعبان : أشقر اللون ، أزرق العينين ، وافر الأنف ، مجدر الوجه ، يميل الى الصفرة ، شديد الخلق ، سيىء التدبير . وكانت أمه رومية ... فجمع بين قبيح الشكل والفعل . قال الصلاح الصفدى :

بيت قلاون سعاداته
فى عاجل كانت بلا آجل

حل على أملاكه للردى
دَيْنٌ قد استوفاه بالكامل

الملك المظفر

هو الملك المظفر حاجى ، ابن الملك الناصر محمد ابن قلاون . وهو الثامن عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو السادس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون . بويع بالسلطنة — بعد قتلة أخيه الملك الكامل شعبان — فى يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة ، وفيه يقول الشيخ جمال الدين بن نباتة المصرى :

يا امام الورى ، مضى نصف عام
لم أنل فيه من وصولى ربع

سنة ، ان غفلت عنى فيها
كسرتنى ، وكيف لا وهى سبع ؟

وكان مولد حاجى هذا فى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة . ولد بالطريق عند عود أبيه الملك الناصر من الحجاز — وهى الحجة الثالثة — فلما بشر به سماه حاجى .

فلما تسلطن وتم أمره فى السلطنة أراد أن يقبض على جماعة من الأمراء ، فرسم لنقيب الجيوش المنصورة بأن يدور على الأمراء المقدمين ويعلمهم بأن السلطان رسم بأن يعمل الموكب فى القصر

وتجتمع سائر الأمراء ... فدار عليهم نقيب الجيوش وأعلمهم بذلك . فلما طلعوا الى القلعة واجتمعوا فى القصر ، دخل عليهم جماعة من المماليك السلطانية بعد المغرب فقبضوا على جماعة منهم . قيل ان الأمير آق سنقر — لما أرادوا أن يقبضوا عليه — جرد سيفه وقصد نحو السلطان ليقتله ، فأمسكه الأمير شجاع الدين عزلو والأمير كجلى ، وأخذوا سيفه من يده . ثم قبضوا على الأمير ملكتمر الحجازى ، والأمير قرابغا القاسمى ، والأمير أيتمس عبد الغنى ، ونزلار الغمرى ، والأمير صمغار ... فكانت ساعة تشيب فيها النواصى .

ثم ان السلطان أمر بتقييدهم فقيدوا ، وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ، وأما الأمير آق سنقر والأمير ملكتمر الحجازى ، فحبسهما السلطان فى البرج الى الليل ، وأمر بخنقهما فخنقا ودفنا تحت الليل ومضى أمرهما . وكان هذان الأميران سببا لسلطنة المظفر حاجى وقتل أخيه الملك الكامل شعبان ، وكانا يظنان أنهما فى دولة الملك المظفر حاجى يصيران صاحبى الحل والعقد فى أمور المملكة ، فجاء الأمر اليهما بخلاف ذلك ... فكان الأمر كما قيل :

ربما يرجو الفتى نفع فتى
خوفه أولى به من أمله
ورب من ترجو به دفع الأذى
سوف يأتيك الأذى من قبله

ثم ان السلطان عمل الموكب ، وخلع فى ذلك اليوم على خمسة عشر أميرا ، وأنعم عليهم بالاقطاعات السنية ، وقرر منهم جماعة فى وظائف وأقام له عصبة من الأمراء .

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن نائب الشام يلبغا اليحياوى هرب ، فتبعه جماعة من عسكر دمشق فتقاتل معهم وقتل ، فقطعوا رأسه وأحضرت الى القاهرة ، فرسم السلطان بأن تعلق على باب زويله .

ثم ان الأمير شجاع الدين عزلو تزايد ظلمه فى حق الرعية ، وصار يرمى الفتن بين الأمراء ... فلما بلغ السلطان ذلك قبض عليه وسجنه ، فوقع منه كلام فى حق السلطان ، فلما بلغه أمر بقتله فخنق تحت الليل ودفن فى القرافة . فلما بلغ العوام ذلك توجه منهم جماعة الى قبره ، ونبشوا عليه ، وأخذوا كفنه ، وأحرقوا عظامه ... فلما بلغ السلطان ذلك رسم لوالى القاهرة بأن يقبض على من فعل ذلك ، فقبضوا على جماعة من العوام ، وضربوهم بالمقارع ، وقطعوا أيديهم وطافوا بهم القاهرة .

ولما كان يوم الأربعاء ثامن شهر رمضان ، وصل من الشام موجود يلبغا اليحياوى ، وكان من جملة ذلك من الذهب العين خمسون ألف دينار . فلما وصل ذلك الى الخزائن الشريفة ، أنفقه السلطان جميعه على طيور الحمام — وكان مولعا بلعب الحمام ، فعمل لها خلاخيل ذهب فى أرجلها وألواح ذهب فى أعناقها ، وصنع لها مقاصير من خشب الأبنوس وطعمها بالعاج والأبنوس ، وأقام بها غلمانا يكلفونها — فصرف ذلك المال جميعه عليها ...

قال الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة فى ترجمته للملك المظفر حاجى : « وقد اشتغل بلعب الطيور عن تدبير الأمور ، والتهى عن الأحكام بالنظر الى الحمام ... فجعل السطح داره ، والشمس سراجه ، والبرج مناره ، وأطاع سلطان هواه ، وخالف من نهاه . وخرج فى ذلك عن الحد ، وصار لا يعرف الهزل من الجد ... » .

ثم ان السلطان صار يستخف بالأمراء ولا يبيت

عندهم فى القصر فى ليالى الموكب ، فعند ذلك تغيرت عليه خواطر الأمراء — ولا سيما ما قد أنفقه على الحمام من المال الذى جاءوا به من موجود نائب الشام — فدخل الأمير جبغا على السلطان وقت الظهر وخلا به وعنفه على تلك الأمور التى يفعلها ، وقال له ان الأمراء والعسكر قد تغير خاطرهم على السلطان بسبب ذلك .

فلما سمع السلطان ذلك غضب ، وقام من وقته وطلع الى الحمام وذبحها جميعا ، وأخرب تلك المقاصير ، وأرسل يقول للأمير جبغا : « الى قد ذبحت الحمام الذى كان عندى جميعه . وأنا ان شاء الله تعالى أذبح فى هذا القرب خياركم كما ذبحت الحمام ... » . فلما سمع الأمير جبغا ذلك قام من وقته ودخل الى نائب السلطنة ، وذكر له ما قاله السلطان ، فاتفق رأى الأمراء قاطبة على خلعه من السلطنة .

فلما كان يوم الأحد ثانى عشر رمضان ، وثب الأمراء على السلطان ، ولبسوا آلة الحرب ، وخرجوا الى قبة النصر . فلما بلغ السلطان ذلك رسم بشد الخيول ، ودق الكئوسات حربيا ، وزعق النفير ، وركب تحت الصنجق ومعه جماعة من الأمراء العشراوات نحو ثلاثة أنفس ، وبعض مماليك صغار ، ومقدم المماليك الأمير عنبر . ثم ان السلطان خرج من باب السلسلة ، ومشى الى رأس الصوة ، ووقف ينتظر من يطلع اليه من الأمراء فلم يطلع اليه أحد ، فوقف ساعة ثم مشى بين الترب فوقف هناك .

وأرسل خلف الأمير شيخو العمرى فجاء من بيته ، فبعثه السلطان الى الأمراء الذين فى قبة النصر وهو يقول لهم : « ايش قصدكم حتى نعرف سبب ركوبكم علينا من غير موجب ؟ » . فلما توجه الأمير شيخو من عند السلطان بهذه الرسالة ، اجتمع بالأمراء الذين فى قبة النصر وبلغهم ما قاله السلطان فقالوا له : « امض الى السلطان وقل له ينزل عن الملك ويكف هذا القتال عن العسكر » . فلما رجع الأمير شيخو الى السلطان ، وبلغه ما قالته الأمراء ، قال السلطان : « كيف أنزل عن الملك ؟ ... والله ما عندى لهم الا السيف » .

فرجع اليهم الأمير شيخو بهذا الجواب ، فزحفوا اليه ، وأشاروا بالحرب عليه . فثار بينهم غبار الحرب الوارد ، وحملوا عليه حملة رجل واحد . وكان رأس الفتنة الأمير يلبغا أروس ، فجاء من وراء السلطان وضرب عليه يزك بمن معه من العسكر ، فصار من كان مع السلطان من المماليك يتسحبون قليلا قليلا ، فلم يبق معه الا القليل من المماليك ، فتقدم اليه الأمير يلبغا أروس وضرب السلطان بطبر كان معه ، فلم تؤثر فيه الضربة ، فنزل الأمير يلبغا أروس عن فرسه ، وأمسك لجام فرس السلطان . وتكاثر عليه العسكر فقلعوه من قربوس السرج ، وأخذوه وهو حاسر الرأس ، ومضوا به الى الأمير أرقطاى نائب السلطنة . فلما رآه نزل عن فرسه ، ورمى على انسلطان قباءه ، وقال : « أعوذ بالله أن أقتل ابن أستاذى ، ولكن امضوا به الى السجن فى القلعة » . فأخذه الأمير يلبغا أروس ومضى به الى تربة فى الباب المحروقى فخنقه هناك ، ودفن من وقته ، ولم يشعر به أحد .

وكان له من العمر نحو عشرين سنة . وكان مليح الشكل ، صبيح الوجه ، شجاعا بطلا ، لا يهاب الحرب ، ولا يخاف الضرب . وقد قال فيه الصلاح الصفدى رحمه الله :

أيها العاقل اللبيب تفكر
فى المليك المظفر الضرغام
قد تمادى وازداد فى البغى حتى
كان لعب الحَمام جد الحِمام

فكانت مدة سلطنة الملك المظفر هـذا بالديار المصرية سنة وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوما ، ولكن قتل فى هذه المدة اليسيرة جماعة كثيرة من الأمراء وغيرهم . وكان سفاكا للدماء على صغر سنه . وفيه يقول الصفدى :

خان الردى للمظفـر ۔ وفى الثرى قد تعـفّر
فكـم أبـاد أميرا ۔ على المعـالى توفر
وقاتل النـفس ظلما ۔ ذنوبه ما تكفـر

فلما قتل المظفر حاجى طلع الأمراء الى القلعة وتشـاوروا فيمن يولونه السلطنة ، فاختلفوا فى ذلك : فطائفة من الأمراء يقولون سيدى حسين ، وطائفة منهم يقولون سيدى حسن ... فوقع الخلف بينهم فى ذلك .

وكان سيدى حسين مجرما سفاكا للدماء ، فنفر منه العسكر لشدة بأسه ، ووقع القال والقيل بين الأمراء ، وأقامت مصر يومين بغير سلطان والناس يدعون الى الله باصلاح أحوال المسلمين . ثم فى اليوم الثالث وقع الائتلاف من الأمراء على سلطنة سيدى حسن ، فطلبوه من دور الحرم وسلطنوه ، كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

الملك الناصر أبو المحاسن

هو الملك الناصر أبو المحاسن حسن ، ابن الملك الناصر محمد ، ابن الملك المنصور قلاون . وهو التاسـع عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو السابع من أولاد الملك الناصر محمد ابن قلاون .

بويع بعد قتل أخيه حاجى ، فتولى الملك وله من العمر ثلاث عشرة سنة . وكان مولده فى سنة ست وثلاثين وسبعمائة . تسلطن فى يوم الثلاثاء فى رابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة .

قيل لما أخرجوه من دور الحرم جلس على باب الستارة وأحضروا له خلعة السلطنة . وكان اسمه أولا « سيدى قمارى » لحسنه . فلما أرادوا أن يسلطنوه قال للأمراء : « أنا لا أسمى الا بسيدى حسن » . فقال الأمراء : « على بركة الله تعالى » . فألبسوه خلعة السلطنة ، وأركبوه من باب الستارة — والأمراء مشاة بين يديه — الى أن وصـل الى الايوان ، وجلس على سرير الملك ، ودقت له الكؤسات ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء ، وفرح كل أحد من الناس بولايته .

فلما كان يوم الاثنين عمل الموكب ، وخلع على الأمير يلبغا أروس واستقر به نائب السلطنة عوضا عن الأمير أرقطاى ، ثم خلع على الأمير أرقطاى واستقر به نائب حلب ، ثم خلع على الأمير أرغون شاه واستقر به نائب الشـام ، وخلع على الأمير منجك اليوسفى واستقر به وزيرا واستادارا بالديار المصرية ، وخلع على جماعة كثيرة من أرباب الوظائف من الأمراء والمتعممين وغير ذلك .

ثم فرق الاقطاعات على المماليك السلطانية وأرضاهم بكل ما يمكن . ثم عينوا الأمير استبغا المحمودى السلحدار بأن يتوجه ببشـارة ولاية السلطان الى دمشق ، فأخذ فى أسباب السفر الى دمشق . وفيه يقول ابن أبى حجلة :

غـدا سلطاننا ملك البـرايا
رعاه الله يعـدل فى الرعايا
حواصل عدل والده حـواها
وأخرج من زواياها الخبـايا
فسهلا فى التسـادى والأيادى
فقـد حزت النهاية فى العطايا

وفى هـذه السنة — وهى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة (١٣٤٧ م) — احترف بحر النيل احترافا زائدا مما يلى بر مصر ، فاتفق رأى الأمراء بأن يسدوا البحر مما يلى بر الجيزة ، فرسموا للأمير منجك اليوسفى وزير الديار المصرية بأن يتولى أمر ذلك ، ففرض منجك على كل دكان بمصر والقاهرة درهمى فضة ، وأخرجوا مراسيم شريفة الى كاشف الشرقية بأن يفرض على كل نخلة فى البـلاد درهمين من الفضة ، فاجتمع من ذلك مال جزيل ، فأخذ منجك ذلك المال واشترى به مراكب ووسقها حجارة كبارا وغرقها فى البحر مما يلى بر الجيزة ، فلم يفد من ذلك شيئا ، وطغى عليهم الماء ، فقبضوا على منجك ورسموا عليه بسبب ما أخذه من البلاد من المال فصادروه ، وأخذوا أمواله وعزلوه من الوزارة .

سنة تسع واربعين وسبعمائة (١٣٤٨ م) :

فيها خلع السلطان على الأمير جبغا واستقر به نائب طـرابلس ، وخلع على الأمير أحمـد شاد الشرنجاناه واستقر به نائب صفد .

ومن الحوادث فى هـذه السنة ان الفناء وقع بالديار المصرية وعم سائر البلاد [1] ، فكان يحرج من القاهرة فى كل يوم ما ينوف عن عشرين ألف جنازة . وقد ضبط فى شهر شعبان ورمضان فبلغ عدة من مات فيهما من الناس ، فكان نحو تسعمائة ألف انسان ... ولم يسمع بمثل هذا الطاعون فيما تقدم من الطواعين المشهورة فى صدر الاسلام .

قال الشيخ شمس الدين محمد الذهبى :

« ان الطواعين المشـهورة فى مبتدأ الاسـلام خمسة ، وهى :

« طاعون شيرويه .

« وطاعون عمواس — كان فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقع بالشام وأعمالها فى سنة ثمان عشرة من الهجرة — وعمواس بفتح العين اسم قرية بالشام .

« وطاعون الجارف ، وقـع فى زمن عبدالله بن الزبير فى سنة سبع وستين من الهجرة . قيل مات فيه فى ثلاثة أيام فى كل يوم سبعون ألفا ، ومات فيه لأنس بن مالك رضى الله عنه فى ثلاثة أيام ثلاثة وثمانون ولدا . وكان فى شهر رمضان قوة عمله .

« وطاعون الفتيات كان بالبصرة وواسط . قيل انه ابتدأ بالعذارى الصغار فسمى طاعون الفتيات .

« وطاعون جاء فى سنة احدى وثلاثين ومائة من الهجرة يسمى طاعون قتيبة ، مات فيه ألف ألف وستمائة وخمسون ألف انسان ، ومات عقيبه المغيرة ابن شعبة رضى الله عنه » .

ولكن لم يسمع بمثل هذا الطاعون الذى جاء فى هذه السنة ، لأنه عم البلاد قاطبة ، ومات فيه من الناس ما لا يحصى عددهم من مسلم وكافر ، وكانت قوة عمله فى بلاد الفرنج ، وأقام دائرا فى البلاد نحو سبع سنين حتى عزت جميع البضائع لقلة الجالب من البلاد ، وبلغ ثمن الراوية من الماء اثنى عشر درهما بالقـاهرة ، وسبب ذلك موت الجمال . وبلغ طحن الاردب القمح خمسة عشر درهما .

ولم يزرع من أراضى مصر فى تلك السنة الا القليل بسبب موت الفـلاحين وعدم من يزرع ، فوقع الغلاء حتى بيعت كل ويبة قمح بمائتى درهم ، وكادت مصر تخرب فى تلك السنة . ووقع الطاعون

(1) هو وباء « الموت الاسود » الذى اجتاح المعمورة فى منتصف القرن الرابع عشر للميلاد . وقد بدأ فى أواسط آسيا ، ثم انتقل الى شبه جزيرة القرم ، ومنها نقلته احدى السفن الى جنوا وسائر انحاء اوربا . وانتقل من ارمينيا الى انجلترا عام ١٣٤٨ ، فقضى على نصف سكانها . وقضى فى الصين على ثلاثة عشر مليونا .

أيضا فى القطط والكلاب والوحوش . ولقد شوهد شىء كثير من الوحوش وهى مطروحة فى البرارى وتحت ابطها الطواعين ، وكذلك الخيل والجمال والحمير وسائر الحيوان ، حتى الطيور مثل النعام وغير ذلك . وفى ذلك يقول الصلاح الصفدى :

لما افترست أصحابى يا عام تسع وأربعينا
ما كنت والله تسعا بل كنت سبعا يقينا

وقوله أيضا :

دارت من الطاعون كاس الفنا
فالنفس من سكرته طافحة
قد خالف الشرع وأحكامه
لأنه يثبت بالرائحة

وقوله أيضا :

لا تثق بالحياة طرفة عين
فى زمان طاعونه مستطير
فكأن القبور شعلة شمع
والبرايا لها فراش تطير

وقال الشيخ زين الدين بن الوردى :

يقولون شم الخل فى زمن الوبا
وفاقا لما قال الأطباء يا خلى
فان قلت للطاعون تسطو على الورى
يقول : نعم ... أسطو وأتقك فى الخل

وقال ابراهيم المعمار :

يا طالبا للموت قم واغتنم
هذا أوان الموت ما فاتا
قد رخص الموت على أهله
ومات من لا عمره ماتا

وقوله أيضا :

قبح الطاعون داء فقدت فيه الأحبة
يبعث الأنفس فيه كل انسان بحبة

ومن مجونه قوله :

قلت لمن بالحشيش مشتغل :
ويحك ، ماتخشى هذه الكتبه !
فالناس ماتوا بكبة ظهرت
فقال : انى أعيش بالكبه

وقال بعضهم :

تروعنا الجنائز مقبلات
ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ظبية صدفت لذئب
فلما غاب عادت راتعات

وقال آخر :

نراع بالموت ساعة ذكره
ونعرض للدنيا فنلهو ونلعب
ونحن بنو الدنيا خلقنا لغيرها
وما كنت منه فهو شىء محبب

قيل لما زاد أمر هذا الطاعون بالديار المصرية ، أمر بعض العلماء بأن الناس يخرجون قاطبة الى الدعاء برفعه ، فخرج الناس قاطبه الى الصحراء وفعلوا كما يفعلون فى الاستسقاء ، فلم يفد ذلك شيئا ، بل زاد أمر الطاعون حتى عم سائر البلاد ، ودخل الى مكة ، ولم يعهد هذا قط فى سوى هذه السنة ... نقل ذلك ابن حجر فى كتاب « بذل الماعون فى أخبار الطاعون » .

سنة خمسين وسبعمائة (١٣٤٩م) :

فيها جاءت الأخبار بأن أرغون شاه نائب الشام قتل تحت الليل . وسبب ذلك أن الأمير جيبغا نائب طرابلس دخل الى دمشق فى جماعة كثيرة من عسكر طرابلس . وكان أرغون شاه نائب الشام مقيما بالقصر الأبلق الذى بدمشق ، فدخل عليه الأمير جيبغا نائب طرابلس وهو نائم بين عياله فقبض عليه

وقيده وسجنه بقلعة دمشق . فلما أصبح الصباح طلب الأمير جبغا القضاة والأمراء بدمشق ، وأخرج لهم مرسوم السلطان بالقبض على أرغون شاه نائب الشام ، فعند ذلك سكن ما كان بين الناس من الاضطراب ، وظنوا أن ذلك صحيح .

ثم ان الأمير جبغا احتاط على موجود أرغون شاه جميعه . فلما كانت ليلة الجمعة رابع عشرى ربيع الأول من تلك السنة ، فيها وجدوا أرغون شاه النائب مذبوحا وهو فى السجن ، فأحضر الأمير جبغا القضاة وكتب محضرا فى شأن ذبح أرغون شاه بأنه وجد فى السجن مذبوحا ولا يعلم من فعل ذلك . ثم فشا الكلام بين الناس بأن ذلك من فعل الأمير جبغا ، فكثر القال والقيل فى حق جبغا بأنه هو الفاعل لذلك جميعه ، فوثب عليه عسكر دمشق وحاربوه ، فهرب جبغا وتوجه الى نحو المزه — وهى من أعمال دمشق — فلم يتبعه أحد من عسكر الشام وخافوا عقبى ذلك .

ثم ان الأمير جبغا توجه الى طرابلس بعد ما جرى منه ما جرى .

ثم ان أمراء دمشق كاتبوا السلطان بما وقع من الأمير جبغا . فلما وصل الخبر الى السلطان أنكر ذلك ، وحلف على مصحف أنه لم يكن له علم بذلك . ثم عاد الجواب الى الأمراء بدمشق بأن السلطان ليس له علم بما جرى من الأمير جبغا ، ثم رسم لعسكر دمشق بأن يحاربوا الأمير جبغا ويمشوا عليه فى أى مكان كان ، فخرج عليه عسكر دمشق قاطبة ، وحاربوه وهو فى طرابلس ، فانكسر الجبغا وقبضوا عليه ودخلوا به الى الشام ... وكان يوم دخوله الى الشام يوما مشهودا لم يسمع بمثله . وكان فى مراسيم السلطان التى جاءت الى دمشق : « ان ظفرتم بالجبغا فاشنقوه على باب دمشق » . فلما ظفروا به شنقوه وعلقوه على باب القلعة كما رسم السلطان ، فأقام ثلاثة أيام وهو معلق حتى دفن بعد ذلك ، فكان كما قيل : ليس المغتر بمحمود ولو سلما .

سنة احدى وخمسين وسبعمائة (١٣٥٠ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن شخصا من التتار يسمى هندو أغار على مدينة سنجار وملكها ، فأرسل السلطان له تجريدة فحاصروه فطلب من العسكر الأمان ، ثم رحل عن سنجار وعاد اليها النائب الذى من قبل السلطان ، ثم رجع العسكر الى القاهرة وهم سالمون .

وفيها توجه الأمير طاز أمير حاج بالمحمل الشريف . فلما وصل الى مكة وقع بينه وبين الملك المجاهد صاحب اليمن — وكان قد حج فى تلك السنة — فلما صعدوا الى الجبل وقعت بينهما فتنة عظيمة فانكسر الملك المجاهد صاحب اليمن وقبض عليه الأمير طاز وقيده وأحضره صحبته الى القاهرة .

وفيها جمع السلطان الملك الناصر حسن القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، ورشد نفسه ، واستعذر الأوصية فأعذروا له فى ذلك . ثم بعد أيام قبض السلطان على جماعة من الأمراء — منهم الأمير يلبغا أروس ، والأمير منجك اليوسفى — وأرسلهم الى السجن بالاسكندرية .

وفيها أبطل السلطان ما أحدثه النساء من القمصان التى خرجت فى كبر أكمامها عن الحد ، وأبطل ما أخرجوه من الأزر الحرير والأخفاف الزركش ، فأشهروا المناداة فى القاهرة بابطال ذلك فرجعت النساء عن ذلك .

سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة (١٣٥١ م) :

فيها عاد الحجاج الى القاهرة ، فطلع الأمير طاز

الى القلعة وصحبته الملك المجاهد صاحب اليمن .

فلما تمثل بين يدى السلطان أطلقه من القيد ورسم له بالعود الى بلاده وهو مكرم ، وأرسل معه السلطان الأمير قشتمر المنصورى ليوصله الى بلاده . فلما وصل الى الينبع أراد الملك المجاهد أن يقتل الأمير قشتمر ويهرب من هناك ، فقبض عليه الأمير قشتمر ورجع به الى القاهرة ، فتغير عليه خاطر السلطان بسبب ذلك ، فقيده وأرسله الى السجن بقلعة الكرك .

وفيها — فى يوم الأحد سابع عشر جمادى الآخرة — وثب الأمراء على السلطان ، ولبسوا له آلة الحرب ، وطلعوا الى الرميلة ، ووقفوا بسوق الخيل . وكان رأس الفتنة الأمير طاز المنصورى ، والأمير بيبغا الشمسى ، والأمير سفر الناصرى ... فحطم الأمير طاز — ومعه جماعة من الأمراء — فطلعوا الى القلعة وهم راكبون الى الحوش السلطانى ، فقبضوا على السلطان الملك الناصر حسن وسجنوه بالقلعة فى مكان داخل دور الحرم ، فأقام به الى حين عوده الى السلطنة كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

فكانت مدة سلطنة الملك الناصر حسن فى هذه المرة بالديار المصرية ثلاث سنين وتسعة أشهر ، وهى السلطنة الأولى . ثم تولى من بعده أخوه صالح .

الملك الصالح صلاح الدين

هو الملك الصالح صلاح الدين صالح ، ابن الملك الناصر محمد ، ابن الملك المنصور قلاون ، وهو تمام العشرين من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثامن من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون ، بويع بالسلطنة بعد أخيه الملك الناصر حسن فى يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة .

وكان مولده بقلعة الجبل فى شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة . وأمه خوند قطلو ملك بنت الأمير تنكز نائب الشام . وكان سبب سلطنته أن الملك الناصر لما خلع من السلطنة تعصب الأمير طاز وسلطن الملك الصالح ، فجلس على سرير الملك ، وتلقب بالملك الصالح ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء .

فلما تم أمر سلطنة الملك الصالح صار الأمير طاز صاحب الحل والعقد ، واجتمعت فيه الكلمة ، وصار الملك الصالح معه مثل اللولب يديره كيف شاء ، وليس له فى السلطنة غير مجرد الاسم فقط ... فوقع بين الأمراء الخلف ، وأضمروا السوء للامير طاز ، ودبت بينه وبينهم عقارب الفتن ، فوثب عليه جماعة من الأمراء ، ولبسوا آلة الحرب ، وتوجهوا الى القصر . فلما بلغ الأمير طاز ذلك أركب السلطان ونزل به من القلعة فى جماعة من الأمراء ومن المماليك السلطانية ، ودقت الكئوسات حربيا ، وزعق النفير ، ومشى السلطان تحت الصنجق ، ونودى فى القاهرة : « من وجد مملوكا من مماليك الأمير منكلى بغا الفخرى والأمير مغلطاى ، فيقتله حيث وجد فى أى مكان كان » ... فقتل فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من المماليك ، وأخذوا خيولهم وقماشهم وسلاحهم .

ثم زحف السلطان والأمير طاز بمن معهما من الأمراء والعسكر ، وتوجهوا الى قبة النصر ، فوقع بينهم القتال عند خليج الزعفران وقرب المطرية ، فكان بين الأمراء واقعة عظيمة قتل فيها جماعة كثيرة من المماليك .

ثم ان الأمير منكلى بغا الفخرى والأمير مغلطاى انكسرا وهربا فى بعض بساتين المطرية ، فقبضوا

عليهما فى أواخر النهار ، فرسم السلطان بسجنهما فى خزانة شمايل ، ثم أرسلهما الى السجن بثغر الاسكندرية . ورسم بالافراج عن الأمير شيخو العمرى والأمير منجك اليوسفى — وكانا بالسجن بثغر الاسكندرية — فأفرج عنهما وحضرا الى الأبواب الشريفة وطلعا الى القلعة ، فأنعم السلطان على الأمير شيخو فى ذلك اليوم بتقدمة ألف ، وكذلك الأمير منجك اليوسفى .

ثم ان السلطان أرسل بالافراج عن الأمير بيبغا أروس — وكان بالسجن فى قلعة الكرك — فلما حضر خلع عليه واستقر به نائب حلب . ثم خلع على الأمير أرغون الكاملى واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية .

وفى هذه السنة توفى ابن اللبانة الشاعر ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد . ومن لطائف قوله :

هلا ثناك علىّ قلب مشفق
لترى فراشا فى فراش يحرق
قد صرت كالرمق الذى لا يرتجى
وبقيت كالنفس الذى لا يلحق
لو فى يدى سحر وعندى هذه
لجعلت قلبك كل يوم يعشق
لتذوق ما قد ذقت من ألم الهوى
فترق لى مما تراه وتشفق

وفيها توفى الامام العالم العلامة شيخ الاسلام شمس الدين بن قيم الجوزية وكان له مصنفات كثيرة فى العلوم الجليلة .

سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة (١٣٥٢ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير بيبغا أروس قد خرج عن الطاعة وأظهر العصيان ، وكذلك الأمير بكلمش نائب طرابلس ، وكذلك الأمير أحمد نائب حماه ، وكذلك الأمير الطنبغا برقاق نائب صفد — فأرسل نائب الشام الأمير أرغون الكاملى يخبر السلطان بما قد جرى من النواب .

ثم بعد ذلك بأيام يسيرة جاءت الأخبار بأن نائب حلب وصل الى الشام وحاصر المدينة . فلما رأى نائب الشام عين الغلبة هرب تحت الليل هو ومماليكه وتوجه الى نحو غزه فأقام بها ، فأرسل يعلم السلطان والأمراء بذلك .

ثم جاءت الأخبار بأن بيبغا أروس لما دخل الى الشام وقف تحت القلعة ومعه من تقدم ذكرهم من النواب ، فاستعرض هناك العسكر الشامى والعسكر الحلبى ، فكان مع الأمير بيبغا أروس من النواب والأمراء نحو ستين أميرا — غير العساكر الحلبية والشامية ، وغير ما التف عليه من العربان والعشائر — فقويت شوكته . فلما فرغ من العرض نزل عند قبة بيبغا . وأرسل الى نائب قلعة دمشق — وهو الأمير أياجى — يطلب منه أميرا كان مسجونا بقلعة دمشق ، فأرسل اليه الأمير أياجى يعتذر له عن ذلك بأن هذا فى سجن السلطان ولا أقدر على اطلاقه من السجن الا بمرسوم السلطان .

ثم ان نائب قلعة دمشق حصن القلعة تحصينا عظيما ، وركب عليها المكاحل بالمدافع ، وأرسل يقول لأهل المدينة : « لا تفتحوا دكانا ولا سوقا ، ولا تبيعوا على عسكر حلب شيئا » .

فلما بلغ الأمير بيبغا أروس ذلك اشتد به الغضب ، وأمر عسكره بأن ينهبوا ضياع دمشق والبساتين ، ويقطعوا الأشجار . فلما سمعوا هذه المناداة ما أبقوا ممكنا من الأذى والفساد ، فنهبوا حتى النساء والبنات والقماش . وجرى على أهل

دمشق من بيبغا أروس ما لم يجر عليهم من عسكر غازان لما أن دخل الى دمشق .

فلما جاءت الأخبار بذلك الى السلطان علق الجاليش وتجهز للخروج الى دمشق . ثم عين الأمير عمر شاه — وهو صاحب القنطرة — وعين محمد بن بكتمر الساقى ، والأمير قمارى الحموى بأن يخرجوا الى الصعيد قبل خروج السلطان لحفظ البلاد من فساد العربان وصون الغلال ، فخرجوا من يومهم .

ثم ان السلطان خرج من القاهرة قاصدا نحو البلاد الشامية ، فطلب طلبا عظيما ، وخرج معه من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمير طاز ، والأمير شيخو العمرى ، والأمير صرغتمش ، والأمير أستدمر العمرى ، وأخوه الأمير طاز ، والأمير جردمر ، والأمير قرابغا ، والأمير بنجاص ، والأمير قجا السلحدار ، والأمير طشتمر القاسمى ، والأمير سنقر المحمدى ، والأمير قطلوبغا الذهبى ، وبقية الأمراء المقدمين ، وكان مع السلطان الطبلخانات والعشراوات نحو ثمانين أميرا .

ثم ان السلطان ترك فى القاهرة الأمير قبلاى نائب السلطنة ، ومعه ثلاثة أمراء لصون المدينة .

ثم خرج السلطان من القاهرة فى يوم الثلاثاء سابع شهر شعبان سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ، وكان صحبته القضاة الأربعة ، والخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله ابن المستكفى بالله ابن الامام أحمد الحاكم بأمر الله ، وسائر العسكر قاطبة ، فكان وصول السلطان الى دمشق فى شهر رمضان ، فنزل بالقصر الأبلق الذى فى الميدان ، وصلى الجمعة فى جامع بنى أمية . وكان الأمير بيبغا أروس لما بلغه وصول الملك الصالح الى دمشق رحل عنها . ثم ان السلطان طلع الى قلعة دمشق وأقام بها ، وأمر جماعة من الأمراء والعسكر بأن يتوجهوا خلف الأمير بيبغا ومن معه من النواب ، فخرجوا اليهم وتقاتلوا معهم .

فلما كان ثالث شهر شوال جاءت الأخبار من عند السلطان بأنه قد انتصر على الأمير بيبغا أروس ، وانكسر بيبغا وهرب الى بلاد التراكمة ، وقبض على جميع من كان معه من النواب والعسكر ودخلوا بهم الى دمشق وهم فى جنازير وقيود ، وكان لهم فى دمشق يوم مشهود لم يسمع بمثله .

ثم ان السلطان جلس فى القصر الأبلق بالميدان ، واجتمع الأمراء عنده فى القصر ، ودخل العسكر الى الميدان ، ثم أحضروا النواب بين يدى السلطان فعاتبهم على ما فعلوا ، ثم أمر بتوسيطهم فوسطوا ستة من الأمراء وهم : الطنبغا برقاق نائب صفد وهو صاحب الدرب المنسوب اليه ، والأمير طنبغا الأوجانى المعروف بحلاوة ، والأمير مهدى العلائى شاد الدواوين بحلب ، والأمير استبغا التركمانى ، والأمير الطنبغا شادّ الشرابخاناه ، والأمير شادى أخو الأمير أحمد نائب حماه . ثم أراد أن يوسط الأمير بكتمر السعيدى ، فشفع فيه الأمراء فحبس بقلعة دمشق .

ثم ان السلطان قصد أن يتوجه نحو الديار المصرية ، فخرج من الشام — بعد ما عزل من عزل وولى من ولى — وسار حتى دخل القاهرة فى أواخر شوال من السنة المذكورة ، فكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت له وحملت على رأسه القبة والطير ، وفرشت له الشقق الحرير من باب النصر الى القلعة ... وهو فى غاية العز والنصرة ، والأمراء مشاة بين يديه ، ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب ، ونثروا عليه الذهب والفضة ، وضج له الناس بالدعاء .

وكان محبا للرعية قليل الأذى . فلما استقر

بالقلعة ومضى عليه أيام يسيرة قبض على الصاحب علاء الدين بن زنبور ، وكان قد عظم أمره ونمت أمواله ، واجتمع فيه من الوظائف السنية ما لم يجتمع فى غيره ، فكان وزيرا وناظر الجيوش المنصورة وناظر الخواص الشريفة ... فتعاظم على الناس بقوة البأس .

فلما قبض عليه السلطان ضربه ضربا شديدا ، وقيده ونفاه الى قوص ، واحتاط على موجوده من صامت وناطق ، فكان كما قيل فى المعنى :

ومباشر السلطان شبه سفينة
فى البحر ترجف دائما من خوفه
ان أدخلت من مائه فى جوفها
أدخلها ، وماءها ، فى جوفه

قال قاضى القضاة برهان الدين بن جماعة رحمة الله عليه : « وقفت على قوائم فيها ما ضبط من موجود الصاحب علاء الدين بن زنبور ، وهو : قماش ملون ما بين صوف وحرير ألفان وستمائة قطعة . منها مفرى بسمور ووشق وسنجاب وقاقوم ألفا قطعة ، جنداب بوجهين ستمائة قطعة . جبينات خمسة آلاف قطعة . أوانى ذهب وفضة زنتها نحو ستين قنطارا . صناديق ضمنها فصوص ملون ما بين ياقوت والماس وعين هر وحبات لؤلؤ كبار وزن ذلك نحو قنطارين وكسور . صناديق ضمنها لؤلؤ حب ، فاعتبروه بالكيل فكان نحو أردبين بالمصرى . صناديق ضمنها ذهب عين جملته ستمائة ألف دينار . حوائص ذهب ستة آلاف حياصة . كلوتات زركش ستة آلاف كلوته . ووجد له ودائع عند الناس فى أماكن عدتها ستة وثلاثون مكانا ما يعلم ما فى الصناديق التى وجدت بها . ووجد له فضة نقرة محررة بالكيل فكانت ثلاثين أردبا بالمصرى . حواصل فيها شاشات ، العدة ثلثمائة ألف شاش . حواصل فيها بسط رومى وسقاعة من سائر الألوان خمسة وثلاثون ألف قطعة . أنطاع كبار وصغار ثلاثون ألف نطع . ومن الخيول والبغال والجمال عشرون ألف رأس . ووجد له فى خبية تحت سلم سبعمائة ألف دينار . ووجد له عبيد وجوار سبعمائة رأس ، ومن المماليك الروم خمسون مملوكا ، ومن الخدام الخصى مائة رأس . ووجد له فى حاصل نحو من ثلاثين ألف قطعة صينى ما بين لازورد وأخضر وشفاف . ووجد له من النحاس الأصفر المكفت والنحاس الأبيض نحو من أربعين ألف قطعة . ووجد له من الأملاك والضياع والمسقفات سبعة آلاف مكان قومت بثلثمائة ألف دينار . ووجد له من المعاصر خمسة وعشرون معصرة ، وبها من القنود السكر ما لا ينحصر وزنه . ووجد لأولاده اقطاعات حلقة سبعمائة اقطاع . ووجد له فى حاصل من السروج الذهب والفضة والكبابيش الزركش والبدلات وعدد الخيل ، قوموا ذلك بثلاثين ألف دينار . ووجد له مخازن فيها بضائع وبهار قوموا ذلك بأربعمائة ألف دينار . ووجد له من المراكب ستمائة مركب . ووجد له من البساتين والغيطان مائتا بستان . ووجد له من السواقى فى البلاد ألف وأربعمائة ساقية . ووجد له من الأبقار الحلابة والأغنام السياق ثلثمائة ألف رأس . ووجد له من الغلال — ما بين قمح وشعير وفول — ما لا ينحصر كيله . ووجد له ودائع كثيرة عند الناس من قماش ونحاس ومال وغير ذلك مما لا ينحصر قدره . والذى ضاع له عند الناس والغلمان ونحو ذلك شىء لا ينحصر . وكان له أربع نسوة ومائتا سرية ... وهذا الموجود لم يسمع بمثله ولا عند الخلفاء » .

وآخر الأمر أنهم أخذوا ماله جميعه ونفى الى قوص ، فأقام بها الى أن مات ودفن بقوص ، ولم

بعلم له مكان قبر ، وزالت الدنيا عنه كما زالت عن غيره ، كما قيل فى الأمثال : « المال كالماء ... من استكثر منه غرق فيه » .

وقال بعضهم :

خذ القناعة من دنياك وارض بها
واختر لنفسك منها راحة البدن

وانظر لمن قد حوى مما سمعت به
هل ناله غير بعض القطن والكفن

وقال الزمخشرى رحمه الله :

وقائلة أرى الأيام تعطى
لئام الناس من رزق خبيث

وتمنع من له شرف وفضل
فقلت لها خذى أصل الحديث

رأت جل المكاسب من حرام
فجادت بالخبيث على الخبيث

وفى هذه السنة توفى الشيخ الامام العالم العلامة زين الدين عمر بن المظفر بن الوردى المعرى الكندى ، وكان من أعيان علماء الشافعية وله مصنفات كثيرة ، منها « كتاب البهجة » وغير ذلك . وكان فريد عصره ووحيد دهره ، وله نظم ونثر ، رضى الله عنه .

قال الشيخ عماد الدين اسماعيل بن كثير فى تاريخه ان الشيخ زين الدين بن الوردى دخل الى الشام — وكان ضيق المعيشة ، رث الهيئة ، ردىء المنظر — فحضر الى مجلس القاضى نجم الدين ابن صصرى من جملة الشهود ، فاستخفت به الشهود وأجلسوه فى طرف المجلس ، فحضر فى ذلك اليوم مبايعة مشترى ملك ، فقال بعض الشهود : « أعطوا المعرى يكتب هذه المبايعة » ... على سبيل الاستهزاء به . فقال الشيخ زين الدين : « أكتبه لكم نظما أو نثرا ؟ » ... فتزايد استهزاؤهم به فقالوا له : « بل اكتب لنا نظما » . فأخذ ورقة وقلما وكتب فيها هذا النظم اللطيف ، وهو :

باسم اله الخلق هذا ما اشترى
محمد بن يونس بن سنقرا

من مالك بن أحمد بن الأزرق
كلاهما قد عرفا من جلق

فباعه قطعة أرض واقعة
بكورة الغوطة وهى جامعه

بشجر مختلف الأجناس
والأرض فى البيع مع الغراس

وذرع هذى الأرض بالذراع
عشرون فى الطول بلا نزاع

وحدها من قبله ملك التقى
وجابر الرومى حد المشرق

ومن شمال ملك أولاد على
والغرب ملك عامر بن جهبل

وهذه تعرف من قديم
بأنها قطعة بيت الرومى

بيعا صحيحا ماضيا شرعيا
ثم شراء قاطعا مرعيا

بثمن مبلغه من فضية
وازنة جيدة مبيضة

جارية للناس فى المعاملة
ألفان ، منها النصف ألف كاملة

وسلم الأرض الى من اشترى
فقبض القطعة منه وجرى

بينهما بالبدن التفرق
طوعا فما لأحد تعلق

ثم ضمان الدرك المشهور
فيه على بائعه المذكور

وأشـهدا عليهمـا بذاك فى
رابع عشر رمضـان الأشرف
من عام سـبعمائة وعشرة
من بعد خمسة تليها الهجـرة
والحمد لله وصـلى ربى
عـلى النبى وآله والصحب
يشهد بالمضمون من هذا عمر
ابن المظفـر المعـرى اذ حضر

فلما فرغ الشيخ من نظمه ، ووضع الورقة بين يدى الشهود ، تأملوا هـذا النظم مع سرعة الارتجال ، فقبلوا يده واعتـذروا له من التقصير فى حقه ، واعترفوا بفضيلته عليهم .

ثم ان الشيخ قال لبعض الشهود فى المجلس : «سد فى هذه الورقة بخطك» فقال له : «ياسيدى أنا ما أحسن النظم » . فقال له : « ما اسمك ؟ » . فقال له : « أحمـد بن رسول » ، فكتب الشيخ عنه وهو يقول :

قد حضر العقد الصحيح أحمد
ابن رسول وبذاك يشـهد

وتوفى فى هذه السنة الشيخ شمس الدين الذهبى المؤرخ . وتوفى الشيخ أثير الدين أبوحيان المغربى — وكان مالكى المذهب ، فلما دخل الى مصر تقلد بمذهب الشافعى رضى الله عنـه — فسئل عن ذلك فقال : « بحسب البلدة » ... وكان عالما فاضلا ناظما ناثرا ، وله شعر جيد . ومن شعره اللطيف قوله :

بدر تم له على الخـد خـال
فى احمرار ينشق منـه الشقيق
كتب الحسـن بالمحقـق معنى
ولـكن عـذاره تعـليق

سنة اربع وخمسين وسبعمائة (١٣٥٣ م) :

فيها توفى الخليفة الامام الحاكم بأمر الله تعالى أحمد ، ابن المستكفى بالله أبى الربيع سـليمان ، ابن الامام الحاكم بأمر الله أحمد . فلما مات تولى من بعده ابنه أبو بكر ، وتلقب بالمعتضـد بالله . وكان له مشـهد عظيم ، وصلى عليـه السلطان الملك الصالح .

وفيهـا حضروا برأس الأمـير بكلمش نائب طرابلس ، ورأس الأمير بيبغا أروس نائب حلب ، ورأس الأمير أحمد نائب حماه — وكانوا هربوا من الملك الصالح لما توجه الى الشام كما تقدم . فلمـا هرب أولئـك النواب توجهوا الى بلاد التركمان ، فقطعوا رءوسـهم وأرسـلوهم الى السـلطان ، فرسم بأن يعلقوا على باب زويلة ، فعلقوا عليه ثلاثة أيام .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من بلاد الصعيد بأن العربان أظهروا الفساد وعصوا ونهبوا جميع الغلال وقتلوا العمال . وكان كبير العربان شخصا يسمى ابن الأحدب ، شيخ قبيلة عرك ، فاجتمع عليه قبائل كثيرة من العربان حتى سدوا الفضاء . فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت الأحوال وخرج اليهم السلطان بنفسه وسائر الأمراء قاطبة . وكان جاليش العسـكر الأمير طاز ، والأمير شـيخو العمرى ، والأمير صرغتمش النـاصرى . فلمـا تقدموا أمام العسكر وقع بينهم وبين العربان واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، وقيل مات من العربان نحو النصف ، وانكسر شيخهم ابن الأحـدب ، وصار الأمير شيخو يقطع رأس كل من رآه من الفلاحين يقول دكيك ، حتى بنى من رءوس العربان مساطب ومواذن على شاطىء البحر . ثم ان الأمراء مشوا وراء العربان الذين هربوا مسيرة سـبعة

أيام حتى دخلوا أطراف بلاد الزنج . ثم رجع الأمراء والسلطان الى الديار المصرية ومعهم ألف رأس من أكابر العربان ، وقد غنموا منهم غنائم كثيرة من خيول وجمال وأغنام وسيوف ودرق وغير ذلك .

فلما دخل السلطان الى القاهرة كان له يوم مشهود . فلما طلع الى القلعة رسم بتوسيط الأسرى من العربان ، فوسطوا نحو سبعمائة انسان .

ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بأن الفلاح لا يركب فرسا ولا يحمل سلاحا .

ثم ان ابن الأحدب كبير العربان شيخ العرك الذى قد هرب أرسل يطلب من السلطان الأمان بأن يقابل ، فأرسل له السلطان أمانا ، فحضر الى الأبواب الشريفة ، فخلع عليه السلطان خلعة ، وأقره على عادته شيخ العركى كما كان ، وتوجه الى بلاده . وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

ما هادن السلطان أعداءه ... الا لأمر فيه اذلالهم

حتى له تكثر أموالهم ... وللسبا تكثر أطفالهم

وفى هذه السنة خلع السلطان على الأمير أرغون الكاملى واستقر به نائب حلب عوضا عن بيبغا أروس . فلما توجه الأمير أرغون الى حلب جرد الى قراجا بن ذو الغادر أمير التركمان ، وكان ذنب قراجا أنه وافق بيبغا أروس على العصيان . فلما وصل اليه الأمير أرغون هرب منه ، فتبعه الأمير أرغون الى أطراف بلاد الروم ، فقبض عليه وأرسله الى السلطان . فلما حضر الى القاهرة ومثل بين يدى السلطان أمر بتسميره ، فسمروه على جمل وطافوا به مصر والقاهرة ، ثم وسطوه فى الرميلة بسوق الخيل ثم دفنوه .

سنة خمس وخمسين وسبعمائة (١٣٥٤ م) :

فيها توفى القاضى شهاب الدين ابن فضل الله كاتب السر الشريف بالديار المصرية والبلاد الشامية . وكان عالما فاضلا ، ناظما ناثرا ، وله شعر جيد . وصنف كتابا فى صناعة التوقيع وصار العمل عليه الى الآن بين الموقعين ، وبه يقتدون .

ومما وقع للقاضى شهاب الدين هذا أنه رثى نفسه قبل أن يموت بهذين البيتين ، ووجدا فى دواته بعد موته :

قلت لأقلامى : اكتبى وانطقى ... فقالت الأقلام : واسوأتاه

وشقت الألسن من حزنها ... وولولت ، واسود وجه الدواه

ومن الحوادث فى هذه السنة أنه فى يوم الاثنين ثانى شوال وثب جماعة من الأمراء على الملك الصالح . وكان الأمير طاز قد توجه الى نحو البحيرة ليتصيد ، فاغتنم الأمراء هذه الفرصة ، فركب فى ذلك اليوم الأمير شيخو العمرى وجماعة من الأمراء وهجموا على السلطان الملك الصالح وخلعوه من الملك وسجنوه بدور الحرم من يومه ، وزال ملكه كأنه ما كان . فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية — الى أن خلع من السلطنة — ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما . وكان ملكا عظيما دينا خيرا حسن السيرة ، ساس الرعية فى أيامه أحسن سياسة ، وكانت الناس عنه راضية ، وكانت أيامه كلها خيرا وعدلا ، وكان قليل الأذى كثير الخير .

ولما خلع من السلطنة اشتور الأمراء فيمن يولونه سلطانا فوقع الاتفاق على عود الملك الناصر حسن ابن محمد بن قلاون أخى الملك الصالح ، فأخرجوه من دور الحرم وسلطنوه كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

عَوْدُ الملك الناصر حسن

وهى السلطنة الثانية . فلما خلع الملك الصالح صالح من السلطنة وقع الرأى على عود الملك الناصر حسن ، فأخرجوه من دور الحرم وسلطنوه ، وذلك فى يوم الاثنين ثانى شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة . فلما جلس على سرير الملك هناه الشيخ جمال الدين بن نباته بهذه الأبيات وهى قوله :

عد على النصر والسعادة يامن
رفع الله فى السلاطين شانه
أنت سهم لله ما كان يخلى
منه أوطان مصر وهى كنانه

قال الشيخ شهاب الدين بن حجلة التلمسانى ان الملك الناصر حسن وافق والده فى سبعة أشياء وقعت له :

أولها — أنه وافقه فى اللقب ، لأن والده تلقب بالناصر وهو أيضا تلقب بالناصر .

الثانى — أنه ترك الملك وعاد اليه ، ووالده ترك الملك وعاد اليه .

الثالث — أنه جلس على سرير الملك فى المرة الأولى فى رابع عشر الشهر ، ووالده جلوسه فى المرة الأولى كان فى رابع عشر الشهر .

الرابع — أنه لما عاد الى الملك جلس على سرير الملك فى ثانى شوال ، ووالده كذلك .

الخامس — أنه وزر له متعمم ورب سيف ، ووالده أيضا وزر له متعمم ورب سيف .

السادس — أنه أقام مدة بلا وزير ، ووالده أقام مدة بلا وزير .

السابع — أنه أقامت مصر فى أيامه مدة بلا نائب سلطنة ، ووالده أيضا أقامت مصر فى أيامه مدة بلا نائب سلطنة .

وهذا من غريب الاتفاق ...

فلما عاد فى هذه المرة غاب كالبدر فى سحابه ، ورجع كالسيف المسلول من قرابه ، فخضعت له الرقاب ، وضرب بين الظلم وقلعته بسور له باب ، وأنشده الدهر « بغيرك راعيا عبث الذئاب » ...

فلما تم أمره فى السلطنة ، عمل الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى سيف الدين شيخو العمرى الناصرى ، واستقر به أميرا كبيرا — وهو أول من سمى بأمير كبير — ولبس لها خلعة وصارت من يومئذ وظيفة مستقلة . ثم خلع على المقر السيفى عز الدين أزدمر العمرى واستقر به أمير سلاح بالديار المصرية — والأمير أزدمر هذا هو جد والد مؤلف هذا التاريخ ، وكان جد والده لأمه — ثم خلع على الأمير صرغتمش ، واستمر رأس نوبة النواب على عادته ... فصار الأمير شيخو والأمير صرغتمش فى دولة الناصر حسن صاحبى الحل والعقد ومدبرى المملكة ، وكانت عظمة الأتابكى شيخو فى دولة الملك الناصر حسن .

ثم ان الأمير طاز ، الدوادار الكبير ، حضر عقيب ذلك من البحيرة — وقد تقدم أنه توجه للصيد — فلما حضر قبضوا عليه وقيدوه ، وسجنوه بالقلعة هو وأخوه ، فأقام فى السجن أياما . ثم ان بعض الأمراء شفع فيه فأفرج عنه وخلع عليه واستقر به نائب حلب ، فخرج اليها من يومه .

وفى هذه السنة خلع على القاضى تقى الدين السبكى ، واستقر به قاضى القضاة الشافعية بدمشق . فلما توجه الى دمشق وخرج من القاهرة قال فيه ابراهيم المعمار :

مصر للسبكى قالت سر فلا عدت اليا
عذت بالرحمن ربى منك ان كنت تقيا

وفيها خلع على القاضى علاء الدين بن فضل الله

العمرى ، واستقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية على عادته ، وفيه يقول المعمار أيضا :

لابن فضل الله فضل غمر الناس ووفى
كيف لا وهو علىّ علم السر وأخفى

سنة ست وخمسين وسبعمائة (١٣٥٥ م) :

فيها أنشأ المقر السيفى شيحو جامعا وخانقاه بالصليبة الضولونية ، وأنشأ بها حمامين وربوعا ودكاكين ولما كملت عمارة الخانقاه قرر بها شيخا يحضر فى كل يوم من بعد العصر وصوفية يحضرون معه . وكان الشيخ الذى قرره ، شيخ الاسلام الشيخ أكمل الدين الحنفى ، وكان من أكابر علماء الحنفية ، وقد خضعت له الناس لفضله وزهده ، وكان بارعا فى العلوم ، وفيه يقول ابن أبى حجلة التلمسانى :

شيخ تقدم فى العلوم لأنه
ان عد أرباب الفضائل أول
ما قيل هذا كامل فى ذاته
الا وقلت الشيخ عندى أكمل

ثم ان شيحو أوقف على هذه الخانقاه والجامع أوقافا كثيرة ، وشرط فى وقفه محاسن جميلة ، وجعل النظر على تلك الأوقاف لمن يكون رأس نوبة النواب بالديار المصرية ، ولشيخ الخانقاه المشاركة معه فى النظر . وقرر للصوفية الخبز والطعام فى كل يوم ، والحلوى والعجمية فى كل شهر ، وغير ذلك من الجوامك والمرتبات للصوفية ، وجعل فى الخانقاه تدريسا وقراءة سبع فى كل يوم . قال فى معنى ذلك ابن أبى حجلة :

ومدرسة للعلم فيها مواطن
فشيخو بها فرد وايثاره جمع
لئن بات فيها للقلوب مهابة
فواقفها ليث وأشياخها سبع

سنة سبع وخمسين وسبعمائة (١٣٥٦ م) :

فيها من الحوادث أن ربعا وقع عند جامع قوصون على ثلاثين نفسا من نساء ورجال ، فمات منهم ثلاثة وعشرون انسانا ، وسلم منهم سبعة ، فقيل ان السبعة الذى سلموا من الردم سافروا فى ذلك الشهر الى نحو بلاد الصعيد فى مركب ، فهبت عليهم ريح شديدة فغرقت بهم المركب ولم يسلم منهم أحد ... فمن لم يمت بالسيف مات بغيره .

وفى هذه السنة ابتدأ السلطان الملك الناصر حسن بعمارة مدرسته التى فى سوق الخيل تجاه القلعة ، وكان مكانها قصر بيبغا اليحياوى نائب الشام ، فهدمه وبنى مكانه هذه المدرسة التى لم يعمر مثلها فى الاسلام . وقيل ان ايوانها بنى على قدر ايوان كسرى أنو شروان فى الطول والعرض . وهذه المدرسة تشتمل على أربع مدارس ، لكل شيخ مذهب مدرسة تختص به . وقيل ان بعض الناس كان مسافرا فى البحر المالح فى شهر رمضان فرأى قنديل هلال مئذنة هذه المدرسة من البحر المالح . وقيل ان أخشاب أساقيل العمارة قومت بمائة ألف دينار ... وبالجملة ان بناء مدرسة السلطان حسن دال على أفعاله ، وعلى علو قدر همته بين الملوك المصرية ، وقد قال فيه ابن أبى حجلة :

لسنا ، وان كرمت أوائلنا ،
يوما ، على الأنساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا
تبنى ، ونفعل فوق ما فعلوا

ولما كملت عمارة هذه المدرسة كان لها يوم مشهود ، واجتمع بها فى يوم الجمعة القضاة الأربعة وسائر الأمراء وأعيان الناس ، وملئت الفسقية التى بصحن المدرسة سكرا بماء الليمون ، ووقف رءوس

النـواب يفرقون السكر على الناس بالطاسات ، ونزل السلطان وصلى بهـا الجمعة ، وخلع على البنائين والمهندسين الخلع السنية ، وأنعـم على الفعلة لكل واحـد عشرة دنانير ، وقال الشـيخ جمال الدين ابن نباتة فى المعنى :

امام الورى ، هنئت بالجامع الذى
وجـدت الى مبناه سعدا موافقا
دعا حسنه أهل الصلاة لقصـده
فلا غرو ان جاء المصـلى سابقا

وقيل ان السلطان لما حفر أساس هذه المدرسة وجد فى الأرض مالا مدفونا فصرفه على عمارة هذه المدرسة ، فعمرت من وجه حل . وقيل لما حفروا أساس هذه المدرسة وجدوا هناك مرساة مركب قيل كان البحر هناك ...

ومن الحوادث فى هـذه السنة أن هبت ريح عاصفة من جهـة الغرب حتى أظلم الجـو ظلمة شديدة ، وهـدمت الرياح عدة أماكن ، وقلعت الأشجار من الأرض بعروشها ... واستمر ذلك من أوائل النهار الى أن طلع الفجر ، فسكن الريح ، وأمطرت السماء ، وأسفر الجو .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من بغداد بأن القان حسن صاحب بغداد قد توفى الى رحمة الله تعالى ، وتولى أويس ابنه عوضا عنه .

وفيها توفى الشيخ شـهاب الدين بن عقيل ، والحافظ العلامة مغلطاى .

سنة ثمان وخمسين وسبعمائة (١٣٥٧ م) :

فيها قتل الأتابكى شيخو العمرى أمير كبير . وسبب ذلك أن شـخصا من المماليك السـلطانية يسمى قطلوقجاه السلحدار غافل الأتابكى شيخو وهو فى الايوان فى يوم الموكب ، فضربه بالسيف فى وجهه ثلاث ضربات ، فوقع الأتابكى الى الأرض مغشيا عليه . فلما جـرى ذلك قام السلطان من مجلسه وهو مرعوب ، فطلع ممالـيك الأتابكى شيخو وصهره الأمير خليل بن قوصون الى القلعة ، وحملوا الأتابكى شيخو على جنوبة ونزلوا به الى بيته فوجدوا به بعض رمق ، فخيطوا جراحاته ، وكان ذلك فى يوم الاثنين حادى عشرى شعبان . فلما بات فى تلك الليلة فى بيتـه نزل له السلطان ثانى يوم يسلم عليه ، فنزل عن فرسه ودخل الى الأتابكى فى المكان الذى كان به ، فلما سلم عليه السلطان صار يحلف له أن ذلك لم يكن بعلمه ولا له خبر بمـا جرى ، ثم ان السلطان أحضر ذلك المملوك الذى ضرب شيخو وقال له : « هل أغراك على ذلك أحد من الأمراء ؟ » ، فقال : « لا والله ما أغرانى أحد على ذلك ، وانما قدمت للأمير شيخو قصة بسبب اقطاع ، فأخرج ذلك الاقطاع لشخص من جماعته ، فتغير خاطرى منه ، ففعلت ذلك من قهرى منـه » ... فرسم السـلطان بتسمير ذلك المملوك قطلو قجاه الذى ضرب شيخو ، فسمروه وطافوا به فى القاهرة ، ثم وسطوه فى الرميلة قدام مماليك شيخو ، وكان عدة مماليك شيخو سبعمائة مملوك .

ثم ان شيخو استمر ملازم الفراش وهو عليل حتى مات يوم الجمعة سادس عشرى ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة . وقد استمر عليلا فى الفـراش ثلاثة أشـهر وأياما . وكانت جنـازته مشـهودة ، ونزل السلطان وصلى عليه وحضر دفنه ، ودفن فى خانقاته التى فى الصليبـة داخل القبة ، وطلعوا بجنازته من بيته الذى عند حدرة البقـر فصلوا عليه فى سبيل المؤمنين ، ورجعوا بالجنازة من رأس الصليبة الى خانقاته التى دخل بها السلطان قدام نعشة ماشيا حتى دفن ، فكثر عليه الأسف والحزن من الناس .

واتفق أن فى ذلك اليوم زلزلت الأرض زلزلة خفيفة ؛ وأمطرت السماء مطرا غزيرا — وذلك فى وسط قلب الصيف — فقال بعض الشعراء فى هذه الواقعة :

بروحى من أبكى السماء لفقده
بغيث ظننـاه نـوال يمينـه
وما استعبرت الا أسى وتأسفا
والا فماذا القطر فى غير حينه ؟

وقد رثاه بعض الشعراء بقوله :

لما أفلت عن المنازل أظلمت
تلك الديار ، وغاب عنها المشفق
وتقول مصر : لفقد شيخو شفنى
أرق علىّ أرق ومثلى يأرق

وكان شيخو أميرا خيرا دينا ، كثير الخير قليل الأذى ، وله بر ومعروف ولا سيما هذه الخانقاه والجامع الذى فى الصليبة ، وما قرر فيهما من وجوه الخير والاحسان .

سنة تسع وخمسين وسبعمائة (١٣٥٨ م) :

فيها تزايدت عظمة المقر السيفى سيف الدين صرغتمش رأس نوبة النوب ، وصار فى رتبة الأتابكى شيخو ، صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، فأرسل بالقبض على الأمير طاز نائب حلب من غير علم السلطان ، وأرسله من هناك الى السجن بثغر الاسكندرية ، فانه كان بينه وبين الأمير طاز حظ نفس من أيام الملك الصالح ، وكان الأتابكى شيخو يرده عن الأمير طاز . فلما مات شيخو قضى منه الأمير صرغتمش أربه . وقيده ونفاه الى الاسكندرية .

فلما جرى ذلك خلع السلطان على الأمير منجك اليوسفى واستقر به نائب حلب عوضا عن الأمير طاز . ثم ان الأمير صرغتمش أشار بضرب فلوس جدد : كل فلس بدرهم ، وشىء بدرهمين ، وشىء بمثقال ... فثقل أمر ذلك على الناس ، وتضرر منه السوقة . وغلت سائر البضائع بسبب ذلك ، ووقف حال الناس . وقد قال بعض الشعراء :

أميرنا أكرم من حاتم
لا يمنع السائل من فلسه
تقضى به حاجة من رامه
فخذه طوعا واخش من بأسه

ومن الحوادث فى هذه السنة : رفعت قوائم الى الأمير صرغتمش من ديوان الأحباس فيها عدة حصص جارية على منافع الكنائس والديور ، فكان قدر تلك الحصص خمسة وعشرين ألف فدان بيد النصارى . فلما سمع الأمير صرغتمش بذلك حنق وطلع الى القلعة وشاور السلطان على ذلك ، فرسم السلطان بأن يخرج ذلك من يد النصارى ، وكتب بذلك مربعات ، وأنعم بها على الأمراء زيادة على اقطاعاتهم ، ففرقت عليهم تلك المربعات الشريفة ، وبطل ما كان بيد النصارى من تلك الرزق .

ثم ان السلطان رسم بهدم الكنائس والديور . وكان فى شبرا كنيسة عظيمة على شاطىء بحر النيل ، وكان بتلك الكنيسة صندوق من الخشب مقفول بقفل من حديد وفى داخله أصبع بعض من هلك من عباد النصارى يسمونه الشهيد ، وكان هذا الأصبع مقيما بتلك الكنيسة دائما ، وكان النصارى يتوارثونه من قديم السنين .. فاذا كان ثامن شهر بشنس من الشهور القبطية أخرجوا ذلك الأصبع من الصندوق وغسلوه فى بحر النيل ، ويزعمون أن النيل لا يزيد فى كل سنة حتى يلقوا فيه ذلك الأصبع ويسمونه عيد الشهيد ، ويكون لذلك اليوم عيد ترحل اليه سائر النصارى من جميع القرى ، وتخرج عامة أهل مصر من غنى

وصعلوك ، وينصبون الخيام على شاطىء بحر النيل بشبرا وفى الجزائر ، ولا يبقى مغن ولا مغنية ، ولا رب ملعوب ولا ماجن ولا خليع الا ويجتمع هناك ، فيجتمع عالم لا يحصى عددهم ، وتصرف هناك أموال لا تنحصر ، ويتجاهرون هناك بالمعاصي والفسوق وشرب الخمور ... وربما كان يقتل فى ذلك اليوم جماعة من الناس ولا يوجد ما يمنع من ذلك لا من وال ولا من حاجب .

وكان أهل مصر يستعدون لذلك اليوم فى كل سنة دائما من قديم الزمان ، حتى قيل كان يباع بشبرا فى مدة ثلاثة أيام بألف دينار خمر ، وكان فلاحو شبرا لا يغلقون خراج أطيانهم الا مما يبيعونه على الناس فى يوم عيد الشهيد . وكان أعيان القبط والمباشرين ، وأعيان الناس من المسلمين والأمراء ، يكرون المراكب حتى ما يبقى فى البحر مركب ، ويوقدون فيها الشمع والقناديل فى الليل حتى يسدوا البحر من كثرة المراكب . وكان الناس يعتقدون أن النيل لا يزيد الا بالقاء هذا الأصبع فيه ، فقام الأمير صرغتمش فى ابطال ذلك قياما عظيما ، وأرسل الحجاب والأمير علاء الدين بن الكورانى الوالى الى شبرا ومنع الناس من نصب الخيام على شاطىء البحر ، وأشهر النداء هناك بمنع ذلك ، ومن يفعل ذلك يشنق من غير معاودة ... وكان ذلك من أجل متفرجات مصر لم يسمع بمثله فى اللهو والقصف والفرجة .

ثم ان الأمير صرغتمش أمر بهدم تلك الكنيسة فهدموها ، وأحضروا ذلك الصندوق الذى فيه أصبع الشهيد الى مابين يدى السلطان الملك الناصر حسن . فلما كان يوم الاثنين خامس عشر ربيع الأول جلس السلطان فى الميدان الذى تحت القلعة ، وأحضر ذلك الصندوق الذى فيه أصبع الشهيد وأمر بحرقه بحضرة الأمراء ، ورسم بأن يذروا رماد ذلك الأصبع فى بحر النيل ، ففعلوا ذلك . وبطل من يومئذ أمر عيد الشهيد وما كان يحصل فيه من المفاسد العظيمة ، وزاد النيل فى تلك السنة زيادة عظيمة لم يسمع بمثلها ، وزال من ظن الناس أن النيل لا يزيد الا بالقاء ذلك الأصبع فيه ، وبطلت السيئة فى تلك السنة على يد المقر السيفى صرغتمش رأس نوبة النوب وأتابكى العساكر ، وسطر ذلك فى صحيفته الى يوم القيامة كما قيل فى المعنى :

للخير أهل لاتزا ... ل وجوههم تسعى اليه
طوبى لمن جرت الأمو ... ر الصالحات على يديه

سنة ستين وسبعمائة (١٣٥٩ م) :

فيها توفى الأمير تنكزبغا الماردينى أحد الأمراء المقدمين ، وكان صهر الملك الناصر حسن . فلما مات أنعم السلطان باقطاعه على مملوكه يلبغا العمرى الناصرى ، ثم خلع عليه وجعله أمير مجلس ... وهذا كان أول عظمة الأمير يلبغا العمرى .

وفيها جاءت الأخبار بأن الأمير منجك اليوسفى تسحب حتى خرج من مصر واختفى ولم يعلم له خبر ، فعاقب السلطان جماعته بسبب ذلك ، وحبسهم الى أن ظهر الأمير منجك كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

فلما اختفى الأمير منجك خلع السلطان على الأمير بيدمر الخوارزمى واستقر نائب حلب عوضا عن الأمير منجك . فلما توجه الأمير بيدمر الى حلب جرد الى نحو سيس وحاصر أهلها ، فطلبوا منه الأمان ، فأخذها بالأمان ، وكذلك المصيصة . وفتح فى تلك السنة عدة قلاع ، ثم رجع الى حلب .

وفيها ركب السلطان الملك الناصر حسن ، ومر

بالقاهرة وزينت له . فلما وصل الى البيمارستان نزل عن فرسه ودخل فزار قبر أبيه قلاون ، ثم دخل الى الضعفاء والمجانين وتفقد أحوالهم ، ثم ركب وطلع الى القلعة ، وضج له الناس بالدعاء حتى طلع الى القلعة ، وكان يوما مشهودا .

سنة احدى وستين وسبعمائة (١٣٦٠ م) :

فيها ثقل أمر الأمير صرغتمش على السلطان وخشى منه ، فأشار بعض الأمراء على السلطان بأن يقبض عليه من قريب ، وقال له : « ان لم تبادر وتقبض عليه ، والا قبض هو عليك » ... فبادر السلطان وقبض عليه ، فكان كما قيل فى المعنى :

وربما فات بعض الناس حاجته
مع التوانى وكان الرأى لو عجلا

فلما كان يوم الاثنين حادى عشرى شهر رمضان من السنة المذكورة قبض السلطان على الأمير صرغتمش وهو فى الموكب بالايوان . فلما سمع مماليك صرغتمش بذلك لبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة — وكانوا نحو ثمانمائة مملوك — ووقفوا فى سوق الخيل ، فوثب عليهم المماليك السلطانية ورموهم بالنشاب ، فتفرقوا وانكسروا .

ثم ان الزعر وجماعة العوام نهبوا بيت صرغتمش ، ونهبوا سبط خانقاته التى بالقرب من حدرة الفيل ، ونهبوا جميع قناديلها وحوائج الأعجام الصوفية الذين كانوا بها ، ودكاكين الصليبة ضميمة لذلك ، وصاروا يمسكون حاشية صرغتمش وغلمانه ، وينهبون بيوتهم ... واستمر هذا الأمر من أول النهار الى ما بعد العصر .

فلما كان يوم الثلاثاء صبيحة ذلك اليوم قيدوا الأمير صرغتمش ، وأرسلوه الى السجن بثغر الاسكندرية ، وأمسكوا معه جماعة من الأمراء ممن كانوا من عصبته — وهم الأمير طشتمر القاسمى حاجب الحجاب ، والأمير طقبغا صاووق ، والأمير جركس الرسولى ، وغير ذلك من الأمراء — وأرسلوهم الى الاسكندرية .

ثم ان الأمير صرغتمش أقام فى السجن نحو ثلاثة شهور وأشاعوا فى القاهرة موته . قيل انه خنق وهو فى السجن . وكان أميرا عظيما مهيبا ، وكان فى سعة من المال ، وقد أخذ بغتة من حيث لا يشعر كما قيل فى المعنى :

وان امرأ دنياه أكبر همه
لمستمسك منها بحبل غرور

وفيها جاءت الأخبار بأن الأمير منجك اليوسفى قد أمسك ، فلما حضر بين يدى السلطان كان عليه بشت عسلى وعلى رأسه مئزر صوف أبيض ، فوبخه السلطان بالكلام ، ثم عفا عنه ورسم له بامرة أربعين فى الشام ويكون به طرخانا ، فخلع عليه وخرج الى الشام من يومه وسافر .

سنة اثنتين وستين وسبعمائة (١٣٦١ م) :

فيها تزايدت عظمة السلطان حسن ، وتناهى أمره فى العلو ، وكثرت مماليكه ، فأهدى اليه بعض ملوك اليمن خيمة عظيمة غريبة الشكل ، بها هيئة قاعة وبها حمام ، وهى منقوشة بصنعة غريبة ، فتوجه السلطان الى بر الجيزة ، ونزل بكوم برا ونصب هناك تلك الخيمة المقدم ذكرها ، فكان أهل القاهرة يخرجون ويتوجهون الى نحو كوم برا حتى يتفرجوا على تلك الخيمة ، وفيها يقول ابن أبى حجلة :

حوت خيمة السلطان كل عجيبة
فأمسيت منها باهتا أتعجب
لسانى بالتقصير فيها مقصر
وان كان فى أطنابها بات يطنب

وقال فيها أيضا عفا الله عنه :

اذا ما خيمـــة الســـلطان لاحت
فقـــل فى حسـنها نظمـا ونثرا
وان رفعت ورمت النصـب منهـا
فصف أطنابهـا وهـلم جــرا

ثم ان السلطان طابت له الاقامة هناك ، فأقام نحو ثلاثة شهور — وكان زمن الربيع — وكان بالقـاهرة أوخام وموت ، فأقام السـلطان هناك حتى تذهب تلك الأوخام عن المـدينة ، فكان هناك فى أرغد عيش ، وعنده فى كل ليـلة مغانى عرب وخيال ظل وحراقة نفط ... وهو لا يدرى ما خبىء له فى الغيب من الحوادث ، فكان كما قيل :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحق لسكان البسـيطة أن يبكوا

فلما أقام السلطان هنـاك هذه المدة ، وكان بعض الأمراء يرمى بين السلطان وبين الأمير يلبغا الفتن ، وكان الأمير يلبغا من مماليك الســلطان حسن ، فحسنوا للسلطان الفتك به ، فدبت بينه وبين السلطان عقارب الفتن . فلمـا كانت ليـلة الأربعاء تاسع جمادى الأولى وهو فى الخيام ، أحس الأمير يلبغا بذلك فخرج من الخيام ، فلما كبس عليه السلطان لم يجد بالخيام أحدا—وكان الأمير يلبغا قد أكمن للسلطان كمينا — فلما رجع خرج عليه ذلك الكمين فوقع مع السلطان واقعة عظيمة ، فقتل من مماليك الســلطان جمـاعة ، وانكسر الســلطان وغرق عسكره ، فهرب تحت الليل وعدى من طرا ، وطلع الى القلعـة فتبعه الأمير يلبغا .

فلما طلع السلطان الى القلعة لم يجد معه من المماليك الا القليل ، ولم يكن معـه من الأمراء سـوى الأمير ثمان تمر العمرى والأمير أيدمر الدوادار الكبير وبعض مماليك صغار ، فلم يجد الســلطان للماليك خيولا يركبونها لأن الخيول كانت فى الربيع . فلما أسفر النهـار حطم الأمير يلبغا وطلع الى الرميلة وحاصر السلطان وهو فى القلعة . فلما رأى السلطان عين الغلبـة نزل من القلعة — هو والأمير أيدمر الدوادار — ولبسوا زى العرب ، وقصد السلطان بأن يتوجه نحو الشام ليستنجد بالأمير بيدمر الخوارزمى نائب الشام .

فلما نزل السلطان من القلعة ووصل الى المطرية قبض عليه وعلى الأمير أيدمر الدوادار جماعة من العربان وأحضروهما الى الأمير يلبغا . فأما الأمير أيدمر فقيـدوه ، وأرسـلوه الى السـجن بثغر الاسـكندرية ، وأما السلطان حسن فـكان آخر العهد به ... قيل انه خنق ورمى فى البحـر ولم يعرف له مكان قبر ، ولم يدفن فى مدرسته داخل القبة التى بها . وكانت قتلته فى ثانى عشر جمادى الأولى سنة اثنتين وستين وسبعمائة . وكان ملكا شجاعا ، بطلا ، مقداما مهيبا ، نافذ الكلمة ، وافر الحرمة ، عالى الهمة . وكان محبا للرعية ، غير أنه كان كثيرا ما يصادر أرباب الوظائف لأجل المال . وكان له من العمـر لما مات نحو سـبع وعشرين سـنة ، وقد دارت لحيته . وكان عربى الوجه ، أشقر اللحية ، أشهل العينين لأن أمه كانت رومية الجنس . وكان نحيف الجسد ، معتدل القامة ، وكان يميـل الى اللهو والطرب وشرب الراح ، مولعا بحب الملاح ، لا يمـل من شرب الـراح وسماع الغناء ليلا ولا نهارا ، حتى قيل فيه :

لمـا أتى للعـاديات وزلزلت
حفظ النســاء وما قرا للواقعة
فلاجل هذا الملك أضحى لم يكن
وأتى القتـال وفصلت بالقـارعة

لسو عامل الرحمن فاز بكهفه
وبنصره فى عصره للسابعة

من كانت الأنعام من أحزابه
عطعط به الدخان نار لامعة

أراد الناظم بقوله « عطعط » الاشارة الى مغن كان اسمه عطعط ، وأشار بالدخان الى اسم مشبب كانا يغنيان بالديار المصرية والبلاد الشامية ...

وكانت مدة سلطنته عشر سنين ونصفا . فالسلطنة الأولى بثلاث سنين وتسعة أشهر وأيام ، والسلطنة الثانية ست سنين وتسعة أشهر وأيام .

ولما مات السلطان حسن خلف من الأولاد عشرة ذكور ، وهم : سيدى أحمد ، وسيدى على ، وسيدى قاسم ، وسيدى اسكندر ، وسيدى موسى ، وسيدى يحيى ، وسيدى شعبان ، وسيدى يوسف ، وسيدى اسماعيل ، وسيدى محمد . وخلف من البنات ستا .

وكان فى أيامه من أولاد الناس ثمانية أمراء مقدمى ألوف ، وهم : عمر بن أرغون النائب ، واستبغا بن بكتمر الأبوبكرى ، ومحمد بن المحسنى ، ومحمد بن آل ملك نائب السلطنة ، وموسى بن أرقطاى النائب ، ومحمد بن طرغاى ، ومحمد بن بهادر آص ، وموسى بن الأزكشى .

وكان من أولاد السلطان حسن ثلاثة أمراء مقدمين ، وهم : سيدى أحمد ، وسيدى على ، وسيدى قاسم .

وكان فى أيامه من أولاد الناس أمراء طبلخانات وعشراوات كثير ، وكان منهم نواب فى البلاد الشامية : بيدمر الخوارزمى نائب الشام ، والعلائى على بن قشتمر نائب حلب ، وابن صبيح نائب صفد . وكان قصد الملك الناصر حسن انشاء أولاد الناس فى أيامه .

وهو آخر من تولى الملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون . وكان مجموع من تولى من أولاد محمد بن قلاون ثمانية . وكان الناصر حسن كفؤا للسلطنة .

ولما قتل تولى من بعده ابن أخيه المظفر حاجى .

وأما من توفى فى أيامه من الأعيان فهم :

الملك الصالح صلاح الدين صالح ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون ، أخو الملك الناصر حسن . وقد تقدم أنه لما خلع من السلطنة استقر مقيما بدار الحرم الى أن مات فى سنة احدى وستين وسبعمائة فى دولة أخيه حسن ، ودفن فى تربة عمه الملك الصالح على بن قلاون داخل القبة التى أنشأها بجوار المدرسة الأشرفية التى بطريق السيدة نفيسة .

وتوفى فى أيامه الشيخ بهاء الدين بن عقيل من أعيان العلماء ، وتوفى الحافظ العلامة مغلطاى ، وتوفى الشيخ أبو امامة من أعيان العلماء ، وتوفى ابن النقاش من كبار علماء الشافعية ، وغير ذلك من أعيان العلماء جماعة كثيرة .

وتوفى فى أيامه أيضا الشيخ صفى الدين الحلى صاحب شرح البديعية . وكان شاعرا ماهرا ، وله شعر جيد فى ديوان لطيف كله غرر ومحاسن . ومن لطائف قوله :

من شاء يملك حفظ صحة جسمه
ويفوز طول حياته بدوامها

فليجعلن غذاءه من أربع
لايقبل التغيير فى أقسامها :

من لحم ساعته ، وخبز نهاره
وطعام ليلته ، وقهوة عامها

الملك المنصور محمد

هو الملك المنصور محمـد ، ابن الملك المظفر حاجى ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون ، وهو الحـادى والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويع بالسلطنة بعد قتل عمـه الملك الناصر حسن فى يوم الأربعاء تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين وستين وسبعمائة ، فتولى الملك وله من العمر أربع وعشرون سنة . وكان القائم فى أمور تدبير مملكته المقر السيفى يلبغا العمرى ، فاستقر به أتابك العساكر . وكانت عظمة الأمير يلبغـا فى أيام الملك المنصـور ، فخلع على المقر السـيفى قشـتمر المنصورى واسـتقر به نائب السلطنة ، ثم رسم بالافراج عمن كان مسجونا من الأمراء بثغر الاسـكندرية — وهم : الأمير طاز النـاصرى نائب حلب ، والأمـير جركتمر الماردينى ، والأمير قطلوبغا المنصورى ، والأمير طشتمر القاسمى ، والأمير ملكتمر المحمـدى ، والأمير أقتمر عبد الغنى ، والأمير بكتمر المؤمنى وهو صاحب سبيل المومنين المصلاة الآن ، والأمير جردمر ، والأمير قرابغا بنخاص — فلما حضروا الى القاهرة وطلعوا الى القلعة ، خلع عليهم وأنعم لهم بتقـادم ألوف ، وفرق عليهـم الاقطـاعات السنية . فلما فعل ذلك وتم أمره فى السلطنة أقام مدة يسيرة وهو نافذ الكلمة وافر العقل ، فكان كما قيل فى المعنى :

لا تركنن الى الدنيا وان كبرت
فصـفوها لك ممزوج بتكدير

ثم جاءت الأخبـار من الشام بأن بيـدمر الخوارزمى نائب الشام أظهر العصيان ، وخـرج عن الطاعة ، وملك قلعة دمشق ، وقتل نائب القلعة ... وقد وافقه على ذلك جماعة من النواب .

فلما جاءت هذه الأخبار الى القاهرة اضطربت الأحوال ، وعلق السلطان الجاليش ، وأخـذ فى أسباب الخروج الى الشام . فلما كان ثانى شعبان من سنة اثنتين وستين وسبعمـائة خـرج الملك المنصور محمد من القاهرة قاصدا نحو الشـام ، وخرج صحبتـه الأتابكى يلبغـا العمرى وسائر الأمراء ، فلما وصل السلطان الى الشام أرسل له أمانا ، فلما نزل من القلعة وقابل السلطان قبض عليـه الأتابكى يلبغـا وقيـده وأرسـله الى الاسكندرية . ثم ان السلطان خلع على الأمير على الماردينى واستقر به نائب الشام عوضا عن بيدمر الخوارزمى ، واستقر بالأمير قطلوبغا الأحمـدى نائب حلب ، ثم رجع السلطان والأتابكى يلبغا الى القاهرة ، فكان يوم دخـوله الى القـاهرة يوما مشهودا ، وزينت له المدينة ، وطلع الى القلعـة فى موكب عظيم .

سنة ثلاث وستين وسبعمائة (١٣٦٢ م) :

فيها توفى الامام الخليفة المعتضد بالله أبو بكر ابن المستكفى بالله ، وكانت وفاته فى ليلة الأربعاء ثامن عشر جمادى الأولى من السـنة المذكورة . وكانت مدة خلافته نحو عشر سنين . ولمـا مات عهد بالخلافة الى ولده محمـد ، فولاه السلطان وتلقب بالمتوكل على الله .

وفيها تزوج الأتابكى يلبغا بخوند طولو — زوجة أستاذه الملك الناصر حسن — وما كفاه أنه قتله ، بل تزوج بامرأته زيادة على ذلك .

سنة اربع وستين وسبعمائة (١٣٦٣ م) :

فيها توفى سيدى حسين ابن الملك الناصر محمد ابن قلاون . وهو والد الملك الأشرف شـعبان ،

وهو آخر من توفى من أولاد الملك الناصر محمد ابن قلاون . مات ولم يل السلطنة ، فانه كان عنده خفة ووهج وصعصعة . فلما قتل السلطان حسن لم يوافق الأتابكى يلبغا على سلطنته ، واختار محمد ابن الملك المظفر حاجى فولاه كما تقدم . وكانت وفاته يوم السبت رابع ربيع الآخر من السنة المذكورة .

ومن الحوادث فى هذه السنة أنه فى يوم الثلاثاء رابع شعبان طلع الأتابكى يلبغا الى القلعة وقبض على السلطان الملك المنصور محمد ، وخلعه من السلطنة ، وأدخله دور الحرم متحفظا به ، وولى سيدى شعبان ابن سيدى حسين المقدم ذكر وفاته ، فكانت مدة سلطنة الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر حاجى بالديار المصرية سنتين وأربعة أشهر لاغير .

واستمر فى دور الحرم مقيما فى غبوق وصبوح لايفيق من السكر ساعة ، وعنده جوقة جوارى مغنيات نحو عشر من الجوارى يدفون بالطارات عند الصباح والمساء ، وكانت هذه عادة رؤساء مصر تغنى عندهم الجوارى المغنيات ، وآخر من كان يفعل ذلك من أعيان مصر الأمير جمال الدين محمود الاستادار ، ثم بطل ذلك مع جملة ما بطل من محاسن عيشة الأكابر بالديار المصرية .

ثم ان الملك المنصور أقام على ذلك وهو مختفى فى دور الحرم الى أن مات فى ليلة السبت تاسع المحرم سنة احدى وثمانمائة فى دولة الظاهر برقوق ، ومات وله من العمر نحو خمس وخمسين سنة [1] ، ودفن فى تربة جدته أم أبيه خوند طغلى عند الباب المحروق ، وخلف من الأولاد نحو خمسة ذكور واناث ، واستمرت هذه الجوقة المغنيات بعده دائرة فى القاهرة يعرفن بمغانى المنصور .

(١) لا يستقيم هذا مع قول المؤلف ان عمره كان اربعا وعشرين سنة عندمابايعته عام ٧٦٢ هـ .

وكان الملك المنصور هذا لما خلع من السلطنة قنع من الدنيا بأرغد العيش من شرب الخمور وسماع الزمور ، وكان راضيا بما فيه من ذلك ، واستغنى بذلك عن السلطنة كما قيل فى المعنى :

كل الملوك تسلطنوا ... بالملك والسلاح
وأنا قنعت منه ... بالراح والملاح

الملك الأشرف أبو المعالى

هو الملك الأشرف ، أبو المعالى زين الدين شعبان ، ابن الأمجد مجد الدين حسين ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون ، وهو الثانى والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويع بالسلطنة فى يوم الثلاثاء خامس شهر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة ، وتلقب بالملك الأشرف ، ولبس خلعة السلطنة ، وجلس على سرير الملك ، ودقت له البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء .

وكان له من العمر لما تسلطن نحو اثنتى عشرة سنة ، وكان مولده فى سنة أربع وخمسين وسبعمائة ، وكان الأشرف شعبان مليح الشكل بديع الجمال ، تولى الملك بعد خلع ابن عمه محمد المنصور بن المظفر حاجى . وقد تعصب لسلطنته الأتابكى يلبغا العمرى ، وفيه يقول بعض الشعراء:

بالملك الأشرف المفدى
شعبان فزنا بكل فضل
من وطن الكون والرعايا
بطى ظلم ونشر عدل

وفيه يقول خلف الغبارى من زجل :

حب قلبى شعبان موفق رشيد
وجمالو أشرق ، ومالو حدود
وأبوه الحسن ، وعمه الحسن
وارث الملك من جدود الجدود

سل لحظك صارم لقتل العدا
وانت منصور طول المدى والسنين

زعق السعد بين يديك شاويش
فرح القلب بعد ما كان حزين

ونصب لك كرسى على المملكه
وظهر لك نصره بفتحو المبين

والعصايب من حولك اشتالت
خفقت فى الركوب عليك البنود

فاحكم احكم فى مصرنا سلطان
فجميع الملاح لحسنك جنود

فلما تم أمر الأشرف شعبان فى السلطنة آقر الأتابكى يبلغا أميرا كبيرا على عادته ، واستقر بالأمير قشتمر المنصورى فى نيابة السلطنة على عادته كما كان ، ثم عمل الموكب وجلس على سرير الملك وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : المقر السيفى طنبغا الطويل ، واستقر به أمير سلاح عوضا عن الأمير آزدمر العمرى الناصرى الشهير بالخازندار جد والد مؤلفه ، واستقر بالأمير أزدمر المذكور نائب طرابلس ، وخلع على الأمير عشقتمر الماردينى ، واستقر به أمير مجلس على عادته . وخلع على الأمير أرغون الشهير بالأسعردى ، واستقر به دوادارا كبيرا . وخلع على الأمير أرغون الأرقى ، واستقر به رأس نوبة النوب . وخلع على الأمير طيبغا العلائى ، واستقر به حاجب الحجاب .

ثم عمل الموكب الثانى وخلع فيه على من يذكر من الأمراء — وهم أرباب الوظائف — وهم : المقر السيفى منكلى بغا الشمسى ، واستقر به نائب الشام . وأرسل المراسيم الشريفة الى قطلوبغا الأحمدى بأن يكون نائب حلب على عادته . ثم خلع على الأمير قشتمر المنصورى ، واستقر به نائب صفد . وخلع على الأمير عمر شاه — وهو صاحب القنطرة — واستقر به نائب حماه . وخلع على الأمير عمر بن أرغون النائب ، واستقر به نائب غزة . ثم فرق الاقطاعات على جماعة من المماليك وجعل منهم أمراء طبلخانات وأمراء عشراوات ، ثم أنفق على العسكر وأرضى الجند بكل ما يمكن ، فاستقام أمره فى السلطنة ونفذت أحكامه .

سنة خمس وستين وسبعمائة (١٣٦٤ م) :

فيها أرسل السلطان بالقبض على قطلوبغا الأحمدى نائب حلب . وخلع على الأمير طشقتمر الماردينى ، واستقر به نائب حلب عوضا عن قطلوبغا الأحمدى . ثم خلع على الأمير خليل ابن قوصون ، واستقر به أمير مجلس عوضا عن الأمير طشقتمر الماردينى .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من دمشق بأن نائب دمشق منكلى بغا الشمسى فتح باب كيسان الذى بدمشق ، وكان هذا الباب مقفلا من أيام نور الدين فاقتضى الرأى فتح الباب بسبب من يمر من المسافرين ، فجمع النائب القضاة الأربعة وأعيان دمشق واستشارهم فى ذلك فأشاروا بفتحه ففتح . ثم ان النائب بنى القنطرة عند هذا الباب فحصل بها منفعة للمسافرين وغيرهم .

وفى هذه السنة رسم السلطان بابطال الوكلاء من أبواب القضاة والحكام بالديار المصرية والبلاد الشامية ، فامتثلوا ذلك . وقد قال بدر الدين بن حبيب :

يقول ذا الحق الذى قاله
خصم ألد ولسان كليل

ان صيروا أمر وكيلى سدى
فحسبى الله ونعم الوكيل

سنة ست وستين وسبعمائة (١٣٦٤/٦٥ م) :

فيها توفى الملك الصالح ابن الملك المنصور غازى صاحب ماردين . وكان ملكا عظيما جليلا عادلا فى الرعية . وقد أقام فى مملكة ماردين نحو أربع وخمسين سنة ، وعاش من العمر احدى وسبعين سنة . فلما جاءت الأخبار بذلك تأسف السلطان لموته .

وفيها توفى نور الدين الأسعردى الشاعر . وكان شاعرا ماهرا ، وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

دب العذار بخدّه ثم انثنى
فكأنه من وجنتيه مُروّعُ

نمل يحاول نقل حبة خاله
فتمسه نار الخدود فيرجع

وفى هذه السنة — فى ربيع الآخر — أسلم أبو الفرج المقسى القبطى ، وتلقب بشمس الدين ، وقرر فى استيفاء المماليك ، وهو من أجداد تاج الدين المقسى ناظر الخواص الشريفة .

سنة سبع وستين وسبعمائة (١٣٦٥/٦٦ م) :

فيها رسم السلطان لنائب حلب بأن يأخذ العساكر الحلبية ويتوجه الى حصار قلعة خرت برت من أعمال ديار بكر ، فسار اليها وحاصرها نحوا من أربعة أشهر ، فطلب أهلها الأمان ونزلوا طائعين ، فأرسل نائب حلب يعلم السلطان بذلك ، فأرسل اليه السلطان خلعة بأن يستقر بنيابة قلعة خرت برت على عادته ويحلفه أيمانا عظيما بأنه لا يرجع يخامر ولا يعصى السلطان .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من ثغر اسكندرية بأن صاحب قبرص قد وصل الى ثغر الاسكندرية فى سبعين مركبا من المراكب الحربية مشحونة بالمقاتلين ، فطرقوا المدينة يوم الجمعة ثالث عشرى صفر ، فخرج اليهم نائب الاسكندرية وجماعة من أهل البحيرة فوقعوا معهم واقعة عظيمة ظاهر باب البحر ، فانكسر نائب الاسكندرية وهرب وهرب العربان الذين كانوا معه ، فدخل الفرنج الى المدينة ، ونهبوا أسواقها وبيوتها ، وقتلوا جماعة كثيرة من المسلمين ، وحرقوا باب رشيد .

فلما جاءت الأخبار بذلك الى القاهرة كان السلطان ، هو والأتابكى يلبغا ، فى وادى العباسة يتصيدون ، فلما بلغتهم هذه الأخبار رجعوا الى القاهرة ونودى فى العسكر قاطبة بأن السلطان يصلى الظهر ويركب فلا يتأخر أحد من المماليك السلطانية . فلما صلى السلطان الظهر ركب وعدى الى بر الجيزة — وكان النيل فى قوة الزيادة — فقاسى العسكر مشقة زائدة فى التعدية .

ثم ان السلطان سار الى الطرانة ونزل هناك ، وعين الأمير طنبغا الطويل أمير سلاح ، والأمير خليل بن قوصون أمير مجلس ، والأمير قطلوبغا المنصورى والأمير كوكنداى أخا طنبغا الطويل ، وعين معهم ألف مملوك ، ورسم بأن يتقدموا جاليش العسكر ... فلما وصلوا الى ثغر الاسكندرية وجدوا الفرنج رحلوا من الثغر وتوجهوا نحو بلادهم بعد ماجرى منهم ماجرى من القتل والنهب وغير ذلك .

فلما بلغ السلطان رجوع الفرنج الى بلادهم رجع الى القاهرة هو والأمراء ، وأرسل مرسوما الى الأمراء الذين تقدموا الى الاسكندرية بأن يقيموا هناك ، ويعمروا ما فسد من المدينة ويطمنوا أهل البلد حتى لايرجع اليهم الفرنج .

ثم ان السلطان خلع على الأمير بكتمر الشريف — أحد مقدمى الألوف — وجعله نائب ثغر الاسكندرية . وهو أول من تولى نيابة ثغر

الاسكندرية من الأمراء المقدمين ، وكان قبل ذلك يتولاها جماعة من الكشاف ومن أولاد الناس ... فظهرت من يومئذ حرمة ثغر الاسكندرية ، وزال عنها أولئك النواب الأصاغر ، فخرج اليها الأمير بكتمر الشريفى فى برك عظيم ، ومماليك كثيرة ، وحرمة وافرة . وقد قال بعض الشعراء فى النائب المنفصل على لسان حال الاسكندرية هذين البيتين :

اسكندرية قالت يانائبى صن دماكا
لقد تغير ثغرى واحتجت فيه سواكا

وقال الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبى حجلة يرثى ثغر الاسكندرية فيما جرى عليه من الفرنج فى هذه الواقعة :

ألا فى سبيل الله ما حل بالثغر
على فرقة الاسلام من عصبة الكفر

أتاها من الافرنج سبعون مركبا
وضاقت بها العربان فى البر والبحر

وصير منها أزرق البحر أسودا
بنو الأصفر الباغون بالبيض والسمر

أتوا نحوها هجما على حين غفلة
وباعهم فى الحروب يقصر عن فتر

فكم من فقير عاش فيها من الغنى
وكم من غنى مات فيها من الفقر

نثرت دموعى يوم فرط نظامهم
فياليت شعرى من يبلغهم نثرى

ومن الحوادث فى هذه السنة أن الأمير طنبغا الطويل أمير سلاح خرج نحو وادى العباسة على سبيل التنزه ، فأقام هناك أياما يتصيد ، فأرسل اليه الأتابكى يلبغا خلعة مع جماعة من الأمراء ومرسوما سلطانيا بأن يستقر نائب الشام ويتوجه من هناك . فلما أوصل اليه ذلك الأمراء — وهم الأمير أرغون الأسعردى الدوادار ، والأمير طيبغا العلائى حاجب الحجاب ، والأمير أرغون الأرقى رأس نوبة النوب ، والأمير أروس المحمودى استادار العالية — تحدثوا معه فى أمر نيابة الشام ، فأبى الأمير طنبغا الطويل لبس الخلعة وأظهر العصيان ، والتف عليه أولئك الأمراء الذين توجهوا اليه ، ووافقوه على العصيان ، وتوجهوا الى القاهرة ليتفقوا مع الأتابكى يلبغا . فلما وصلوا الى خانقاه سرياقوس ، بلغ الأتابكى يلبغا ذلك فطلع الى القلعة ، وأركب الملك الأشرف شعبان ونزل به من القلعة ، ووقفوا تحت القلعة ودقت الكئوسات حربيا ، ونادوا فى القاهرة : « من أطاع الله والسلطان يركب ويجىء تحت الصنجق السلطانى » ... فركب العسكر قاطبة وطلعوا الى الرميلة ، فوقف السلطان ساعة حتى تكامل العسكر ، ومشى تحت الصنجق السلطانى وتوجه الى نحو قبة النصر فوقف هناك ، وذلك فى يوم السبت سابع ربيع الأول من السنة المذكورة .

هذا ما كان من أمر السلطان والأتابكى يلبغا .

وأما ما كان من أمر الأمير طنبغا الطويل أمير سلاح والأمراء الذين معه ، فانهم ركبوا من العباسة واستمروا سائقين طول الليل حتى وصلوا الى المطرية ... فتعبت خيولهم ، وتشتتت غلمانهم ، فتلاقوا مع عسكر السلطان على قبة النصر ، وكان بينهما هناك واقعة عظيمة ، فانكسر الأتابكى يلبغا وولى مدبرا . وكان الأتابكى يلبغا قد أكمن كمينا من العسكر عند فم وادى السدرة . فلما ولى الأمير يلبغا مهزوما خرج ذلك الكمين من وادى السدرة على الأمير طنبغا الطويل ومن معه فانكسروا كسرة عظيمة ، وقبض على الأمير أرغون الأسعردى الدوادار والأمير أروس المحمودى الاستادار ، والأمير كوكندى أخى طنبغا الطويل ،

وجماعة كثيرة ممن كانوا معهم من الأمراء . ثم قبض على الأمير طنبغا فى أثناء ذلك اليوم من تربة فى باب القرافة . فلما تكامل الأمراء قيدهم الأتابكى يلبغا فى تلك الليلة وأرسلهم تحت الليل الى السجن بثغر مدنة الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على جماعة كثيرة من الأمراء عوضا عمن قبض عليهم ممن تقدم ذكرهم كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

وفيها توفى الملك المجاهد سيف على صاحب بلاد اليمن ، وتولى من بعده ابنه عباس وتلقب بالملك الأفضل .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة الأمير جبار بن مهنا أمير آل فضل من عربان الشام ، فلما حضر أكرمه السلطان وخلع عليه واستقر به على عادته ... وكان له مدة طويلة وهو عاص فلم يؤاخذه السلطان وحلم عليه .

سنة ثمان وستين وسبعمائة (٦٧/١٣٦٦ م) :

فيها فرق السلطان اقطاعات الأمراء الذين كانوا قد ركبوا مع الأمير طنبغا الطويل فنفاهم وأخرج اقطاعاتهم على الأمراء الطبلخانات والعشراوات .

وفيها أرسل المقر السيفى منكلى بغا نائب الشام يسأل السلطان فى الحضور الى مصر زائرا ليرى وجه السلطان . فلما حضر الى القاهرة أحضر صحبته تقادم كثيرة للسلطان حتى للأمراء والأتابكى يلبغا ، فأكرمه السلطان غاية الاكرام ، وخلع عليه واستقر به نائب حلب ، وجعل حلب أكبر من الشام كما كانت على القاعدة القديمة ، وعين معه عسكرا يقيمون بحلب عنده .

ثم ان السلطان خلع على الأمير أقتمر عبد الغنى واستقر به نائب الشام عوضا عن منكلى بغا .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن الأتابكى يلبغا رسم بعمارة مراكب أغربة بسبب تجريدة تتوجه الى بلاد الفرنج ، فان جماعة من الفرنج صاروا يعبثون فى البحر ويقطعون الطريق على التجار ، فعين لهم السلطان تجريدة ، وأنشأ مائة غراب ، ورسم للأمير طنبغا العلائى بأن يكون شادا على عمارة هذه الأغربة ، فأنشأ عمارتها فى الجزيرة الوسطانية ، فلما كملت عمارتها نزل السلطان والأتابكى يلبغا الى الجزيرة الوسطى يتفرجان على القائها فى البحر ، فكان يوم نزول السلطان يوما مشهودا . فألقوا الأغربة قدامه فى البحر والطبل عمال والنفط ، وزينت الأغربة بالصناجق والسلاح ، ولعبوا بها فى البحر ذهابا وايابا والسلطان ينظر الى ذلك .

فلما انقضى ذلك اليوم عدى السلطان من هناك الى بر الجيزة وصحبته الأتابكى يلبغا ، فتوجه الى نحو الطرانة فأقام بها أياما وهو فى أرغد عيش . فبينما هو على ذلك اذ وثب مماليك الأتابكى يلبغا عليه هناك .

وسبب ذلك أن الأتابكى يلبغا ضرب بعض مماليكه هناك بالمقارع وقطع أنفه ، فتعصب عليه جماعة من خشداشينه ووثبوا على أستاذهم .

فلما كانت ليلة الأربعاء سادس ربيع الآخر من سنة ثمان وستين وسبعمائة ، ركب مماليك يلبغا وكبسوا عليه وهو فى الخيام ، فهرب تحت الليل وهو فى زى فلاح ، فعدى من بولاق التكرور وطلع الى الجزيرة الوسطى ، ثم توجه الى بيته الذى فى الكبش . فلما طلع النهار طلب الأمراء الذين كانوا بالقاهرة ، ولبسوا آلة الحرب ، وتوجه الى الجزيرة ونادى أن لا أحد من النواتية يعدى

بأحد من المماليك الى بر مصر ، ومنع المراكب من التعدية ، وجعل الأمراء الذين معه كل واحد فى مكان ... فأقام جماعة منهم فى بولاق ، وجماعة فى مصر العتيقة ، وجماعة فى دير الطين . وكان معه من الأمراء الأمير طنبغا العلائى حاجب الحجاب ، وكان معه استاداره والأمير أينبك البدرى وكان أمير أخوره ، والأمير أقبغا جركس وكان دواداره . واجتمع عنده جماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات والمماليك السلطانية .

هذا ما كان من الأتابكى يلبغا .

وأما ما كان من أمر مماليك يلبغا فانهم لما علموا بهروب أستاذهم جاءوا الى السلطان الملك الأشرف شعبان وقالوا له : « قم واركب معنا » ... فأبى السلطان ذلك . فقالوا له : « ان لم تركب معنا والا نقتلك » ... فقام وركب معهم ، وجاء الى بر انبابة فلم يجد مركبا يعدى فيه ، فأقام فى بر انبابة يوم الأربعاء ويوم الخميس .

ثم ان الأتابكى يلبغا طلع الى القلعة ، وطلب سيدى أنوك — أخا السلطان الأشرف شعبان — وأخرجه من دور الحرم بالغصب ، وأجلسه على سرير الملك ، وقبلوا الأرض أمامه ولقبوه بالملك المنصور ، ونودى باسمه فى القاهرة .

فلما كان الجمعة ركب الأتابكى يلبغا وركب سيدى أنوك الذى تسلطن معه ، وجمع العسكر ... فصار الملك الأشرف شعبان فى بر انبابه والأتابكى يلبغا فى الجزيرة الوسطى وهما يتراميان بالنشاب والمكاحل النفط حتى حال بينهما الليل .

ثم ان الملك الأشرف شعبان طلب شخصا من النواتية يسمى محمد لبطه — وكان رئيسا على المراكب فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون — فقال له السلطان : « قصدى أن تعدينى الى ذلك البر » فقال له : « نعم أنا عدى بك » . ثم انه أحضر ثلاثين غرابا من الأغربة التى كانت عمرت بسبب التجريدة ، فكسروا بروقها وعمروها بالمقاديف ، وعدى بالسلطان والعسكر من الوراق وهم راكبون خيولهم ، فطلعوا من جزيرة الفيل ، وذلك فى يوم السبت .

فلما طلع السلطان من جزيرة الفيل ، توجه على خليج الزعفران وخرج من بين الترب وطلع الى القلعة ، فتسامعت به الناس والعسكر ، فصاروا يتسحبون من عند الأتابكى يلبغا ويطلعون الى السلطان فى القلعة ، فلم يبق عند الأتابكى الا القليل من العسكر ، فرجع الأتابكى يلبغا من الجزيرة ، وطلع الى الرميلة بمن بقى معه من العسكر ، فوقف بسوق الخيل ساعة فلم يجىء اليه أحد من العسكر ، فتلاشى أمره وولى سعده وبدا عكسه .

فلما رأى ادبار نفسه نزل عن فرسه وصلى ركعتين فى وسط الرميلة قدام باب الميدان ، ثم حل سيفه وأعطاه للأمير طنبغا حاجب الحجاب ، ثم ركب فرسه وتوجه الى بيته الذى فى الكبش ، فرجمه العوام وسبوه سبا فاحشا لأنه كان يبغض العوام ويسلط مماليكه عليهم ، فما وصل الى بيته الا بعد جهد كبير ، فأقام فى بيته ذلك اليوم ، وأرسل اليه السلطان بعض الأمراء وقت المغرب فأخذه وطلع به الى القلعة هو والأمير طنبغا ، فسجنوه بها الى ما بعد العصر ، فهجمت مماليك يلبغا عليه ، وأخرجوه من السجن ونزلوا به من باب المدرج وهو ماش مشحطط بينهم . فلما وصلوا به الى رأس الصوة عند الحوض تقدم اليه مملوك من مماليكه يقال له قراتمر وضربه بالسيف فرمى رأسه عن جثته ، وأخذ بقية مماليكه الرأس

ووضعوها فى مشعل ، ونزلوا بها من الصليبة ، وتوجهوا بها الى بيته الذى فى الكبش .

فلما طلع النهار أحضروا الرأس بين يدى السلطان — وكان الأتابكى يلبغا له خلف أذنه سلعة — فلما رأوا ذلك لم يشكوا فى قتله ، ثم صار جسده مرميا فى الصوة على الأرض والناس ينظرون اليه ، حتى أخـذ رأسه وجثته الأمير طشتمر الدوادار ودفنه فى تربة عند الباب المحروق ومضى أمره ، فكانت قتلته فى ليلة الأحد تاسع ربيع الآخر سنة ثمان وستين وسبعمائة ، وفيه قال بعض الشعراء :

أتاك على يديك المـوت لما
ظهرت بما نهـاك الشرع عنه
فلا تعتب سواك على الذى قد
بليت به فدود الخـل منـه

وقال آخر :

بدا شـقا يلبغـا وعدت
عـداه فى سـفنه اليـه
والكبش لم يفده وأضحت
تنوح غـربانه عليـه

وقال آخر :

حواشى يلبغـا كانوا زناة
فلا تعجب اذا رجموا جهارا
ولا عجب اذا سكروا بحرب
فأهل الكبش مابرحوا سكارى

وكان الأتابكى يلبغا أميرا عظيما جليل القدر ، فى سعة من المال ، وافر الحرمة ، نافذ الكلمة . وكان فى دولة الملك الأشرف شعبان صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، والسلطان معه مثل اللولب يديره كيف شاء . وقد تزايدت عظمته فى تلك الأيام حتى بلغت مماليكه مايزيد عن ثلاثة آلاف مملوك . وكان من مماليكه أربعة مقدمو ألوف غير العشراوات . وكان راتب سماطه ضريبة كل صحن عشرة أرطال لحم ضانى ، فيقال صحن يلبعاوى ، واليه تنسب الطرز العراض اليلبغاوية الى الآن ، وأشياء كثيرة منسـوبة اليه فى آلة الحرب الى الآن ... لكنه كان سيىء الخلق ، سفاكا للدماء ، قتل جماعة كثيرة من الأمراء ومن مماليكه من غير ذنب ، ولا سيما قتله لأستاذه السلطان حسن . وقيل انه غضب يوما على « مثقال » مقدم المماليك فضربه ستمائة عصا وسط القصر الكبير . وكان من سيئاته جور مماليكه على الناس بالأذى ، لكنه رأى فى مبتدأ أمره من العز والعظمة ونفاذ الكلمة ما لا يراه غيره من الأمراء قبله ولا بعده ، وكان كما قيل :

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما
وأنت ناه لهـذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستجلى أوائله
لكنـه ربمـا مجت أواخره

قيل كان الأتابكى يلبغا اذا طلع الى القلعة تركب مماليكه ويصطفون من بيته الذى فى الكبش الى باب المدرج ويشق هو بينهم حتى يطلع الى القلعة ، وكانت مماليكه نحو ثلاثة آلاف مملوك . وقيل ان الوزير « قروينه » كان يحمل الى يلبغا فى كل يوم ألف دينار برسم سماطه .

ولما قتل يلبغا اضطربت أحوال القاهرة ، فطلع الأمراء الى القلعة وقبضوا على الأمراء ممن كان من عصبة الأتابكى يلبغا — وهم الأمير قرابغـا البدرى ، والأمير يعقوب شاه ، والأمير طيبغا العلائى حاجب الحجاب ، وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشراوات — فقيدوهم وأرسلوهم الى السجن بثغر الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى أستدمر الناصرى

واستقر به أتابك العساكر عوضا عن يلبغا العمرى ، وخلع على المقر السيفى قشتمر المنصورى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن طيبغا العلائى ، وخلع على المقر السيفى أيدمر الشامى واستقر به دوادارا كبيرا وأضاف اليه نظر الأحباس مع الدوادارية ، فكان أول من تكلم فى نظر الأحباس من الدوادارية.

وفيها قبض السلطان على الصاحب فخر الدين ابن قروينه وسلمه الى الأمير قرابغا الصرغتمشى ، فلا زال يعاقبه حتى مات تحت الضرب . قيل انه أحرق أصابعه بالنار وأحمى له خوذة فى النـار وألبسها له حتى مات .

ولما كان يوم الخميس سادس عشر رجب من سنة ثمان وستين وسبعمائة (١٣٦٦/٦٧ م) ، ثارت فتنة بين الأمراء فلبسوا آلة الحـرب وطلعوا الى الرميلة ، فنزل اليهم جماعة من المماليك السلطانية والتقوا معهم فكسروهم ومسكوا منهم جماعة من الأمراء ، منهم الأمير قرابغا الصرغتمشى ، والأمير برمش العلائى ، والأمير أينبك البدرى ، والأمير ايسان الرجبى ، والأمير قرابغا العزى ، والأمير مقبل الرومى . فلما قبضوا عليهم طلعوا بهم الى القلعة فرسم السلطان بتقييدهم وارسـالهم الى السجن بثغر الاسكندرية .

فلما جرى ذلك عز على بقية الأمراء فركبوا أجمعين ، وثارت فتنة عظيمة ، ولبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة ، فنزل السلطان الى الحراقة ، ودقت الكئوسات حربيا ، وأرسل السلطان يقول للامراء : « ايش سبب هذه الفتنة ؟ » فقالوا : « سلمونا الأمير أستدمر أمير كبير » ... وكان أستدمر هذا لما قتل يلبغا استقر عوضه أميرا كبيرا وسكن فى بيته الذى فى الكبش ، والتف عليـه جماعة من مماليك يلبغا ، ومشى على نظـام يلبغا فى الحرمة والشهامة .

فلما أرسل الأمراء الذين قد ركبوا يقولون للسلطان : « أنت أستاذنا ، وما نموت الا تحت أقدامك . ولكن سلموا لنا أستدمر ، فانه هو الذى يرمى الفتن بيننا وبين السلطان » ... فلما سمع الأمير ذلك نزل هُو وجماعة من الأمراء الذين كانوا فى القلعة عند السلطان والمماليك السلطانية من باب الدرفيل ، وجاءوا من وراء القلعة ، وطلعوا من رأس الصوة ، فلم يشعر الأمراء الذين فى سوق الخيل الا وقد دهاهم الأتابكى أستدمر هو ومن معه من العسكر ، واجتمع معه الجم الغفير من الزعر والعوام ، وبأيديهم المقاليع بالحجارة . فلما رأى الأمراء الذين فى سوق الخيل ذلك هربوا أجمعين ولم يثبت منهم أحد ، ودخـل فى قلوبهم الرعب فانهزموا من سوق الخيل ، ولم يثبت من الأمراء غير الأمير الجاى اليوسفى والأمير أرغون شاه تتر ، فوقعوا مع الأتابكى أستدمر ومن معه من مماليك يلبغا واقعة عظيمة كانت من أول النهار الى ما بعد الظهر ، فلم يطلع اليهم أحـــد من الأمراء ، ولا ساعدهم . فانكسر الأمير الجاى ، والأمير أرغون شاه تتر وهربا ، وانتصر عليهم الأتابكى أستدمر ومن معه من مماليك يلبغا .

ثم ان الأتابكى أستدمر كبس على الأمراء الذين انكسروا وقبض عليهم من بيوتهم — وهم : الأمير جركس أمير سـلاح ، والأمير أيدمر الشـامى الدوادار ، والأمـير الجاى اليوسـفى ، والأمير قطلوبغا ، والأمير أرغون شاه تتر ، والأمير طيغتمر النظامى ، والأمير قجماس الطازى ، والأمير أقطاى اليلبغاوى ، والأمير اقبغا الأحمدى ، وغير ذلك جماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات — فقيد الأمراء المقدمين وأرسلهم الى السـجن بثغر الاسـكندرية ... فكان عدة من قبض عليـه من الأمراء المقدمين فى هذه الحركة ثمانية أمراء ، ومن

الأمراء الطبلخانات وغير ذلك من العشروات نحو أحد عشر أميرا .

ثم ان بعض الأمراء قال للأتابكى أستدمر : « اقبض على السلطان وتسلطن أنت » ... فأبى من ذلك وأبقى السلطان على حاله . فلما راقت مدة الفتنة عمل السلطان الموكب وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : المقر السيفى ، والطنبغا المنجكى واستقر به أمير مجلس ، وخلع على المقر السيفى والطنبغا اليلبغاوى واستقر به رأس نوبة النوب ، وخلع على المقر السيفى بيرم الغزى قطقطاى واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن أيدمر الشامى ، وخلع على المقر السيفى سلطان شاه واستقر به حاجب الحجاب ، وخلع على الأمير قطلقتمر العلائى واستقر به أمير جاندار .

ثم ان السلطان أرسل خلف المقر السيفى أزدمر العمرى الناصرى الشهير بالخازندار — وهو جد مؤلفه كما تقدم — وكان السلطان نقله من نيابة طرابلس الى نيابة حلب ثم أرسل خلفه ، فلما حضر الى القاهرة خلع عليه واستقر به أمير سلاح عوضا عن الأمير قطلوبغا جركس . وكان الأمير أزدمر هذا تولى أمير سلاح أيضا فى دولة الملك الناصر حسن فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة بعد قتلة الأتابكى شيخو العمرى . وكان شيخو وأزدمر خشداشين من فرد تاجر . فلما كانت دولة الملك الأشرف شعبان أحضر الأمير أزدمر وأعاده كما كان . ثم ان السلطان أنعم على جماعة حاشيته بأمريات طبلخانات وأمريات عشراوات ، واستقام أمر السلطان فى هذه الحركة وزال عنه جماعة من الأمراء المتمردين الذين كان يخشى هو منهم .

وفى هذه السنة — وهى سنة ثمان وستين وسبعمائة — كانت وفاة العلامة الشيخ جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن حسين بن حسن بن صالح بن على بن نباتة الفارقى المصرى الجدامى تغمده الله برحمته . وكان من فحول المولدين وله شعر جيد فاق به على من تقدمه من الشعراء . وكان مولده فى سنة ست وثمانين وستمائة . وكان منشؤه بمنشية المهرانى بزقاق القناديل ، وكانت مدة حياته اثنتين وثمانين سنة ، وتوفى فى سنة ثمان وستين وسبعمائة كما تقدم . ومما وقع للشيخ جمال الدين هذا أنه كان يخترع المعنى الغريب فى شعره الذى لم يسبق اليه ، فيعارضه فيه صلاح الدين الصفدى ويأخذه عنه وزنا وقافية وينسبه الى نفسه ، كما قيل فى المعنى :

وفتى يقول الشعر الا أنه
فيما علمنا يسرق المسروقا

قال الشيخ جمال الدين : « فلما طال على الأمر فى ذلك ، جمعت كتابا فيما قلته وسرقه منى ونسبه الى نفسه ، وسميت هذا الكتاب « خبز الشعير » ، لأنه مأكول مذموم ... فمن جملة ذلك انى قلت فى هذا المعنى :

بروحى عاطر الأنفاس ألمى
ملى الحسن حالى الوجنتين
له خالان فى دينار خد
تباع له القلوب بحبتين

فأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدى وقال :

بروحى خده المحمر أضحت
عليه شامة شرط المحبة
كأن الحسن يعشقه قديما
فنقطه بدينار وحبة

قال الشيخ جمال الدين : « فلما وقفت على هذا المعنى قلت : لا اله الا الله ... سرق الشيخ صلاح الدين الصفدى — كما يقال — من الحبتين حبة » .

سنة تسع وستين وسبعمائة (٦٨/١٣٦٧ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن الفرنج جاءوا الى قلعة اياس وحاصروها ، فخرج اليهم الأمير منكلى بغا الشمسى نائب حلب وصحبته العساكر الحلبية ، فلما سمعوا به رحلوا عن قلعة اياس ثم قصدوا نحو طرابلس ، وكانوا ثلاثة ملوك — وهم : صاحب قبرص ، وصاحب رودس ، وصاحب الاستبار — فجاءوا فى مائتى مركب حربية ، فلما جاءوا الى طرابلس كان النائب غائبا عن المدينة ، فطمع الفرنج فى أخذ المدينة . ثم خرج اليهم بعض عسكر طرابلس ، فوقعوا معهم ، فانكسر عسكر طرابلس ودخل الفرنج الى المدينة ونهبوا أسواقها وقتلوا بها جماعة مسلمين نحو ألفى انسان . فلما تسامع أهل البلاد بذلك جاءوا الى الفرنج وحاربوهم وقتلوا جماعة كثيرة منهم ، فانكسرت ملوك الافرنج كسرة قوية ، ورحلوا عن ساحل طرابلس .

فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بما جرى ، اضطرب السلطان من ذلك والأمراء ، وقصدوا أن يعينوا لهم تجريدة ... وكان فى تلك السنة بالقاهرة فناء عظيم حتى كان يخرج من أبواب القاهرة فى كل يوم اثنا عشر ألف جنازة ، وكان أكثر عمله فى الأطفال والغرباء . وقد قيل فى المعنى :

وما الدهر أهل أن نؤمل عنده
حياة ، وأن نشتاق فيه الى النسل

وقال آخر :

نحن بنو الموت فما بالنا
نعاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا
على زمان هن من كسبه

سنة سبعين وسبعمائة (٦٩/١٣٦٨ م) :

فى يوم الجمعة سادس صفر ، بعد صلاة الجمعة ، ركب جماعة من مماليك يلبغا ودخلوا الى بيت الأتابكى ، فقال لهم : « ايش قصدكم ؟ » ... فقالوا : « قصدنا نمسك خمسة من الأمراء ، وهم الأمير أزدمر أمير سلاح المعروف بالخازندار ، والأمير بيرم العزى الدوادار ، والأمير جركتمر المنجكى أمير مجلس ، والأمير ينبغا القوصونى أمير آخور كبير ، والأمير كبك الصرغتمشى الجوكندار » ... فركب معهم الأتابكى أستدمر ومسك هؤلاء الأمراء من بيوتهم .

فأما الأمير أزدمر أمير سلاح فانه قيد وأرسل الى قلعة الصيبية فسجن بها . وأما بقية الأمراء فقيدوا وأرسلوا الى السجن بثغر الاسكندرية .

ثم ان الأتابكى أستدمر الناصرى قصد القبض على السلطان ، فتعصب له جماعة من الأمراء ، فطلعوا الى القلعة ، ونزل السلطان الى الأسطبل ، وجلس بالمقعد المطل على الرميلة ، وعلق الصنجق السلطانى ، ودقت الكئوسات حربيا ، فطلع اليه غالب العسكر ، فاجتمع تحته فى الرميلة الجم الغفير من الزعر والعوام وبأيديهم المقاليع والحجارة ... وكل هذا بغض فى المماليك الذين قد التفوا على الأتابكى أستدمر ، وكانو مماليك يلبغا ، وقد جاروا على الناس وصاروا يهجمون على النساء فى الحمامات ، ويخطفون قماش الناس من الأسواق ، فتغيرت منهم القلوب وأبغضهم الناس قاطبة .

فلما ركب الأتابكى أستدمر ومماليك يلبغا ، توجهوا من وراء القلعة كما فعلوا تلك المرة . فلما زحفوا وأقبلوا من عند الصوة لاقتهم الزعر والعوام بالحجارة والمقاليع ، فألقى الله تعالى الرعب فى قلوب المماليك ومن كان معهم من الأمراء ، فانكسر مماليك يلبغا أنجس كسرة ، وهرب الأتابكى أستدمر من رأس الصوة ، وكان يظن أنه ينتصر

كما وقع له تلك المرة ، فكان كما قيل فى المعنى :

أتطمع أن يبقى السرور لأهله
وهـذا محال أن يدوم سرور

وتقضى الليالى باجتماع وفرقة
ويحدث من بعد الأمور أمور

فلم يكن الا ساعة يسيرة وقد أمسك الأتابكى أسـتدمر وجماعة معـه من الأمراء ممن كان من عصبته ، وقد أمسكوا من بين الترب ، فصـار العوام يقبضون على كل من يرونه من مماليك يلبغا ويعرونه ويقتلونه شر قتلة ، واستمروا على ذلك الى آخر النهار .

فلما أمسك الأتابكى أستدمر ومن معـه من الأمراء مثلوا بين يدى السلطان ، فأراد أن يقيد الأتابكى أسـتدمر ، ويرسله الى السـجن بثغر دمياط ، فشفع فيه الأمراء وعرفوا السلطان بأن الأتابكى أستدمر مع مماليك يلبغا تحت الضنك ، ولا يقدر على ردهم ، فرسم السلطان للأتابكى أستدمر أن ينزل الى بيته ، وأرسل معه الأمير خليل بن قوصـون — وكان الأمير خليل بن قوصون ابن عمة السلطان الملك الأشرف شعبان — فلما نزل الأمير خليل مع الأتابكى أسـتدمر الى بيته ، اتفق معه على العصيان ، وتحالفا على ذلك . فتسامع بهم بقية الأمراء والمماليك الذين كانوا قد اختفوا فجاءوا تحت الليل الى الأتابكى أستدمر حتى ضاق بهم المكان من الازدحام لكثرتهم .

فلما كان يوم الاثنـين ثامن عشر صفر من سنة سبعين وسبعمائة ، ركب الأتابكى أستدمر والأمير خليل بن قوصون وجماعة من الأمراء الذين من عصبة الأتابكى أستدمر ، فطلعوا الى الرميلة ووقفوا بسوق الخيل ، فنزل السلطان الى المقعد المطل على الرميلة وعلق الصنجق ، ودقت الكئوسـات حربيا ، فحصل فى ذلك اليوم واقعة عظيمة بين الفريقين ، وظن السلطان أنه مأخوذ لا محـالة ، فكان كما قيل فى المعنى :

ولا ترج الا الله فى كل حـالة
ولا تعتمد يوما على غير فضـله

فكم حالة تأتى ويكرهها الفتى
وخيرته فيهـا على رغم أنفـه

فلم تكن الا سـاعة يسـيرة ، وكسر الأتابكى أستدمر والأمير خليل بن قوصون وبقية الأمراء الذين ركبوا مع أستدمر ، فنهب العوام بيوتهم ، وصاروا يمسكون مماليك يلبغا من الاصطبلات ويودعونهم فى الحبوس ، ثم قيـدوا الأتابكى أستدمر والأمير خليل بن قوصون وبقية الأمراء الذين ركبوا مع أستدمر وأرسلوهم الى السجن بثغر الاسكندرية . وأما مماليك يلبغا فنفوا منهم وغرقوا منهم جماعة ، وهرب منهم جماعة الى بلاد المشرق ، وانتصر عليهم السـلطان الملك الأشرف شعبان . وقد قال المعمار :

سـلطاننا دامت له عـزة
ونصرة من أجـل هـاتين

دمر كبشـين ومن سـعده
ما التطحت فى ذاك شـاتين

وقال الشيخ شهاب الدين بن العطار :

هلال شعبان جهرا لاح فى صـفر
بالنصر حتى أرى عيدا بشـعبان

وأهل كبش كأهل الفيل قد أخذوا
رجما وما التطحت فى الكبش غنزان

ثم ان السـلطان ، لما خمدت الفتنة ، رسـم بالافـراج عن من يذكر من الأمـراء ممن كان مسجونا بثغر الاسـكندرية ، وهم : الأمير يلبغا آص ، والأمير الجاى اليوسفى ، والأمير ملكتمر الشيخونى الخازندار ، والأمير أيدمر الخطائى .

ما أفرج عنهم وطلعوا الى القلعة خلع على الأمير بغا آص المنصورى واستقر به أتابك العساكر وضا عن أستدمر الناصرى ، وخلع على الأمير جاى اليوسفى واستقر به أمير سلاح عوضا عن أمير أزدمر العمرى الناصرى الخازندار ، وكان أمير الجاى اليوسفى زوج أم السلطان الملك أشرف شعبان . وأنعم على الأمير أيدمر الخطائى قدمة ألف ، وأنعم على الأمير ملكتمر الشيخونى خازندار بتقدمة ألف .

والأمير ملكتمر هذا هو الذى عمر الجامع لأخضر الذى عند فم الحور بين الغيطان .

ثم استمر الحال ساكنا مدة يسيرة ، وقبض لسلطان على يلبغا آص المنصورى ، وعلى لأمير ملكتمر الشيخونى . وسبب ذلك أنه قد لغ السلطان أن يلبغا آص لما حضر الى القاهرة لتف عليه جماعة من الأمراء ، وقد عول على لركوب على السلطان . فلما تحقق السلطان ذلك ادر اليه وقبض عليه وعلى الأمير ملكتمر قيدهما وأعادهما الى السجن بثغر الاسكندرية . ى ذلك يقول ابن العطار :

يلبغا آص تولى جمعة
فبغى واختار حربا وادّعى

ويح من جاء لحكم زائرا
ثم ما سلم حتى ودّعا

ثم ان السلطان أرسل خلف المقر السيفى منكلى بغا الشمسى نائب حلب ، فلما حضر خلع عليه واستقر به أتابك العساكر عوضا عن يلبغا آص . ثم أرسل خلف الأمير على الماردينى نائب الشام ، فلما حضر خلع عليه واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية وكان من خيار الأمراء .

وفى هذه السنة توفى الملك المنصور غازى صاحب ماردين ، وتولى من بعده ابنه الملك الصالح محمود .

ومن الحوادث فى هذه السنة : جاءت الأخبار من دمشق أنه قد نزل بها جراد عظيم لم يسمع بمثله . وقد أتى هذا الجراد من مكة الى دمشق ، فأكل الأشجار وسد أعين المياه ، وكان معظم أمره فى قرى دمشق مثل حوران وعجلون . فلما كان يوم الجمعة دخل الجراد الى جامع بنى أمية حتى ملأ صحن الجامع وصار يترامى على الخطيب وهو فوق المنبر حتى شغله عن الخطبة ، ثم كثر حتى جافت منه القرى والبلدان ، فوخم منه الناس حتى صاروا يشمون منه القطران من كثرة رائحته الكريهة ، ثم تناقص من بعد ذلك حتى ارتفع عن البلاد الشامية .

سنة احدى وسبعين وسبعمائة (١٣٦٩/٧٠ م) :

فيها خلع على المقر السيفى قشتمر المنصورى ، واستقر به نائب حلب عوضا عن منكلى بغا الشمسى ، ثم رسم بالافراج عن الأمير أزدمر العمرى الناصرى — جد مؤلفه — وقد تقدم أنه نفى الى الصبيبة فى وقعة الأتابكى أستدمر بسبب مماليك يلبغا ، فأقام بالسجن فى الصبيبة مدة ثم رسم بالافراج عنه ليوليه نيابة الشام عوضا عن الأمير على الماردينى . فلما وصل الأمير أزدمر الى العريش مرض هناك ودخل الى القاهرة وهو عليل ، فأقام مدة يسيرة ومات الى رحمة الله تعالى ودفن بالقرافة الصغرى ، بالقرب من زاوية الشيخ أبى العباس البصير رضى الله عنه .

وكان الأمير أزدمر هذا أميرا جليلا دينا خيرا له بر ومعروف وآثار ، فمن ذلك أنه لما كان نائب حلب أنشأ خانا بها يعرف بخان سراقب . ولما كان نائب طرابلس أنشأ حوضا وسبيلا على الدرب

السلطانى فى قرية من أعمال جبل نابلس تسمى قرية حلمة بنى سعد . وله أوقاف على الحرمين الشريفين والذرية . وكان قليل الأذى كثير الجود كما قيل :

وليس سحيق المسك ريا حنوطه
ولكنه ذاك الثنـاء المخلف

وولى من الوظائف أمير سلاح بالديار المصرية مرتين ، وولى نيابة حلب ونيابة طرابلس ونيابة صفد وغير ذلك من الوظائف . وكانت وفاته — أى الأمير أزدمر أبو ذقن — فى يوم الأربعاء سادس ربيع الآخر سنة احدى وسبعين وسبعمائة .

ولما توفى الأمير أزدمر خلع السلطان على المقر السيفى منجك اليوسفى ، واستقر به نائب الشام عوضا عن الأمير أزدمر العمرى ، وكان قد عين له نيابة الشام .

وفيها خلع السلطان على الأمير الكز الكشلاوى واستقر به وزيرا واستادارا .

وفيها توجه السلطان الى بر الجيزة ونزل عند الأهرام على سبيل التنزه ، فأقام هناك سبعة أيام ثم رحل من هناك وتوجه الى البحيرة ، ثم رحل من هناك وتوجه الى ثغر الاسكندرية — وكان ذلك فى أيام النيل — فحصل للعسكر مشقة عظيمة بسبب المخايض فى الطريق . فلما دخل السلطان الى مدينة اسكندرية دخل من باب رشيد ، والأمراء مشاة بين يديه من باب رشيد الى باب البحر ، وفرش له نائب الاسكندرية الشقق الحرير تحت حوافر فرسه ونثر على رأسه الذهب والفضة ، وكان له يوم مشهود ، فأقام هناك ثلاثة أيام ، ودخلت عليه التقادم والهدايا ، ثم رحل من الاسكندرية ورجع الى القاهرة وطلع الى القلعة .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن جماعة من العوام وقفوا تحت القلعة ، ومنعوا الأمراء عن الطلوع الى القلعة ، وصاروا يرجمون الناس ، فأرسل اليهم السلطان بعض الأمراء وهو يقول لهم : « ايش قصدكم ؟ » ... فأرسلوا يقولون للسلطان : « تسلمنا علاء الدين بن كبك شاد الدواوين ووالى القاهرة » ... فوقفوا تحت القلعة الى ما بعد العصر . وحصل منهم غاية الفساد ، فرسم السلطان للمماليك بأن ينزلوا اليهم ، فنزلوا ورموهم بالنشاب ، فتشتتوا وهربوا من الرميلة ، فأمسكوا منهم جماعة وأودعوهم فى الحبس ، وقتل منهم جماعة بالنشاب وهرب الباقون فارين على وجوههم ، وغلقت فى تلك الليلة المدينة قاطبة ، ولم يفد وقوفهم فى الرميلة شيئا ، فكان كما قيل فى المعنى :

سل السيف عن أهل الفخار وفرعه
فانى رأيت السيف أصدق مقولا

ثم ان السلطان نادى للعوام بالأمان والاطمئنان ، وعزل عنهم والى القاهرة ، وولى الأمير حسين ابن الكورانى واليا على القاهرة عوضا عن بكتمر السيفى .

وفيها جاءت الأخبار من حلب بأن نائب حلب قشتمر المنصور قد قتل هو وقلد محمد . وسبب ذلك أن شخصا من آل فضل يسمى الأمير جبار وقع بينه وبين نائب حلب تشاجر ، فخرج اليه نائب حلب مع العساكر الحلبية ، فتقاتل مع الأمير جبار ، فقويت العربان على نائب حلب فقتل هو وقلده فى المعركة .

ثم ان السلطان خلع على الأمير عشقتمر الماردينى — وهو صاحب الخانقاه التى فى باب القرافة — واستقر به نائب حلب عوضا عن قشتمر المنصورى ، وأرسل خلعة الى الأمير زامل من آل فضل بأن يكون عوضا عن الأمير جبار بن مهنا ، فخرج الأمير عشقتمر وتوجه الى حلب .

ثم ان السلطان عمل الموكب وأنعم على من يذكر

من الأمراء بتقادم ألوف ، منهم : الأمير بشتاك الكريمي ، فخلع عليه واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير خليل بن قوصون . وأنعم على الأمير بهادر الجمالي بتقدمة ألف . وأنعم على جماعة من الخاصكية بأمريات طبلخانات وعشراوات .

وفى هذه السنة حجت خوند بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان ، فخرجت من القاهرة فى موكب عظيم فى محفة زركش والأمراء مشاة قدامها . وخرج صحبتها العصائب السلطانية والكئوسات ، وحج معها الأمير بشتاك رأس نوبة النوب ، والأمير بهادر الجمالي ومائتا مملوك من المماليك السلطانية .

سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة (١٣٧٠/٧١ م) :

فيها رجعت خوند أم السلطان من الحجاز الشريف ، ووصلت الى القاهرة فى سادس عشر المحرم ، فخرج اليها السلطان ولاقاها من البويب . وكان يوم دخولها يوما مشهودا حتى طلعت الى القلعة .

وفى هذه السنة توفى الأمير على الماردينى الناصرى نائب السلطنة بمصر ، وكان أميرا ديّنا خيّرا كثير البر والصدقات ، قليل الأذى ، كثير الخير ، قريبا من الناس . تولى نيابة دمشق ونيابة حلب ونيابة السلطنة بمصر ، ومات والناس راضون عنه ، وكثر عليه الأسف والحزن من الناس . ولما مات خلع السلطان على الأميرطشتمر العلائى واستقر به نائب السلطنة بمصر عوضا عن الأمير على الماردينى الناصرى .

سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة (١٣٧١/٧٢ م) :

فيها رسم السلطان بأن السادة الأشراف قاطبة يجعلون فى عمائمهم شطفات خضر حتى يمتازوا عن غيرهم ، وتعظيما لقدرهم ، فنودى لهم فى القاهرة بذلك ، فامتثلوا أمره المتدارك . وفى هذه الواقعة يقول الشيخ شهاب الدين بن جابر الأندلسى :

جعلوا لأبناء الرسول علامة
ان العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوة فى كريم وجوههم
يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

وقال الشيخ بدر الدين بن حبيب :

عمائم الأشراف قد تميزت
بخضرة رقت وراقت منظرا
وهذه اشارة أن لهم
فى جنة الخلد لباسا أخضرا

وقال الشيخ شمس الدين بن المزين :

أطراف تيجان أتت من سندس
خضر كأعلام على الأشراف
والأشرف السلطان خصصهم بها
شرفا لنعرفهم من الأطراف

وقال الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة :

لآل رسول الله جاه ورفعة
بها رفعت عنا جميع النوائب
وقد أصبحوا مثل الملوك برنكهم
اذا ما بدوا للناس تحت العصائب

وفى هذه السنة عزل السلطان قاضى القضاة الشافعى بهاء الدين السبكى ، وأرسل خلف الشيخ برهان الدين بن جماعة خطيب بيت المقدس ، فلما حضر خلع عليه وولاه قاضى قضاة الشافعية بالديار المصرية عوضا عن بهاء الدين السبكى . وكان الشيخ برهان الدين هذا ابن أخى قاضى القضاة عز الدين بن جماعة المقدسى .

سنة اربع وسبعين وسبعمائة (١٣٧٢/٧٣ م) :

فيها توفى الأتابكى منكلى بغا الشمسى ، وكان من خيار الترك . ولما توفى خلع السلطان على المقر السيفى الجاى اليوسفى واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضا عن منكلى بغا الشمسى بحكم وفاته .

وفيها أنعم السلطان على ولده الأمير على بتقدمة ألف .

وفى هذه السنة كانت وفاة خوند بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان ، وكانت ذات حسن وجمال ، وذات دين وخير ولها بر ومعروف . وهى التى أنشأت المدرسة التى بالتبانة ، ورتبت بها دروسا للمذاهب الأربعة ، وحضورا فى كل يوم للصوفية ، ومكتبا للأيتام ، وحوضا وسبيلا . ولما ماتت دفنت بهذه المدرسة وحزن عليها السلطان حزنا شديدا . وكانت ذات عقل ورأى سديد . وقد رثاها الشهابى بن الأعرج بقوله :

فى الثان والعشرين من ذى قعدة
كانت صبيحة موت أم الأشرف
فالله يرحمها ويعظم أجرها
ويكون فى عاشورا موت اليوسفى

فكان الفأل بالمنطق ... كما يقال :

لا تنطقن بما كرهت فربما
نطق اللسان بحادث سيكون

سنة خمس وسبعين وسبعمائة (١٣٧٣/٧٤ م) :

فيها فى يوم الثلاثاء سادس شهر الله المحرم وثب على السلطان الأتابكى الجاى اليوسفى زوج أمه ، ولبس آلة الحرب ، وطلع الى الرميلة هو ومماليكه . وكان سبب ذلك أنه قد حصل بينه وبين السلطان حظ نفس بسبب ميراث أم السلطان ، فحنق الأتابكى الجاى من السلطان فوثب عليه . ثم ان السلطان نادى للعسكر والأمراء بأن يركبوا ويحاربوا الأتابكى الجاى ، فركب جميع الأمراء والعسكر وطلعوا الى الرميلة ، ووقعوا مع الجاى واقعة عظيمة قتل فيها جماعة كثيرة ، وآخر الأمر انكسر الأتابكى الجاى وهرب نحو بركة الحبش ، ثم طلع من عند الجبل الأحمر وأتى الى قبة النصر فأقام بها ، فأرسل اليه السلطان خلعة بأن يكون نائب حماه ويخرج من هناك ... فأبى الجاى من ذلك وأقام بقبة النصر الى يوم الخميس وهو لابس آلة الحرب ، فنادى السلطان للعسكر والأمراء بأن يتوجهوا اليه بقبة النصر ويحاربوه ، فتوجهوا اليه وحاربوه ، فانكسر الجاى ثانيا وهرب الى نحو شبرا ، فساقوا خلفه فأدركوه فرمى نفسه فى البحر وهو راكب فرسه ، فغرق الجاى ومات وطلع فرسه من بر انبابه من عند الوراق ، وقبض العسكر على مماليكه وخيوله وسلاحه وأحضروهم بين يدى السلطان وحكوا له ما جرى .

ثم ان السلطان أرسل جماعة من الغطاسين الى نحو شبرا فغطسوا هناك وطلعوا بالجاى ، فأحضروا له تابوتا ، وأتوا به الى القاهرة فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ، ودفنوه بمدرسته التى أنشأها فى سويقة العزى ، وكان ذلك فى يوم الجمعة عاشر المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة كما قولوا عليه .

وكان الأتابكى الجاى أميرا جليلا مهيبا ، كثير البر والصدقات ، يحب فعل الخير ... ولو أنه حضر بين يدى السلطان وهو فى قيد الحياة ما كان يحصل له من السلطان الا كل خير ، فانه كان زوج أمه ، وكان له على السلطان تربية قديمة ، ولكن كان ذلك مقدرا عليه .

ثم ان السلطان أرسل خلف المقر السيفى أيدمر نائب طرابلس ، فلما حضر خلع عليه واستقر به

أتابك العساكر عوضا عن الجاى اليوسفى ، فأقام أيدمر فى نيابة السلطنة بمصر مدة يسيرة ثم توفى الى رحمة الله تعالى فأرسل السلطان خلف المقر السيفى منجك اليوسفى نائب الشام ، فلما حضر خلع عليه السلطان واستقر به أتابك العسكر عوضا عن آيدمر ، وأضاف اليه نيابة السلطنة مع الأتابكية ، وفوض اليه أمور المملكة قاطبة من الديار المصرية والبلاد الشامية ، ورسم له بأن يخرج الاقطاعات من غير مشورة السلطان من أربعمائة دينار الى ستمائة دينار ... وكانت عادة نواب السلطنة من قديم الزمان ألا يخرجوا من الاقطاعات أكثر من أربعمائة دينار الى ما دون .

وفيها خلع السلطان على مملوكه الأمير أرغون شاه الأشرفى واستقر به رأس نوبة النوب .

وفيها جاءت الفرنج الى رشيد ، فخرج اليهم الأتابكى منجك مع جماعة من العسكر فكسروهم وهربوا منهم الى بلادهم ... وفى ذلك يقول ابن أبى حجلة :

أمنجك سل فى الأعداء بترك
ولا تترك من الافرنج بترك

تداركت المعالى بالعوالى
ولكن فضل جودك ليس يدرك

وقد آنست مصرا حين قالت
تولى الله حيث حللت نصرك

ومن الحوادث فى هذه السنة أن النيل توقف عن الوفاء ، ثم هبط ونقص أصبعين ، فضج الناس لذلك وماجت مصر وتشحطت الغلال وامتنع الخبز من الأسواق ، فرسم السلطان للناس بأن يخرجوا ليستسقوا . فلما كان يوم الخميس ثانى ربيع الآخر من السنة المذكورة ، خرج الناس قاطبة الى الصحراء ، واجتمع هناك الجم الغفير من العلماء والصلحاء والفقراء والرجال والنساء والأطفال وطائفة اليهود وطائفة النصارى ، وحضر الخليفة محمد المتوكل على الله والقضاة الأربعة ، ولم يزل السلطان معهم ، ثم توجهوا من وراء قبة النصر ونصبوا هناك منبرا وصعد اليه قاضى القضاة الشافعى ، وهو الشيخ شمس الدين بن القسطلانى ، وخطب خطبة بليغة فى الاستسقاء ، ولما حول رداءه كشف عن رأسه ودعا الله تعالى ... وكان ذلك اليوم يوما مشهودا تسكب فيه العبرات .

ولما رجع الناس وباتوا تلك الليلة هبط الماء جملة واحدة ، وتزايد سعر الغلال وبلغ ثمن كل اردب مائة وعشرين درهما ، ومن الشعير كل اردب بثمانين درهما ، وبلغ ثمن الرغيف الخبز الكشكار أربعة دراهم ، وبلغ الرطل اللحم الضانى درهمين ونصفا كل رطل ، واللحم البقرى كل رطل بدرهم ونصف ، وبلغ ثمن البيضة عشرة دراهم كل واحدة ، وبلغ ثمن الراوية الماء خمسة دراهم . ومات تلك السنة أكثر الدواب من قلة العلف ، وغلا سعر كل شىء من أصناف البضائع . وجاء عقيب ذلك فناء عظيم حتى بلغ ثمن البطيخة الصيفى مائة درهم ، والرمانة ستة عشر درهما ، وصار القمح كل يوم يتزايد سعره .

فلما اشتد الأمر وشرقت البلاد رسم السلطان للأتابكى منجك بأن يجمع الحرافيش الذين فى القاهرة ويفرقهم على الأمراء وأعيان التجار ففعل ذلك ، ورسم السلطان بأن يعطوا لكل فقير رغيفين وما يشاكل ذلك من الطعام ... واستمر الأمر على ذلك نحو سنة ، ولم يتراجع السعر ولم ينحط عن ذلك حتى صار الناس يأكلون خبز الفول وخبز النخال والذرة ، واستمر الحال على ذلك .

سنة ست وسبعين وسبعمائة (١٣٧٤/٧٥ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن نائب حلب خرج الى مدينة سيس هو والعساكر الحلبية وفتح مدينة سيس ، وكانت فى أيدى الأرمن . فلما جاءت الأخبار بذلك فرح السلطان ، وأمر بدق الكاسات سبعة أيام ، وزينت القاهرة سبعة أيام ، وأرسل نائب حلب صاحب سيس ، وهو أسير ومقيد — وكان اسمه تكنور — فرسم السلطان باعتقاله ، ورتب له فى كل يوم ما يكفيه من النفقة وهو فى السجن . وقد هنأ بعض الشعراء السلطان بقصائد فى فتح مدينة سيس حيث قال :

الملك الأشرف سلطاننا
أيده الله بعز نفيس
ساق الى نحو العدا أدهما
وجاءه النصر على أخذ سيس

وفيها جاءت الأخبار من بغداد بأن القان أويس صاحب بغداد قد توفى الى رحمة الله تعالى ، وتولى من بعده ابنه حسين ، وكانت مدة مملكة القان أويس على توريز وبغداد تسع عشرة سنة .

وفيها كانت وفاة الأتابكى منجك اليوسفى . وكانت وفاته فى يوم الخميس تاسع عشرى ذى الحجة سنة ست وسبعين وسبعمائة ، ودفن فى خانقاته التى أنشأها فى رأس الصوة تجاه الطبلخانات السلطانية ، ومات وله من العمر نحو سبعين سنة . وكان أميرا جليلا عظيما كثير البر والصدقات ، وله آثار ومعروف بمصر والشام ، وقد تولى نيابة حلب ونيابة الشام ونيابة السلطنة بمصر وأتابك العساكر بالديار المصرية .

سنة سبع وسبعين وسبعمائة (١٣٧٥/٧٦ م) :

أقول : وهذه السنة عزيزة الوقوع ، لأنه قد اجتمع فيها ثلاث سباع ، فهى سبع وسبعون وسبعمائة ، وهذا غير ممكن أن يتفق مثلها من سنى الهجرة النبوية من الأعوام القابلة ، ولم يتفق مثلها فى مبتدأ الاسلام غيرها من السنين .

ففيها ختن السلطان أولاده وأقام لهم مهرجانا فى القلعة سبعه أيام ، وكان ذلك تاسع المحرم . وفيها كملت عمارة السلطان التى أنشأها فى رأس الصوة تجاه الطبلخانات . ولم يحدث فى هذه السنة من الحوادث شىء ، وكان غالب الناس يتطير منها فلم يحصل فيها الا خير .

سنة ثمان وسبعين وسبعمائة (١٣٧٦/٧٧ م) :

فيها أبطل السلطان ضمان المغانى من سائرأعمال مملكته ، وكان ذلك عبارة عن مال كثير مقرر على سائر المغانى من رجال ونساء يؤدونه فى كل سنة الى الخزائن الشريفة ، فأبطل ذلك . ومن جملة ما أبطله ضمان القراريط ، وكان عبارة عن أن الشخص اذا باع ملكا يؤخذ منه لبيت المال عن كل ألف درهم عشرون درهما ، فأبطل ذلك وصار فى صحيفته الى يوم القيامة .

وفيها توعك السلطان وأقام فى الفراش منقطعا مدة ، ثم شفى وخرج الى الموكب .

ثم ان السلطان قوى عزمه على أن يحج فى هذه السنة ، فأشار عليه بعض الصلحاء بترك الحج فى هذه السنة فلم يسمع ، وأخذ فى أسباب عمل البرق . فلما كان يوم السبت ثانى عشر شوال حرج السلطان من القاهرة ، ونزل من القلعة فى موكب عظيم وطلب ، وخرج من الميدان الذى تحت القلعة . وقد اشتمل الطلب السلطانى من الهجن على عشرين نوبة بقماش زركش ، وخمس عشرة نوبة بقماش حرير ملون ، ونوبة هجن ملبسة خليفتى ، ونوبة هجن ملبسة أبيض برسم الاحرام . وكان فى الطلب مائتا فرس ملبسة بركشتونات مخمل ملون وشى

فولاذ مكفت بالذهب ، وفيه كجاوتين زركش ، وكان فيه عشر محفات زركش برسم الحريم ، وكان فيه ستة وأربعون زوجا محاير مخمل ملون برسم السرارى والعيال ، وكان فى السنيح خمسمائة جمل محملة سكرا وحلوى وفاكهة وغير ذلك برسم ما يحتاج اليه المطبخ ، وكان فيه قطاران من الجمال محملة أشجارا مزهرة فى طينها وهى فى صناديق خشب مزفتة .

فلما انتهى أمر الطلب خرج السلطان من الميدان فى موكب عظيم ، وقدامه سائر الأمراء من كبير وصغير ، وكان له يوم مشهود . ولما نزل من القلعة توجه الى نحو بركة الحاج على العادة . فلما أقام هناك خلع على الشيخ ضياء الدين الغنوى واستقر به شيخ مدرسته التى أنشأها برأس الصوة ، وقرر بها حضورا من بعد العصر وصوفية . وكانت هذه المدرسة من محاسن الدنيا فى الزخرفة والبناء ، وقد هدمت هذه المدرسة فى دولة الملك الناصر فرج ابن برقوق كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

ثم ان السلطان رحل من بركة الحاج ، وكان صحبته من الأمراء المقدمين تسعة ، وهم : المقر السيفى أرغون شاه الأشرفى ، والمقر السيفى صرغتمش الأشرفى أمير سلاح ، والمقر السيفى يلبغا السابقى أمير مجلس ، والمقر السيفى بهادر الجمالى أمير أخور كبير ، والمقر السيفى صراى تمر المحمدى رأس نوبة النوب ، والمقر السيفى طشتمر العلائى الدوادار ، والأمير مبارك شاه الطازى ، والأمير قطلقتمر العلائى الطويل ، والأمير بشتاك العمرى ومن أمراء الطبلخانات خمسة وعشرون أميرا .

ثم ان السلطان جعل المقر السيفى أقتمر بن عبد الغنى — نائب السلطان — مقيما بالقاهرة ، وجعل الأمير أيدمر الشمسى نائب الغيبة ، ورسم للأمراء المقيمين بالقاهرة بأن يطلعوا الى القلعة فى كل يوم اثنين وخميس ، ويعطوا الخدمة للأسياد — أولاد السلطان — فصار الأمراء بعد توجه السلطان يطلعون الى القلعة ويجلسون على باب الستارة ، ويخرج اليهم ابن السلطان الأمير على — وكان أكبر أولاد السلطان — فيجلس مع الأمراء ساعة لطيفة على باب الستارة ، ويحضر لهم السكر فيشربون وينصرفون ، واستمروا على ذلك مدة يسيرة .

وكان السلطان الملك الأشرف شعبان لما قصد التوجه الى الحجاز الشريف ضبط أمور المملكة قبل خروجه ، وأخذ معه من الأمراء من كان يخشى أمره ، وترك بالقاهرة من الأمراء من كان يركن اليه ، وظن أن الأمور قد استقامت له واقتدى بما فعله من رأيه كما قيل :

ياحاسبا لأمور تعتريه ، لقد
حسبت شيئا وغابت عنك أشياء

فلم يتم بذلك مراده ، وجنى عليه اجتهاده ، كما قيل :

اذا لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجنى عليه اجتهاده

فلما رحل السلطان من بركة الحاج ، ورجع كل أحد الى بيته — وكان يوم السبت ثالث ذى القعدة — وثب جماعة من الأمراء ، ولبسوا آلة الحرب ، وطلعوا الى الرميلة . وكان القائم فى ذلك الأمير طشتمر المحمدى المعروف باللفاف أحد الأمراء العشراوات ، والأمير قرطاى الطازى أحد رءوس النوب ، والأمير أستدمر الصرغتمشى ، والأمير اينبك البدرى — ولم يكن فيهم أمير مقدم ألف .

فلما طلعوا الى الرميلة التف عليهم جماعة كثيرة من المماليك السيفية ومماليك الأسياد ، فهجموا

كلهم وطلعوا الى القلعة ووقفوا على باب الستارة ودقوا الباب ، فخرج اليهم الأمير مثقال الجمالى الزمام . والأمير جلبان اللالا ، والأمير قطلوبغا جركس اللالا : فقالوا للمماليك : « ما الخبر ؟ » ، فقالوا : « قد سمعنا أن السلطان لما وصل الى العقبة وثب عليه المماليك وقتلوه . فأخرجوا الينا الأمير على حتى نسلطنه » ... ولم يكن لهذا الكلام صحة ، ولكن كان الفأل بالمنطق كما يقال فى المعنى :

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى
ان البلاء موكل بالمنطق

فلما سمع الأمير الزمام ذلك توقف ساعة ، فأغلظ عليه المماليك فى القول ، وعينوا له القتل . فلما رأى منهم الجد دخل الى دور الحرم وأخرج الأمير على ابن الملك الأشرف شعبان ، فجلس على باب الستارة ساعة ، ثم توجه المماليك الى الأمير أيدمر الشمسى نائب الغيبة وأحضروه الى القلعة ، فلما حضر أخذوا الأمير عليا ، وتوجهوا به الى الايوان الكبير ، وأجلسوه على سرير الملك ، وقبلوا له الأرض ، ثم أرسلوا خلف من كان فى القاهرة من الأمراء فطلعوا الى سوق الخيل ، فطلبوهم ليطلعوا القلعة فأبوا من ذلك ، فركبوا الأمير عليا ونزلوا به الى باب السلسلة ، وجلس فى الخزانة التى فى الاسطبل السلطانى ، ونادى لسائر الأمراء بأن يطلعوا الى باب السلسلة ، فطلعوا فحلفوهم ، وقبلوا للأمير على الأرض ، ولقبوه بالملك المنصور .

ثم ان المماليك أمسكوا فى ذلك اليوم جماعة من الأمراء العشراوات وهم : الأمير طشتمر الصالحى ، والأمير بلاط السيفى الجاى ، والأمير حطط اليلبغاوى أحد رءوس النوب ... فلما قبضوا عليهم سجنوهم بالقلعة ثم قالوا لوالى القاهرة : « ناد فى المدينة بالأمان والاطمئنان والدعاء للملك المنصور على » ... فنزل الوالى ونادى بذلك فى القاهرة ، وكان ذلك فى يوم السبت ثالث ذى القعدة من السنة المذكورة .

فلما كان يوم الأحد صبيحة ذلك ، والناس مائجة فى بعضهم ، اشتاعت الأخبار بين الناس بأن شخصا من المماليك السلطانية قبض على شخص من المماليك الذين كانوا فى الحجاز يقال له فازان اليرقشى من جملة الأمراء الأخورية ، وكان صحبة السلطان ، فوجدوه فى المدينة وهو متنكر ، فقبضوا عليه وأحضروه الى الأمير أيدمر الشمسى نائب الغيبة ، فسأله عن سبب ذلك وحضوره الى القاهرة ، فمغمغ فى الكلام ، وتلجلج بلسانه ، فعراه الأمير أيدمر وأراد توسيطه ، فقال له : « امهلني حتى أخبرك بما جرى هناك » ... فألبسه أثوابه وقال له : « احك » . فقال : « لما وصل السلطان الى العقبة دخلها فى يوم الثلاثاء وأصبح فى يوم الأربعاء ، وقف عليه جماعة من المماليك السلطانية وطلبوا منه العليق ، فقال لهم اصبروا الى الأزلم ، فرجعوا وهم على غير رضا منه . فلما مد السماط لم يحضر من المماليك السلطانية أحد ، فظهر للسلطان منهم الغدر . ثم ان المماليك توجهوا الى جماعة من الأمراء — منهم الأمير طشتمر العلائى الداودار الكبير ، والأمير مبارك شاه الطازى ، والأمير صراى تمر المحمدى ، والأمير قطلقتمر العلائى الطويل — فاتفقوا معهم على الوثوب على السلطان ...

« فلما كان يوم الخميس ركب هؤلاء الأمراء على السلطان ، والتف عليهم جماعة كثيرة من مماليك الأسياد ، فلما تحقق السلطان ذلك ركب هو وجماعة من الأمراء — منهم الأتابكى أرغون

شـــاه الأشرفى ، والأمـــير صرغتمش الأشرفى أمير سلاح ، والأمير بشتاك العمرى رأس نوبة النوب ، والأمير بيبغا السابقى ، والأمير يلبغـــا الناصرى ، والأمير أرغون كتك — فركب هـــؤلاء الأمراء مع السلطان ووقعوا مع المماليك هناك واقعة عظيمة ، فلم تكن الا ســـاعة يسيرة وانكسر السلطان ومن معه من الأمراء وهربوا الى نحو عجرود » .

فلما ســـمع الأمير الشمسى بذلك ركب ، هـــو والأمير أســـتدمر الصرغتمشى ، والأمير طولو ، وجماعة من الأمراء السلطانية ، وتوجهوا الى نحو بركة الحـــاج ، فتلاقوا هم والأمراء الذين كانوا بصحبة السلطان فى العقبـــة . فلما تلاقوا معهم لم يجدوا السلطان صحبتهم ، ولا الأتابكى أرغون شاه ، ولا الأمير يلبغا الناصرى ... فوقعوا هناك فى بعضهم وقتلوا الأمراء الذين حضروا من العقبـــة ، وقطعوا رءوسهم ودخلوا بها الى القاهرة ، وعلقوها على باب القلعة .

هذا ما كان من أمر الأمراء . وأما ما كان من أمر السلطان الملك الأشرف شعبان فانه لـــما هرب بعد الكسرة من العقبة قال له محمد بن عيسى شيخ العائد : « آخذك وأتوجه بك من هنـــا الى غـــزة فتقيم بهـــا حتى تتسامع بك العســـاكر ، وتجتمع عليك العرب ، وترجع الى القاهرة ، وتأخذ الملك بالسيف » ... فوافقه السلطان على ذلك ، فمنعه الأتابكى أرغون شاه من ذلك .

ثم انه دخل الى القـــاهرة وهو مختف ، فبـــات تلك الليـــلة فى تربة فى الصحراء الى آخر الليل ، ثم قام من هناك الى حارة الجودرية واختفى عند امرأة يقال لها آمنة زوجة ابن المشتولى — وكانت من عيـــال أم السلطان — فخافت من عقبى ذلك على نفســـها من القتل ، فان الأمير أيدمر الشمسى نائب السلطنة نادى فى القـــاهرة : « كل من وجد السلطان الملك الأشرف شعبان فى بيته ولا يقر به « يشنق على باب بيته » ... فلما سمعت آمنة المذكورة ذلك توجهت الى الأمير أينبك البدرى وقالت له : « ان السلطان مختف عندى فى البيت » .

فلما سمع الأمير أينبك بذلك أرسل معها مائة مملوك ملبســـة ، ومعهم أمير يقـــال له الطنبغـــا السلطانى ، فتوجهوا الى الجودرية وكبسوا على بيت آمنة زوجة ابن المشتولى . فلما أحاطوا بالبيت هرب السلطان وطلع الى سطح البيت ، فلما دخلوا البيت لم يجدوا فيه أحـــدا ، فطلعوا الى السطح فوجـــدوا السلطان مختفيـــا فى الباذهنج — وهو بطاق القميص — فقبضوا عليه ، والذى كان خائفا منه وقع فيه ، كما قيل فى المعنى :

عرفت الليـــالى قبل ما صنعت بنـــا
فلمـــا دهتنى لم تزدلى بهـــا علمـــا

فلما قبضوا على السلطان نهبوا جميع ما كان فى البيت ، ثم أركبوا الســـلطان فرســـا وهو مغطى الوجه ، فطلعوا به الى القلعة بعد المغرب ، وتسلمه الأمير أينبك البدرى . ولما دخل الليل خلا الأمير أينبك بالسلطان وبات فى تلك الليلة يعاقبه ويقرره على الأموال والذخائر .

فلما كانت ليلة الثلاثاء دخل جركس — مملوك الأتابكى الجـــاى اليوسفى ، وكان فى قلبـــه من السلطان من أيام أســـتاذه الجاى شىء — فتسلم السلطان وخنقه بوتر حتى مات ، ثم وضعه فى قفة وكسر ظهره وخيط بلاسى وأرسله تحت الليل على حمار ورماه فى بئر عند باب الزغلة .

وكانت قتلته فى ليـــلة الثلاثاء ثالث ذى القعدة سنة ثمـــان وسبعين وسبعمائة . ومات وله من العمر نحو أربع وعشرين ســـنة . وكان مولده فى ســـنة أربع وخمســـين وسبعمائة . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبـــلاد الشامية أربع عشرة سنة

وشهرين ويوما . وزال عنه الملك كأنه لم يكن . فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير . وقد قيل في المعنى :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض
على الماء خانته فروج الأصابع

ثم ان الملك الأشرف شعبان لما رموه في البئر كما تقدم ، أقام فيها أياما فظهرت رائحته وطف على الماء ، فمر به بعض الطواشية ، فلما تحقق أنه السلطان صبر حتى دخل الليل ، وأحضر له تابوتا وطلعه من البئر وجبله فيه وأتى به الى مدرسة والدته التي في التبانة ، فغسله هناك وكفنه وصلى عليه ، ثم دفنه في القبة التي تجاه المدرسة .

وكان الملك الأشرف شعبان من محاسن الزمان في العدل والحلم ، وكان ملكا هينا لينا محبا للناس منقادا للشريعة ، ويحب أهل العلم ويحسن لهم ، وكان كثير البر والصدقات على الفقراء والمساكين ، وكان محسنا لأقاربه وأبناء عمه بخلاف من تقدمه من بني قلاون . وكانت الدنيا في أيامه هادئة من الفتن والتجاريد الى البلاد الشامية وفساد العرب . وساس الناس في أيام دولته أحسن سياسة ، وكانت الناس راضية عنه حتى مات رحمه الله . وقد قال فيه القائل :

للملك الأشرف السلطان سيدنا
مناقب بعضها يبدو به العجب
له خلائق بيض لا يغيرها
صرف الزمان كما لا يصدأ الذهب

ولما مات الأشرف شعبان خلف من الأولاد ستة ذكور وسبع بنات . فأما الذكور فسيدي على الذي تسلطن بعده ، وسيدي أمير حاج الذي تسلطن بعد أخيه على ، وسيدي قاسم ، وسيدي محمود ، وسيدي اسماعيل ، وسيدي أبو بكر . وولد له بعد موته سيدي أحمد الذي من خوند سمراء .

وأما فتوحاته من المدن فمدينة سيس ، ومدينة منجار ، ومدينة دوركي .

وأما ما أنشأه في القاهرة من العمائر فالمدرسة التي كانت في رأس الصوة تجاه الطبلخانات السلطانية ، والقاعة الأشرفية التي بالقلعة داخل دور الحرم . وله غير ذلك آثار كثيرة وتذكار .

وكان في أيامه جماعة كثيرة من أولاد الناس طبلخانات وأمراء عشراوات .

فأما الأمراء الطبلخانات فالأمير على بن منجك اليوسفي ، والأمير أحمد بن يلبغا العمري ، والأمير عبد الله بن بكتمر الحاجب ، والأمير موسى بن دندار ، والأمير قرطقا بن صوصون ، وأمير حاج ابن مغلطاي ، والأمير محمد بن تنكز بغا .

وأما من كان منهم من أمراء العشراوات فمنهم الأمير أبو بكر بن سنقر الجمالي ، والأمير أحمد ابن محمد بن قطلوبغا المحمدي ، ومحمد بن سنقر المحمدي ، والأمير خضر بن عمر بن أحمد ابن الأتابكي بكتمر الساقي .

وكان من أولاد الناس في أيامه جماعة كثيرة نواب في البلاد الشامية .

وبالجملة ان الملك الأشرف شعبان كان آخر بني قلاون في الحرمة والعظمة ونفاذ الكلمة ، وكان عارفا بأحوال أمور المملكة ، حسن التدبير ، ماشيا على القواعد المرضية ، مستجلبا لخواطر الرعية . وكان حسن الشكل ، سخي النفس ، شجيع القلب ... ولكن خانه الدهر ، وسطا عليه بالقهر ، فعاجله المنون ، وخابت فيه الظنون .

هذا ما كان من أمر الملك الأشرف شعبان بعد رجوعه من العقبة . وأما ما كان من أمر الأمراء الذين خامروا على السلطان في العقبة ، فانه لما

هـرب السلطان من هنـاك اجتمعوا ودخلوا على الخليفة المتوكل على الله محمد — وكان قد سافر صحبة السلطان هو والأربعة قضاة — فقالوا له : « تسلطن ... أنت أحق بالسـلطنة » . فامتنع من ذلك غاية الامتناع ، وطال بينه وبين الأمراء الجدال فلما صمم الخليفة على الامتناع عينوا مع الحجاج الأمير بهـادر الجمـالى أمير أخور كبير ، فتوجه صحبة المحمل مع الحجاج وساروا ركبا واحدا .

ثم ان الأمراء أخذوا الخليفة والقضاة الأربعة وقصـدوا التوجه الى الديار المصرية ، وصحبتهم حريم السـلطان الملك الأشرف شـعبان . ثم ان القضـاة سـألوا فضـل الأمراء أن يزوروا بيت المقـدس ، فأنعموا لهم بذلك ، وأرسـلوا معهم جماعة من المماليك السلطانية ، فتوجهوا من هناك الى بيت المقدس .

فلما وصل الخليفة والأمراء الى عجرود جاءت الأخبار بمـا جرى فى القاهرة من قتـل السلطان وسلطنة ولده الأمير على .

ومن غريب الاتفـاق أن اليوم الذى خامر فيه المماليك وركبوا على السـلطان فى العقبة ، وافق اليوم الذى ركب فيه الأمراء بالقـاهرة وسلطنوا سـيدى عليـا ابن السـلطان . فلما سمعوا ذلك ووصلوا الى بركة الحاج جاءت الأخبار بذلك الى القاهرة ، وتوجه اليهم جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ، فوقعوا معهم عند المطرية ، فانكسر الأمراء الذين جاءوهم من القاهرة ، وساق خلفهم الأمير قطلقتمر العلائى الطويل الى رأس الصوة ، فتكاثر عليه المـماليك السـلطانية حتى أمسكوه وحضروا به الى نائب السلطنة فلم يشوش عليه ، ثم دخل الأمير طشتمر الدوادار الكبير واختفى فى تربة فى الباب المحروق ، فنم عليه الغلمان ، فجاءوا اليه وقبضوا عليه وقيـدوه وأرسلوه الى ثغـر الاسكندرية ، وقبضوا معه على جماعة من الأمراء وتفوهم الى الاسـكندرية ، وخمدت الفتنة وسـكن الاضطراب ، واستمر سـيدى على سلطانا كمـا سيذكر ذلك فى موضعه .

ولـما مات الأشرف شـعبان رثاه القيم خلف الغبارى بهذه القطعة الزجل فقال :

عن منـازل طالع القـلعة
كوكب السعد اختفى حين بان

اقتـران زحـل مع المريخ
كسوف شمس انتقل شعبان

* * *

صار محـرما يوما لمـا
صفر المنـزل من الأشرف

وادخـر منـار يبعى عيش
وجمـادين فتكهم أسرف

ورجب فيه الملك شـعبان
دور المحـمل ولا أشرف

* * *

رمضان صاموا وفى شـوالْ
شال وذى القعدة بدا الحرمانْ

فيه جرت سـيره لذى الحجة
ماجـرت فى سائر الأزمان

* * *

قد فهمنا أصـل ذى النوبه
بسماع ما جا من الأخبـار

فى حصار شعبان وفى ضربوا
نوبتـين والخنـق بالأوتار

ولذا صـار قلبنا موصـول
بالهـموم والعقـل منا طار

* * *

وخروج السـهم لو تشييب
فى القصب من داخل الأبدان

والسيوف غنت لرقص الخيل
والأنامل هزت العيدان

* * *

للحجاز لما نوى الأشرف
ورحل مع جملة العشاق
خامرت ميه من العسكر
ولرصد الغدر جو أجواق
قتلوه شركه وتاريخو
للعراق والأصبهان الساق

* * *

وقد أضحى فى الرمال مدفونْ
والذى بيه فى طرب فرحانْ
صار محير والحمام فى الدوح
ناح لفقدو باختلاف ألحان

* * *

الذخائر ذاهبة حين صار
واسطة عقد الجيوش غايب
والعقيق كنواقد اتخضب
بالدما حين هربو كارب

* * *

وسلوك الدر والياقوت
عقدها انفرط من التيجان
وأصبح الجوهر يتيم بعدو
ودموع العين عليه مرجان

* * *

ذى الذى كان الملك ايدو
وايدهم فى فرد زبديه
جوه بعملة غدر مدفونه
وخيول فى السر مخفيه
وقلوب بالغلب مغمومه
وكبود بالغبن مشويه

* * *

وأمور مزورة لكن
قبل ما اسقوه الهوان ألوان
طبخوا القدره وقد صاروا
حولها مستجمعين اخوان

* * *

فى أتابك مصر كنت اعهد
قوم عزيزين جبر للمكسور
منهم آرغون وضرغتمش
والشهير بالسابقى المنصور
والأمير بشتاك مع الأفرم
بأمر من لو الحكم والمقدور

* * *

جا القضا عاجل خد الخمسة
وقد أضحى عزهم منهان
هكذا الدنيا وقد قالوا
فى المثل ما عز شى الا وهان

* * *

جاك بنفسو ذ الملك لما
جا يصيب دستو عليه مقلوب
وأخذ فيكو مريع شامات
وانكشف رخو وصار مغلوب
هكذا فى وقعة الدنيا
دست هذى المملكة المنصوب

* * *

ذا يكن راكب فرس عزوا
عاليه فرحان يعود فى احزان
والذى فى الحاشية بيدق
ينتقل حتى يصر فرزان

* * *

مصر وادى تيه وصارت غاب
وسكنوا ابراج حوت رفعه

وأماراتهـــا الذين كانوا
فى هنا من قبـل ذى الوقعه
للملك خـلان وهم غزلان
وأسـود وأقمار لهم طلعه

* * *

خفيت الأقمار من الأبراج
وخلا المسـكن من الخلان
وعن الغـاب غابت الآساد
وأقفر الوادى من الغـزلان

* * *

ضم الأشرف قبر ليت شعرى
هو لقنديل نور ضـياه جامع
أو صدف فيه خالص الجوهر
أو فلك فيه غاب قمـر طالع
أو نقول غاب فيه أسد ضارى
أو جفير جواه حسـام قاطع

* * *

أو كناس فيه أحسن الغزلان
أو حمى فيه أفرس الفـرسان
أو جسد فيه روح من الأرواح
أو سواد مقـلة وفيه انسان

* * *

نسـألك يا الله بجـاه موسى
وبعيسى وأحمـد المحبوب
غيث الأشرف واوهبوا رحمة
وعليـه أفرغ صـبر أيوب
فارق اذكرنا فراق يوسـف
مثل ما أورثنا حـزن يعقوب

* * *

والخليـل منا غـدا قائل
لخليـلو حين يراه لهفـان
فى سفين الحزن بعـدو نوح
واجر دمعك فى الخدود طوفان

* * *

نصر شـعبان بهم بالكامل
لعـلى والحكم للقـادر
نسـألك يا حق يا عادل
كن لجيش المسـلمين ناصر
وارزق العـالم عمل صالح
واصلح البـاطن مع الظاهر

* * *

واخمـد الفتنـا وطمنـا
لا تشـتتنا من الأوطـان
وانصر المنصـور على واعفو
عن أبيه الأشرف السـلطان

* * *

يا من امسى مثل ما أصـبح
فى فرح بالجـاه وكنز المـال
قط لا تركن لذى الدنيـا
واحذر احـذر حالها ان حال
كم عزيز ذلته صـار يطلب
جاه يجيـه ماجاه ومالو مال

* * *

فالبس البس حـلة التقـوى
قبـل لبسك شقة الأكوان
لا تغـرك زينـة الدنيـا
كل ما تنظر عليهـا فان

* * *

آخـر الثامن مع السـبعين
بعـد تاريخ سبعماية عام
يا غبـارى قلت فى الأشرف
نظم شاع فى أقاليم مصر والشام

وانت فى فن الزجل قيم
بدروج تشهد بها الحكام
* * *
وبتنظم النشر من فكرك
كم، وكم صنفت من ديوان
والبديع لك صارت الفرسان
فيه رجال والقيمة أدوان

وفى أيامه توفى الشيخ نور الدين على بن سعيد المغربى الأندلسى ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

وا طول شوقى الى ثغور
ملأى من الشهد والرحيق
عنها أخذت الذى تراه
يعذب من شعرى الرقيق

الملك المنصور على

هو الملك المنصور على ، ابن الملك الأشرف شعبان ، ابن الملك الأمجد حسين ، ابن الملك الناصر محمد ، ابن الملك المنصور قلاون ، وهو الثالث والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويع بالسلطنة عند ما حضر أمير المؤمنين المتوكل على الله من العقبة فبايعه بالسلطنة ، ولبس خلعة السلطنة وجلس على سرير الملك ، وجميع الأمراء قبلوا له الأرض ، وتلقب بالملك المنصور ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء ، فلبس خلعة السلطنة من باب الستارة ، وركب لابسا شعار الملك والأمراء مشاة بين يديه ، والقبة والطير على رأسه ، حتى وصل الى الايوان وجلس على سرير الملك ساعة ، ثم دخل الى القصر الكبير ومد السماط فى القصر وجلس عليه وهو لابس شعار الملك — وكانت هذه عادة قديمة أن السلطان يوم يتولى يمد فى القصر سماطا ويجلس عليه وهو بشعار الملك — فلما فرغ من الأكل خلع على المقر السيفى أقتمر الصاحبى الشهير بالحنبلى واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية عوضا عن الأمير أقتمر عبد الغنى ، وخلع على المقر السيفى طشتمر المحمدى الشهير باللفاف واستقر به أتابك العساكر بمصر ، وكان طشتمر المحمدى هذا أمير عشرة فبقى أتابك العساكر فى يوم واحد عوضا عن الأتابكى أرغون شاه الأشرفى ، وأنعم عليه ببركه ومماليكه ، وكان ذلك فى يوم الأحد سادس ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، وكان السلطان الملك المنصور له من العمر يومئذ نحو سبع سنين وأشهر .

فلما كان يوم الاثنين سابعه ، عمل السلطان الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمير قرطاى الطازى ، واستقر به رأس نوبة النوب ، ورسم له ببرك الأمير صرغتمش الأميرى الأشرفى . وخلع على الأمير أستدمر الصرغتمشى الناصرى ، واستقر به أمير سلاح . وخلع على الأمير قطلوبغا البدرى ، واستقر به أمير مجلس عوضا عن يبلغا السابقى . ثم خلع على الأمير طشتمر العلائى ، واستقر به نائب الشام ، ورسم له بأن يخرج من القاهرة فى يومه . وخلع على الأمير اياس الصرغتمشى ، واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن طشتمر العلائى . وخلع على الأمير أينبك البدرى ، واستقر به أمير أخور كبيرا عوضا عن الأمير بهادر الجمالى . وأنعم على الأمير بلاط السيفى الجاى بتقدمه ألف ، وكذلك الأمير دمرداش اليوسفى ، وكذلك الأمير يلبغا النظامى ، وكذلك الأمير الطنبغا السلطانى .

وأنعم على جماعة كثيرة من الأمراء بأمريات طبلخانات وأمريات عشراوات .

فأما الأمراء الطبلخانات فهم بيقجا الجمالى ، وقطلوبغا البشيرى ، وقطلو بك النظامى ، وأحمد ابن التركمانى ، وقطلو تجاه أخو أينبك البدرى ، وتمربغا البدرى ، والطنبغا المعلم اليلبغاوى ، وبلكتمر المنصورى ، ومقبر الرومى ، واستبغا الدارمى ، وأطلمش الطازى ،واربغا السيفى جبغا ، وابراهيم بن قلقتمر العلائى ، وعلى بن أقتمر عبد الغنى ، واستبغا النظامى ، وماتمور القلمطارى ، واطلمش الأرغولى .

وأما العشراوات فمنهم : محمد بن قرطاى الطازى ، وخضر بن الطنبغا السلطانى ، ومحمد بن شعبان بن يلبغا العمرى ، وتكا الشمسى ، واستبغا المحمودى ، وطيبغا المحمدي ، وتلكتمر المنجكى ، وأقبغا السيفى الجاى ، وچركس السيفى الجاى — وهو الذى خنق الملك الأشرف شعبان — وطقتمش السيفي يلبغا ، وطوغان العمرى الشاطر ، وخليل بن أستدمر العلائى ، ورمضان بن صرغتمش الناصرى ، وأخوه حسن ، ويوسف بن شادى ، وخضر الرسولى ، وقطلوبغا أمير علم ، وسودون العثمانى شاد الزردخاناه ، وأستمر الشرفى ، ومنكلى بغا الطرخانى ، ومغلطاى الشرفى .

ثم نفى جماعة من الأمراء ، وأفرج عن جماعة منهم ممن كان فى السجن بثغر الاسكندرية من أيام الأشرف شعبان .

سنة تسع وسبعين وسبعمائة (١٣٧٧ / ٧٨ م) :

فيها فى يوم الأحد الحادى والعشرين من شهر صفر عمل المقر السيفى قرطاى الطازى رأس نوبة النوب وليمة ، فأهدى اليه المقر السيفى أينبك أمير أخور ششن ، وعمل له فيه بنجا مرقدا ، فلما شرب منه الأمير قرطاى تبنج ونام حتى طلعت الشمس ، فركب الأمير أينبك البدرى ولبس آلة الحرب وطلع الى الرميلة هو ومماليكه ، والتف عليه جماعة من الزعر والعياق ، فلما طلع النهار نزل السلطان المنصور الى باب السلسلة ، وجلس فى المقعد المطل على الرميلة ، وعلق الصنجق السلطانى ، ودقت الكئوسات حربيا ، فطلع بقية الأمراء واجتمع المماليك السلطانية ، فأقام الحرب بينهم عمالا الى يوم الاثنين ثانى عشرى صفر .

فلما طار البنج من رأس الأمير قرطاى وصحا من سكره ، ركب واجتمع بالأمراء فأشاروا عليه بأن يرسل فيسأل فضل السلطان فى ذلك بأن يكون نائب حلب ، فأرسل يسأل السلطان فى ذلك ، فأرسل له السلطان خلعة بأن يكون نائب حلب ، ورسم له بأن يخرج من يومه ، فخرج وتوجه الى نحو سرياقوس ... فلما أن خرج الأمير قرطاى أمسك السلطان جماعة من الأمراء ممن كان من عصبة الأمير قرطاى . ثم ان الأمير أقتمر الحنبلى نائب السلطنة أشار على السلطان بأن يقبض على الأمير أينبك البدرى .

فلما كان يوم الثلاثاء الثاني[1] والعشرين من صفر ركب الأمير أقتمر الحنبلى نائب السلطنة ليسير نحو المطرية ، فأرسل اليه الأمير أينبك البدرى هناك جماعة بخلعة وقال له : « توجه من هناك الى دمشق واستقر نائب الشام ، وان رجعت الى بيتك فى هذا اليوم قتلتك » ... فما وسع الأمير أقتمر الا الطاعة ، وتوجه من هناك الى الشام . فلما توجه الأمير أقتمر الى الشام ، عمل السلطان الموكب وخلع على الأمير أينبك البدرى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن الأمير طشتمر المحمدى المعروف باللفاف ، وقبض على الأمير طشتمر اللفاف ونفاه الى القدس بطالا ، ثم أفرج عن الأمير أقتمر عبد الغنى وأعاده الى نيابة السلطنة كما كان أولا عوضا عن الأمير أقتمر الصاحبى

---

(١) كذا فى الأصل . وهو يعنى « الثالث » ه

الشهير بالحنبلى ، وخلع على الأمير الطنبغا السلطانى واستقر به أمير مجلس عوضا عن الأمير قطلوبغا البدرى ، وخلع على الأمير دمرداش اليوسفى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير قرطاى الطازى ، ثم نفى جماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، وأنعم على جماعة كثيرة من غيرهم باقطاعاتهم ، وخمدت هذه الفتنة .

ثم ان الأتابكى أينبك البدرى وقع بينه وبين الخليفة المتوكل على الله أمور ، وخلعه من الخلافة وولى زكريا بن ابراهيم بن عم المتوكل على الله من غير مبايعة ولا عهد ، وتلقب زكريا بالمعتصم بالله ، وكانت ولايته من نوع التعصب على المتوكل ، واستمر الحال ساكنا .

ثم ان الأتابكى أينبك أسكن جماعة من مماليكه فى مدرسة السلطان حسن ، وأسكن جماعة من مماليكه أيضا فى مدرسة الأشرف شعبان التى كانت فى رأس الصوة ، وصار يتصرف فى أمور المملكة بحسب ما يختار من ذلك . وكان له ولد صغير فأعطاه تقدمة ألف .

ولم يزل على ذلك حتى جاءت الأخبار من البلاد الشامية بأن النواب جميعا خامروا وخرجوا عن الطاعة . فلما تحقق الأتابكى أينبك ذلك علق من يومه الجاليش السلطانى على الطبلخانات ، وعين الأمراء والعسكر الى التجريدة نحو بلاد الشام . ثم انه عرض العسكر وأنفق عليهم ، وخرج مسرعا على جرد الخيل ، وأخذ معه السلطان الملك المنصور عليا فى محفة ، وخرج فى تاسع عشر ربيع الأول من السنة المذكورة وتوجه الى هناك .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن فى السابع والعشرين من تموز من الشهور الرومية ، أظلم الجو ، وأمطرت السماء مطرا شديدا برعد وبرق حتى سال المطر كالغدران . ولما أراد السلطان أن يخرج الى التجريدة فصل الخليفة زكريا من الخلافة ، وولى محمدا المتوكل كما كان أولا ، وأخذه معه فى التجريدة ، فكانت مدة الخليفة زكريا فى الخلافة عشرين يوما لا غير ، وأعيد المتوكل الى الخلافة كما كان . فكانت خلافة زكريا كسنة من النوم ، أو يوم أو بعض يوم .

فلما رحل السلطان من القاهرة ووصل الى بلبيس رجع الى القاهرة على حين غفلة . وكان سبب ذلك أن الأمير قطلوفجاه — أخا الأتابكى أينبك البدرى — كان فى الجاليش قدام العسكر ، فبلغه أن جماعة من المماليك السلطانية قصدوا أن يكبسوا عليه ليقتلوه ، فهرب تحت الليل هو وثلاثة من الأمراء ودخلوا الى القاهرة . فلما تحقق أينبك ذلك ، وأن العسكر قد انقلبوا عليه ، أخذ السلطان الملك المنصور عليا ورجع الى القاهرة فطلع السلطان الى القلعة وقد ماجت المدينة وكثر القال والقيل بين الناس .

فلما كان يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر من السنة المذكورة رجع الأمراء والعسكر الذين كانوا صحبة السلطان فدخلوا الريدانية ، وهم على حمية ، فلبسوا آلة الحرب من وقتهم واجتمعوا فى سوق الخيل . وكان العسكر جميعهم مقلوبا على الأتابكى أينبك البدرى . فلما تحقق أينبك أن الركبة عليه ، نزل من القلعة هو وجماعة من الأمراء والمماليك السلطانية فوقعوا مع العسكر الذين فى الرميلة ، فكان بينهم واقعة عظيمة حتى جرى الدم مثل الماء ، فانكسر الأمير قطلو فجاه أخوه الأتابكى أينبك ، وقبضوا عليه . فلما رأى الأتابكى أينبك ذلك ساق فرسه وهرب من باب القرافة وتوجه الى نحو الكيمان التى بمصر العتيقة ، فساق خلفه الأمير أيدمر الخطائى مع جماعة من الأمراء والمماليك

السلطانية فأدركه ، فنزل عن فرسه ورمى ملابسه بين الكيمان وهرب وهو ماش فاختفى هناك .

فلما هرب أينبك طلع الأمراء الى باب السلسلة ، وصار المتحدث يومئذ فى أمور المملكة المقر السيفى قطلقتمر العلائى الطويل ، فملك باب السلسلة وأقام بها ، فاجتمع الأمراء وضربوا بينهم مشورة ، وطلعوا الى باب السلسلة ، وقبضوا على الأمير قطلقتمر العلائى وقيدوه .

ثم فى صبيحة يوم الأحد ظهر الأتابكى أينبك فى مكان فى كوم الجارح ، فأرسل الأمير يلبغا الناصرى فقبض عليه وقيدوه ، وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ، وأرسل معه جماعة من الأمراء ممن كانوا من عصبته . وفيه يقول الشيخ شهاب الدين ابن العطار المصرى رحمه الله :

من بعد عز قد ذل أينبكا
وانحط بعد السمو من فتكا

وراح يبكى الدماء منفردا
والناس لا يعرفون أين بكى

فلما توجه أينبك الى السجن جرى له ماجرى ، وانتفى مع الجماعة من الأمراء .

وأينبك هذا هو صاحب الدرب الذى فى السبع سقايات .

ثم ان جماعة من الأمراء لبسوا آلة الحرب وافتتنوا فى بعضهم ، وكان رأس الفتنة الأمير برقوق العثمانى ، والأمير بركة الجوبانى ، والأمير يلبغا الناصرى ، والأمير بورى الحلبى الأحمدى — وهو صاحب الدرب المنسوب اليه — والأمير أقبغا آمن الشيخونى ... فاتفق هؤلاء الأمراء مع جماعة من الأمراء ، فانكسر منهم طائفة وهم : الأمير دمرداش اليوسفى ، والأمير تمرباى الحسينى ، والأمير قطلوبغا الشعبانى ، والأمير دمرداش اليمان تمرى العلم ، والأمير آستدمر العثمانى ، والأمير يجمان العلائى أمير مشوى ، والأمير استبغا التلكى . فلما انكسر هؤلاء الأمراء ، قبضوا عليهم وقيدوهم وأرسلوهم الى السجن بثغر اسكندرية .

ثم ان الأمير يلبغا الناصرى أقام فى باب السلسلة ، وملك الاسطبل السلطانى ، وصار يحكم فيه بين الناس . فاستمر على ذلك سبعة أيام فلم يطق ذلك الأمير برقوق والأمير بركة ، فهجموا على الأمير يلبغا الناصرى وقت الظهر ، وأنزلوه من باب السلسلة الى بيته فأقام به .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع فيه على من يذكر من الأمراء ، وهم : المقر السيفى برقوق العثمانى واستقر به أمير أخور كبير ، وخلع على المقر بركة واستقر به أمير مجلس عوضا عن الأمير الطنبغا السلطانى .

ثم أرسل خاصكيا مطردا على جرد الخيل ليحضر المقر السيفى طشتمر نائب الشام ، فلما حضر خرج السلطان الى تلقيه وسائر الأمراء ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه واستقر به أتابك العساكر عوضا عن أينبك البدرى .

ولما أن حضر الأمير طشتمر نائب الشام حضر صحبته جماعة من الأمراء الذين كانوا بدمشق وهم : الأمير تمرباى الدمرداش ، والأمير تغرى برمش العلائى ، والأمير سودون الشيخونى ، والأمير طقتمش اليلبغاوى . فلما حضروا أنعم عليهم السلطان بتقادم ألوف ، وخلع على الأمير تمرباى الدمرداشى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير دمرداش اليوسفى .

ثم ان السلطان رسم بالافراج عن جماعة من الأمراء ممن كانوا مسجونين بثغر الاسكندرية ، وهم : الأمير سودون المنجكى ، والأمير قطلوبغا

البدرى ، والأمير الطنبغا السلطانى ، والأمير اياس الصرغتمشى ، والأمير قطلو بغا البشيرى ، والأمير أصبغا الناصرى الصارمى — وهو صاحب الحوض المنسوب اليه — وغير هؤلاء جماعة كثيرة ممن كان منفيا فى البلاد الشامية وغيرهم .

وفيها — فى ثالث عشر شوال — توجه الأمير بلاط السيفى الجاى أمير حاج الى نحو الربيع بشبرمنت . فلما أقام هناك أرسل اليه السلطان خلعة ورسم له بأن يتوجه الى طرابلس يستقر بها نائبا ، فأجاب بالسمع والطاعة ، وخرج من هناك من يومه . فلما وصل الى غزة رسم له بأن يقيم فى القدس بطالا .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على الأمير يلبغا الناصرى واستقر به أمير سلاح عوضا عن بلاط السيفى الجاى .

وفيها ثارت فتنة بين مماليك الأتابكى طشتمر وبين مماليك الأمير الزينى بركة الجوبانى ، فلبسوا آلة الحرب وتقاتلوا فى الرميلة أشد القتال . فلما طال الأمر بينهم ركب الأتابكى طشتمر بعد العصر وطلع الى باب السلسلة عند المقر السيفى برقوق أمير آخور كبير . فلما طلع اليه قبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية هو وأمير حاج بن مغلطاى .

فلما مضى ذلك عمل السلطان الموكب وخلع على المقر السيفى برقوق العثمانى واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضا عن طشتمر العلائى ، وخلع على المقر السيفى أيتمش البجاشى واستقر به أمير أخور كبير عوضا عن برقوق . ثم ان الأتابكى برقوق قبض على الأمير يلبغا الناصرى أمير سلاح ، وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على المقر السيفى اينال اليوسفى واستقر به أمير سلاح عوضا عن يلبغا الناصرى .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن فى ليلة الأحد الخامس والعشرين من ذى الحجة وقع حريق بظاهر باب زويلة عند باب دار التفاح ، فاحترق دار التفاح والربع الذى كان حوله ، ووصلت النار الى البراذعيين ثم الى الموازينيين ، ولولا سور القاهرة لاحترق نصف المدينة فى تلك الليلة . فلما زاد الأمر ركب الأمير بركة والأمير أيتمش البجاشى ، والأمير قرا دمرداش الأحمدى ، والأمير تغرى برمش حاجب الحجاب ... فاجتمعوا هناك هم ومماليكهم وأخذوا السقائين من بيوتهم وصاروا يطفئون النار وهى لا تزداد الا وهجا واشتعالا ، فأقامت النار وبات الناس على وجل من ذلك ، وأعيوا عن اطفائها ، فأقامت على ذلك يومين بلياليهما والناس مائجة على بعضها . وفى ذلك يقول الشيخ شهاب الدين بن العطار فى المعنى :

أرتنا دار تفاح بنيل
حريقا وقده أمسى عظيما
ونالت بعد ذاك النور نارا
وكانت جنة فغدت جحيما

وقال الشيخ زين الدين بن حبيب الحلبى :

بباب زويلة وافى حريق
أزال معانى الحسن المصون
ودمر كل عال من بناء
وصير كل عال مثل دون
وعبرة عبرة الرائين أجرى
يقينا كالعيون من العيون
وما برح الخلائق فى ابتهال
لمحيى الأرض من بعد المنون
الى أن قال فى لطف خفى
وفضل عناية : يا نار كونى

فاحترق فى ذينك اليومين أكثر من خمسمائة دار ودكان ، حتى لطف الله تعالى وانطفأت النار .

سنة ثمانين وسبعمائة (٧٩/١٣٧٨ م) :

فيها — فى سادس ربيع الأول — قبض الأتابكى برقوق على جماعة من الأمراء ، وهم : الأمير الطنبغا العلائى ، والأمير قطلوبغا أمير علم ، والأمير استبغا التلكى ، والأمير بلك الأحمدى ، والأمير غريب الأشرفى ، والأمير جوبان الطيدمرى ، والأمير ثمان تمر العثمانى ، والأمير قرطقا بن صوصون ، والأمير يجمان العلائى أمير مشوى ، والأمير أقبغا بلشون ... فلما قبض على هؤلاء الأمراء قيدهم وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن فى يوم الاثنين رابع عشرى شعبان ركب الأتابكى برقوق ليسير نحو المطرية ، وكان الامير بركة الجوبانى مسافرا فى اقطاعه نحو البحيرة ، فاغتنم الأمير اينال اليوسفى أمير سلاح هذه الفرصة ، فركب هو ومماليكه ، ولبسوا آلة الحرب ، وطلعوا الى الرميلة ، فتسامعت به جماعة من الأمراء ، فركبوا وطلعوا الى الرميلة . وكان الذين ركبوا مع الأمير اينال اليوسفى هم الأمير سودون جركس المنجكى ، والأمير سودون النوروزى ، والأمير صصلان الجمالى ، والأمير جمق الناصرى ، والأمير حطط ، وغير ذلك من المماليك السلطانية ... فاجتمعوا فى الرميلة .

ثم ان الأمير اينال اليوسفى حطم وطلع الى باب السلسلة وجلس فى الحراقة التى فى الاصطبل ، ثم انه فتح زردخانة الأتابكى برقوق وأخرج ما فيها من السلاح ، ووجد بعض مماليك صغار من مماليك برقوق فألبسهم آلة الحرب وأوقفهم على سور باب السلسلة فقال الأمير سودون المنجكى للأمير اينال : « دعنى آخذ معى جماعة من المماليك وأخرج الى برقوق وأقاتله حتى أن يرجع » ... فلم يوافقه الأمير اينال على ذلك ، ولو فعله لكان صوابا .

فلما بلغ الأتابكى برقوق ذلك ، رجع من أثناء الطريق ، ودخل الى بيت الأمير أيتمش البجاشى ، فقام الأمير أيتمش وفتح زردخاناته وألبس مماليكه ومماليك الأتابكى برقوق ، وخرجوا على حمية ، وطلعوا الى الرميلة ، فوقعوا مع الأمير اينال اليوسفى والأمير سودون المنجكى وبقية الأمراء واقعة قوية ، وقتل فيها جماعة من المماليك السلطانية .

ثم ان برقوق حاصر باب السلسلة ، فلما رأى مماليك برقوق الذين أقعدهم الأمير اينال على سور باب السلسلة أستاذهم يحاصر باب السلسلة رموا الأمير اينال بالنشاب وهو جالس فى الحراقة ، فجاءت نشابة فى رقبة الأمير اينال فتأثر لها ، فقام من وقته وهرب من باب الاصطبل الذى فى باب القرافة ، فاختفى هناك فى بعض الترب ، فطلع الأتابكى الى باب السلسلة وملكه ، وانفض ذلك المجمع .

ثم فى أواخر النهار قبض بعض المماليك على الأمير اينال اليوسفى والأمير سودون المنجكى وأحضروهما بين يدى الأتابكى برقوق ، فقيدهم وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية . وفى ذلك يقول ابن العطار :

قد ألبس الله برقوقا مهابته
نهار الاثنين فى عز وتمكين
وراح اينال مع سودون وانكسرا
وكان يوما عسيرا يوم الاثنين

وقوله أيضا فيه :

بغى اينال واعتقد الأمانى
تساعده فما نال المؤمل

ومـد لأخـــذ برقوق يديه
ولم يعلم بأن الخوخ أسـقل

وكان الأمير اينال صاحب الأمير بركة ، ولما جرت هذه الحركة كان الأمير بركة غائبا فى البحيرة كما تقدم ، فلم يجد له اينال من ناصر ولا معين على ما جرى له . وفى ذلك يقول شهاب الدين بن العطار رحمه الله :

ما بال اينـــال أتى فى مثل هذى الحركه
مع علمـــه بأنهـا خاليـــة من بركه

ثم ان السلطان عمل الموكب وقبض على جماعة من الأمراء ، منهم : الأمير سودون جركس المنجكى والأمير سودون النوروزى ، والأمير صصلان الجمالى ، والأمير جمق الناصرى ، والأمير قمارى الخازندار ... فلما قبض عليهم قيدهم وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ، فهذا ما كان من حوادث سنة ثمانين وسبعمائة .

سنة احدى وثمانين وسبعمائة (١٣٧٩/٨٠ م) :

فيها — فى يوم الأربعاء سابع عشر صفر — أرسل الأمير بركة يقول للأتابكى برقوق ان الأمير أيتمش البجاشى ألبس مماليكه آلة الحرب ، وهو قاصد الركوب ، فاضطرب الأتابكى برقوق من ذلك وأرسل الى بيت أيتمش يكشف عن ذلك الخبر ، فلم نجد لهذا الكلام صحة ولا خبرا .

فلما بلغ الأمير ايتمش ذلك ركب وطلع الى الأتابكى برقوق فى باب السلسلة . ثم ان برقوق أرسل يطلب الأمير بركة بأن يطلع الى باب السلسلة ويحقق ما ذكره فى أمر ايتمش ، فأبى الأمير بركة من الطلوع الى برقوق ، فترددت بينهم الرسل ، والأمير بركة يمتنع من الصلح مع الأمير ايتمش .

ثم ان الأتابكى برقوق أرسل الى الشيخ أكمل الدين الحنفى شيخ الخانقاه الشيخونية ، والى الشيخ أمين الدين الخلوتى بأن يركبا ويتوجها الى الأمير بركة ويسعوا فى الصلح بين الأمير بركة وبين الأمير ايتمش البجاشى ، فتوجه الأمير ايتمش صحبة الشيخين ودخلوا الى بيت الأمير بركة ، فما وسع الأمير بركة الا أنه خلع على الأمير ايتمش خلعة نح ، وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، فطلع الأمير أيتمش وقبل يد الأتابكى برقوق ، وخمدت الفتنة التى كانت .

فلما كانت ليلة الجمعة تاسع عشر صفر ركب جماعة من الأمراء ولبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة . وسبب ذلك أن الأمير بركة ألبس مماليكه آلة الحرب وقصد الركوب . فلما تحقق الأمراء ذلك ركبوا قاطبة ، وطلعوا الى الرميلة واضطربت الأحوال ، فعند ذلك أرسل الأتابكى برقوق خلف القضاة الأربعة ورسم لهم بأن يتوجهوا الى بيت الأمير بركة ، ويسعوا بينه وبين الأمراء فى الصلح واخماد الفتنة ، فأصلح القضاة بينهم ، وتحالفوا وزال ما كان فى خواطرهم من الحقد ، وطلعوا الى القلعة فى يوم السبت ولعبوا الكرة والصولجان ، وأقاموا على ذلك مدة يسـيرة والأمر مبنى على السكون .

فلما كان يوم الاثنين سابع ربيع الأول ركب الأتابكى برقوق ليسير نحو المطرية ، وركب معه جمـاعة من الأمراء ممن كانوا من عصبته . فلما رجعوا ، طلع الأتابكى برقوق الى باب السلسلة ، ورجع الأمراء الذين كانوا معه الى بيوتهم .

ثم ان الأتابكى برقوق جاءه ولد ذكر من سرية فسماه محمدا ، فلما كان يوم سابعه عمل له الأتابكى برقوق عقيقة ، واستدعى سائر الأمراء فلم يتأخر عنه أحد من الأمراء غير الأمير بركة الجوبانى فانه لم يطلع اليه — وكانت قد دبت بينهما عقـارب

الفتن — وكان الأمير بركة صاحب الأتابكى برقوق صحبة مؤكدة لا يعرف أحد ما بينهما ، فلا زال الأمراء يرمون بينهما الفتن حتى أوقعوا بينهما ، وصار كل منهما عدوا لصاحبه ، كما قيل : « سئل بعض الحكماء : كيف يمكن أن يبقى الصديق عدوا ولا يمكن أن يبقى العدو صديقا ؟ فقال : لأن تخريب العامر أسهل من عمارة الخراب ، وتكسير الزجاج أسهل من تصحيحه اذا كان مكسورا » ...

فلما تخلف الأمير بركة عن الطلوع الى الأتابكى برقوق ، مد السماط ، وأكل الأمراء ونزلوا الى بيوتهم ، فقبض الأتابكى فى ذلك اليوم على ثلاثة من الأمراء ممن كان من عصبة الأمير بركة — وهم : الأمير قرا دمرداش الأحمدى ، والأمير طيح المحمدى والأمير أقتمر العثمانى — وأمسك معهم أخا الأمير بركة ، وهو صراى الرجبى الطويل .

ثم ان الأتابكى برقوق ألبس مماليكه آلة الحرب وأوقفهم على سور باب السلسلة ، ونزل الأمير نزلار العمرى وهو سائق الى مدرسة السلطان حسن ، فدخلها مع مماليك الأتابكى برقوق ، فطلعوا الى سطح المدرسة ، ورموا بالنشاب على الأمير بركة وهو جالس فى مقعده ... وكان الأمير بركة ساكنا فى بيت شيخو الذى عند باب الرميلة .

فلما رأى الأمير ذلك ركب وخرج من الباب الكبير الذى بحدرة البقر هو ومماليكه لابسين آلة الحرب — وكان معه بعض أمراء — فمر بالمدينة وخرج من باب الفتوح وتوجه من هناك الى نحو قبة النصر . ولما خرج الأمير بركة من بيته نادى الأتابكى برقوق للعوام بأن ينهبوا بيت الأمير بركة ، فأحرق العوام باب بيت بركة ، ودخلوا اليه ، و نهبوا جميع ما كان فيه حتى أخذوا رخامه وأبوابه وشبابيكه .

ثم ان الأمير بركة أقام فى قبة النصر ذلك اليوم فاجتمع عنده طائفة كثيرة من خشداشينه .

ثم ان الأتابكى برقوق عين الأمير آلان الشعبانى والأمير أيتمش البجاشى ، والأمير قرطاى التركمانى وجماعة كثيرة من المماليك السلطانية ، وتوجهوا الى الأمير بركة فى قبة النصر وقت الظهر ، فوقعوا هناك معه واقعة قوية ، فكسرهم الأمير بركة وسحبهم الى تحت القلعة فحال بينهما الليل عن القتال .

فلما أصبحوا يوم الأربعاء تاسع عشرى ربيع الأول نزل السلطان الملك المنصور على الى باب السلسلة ، وجلس فى المقعد المطل على الرميلة ، وعلق الصنجق السلطانى ودقت الكاسات حربى ، فاجتمع الأمراء والمماليك السلطانية ... فلما كان وقت القائلة بعد الظهر أرسل الأمير بركة يقول للأتابكى برقوق : « ايش أنت قاعد تعمل ؟ اما أن تجيئنى أو أنا أجيئك الى الرميلة » ... فأرسل يقول له الأتابكى برقوق : « اختر أنت فى أى مكان نلاقيك ، ويعطى الله تعالى النصر لمن يشاء وتخمد هذه الفتنة عن المسلمين » .

فلما سمع ذلك الأمير بركة حنق ، وكان السلطان أرسل اليه خلعة وهو فى قبة النصر بأن يستقر نائب طرابلس ويتوجه من هناك ، فلم يوافق الأمير بركة على ذلك ، واستمر القال والقيل بينهما عمالاً .

ثم ان بعض خشداشين الأمير بركة أشار عليه بأن يركب فى ذلك الوقت ويحطم الى الرميلة ، فان العسكر الذين مع برقوق مقيلون فى هذا الوقت فى بيوتهم ، والرميلة خالية من العسكر ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ... فركب الأمير بركة فى ذلك الوقت وقسم العسكر الذين معه فرقتين ، وأمر فرقة أن تمضى من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة تمضى الى الرميلة .

فلما بلغ الأتابكى برقوق ذلك أرسل جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية الى الفرقة التى فيها الأمير بركة ، فلاقوه بين الترب فوقعوا معه هناك واقعة قوية من بعد الظهر الى قرب المغرب ، فانكسر الأمير بركة وهرب ، وتفرق من كان معه من العسكر من شدة الحر .

ثم ان طائفة من المماليك سحبوا الأمير بركة حتى تقنطر من على فرسه ، فقام وهرب وهو ماش حتى اختفى .

وأما الفرقة التى أرسلها من تحت الجبل الأحمر فانه كان فيها الأمير يلبغا الناصرى أمير سلاح ، فتوجه اليه الأمير أيتمش البجاشى ووقع معه ، وتقدم اليه الأمير أيتمش وضربه بطير كان معه على وجهه فسقط الى الأرض مغشيا عليه وانكسر من كان معه من العسكر ، فنهب الزعر العسكر الذين كانوا مع يلبغا ، وقتل من المماليك الذين كانوا معه ما لا يحصى ومن الغلمان كذلك ، فأخذ الأمير أيتمش صنجق يلبغا الناصرى وطبلخاناته وأتى بهما الى الأتابكى برقوق ، وقبض على جماعة كثيرة من المماليك السلطانية ممن كان راكبا مع الأمير بركة . وجرح فى هذه الواقعة من العسكر والغلمان ما لا يحصى .

وقيل : لما هرب الأمير بركة اختفى فى بستان حتى دخل الليل — وكان معه شخص من الأمراء العشراوات يقال له أقبغا ميوان — فتوجه الأمير بركة الى شخص من الصالحين يقال له الشيخ محمد المقدسى ، وكان مقيما فى جامع المقس الذى فى باب البحر ، فاختفى بركة عنده ، فلما طلع النهار أرسل الأمير بركة يعرف الأتابكى برقوق بأنه فى جامع المقس عند الشيخ محمد المقدسى ، فأرسل اليه الأتابكى برقوق فى ساعته الأمير الطنبغا الجوبانى ، والشرف يونس دوادار الأتابكى برقوق . فلما دخلا عليه أخذاه وأركباه على فرس وطلعا به الى القلعة ، فلما طلع قيدوه وأرسلوه الى السجن بثغر الاسكندرية . وفى ذلك يقول ابن حبيب الحلبى :

يا ويحها من حالة ... وشؤمها من حركه
وقبحها من فتنة ... فيها أزالت بركه

وقال القيم خلف الغبارى :

مصر صارت بعد انقباض فى انشراح
وقلعها مزخرف والقصور
يا الهى احفظ لنا برقوق
واحرس الجند وانصر المنصور

***

جعل الله لكل وقعة سبب
ونقول لك سبب هذه الوقعه
بركه راد يعمل على أيتمش
والى الشام يسيروا سرعه
طلب الصلح بينهم برقوق
فأرسلوا له اخلع عليه خلعه

***

وبقى بعض ما بقى فى النفوس
والعليل ما اشتفى بغل الصدور
وقد أمسوا على حذر بايتين
وايش يفيد الحذر مع المقدور

***

أصلحوا بينهم نهار جمعه
وصفى ودهم وطابوا الجميع
جا أيتمش عصبة الأمير برقوق
وبقى كل أحد لأمرو مطيع
فمسك فى نهار الاثنين طيح
ودمرداش الدوادار سريع

***

بركه حين سمع بذلك طلب
قبة النصر خوف من المقدور
كان حذور حتى وقع فى الشرك
والمثل قال ما يقع الا الحذور

ولما وقعت هذه الفتنة أقامت أبواب مصر هي والأسواق مقفلة ثلاثة أيام حتى أمسكوا بقية الأمراء الذين ركبوا مع الأمير بركة ، وهم : الأمير قرا كشك اليلبغاوى ، والأمير أيدمر الخطائي ، والأمير سودون الطيقتمرى ، والأمير يلبغا المنجكى ، والأمير قرابلاط الأحمدى ، والأمير قرابغا الأبو بكرى ، والأمير تمربغا الشمسى ، والأمير كرك القرمى ، والأمير قطلو بك النظامى ، والأمير أقبغا صيوان ، والأمير طولوتمنو الأحمدى ، والأمير تنكز العثمانى ، والأمير غريب الأشرفى ، والأمير الطنبغا الأرغونى ، وأمير حاج بن مغلطاى ، والأمير طوجى الحسنى ، ويوسف بن شادى ... فلما أمسك هؤلاء الأمراء قيدوا وأرسلوا الى السجن بثغر الاسكندرية ، وأرسلوا طائفة منهم الى ثغر دمياط ، وطائفة منهم الى قوص ، وراقت هذه الفتنة وخمدت .

ثم ان السلطان أفرج عن جماعة من الأمراء ممن كانوا بالسجن معتقلين ، وأنعم عليهم باقطاعات من نفى من الأمراء عوضا عنهم ، واستمر الحال ساكنا .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من الشام بأن نائب الشام بيدمر الخوارزمى خامر وخرج عن الطاعة ، ولما أن خامر قبض عليه عسكر دمشق وقيدوه وسجنوه بقلعة دمشق وأرسلوا يعلمون السلطان بذلك ، وأنه أخرج بركه وعياله من الشام وقصد الهرب الى نحو بلاد التركمان ، فقبضوا عليه وسجنوه بقلعة دمشق الى أن يفعل فيه السلطان ما يريد . فلما بلغ الأتابكى برقوق ذلك أرسل يطلب بيدمر الخوارزمى الى القاهرة ، وعين لذلك خاصكيا .

ثم ان السلطان عمل الموكب ، وخلع على الأمير ألان الشعبانى ، واستقر به أمير سلاح عوضا عن يلبغا الناصرى ، وخلع على الأمير الطنبغا الجوبانى واستقر به أمير مجلس عوضا عن الأمير بركه الجوبانى ، وخلع على الأمير ألان بغا العثمانى واستقر به دوادارا كبيرا ، وخلع على الأمير الطنبغا المعلم واستقر به رأس نوبة النوب ثانى .

ثم ان السلطان عمل الموكب الثانى وخلع فيه على من يذكر من الأمراء وهم : الأمير جركس الخليلى واستقر به أمير أخور كبير . وخلع على الأمير كمشبغا الأشرفى واستقر به شاد الشربخانات السلطانية . وأنعم على جماعة كثيرة من الخاصكية بامريات عشرة ، منهم : أقبغا الناصرى المعروف بالقندسى ، ومنهم تنكز بغا السيفى يلبغا ، ومنهم قطلوبغا الكوكاى فخلع عليه واستقر به حاجبا ، ومنهم الأمير سودون باق ، ومنهم طوجى العلائى وفارس الصرغتمشى ، وكمشتبغا الخاصكى ، وبيرم العلائى ، وقوصون المحمدى الأشرفى ، وأقبغا الأجنبى ، وبيبرس الثمان تمرى ، وغير ذلك من الأمراء جماعة كثيرة — منهم طبلخانات ومنهم عشراوات — فاستقامت الأحوال ، وسكن الاضطراب .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن جاءت الأخبار من البحيرة بأنه قد جاءت على دمنهور طائفة من العربان نحو خمسة آلاف انسان ، وكان كبير العربان يسمى بدر بن سلام ، فكبسوا على دمنهور ونهبوا أسواقها والبيوت ، وأخربوا عدة بلاد . فلما سمع الأتابكى برقوق بذلك عين فى ذلك اليوم ثمانية أمراء مقدمين — وهم الأمير ألان الشعبانى أمير سلاح ، والأمير الطنبغا الجوبانى أمير مجلس ، والأمير أيتمش البجاشى رأس نوبة النوب ، والأمير مأمور القلمطاوى أحد المقدمين ، والأمير بلاط الصرغتمشى أحد المقدمين ، والأمير بهادر الجمالى ، والأمير نزلار العمرى الناصرى

أحد المتقدمين — فهذه ثمانية[1] أمراء مقدمين . وعين من الأمراء الطبلخانات عشرة ، ومن الأمراء العشراوات اثنى عشر ، ومن المماليك السلطانية نحو أربعمائة مملوك ، وأمرهم بأن يخرجوا من يومهم .

فلما كان يوم الجمعة رابع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة ، صلى الأمراء صلاة الجمعة وخرجوا قاطبة مع العسكر ، وعدوا من بر مصر الى الجيزة ، فقاسى العسكر مشقة عظيمة فى التعدية حتى عدوا . فلما تكامل العسكر رحلوا من الجيزة وتوجهوا الى نحو البحيرة . فلما مضى ثلاثة أيام حضر أمير أخور كبير أيتمش البجاشى وأخبر بأن العسكر لما وصلوا الى البحيرة وضربوا خيامهم وباتوا فى تلك الليلة ، أراد العرب أن يكبسوا على العسكر وهم فى الخيام ، فجاء شخص من العرب الى الأمراء وأخبرهم بأن العرب قصدون أن يكبسوا على العسكر وهم فى الخيام تحت الليل . فلما سمع الأمراء والعسكر ذلك خرجوا من الخيام تحت الليل وأكمنوا كمينا بالقرب من الخيام . فلما انتصف الليل هجم العرب على الخيام فوجدوها خالية ليس بها أحد ، فرجع عليهم الترك ولعبوا فيهم بالسيف ، وأحاطوا بهم فقتلوا منهم نحو ألف انسان وأسروا منهم أكثر من ذلك من نساء وصغار وبنات ، ولم ينج منهم الا القليل ، وأخذوا جمالهم وأغنامهم وخيولهم وأموالهم وأولادهم .

وأما بدر بن سلام كبير العربان فانه لما رأى ذلك هرب تحت الليل الى نحو الجبال . فلما حصلت هذه النصرة للعسكر قصدوا التوجه الى نحو الديار المصرية ، فكان يوم دخولهم الى القاهرة يوما مشهودا ، فدخلوا بالأسارى وهم فى زناجير ، والنساء فى حبال وهن حاملات أولادهن مشاة ، فلما حصل ذلك خرج أهل مصر جميعا للفرجة عليهم ، فكان لهم يوم عظيم فى القصقه والفرجة عليهم .

وفى هذه الواقعة يقول القيم خلف الغبارى هذه القطعة الزجل :

باسم رب السما أبتدى	فارج الهم والكرب
ويفيد للذى حضر	قصة الترك والعرب

* * *

جاء الخبر يوم الأربعا	بأن فى ليلة الأحد
جا دمنهور عرب خذوا	سوقها وأخربوا البلد
وابن سلام أميرهم	هو الذى للجميع حشد

* * *

فبرز أيتمش سريع	بمماليك وروس نوبه
وعدد ما لها عدد	ويطلبوا لهم طلب

* * *

والأمارى المعينين	كل واحد بجيش بدا
عدا بعد الصلا وراح	وغدا قصد للعدا
فى المعادى رأيت لهم	يوم زحام فايش غدا

* * *

لتروجا تروحوا	واستراحوا من التعب
ونصب كل أحد خيام	ولصيد العدا انتصب

* * *

حضروا ما التقوا أحد	من جميع العرب حضر
وابن عرام أتى لهم	بعثوه يكشف الخبر
ماعرف للعرب طريق	بعد وجا عبدو فى الأثر

* * *

لأيتمش حدثوا الصحيح	قام سريع أيتمش ركب
ماترك تركى فى الوطاق	والخيام حيل قد نصب

* * *

راحت الترك من مكان	وأتى بدر من مكان
وتفرعن وجا الوطاق	ولهم قال أنا فلان
ولموسى بن خضر صاح	مات بطعنة من السنان

* * *

[1] لم يذكر سوى سبعة .

ورأى الترك داركوه   فى طلوع النهار هرب
شحتوا أيتمش سريع   ورقاب من معو ضرب

* * *

واقعة حرب ذى العرب   لاغنا مالها نبا
بدر فى الليل بعاديات   جا البلد والنسا سبا
طلبوا النصر جالهم   مالهم فى القصص سبا

* * *

فى القتال كان لهم نهار   لو تراه ساعة اقترب
يوم قيامه وكم عرب   جاثية فيه على الركب

* * *

جس ذى النوب بالسماع   قد فهمنا من الأصول
فى الخروج تابت العرب   فازت الترك بالدخول

* * *

والسهام شببت على   جس الأوتار بالغضب
غنت البيض على الخود   رقصوا الخيل من الطرب

* * *

وابن سلام مع الأجل   فاز بنفسو على فرس
والأمير أيتمش رحل   لتروجا سريع كبس
فى البيوت حارت النفوس   ما التقى حد لو نفس

* * *

نبشوهم من الشون   قبوهم من القبب
وخدوا فضة الجميع   وجميع مالهم ذهب

* * *

وقع القتل فى الرجال   وقد انهتك الحريم
والذى كان مقيم رحل   ما عليها أحد مقيم
وكم انسان بسيف وقوس   ماعرف له هناك غريم

* * *

جبد السيف من الجفير   ولراس من لقيه ضرب
وان حماه مشترى النفاد   سرعا بالقوس عليه عقب

* * *

لما تروا السيوف دما   ساعة النحر فى النحور
اعتقدت انها تحيض   صرت تعجب لذى الأمور
قال فتى بابلى اللحاظ   كيف يحيضو وهم ذكور

* * *

الا ذا ساحر القتال   أيتمش للسيوف كتب
باب نزيف نزت الدما   من مماليكه الجلب

* * *

البحيره من الفتن   سعدها زال واختفى
وبقى فرحها حزن   وقد تكدر الصفا
والناس قالت ايش جرا   والذى قد جرى كفى

* * *

قالوا من تحت راس بحيره   مالو بتقلو قد انتهب
وبنات الخدور سبوا   قلت سبوه فهو السبب

* * *

جا ابن سلام معو رجال   كل حد شمهوتو رغيف
ذا على رقبتو تفال   وذا فى رقبتو شمسليف
وذا لو درع سيسبان   وذا لودرع خوص وليف
والقسى قسى من نخيل   وخرائطهم الجعب
وصواريهم الجريد   وخودهم قصع خشب

* * *

فاعل النحس فى القياس   ما عرف صنعة البنا
جا بنى شىء بلا أساس   هدت الترك ما بنى
وتروجا المعسره   خربت حسين لها دنا

* * *

قلعوا أبوابها الجميع   والسكفات مع العتب
يمسكوا بدر يعتبوه   وعليه يوقع العتب

* * *

بدر تبت يدا أباه   لصلاح النسا فسد
كم مليحه أتت وفى   جيدها حبل من مسد
ولى قال شخص من حنين   بدر فى ذى الذى قصد

* * *

أبو جهل قلت لا   الا قلبو أبو لهب
قال لى وامرتو ايش تكون   قلت حمالة الحطب

* * *

حسن غلب منى راجحى   وانكسر كسر ما انجبر
قالت أقوام بعد سوه   أنت قيم ديار مصر
جا الحكم طابقى وقال   يا غبارى جرى خبر

* * *

لديار مصر قيمين   فى الزجل ذا يكن عجب
قلت ذا قيم السفه   وأنا قيم الأدب

ومن الحوادث فى هذه السنة قد جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن الأمير بركة الجوبانى قد مات وهو بالسجن ، فأرسل الأتابكى برقوق دواداره الشرفى يونس لكشف أخبار موته على حين غفلة . فلما توجه الشرفى يونس الى ثغر الاسكندرية وكشف عن ذلك ، وجد خليل بن عرام نائب الاسكندرية قد قتله ودفنه فى بعض الترب هناك ، فنبش عليه الشرفى يونس وأخرجه من القبر فوجد ثلاث ضربات فى رأسه وهو مدفون فى ثيابه من غير غسل ولا تكفين ، فغسله الشرفى يونس وكفنه وصلى عليه ودفنه خارج باب رشيد وبنى عليه قبة وكتب بذلك محضرا .

ثم انه أخذ خليل بن عرام صحبته وأتى به الى القاهرة وهو فى الحديد . فلما حضر الشرفى يونس وطلع الى القلعة أودعوا خليل بن عرام فى خزانة الشمايل وباتوا يعاقبونه ويعصرونه لأنه قد قيل عنه انه لما قتل الأمير بركة كان فى رأسه فصوص مثمنة فأخذها منه ، فلم يقر ابن عرام بشىء من ذلك .

فلما كان يوم الخميس خامس عشرى رجب طلب الأتابكى برقوق خليل بن عرام فأخرجوه من خزانة الشمايل ، ومثل بين يدى الأتابكى برقوق ، فرسم بضربه بالمقارع فضرب ستة وثمانين شيبيا ثم رسم بتسميره ، فأخذه الأمير مأمور القلمطاوى حاجب الحجاب والأمير قطلقتمر أمير جاندار ، فأحضر له جملا ولعبه وسمروه عليه ، فلما نزلوا به من القلعة وهو مسمر ، ووصلوا به الى باب السلسلة ، جاء اليه مماليك الأمير بركة وضربوه بالسيوف حتى مات ، ثم أنزلوه من على الجمل ، وصاروا يقطعونه بالسيوف قطعا ، فقطع بعضهم رأسه وأخذها وعلقها على باب زويلة ، وصار كل واحد من مماليك بركة يقطع من أعضائه قطعة ، وقيل ان بعض المماليك شق بطنه بالسيف وأخرج كبده وجعل يمضغه من شدة حنقه . ثم ان بعض الناس جمع أعضاء خليل بن عرام ودفنها فى مدرسته التى أنشأها عند قنطرة الأمير حسين بن جندر على الخليج الحاكمى ...وصارت هذه الواقعة مثلا عند أهل مصر ، يقولون : « نعوذ بالله من حمول ابن عرام » ...

وكان الأتابكى برقوق أرسل الى ابن عرام مراسيم فى الدس بقتل الأمير بركة ، فأنكر برقوق ذلك وأرسل أخذ منه تلك المراسيم ، وراحت هذه الواقعة فى رقبة ابن عرام وراح مظلوما فى ذلك بين برقوق ومماليك الأمير بركة .

وقد قال بعضهم فى المعنى :

مخالط السلطان فى محنة
يرتقب الأوقات فى عكسه
ان سره أسخط خلاقه
أوساءه خاف على نفسه

وفى واقعة خليل ابن عرام يقول شهاب الدين بن العطار المصرى رحمه الله :

بدت أجزا ابن عرام خليل
مقطعة من الضرب الثقيل
وأبدت أبحر الشعر المراثى
محررة بتقطيع الخليل

وقيل ان الشيخ يحيى الصنافيرى والشيخ بهار ، بشرا عن خليل بن عرام أنه ما يموت الا مسمرا مقطعا . وقال المقريزى ان خليل بن عرام كان شرع قبل موته فى كتابة تاريخ يذكر فيه أشياء من وقائع الأحوال ، فلماجرى له ماجرى قال فيه ابن العطار :

أيا ابن عرام قد سمرت مشتهرا
وصار ذلك مكتوبا ومحسوبا

مازلت تجهد فى التاريخ تكتبه
حتى رأيناك فى التاريخ مكتوبا

ومن الحوادث فى هذه السنة أن فى يوم الثلاثاء ثامن ذى القعدة حضر من بلاد الچراكسة والد الأتابكى برقوق ، فخرج الناس لملاقاته قاطبة ، فلاقوه من العكرشة — وقيل هو المكان الذى التقى فيه يوسف الصديق مع أبيه يعقوب عليهما السلام — فلما تلاقى برقوق مع أبيه تعانقا ثم ركبا ورجعا الى سرياقوس ، فمد له برقوق هناك سماطا عظيما ؛ وأقاما فى سرياقوس الى ما بعد الظهر ، فجاءت اليه سائر الأمراء وأرباب الدولة حتى القضاة الأربعة .

ثم ان الأتابكى برقوق ركب من سرياقوس ودخل القاهرة ، فدخل من باب النصر ، وزينت له المدينة فشق من القاهرة وطلع الى القلعة .

وكان والد الأتابكى برقوق جركسيا مغلقا ، لا يعرف ولا كلمة بالعربى . وكان اسمه « أنص » ، وقيل « أنبس » بالسين . فلما كان يوم الموكب تقدم أيدمر الشمسى أحد الأمراء المقدمين وقبل الأرض ، وسأل الأتابكى برقوق بأن يكون طرخانا ويرتب له ما يكفيه ، وأن تكون امريته الى والد الأتابكى برقوق ، فشكره الأتابكى على ذلك ورتب له ما يكفيه وجعله طرخانا كما طلب ، وأنعم السلطان بامريته على والد الأتابكى برقوق ، فلم يقم الأمير أيدمر الشمسى بعد ذلك الا ثلاثة أشهر ومات ، واستمر والد برقوق مقدم ألف .

وفى هذه السنة شرع الأتابكى برقوق فى عمارة جسر الشريعة الذى بطريق الشام عند قرية أريحا على النهر الذى هناك ، وجعل طوله مائة وعشرين ذراعا وعرضه نحو عشرين ذراعا ، فصرف على ذلك جملة مال ، وكان به نفع عظيم للمسافرين ، وقد قيل فى المعنى :

أيا ملكا بنى جسرا بعدل
به حمل الأنام على الشريعة
له شُرف على الجوزاء سام
وفوق الحوت أركان منيعة

وفى هذه السنة توفى الشيخ ابراهيم المعمار صاحب الأشعار اللطيفة والأبيات العامرة بالمحاسن والتورية ، وقد رثاه الشيخ برهان الدين القيراطى بهذه الأبيات فقال :

مذ عمر المعمار دار البلى   رمى بيوت النظم بالنقض
فياله من شاعر ميت   بكت عليه طوبة الأرض

سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة (٨١/١٣٨٠ م) :

فيها جاءت الأخبار من البحيرة بأن سائر قبائل عربان البحيرة تحالفوا على العصيان ونهبوا البلاد ، فخرج اليهم ألان الشعبانى أمير سلاح مع خمسمائة مملوك . فلما وصلوا اليهم وقع معهم ، فكسره العرب وقتلوا جماعة كثيرة من المماليك السلطانية .

فلما جاءت الأخبار بذلك اضطربت أحوال الديار المصرية ، وعلق السلطان الجاليش ، وقصد التوجه الى البحيرة . ثم ان بعض الأمراء أشار بعدم خروج السلطان ، وأن سائر الأمراء يخرجون اليهم ، فجاءت الأخبار عن ذلك بأن نائب الاسكندرية حضر هناك وصحبته عربان كثيرة من عربان الغربية ، فوقعوا مع العربان فكسروهم كسرة قوية وهربوا الى نحو برقة ، فبطل العسكر الذين كانوا قد توجهوا اليهم .

وفيها توفى الأديب أحمد سميكة ، وكان شاعرا ماهرا فى طبقة ابراهيم المعمار ، ومن شعره قوله :

شهر الصيام مبارك   لو لم يكن فى شهر آب
خفت العذاب فصمته   فوقعت فى وسط العذاب

سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة (١٣٨١ م) :

فيها هجم الوباء بالديار المصرية ، ووقع الغلاء أيضا فى تلك السنة .

وفيها حضر الى القاهرة الشيخ الصالح الزاهد الناسك العارف بالله تعالى الشيخ على الروبى ، أعاد الله علينا من بركاته . فلما حضر عند الأتابكى برقوق ، وأقام عنده يومين ، بشره من نصه بأنه سيلى السلطنة فى يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة . ومما بشر به الناس أن بعد مضى شهر يرتفع الوباء من القاهرة ، ويتناقص الغلاء ، ثم يموت عقيب ذلك الملك المنصور على بن الأشرف شعبان .

وأقام الشيخ على الروبى فى مصر أياما ثم توجه الى بلاده ، فما مضى قليل حتى أشيع بين الناس أن الملك المنصور عليا قد طعن وهو فى حال العدم .

فلما كان يوم الأحد ثالث عشرى صفر فيه توفى الملك المنصور على ابن الأشرف شعبان ، وكانت وفاته بعد الظهر ودفن فى يومه ، وتولى تجهيزه الأمير قطلو بغا الكوكاى ، فغسله وكفنه وصلوا عليه بالقلعة ودفنوه فى مدرسة جدته خوند بركة أم الملك الأشرف شعبان التى بالتبانة .

ومات الملك المنصور على وله من العمر نحو اثنتى عشرة سنة ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية خمس سنين وثلاثة أشهر ونصفا . وكان جميل الصورة ، حسن الشكل ، قليل الأذى فى حق الرعيه . وكان مع الأتابكى برقوق فى غاية الضنك ، ليس له فى السلطنة الا مجرد الاسم فقط ، والأمر كله للأتابكى برقوق .

ولما مات الملك المنصور على لم يجسر برقوق أن يتسلطن بعده ، فأخرج سيدى أمير حاج أخا الملك المنصور على وسلطنه عوضا عن أخيه على .

الملك الصالح أمير حاج

هو الملك الصالح أمير حاج ، ابن الملك الأشرف شعبان ، ابن الأمجد حسين ، ابن محمد بن قلاون ، وهو الرابع والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويع بالسلطنة بعد موت أخيه الملك المنصور على فى يوم الاثنين رابع عشرى صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة (١٣٨١ م) . وتولى الملك وله من العمر نحو احدى عشرة سنة .

وكانت صفة ولايته أن أمير المؤمنين محمدا المتوكل حضر والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى وسائر الأمراء ،فاجتمعوا عند باب الستارة وطلبوا من بقى من أولاد الملك الأشرف شعبان ، فوقع الاتفاق على تولية سيدى أمير حاج — وكان أكبر اخوته — فولوه السلطنة ولقبوه بالملك الصالح ، وأحضروا له خلعة السلطنة فلبسها . وركب من باب الستارة والأمراء مشاة بين يديه حتى وصل الى الايوان ، فجلس على سرير الملك ، والأتابكى برقوق حامل القبة والطير على رأسه ، ثم دخل الى القصر ومد السماط ونادى باسمه فى القاهرة وضج الناس له بالدعاء .

فلما تم أمره فى السلطنة رسم بالافراج عن بيدمر الخوارزمى نائب الشام — وكان معتقلا بثغر دمياط — فلما حضر خلع عليه واستقر به نائب الشام على عادته .

ثم جاءت الأخبار من البلاد الحلبية بأن طائفة من التركمان نهبوا بعض ضياع حلب وحصل منهم غاية الفساد . فلما بلغ الأتابكى برقوق ذلك عين لهم تجريدة ، وخرج اليهم ثلاثة من الأمراء المقدمين وخمسمائة مملوك ، فلما توجهوا الى هناك التقوا

مع التركمان وكسروهم ، وقتلوا منهم جماعة كثيرة ، ونهبوا أموالهم وطردوهم الى ملطية ، ثم رجع العسكر الى القاهرة وهم فى غاية النصرة .

وفيها توفى الشيخ نظام الدين ، وهو صاحب النظامية التى بطاوق جبل القلعة .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن الأمير جركس الخليلى أمير أخور كبير حسّن للأتابكى برقوق وجماعة من الأمراء أن يعمل جسرا ما بين الروضة وبين جزيرة أروى — وكان البحر قد احترف فى تلك السنة احترافا زائدا — فحفروا فى وسط البحر خليجا من الروضة الى الزربية ، وشرعوا فى عمل جسر طوله نحو ثلثمائة قصبة وعرضه عشرة أقصاب ، وجعلوا بظاهر هذا الجسر خوازيق سنط كل خازوق نحو من ثمانية أذرع ، وسمروا عليها أفلاق خشب نخل وردموا عليها بالتراب ، وأنجز العمل من هذا الجسر فى نحو من شهرين . وكان مبتدأ ذلك فى ربيع الأول سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وفى ذلك يقول الأديب عيسى بن حجاج :

جسر الخليلى المقر لقد رسا
كالطود وسط النيل كيف يريد
فاذا سألتم عنهما قلنا لكم :
ذا ثابت دهرا ، وذاك يزيد

وقال ابن العطار رحمه الله :

راع الخليلى قلب الماء حين طغى
بنى عليه لذا جسرا وجبره
رأى ترمل أرضيه وحدتها
والنيل قد خاف يغشاها فجسره

فلما زاد الماء وبلغ ثمانية عشر ذراعا أكل ذلك الجسر الذى تعب عليه الخليلى ، ولم يفد من ذلك شيئا ، وزاد النيل فى تلك السنة زيادة لم يعهد مثلها ... وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

قد قطع النيل جسر مصر ... ولم يراعى له خليل
تياره صال مثل سيف ... يقطع والما له نصول

وفى هذه السنة زاد شر العربان فى البحيرة حتى نهبوا المغل فى البلاد . فلما بلغ الأتابكى برقوق ذلك عين لهم تجريدة فيها ستة أمراء مقدمين وخمسمائة مملوك . فلما توجه الأمراء الى هناك هرب منهم العرب فغنم منهم العسكر نحو ثلاثة آلاف رأس غنم ، ومثلها جمال ، ومثلها معز ، فأخذ العسكر ذلك ورجعوا الى القاهرة .

ومن الحوادث فى تلك السنة أن فى يوم الثلاثاء ثامن عشر شهر رمضان رقد الأتابكى وقت القائلة فى البيت الذى بباب السلسلة ، وكان عنده شخص من الخاصكية يكبسه يقال له الشيخ الصفوى ، فلما أراد برقوق أن يستغرق فى النوم اتكأ الشيخ الصفوى على جنبه بالقوى ، فقعد برقوق على حيله وقال : « ايش الخبر ؟ » ... فقال له الشيخ الصفوى : « ان مملوكك أيتمش الخاصكى اتفق معه جماعة من مماليك الأسياد أنهم يدخلون عليك فى هذه الساعة ويقتلونك » ... فسكت برقوق ساعة ثم ان أيتمش المذكور دخل البيت على برقوق فقام اليه برقوق وأخذ قوس كباد كان الى جانبه وضرب به أيتمش ضربة فرماه الى الأرض . فلما وقع قال له برقوق : « يا ... الذى يريد قتل الملوك يقع الى الأرض من فرد ضربة ؟ » ... ثم قام برقوق وقبض عليه وسجنه فى بعض أبراج باب السلسلة ، ثم خرج وجلس فى المقعد الذى يطل على الرميلة وطلب بطا الأشرفى ، فلما طلع اليه قبض عليه وسجنه . ثم انه طلب نقيب الجيش وقال له : « در على الأمراء وقل لهم يطلعوا فى

هذه الساعة » ... فدار عليهم نقيب الجيش ، فطلعوا الى باب السلسلة ، فلما تكاملوا وحضروا بين يديه تلا عليهم ما بلغه عن مماليك الأسياد ، وأخبرهم بما وقع له معهم ، فأشاروا عليه بمسكهم ، فقبض فى ذلك اليوم على خمسة وستين مملوكا من مماليك الأسياد وأرسلهم الى خزانة شمايل . وأما أيتمش الخاصكى وبطا الأشرف فنفاهما الى الشام ، ونفى من أعيان مماليك الأسياد الى قوص نحوا من أربعين مملوكا .

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان من السنة المذكورة طلب الأتابكى برقوق الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة وسائر الأمراء ، فلما اجتمعوا فى باب السلسلة قام القاضى بدر الدين بن فضل الله كاتب السر الشريف فى وسط المجلس وقال : « يا أمير المؤمنين ، ويا سادات القضاة ، ان أحوال المملكة قد فسدت ، وزاد فساد العربان فى البلاد ، وخامر غالب النواب فى البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة ، والأحوال غير مستقيمة ، وان الوقت قد ضاق ، ومحتاجون الى اقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب » ...

فتكلم القضاة مع الخليفة فى سلطنة الأتابكى برقوق ، فخلعوا الملك الصالح أمير حاج من السلطنة وسلطنوا الأتابكى برقوق .

ثم ان الملك الصالح أمير حاج دخل الى دور الحرم عند اخوته . وكانت مدة سلطنته بعد أخيه على بالديار المصرية سنة وسبعة أشهر وأياما . واستمر الملك الصالح مقيما فى دور الحرم الى أن عاد الى السلطنة مرة أخرى كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

وأمير حاج هذا هو آخر من تولى السلطنة من ذرية بنى قلاون ، وبه زال الملك عن بنى قلاون كأن لم يكن ... فسبحان من لايزول ملكه ولا يتغير .

وقد أقامت السلطنة فى قلاون وذريته مائة سنة وثلاث سنين وأشهرا ، وزال عنهم الملك ...



دولة الجراكسة

الملك الظاهر برقوق

هو الملك الظاهر سيف الدين ، أبو سعيد برقوق ابن أنص ، وقيل أنس ، العثمانى الچركسى. وهو أول ملوك الجراكسة بالديار المصرية ، وهو الخامس والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية .

بويع بالسلطنة بعد خلع الملك الصالح أميرحاج ، ابن الملك الأشرف شعبان ، ابن الأمجد سيدى حسين ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون . تولى الملك فى يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، الموافق لآخر يوم من هاتور من الشهور القبطية . وفى حال جلوسه على سرير الملك أمطرت السماء مطرا خفيفا ، فاستبشر الناس بذلك .

وكانت صفة ولايته أنه لما صلى الظهر بايعه أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد بحضرة القضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى ، وهو الذى لقبه بالملك الظاهر ، لأنه تولى الملك وقت الظهر . فلما بايعه الخليفة أحضروا له خلعة السلطنة — وهى جبة سوداء ، وشاش أسود ملفوف عمامة ، وللجبة طرز زركش وسيف بداوى مقلد حمائلى — فركب من الحراقة التى فى باب السلسلة ، والأمراء مشاة بين يديه ، والمقر السيفى أيتمش البجاشى حامل القبة والطير على رأسه الى أن طلع من باب سر القصر الكبير ، وجلس على سرير الملك ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء من العام والخاص .

ولما تسلطن الملك الظاهر برقوق أقامت القاهرة سبعة أيام وهى مزينة ، والناس فى فرح وسرور بسلطنته .

وكان أصل الملك الظاهر برقوق من مماليك الأتابكى يلبغا العمرى الناصرى ، جلبه الى مصر الخواجا عثمان بن مسافر فاشتراه منه الأتابكى يلبغا وأقام عنده مدة ثم أعتقه . فلما مات يلبغا وجرى لمماليكه ما جرى ، هرب برقوق وتوجه نحو الشام ، فخدم عند منجك نائب الشام ، فلما توفى منجك صار برقوق من جملة مماليك السلطان . فلما كانت دولة الأشرف شعبان بقى برقوق أمير عشرة ، ثم بقى أمير أربعين ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى أمير أخور كبير ، ثم بقى أتابك العساكر فى دولة الملك المنصور على ابن الأشرف شعبان ، ثم بقى سلطانا بمصر بعد خلع الملك الصالح أمير حاج .

وكان برقوق من خلاصة الجراكسة ، فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب وخلع فيه على من يذكر من الأمراء ، وهم : المقر السيفى سودون الفخرى الشيخونى ، خلع عليه واستقر به نائب السلطنة بمصر . وخلع على المقر السيفى أيتمش البجاشى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن نفسه ، وخلع على المقر السيفى الطنبغا المعلم واستقر به أمير سلاح ، وخلع على المقر السيفى الطنبغا الجوبانى واستقر به أمير مجلس ، وخلع على المقر السيفى چركس الخليلى واستقر به أمير

أخور كبير على عادته ، وخلع على المقر السيفى قردم الحسنى واستقر به رأس نوبة النوب ، وخلع على المقر السيفى قطلوبغا الكركائى واستقر به حاجب الحجاب ، وخلع على المقر السيفى يونس النوروزى داوداره واستقر به داودارا كبيرا .

ثم أنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف ، وأنعم على جماعة بأمريات أربعين ، وعلى جماعة بأمريات عشرة ، وأرضى الجند بالاقطاعات ، وأنفق عليهم نفقة السلطنة واستقامت أموره فى المملكة .

وكان من العادة أن السلطان اذا خرج من الباب الى صلاة العيد تحمل القبة والطير على رأسه . فلما تسلطن برقوق أبطل ذلك ثم قبض على جماعة من الأمراء وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ، ونفى جماعة كثيرة من المماليك الأشرفية وحلف سائر الأمراء لنفسه .

ودخل الرعب فى قلوب الرعية والعسكر منه حتى كان العوام يقولون للفاكهانى : « عندك شقير ؟ » ... ولا يقولون «برقوق» تعظيما لاسمه .

ثم غير جماعة من قضاة القضاة ومن المباشرين من أرباب الدولة ، منهم القاضى بدر الدين بن فضل الله ... فصله من كتابة السر واستقر بالقاضى أوحد الدين الحنفى كاتب السر الشريف بمصر عوضا عن ابن فضل الله ، وغير جماعة كثيرة من المباشرين .

وفى هذه السنة عمل الخليلى جركس المراكطى أمير أخور كبير طاحونة لطيفة تدور بالماء ، فوضعها فى مركب ، وأوقفها عند المقياس ، فكانت تطحن الدقيق من غير تعب ولا كلفة ، فكان الناس يخرجون زمرا يتفرجون عليها . قال ابن العطار :

سر لطاحون الخليلى التى
تدور بالماء بمصر حقيق

قد شنفت من وصفها مسمعى
لأنه من كل وجه دقيق

وفى هذه السنة توفى الشيخ يحيى الصنافيرى رحمة الله عليه ودفن بالقرافة عند الشيخ أبى العباس البصير .

سنة خمس وثمانين وسبعمائة (١٣٨٣ م) :

فيها قبض السلطان على الخليفة المتوكل على الله محمد وقيده وسجنه فى البرج الذى بالقلعة . وسبب ذلك أنه بلغ السلطان عن الخليفة ما غير خاطره عليه ، فخلعه من الخلافة وسجنه وولى الخلافة عمر أخا زكريا ولقبه بالواثق بالله . وكانت مدة خلافة المتوكل على الله فى هذه المرة نحو اثنتين وعشرين سنة ونصفا . فلما خلعه من الخلافة وسجنه قال شهاب الدين بن العطار :

أبشر أمير المؤمنين ، فما جرى
أقوى دليل أن عزك سرمد

لا تختشى ، فيد العدا مغلولة
ويد الخلافة لا تطاولها يد

وفى هذه السنة توفى الشيخ على الروبى ، وقد تقدم أنه بشر برقوق بالسلطنة قبل أن يليها بمدة طويلة .

سنة ست وثمانين وسبعمائة (١٣٨٤ م) :

فيها حضر المقر السيفى بيدمر الخوارزمى نائب الشام الى الأبواب الشريفة ليزور السلطان ، وأحضر صحبته تقادم عظيمة للسلطان والأمراء فخلع عليه السلطان وأكرمه وجعله فوق الأمير سودون الفخرى نائب السلطنة ، فأقام فى القاهرة مدة ثم رجع الى الشام على عادته .

وفى هذه السنة تغير خاطر السلطان على القاضى تقى الدين ناظر الجيوش المنصورة ، فضربه علقة

فى القصر نحو مائة وخمسين عصا ، فنزل الى بيته وهو محمول على بغل ، فأقام فى بيته يومين ومات ، فكانت وفاته فى يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة . وفيه يقول ابن العطار :

يكفى التقى كرامة أبدت له
نيل الشهادة واغتدى بأمان
بشرى الذى قد عاش طول حياته
عيش الملوك ومات بالسلطان

فكأن لسان حال القاضى تقى الدين مع السلطان برقوق كما قد قيل فى المعنى :

أحمل نفسى كل وقت وساعة
هموما على من لا أفوز بخيره
كما سود القصار فى الشمس وجهه
حريصا على تبييض أثواب غيره

ولما توفى القاضى تقى الدين خلع السلطان على القاضى موفق الدين أبى الفرج ، واستقر به ناظر الجيوش المنصورة عوضا عن القاضى تقى الدين ، وقد راحت القلعة فى كيسه .

وفى هذه السنة كانت وفاة الشيخ الامام العالم العلامة أكمل الدين محمد ، ابن الشيخ شمس الدين محمد ، ابن الشيخ جمال الدين أبى الثناء محمود الرومى البابرتى الحنفى شيخ الخانقاه الشيخونية . وكانت وفاته فى ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان من سنة ست وثمانين وسبعمائة المقدم ذكرها ، ودفن فى يوم الجمعة قبل الصلاة ، وكانت جنازته مشهورة ، وحضر السلطان جنازته ، وأخرجوه من الخانقاه الشيخونية والسلطان ماش قدامه من الخانقاه الى سبيل المؤمنين ، وأراد أن يحمل نعشه فلم يمكنه الأمراء من ذلك ، فصلوا عليه فى سبيل المؤمنين ثم انهم أعادوه الى الخانقاه والسلطان ماش قدامه حتى طلعوا به الى الخانقاه فدفنوه داخل القبة الى جانب قبر الأتابكى شيخو والسلطان حاضر دفنه .

وكان الشيخ أكمل الدين من أكابر علماء الحنفية . وكان بارعا فى العلوم ، وله عدة مصنفات فى أنواع العلوم ، وكان السلطان يسأله أن يتولى قاضى القضاة الحنفية فيأبى من ذلك ، وكان الأتابكى شيخو جعله ناظرا على وقفه ، وكان له فى مصر حرمة وافرة وكلمة نافذة عند الحكام والأمراء ، ومات وله من العمر نحو خمس وسبعين سنة .

وقد رثاه ابن أبى حجلة بقوله :

شيخ الى سبل الرشاد مسلك
وسبيله فى العلم ما لا يجهل
شيخ تبحر فى العلوم فمن رأى
بحرا يسوغ لوارديه المنهل
شيخ عليه من المهابة رونق
كالبدر لكن وجهه متهلل
شيخ تقدم فى العلوم لأنه
ان عد أرباب الفضائل أول
شيخ بحسن بيانه وشروحه
ما بات بالمفتاح باب مقفل
ما قيل هذا كامل فى ذاته
الا وقلت الشيخ عندى أكمل

وفى هذه السنة كانت وفاة القاضى أوحد الدين الحنفى كاتب السر الشريف ، وكان القاضى أوحد الدين سبط قاضى القضاة جمال الدين بن التركمانى الحنفى .

وفيها توفى قاضى القضاة أمين الدين بن الأنفى المالكى نائب الحكم بدمشق .

وفيها توفى الأمير كافور الهندى الشبلى ، وكان من خدام الملك الناصر محمد بن قلاون المتولى

الزمامية فى دولة السلطان حسن ، وكان قد قارب من العمر نحو مائة سنة . وكان فى سعة من المال ، وهو صاحب التربة التى تحت الجبل المقطم ، ولما مات دفن بها . وكانت وفاته فى ثامن ربيع الأول من السنة المذكورة . وكان الأمير كافور هذا حسن المحاضرة حلو الكلام ، وكان ينظم الشعر وله شعر جيد . فمن ذلك ما نظمه وكتبه على رفرف مقعد بيته وهو قوله :

خدمنا بأبواب السلاطين قبلكم
وكانت لنا أهل المماليك تخدم
فما أبطرتنا — يعلم الله — نعمة
ولا نيل منا بالأذية مسلم

وكان الأمير كافور قد اقتنى من الكتب أشياء كثيرة من سائر العلوم ، فلما مات أودعها فى تربته التى تحت الجبل المقطم .

ولما مات كافور خلع السلطان على الأمير صواب السعدى واستقر به فى الزمامية عوضا عن الأمير نصر البالسى .

سنة سبع وثمانين وسبعمائة (١٣٨٥ م) :

فيها خلع السلطان على القاضى جمال الدين بن خير المالكى السكندرى واستقر به قاضى القضاة المالكية بالديار المصرية عوضا عن القاضى ولى الدين بن خلدون المغربى بحكم انفصاله عن القضاء .

وفيها اشترى السلطان مملوكه تمربغا الأفضلى المعروف بمنطاش — وهو أخو الأمير تمرباى الدمرداشى — فأقام مدة ، ثم إن السلطان أعتقه وأخرج له خيلا وقماشا وصار جمدارا .

وفيها أرسل الأمير بهادر المنجكى استادار العالية الى يلبغا الناصرى نائب حلب فقال له : « قم كلم السلطان » . فلما خرج من حلب ووصل الى غزة قبض عليه ، وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية

وكان سبب تغير خاطر السلطان على يلبغا الناصرى أنه بلغه عنه أنه متواطىء مع الأمير سولى ابن ذى الغادر أمير التركمان ، وقد اتفقا على العصيان . فلما تحقق السلطان ذلك أرسل قبض على يلبغا الناصرى وسجنه بثغر الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على الأمير سودون المظفرى واستقر به نائب حلب عوضا عن يلبغا الناصرى . ثم ان السلطان أرسل الأمير جمال الدين محمود شاد الدواوين الى حلب بسبب الحوطة على موجود يلبغا الناصرى ، وتوجه الأمير محمود الى حلب بسبب ذلك .

وفى هذه السنة قبض السلطان على الأمير الطنبغا الجوبانى أمير مجلس . فلما قبض عليه السلطان شفع فيه الأمراء ، فخلع عليه ورسم له بأن يكون نائب الكرك ، فخرج اليها من يومه وتوجه الى هناك .

وفيها خلع السلطان على القاضى محب الدين بن الشحنة الحنفى ، واستقر به قاضى القضاة الحنفية بحلب عوضا عن قاضى القضاة جمال الدين بن العديم بحكم وفاته . وكان ابن العديم هذا من أعيان علماء الحنفية ، وكانت وفاته بحلب ، وعاش من العمر نحو ثمان وسبعين سنة .

وفى هذه السنة — وهى سنة سبع وثمانين وسبعمائة — رسم السلطان الملك الظاهر برقوق بابطال ما كان يعمل فى يوم النوروز ، وهو أول يوم من السنة القبطية . ومما كان يعمل فى ذلك اليوم بالديار المصرية أنه كان يجتمع فى ذلك اليوم السواد الأعظم من الناس الأسافل ، فيقفون على أبواب الأكابر من أعيان الدولة ، فيكتب أمير النوروز وصولات بالجمل الثقال ، وكل من امتنع

من الاعطاء من الأكابر بهدلوه وسبوه سبا قبيحا ، ولا يزالون مترسمين على بابه حتى يأخذوا منه ما يقرون عليه من الدراهم بحسب ما يقرره عليه أمير النوروز ، فيأخذوا ذلك منه غصبا ويمضوا

وكان ذلك السواد الأعظم العياق ، يقفون فى الطرقات ويتراشون بالماء المتنجس ، ويتراجمون بالبيض النى فى وجههم ، ويتصافعون بالأنطاع والأخفاف ، ويقطعون على الناس الطريق ، ويمتنع الناس من الخروج فى ذلك اليوم الى الأسواق ، وتغلق فى ذلك اليوم أسواق القاهرة ودكاكينها ، وكل من ظفروا به فى الطرقات بهدلوه — ولو آنه مير أو من أعيان الناس — فيرشونه بالماء لمتنجس ، ويرجمونه بالبيض النى فى وجهه ، يصفعونه بالأخفاف ، فتتعطل الناس فى ذلك ليوم عن البيع والشراء .

وكان الناس فى ذلك اليوم يتجاهرون بشرب لخمر وكثرة الفسق فى أماكن المتفرجات حتى خرجوا فى ذلك عن الحدود بما كان يقتل منهم جماعة يعربدون على بعضهم ، وكان هذا الأمر ستمرا فى كل سنة على القاعدة القديمه من الدول ماضية ولا ينكر ذلك بين الناس .

وكان يوم النوروز من أجل المواسم بالديار صرية ، وكان يحمل فى ذلك اليوم لأكابر مصر ن القبط والمباشرين من أصناف الفواكه الرمان عراجين الموز ومشنات السفرجل والتفاح الشامى نفف البسر وأقفاص العنب والتمر القوصى لبطيخ الصيفى والرطب والخوخ المشعر وقدور هريسة المعمولة من لحوم الدجاج ومعها بطط جلاب وصحون الحلاوى القاهرية وغير ذلك من نواع اللطيفة .

فلما تسلطن الملك الظاهر برقوق وتم أمره فى السلطنة ، أمر بابطال ما كان يعمل فى يوم النوروز ، وأرسل الحجاب مع جماعة من المماليك السلطانية ووالى الشرطة فطافوا فى أماكن المتفرجات وفى الطرقات ، فمن وجدوه يفعل ذلك يضربونه بالمقارع ، وصاروا يقطعون أيدى جماعة ممن كان يفعل ذلك . وقاموا فى ذلك قياما عظيما حتى بطل ذلك من القاهرة ، وأشهروا النداء بتهديد من يفعل ذلك بالشنق ، فانكف الناس من يومئذ عن ذلك وصاروا يفعلون بعض شىء فى أماكن المتفرجات من الخلجان والبرك ونحو ذلك .. وهذه الواقعة ذكرها المقريزى فى حوادث سنة سبع وثمانين وسبعمائة .

سنة ثمان وثمانين وسبعمائة (١٣٨٦ م) :

فيها تزوج السلطان الملك الظاهر برقوق بنت الأمير منكلى بغا الشمسى ، وهى بنت أخت الملك الأشرف شعبان ، فكان له مهم عظيم بالقلعة ، وحمل بين يديه خمسمائة شمعة .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة قاصد صاحب ماردين ، وأخبر بأن خارجيا من التتار الجغطاوية يقال له تمرلنك قد استولى على البلاد ، وقد وصل جاليش عسكره الى مدينة تبريز وأخربها وقتل من أهلها خلائق كثيرة ، وان القان أحمد بن أويس انتقل الى بغداد وحصنها وأخذ حذره من تمرلنك .

وفيها رسم السلطان بنقل الأمير يلبغا الناصرى من ثغر الاسكندرية الى ثغر دمياط ، فنقله الى ثغر دمياط وكسر قيده .

وفيها ضرب السلطان القاضى موفق الدين أبا الفرج ناظر الجيوش المنصورة ، فضربه مائة وخمسين عصا ، كما ضرب القاضى تقى الدين بن محب الدين التيمى ، ثم فصل موفق الدين من نظارة الجيش وخلع على القاضى كريم الدين بن

مكاس واستقر به فى نظارة الجيوش عوضا عن موفق الدين .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة ابن ملك الكرج ، وأخبر السلطان بأنه قد رأى فى المنام النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : « امض الى مصر ، وأسلم على يد خادم الحرمين » ... فقال له الرجل ابن ملك الكرج : « ومن هو خادم الحرمين ؟ » .. فقال : « برقوق سلطان مصر » ..

فلما سمع السلطان ذلك أكرمه وأحضر القضاة واستسلمه بحضرتهم ، ثم ان السلطان أنزله فى قصر خوند الحجازية بنت الملك محمد بن قلاون — وكان هذا القصر عند حبس الرحبة — ورتب له ما يكفيه الى أن سافر الى بلاده .

وفى هذه السنة كملت عمارة مدرسة السلطان التى بين القصرين ، فلما كملت نزل السلطان اليها وذلك فى يوم الخميس ثانى عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة . فلما نزل السلطان اجتمع بالمدرسة القضاة الأربعة وسائر الأمراء ومقرئى البلد . ثم ان السلطان مد هناك سماطا عظيما ، وملأ الفسقية التى فى صحن المدرسة سكرا وفرقه على الناس بالطاسات . وفى ذلك اليوم خلع السلطان على الشيخ علاء الدين السيرامى واستقر به شيخ المدرسة ، فأضاف اليه تدريس الحنفية . وخلع على الأمير جركس الخليلى أمير أخور كبير ، وكان شاد العمارة . وخلع على معلم المعلمين الشهابى أحمد بن الطولونى قبالخ ، وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش . وخلع على خمسة وعشرين مملوكا من مماليك جركس الخليلى ، وخلع على المهندسين والمرخمين والنجارين والدهانين والبنايين لكل واحد خلعة ، وفرق على الفعلة لكل واحد أشرفيين ... وفى ذلك يقول ابن العطار :

قد أنشأ الظاهر السلطان مدرسة
فاقت على ارم مع سرعة العمل
يكفى الخليلى أن جاءت لدعوته
صم الجبال لها تسعى على عجل

وقوله فيها أيضا :

قل للمليك الظاهر المرتضى
هنيت بالمدرسة الفائقة
تخنقت حسادك قهرا بها
فيالها من مدرسة خانقة

قيل كانوا يقطعون حجارة هذه المدرسة من الجبل ويجعلونها على عجل تسحبها الأبقار من الجبل الى بين القصرين ، وهى التى تسمى الحجارة العجالية .

وفى هذه السنة خلع السلطان على المقر الشهابى أحمد ابن الأتابكى يلبغا العمرى واستقر به أمير مجلس كما كان عوضا عن الطنبغا الجوبانى .

وفيها أفرج السلطان عن الأمير عشقتمر الماردينى ، وهو صاحب الخانقاه التى عند باب القرافة — وكان مقيما فى القدس بطالا — فأرسل اليه خلعة ، ورسم له بأن يكون نائب الشام .

وفيها عزل السلطان الخليفة الواثق بالله عمر ، وخلع على الخليفة زكريا ابراهيم واستقر به خليفة عوضا عن أخيه عمر .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة قاصد القان أحمد بن أويس صاحب بغداد وأخبر بأن الخارجى تمرلنك قد وصل الى مدينة فرباغ ونهبها وسبى أهلها ، فأرسل القان أحمد يعرف السلطان بذلك ليكون على حذر من أمره .

وفيها جاءت الأخبار من مكة أن أمير مكة أحمد بن عجلان قد قتل . وكان سبب ذلك أن المحمل لما دخل الى مكة خرج الأمير أحمد يلاقيه ،

فلما نزل عن فرسه ليقبل رجل جمل المحمل على العادة ضربه فداوى بسكين فى جنبه فمات من يومه ، فاضطربت أحوال مكة ، وكادت العرب تنهب الحجاج ... فلبس أمير الحاج والمماليك الذين معه آلة الحرب ، وأقاموا على ذلك سبعة أيام . ثم ان أمير المحمل خلع على الأمير عنان بن مغامس واستقر به أمير مكة عوضا عن الأمير أحمد ، فسكن الاضطراب قليلا .

وفيها توفى الخليفة المنفصل عن الخلافة الواثق بالله عمر .

وفيها توفى الشيخ محمد بن عثمان القرمى القادرى ، وكان من أكابر الأولياء ، فمات بالقدس فى شهر رجب ودفن هناك ، وقد رثاه ابن العطار فقال :

محمد القرمى قطب الزمان قضى
نحبا وصار لدار الخلد والنعم
والقدس كان حوى نعم الخليل به
ومصر والشام كانا فى حمى القرمى

وفيها توفى الشيخ شمس الدين القونوى الرومى الحنفى ، وكان من أعيان علماء الحنفية وله عدة مصنفات فى أنواع العلوم .

وفيها توفى الشيخ بدر الدين ، وكان من أولاد الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وكان من أعيان علماء الشافعية مفتيا .

وفيها توفى الشيخ برهان الدين القيراطى ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد فى علم البديع .

سنة تسع وثمانين وسبعمائة (١٣٨٧ م) :

فيها فى المحرم جاءت الأخبار من تلمسان ببلاد الغرب بأنه وقع بها فتنة عظيمة ، وقتل فى المعركة مالا يحصى من عساكر الغرب ، وقتل ملكها أبو حمو المعز .

وفى صفر استقر الطنبغا الجوبانى فى نيابة الشام عوضا عن أشقتمر .

وفيه توفى محمد بن عقيل ابن قاضى القضاة بهاء الدين الشافعى .

وفى ربيع الأول جرت واقعة غريبة ، وهى أن السلطان دخل الى القصر الكبير فى غير يوم الموكب ، فلما جلس بالشباك رأى خيمة على بعد مضروبة فى الروضة على شاطىء النيل ، فبعث من كشف عن خبرها ، فلما عاد القاصد أخبر السلطان أن بتلك الخيمة كريم الدين الصاحب بن مكانس ومعه جماعة وهم يشربون الخمر ، فأرسل اليهم جماعة من المماليك فأحضروهم بتمامهم وكملهم بين يدى السلطان ، فأمر بضرب الصاحب كريم الدين بالمقارع وقرر عليه خمسين ألف دينار ، ثم عفا عن الباقين ... وهذه من الغرائب .

وفى ربيع الآخر ابتدأ السلطان بلعب الرمح بعد الظهر ، وأمر المماليك أن ينزلوا من الطباق ويلعبوا الرمح الى العصر . وهو أول من أحدث ذلك من الملوك ، ورسم لهم أن يلعبوا فى الحوش السلطانى من الظهر الى العصر ، واستمر ذلك بعده الى الآن .

وفيه ضرب السلطان فلوسا جددا وجعل لها دائرا وفيها اسمه ، فتقول الناس بأنه تدور عليه الدوائر ويسجن ، وكان الأمر كذلك كما قيل فى ذلك :

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى
ان البلاء موكل بالمنطق

ويقرب من ذلك أن الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق لما تسلطن ضرب دنانير — وهى المناصرة — فجعلوا اسمه فى دائرة ، فلما رآها يوسف ناظر الخاص قال لمعلم دار الضرب : « قد ضيقت على عثمان قوى » ... فكان الأمر كذلك .

ووقع مثل ذلك للملك المؤيد أحمد بن اينال ، لأنه لما تسلطن ضرب دراهم فضة ، فجعلوا اسمه فى دائرة ، فلما عرضوا ذلك عليه تطير منه ورسم لمعلم دار الضرب أن يغير تلك السكة ، ومع ذلك فيدوه ... وهذا مجرب .

وفيه جاءت الأخبار بأن المدينة الشريفة — على صاحبها أفضل الصلاة والسلام — نهبها الشريف على بن عطية أمير المدينة . فلما تحقق السلطان ذلك كتب الى أمير مكة المشرفة بأن يتوجه الى المدينة المشرفة — على صاحبها أفضل الصلاة والسلام — ويحارب على بن عطية .

وفيه توفى الحافظ ناصر الدين بن عشائر الحلبى، وكان فقيها محدثا بارعا فى كل علم .

وفى جمادى الأولى توفى أشقتمر المارديني نائب الشام ، فلما مات أفرج السلطان عن الطنبغا الجوبانى — وكان بالكرك — فأرسل اليه خلعة واستقر نائب الشام عوضا عن أشقتمر المارديني .

وفيه توقف النيل عن الزيادة والوفاء ، ونقص عما زاده ، واضطربت الأحوال وقلق الناس لذلك ، ثم رد النقص وأوفى على العادة . وقد قال بعضهم :

النيل قد أوفى بحمد الهنا
وجرى على العادات بعد توقف
وغدا يقول لأهل مصر وغيرهم :
من ذا يفى فى مصر ان أنا لم أف ؟

وفى جمادى الآخرة ظهر فى السماء كوكب من جهة الشمال الى جهة العرب ، وكان غريب الصفة له ثلاث شعب ، فى احداها ذنب طويل قدر رمح ، وله ضوء زائد كضوء القمر ، فأقام مدة ثم تحول من جهة المغرب الى جهة الجنوب ، فلما تحول سمع له صوت شديد مثل الرعد ، وكان ذلك بعد العشاء .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة الأمير طغاى — وكان قد توجه الى بلاد الشرق لأخبار تمرلنك — فلما حضر أخبر السلطان أن جاليش تمرلنك قد وصل الى الرها وكسر قرا محمد أمير التركمان ، وأن بوادر عساكر تمرلنك قد وصلت الى ملطيه .

فلما تحقق السلطان ذلك أمر بعقد مجلس بالقصر الكبير ، وطلب القضاة الأربعة والخليفة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى وأعيان المشايخ المفتين وحضر سائر الأمراء . فلما تكامل المجلس تكلم السلطان مع الخليفة والقضاة الأربعة فى أمر تمرلنك . ثم ان السلطان تكلم فى أخذ مال الأوقاف من الجوامع والمدارس وغيرها ، فلم يوافق شيخ الاسلام على ذلك ولا القضاة الأربعة ، فشكا لهم السلطان بأن الخزائن خالية من الأموال ، والعدو زاحف على البلاد ، وان لم تخرج العسكر بسرعة والا وصل الى حلب والشام ... والعسكر لاتسافر بلا نفقة . فوقع فى المجلس جدال عظيم ، ودافعوا السلطان وأغلظوا عليه فى القول .

فلما طال الأمر وقع الاتفاق — بحضور الخليفة والقضاة الأربعة — بأن يؤخذ من مال الأوقاف أجرة الأماكن وخراج الأراضى سنة كاملة ، وتبقى الأوقاف على حالها . وانفصل المجلس على ذلك ، ورسم السلطان لمحتسب القاهرة بأن يتولى جبى الأموال من الناس ، فأخذوا فى أسباب ذلك .

ثم ان السلطان عين تجريدة وعين لها جماعة من الأمراء ، وهم : الطنبغا المعلم أمير سلاح ، وقردم الحسنى رأس نوبة أمير كبير ، ويونس النوروزى الدوادار ، وسودون باق أحد المقدمين . وعين من الأمراء والطبلخانات رأس نوبة كبير ثمانية ، ومن الأمراء العشراوات عشرة ، وعين من المماليك السلطانية ثلثمائة مملوك ، وأنفق عليهم وأخذوا فى أسباب السفر والتوجه الى حلب والاقامة بها الى حضور السلطان .

ثم ان السلطان رسم بأخذ زكاة الأموال من التجار ، وندب الى ذلك القاضى الطرابلسى الحنفى.

وفى رجب خرجت التجريدة من القاهرة فى تجمل زائد ، واستمرت الأطلاب تنسحب من باكر النهار الى قريب الظهر ، وكان يوما مشهودا ...

فلما خرجت التجريدة اشتد الأمر على الناس ، وجبيت الأموال منهم غصبا بالعصا ، فجبوا ذلك من الناس فى يوم واحد ، ثم فرج الله عنهم ، وجاءت الأخبار بأن تمرلنك رجع الى بلاده ، وأن ولده قد قتل ... فسكن الاضطراب ، ورسم السلطان باعادة ما أخذوه من الناس ، فتزايدت أدعيتهم له بالنصر ، وقد قيل :

فصبرا : ان عقبى الصبر خير
ولا تجزع لنائبة تنوب
فان اليسر بعد العسر يأتى
وعند الضيق تنكشف الكروب
وقد جزعت نفوس من أمور
أتى من دونها فرج قريب

وفى شعبان انفصل قاضى القضاة الشافعى بدر الدين أبو البقاء السبكى ، وخلع السلطان على الشيخ ناصر الدين محمد بن الميلق ، واستقر قاضى القضاة الشافعية عوضا عن بدر الدين أبى البقاء . وقد امتنع ابن الميلق من لبس الخلعة غاية الامتناع ، فألزمه السلطان بذلك على كره منه .

وفيه توفى الصاحب شمس الدين ابراهيم بن كاتب أرلان القبطى . فلما مات خلع السلطان على علم الدين عبد الوهاب بن القسيس المعروف بابن كاتب سيدى ، وكان مستوفيا فى ديوان المرتجع ، فبقى وزيرا بالديار المصرية .

وفى رمضان فى يوم الأحد ثامنه نزل السلطان الى الاصطبل الذى بباب السلسلة ، وحكم به ، ونادى فى القاهرة : « من كان له ظلامة أو خصومة يحضر بين يدى السلطان فى كل يوم أحد وأربعاء » ... وهذا لم يقع لسلطان قبله ، وهو أول من أحدث ذلك من الملوك . واستمر ذلك بعده الى الآن .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة أمير مكة المشرفة على بن عدنان ، فلما حضر أكرمه السلطان وأنعم عليه وخلع عليه وجعله شريكا لعنان بن مغامس فى امرة مكة المشرفة وأصلح بينهما .

وفيه طلب السلطان يلبغا الناصرى من ثغر دمياط ، فلما حضر أكرمه وخلع عليه واستقر نائب حلب على عادته .

وفى شوال قدم البريد من حلب وأخبر أن منطاش ، مملوك السلطان الذى قد استقر نائب السلطنة ، قد خرج عن الطاعة وخامر .

وفيه حضر رأس بدر بن سلام كبير عربان البحيرة ، وكان قد ظهر منه غاية الفساد .

وفى ذى القعدة قرر أمير حاج بن مغلطاى فى نيابة الاسكندرية عوضا عن يجمان المحمدى .

وفيه جاءت الأخبار بأن الواثق بالله محمد بن أبى الحسن صاحب فاس قد خلع من الملك وأعيد أبو العباس أحمد ، وسجن الواثق بطنجة . وحصل بفاس فتنة عظيمة فى أواخر هذه السنة .

وفى ذى الحجة جاءت الأخبار بموت ملك التكرور موسى ، وكان حسن السيرة عادلا فى الرعية .

وفيه خلع السلطان على الأمير ايدكار العمرى وقرر حاجب الحجاب .

سنة تسعين وسبعمائة (١٣٨٨ م) :

فيها حضر الى الأبواب الشريفة جراى تمر دوادار المقر الشرفى يونس أمير دوادار ، وصحبته قاصد نائب حلب المقر السيفى يلبغا الناصرى ، فأخبر بأن العسكر الذى توجه من القاهرة لما وصل الى

سيواس وقع مع جاليش تمرلنك واقعة قوية ، وقد انكسر عسكر تمرلنك ، وأن الغلاء وقع فى العسكر وعزت سائر البضائع . فلما بلغ السلطان ذلك أرسل للعسكر نفقة ليستعينوا بها على ذلك .

وفيها خلع السلطان على الأمير محمود بن على الظاهرى شاد الدواوين واستقر به استادار العالية عوضا عن الأمير بهادر المنجكى .

وفيها رجع العسكر الذين توجهوا الى حلب وهم فى غاية النصرة على عسكر التتار .

وفيها قبض السلطان على جماعة من الأمراء الذين كانوا فى التجريدة ... وهم : الأمير الطنبغا المعلم أمير سلاح ، والأمير قردم الحسنى رأس نوبة النوب ... وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ، ثم أرسل السلطان بالقبض على الطنبغا الجوبانى نائب الشام وسجنه ، وأرسل خلعة الى الأمير طرنطاى حاجب دمشق بأن يستقر نائب الشام عوضا عن الطنبغا الجوبانى ، وأرسل خلعة الى الأمير استدمر حاجب طرابلس بأن يكون نائب طرابلس ، واستقر بالأمير سودون العثمانى نائب حماة .

وفيها توفى قاضى القضاة الشافعى برهان الدين بن جماعة الحموى الكنانى . وتوفى الشيخ علاء الدين السيرامى الحنفى شيخ المدرسة البرقوقية . وتوفى الصاحب علم الدين بن القسيس المعروف بكاتب سيدى . وتوفى الأمير بهادر المنجكى الذى كان استادارا . وتوفى الشيخ شهاب الدين بن النقيب من أعيان العلماء .

سنة احدى وتسعين وسبعمائة (١٣٨٩ م) :

فيها — فى أوائل صفر — ابتدأ السلطان بشرب القمز ، وهو عبارة عن لبن مصنوع محمض ، وكان الملوك تعودوا ذلك ، فرسم السلطان للأمراء بأن يجتمعوا فى كل يوم أربعاء فى الميدان الذى تحت القلعة ويشربوا القمز ، وكان ذلك من جملة شعائر المملكة ، فتجتمع الأمراء بحضرة السلطان ويجلسون فى مراتبهم ، ويبقى الأوزان عمال ، والأمراء بالشاش والقماش ، والسقاة يسقونهم القمز فى الزبادى الصينى . وكان القمز يسكر مثل الشرس ، ويسمى قراقمز .

وفيها وقع الطاعون بمصر ، ومات من الناس من كبار وصغار ما لا يحصى عددهم ، وأقام مدة ، وكثرت الأمراض حتى بيعت البطيخة الصيفى بأشرفيين ولا توجد ، ولكن بطل ذلك من بعد الملك الظاهر برقوق .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار بأن يلبغا الناصرى نائب حلب خامر وخرج عن الطاعة وقتل الأمير سودون المظفرى الذى كان نائب حلب قبله ، وقتل أربعة أنفس من مماليك سودون ، وأمسك حاجب الحجاب بحلب وجماعة من أمرائها . وسبب ذلك أنه كان قد وقع بينه وبين سودون المظفرى تشاجر ، فأرسل سودون يشتكى من يلبغا الناصرى الى السلطان بما وقع منه فى حقه . فلما بلغ السلطان ذلك أرسل الأمير تلكتمر المحمدى الدوادار الثانى الى حلب ليصلح بين يلبغا الناصرى وبين سودون المظفرى . وقيل ان السلطان أرسل فى الدس مراسيم على يد الأمير تلكتمر الى سودون المظفرى بأن يقبض على يلبغا الناصرى نائب حلب . فلما وصل الامير تلكتمر الى حلب بلغ يلبغا الناصرى أمر المراسيم التى جاء بها الأمير تلكتمر ، فخرج الى تلقيه — وكان بين يلبغا الناصرى وبين الأمير تلكتمر صحبة مؤكدة فما أمكنه أن يخفى منه أمر المراسيم — فلما وقف عليها يلبغا الناصرى أخذها وأخفاها ، ثم توجه الى دار السعادة وطلب قضاة حلب والأميرسودون

المظفرى ليقرأ عليهم المراسيم التى جاءت بالأمر بالصلح بين يلبغا وسودون . فلما أرسل خلف سودون لم يحضر الى دار السعادة ، فأرسل خلفه أربع مرات والقضاة جالسون والأمير تلكتمر ... فما حضر سودون الا بعد جهد كبير ، فطلع سودون وهو لابس زردية من تحت ثيابه . وكان يلبغا الناصرى ركن جماعة من مماليكه فى دار السعادة وهم لابسون آلة الحرب . فلما دخل سودون من باب دار السعادة تقدم اليه مملوك من مماليك يلبغا وجس كتف سودون فرآه لابسها من تحت ثيابه ، فقال له : « يا أمير سودون ... الذى يريد الصلح يدخل الى دار السعادة وهو لابس آلة الحرب ؟ » ... فلكمه سودون ، فصاح على ذلك الكمين فخرجوا الى سودون ، فقتلوه فى دار السعادة ، وقتلوا معه أربعة مماليك من مماليكه .

ثم ان يلبغا الناصرى أظهر العصيان والتف عليه جماعة كثيرة من مماليك الأشرف شعبان . وكان من جملة من التف على يلبغا تمربغا الأفضلى المدعو منطاش مملوك الظاهر برقوق — وكان له مدة وهو منفى فى المدن الشامية — فالتف على يلبغا الناصرى .

ثم ان الأمير تلكتمر ، لما جرى ما جرى بحلب ، رجع وأخبر السلطان بما وقع لسودون المظفرى مع يلبغا . فلما تحقق السلطان عصيان يلبغا الناصرى أرسل خلعة الى الأمير اينال اليوسفى بأن يستقر نائب حلب عوضا عن يلبغا الناصرى ، وكان اينال أتابكى العساكر بدمشق ، وكان يلبغا الناصرى فى نفسه من الملك الظاهر برقوق عداوة قديمة كامنة فى قلبه كما قيل :

الجرح يبرا ولكن كلما نظرت
عين الجريح اليه جدد الوجعا

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشر صفر من السنة المذكورة نزل السلطان الى الميدان الذى تحت القلعة ، ونصب هناك عدة صواوين للأمراء .

ثم انه أرسل خلف الأمراء ، فلما تكاملوا مد لهم سماطا عظيما ، فلما فرغوا من الأكل جلس معهم السلطان ، وذكروا لهم ما وقع من يلبغا الناصرى من أمر عصيانه ، ثم أحضر لهم مصحفا شريفا ، وحلف عليه سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر بأن يكونوا معه كلمة واحدة وعصبة واحدة على يلبغا الناصرى ، فحلفوا على ذلك جميعهم وانفض المجلس على ذلك .

فلما كان يوم الاثنين رابع عشرى صفر عرض السلطان العسكر ، وعين تجريدة الى يلبغا الناصرى ، وعين خمسة أمراء من المقدمين ، وأربعمائة مملوك ، ثم جاءت الأخبار من طرابلس بأن عسكر طرابلس ركبوا على النائب ، وقتلوا من أمراء طرابلس جماعة وهرب النائب الى يلبغا الناصرى .

وجاءت عقب ذلك أخبار من حماه بأن نائبها سودون العثمانى حضر الى دمشق وهو هارب ، وسبب ذلك أن مماليكه ركبوا عليه مع عسكر حماه وأرادوا قتله ، فهرب منهم الى دمشق ؛ وقد وقعت الفتن فى سائر البلاد الشامية . فلما تحقق برقوق أن البلاد قد افتتنت خاف على نفسه ، وأمر نائب القلعة بأن يضيق على الخليفة المتوكل ويمنعه من الاجتماع بالناس ، فانه كان مسجونا فى البرج الذى بالقلعة وهو مقيد . ورسم السلطان للأمير مقبل الزمام بأن يضيق على الأسياد أولاد السلاطين الذين فى دور الحرم ، ويمنع من كان يدخل لهم . ثم ان السلطان أرسل خلعة الى الأمير طغيتمر القيلاوى بأن يستقر فى نيابة طرابلس عوضا عن النائب الذى كان بها .

ثم حضر قاصد من عند الأمير خليل بن قراجاين

ذو الغادر ، فأخبر أن الأمير سنقر نائب سيس قد خامر وخرج عن الطاعة ، ووافق يلبغا الناصرى على العصيان ، ورحل من سيس وأتى الى حلب . فلما تحقق السلطان أن النواب قد خامروا عليه أنفق على العسكر وأخرج التجريدة التى كان عينها الى حلب ، وكان بهـا من الأمراء الأتابكى أيتمش البجاشى ، والأمير أحمـد بن يلبغا الناصرى أمير مجلس ، والأمير جركس الخليلى أمير أخور كبير ، والأمير يونس النوروزى الدوادار الكبير ، والأمير ايدكار العمرى حاجب الحجاب ؛ وجمـاعة من الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات وأربعمائة مملوك ، فخرجوا من القاهرة فى عظمة زائدة .

فلما خرجوا من القـاهرة ووصلوا الى دمشق جاءت الأخبار من هناك مع السعاة بأن العساكر لما وصلت الى دمشق وجدوا يلبغا الناصرى قد ملك الشام حتى قلعتها ، فلما وصل العسكر اليه أوقعوا معه بظاهر دمشق واقعـة عظيمة حتى جرى الدم بينهم ، وقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، وآخر الأمر انكسر عسكر السلطان الذى أرسله ، وانتصر عليهم يلبغا الناصرى ، وقتل الأمير جركس الخليلى أمير أخور كبير ، وهرب الأمير أحمد بن يلبغـا العمرى أمير مجلس والأمير ايدكار العمرى حاجب الحجـاب والأمير يونس الدوادار . وأما الأتابكى أيتمش فانه أسر وسجن بقلعة دمشق ، وأما بقيـة الأمراء والمماليك السلطانيه فشىء أسر وشىء هرب وشىء قتل ... وكانت هـذه الواقعة بدمشق فى يوم الاثنين حادى عشرى ربيع الآخر من السنة المذكورة .

فلما أن جاءت هذه الأخبار الى القاهرة اضطربت الناس من هـذه الأخبار ، وماجت على بعضها ، وكثر القيل والقال بين الناس بسبب ذلك ، وارتج الأمر على السلطان ... فعمـل الموكب بالقصر ، وفرق أمريات من قتل من الأمراء فى هذه المعركة ، فأنعم على الأمير قرابغا الأبو بكرى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير بجاس النوروزى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير شيخ الصفوى بتقـدمة ألف ، وأنعم على الأمير قرقماس الطشتمرى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير أقبغا الماردينى بتقدمة ألف ، وأنعم على جماعة كثيرة من الخاصكية بأمريات أربعين ، وعلى جماعة بأمريات عشرة ، ثم انه رسم بالافراج عن جماعة من المماليك الأشرفية ومماليك الأسياد — وكانوا فى السـجن بخزانة شمايل — وصار يرضى خاطر العسـكر بكل ما يمكن حتى يمحو ما وقع منه فى حق العسكر .

ولما كان يوم الأربعـاء مستهل جمادى الأولى حضر تمربغا الفخارى السواق ، وكان قد توجه الى نحو الشام بسبب كشف أخبار يلبغـا الناصرى . فلمـا وصل الى غزة رأى طوالع جاليش يلبغـا الناصرى قد وصـل غزة ، فلما دخلوا مدينة غزة أنزلهم الامير حسام الدين بن باكيش نائب غزة فى الميدان الكبير . فلما باتوا تلك الليلة كبس عليهم وأمسـكهم عن آخرهم وقيـدهم وسجنهم فى دار السعادة ، وكانوا نحو مائة انسان وفيهم ثلاثة أمراء من حلب . فلما سمع السلطان هذا الخبر فرح وخلع على ذلك السواق كاملية بسمور .

ثم فى يوم الأحد خامس جمادى الأولى قعـد السلطان فى مقام سيدى محمـد الرديبى الذى هو داخل الحرم ، وطلب الخليفة المتوكل من البرج ، فخرج وحضر وهو مقيد ، وكان له نحو ست سنين فى البرج بالقلعة وهو مقيد ، وقد أفحش فى حقه الملك الظاهر برقوق ، وتمادى على طغيانه فى حق المتوكل وهو فى القيد هذه المدة الطويلة .

فلما حضر بين يدى السلطان قام اليه وأمر بنزع قيده ، وصار يعتذر اليه مما وقع منه فى حقه .

ثم طلب القضاة الأربعة ، وأعاد المتوكل الى الخلافة كما كان ، وخلع عليه وأركبه فرسا وسرج ذهب وكنبوش ، ونزل من القلعة فى موكب عظيم والقضاة قدامه ، وزينت له الصليبة وجامع ابن طولون ، وكان يوما مشهودا .

فلما نزل الى بيته أرسل اليه السلطان قماشا بنحو ألف دينار ما بين صوف وسمور ووشق وسنجاب وبعلبكى وغير ذلك ، وأرسل اليه ألف دينار ذهب عين . ثم أن السلطان نزل الى الميدان الذى تحت القلعة وعرض هناك العسكر وهم لابسون آلة الحرب راكبون على خيولهم ، وصار يسأل من كل واحد منهم ما هو عاوز من آلة الحرب فيعطيه الذى يعوزه من خيل وسلاح وغير ذلك .

ثم ان السلطان عمل الموكب فى القصر ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمير سودون الصيفى تمرباى باق واستقر أمير سلاح ، وخلع على الأمير قرابغا الأبوبكرى واستقر أمير مجلس عوضا عن الأمير أحمد بن يلبغا العمرى ، وخلع على الأمير قرا دمرداش الأحمدى واستقر رأس نوبة النوب ، وخلع على الأمير قرقماس الطشتمرى واستقر دوادارا كبيرا عوضا عن الشرفى يونس ، وخلع على الأمير اقبغا الماردينى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن الأمير ايدكار العمرى .

ثم فى يوم الاثنين حضر الى الأبواب الشريفة العلائى على بن الطشلاقى والى قطيا وأخبر السلطان بأن جاليش يلبغا الناصرى قد وصل الى قطيا ، ثم بعد ذلك جاءت الأخبار بأن يلبغا الناصرى قد وصل الى الصالحية . فلما تحقق السلطان ذلك نزل الى باب السلسلة ، وجلس فى الحراقة ، وأمر بشد الخيول ، وعلق الصنجق السلطانى ، ونادى العسكر بأن يطلعوا الى الرميلة وعليهم آلة الحرب ، فطلع اليه من الأمراء الأمير سودون الفخرى نائب السلطنة ، والأمير تمربغا المنجكى ، والأمير أبو بكر بن سنقر الجمالى ، والأمير بيبرس التمان تمرى ، والأمير سودون الطرنطاوى ، والأمير قجماس ابن عم السلطان . فلما تكامل العسكر ركب السلطان وخرج من باب السلسلة وعلى رأسه الصنجق السلطانى ، فتوجه هو والعسكر الى نحو المطرية ، فأقام السلطان هناك يوم الأربعاء ويوم الخميس ، فصار جماعة من المماليك السلطانية يتسحبون من عند السلطان ويتوجهون الى يلبغا الناصرى ، فتوجه اليه جماعة كثيرة من المماليك السلطانية ومن المماليك السيفية . فلما رأى السلطان ذلك رجع من هناك وطلع الى القلعة .

فلما كان يوم السبت خامس عشر جمادى الأولى جاءت الأخبار بأن أوائل عسكر يلبغا الناصرى قد وصل الى أوائل الترب . فلما تحقق السلطان ذلك نزل من القلعة ، ودقت الكئوسات حربى ، وجمع العسكر وتوجه الى نحو قبة النصر ، فوقف هناك على كوم عال فوقع بين الفريقين بعض قتال هين ، فأقام السلطان هناك الى آخر النهار ثم رجع الى القلعة وقعد فى باب السلسلة وبات به .

فلما كانت تلك الليلة توجه أكثر الأمراء الى يلبغا الناصرى ، فلم يبق مع السلطان الا بعض جماعة من الأمراء ، منهم الأمير قجماس ابن عم السلطان ، وسيدى أبو بكر الجمالى سنقر ، والأمير تمربغا المنجكى ، والأمير سودون الطرنطاوى ، وبعض مماليك من الجمدارية . فلما رأى السلطان عين الغلب أراد أن يسلم نفسه ويختفى فى البحرة ، فمنعه الأمراء من ذلك . فأقام الى العصر فى باب السلسلة ، فبلغه أن الأمير نزلار العمرى ، والأمير الطنبغا الأشرفى والأمير طقطاى الطشتمرى — ومعهم جماعة من المماليك نحو خمسمائة مملوك —

قد وصلوا الى القلعة ، فعين لهم السلطان بطا الخاصكى ، وسكرباى الخاصكى ، ومعهما نحو عشرين مملوكا ، فنزلوا اليهم وأوقعوا معهم فى الرميلة واقعة قوية ، فكسر عسكر يلبغا الناصرى وطردوهم الى تحت المنجكية . فلما بلغ يلبغا الناصرى أن جاليشه قد انكسر هم بالهروب من هناك ، وأرسل بركه وقماشه الى القنطرة التى عند المرج والزيات خوفا من النهب .

فلما كانت ليلة الاثنين سابع عشرى جمادى الأولى تسحب من كان بقى عند السلطان من الأمراء والمماليك ولم يبق عنده سوى سيدى أبى بكر بن سنقر الجمالى ، وبيدمر المجدى شاد القصر ، فقال السلطان لسيدى أبى بكر : « خذ الترس والنمشاه وامض الى يلبغا الناصرى ، وقل له السلطان يسلم عليك ، ويقول لك بأنك تؤمنه على نفسه من القتل » ... فمضى سيدى أبو بكر وبيدمر المجدى الى الأمير يلبغا ، وذكرا له ما قاله السلطان ، فقال الأمير يلبغا : « هو آمن على نفسه من القتل ، ولكن قولا له يختفى من القلعة حتى تنكسر حدة العسكر الذى حضر من الشام عنه ، وبعد ذلك يفعل الله ما يشاء ، وما يكون الا خير » .

فلما رجع سيدى أبو بكر بن سنقر وبيدمر من عند الأمير يلبغا الناصرى بهذه الرسالة ، وأخبراه بما قاله الأمير يلبغا ، أقام فى باب السلسلة والخليفة المتوكل عنده الى أن صلى العشاء ، وقام الخليفة من عنده فبقى هو وخمسة من المماليك الجمدارية فأمرهم بالانصراف . فلما انصرفوا قام السلطان ودخل المبيت ، وقلع تخفيفته ولبس له عمامة وجوخة من فوق ثيابه ، وأخذ فى يده عصاه ونزل من باب السلسلة بعد العشاء واختفى .

فلما نزل السلطان من باب السلسلة وقع النهب فى الحواصل السلطانية ، وذلك فى ليلة الاثنين خامس جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

فلما أصبح يوم الاثنين وصل الأمير يلبغا الناصرى ، وصحبته الأمير تمربغا الأفضلى المعروف بمنطاش مملوك الملك الظاهر برقوق . فلما وصلوا الى الرميلة وقفوا بسوق الخيل هم والعسكر الذى حضر معهم من البلاد الشامية فوقفوا ساعة . ثم ان الخليفة المتوكل أتى الى الأمير يلبغا وسلم عليه ، ثم طلع الأمراء والخليفة الى باب السلسلة واشتوروا فى ذلك اليوم فيمن يولونه سلطانا ، وبات فى تلك الليلة العسكر بغير سلطان .

فلما أصبحوا يوم الثلاثاء وقع الاتفاق بين الأمراء على عود الملك الصالح أمير حاج ، ابن الأشرف شعبان الذى خلعه برقوق من السلطنة ، وكان مقيما بدور الحرم فطلبوه ، فخرج اليهم ، فاجتمعوا بالحوش السلطانى ، فلما رأوا الملك الصالح قد حضر ، باس له الأرض سائر الأمراء ، ثم طلبوا القضاة الأربعة ، وبايعه الخليفة بالسلطنة ثانيا ، وكان عوده الى الملك على غير القياس ، فكان كما قيل فى المعنى :

أيها الانسان صبرا
ان بعد العسر يسرا
كم لزمنا الصبر حتى
عاد ليل الهم فجرا

فكانت مدة سلطنة الملك الظاهر برقوق فى هذه المرة ست سنين وثمانية أشهر وسبعة عشرين يوما ، وكانت مدة اقامته فى الأتابكية خمس سنين الا أشهرا ، فحكم بالديار المصرية أتابكا وسلطانا احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة عشر يوما . فهذه كانت مدة سلطنة برقوق الأولى ، وسيعود الى السلطنة ثانى مرة كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

عَوْدُ الملك الصّالح أمير حاج

حين عاد الملك الصـالح أمير حاج ، ابن الملك الأشرف شـعبان بن حسين الى السلطنة ــ وهى السلطنة الثانية ــ جلس على سرير الملك بعد أن بايعه الخليفة بحضرة القضاة الأربعة ، وباس لـه الأمراء الأرض ، وركب بشعار الملك من الحوش السلطانى الى القصر الكبير ، فمد هناك السماط وجلس عليه وهو بشعار الملك .

ثم ان الأمير يلبغا الناصرى لما تولى الملك الصالح هذه المرة غير لقبه ولقبه بالملك المنصور ، وهذا لم يتفق قط ــ فان الملك الناصر محمد بن قلاون لما خلع من الملك وعاد اليه ثلاث مرات لم يتغير لقبه ــ ثم نادوا باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء.

فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب وطلع اليه سائر الأمراء . فلما تكامل الأمراء فى الموكب تقدم الأمير يلبغا الناصرى وقبض على المقر السـيفى سودون الفخرى الشـيخونى نائب السـلطنة ، وقبض على الأمير سـودون باق ، وقبض عـلى الأمير سودون الطرنطاى ، وقبض على سـيدى أبى بكر بن سـنقر الجمالى ــ وكان سـيدى أبو بكر هـذا حاجب الحجـاب فى دولة الملك الظـاهر برقوق ــ وقبض على الأمير بجـاس النوروزى ، وقبض على الأمير أقبغا الماردينى ، والأمير شيخ الصفوى والأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر برقوق ، وقبض على الأمير محمود بن على الظاهرى استادار العالية ، فكان عدة من أمسك فى ذلك اليوم من الأمراء المقدمين تسعة .

وقبضوا فى ذلك اليوم على ثمانية وستين أميرا ما بين أمراء طبلخانات وأمراء عشراوات ، حتى ارتجت فى ذلك اليوم القاهرة وكادت أن تخرب عن آخرها .

وكان الأمير يلبغا ومنطاش لما أتوا الى القاهرة دخلوا ومعهم السواد الأعظم من التراكمـة ومن العربان وغير ذلك من عساكر البلاد الشـامية والبـلاد الحلبية . فلمـا أرادوا أن يدخلوا الى المدينة وجدوا أبواب القاهرة مقفلة ، فجاء الأمير ناصر الدين اسـتادار الأمير ارغون اشـكى ــ وكان قد حضر من الشـام صحبة العسكر ــ فأتى الى باب النصر فوجده مقفلا ، فدق البـاب فلم يفتحوا له ، فدخل من باب سر جامع الحاكم وهو راكب على فرسه وفتح باب النصر وباب الفتوح ، فدخل السواد الأعظم الى القاهرة ، فنهبوا عدة دكاكين من سوق باب النصر من البضائع والمآكل وغير ذلك ، واستمر النهب عمالا من باب النصر الى الـركن المخـلق ، وقد تدرجـوا الى نهب البيوت ، واضطربت القاهرة وماجت بأهلها .

فلمابلغ الأمير يلبغا ومنطاش ذلك أرسلوا جماعة من رءوس النوب ومن الحجاب وطردوا من يفعل ذلك ، ونادوا فى القـاهرة بالأمان والاطمئنان ، وأن من نهب شيئا يرده والا يشـنق ، فانكف الناس عن النهب ، وتركوا جماعة من الحجاب فى أماكن من القاهرة ، فسكن الأمر قليلا وخمدت الفتنة .

ثم ان الأمراء تكلموا مع الأمير يلبغا الناصرى ومنطاش فى أمر هؤلاء الأمراء الذين أمسكوا ، فأفـرج الأمير يلبغـا عن جمـاعة من الأمـراء الطبلخانات والأمراء العشراوات أحـدا وعشرين أميرا ، وأفرج عن الأمير شيخ الصفوى ورسم له بأن يتوجه الى القدس بطالا ، ورتب له ما يكفيه . ثم ان الأمير يلبغا قيد بقية الأمراء وأرسلهم الى السجن بثغـر الاسكندرية . وقـد تقدم ذكـر أسمائهم .

ثم ان الأمير يلبغا رسم بأن يفرج عن جماعة من

الأمراء ، ممن كان مسجونا بثغر الاسكندرية ، فحضروا الى القاهرة ، وهم : الأمير الطنبغا الجوبانى ، والأمير الطنبغا المعلم ، والأمير قردم الحسنى ، وغير ذلك من الأمراء الذين كانوا فى السجن بثغر الاسكندرية .

فلما تم الأمر للملك المنصور أمير حاج فى السلطنة ، عمل الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى يلبغا الناصرى واستقر أتابكى العساكر بالديار المصرية عوضا عن الأتابكى أيتمش البجاشى ، وخلع على المقر السيفى قرا دمرداش الأحمدى واستقر أمير سلاح عوضا عن سودون السيفى تمر باى باق ، وخلع على المقر الشهابى أحمد ابن الأتابكى يلبغا العمرى واستقر أمير مجلس على عادته ، وخلع على المقر السيفى الطنبغا الجوبانى واستقر رأس نوبة النوب عوضا عن قرا دمرداش الأحمدى ، وخلع على المقر السيفى تمر باى الحسنى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن سيدى أبى بكر بن سنقر الجمالى ، وخلع على المقر السيفى الأبغا العثمانى واستقر دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير يونس النوروزى ، وخلع على الأمير أقبغا الجوهرى واستقر به استادار العالية عوضا عن الأمير محمود بن على الظاهرى ، وخلع على الأمير الطنبغا الأشرفى واستقر به رأس نوبة ثانى ، وخلع على الأمير قطلو بك السيفى يلبغا واستقر به أمير جاندار وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف ، وعلى جماعة بامريات أربعين ، وعلى جماعة بامريات عشرة . ثم عمل الموكب الثانى وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى نزلار العمرى واستقر به نائب الشام ، وخلع على المقر السيفى كمشبغا الحموى واستقر به نائب حلب ، وخلع على المقر السيفى قطلوبغا الصفوى واستقر به نائب صفد ، وخلع على المقر السيفى سنجق الحسنى واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على المقر الشهابى أحمد ابن المهمندار واستقر به نائب حماه ، وخلع على الأمير بغاجق السيفى صرغتمش واستقر به نائب ملطية ... ثم رسم للنواب الذين استقروا بأن يتوجهوا الى البلاد الشامية ، ويستقر كل واحد فى نيابته ، ويعمر ما فسد من أحوال البلاد الشامية ، فخرجوا من القاهرة على حمية ، جميعهم بالسوية .

ثم ان الأتابكى يلبغا الناصرى نادى فى القاهرة بأن مماليك الظاهر برقوق لا يقيم منهم أحد فى القاهرة ، وأن يخدموا عند النواب ويخرجوا معهم ، وكل من وجد منهم من بعد ذلك شنق من غير معاودة ثانية . وصاروا يكررون المناداة بذلك ثلاثة أيام متوالية .

هذا ما كان من أمر الملك المنصور أمير حاج بعد عوده الى الملك .

وأما ما كان من أمر الملك الظاهر برقوق بعد اختفائه ، فان الأمير يلبغا الناصرى صار ينادى فى القاهرة : « كل من كان الملك الظاهر برقوق عنده ولا يقر عليه يشنق عى باب داره من غير معاودة » ...

فبينما الأتابكى يلبغا الناصرى جالس فى باب السلسلة وقت الظهر ، اذ دخل عليه مملوك من مماليك أبى يزيد الخازن يقال له سنقر الرومى ، فقال للأتابكى يلبغا الناصر : « ان السلطان برقوق مختف عند أستاذى فى بيت شخص خياط » ... فلما سمع الأتابكى يلبغا بذلك طلب أبا يزيد الخازن وقال له : « انزل أحضر الملك الظاهر برقوق من عندك والا شنقتك على باب بيتك » ... فلما سمع أبو يزيد بذلك أنكر ، فأمر الأتابكى يلبغا

بتوسيطه ، فلما تحقق ذلك أقر بأنه عنده ، فقال له يلبغا : « أنت ما سمعت المناداة بأن من خبى السلطان برقوق عنده ولا يقر به شنق على باب داره ؟ » ... فقال أبو يزيد : « ياخوند ، ان الملك برقوق كان له علىّ احسان عظيم ، وجاء الىّ تحت الليل فما أمكننى رده » ... فقال له يلبغا : « انزل اليه وأحضره » . ثم أرسل معه الأمير الطنبغا الجوبانى رأس نوبة النوب ومعه عشرون مملوكا ، فلما وصلوا البيت الذى فيه السلطان برقوق طلع اليه الأمير الطنبغا الجوبانى بمفرده ، فلما وقعت عينه على الملك الظاهر برقوق جرى الطنبغا وقبل يد الملك الظاهر برقوق وقال له : « أنت أستاذنا كلنا ونحن مماليكك » ... ثم ان برقوق قام معه ، ولبس له عمامة على رأسه ، وعمل فوقها طيلسانا ، وركب فرسا وركب الطنبغا الجوبانى الى جانبه ومعهما أبو يزيد فى الترسيم ، فطلعوا الى باب السلسلة ، فنزل السلطان برقوق من على الفرس ، فطلعوا به من باب سر القصر الكبير الذى من الاسطبل ، فأدخلوه الى قاعة النحاس التى لها شبابيك مطلة على الايوان .

ثم ان الأتابكى يلبغا قال لأبى يزيد : « احضر لنا ما كان مع السلطان من المال لما دخل عندك » ... فأخرج لهم كيسا فيه ألف دينار وقال : « والله ما أودع عندى غير هذا الكيس ، وما أعلم مافيه » ... فقال له الأتابكى يلبغا : « لقد خاطرت بنفسك ، ولولا خاطر الملك الظاهر برقوق كنت شنقتك » ... فقال أبو يزيد : « يا خوند ، أنا ما فعلت ذلك الا وقد فرغت عن نفسى وحسبت حساب التلف » .

وقد قيل فى المعنى :

اذا اعتذر الجانى محا العذر ذنبه
وكل امرىء لايقبل العذر مذنب

فقال له يلبغا :

« خذ لك الكيس بما فيه ، ومثلك من يخدم الملوك » ... ثم خرج عنه ونزل الى بيته .

ثم ان الأتابكى يلبغا الناصرى رتب للملك الظاهر برقوق سماطا فى كل يوم بكرة وعشية ، وجعل عنده ثلاثة مماليك صغارا يخدمونه ، وأقام فى قاعة النحاس الى الخميس ثانى عشرى جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، فطلع اليه الأمير الطنبغا الجوبانى رأس نوبة النوب فقيده ونزل به من القلعة فى نصف الليل من باب الدرفيل ، فأركبه على هجين وركب معه الأمير الطنبغا الجوبانى وبعض سماليك ، وتوجهوا به على قبة النصر وقصدوا به نحو عجرود . وقد زالت دولة الظاهر برقوق كأنها لم تكن ، وقد قاسى مشقة ورعبا فى مدة اختفائه ، وقد قيل فى المعنى :

انى تأملت للعليا فلم أرها
تنال الا على كد من التعب

ثم ان الأمير عيسى بن مهنا ، شيخ العرب ، تسلم السلطان برقوق وتوجه به الى نحو الكرك ، ورجع الأمير الطنبغا الجوبانى الى القاهرة . فلما وصل السلطان برقوق الكرك سجن بالقلعة التى به وهو فى القيد . وكان نائب الكرك يومئذ الأمير حسام الدين الكجكنى ، فأكرم الملك الظاهر غاية الاكرام ، وأنزله فى مكان عند الطارمة .

وكان سبب هذه العداوة التى وقعت بين يلبغا الناصرى وبين السلطان برقوق أن برقوق قبض على يلبغا الناصرى وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية مرتين : مرة فى دولة الملك المنصور على بن الأشرف شعبان ، والمرة الثانية فى دولة الظاهر برقوق لما كان يلبغا نائب حلب . ثم ان برقوق أرسل مراسيم على يد الأمير تلكتمر الى الأمير سودون المظفرى بقتل يلبغا الناصرى ،

فاطلع عليها يلبغا الناصرى وجرى ما تقدم ذكره ... فهذا كان سبب العداوة بين يلبغا الناصرى وبين برقوق . واستمرت العداوة بينهما حتى بلغ يلبغا من برقوق مناه ، وقيده ونفاه ، كما تقدم .

توقع كيد من خاصمت يوما
ولا تركن الى ود الأعادى
فان الجرح ينكث بعد حين
اذا كان البناء على فساد

وكان توجه السلطان برقوق الى الكرك فى ليلة الخميس ثانى عشرى جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين وسبعمائة . فلما مضى أمر الظاهر برقوق واستقر بالكرك وقع الخلف بين الأمير تمر بغا منطاش وبين الأتابكى يلبغا الناصرى ، ودبت بينهما عقارب الفتن ، فأظهر الأمير منطاش أنه ضعيف وانقطع فى بيته أياما . فلما بلغ الأمراء ذلك توجه الأمير الطنبغا الجوبانى رأس نوبة النوب ليسلم عليه ، فلما دخل الى بيته قبض عليه ، وكان ذلك فى يوم الاثنين سادس عشر شعبان من سنة احدى وتسعين وسبعمائة .

فلما كان وقت الظهر ، والناس مقيلة فى بيوتهم ، ركب الأمير منطاش هو ومماليكه وهم لابسون آلة الحرب — وكانوا نحوا من أربعين مملوكا — فهجموا على باب السلسلة ، وأخذوا الذى بالاسطبل السلطانى ، ثم توجهوا الى بيت أقبغا الجوهرى استادار العالية فنهبوا كل ما فيه ، والتف على منطاش السواد الأعظم من الزعر والغلمان والعبيد ، فهرب أقبغا الجوهرى من بيته الذى على بركة الفيل .

ثم ان منطاش أرسل الأمير تنكز بغا اليلبغاوى ، ومعه جماعة من المماليك ، فطلعوا الى سطح مدرسة السلطان حسن وصاروا يرمون على كل من يمشى فى الرميلة أو سوق الخيل ، فتسامعت به مماليك الظاهر برقوق الذين كانوا قد اختفوا ، فظهروا وجاءوا الى منطاش ، وكذلك مماليك الأشرف شعبان ومماليك الأسياد . فاجتمع عند منطاش فى أواخر النهار نحو خمسمائة مملوك ، وكان معه أول ماركب دون الأربعين مملوكا . فلما تسامع الأمراء والعسكر بذلك طلعوا الى الرميلة وهم لابسون آلة الحرب ، فنزل اليهم الأتابكى يلبغا الناصرى ومن كان من عصبته من الأمراء والمماليك ، فأوقعوا معهم واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، وذلك فى يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان .

وصار العوام والزعر يساعدون منطاش بالحجارة والمقاليع ، ثم يلتقطون النشاب الذى يرمونه جماعة يلبغا الناصرى ويحضرونه الى منطاش . ثم تكامل عند منطاش نحو ألفى مملوك ، وحضر عنده من الأمراء المقدمين أربعة ، وهم : المقر الشهابى أحمد بن يلبغا العمرى أمير مجلس ، والأمير قرا دمرداش الأحمدى أمير سلاح ، والأمير الطنبغا المعلم ، والأمير عبد الرحيم ابن منكلى بغا الشمسى ، وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشراوات .

ثم ان الأمير منطاش قال للأمير ناصر الدين ابن الطرابلسى الزردكاشى : « انصب على مدرسة السلطان حسن مكحلة » ... فامتنع ناصر الدين ابن الطرابلسى من ذلك ، فعراه وقصد توسيطه .

ثم انه نصب مكحله على المدرسة ، ورمى بها على باب السلسلة ، فهرب المماليك الذين كانوا فى الاسطبل .

ثم ان الأتابكى يلبغا نصب مكحلة على المدرسة الأشرفية التى كانت فى رأس الصوة ورمى بها على سوق الخيل فلم يفد من ذلك شىء .

ثم ان جماعة من المماليك السلطانية ، لما رأوا أن الأمير منطاش منتصف على الأتابكى يلبغا ، صاروا

يتسحبون من عند يلبغا وينزلون عند منطاش ، واستمر الحرب سائرا بينهما يومين . فلما رأى الأتابكى يلبغا عين الغلب هرب تحت الليل هو وجماعة من الأمراء ، وهم . الأمير مأمور القلمطاوى أحد المقدمين ، والأمير الأبغا العثمانى الدوادار ، والأمير أقبغا الجوهرى استادار العالية ، والأمير كشكلى أحد المقدمين ، وبعض مماليك نحو مائتى مملوك ... فحرجوا من باب القرافة ، وتوجهوا الى الجبل المقطم ، وخرجوا من عند وادى السدرة وقصدوا نحو البلاد الشامية .

وكان الأتابكى يلبغا يظن أنه ينتصف على منطاش ، كما أنه قد انتصف على الملك الظاهر برقوق ... وما كل مرة تسلم الجرة . فكان كما قيل فى المعنى :

وانى رأيت المرء يشقى لعكسه
كما كان قبل اليوم يسعد بالسعد

هذا ما كان من أمر الأتابكى يلبغا الناصرى .

وأما ما كان من أمر الأمير تمربغا الأفضلى منطاش فانه لما هرب الأتابكى يلبغا ، ركب وطلع الى باب السلسلة واستولى على حواصل يلبغا .

فلما كان فى يوم الخميس تاسع عشر شعبان جاءت الأخبار بأن يلبغا الناصرى قد مسك هو والأمراء الذين كانوا صحبته من بلبيس فلما حضر يلبغا حبسه منطاش فى المكان الذى حبس فيه الظاهر برقوق — والمجازاة من جنس العمل — فأقام أياما ، ثم قيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ، وأرسل معه الأمراء المقدم ذكرهم ، فنفى فى هذه الحركة تسعة أمراء وغير ذلك من الأمراء العشراوات ممن كان فى عصبة يلبغا .

ثم ان الأمير منطاش رسم بالافراج عن جماعة من الأمراء الذين كان قد سجنهم يلبغا الناصرى ، فحضر من ثغر دمياط المقر السيفى سودون الفخرى نائب السلطنة ، ثم أرسل باحضار الأمير شيخ الصفوى من المقدس ، وأفرج عن الأمير الطنبغا العثمانى ، والأمير بطا الطولوتمرى ، والأمير الطنبغا شادى .

ثم ان الأمير منطاش عرض مماليك الظاهر برقوق فى باب السلسلة ، ومسك منهم نحو مائتى مملوك وحبسهم فى أبراج القلعة .

ثم ان السلطان الملك المنصور أمير حاج عمل الموكب فى القصر ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى تمربغا الأفضلى منطاش واستقر به أتابك العساكر عوضا عن يلبغا الناصرى ، وخلع على الأمير استدمر الشرفى واستقر به أمير مجلس ، وخلع على الأمير تمان تمر الأشرفى واستقر به رأس نوبة النوب ، وخلع على الأمير الطنبغا الحلبى واستقر به دوادارا كبيرا ، وخلع على الأمير اياس الأشرفى واستقر به أمير اخور كبير . وأنعم على جماعة من الأمراء ممن كان من عصبته بتقادم ألوف ، وبامريات أربعين ، وبامريات عشرة . وفرق الاقطاعات على المماليك ، وأقام له عصبة قوية ، وظن أن الوقت قد صفا له .

ثم فى العشر الأخير من شهر رمضان جاء الخبر من الكرك بأن الملك الظاهر برقوق قد ملك قلعة الكرك وعصى بها . وكان سبب ذلك أن الأتابكى منطاش أرسل شخصا من البريد يقال له الشهاب ، وأرسل على يده مرسوما شريفا الى نائب الكرك بقتل الملك الظاهر برقوق .

ومن العجائب أن منطاش مملوك الملك الظاهر برقوق ، اشتراه فى سنة سبع وثمانين وسبعمائة ، ورباه صغيرا ثم أعتقه ، وأخرج له خيلا وقماشا - وكان منطاش شجاعا بطلا ، فظهر منه بعض افساد

فى القاهرة ، فضربه السلطان برقوق علقة قوية ونفاه الى البلاد الشامية . فلما عصى يلبغا الناصرى التف عليه منطاش ، وحضر معه الى القاهرة ، وحارب أستاذه برقوق أشـد المحاربة ، وقيده ونفاه الى الكرك ... وما كفاه ذلك حتى أرسـل مراسـيم بقتـله ، فكان حال السلطان برقوق مع مملوكه منطاش كما قيل فى المعنى :

كنت من كربتى أفـر اليهـم
فهمـو كربتى فأين المفـر ؟

فلما دخل الشهاب البريدى الى الكرك بلغ ذلك الملك برقوق . وكان للملك الظاهر فى المكان الذى حبس فيه شباك الى جهة بلاد الخليل عليه الصلاة والسلام ، فكان برقوق فى كل يوم يقف فى الشباك ويقول : « يا خليل الله ، أنا فى حسبك من منطاش » ... قيل ان شخصا من الصالحين رأى الخليل عليه الصلاة والسلام فى المنام ، فقال له ان برقوق يعود الى ملكه ، وينصر على منطاش ...

فلما حضر الشهاب البريدى الى الكرك ، تنسم منه الحاج عبد الرحمن البابا الذى كان بخدمة الملك الظاهر برقوق بأنه جاء بقتل أستاذه برقوق . وكان أصـل الحاج عبد الرحمن البابا من الكرك ، وله أقارب هناك . فلما كانت تلك الليلة التى قدم فيها الشهاب البريدى كانت نوبة أبى علوان السجان ، وكان من أقارب الحاج عبد الرحمن البابا ، فأنزلوا ذلك البريدى فى مكان يسمى الطارمة بجانب المكان الذى فيه السلطان برقوق ، وكان نائب الكرك فى كل ليلة من شهر رمضان لا يفطر الا عند السلطان برقوق . فلما كانت تلك الليلة لم يحضر فيها نائب الكرك المذكور ، فاضطرب الظاهر برقوق لذلك ، وقال : « لا آكل شيئا حتى يحضر النائب » ... ثم بعد سـاعة حضر وأكل مع السلطان . فلما فرغوا دخل أقارب الحاج عبد الرحمن البابا على الشهاب البريدى وهو فى الطارمة فقتلوه ، ثم أرادوا قتل نائب الكرك فاستجار بالسلطان فمنعهم من قتله ، فقبضوا عليه وسجنوه ، وملك الملك الظاهر قلعة الكرك ... فهذه كانت مبدأ سـعد الملك الظاهر برقوق ، وقـد قاسى من المحن والأهوال أمرا عظيما ، فكان كما قيل فى المعنى :

على قدر فضل المرء تأتى خطوبه
ويعرف عند الصـبر فيما يصيبه
ومن قل فيما يتقيـه اصـطباره
فقـد قل فيما يرتجيه نصـيبه

فلما جاءت الأخبار بأن برقوق قد ملك قلعـة الكرك ، اضطربت أحوال الأتابكى منطاش ، وخانه المراد ، وجنى عليه الاجتهاد . ثم انه أحضر العسكر وعين تجريدة الى برقوق .

ثم فى أثناء ذلك حضر شخص من العربان الشامية وأخبر بأن الملك الظاهر برقوق قد طرده أهل الكرك وأنزلوه من القلعة وهرب الى خارج المدينة ، وان العربان قد أحاطوا به ... ولم يكن لذلك صحة ، وانما السلطان برقوق أرسل هذا الهجان بهذا الخبر الى مصر حتى يبطـل أمر التجـريدة التى كانوا عينوها له الى أن تستقيم أحواله .

فلما سمع الأتابكى منطاش بهذا الخبر فرح ، وخلع على ذلك الهجان كاملية بسمور ، وبطل أمر التجريدة ، فكانت هـذه أول مكيدة صحت بيد برقوق .

ثم فى خامس عشر شوال جاءت الأخبار من قوص بأن مماليك الظاهر برقوق الذين كانوا هناك قد توجهوا الى الكرك من وادى القصب الى السويس ، وقد قتلوا والى قوص .

ثم فى أثناء ذلك جاءت الأخبار من حلب بأن

كمشبغا الحموى نائب حلب خامر وخرج عن الطاعة .

ثم جاءت الأخبار بأن الظاهر برقوق قد خرج من الكرك وهو قاصد نحو الشام ، فلاقاه حسام الدين بن باكيش نائب غزة ومعه جماعة من عربان جبل نابلس نحو خمسة آلاف انسان ، فأوقعوا مع الظاهر برقوق فى الطريق واقعة قوية ، وكان الظاهر برقوق قد التف عليه من عربان الكرك نحو ألف انسان . فلما خرج من الكرك تسامعت به الناس فجاءوا اليه ، وصار كلما مر بقرية يخرج اليه أهلها ويلاقونه ومعهم العليق والضيافة . فلما لاقاه ابن باكيش نائب غزة ، وانكسر من كان مع ابن باكيش من العسكر ، نهبهم عسكر برقوق وغنموا منهم خيولا وسلاحا وقماشا وبركا ، فقوى عسكر برقوق بتلك الغنيمة . فلما وصل برقوق الى شقحب خرج اليه عسكر دمشق ، وأوقعوا معه هناك واقعة عظيمة ، فقتل بها من أمراء دمشق ستة عشر أميرا ، ومن المماليك نحو خمسين مملوكا ، وقتل من عسكر برقوق نحو ذلك .

ثم جاءت الأخبار بأن الأمير اينال اليوسفى خرج من السجن وملك قلعة صفد . وسبب ذلك ان اينال اليوسفى كان مسجونا بقلعة صفد . وكان داودار نائب صفد شخصا يقال له يلبغا السالمى ، وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق . فلما خرج نائب صفد من المدينة وتوجه الى نحو دمشق ليساعد نائب دمشق على قتال الظاهر برقوق بقيت صفد خالية بلا نائب ، فاتفق يلبغا السالمى مع حاجب صفد ونائب القلعة ، وأخرجوا الأمير اينال اليوسفى من السجن ، وأخرجوا معه جماعة من المماليك الذين كانوا معه فى السجن وملكوا قلعة صفد . فلما بلغ ذلك نائب صفد رجع الى صفد وأراد أن يدخل الى دار السعادة ، فرموا عليه بالمدافع وطردوه من المدينة ، واستولى اينال اليوسفى على قلعة صفد ، ونهب حواصل قطلو بك نائب صفد ، فقويت شوكة الظاهر برقوق .

ثم جاءت الأخبار بأن نائب صفد ونائب حماه قد وصلا الى قطيا وهما هاربان من الظاهر برقوق ، فدخلوا الى القاهرة فى يوم الأحد خامس عشرى شوال ، فأخبروا الأتابكى منطاش بأن أكثر النواب خامر مع الظاهر برقوق .

فلما سمع منطاش ذلك عقد مجلسا عظيما فى القصر الكبير ، وأرسل خلف أمير المؤمنين محمد المتوكل والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى . فلما تكامل المجلس عرض عليهم الأتابكى منطاش سؤالا شرحه : « ما تقول السادة العلماء فى رجل خلع الخليفة وسجنه وقيده من غير موجب لذلك ، وقتل رجلا شريفا فى الشهر الحرام فى البلد الحرام ، واستحل أخذ أموال الناس بغير حق ، واستعان بالكفار على قتال المسلمين ؟ » ... ثم كتبوا من هذا السؤال عدة نسخ . فقال القضاة : « ما نكتب على هذا السؤال حتى يكتب شيخ الاسلام سراج الدين البلقينى » . فكتب الشيخ سراج الدين البلقينى : « اذا قامت عليه البينة بذلك وجب قتاله ومحاربته ، فهو خارجى » . فلما كتب شيخ الاسلام ذلك كتب بعده القضاة ومشايخ العلماء ، وكتبوا من هذا السؤال عدة فتاوى ، ثم أرسلوها الى ثغر الاسكندرية ودمياط وغير ذلك من الثغور ... وكان الظاهر برقوق فى أول سلطنته وقع منه أمور فاحشة فى حق الرعية ، فكان كما قيل : « اذا حملت الأنفس ما لا تطيق ، نطقت الألسن بما لا يليق » ...

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن الظاهر برقوق بعد أن دخل الى دمشق ، وملك المدينة ، ونزل فى

الميدان ، كبس عليه أهل دمشق ، وأخرجوه من المدينة الى ظاهر البلد . وكان سببه أن الظاهر برقوق لما وصل الى دمشق نزل عند قبة اليلبغا خارج دمشق . فأقام هناك ، فجاء اليه كمشبغا الحموى نائب حلب ، فوجد الظاهر برقوق فى خيمة خلقة صغيرة ، فأحضر له خيمة مدورة عظيمة ، وأحضر طشتخاناه وشربخاناه وفرشخاناه وغير ذلك مما يحتاج اليه الملوك من أوان وفرش حتى أحضر له الخليفة برسم النوبة ، وصار الظاهر برقوق سلطانا كما كان أولا بعدما كان قد تلاشى أمره ، فكان كما قيل :

الصبر مثل اسمه فى كل نائبة
لكن عواقبه أحلى من العسل

فاصبر لها غير محتال ولا ضجر
فى حادث الدهر ما يغنى عن الحيل

ثم ان الظاهر برقوق لما استقامت أموره ، حضر بمن معه من العساكر ودخل الى دمشق ، وملك المدينة ، ونزل بالميدان الكبير ، فجاء اليه الناس من كل فج وقدموا اليه الخيول والقماش والمال وغير ذلك . فبينما هو فى الميدان اذ قامت بدمشق عركة ، ورجموا الملك الظاهر برقوق وأخرجوه من الشام . وكان سبب ذلك أن بعض مماليك برقوق عبث على بعض سوقة دمشق وأخذ منه شيئا من البضائع بالغصب ، فاستغاث ذلك السوقى ، فحضر اليه جماعة من أهل دمشق وتعصبوا له ، فهاش عليهم ذلك المملوك وضربهم ، فرجمه أهل دمشق ، فجاء خشداشى ذلك المملوك ورموا على عوام دمشق بالنشاب ، فتكاثرت على المماليك العوام بالحجارة والمقاليع ، فكسروا المماليك كسرة قوية . فركب الظاهر برقوق ومن معه من الأمراء وخرجوا من دمشق الى قبة يلبغا ، فدخل العوام الى الميدان ، ونهبوا برك الظاهر برقوق ، وغلقت أبواب دمشق بعد ما كانت مفتحة ، وكان برقوق أشرف على أخذ قلعة دمشق وراح أمره ، فتعطل بسبب ذلك كما قيل : « ومعظم النار من مستصغر الشرر » .

ويقرب من هذه الواقعة ما ذكره بعض المؤرخين أن أهل قريتين تقاتلوا حتى تفانوا عن آخرهم على قطرة عسل وسبب ذلك أن رجلا نحالا يبيع العسل وقف على زيات ليبيعه عسلا . فبينما الزيات يزن فى العسل ، قطرت منه قطرة على الأرض ، فوقع عليها زنبور ، فوثب عليه قط كان فى دكان الزيات وهو عزيز عنده ، فخطف ذلك الزنبور ، فرآه كلب كان مع صاحب العسل وهو عزيز عنده ، فوثب على قط الزيات فقتله وأكله . فلما رأى الزيات قطه قد مات ضرب كلب صاحب العسل فقتله . فلما رأى صاحب العسل كلبه قد مات خرج من عقله — وكان ذلك الكلب عزيزا عنده — فضرب الزيات ضربة فقتله فلما رأى أخو الزيات أخاه قد قتل ، وثب على صاحب العسل فقتله . وكان صاحب العسل من قرية والزيات من قرية ، فتسامع أهل القريتين بذلك فلبسوا السلاح ، وما زالوا يتقاتلون بالسيف والرمح ، والحرب سائرة بينهم ، حتى تفانوا عن آخرهم ... وكان سبب ذلك القطرة العسل التى أثارت هذه الفتنة العظيمة .

فنعوذ بالله من آفة الجهل ، وقلة العقل ، كما قيل فى المعنى .

ألم تر أن العقل زين لأهله
ولكن تمام العقل طول التجارب

ومن هنا نرجع الى أخبار الأتابكى منطاش ... فانه لما سمع ذلك عن الظاهر برقوق لم يثق بهذا الكلام ، وأخذ فى أسباب خروج العسكر ، والسلطان الملك المنصور أمير حاج ، الى نحو

الشام لقتال الظاهر برقوق . فلما تحرك أمر التجريدة حصل للناس غاية الصرر من الأتابكى منطاش ، وتمنى كل أحد عود الملك الظاهر برقوق الى الديار المصرية . وكان قد جرى من الأتابكى منطاش عند خروج التجريدة أمور منها أنه أخذ خيول الطواحين جميعها حتى غلا الدقيق وأكل الناس بعضهم بعضا ، ومنها أنه نادى فى القاهرة بأن لا فقيه ولا متعمم يركب فرسا ، ومنها أنه أمسك جماعة من مماليك الظاهر برقوق وسجنهم بخزائن شمايل ، ومنها أنه سد باب الفرج — وكان ذلك فألا عليه — وسد باب حمام أيدغمش ، ومنها أنه رمى على جماعة من المباشرين بالايوان الشريف خمسمائة فرس من الخيول الخاص ، ومنها أنه رمى على أولاد الناس أجناد الحلقة كل واحد فرسا أو ثمنه ، ورمى على الحجاب المقيمين بالقاهرة كل واحد ثمن فرس خمسين دينارا ، وفرع من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة لم يسمع بمثلها فيما تقدم ، فكان كما قيل فى المعنى :

كفى المرء نقصا أن يرى عيب غيره
وما عاب منه النـاس غير معيب

ثم ان السلطان علق الجاليش وأنفق على العسكر، فرسم الأتابكى منطاش لكل مملوك من المماليك السلطانية بنفقة دون المائة دينار ، فأخذوا ذلك على كره منهم وأظهروا العصيان ، وكثر القيل والقال فى حق المقر الأتابكى منطاش . ثم أشيع بين الناس أن الملك الظاهر برقوق قد انكسر وهرب ، وأن رأس اينال اليوسفى قد قطعت وهى واصلة الى القاهرة ، فدقت البشائر لذلك ثلاثة أيام ، وزينت القاهرة ... وكل ذلك أخبـار مصنوعة ليس لها صحة ، وانما هى اشاعة لتطمئن خواطر العسكر وهذه حيل منطاش .

ثم ان السلطان برز خيامه فى الريدانية وكذلك سائر الأمراء .

فلما كان يوم الاثنين سـابع عشر ذى الحجة سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، نزل السلطان الملك المنصور أمير حاج من القلعة ، وصحبته الخليفة المتوكل على الله محمد ، والقضاة الأربعة — وهم : قاضى القضاة أبو البقا السبكى الشافعى ، وقاضى القضاة شمس الدين محـمد الطرابلسى الحنفى ، وقاضى القضاة جمال ادين بن خير المالكى ، وقاضى القضاة ناصر الدين بن العسـقلانى الحنبلى — وسائر الأمراء من الأكابر والأصـاغر ، فنزل فى موكب عظيم الى الريدانية .

ثم ان السلطان ترك بالقاهرة من الأمراء المقر السيفى سودون الفخرى نائب السلطنة ورسم له بأن يقيم فى القلعة الى أن يعود السلطان ، وجعل الأمير تكا الأشرفى نائب الغيبة مع الأمير صراى تمر ، والأمير قطلوبغا السيفى تمر باى حاجبا ثانيا ومعه جماعة من الحجاب ، وترك جماعة من المماليك السلطانية نحو خمسـمائة مملوك ، ورسم لهم بأن يتوزعوا فى أبراج القلعة وجوانب المدينة .

ثم ان فى يوم الجمعة رحل السلطان من الريدانية فلما وصل الى العكرشا وقع من أعلى الفرس الى الأرض فتفاءل له الناس بعدم النصرة . وكان أكثر العسكر مائلا الى الملك الظاهر برقوق ، وما مع الأتابكى منطاش من العسكر الا القليل .

هذا ما كان من أمر الملك المنصور أمير حاج والأتابكى منطاش .

وأما ما كان من أمر الأمراء الذين بالقاهرة بعد خروج السلطان فان الأمير صراى تمر نائب الغيبة ، لما رحل السلطان من القـاهرة ، أمر بسـد أبواب القلعة ، وهى : باب الدرفيل ، وباب الميدان ، وباب

القرافة ، وسد بعض أبواب القاهرة الصغار . ثم ان نائب الغيبة رمى على أولاد الناس المقيمين بالقاهرة كل واحد فرسا أو ثمنه ، فحصل للناس منه غاية الضرر الشامل ، وصارت القاهرة كل يوم فى اضطراب وقلة أمن .

وفى هذه السنة توفى الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفى ، وكان من أعيان العلماء وله شعر جيد فى البديع ، فمن ذلك قوله فى الصاحب كريم الدين ابن الغنام :

وزير الملك عيد ألف عيد
فأنت الصاحب الخلق الجليل
فمنك غنيت فى الأضحى بكبش
ملىء بالغنا كاف كفيل

سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة (١٣٩٠ م) :

فيها جاءت الأخبار من غزة بأن أكثر العسكر تسحب من عند الملك المنصور وتوجهوا الى الظاهر برقوق .

ومن الحوادث بالقاهرة أن جماعة من مماليك الأمراء اتفقوا مع مماليك الأمير صراى تمر نائب الغيبة على قتل أستاذهم صراى تمر . فلما تحقق صراى تمر ذلك أرسل الأمير قطلوبغا الحاجب ، ووالى القاهرة ، فكبسا على جماعة من المماليك الذين هم رأس الفتنة فى مكان فى البرقية ، فمسكا منهم ستة أنفس وهم لابسون آلة الحرب . فلما قبضا عليهم أحضراهم الى الأمير صراى تمر نائب الغيبة فعاقبهم وقررهم فأقروا بأنهم قصدوا قتل جماعة من الأمراء ، فسجنهم بخزانة شمايل .

ثم ان الأمير صراى تمر أرسل يعرف الأمير تكا الأشرف رأس نوبة ثانى عما وقع من هذا ، فلما أشيع ذلك بين الأمراء قبض كل أمير من الأمراء على جماعة من مماليكه ، فمسكوا منهم نحو خمسين مملوكا وسجنوهم . ثم ان الأمير صراى تمر أرسل فقبض على سيدى بيبرس ابن أخت الملك الظاهر برقوق وسجنه بالقلعة .

ثم ان الأمير صراى تمر نائب الغيبة نادى فى القاهرة بأن كل من مسك مملوكا من مماليك الظاهر برقوق يأخذ له عشرين دينارا . فلما جرى ذلك اضطربت القاهرة ، وأشاعوا بأن المماليك الذين فى القاهرة يقصدون الوثوب على الأمراء . فلما تحقق الأمير صراى تمر ذلك ما وسعه الا أنه رسم بالافراج عمن سجن من المماليك قاطبة ، والافراج عن سيدى بيبرس ابن أخت الملك الظاهر برقوق ، ونزل الى بيته .

ثم فى يوم الخميس حضر هجان من الشام وعلى يده مراسيم الى الأمراء بأن السلطان الملك المنصور دخل الى الشام وملكها ، وأن الملك الظاهر برقوق هرب من وجهه ولم يقابله ، فخلعوا على الهجان الذى جاء بهذا الخبر خلعة عظيمة ، ودقت البشائر ثلاثة أيام ... ثم ظهر بأن هذا الخبر كذب مصنوع ليس له صحة ، وفعلوا ذلك لتطمئن الرعية .

ثم فى يوم الأحد سابع عشرى المحرم من سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة أشيع بين الناس بالقاهرة بأن الظاهر برقوق قد انتصر على الملك المنصور أمير حاج ، ثم انقطعت هذه الأخبار مدة طويلة

فلما كان ليلة الأربعاء مستهل شهر صفر حدث فى تلك الليلة أن جماعة من المماليك السلطانية كانوا بائتين فى القلعة ، فنقبوا حائطا وأخرجوا جماعة من المماليك الذين كانوا فى السجن بالقلعة ، فلما كثروا جاءوا الى باب القلعة الذى ينزل الى باب السلسلة فوجدوه مقفلا فعبثوا فيه بعتلة حديد ، فلما أحس بهم الحراس ضربوا أحد الحراسين بالسيف فمات من وقته ، فهرب بقية الحراس لما رأوا ذلك ، فخلع

المماليك الباب ، ونزلوا الى الاسطبل السلطاني ، وجاءوا الى باب السلسلة ، فوجدوا الحراس قد ناموا وكان ذلك في آخر الليل ، فضربوا من الحراس اثنين فماتا ، وأخذوا منهم مفتاح باب السلسلة ففتحوا الباب ونزلوا الى الرميلة ... هذا كله والأمير صراى تمر نائم في حريمه لم يشعر بشيء من ذلك . فلما أحس بهذا الأمر نزل من سور الاصطبل في حبل الى الرميلة ، ثم توجه الى بيت الأمير قطلوبغا الحاجب .

ثم ان المماليك تحايوا وكثروا ، فلما أصبح الصباح فتحوا أبواب القلعة وأخرجوا من كان في الأبراج من المماليك مسجونا ، وكذلك من كان في خزانة شمايل ، ثم طلعوا الى الاسطبل السلطاني وأخذوا ما كان به من الخيول ، وطلعوا الى الطبلخانات السلطانية ، وأحضروا جماعة الغلمان والعبيد وقالوا لهم دقوا الكئوسات حربيا .

ثم ان الأمير صراى تمر نائب الغيبة والأمير قطلوبغا الحاجب ركبا ولبسا آلة الحرب ، ووقفا بسوق الخيل — وكان الأمير بطا الطولوتمرى قد ملك باب السلسلة — فلما طلع الأمير صراى تمر والأمير قطلوبغا الى سوق الخيل نزل اليهم الأمير بطا مع جماعة من المماليك الظاهرية ، فأوقعوا معهم واقعة قوية ، فانكسر الأمير صراى تمر نائب الغيبة ، والأمير قطلوبغا الحاجب ، فنهب العوام بيوتهم ومن كان من عصبتهم من الأمراء والمماليك .

ومن غرائب صنع الله تعالى أن القاهرة اضطربت لهذه الواقعة ، وكانت المدينة سائبة — لا سلطان بها ولا قاضي ولا حاكم — ومع هذا لم يفقد لأحد من الناس ما قيمته الدرهم الفرد ، وكانت الزعر مائجة في المدينة ، ولم يتعرضوا لأحد من الناس بسوء ، ولا نهبوا لأحد شيئا من الدكاكين ولا البيوت ولا الأسواق ، وكان حفظا من الله تعالى ، فكان كما قيل في المعنى :

لم لا نرجى الفضل من ربنا
أم كيف لا نطمع في حلمه
وفي الصحيحين أتى أنه
بعبده أشفق من أمه

ثم ان الأمير بطا خلع على شخص من أولاد الناس يقال له محمد بن العادلي واستقر به والي القاهرة عوضا عن حسين بن الكوراني . ثم ان محمد بن العادلي نادى في القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن لا أحد يشوش على أحد ، والدعاء للسلطان الملك الظاهر برقوق بالنصر ، فضج الناس له بالدعاء ... وهذا كله جرى بالقاهرة ولم يعلم للملك الظاهر برقوق خبر ، ان كان قد انتصر أو انكسر .

ثم ان المقر السيفي سودون الفخرى نائب السلطنة ركب بنفسه وشق القاهرة ، ونادى قدامه بالأمان والاطمئنان ، والدعاء للملك الظاهر برقوق ، وكان ذلك يوم الجمعة ، فنودى للخطباء بأن يخطبوا باسمه في ذلك اليوم .

ثم ان الأمير صراى تمر ، والأمير قطلوبغا ، وجماعة من الأمراء طلعوا الى باب السلسلة صحبة المقر السيفي سودون النائب وفي رقابهم مناديل . فلما طلعوا الى باب السلسلة قيدهم الأمير بطا وسجنهم بالقلعة . وكان الأمير بطا من مماليك الظاهر برقوق ، وكان يومئذ أمير عشرة ، ولكن خدم سعده لسعد أستاذه برقوق كما قيل في المعنى :

ملك نداه المبتدا ... للناس والمدح الخبر
أمضى لسان سيفه ... حكم القضاء والقدر

فلما كان يوم السبت أواخر شهر صفر حضر الى القاهرة جلبان الخاصكي وصحبته الأمير عيسى بن

مهنا شيخ العرب ، وأخبروا بأن الملك الظاهر برقوق قد انتصر على منطاش ، وهو واصل الى غزة . فلما سمع ذلك الأمير بطا دق الكئوسات ، ونادى بالزينة فى القاهرة وكتب مراسيم وأرسلها الى ثغر الاسكندرية ودمياط والصعيد بنصرة الملك الظاهر برقوق على منطاش .

ثم ان الأمير بطا خلع على الأمير حسين بن الكورانى ، واستقر به والى القاهرة كما كان أولا.

ثم فى يوم الأحد ثانى ربيع الأول حضر هجان على يده مراسيم شريفة متوجة بخط الملك الظاهر برقوق ، مضمونها أن الأمير بطا يجهز الاقامات الى قطيا .

ثم بعد ذلك حضر شيخ العرب زيد بن عيسى شيخ العائد وأخبر بما جرى للملك الظاهر برقوق مع الملك المنصور أمير حاج ومع الأتابكى منطاش . فأخبر أن الملك المنصور لما وصل شقحب تلاقى هناك هو والملك الظاهر برقوق ، فحصل بين العسكرين واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، وذلك فى يوم الأحد رابع عشر المحرم سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة . فلما التقوا هناك على شقحب انكسر الملك الظاهر برقوق كسرة قوية وهرب ، وأسر الأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر وجرح . فلما انكسر الظاهر برقوق وولى دخل الأتابكى منطاش الى الشام ومعه الأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر برقوق وهو أسير . ثم ان الأتابكى منطاش قال لنائب الشام الأمير نجردمر : « اخرج أنت وعسكر الشام ولاقى الملك المنصور » ... وكان الملك المنصور لما انكسر برقوق أخذ الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة وخزائن المال وبعض جماعة من العسكر ، ونزل تحت جبل خارجا عن الشام بيوم .

هذا ما كان من أمر الملك المنصور والأتابكى منطاش .

وأما ما كان من امر الملك الظاهر برقوق بعد كسرته ، فانه هرب هو والأمير كمشبغا الحموى نائب حلب فأما نائب حلب فتوجه تحت الليل الى حلب ودخلها ، ثم حصن المدينة وظن أن الظاهر برقوق قد تلاشى أمره . واما الملك الظاهر برقوق فانه لما انكسر هرب فى نفر قليل من العسكر وتوارى خلف الجبل الذى تحته الملك المنصور والخليفة والقضاة ، فأتى اليه بعض العرب وأخبره بأن الملك المنصور تحت ذلك الجبل ، فكبس عليهم برقوق بمن معه من العسكر — وكانوا نحو أربعين انسانا — فألقى الله الرعب فى قلوب عسكر المنصور ، وغلت أيديهم عن القتال ، فنزل عليهم الظاهر برقوق كالباز على الطائر ، واحتوى على كل ما معهم من البرك والقماش والسلاح وخزائن المال . فلما جرى ذلك تسامع به الناس فجاءوا اليه أفواجا من كل مكان ، كما قيل : « اذا استقام نجم سعدك ، فاصنع مع السعد ما شئت » ... فبات برقوق هناك تلك الليلة .

فلما بلغ ذلك منطاش حضر — ومعه عساكر الشام والسواد الأعظم من دعر دمشق فحصل بينهم واقعة أعظم من الواقعة الأولى ، وقتل بها ما لايحصى من الخلائق ، واستمرت الحرب سائرة بينهم من باكر النهار الى غروب الشمس ، فانكسر الأتابكى منطاش وعسكر الشام كسرة قوية ، فولوا هاربين الى نحو دمشق ، وصار القتلى على الأرض مثل الحصا من أهل الشام وعسكر مصر ، وربما عوقب من لم يجن كما قيل :

حب السلامة يثنى عزم صاحبه
عن المعالى ويغرى المرء بالكسل

فلما جرى ذلك أقام الظاهر برقوق بمنزلة شقحب يومين . ثم ان شخصا من الصالحين يقال له الشيخ شمس الدين الصوفى مشى بين الملك

الظاهر برقوق وبين الملك المنصور أمير حاج فى أن يخلع نفسه من الملك ويسلم الأمر الى الملك الظاهر برقوق ، فأجاب الملك المنصور الى ذلك ، وأحضر الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة ، وخلع نفسه من الملك وأشهدوا عليه بذلك .

ثم ان الخليفة والقضـاة بايعوا الملك الظاهـر برقوق بالسلطنة ، وذلك بمنزلة شقحب .

ثم ان الظاهـر برقوق أقام هنـاك تسعة أيام ، فوقع فى العسكر الغلاء وعز الشعير والتبن والقمح حتى بيعت كل بقسماطة بخمسـة دراهم شامية ، وبيع كل فرس بعشرين درهما شـامية — لعدم العليق — وكل جمل بعشرة دراهم ولم يوجد من يشتريه بهذا السعر ، وبيعت القطعة السكر بثقلها فضة ولم توجـد ... فقلق العسكر قاطبة وهموا بالوثوب على برقوق ، فلمـا رأى ذلك عزم على التوجه الى نحو الديار المصرية ، فخلع عند رحيله على الأمـير اياس الجرجاوى واسـتقر به نائب صفد ، وخلع على الأمير قديد القلمطاوى واستقر به نائب الكرك .

ثم انه أمر العسـكر بأن يرحلوا أولا بأول ، فرحلوا من شقحب وبقى الظاهر برقوق والخليفة والملك المنصور وبعض أمراء ومماليك سلطانية ، فلما بلغ منطاش ذلك خرج من الشام ومعه نحو مائتى انسان من عسكر دمشق ، ووقف على تل عال خارج عن دمشق ، فلما بلغ الظاهـر برقوق ذلك ركب وخرج اليه ، فوقف كلاهما هناك ساعة ولم يقع بينهما قتال .

ثم ان منطاش رجع الى الشام ، ورجع برقوق ثم رحل من شقحب وقصد نحو الديار المصرية ، فسار هو والخليفـة والقضـاة الأربعـة والملك المنصور .

فلما وصل الظاهر برقوق الى غـزة قبض على نائب غزة الأمير حسين بن باكيش — وكان وقع منه فى حق الظاهر برقوق لمـا خـرج من الكرك ما قد تقدم ذكره — ثم قيده وأخذه صحبته الى القـاهرة . وخلع على الأمير علاء الدين بن أقبغا السلطانى واستقر به نائب غـزة عوضـا عن ابن باكيش .

ولمـا كان يوم الأربعـاء ثامن صفر حضر الى القـاهرة أقبغا الطولوتمرى المعـروف باللكاش — وهو أخو الأمير بطا وكان قد أرسله الى كشف الأخبار — فلما رجع أخبر بأن الملك الظاهر برقوق قد خرج من غزة وهو قاصد نحو الديار المصرية ، فنادى الأمير بطا بالزينة ، فزينت القـاهرة ودقت البشـائر سـبعة أيام . ثم ان الأمير بطـا أرسل بالافراج عن جماعة من الأمراء قد كانوا بالسـجن بثغر الاسكندرية ودمياط ، وهم الأمير الطنبغا العثمانى ، والأمير عبدون العـلائى ، والأمـير مامق .

ثم ان الأمير بطا قبض على الأمير حسام الدين ابن الكورانى ، والى القاهرة ، وضربه وسجنه . وسبب ذلك أنه كان يكبس على مماليك الظاهر برقوق ويقبض عليهم من اصطبلات الحـارات ، فلما انتصر برقوق قال له الأمير بطا : « اقبض على ممـاليك منطاش كمـا كنت تقبض على خشداشيننا من الاصطبلات » ... فصار يختلع فى ذلك ، فقبض عليه الأمير بطا وضربه وسجنه ، ثم استقر بالصارمى والى القـاهرة عوضـا عن ابن الكورانى ... هذا كله قبل وصول الملك الظاهر برقوق .

فلما كان يوم الخميس تاسع صفر ، حضر الى القاهرة الأمير سودون الطيار وعلى يده مثالات شريفة الى سائر الأمراء بالسلام ، وأخبر الأمير سودون بأنه قد فارق السـلطان فى الصـالحية ، فخرج أكثر الناس الى ملتقاه .

فلما كان يوم الثلاثاء وصل الى بركة الحاج ، فخرج اليه الناس قاطبة من الأمراء والعلماء وأعيان الناس وسائر الرعية من العوام وغيرهم ، حتى طائفة الصيادين بشبكاتهم ، وطائفة الجيوش ومعهم صنجق وطبل وهم يرقصون ، وخرج اليه طائفة اليهود وطائفة النصارى وفى أيديهم الشموع والرايات ...

فلما كان يوم الأربعاء خامس عشر صفر ، دخل السلطان الملك الظاهر برقوق وطلع الى القلعة ، فكان له موكب عظيم ، فشق من بين الترب ، واليهود والنصارى قدامه بالشموع تشعل ، وهو راكب والأمراء مشاة بين يديه ، والخليفة المتوكل قدامه والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى ، وسائر الأمراء من الأكابر والأصاغر قدامه ، وسائر الجند من شيخ وصبى . وكان الملك المنصور أمير حاج راكبا عن يمينه وحملت القبة والطير على رأسه ، ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب ، وانطلقت له النساء بالزغاريط .

فلما وصل الى تربة طيبغا الطويل فرشت له الشقق الحرير . فلما وصل الى أوائل الشقق ثنى عنان فرسه عن الشقق ، وأشار الى الملك المنصور أمير حاج بأن يمشى بفرسه على الشقق جبرا لقلبه ... فدعا له الناس بالنصر .

فلما أن وصل الرميلة ، طلع الى باب السلسلة وجلس به ، واجتمع الخليفة والقضاة الأربعة ، فجددوا له البيعة ثانيا ، وأشهدوا على الملك المنصور بالخلع .

فلما انقضى المجلس قال الملك الظاهر برقوق للملك المنصور أمير حاج : « اطلع سلم على أمك » ... فقام الملك المنصور وقدموا له الفرس ، فركب من المقعد الذى فى الاصطبل . فلما ركب قام له الملك الظاهر وعضده من تحت ابطه حتى ركب ، وبالغ فى تعظيمه ، فدعا له الناس بالنصر .

فلما طلع المنصور من الاصطبل السلطانى توجه الى دور الحرم ، فدخل اليها وهو فى غاية التعظيم بخلاف من تقدم من أقاربه . فلما دخل الى دور الحرم أقام بها فى غاية الحفظ ، فكان آخر من تولى السلطنة بالديار المصرية من ذرية بنى قلاون ، وبه قد زال عنهم الملك كأنه لم يكن .

ومن جملة سعد الملك الظاهر برقوق أنه من حين خلع من السلطنة وعاد اليها لم يجلس أحد على مرتبته الى أن عاد اليها . وكانت سلطنة الملك المنصور أمير حاج عبارة عن نيابة عن الملك الظاهر برقوق الى أن عاد الى السلطنة ، وكان أمر السلطنة جميعها بيد الأتابكى منطاش .

وكان من جملة سعد الملك الظاهر برقوق ، أنه من حين خرج من الكرك وتوجه الى الشام ، وخرج اليه المنصور وجرى فى القاهرة ما تقدم ذكره من مسك الأمراء وغير ذلك ، كانت الخطبة باسم الظاهر برقوق على منابر القاهرة قبل دخوله اليها ، ودخل الى القاهرة من غير قتال ولا حرب . وقد تقدم ما فعله الأمير بطا قبل دخول الظاهر الى القاهرة ، وخدم سعد برقوق فى هذه الولاية الثانية الى أن مات على فراشه وهو سلطان كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

ومن جملة سعد برقوق أن الملك المنصور نزل له عن السلطنة بدمشق طائعا ، ولم يختلف عليه اثنان .

ومن غرائب الاتفاق أن قلاون لما تولى الملك تلقب بالملك المنصور ، وآخر من تولى الملك من ذريته تلقب بالملك المنصور .

وأغرب من هذا أن الملك المنصور قلاون الألفى كان قد أخذ الملك من أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، والملك الظاهر برقوق أخذ الملك من أولاد الملك المنصور قلاون — وفى المثل

« كما تدين تدان » - فكانت مدة سلطنة الملك المنصور أمير حاج فى هذه المرة ثمانية أشهر وستة عشر يوما الى يوم خلعه بشقحب ، وكان الأتابكى منطاش فى هذه المدة هو السلطان ، يعزل من يشاء ويولى من يختار من عصبته ، وقد قال بعض الزجالة هذا المطلع :

من الكرك جانا الظاهر — وجب معو أسد الغابه
ودولتك ياأمير منطاش — ما كانت الا كدابه

ولما دخل الملك أمير حاج الى دور الحرم أقام بها الى أن مات على فراشه فى ليلة الاربعاء تاسع عشر شوال سنة أربع عشرة وثمانمائة ، وذلك فى دولة الملك الناصر فرج بن برقوق ، وصلى عليه بالقلعة ودفن فى تربة جدته خوند بركة التى بالتبانة ، ومات وله من العمر نحو سبع وأربعين سنة ، وقيل انه مات وهو مقعد فى الفراش مما حصل له فى يوم وقعة شقحب لما كبس عليه الملك الظاهر برقوق ، واستمرت الطربة معه حتى مات . وقد قال القائل فى المعنى :

اصبر لدهر نال منـك — فهكذا مضت الدهور
فرحا وحزنا تارة — لاالحزن دام ولاالسرور

عَودُ الملك الظاهر برقوق

عاد الى السلطنة الملك الظاهر برقوق بن ألمص — وقيل أنس — العثمانى ، وهى السلطنة الثانية .

لما حضر من دمشق ، ودخل القاهرة ، جلس فى باب السلسلة كما تقدم ذكر ذلك . فلما بايعه الخليفة بحضرة القضاة أحضروا له خلعة السلطنة فلبسها ، وركب من المقعد وطلع من باب سر القصر وجلس على سرير الملك ، وذلك فى يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة .

ومن العجائب أن سلطنته الأولى كانت فى يوم الأربعاء وسلطنته الثانية كانت فى يوم الأربعاء .

ولما جلس على سرير الملك نودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء ، وبطل القيل والقال من بين الناس ، وقد قال القائل فى المعنى :

ملك به اخضر الزمان كأنما
أيام دولته ربيع ثانى

فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : المقر السيفى سودون الفخرى الشيخونى واستقر به نائب السلطنة على عادته ، وخلع على المقر السيفى اينال اليوسفى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن تمربغا الأفضلى منطاش ، وخلع على المقر السيفى كمشبغا الأشرفى المعروف بالخاصكى واستقر به أمير مجلس ، وخلع على الأمير الطنبغا الجوبانى واستقر به رأس نوبة النوب على عادته ، وخلع على الأمير بطا الذى جرى منه ما تقدم ذكره واستقر به دوادارا كبيرا ، وخلع على الأمير تكلمش العلائى واستقر به أمير أخور كبير، وخلع على الأمير تنجاص السودونى واستقر به حاجب الحجاب .

ثم رسم بالافراج عن المقر السيفى يلبغا الناصرى الذى كان نائب حلب وخامر على السلطان ، وجرى منه ما جرى ، وكان سببا لزوال ملك الملك الظاهر برقوق كما تقدم . فلما عاد الملك الظاهر فى هذه المرة زال ما كان بينه وبين يلبغا الناصرى من العداوة ورسم بالافراج عنه . فلما حضر خلع عليه واستقر به أمير سلاح . ولما نفى يلبغا الناصرى كان أتابك العساكر ، فلما رجع فى هذه المرة استقر أمير سلاح .

ثم ان الملك الظاهر أفرج عن جماعة كثيرة من الأمراء ممن كانوا فى السجن بثغر الاسكندرية - فلما حضروا خلع على الأمير الطنبغا الجوبانى

واستقر به نائب الشـام ، ثم خلع على الأمير قرا دمرداش الأحمدى واسـتقر به نائب طرابلس ، وخلع على الأمير القلمطاوى واسـتقر به نائب حماه ، وخلع على الأمير أرغون الغلمانى واستقر به نائب ثغر الاسكندرية ، وخلع على الأمير مقبـل الرومى واستقر به أمير خازندار . وأنعم على جماعة كثيرة من الأمراء بتقـادم ألوف وامريات أربعين وامريات عشرة . واستقامت أموره فى السلطنة أعظم من المرة الأولى . ثم بعد ذلك خلع على جماعة من أرباب الدولة من المباشرين ، فخلع على القـاضى علاء الدين الكركى العامرى واستقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، وخلع على القـاضى موفق الدين أبى الفرج واستقر به ناظر الجيوش المنصـورة ووزير الديار المصرية عـلى عادته ، وخلع على القـاضى كريم الدين بن عبـد العزيز واستقر به ناظر الخواص الشريفة ، وخلع على الأمير قرقماس الطشتمرى واسـتقر به استادار العالية ... فثبت قواعد دولته ، وأجرى كل أحد على عادته ، فكان أحق بقول القائل :

تاب الزمـان اليك مما قد جنى
والله يأمـر بالمتـاب ويقبـل
ان كان ماض من زمانك قد مضى
باسـاءة قـد سرك المسـتقبل
هذا بذاك فشفع الثـانى الذى
أرضـاك فيما قد جناه الأول
واليسر بعد العسر موعود به
والنصر بالفرج القريب موكل
والله قـد أولاك أمـر عبـاده
لما ارتضـاك ولاية لا تعـزل
واذا تـولاك الاله بنصـره
وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل

فلما كان يوم الثـلاثاء خامس ربيـع الأول من سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، جلس السلطان فى الميدان الذى تحت القلعة ، وحكم بين الناس على عادته ، ثم بعد مدة أيام قبض على جماعة من الأمراء وهم : يلبغا المنجكى ، وطشبغا السيفى تمر باى ، وصربغا الناصرى ، وتلكتمر المحمـدى ، وعـلى الجركتمرى ، ومنكلى بغا المنجكى . فلما قبـض عليهم قيـدهم وأرسلهم الى السـجن بثغـر الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على القاضى سعد الدين بن البقرى واستقر به وزيرا عوضا عن موفق الدين أبى الفرج ، وخـلع على الصـاحب علم الدين سنبرة واستقر به ناظر الدولة الشريفة ، وكان فى قديم الزمان أن الوزير اذا انفصـل من الوزارة يستقر ناظر الدولة طوعا أو كرها ويلزمه السلطان بذلك .

ثم لما كان يوم الأحد رابع عشر ربيع الأول حضر الى الأبواب الشريفة السيفى كزل مملوك يلبغـا الناصرى ، وصحبته جماعـة من أعيان دمشـق ، فأخبروا بأن منطاش قد ملك مدينة بعلبك ، وقد التف عليـه جماعة من عسكر دمشق ومن عسكر صفد ومن عسكر طرابلس ، والتف عليه جماعـة كثيرة من عربان جبل نابلس ، وقد نهب عدة ضياع من البلاد الشامية ، فأخذ السلطان حذره من ذلك .

وفيها فى يوم الأربعاء سادس عشر ربيـع الأول خلع السلطان على الأمير جمال الدين محمود ابن على الظاهرى ، واستقر به استادار العاليـة وناظر الخواص الشريفة ومشير الدولة ، فتزايدت عظمته الى الغاية ، وخلع السلطان على الأمير علاء الدين ابن الطبلاوى واستقر به والى القاهرة عوضا عن الصـارمى .

وفى يوم الخميس حادى عشرى رجب جاءت الأخبار من حلب بأن منطاش أرسل شخصا يسمى

تمان تمر الأشرفى الى مدينة حلب ، وكان نائب حلب كشبغا الحموى قد ثقل أمره على أهل حلب ، فما صدقوا بهذه الحركة ، فحاصروا نائب حلب أشد المحاصرة وتعصبوا الى منطاش ، فنقبوا القلعة من ثلاثة مواضع ، فصار كمشبغا نائب حلب يقـاتلهم من داخل النقب على البرج ، واستمروا على ذلك نحو ثلاثة أشهر ، فانتصر كمشبغا نائب حلب عـلى تمان تمر الأشرفى الذى ولاه منطاش على حـلب ، فانكسر تمان تمر وولى هاربا .

ثم أن كمشبغا نائب حلب أخذ فى أسباب عمارة ما تهـدم من المدينـة وزاد ، ثم بعد مدة جاءت الأخبار بأن منطاش توجه الى طرابلس ومعه جماعة من العسكر ، فحاصر المدينة حتى ملكها وهرب من كان بها من الأمراء والنائب ، وهرب أكثر أهلها الى دمشق . ثم بعد مدة جاءت الأخبار من دمشق بأن منطاش حاصر دمشق بمن معه من العسكر ، وكان عوام دمشق يميلون الى منطاش ويكرهون الملك الظاهر برقوق ، فاتفقوا مع منطاش بأن يسـلموه المدينة تحت الليل . فلما بلغ ذلك الأمير أيتمش البجاسى ، والأمير يلبغا الناصرى ، والأمير الطنبغا الأشرفى ، ركبوا بعد العشـاء وخرجوا الى ظاهر دمشق وأوقعوا مع منطاش ومع عوام دمشق واقعة عظيمة ، فقتل فى تلك الليلة من الفريقين نحو ألف انسان ، ثم رجع عسكر دمشق الى المدينة .

وفى عقيب هذه الواقعة وثب مماليك الطنبغا الجوبانى نائب الشـام على أستاذهم فقتـلوه ، وهربوا من دمشق وتوجهوا الى منطاش . فلما بلغ السلطان ذلك أرسـل تقليدا الى يلبغـا الناصرى واستقر به نائب الشام عوضا عن الطنبغا الجوبانى . ثم بعـد مدة جاءت الأخبـار بأن الأمـير جبـق الكمشبغاوى خرج من دمشق وقصد التوجه نحو طرابلس ، فأخذه عربان نعير وأحضروه الى منطاش فقتله بين يديه .

ثم بعد مدة جاءت الأخبار بأن منطاش توجه الى نحو عنتاب ، فالتف عليه جماعة كثيرة من التركمان ، فحاصر مدينة عنتاب أشدما يكون من المحاصرة ، فملكها وهرب النائب الذى كان بها . فلمـا دخل الليل جمع نائب عنتاب جماعة كثيرة من التركمان وكبس على منطاش ، فقتل من عسكره نحو مائتى انســان وهرب منطاش نحو الفـرات . فلما بلغ السلطان هذا الخبر انشرح له ونزل الى الرماية فى بركة الحج . ولمـا عاد من الرماية دخل من باب النصر ، وشق من بين القاهرة ، وزينت له ولاقته اليهود والنصارى ومعهم الشموع موقدة .

وفى ذلك اليوم دخل السلطان الى بيت الأمير بطا الداودار الكبير وسلم عليه فانه كان مريضا . ثم أن السلطان طلع الى القلعة وكان له يوم مشهود . فانه من حين أتى من الكرك لم يشق من القـاهرة سوى ذلك اليوم ، فضج الناس له بالدعاء .

وفى هـذه السنه عملت خـوند — أخت الملك الظاهر برقوق — كسوة جليلة للحجرة الشريفة ، وستارة زركش لباب الحجرة الشريفـة ، فشقت بدلك من القاهرة وكان يوما مشهودا . وسبب ذلك أنهـا نذرت لئن عاد أخوها الى السلطنة تكسو الحجرة الشريفة ففعلت ذلك . وفى هذه السنة عزل السلطان الصاحب سعد الدين بن البقرى ، واستقر بالجنـاب الناصرى محمـد بن الحسام الصقرى عوضه فى الوزارة . فلما نزل الى بيته طلب الوزراء المنفصلين ، فلمـا حضروا ، اسـتقر بالصـاحب شمس الـدين المقسى ناظـر الدولـة ، واسـتقر بالصاحب سعد الدين بن البقرى ناظر البيـوتات ومستوفى الدولة ، واستقر بالصاحب موفق الدين أبى الفرج مستوفى الدولة ، فأطلق عليـه وزير

الوزراء ، لأنه كان مستوفى على أرباب الوظائف بالديوان المفرد ... واستمروا على ذلك مدة يسيرة . ثم أن السلطان غضب على الصاحب فخر الدين بن مكانس وضربه علقة قوية ، ثم علقه من رجليه بسرياق ، فأقام وهو منكوس على رأسه نصف نهار ، ثم ان بعض الأمراء شفع فيه فأنزلوه فقال فى هذه الواقعة :

وما تعلقت بالسرياق منتكسا
لزلة أوجبت تعذيب ناسوتى
لكننى مذ نفثت السحر من غزلى
عذبت تعذيب هاروت وماروت

وفى هذه السنة كانت وفاة الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، وكان من أعيان فحول الشعراء وله شعر جيد فى فن البديع ، وله تذكرة لطيفة وعدة مصنفات جليلة غريبة المعانى فى أيام الملك الظاهر برقوق . وكانت وفاة الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة ، وكان أصله مغربيا من تلمساذ ، وكان من أهل الفضل والعلم وله شعر جيد فى فن البديع ، وهو صاحب كتاب السكردان وكتاب ديوان الصبابة ، وله غير ذلك مصنفات كثيرة ، وكان شيخ المدرسة المنجكية التى عند الصوة [1] .

سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة (١٣٩١ م) :

فيها حضر الى الأبواب الشريفة المقر السيفى كمشبغا الحموى نائب حلب ، وأخبر السلطان بأن أكثر التركمان والعربان خامروا وخرجوا عن الطاعة والتفوا على منطاش . فلما سمع السلطان ذلك اجتمع بالأمراء وضربوا مشورة فى أمر منطاش .

وفيها طلب السلطان الأمير حسين بن باكيش نائب غزة ، فلما حضر بين يديه عراه وضربه بالمقارع ثمانين شيبيا . وكان ابن باكيش هذا وقع منه فى حق السلطان — لما خرج من الكرك — أمور عظيمة ، وجمع له العربان ، وحاربه أشد المحاربة حتى كاد السلطان أن ينكسر ، فبقى عند السلطان هذا الكمين حتى اقتص منه ، فكان كما قيل :

وقد يرجى لجرح السيف برء
ولا يرجى لما جرح اللسان

وفيها حضر الأمير أيتمش البجاسى من الشام هو وجماعة من الأمراء ، وكانوا توجهوا الى الشام بسبب منطاش ، فبلغ السلطان أنهم كانوا متعاملين على الفساد مع منطاش ، فلما حضروا قيد منهم جماعة ونفاهم الى ثغر الاسكندرية .

وفيها جاءت الأخبار بأن منطاش قد ملك حماه وحمص وبعلبك ولم يشوش على أحد من أهلها ، فمال اليه الرعية وصاروا يسلمونه المدن من غير قتال . ثم أن منطاش توجه الى الشام وحاصر المدينة ، فخرج اليه نائب الشام ، فهرب منطاش الى جبل بقرب من طرابلس ، فتبعه نائب الشام ، فجاء منطاش من وراء ذلك الجبل وجاء الى دمشق فلم يجد بها أحدا من الأمراء ولا النائب ، ففتح له عوام دمشق باب كيسان الصغير ، فدخل منه الى المدينة ونهب الأسواق وأخذ أموال التجار ، وكبس على الاصطبلات التى بالشام وأخذ منها نحو مائة فرس ، والتف عليه جماعة من عسكر دمشق فقويت شوكته وراج أمره . فلما بلغ السلطان ذلك نادى للعسكر بالعرض ، وقوى عزمه على الخروج الى منطاش ، وعلق من يومه الجاليش ثم عرض العسكر وأنفق عليهم فى يومه .

فلما كان يوم الاثنين ثانى عشر من شهر شعبان ، خرج السلطان وتوجه الى نحو الريدانية فى موكب

(1) فى شذرات الذهب ان الصفدى توفى بدمشق فى شوال سنة ٧٦٤ ، وان ابن أبى حجلة توفى فى مستهل ذى الحجة سنة ٧٧٦

عظيم ، وطلب طلبا عظيما ، وخرج معه أمير المؤمنين المتوكل والقضاة الأربعة وسائر الأمراء . فلما استقر بالريدانية طلب الأمير حسين بن باكيش نائب غزة — وكان مسجونا بخزانة شمايل — فلما حضر بين يديه أمر بتوسيطه ، وأحضر جماعة من الأمراء كانوا فى خزانة شمايل من عصبة منطاش فأمر بتوسيطهم ، فهلكوا أجمعون .

ثم ان السلطان جعل المقر السيفى كمشبغا الحموى نائب الغيبة بمصر الى أن يعود اليها السلطان . وكان كمشبغا الحموى — من حين حضر من حلب — مقيما بالديار المصرية ، وكان الملك الظاهر يميل اليه دون غيره من سائر الأمراء ، فاختاره بأن يكون نائب الغيبة الى أن يعود السلطان الى مصر . ورسم السلطان للمقر السيفى سودون الفخرى نائب السلطنة بأن يقيم فى القلعة الى أن يعود السلطان . ورسم للأمير بجاس النوروزى بالاقامة فى الايوان الذى بالقلعة وترك عنده ستمائة مملوك ، وترك بالقاهرة من الأمراء : المقر السيفى قطلوبغا الصفوى حاجب الحجاب ، والأمير تنجاص السودونى . وترك بالقاهرة من الأمراء العشراوات والحجاب نحو عشرين اميرا

ثم ان السلطان رحل من الريدانية وقصد التوجه الى الشام . فلما رحل السلطان عن القاهرة عرض نائب الغيبة أولاد الناس أجناد الحلقة وعين منهم نحو مائتى انسان بأن يتوجهوا نحو الصعيد ، ويقيموا عند الكاشف بسبب فساد العربان ، ثم بعد مدة أيام حضر الأمير سودون الطيار على خيل البريد وعلى يده مثالات شريفة الى الأمراء الذين بالقاهرة ، فكان من مضمونها أن السلطان لما وصل الى الشام هرب منطاش من وجهه الى بلاد التركمان .فلما سمع الأمراء بذلك دقوا الكئوسات ونادوا بالزينة ، فزينت القاهرة سبعة أيام ...

قيل لما دخل السلطان الى دمشق خاف أهل دمشق وهموا بالهرب من المدينة . وقد تقدم أن أهل دمشق لما خرج الملك الظاهر برقوق من الكرك ودخل الى الشام رجموه وأخرجوه من الشام هاربا على وجهه ، ونهبوا بركه وقماشه كما تقدم . فلما أن دخل اليهم هذه المرة ، وبلغه أنهم خائفون منه ، نادى لهم بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن الماضى لا يعاد ، ونحن أولاد اليوم ... فضج أهل دمشق له بالدعاء ، وسكن ما كان عندهم من الاضطراب .

ثم ان السلطان أقام فى دمشق أياما وتوجه الى حلب . فلما خرج من دمشق جاء نعير بن حيار أمير آل فضل ونهب ضياع دمشق — وكان نعير عاصيا على السلطان وهو ملتف على منطاش — وأخرب غالب البلاد الشامية ونهب ضياعها ، فلما بلغ نائب الشام مجىء نعير خرج اليه وأوقع معه واقعة قوية فى مكان يسمى الكسوة ، فانكسر نائب الشام وقتل من عسكر دمشق نحو خمسة عشر أميرا ، ثم رجع نعير الى بلاده ، ورجع نائب الشام الى دمشق .

ثم بعد مدة جاءت الأخبار من حلب بأن السلطان قد قبض على يلبغا الناصرى وعلى جماعة من الأمراء وسجنهم بقلعة حلب ثم قتلهم عن آخرهم وكانوا نحو ثلاثة وعشرين أميرا . وكان سبب ذلك أن الأمير سالم الدوكارى أمير التركمان أرسل يعرف السلطان بأن يلبغا الناصرى أرسل اليه كتابا وهو يقول فيه : « خذ منطاش واهرب به الى بلاد الروم ، فانه ما دام منطاش موجودا فنحن موجودون » ...

ثم ان الأمير سالم الدوكارى أرسل كتاب يلبغا الناصرى على يد قاصده ، فلما تحقق السلطان

صحة ذلك طلب الأمراء ، فلما حضروا قرا عليهم كتاب يلبغا الناصرى الذى أرسله الى الأمير سالم الدوكارى . ثم ان السلطان وبخ يلبغا الناصرى بالكلام فى ذلك المجلس ، فلم ينطق بحجة وانعقد لسانه عن الكلام ، فنعوذ بالله من زلة العقل كما قيل :

وانى رأيت المرء يشقى بعقله

كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

ثم ان السلطان قبض على يلبغا الناصرى وعلى جماعة من الأمراء وسجنهم بقلعة حلب ، ثم أمر بقتلهم فقتلوا .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان استقر بالأمير بطا الدوادار نائب الشام ، واستقر بالأمير جلبان الكمشبغاوى نائب حلب ، واستقر بالأمير اياس الجرجاوى نائب طرابلس ، واستقر بالأمير قرا دمرداش المحمدى نائب حماه ، واستقر بالأمير أبى يزيد دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير بطا .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان خرج من حلب وهو قاصد نحو الديار المصرية ، وقد أنفق على هذه التجريدة جملة مال ولم يظفر بمنطاش .

وفى هذه السنة توفى الشيخ شهاب الدين بن النقيب وكان من أعيان العلماء ، وتوفى الشيخ بهاء الدين السبكى أخو الشيخ تاج الدين ، وتوفى الشيخ جمال الدين الاسنوى ، وتوفى الشيخ شهاب الدين بن حبيب ، وتوفى ابن رافع ، وتوفى الشيخ عماد الدين الحسبانى وكان من أعيان العلماء بمصر رحمهم الله تعالى أجمعين .

سنة اربع وتسعين وسبعمائة (١٣٩٢ م) :

فيهـا فى ثانى عشر المحرم حضر الى الأبواب الشريفة الأمير بهادار الشهابى — مقدم المماليك السلطانية — وصحبته حريم السلطان ، فان السلطان كان قد تزوج فى دمشق بنت الأمير على بن أستدمر نائب الشام ، وأخبر بأن السلطان خرج من غزة .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل الى بلبيس، فحرج الأمراء الى تلقيه ، ونادوا فى القاهرة بالزينة . فلما كان يوم الخميس سابع عشر المحرم وصل السلطان وطلع الى القلعة من بين الترب ولم يشق من المدينة ، ففرشت له الشقق الحرير من قبة النصر الى رأس الصوة ، وحملت على رأسه القبة والطير ، ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب ، فطلع الى القلعة فى موكب عظيم وكان له يوم مشهود .

ثم ان السلطان عمل الموكب ، وخلع على الجناب الركنى عمر بن قايماز — وهو صاحب الحوض والسبيل خارج الحسينية — واستقر به وزيرا بالديار المصرية عوضا عن الناصرى محمد بن الحسام الصقرى بحكم وفاته .

وخلع السلطان على الجناب الناصرى محمد ابن الأمير جمال الدين محمود الاستادار واستقر به نائب ثغر الاسكندرية .

وفيها تزوج السلطان بينت الشهابى أحمد بن الطولونى معلم المعلمين ، وهو جد الزينى حسن .

وفيها جاءت الأخبار بأن الأمير بطا الذى تولى نائب الشام قد انتقل بالوفاة الى رحمة الله تعالى ، فخلع السلطان على الأمير سودون الطرنطاى واستقر به نائب الشام عوضا عنه .

وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن جماعة من المماليك — نحو خمسة عشر مملوكا — هجموا على باب قلعة دمشق وقت الظهر ، وتوجهوا الى نحو السجن الذى بها وأخرجوا من كان به من المحابيس الذين من عصبة منطاش ، وكانوا نحو مائة مملوك . فلما أخرجوا هؤلاء المحابيس قويت شوكتهم ، فهجموا على نائب القلعة فقتلوه وملكوا

القلعة . فلما بلغ ذلك من كان بدمشق من العسكر لبسوا آله الحرب وركبوا وحاصروا من بالقلعة ، وأقاموا على ذلك ثلاثة أيام ، فقتل من عسكر الشام جماعة كثيرة . ثم بعد ذلك هجم عسكر دمشق على باب القلعة وأحرقوه ، ودخلوا الى القلعة ، ثم قبضوا على المماليك كلهم ووسطوهم تحت باب القلعة .

وفيها فى يوم الاثنين حادى عشر جمادى الأولى طلع الأمير جمال الدين محمود الاستادار الى القلعة على جارى العادة . فلما نزل من القلعة رجمه المماليك الذين بالطباق فهرب منهم ، فسحبوه الى الرميلة وضربوه بالدبابيس ، وضربوا القاضى سعد الدين بن تاج الدين موسى ناظر الخواص الشريفة . فلما بلغ الأمير أيتمش البجاسى ذلك ركب هو ومماليكه ، وردوا المماليك عنهم ، وأدخلهم الى بيته وأغلق عليهم الباب ، فأقاموا عنده الى آخر النهار ، فأرسل معهم مماليكه حتى أوصلوهم الى بيوتهم ، فأقاموا فى بيوتهم مدة لم يركبوا حتى اصطلحوا مع المماليك .

وفيها خلع السلطان على القاضى تاج الدين بن أبى شاكر واستقر به وزيرا عوضا عن عمر بن قايماز

وفيها فى العشرين من شعبان توعك جسد السلطان ، وأقام مدة وهو منقطع فى الحريم ، ثم حصل له الشفاء فخرج الى الخدمة ، ونودى فى القاهرة بالزينة فزينت سبعة أيام .

وفيها جاءت الأخبار بأن نائب الشام سودون الطرنطاى قد انتقل بالوفاة الى رحمة الله تعالى ، فخلع السلطان على المقر السيفى كمشبغا الأشرفى الخاصكى أمير مجلس ، واستقر به نائب الشام عوضا عن سودون .

وفيها تغير خاطر السلطان على جماعة من الأمراء ، فقبض عليهم وسجنهم فى أبراج القلعة ، ثم أمر بخنقهم فخنقوا تحت الليل ودفنوا .

وفيها فى شوال عمل السلطان الموكب ، وخلع على المقر السيفى بكلمش العلائى واستقر به أمير سلاح ، وخلع على المقر السيفى شيخ الصفوى واستقر به أمير مجلس ، وكان الأمير شيخ من مماليك الظاهر برقوق .

وفيها فى العشرين من شوال عمل السلطان الموكب ، وخلع على المقر السيفى ثانى بك اليحياوى واستقر به أمير اخور كبير عوضا عن بكلمش العلائى ، وخلع على قاضى القضاة جمال الدين العنبرى الحنفى واستقر به ناظر الجيوش المنصورة مضافا لما بيده من قضاء الحنفية ومشيخة الخانقاه الشيخونية ، وهذا لم يتفق لأحد قبله من الأعيان فيما تقدم .

وفيها جاءت الأخبار بأن منطاش حضر الى حلب مع جماعة من التركمان فحاصر المدينة ، فخرج اليه عسكر حلب وأوقعوا معه واقعة فكسروه ورجع هاربا الى الفرات . ثم حضر قاصد نعير على يده كتاب من عند نعير ، فكان مضمونه أنه أرسل يطلب من السلطان أربع بلاد وهو يلتزم بمسك منطاش ، فقال السلطان للأمير ابى يزيد الدوادار : « اكتب له كتابا ، عن لسانك ، أنك ان أمسكت منطاشا نعطيك جميع ماطلبته وزيادة على ذلك » ... فأرسل اليه الأمير أبو يزيد الدوادار بذلك .

وفى هذه السنة كانت وفاة الشيخ عماد الدين ابن كثير المؤرخ صاحب كتاب البداية ، وتوفى الشيخ سراج الدين الهندى شارح البديعية ، وتوفى الشيخ شهاب الدين الأوزاعى ، وتوفى القاضى أبو البقاء السبكى الشافعى .

وفيها فى ذى الحجة توفى الصاحب فخر الدين بن مكانس القبطى صاحب الأشعار اللطيفة ، تولى عدة وظائف بمصر .

سنة خمس وتسعين وسبعمائة (١٣٩٣ م) :

فيها خلع السلطان على الشيخ صدر الدين المناورى ، وولاه قاضى القضاة الشافعية بالديار المصرية عوضا عن قاضى القضاة عماد الدين الكركى .

وفيها خلع السلطان على المقر السيفى تنم الحسنى واستقر به نائب الشام عوضا عن كمشبغا الأشرفى بحكم وفاته .

وفيها جاءت الأخبار من حلب بأن منطاش ونعيرا توجهوا بمن معهم من العساكر الى مدينة حماه ، فخرج اليهم نائب حماه فأوقع معهم واقعة قوية ، فانكسر نائب حماه وهرب ، فدخل منطاش ونعير الى المدينة ونهبوا أسواقها وأخذوا أموال التجار . فلما بلغ نائب حلب ذلك ركب هو وعساكر حلب ، وكبس على بلاد نعير ونهب أمواله وأخذ أولاده ونساءه وأحرق بيوته وقتل من عربانه ما لا يحصى عدده .

وفيها خلع السلطان على المقر السيفى قلمطاى العثمانى واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير أبى يزيد بحكم وفاته .

وفيها مرض السلطان مرضا شديدا حتى أشرف على الموت وأرجفت القاهرة بموته من شدة قهره من منطاش ، ثم شفى وركب وشق القاهرة فزينت له وكان له يوم مشهود وموكب عظيم .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة مملوك نائب حلب وأخبر بأن نعيرا قبض على منطاش وسلمه الى نائب حلب ، فكان — كما يقال — « سيف السلطان طويل » . وقد قيل فى المعنى :

قالت : ترقب عيون الحى ، ان لها
عينا عليك اذا ما نمت لم تنم

وكان سبب امساك منطاش أن نعير بن جبار أرسل يطلب من نائب حلب أولاده ونساءه الذين أسرهم كما تقدم ، فأرسل نائب حلب يقول له : « ما أطلق لك أولادك ونساءك حتى تسلمنا منطاش » ... وكان منطاش قد تزوج من بنات نعير واستنسل منهم . فلما رأى نعير أن السلطان ونائب حلب عليه ، وقد نهبوا أمواله ومواشيه ، وأسروا أولاده ونساءه ، قصد أن يرضى السلطان بامساك منطاش حتى يزول ما عنده مما جرى منه فى حق السلطان كما تقدم .

ثم ان نعيرا ندب الى منطاش أربعة عبيد غلاظ شداد ، فلما أتوا اليه أحس بالشر ، وكان راكبا على هجين ، فنزل عنه وركب على فرس ، فأمسك بعض العبيد لجام الفرس وقال له : « كلم الأمير نعيرا » . فقال منطاش : « وايش يعمل بى نعير ؟ ؟ » ... فتكاثر عليه العبيد وأنزلوه عن فرسه وأخذوا سيفه منه ، فقال لهم منطاش : « دعولى حتى أبول » ... فقصد الى جانب حائط ، وكان فى تكته خنجر فشق به بطنه ، فغشى عليه ، فحمله العبيد وأتوا به الى نعير ، فقيده وأرسله الى نائب حلب ، وأرسل معه جماعة من العربان حتى أسلمه الى نائب حلب ، وكان له يوم مشهود . فتسلمه نائب حلب وسجنه بالقلعة ، وكتب بذلك محضرا وأرسله الى السلطان فلما تحقق السلطان صحة هذا الخبر خلع على القاصد خلعة عظيمة ، ودقت الكؤسات ، وزينت له القاهرة سبعة أيام ، ونسى السلطان — لما ظفر بمنطاش — ما قاساه من التعب ومن القهر ومن المال الذى صرفه على التجاريد ؛ فكان كما قيل فى المعنى :

اذا ظفرت من الدنيا بقربكم
فكل ذنب جناه الدهر مغفور

ثم ان السلطان عين الأمير طولو بن على شاه الى حلب ليحضر منطاش . فلما وصل الى حلب تسلم منطاش وجعل يعاقبه ويعصره ويقرره على الأموال التى غصبها من البلاد فلم يقر بشيء . ودخل عليه النزع فقطع الأمير طولو رأسه ووضعها فى علبة ، ثم خرج من حلب وجعل يطوف برأس منطاش فى كل مدينة يدخلها حتى وصل الى القاهرة ، فكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت المدينة زينة عظيمة ، فشقوا برأس منطاش فى القاهرة ، ثم طلعوا بها الى القلعة . فرسم السلطان بأن تعلق على باب زويلة ، فعلقت ثلاثة أيام ثم دفنت وقلعت الزينة ، وانقضى أمر منطاش . وقد هنى السلطان بعض الشعراء بهذين البيتين فقال :

كأن فجاج الأرض يمناك ان يسر
بها خائف تجمع عليه الأنامل
فأين يفر المرء منك بجرمه
اذا كان تطوى فى يديك المراحل

ثم ان السلطان أرسل الى نعير خلعة وأقره على عادته أمير آل فضل ، فما صدق الناس بأن فتنة منطاش قد خمدت عنهم حتى استؤنفت لهم فتنة أخرى ، وما هى الا أنه فى عقيب ذلك حضر طواشى رومى يسمى صفى الدين جوهر ، أرسله صاحب ماردين فأخبر بأن تمرلنك قد أخذ تبريز ، ثم حضر عقيب ذلك قاصد صاحب بسطام فأخبر بأن تمرلنك قد أخذ شيراز ، ثم حضر قاصد نائب الرحبة وأخبر بأن القان أحمد بن أويس صاحب بغداد قد وصل الى الرحبة وهو هارب من تمرلنك ، وقد احتاط على غالب بلاده وملكها .

وكان سبب أخذ تمرلنك بلاد القان أحمد بن أويس أن تمرلنك أرسل الى القان أحمد كتابا يترفق له فيه ويقول له : « أنا ما جئتك محاربا ، وانما جئتك خاطبا أتزوج بأختك وأزوجك بنتى » ... ففرح القان أحمد بذلك ، وظن أن هذا الكلام صحيح ، فكان كما قيل فى المعنى :

لا تركنن الى الخريف فماؤه
مستوخم وهواؤه خطاف
يمشى مع الأجسام مشى صديقها
ومن الصديق على الصديق يخاف

وكان القان أحمد استعد لقتال تمرلنك وجمع له العساكر ، فلما أتى اليه قاصد تمرلنك بهذا الخبر ثنى عزمه عن القتال ، واستعاد من العسكر الذين قد جمعهم ما أعطاهم من آلة القتال ، وصرف همته عن القتال ، فلم يشعر الا وقد دهمته عساكر تمرلنك من كل مكان ، فضاق بهم رحب الفضاء ، فخرج اليهم القان أحمد بمن بقى معه من العساكر... فبينما القان يقع مع عسكر تمرلنك اذ فتح أهل بغداد بقية أبواب المدينة وقد خافوا على أنفسهم مما جرى عليهم من هلاكو فى أيام الخليفة المستعصم بالله .

فلما رأى تمرلنك أبواب المدينة مفتحة دخل الى المدينة وملكها ولم يجد من يرده عنها . فلما بلغ القان أحمد ذلك ما أمكنه الا الهرب ، فأتى الى جسر هناك فعدى من فوقه ثم قطعه ، فلما بلغ عسكر تمرلنك ذلك تتبعوا القان أحمد وخاضوا خلفه الماء فهرب منهم ، فتتبعوه مسيرة ثلاثة أيام ، فلما حصلت له هذه الكسرة قصد التوجه الى نحو الديار المصرية .

ثم حضر قاصد نائب حلب وأخبر بأن القان أحمد بن أويس قد وصل الى حلب ، فلما تحقق

السلطان صحة هذا الخبر جمع الأمراء واستشارهم فيما يكون من أمر القان أحمد ، فوقع الاتفاق من الأمراء على أن السلطان يرسل اليه الاقامات ويلاقيه ، فعند ذلك عين السلطان الأمير أزدمر الساقى — وصحبته الاقامات وما يحتاج اليه القان أحمد من مال وقماش وغير ذلك — فخرج الأمير أزدمر على جياد الخيل .

ثم فى عقيب ذلك حضر الى الأبواب الشريفة قاصد أبى يزيد بن مراد بك بن عثمان ملك الروم على يده تقادم عظيمة للسلطان . وكان سبب مجىء قاصد ابن عثمان أنه أرسل يخبر السلطان بأمر تمرلنك ويحذره عن الغفلة فى أمره ، وأرسل يطلب من السلطان حكيما حاذقا فى صنعة الطب ، وأدوية توافق مرضه الذى كان يشكو به ، فانه كان يشكو بضربان المفاصل . فلما وقف السلطان على مطالعة ابن عثمان ، وعلم ما فيها ، عين له الرئيس شمس الدين بن صغير ، وأرسل صحبته حملين من الأدوية التى توافق مرضه ، وأرسل اليه هدية عظيمة على يد قاصد من عند السلطان ، فتوجهوا الى ابن عثمان .

ثم فى عقب ذلك حضر قاصد صاحب ماردين وأخبر بأن تمرلنك ملك بلاد الأكراد وأخبر بأن الملك محمود شاه — أستاذ تمرلنك — قد توجه الى نحو البصرة وحاصر أهلها ، فجمع صاحب البصرة جماعة كثيرة من العساكر والعربان والتقى مع عساكر الملك محمود شاه ، فكان بينهما واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، فقتل بها الملك محمود شاه أستاذ تمرلنك ، وأسر بها ابن تمرلنك ، فأرسل تمرلنك يطلب من صاحب البصرة الأمان ، وأنه يطلق اليه ولده ومن عنده من الأسرى ، فأرسل صاحب البصرة يقول له : « ما أطلق ولدك ولا الأسرى الذين عندى حتى تطلق ابن القان أحمد بن أويس الذى عندك وجميع من عندك من الأسرى » ... فلما سمع تمرلنك هذا الجواب حنق منه وأرسل عسكرا ثقيلا وحاصر البصرة ، فلم يقدر عليها ، وقتل من عسكره ما لا يحصى عدده ، ودخل عليه الشتاء فرجع الى بلاده ليجمع العساكر ويرجع الى حصار البصرة . فلما تواترت الأخبار بذلك رسم السلطان للأمير علاء الدين بن الطبلاوى والى القاهرة بأن ينادى فى القاهرة للعسكر بالعرض فى الميدان بسبب تمرلنك الخارجى ، وجعل يكرر هذه المناداة ثلاثة أيام متوالية بألا يتأخر عن العرض لا كبير ولا صغير ، وعلق الجاليش ، فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وما صدق العسكر بأن فتنة منطاش قد خمدت فانتشت لهم هذه الفتنة العظيمة ، فكان كما قيل فى المعنى :

وثقيل ما برحنا ... تتمنى البعد عنه
غاب عنا ففرحنا ... جاءنا أثقل منه

وفى هذه السنة توفى من الأعيان عبد الرحمن أبو تاشفين صاحب تلمسان ملك الغرب وتولى من بعده أخوه محمد ، وتوفى قاضى القضاة ناصر الدين الكنانى العسقلانى الحنبلى وتولى بعده القاضى موفق الدين الحجازى المقدسى الحنبلى ، وتوفى قاضى القضاة شهاب الدين الزهرى الشافعى ، وتوفى الصاحب شمس الدين المقسى وزير الديار المصرية وناظر الخواص الشريفة ودفن فى جامعه الذى أنشأه فى باب البحر المطل على الخليج الناصرى ، وتوفى الشيخ سراج الدين ابن الملقن والقاضى أبو البقاء السبكى وغير ذلك من الأعيان .

سنة ست وتسعين وسبعمائة (١٣٩٤ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن القان أحمد بن أويس قد وصل الى غزة ، فأرسل السلطان لملاقاته . ثم

ان القان أحمد وصل الى الريدانية فى يوم الثلاثاء سابع ربيع الأول سنة ست وتسعين ، فنزل السلطان من القلعة ، وخـرج الى تلقيه . فلما وقعت عين السلطان على القان أحمد بن أويس ، ترجل له عن فرسه ، وترجل القان أحمد أيضا . ثم ان السلطان أتى بقباء حرير بنفسجى مغرى بفاقم بطرز ذهب عريض فألبسه للقان أحمد ، وأحضر اليـه فرسا بسرج ذهب وكنبوش فأركبه اياه ، وركب السلطان ومشى القان أحمد عن يمينه ، وطلعا من بين الترب فلما وصلا الى رأس الصوة صوب السلطان وثنى عنان فرسه ، فنزلت الأمراء مع القان أحمد الى بيت الأمير طقزدمر المطل على بركة الفيل ، فنزل به ونزل معه الأمراء ، فمد له السلطان هناك سماطا عظيما ، فأكل وأكلت معه الأمراء ، ثم قام الأمراء وتوجهوا الى بيوتهم ، وقام القان أحمد ودخل الى البيت .

ثم ان السلطان أرسل الى القان أحمد تقدمة عظيمة ، وهى طوالة خيـل خاص بسروج ذهب وكنابيش ، وعشرون مملوكا صغارا ، وعشرون جارية أبكارا ، ومائتا تفصيلة اسكندرانية ، وخمسة آلاف دينار برسم النفقة .

ثم بعد أيام جاءت الأخبار من نائب حلب بأن جاليش تمرلنك قد وصل الى الرها . فلما تحقق السلطان ذلك عرض العسـكر باللبس الكامل فى الميدان بحضرة القان أحمد ، فصار السلطان يعطى كل من عرضه من المماليك النفقة — وهى دون المائة دينار — فامتنعوا عن الأخـذ ... فصار السلطان يعطى النفقة من يده للمماليك ، فأخذوا النفقة على كره منهم . ثم ان السـلطان بعث النفقة للأمراء المقدمين وغيرهم .

فلما كان يوم الأحد سابع ربيع الآخر برزت خيام السلطان الى الريدانية .

فلما كان يوم الخميس عاشر ربيع الآخر رتب السلطان الطلب ونزل من القلعة ، فجد الطلب من باب الميدان الذى تحت القلعة ، وصار السلطان يرتب الطلب بنفسه ويسوق فى الرميلة ذهابا وايابا حتى انتهى الطلب الى آخره ، وكان ما اشتمل عليه الطلب مائتى فرس ملبسة بركستوانات حرير ومخمل ملون وكجاوتين زركش . فلما تكامل خروج الطلب ، خرج بعده السلطان والقان أحمد ابن أويس صحبته ، والخليفة محـمد المتوكل ، والقضاة الأربعة وسائر الأمراء من كبير وصغير ثم ان السلطان رسم للعسكر بأن يخرجوا وهم لابسون آلة الحرب .

وقد قيل لما تجهز السلطان للسفر طلب تجار الكارم ، فحضر المحلى والخروبى وابن مسـلم ، فاستقرض السلطان منهم مائتى ألف دينار وكتب عليه بذلك مسطورا ، وضمن فيه الأمير محمود الاستادار .

وسار السـلطان فى ذلك الموكب العظيم حتى وصل الى الريدانية ، فنزل بالمخيم الشريف . ولما نزل من القلعة توجه الى الريدانية من بين الترب ، فلما خرج طلب السلطان ترادفت من بعده أطلاب الأمراء فى الخروج ، فما زالوا يتسحبون الى الظهر حتى انتهـوا عن آخرهم . فلما استقر السـلطان بالمخيم الشريف قبض هناك على الصاحب سـعد الدين بن البقرى وعلى ولده القاضى تاج الدين . ثم ان السلطان خلع على الجناب الناصرى محمد بن رجب بن كلبك واستقر به وزيرا عوضا عن سعد الدين بن البقـرى . ثم ان السـلطان رحـل من الريدانية ، وصحبته القان أحمد بن أويس وسائر الأمراء ، وجد فى السير حتى وصل الى دمشق فى

يوم الاثنين ثانى عشرى ربيع الآخر . فلما دخلها نزل بالقصر الأبلق الذى فى الميـــدان ، وحكم بين الناس ، وأقام بالشـــام أياما ثم رحل منها وتوجه الى حلب .

فلما أقام بحلب حضر اليه قاصد من عنـــد ابن عثمان وعلى يده مطالعات مضمونها أن يكون هو والســـلطان عونة واحدة على دفع العدو البـــاغى تمرلنك ، فأجابه السلطان الى ذلك ورد له الجواب عن ذلك بما يطيب به خاطره .

ثم حضر اليه قاصد طقتمش خان صاحب بسطام وعلى يده مطالعات تتضمن ما قاله ابن عثمـــان ، فأجابه السلطان كما أجاب ابن عثمان .

فلما أقام السلطان بحلب بلغه أن جاليش عسكر تمرلنك قد وصل الى البيرة ، فصار جمـــاعة من عسكر السلطان يعدون تحت الليـــل من الفرات ويكبسون عليهم ، فغنموا من عسكر تمرلنك أشياء كثيرة ، فقيل ان عسكر مصر كانوا ينفخون القرب ويجعلونها تحت بطون الخيل ويعدون من الفرات تحت الليـــل حتى يقعوا مع عسكر تمرلنك ، وفى ذلك يقول القائل :

ولمـــا ترامينا الفرات بخيلنا
سكرنا نهارا بالقوى والقوائم
فأوقفت التيار عن جريانه
الى حيث عدنا بالغنى والغنائم

ثم بلغ السلطان أن تمرلنك رجع الى بلاده . فلما تحقق السلطان ذلك قصد الرجوع الى نحو الديار المصرية ، وكذلك القان أحمد بن أويس رجع الى بلاده . ولم يقع بين تمرلنك وبين الملك الظـــاهر برقوق قتال فى هذه المرة ، بل رجع كل من الفريقين الى بلاده .

ثم ان السلطان رجع الى الشام فأقام بها أياما ، وخلع على المقر الســـيفى تغرى بردى بن يشبغا واستقر به نائب حلب ، ونقل الأمير أرغون شاه من نيابة صفد الى طرابلس ، وخلع على الأمير أقبغا الجمالى واستقر به نائب صفد عوضا عن أرغون شاه ، وخلع على الأمير دقماق المحمدى واستقر به نائب ملطية ، وخلع على الأمير مقبل كاور واستقر به نائب طرسوس ، وخلع على الأمير منكلى بغـــا الأشبغاوى واســـتقر به نائب الرها ، وخلع على الأمير طفنجى واستقر به نائب قلعة المسلمين .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن ابن أبى السباع صاحب تونس قد توفى الى رحمة الله تعالى واستقر ولده أبو فارس عبد العزيز — ويعرف بعزوز — عوضه فى مملكة تونس . وتوفى أبو العباس أحمـــد بن أبى سالم صاحب مدينة فاس ، وتوفى أبو الحجاج يوسف المعروف بابن الأحمر صاحب بلاد الأندلس وتولى من بعده ابنه أبو عبد الله محمد الأندلسى . وكان ابن الأحمر ملك الأندلس هذا شاعرا ماهرا وله شعر جيد فى البديع ، فمن ذلك قوله مخاطبا لمحبوبته حمدونة الأندلسية :

ايا ربة الخال التى أذهبت نسكى
على أى حال كان لا بد لى منك
فاما بـــذلّ وهو آليق بالهـــوى
واما بعـــزّ وهو أليـــق بالملك

وفى هذه السنة توفى أبو العباس أحمد صاحب بلاد قسطنطينية الهواء ببلاد المغرب . وفيها توفى القاضى محيى الدين يحيى بن فضل الله كاتب السر الشريف بالديار المصرية وتولى من بعده القاضى بدر الدين أبو الثناء محمود الكلستانى الحنفى ، وتوفى الصـــاحب موفق الدين أبو الفرج ، وتوفى الرئيس علاء الدين بن صفير رئيس الأطباء ، توفى

عند رجوعه من بلاد ابن عثمان ، وقد تقـدم أن السلطان أرسله الى ابن عثمان ليطبه .

سنة سبع وتسعين وسبعمائة (١٣٩٥ م) :

فيهـا حضر الى الديار المصرية مملوك الأمير جمال الدين محمود الاستادار وأخبر بأن السلطان خرج من دمشق .

وفى هذه السنة كان مولد شيخ الاسلام الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائى الحنفى ، ولد فى هذه السنة .

وقد توجه السلطان الى زيارة بيت المقدس ، ثم جاءت الأخبار بعد ذلك بأن السلطان قد وصل الى الصالحية راجعا .

فلما كان يوم الثلاثاء ثالث عشر صفر وصل الى القاهرة ودخلهـا فى موكب عظيم ، وشق من بين الترب ، وفرشت له الشقق الحرير الملون من قبة النصر الى القلعة ، وحملت على رأسه القبة والطير ، ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب ، وضج الناس له بالدعاء ... وكان قـدامه الخليفة محمد المتوكل والقضـاة الأربعـة وسـائر الأمراء من الأكابر والأصاغر . فلما طلع الى القلعة خلع على أرباب الوظائف من المباشرين وغيرهم .

وفى هذه السنة ، فى يوم السبت سادس شوال الموافق آخر يوم من أبيب من الشهور القبطية ، زاد الله فى النيل المبارك أربعين أصبعا فى يوم واحد ، ثم فى ثانى يوم — وهو أول يوم من مسرى — زاد الله فى النيل المبارك اثنين وستين اصبعا ، وذلك ذراعان ونصف وأصبعان ، فبقى عليه من الوفاء ذراعان . ثم فى يوم الوفاء الموافق لثالث يوم مـن مسرى زاد الله فى النيل المبـارك خمسين أصبعا فأوفى وزاد أصبعين ، فكانت جملة مازاده فى أربعة أيام سبعة أذرع ونصف ذراع وأصبعين ، وكان الوفاء فى ثالث يوم من مسرى . وهذه الزيادة لم يعهد مثلها فيما تقدم من السنين الخالية ، ولا سمع بمثل ذلك ، وفى ذلك يقول الشاعر :

النيل زاد جورا بحكمـه المطـاع
يعمـل فى الرعايا بالبـاع والذراع

وقال آخر فى المعنى :

النيل أفرط فيضا بفيضـه المتتـابع
فصـار مما دهانا حديثنا بالأصـابع

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من مكة بأن أمير مكة الشريف على بن عجلان قد قتل والذين قتلوه من أقاربه . وفيهـا كثر الموت بالديار المصـرية ، ومات للسلطان ولدان وهما سيدى محمد وسيدى قاسم . وفيها توفى قاضى القضاة ناصر الدين محمد ابن الميلق الشافعى ، وتوفى الشـيخ زين الدين أبو بكـر الموصـلى الواسطى ، وتوفى الشـيخ غياث الدين العاقولى — وكان زين الدين الموصلى من أعيان الصوفية — وفيها كانت وفاة المقر البدر ابن فضل الله كاتب السر الشريف وأخيه حمزة بعد شهر واحد ، وفيهما يقول عويس العالية :

قضـى البدر بن فضـل الله نحبا
ومات أخوه حمـزة بعد شـهر
فـلا تعجب لذى الأجـلين يوما
فحمـزة مـات حقا بعـد بدر

سنة ثمان وتسعين وسبعمائة (١٣٩٦ م) :

فيها فى يوم السبت سـادس صفر تغير خاطـر السلطان على الأمير جمال الدين محمود الاستادار ، فأرسل اليه طواشى يسمى شاهين الحسنى الجمدار ، فأخذ ولده الأمير محمدا وأخذ نساءه وسراريه ، وطلع بهم الى القلعـة ، فسجن الأمير محمـدا فى البرج ، ورسموا على النسـاء ، فاختفى الأمـير محمـود . ثم ان القـاضى سـعد الدين ابراهيم

ابن غراب وكيل بيت المال نزل الى بيت الأمير محمود — هو والأمير على باى الخازندار — فاحتاطوا على موجود الأمير محمود ، فظهر له فى أول يوم فى مكان عقد تحت سلم مائة ألف دينار وخمسون ألف دينار .

فلما كان يوم الاثنين ثامن صفر خلع السلطان على الأمير قطلو بك العلائى واستقر به استادارا عوضا عن الأمير محمود بن على الظاهرى ، وخلع على القاضى بدر الدين بن غراب واستقر به ناظر الديوان الشريف المفرد ، وخلع على الأمير مبارك شاه واستقر به وزيرا عوضا عن الناصرى محمد ابن رجب بن كلبك .

ثم ان السلطان اشتد غضبه على الأمير محمد ابن الأمير محمود الاستادار فسلمه الى الأمير علاء الدين بن الطبلاوى والى القاهرة ، فعاقبه أشد عقاب ، وقرره على الأموال ... فعند ذلك اتسع الخرق على الراقع ، وثخنت جراحات الأمير جمال الدين محمود ، وكثرت فيه المرافعات من الناس ، كما قيل فى المعنى :

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت
ويبتلى الله بعض الناس بالنعم

ثم ظهر للأمير جمال الدين مكان خلف مدرسته التى فى القربيين ، فوجد فيه سبعة أزيار كبار وزلعتان فيهما فضة ودراهم نقرة ، ووجد له فى ذلك المكان جرتان كبيرتان فيهما ذهب عين ، ثم قبضوا على بوابه موسى وعصروه فأقر على مكان بالاسكندرية فى مخزن حمار ، فأرسل اليه من حفر فى ذلك المكان فوجدوا فيه ستة وثلاثين ألف دينار نقدا ، ووجدوا له فى مكان آخر بالاسكندرية مائتى ألف دينار ، وفى مكان آخر بالاسكندرية أيضا ثلاثين ألف دينار ذهبا ... فأحضروا ذلك جميعه الى الخزائن الشريفة على يد الطواشى زين الدين صندل المنجكى الخازندار ، فأودع ذلك بالخزائن الشريفة . وقد قال القائل فى المعنى :

رأيت الدرهم المضروب أضحى
كلص ما له أبدا أمانه
ألم تر كل انسان حريصا
يحصله ويرميه الخزانه ؟

ووجد له عند مملوك لأجنبى ثلاثون ألف دينار ، ووجد له عند مملوكه شاهين أربعون ألف دينار ، ووجد له عند امامه سراج الدين ثلاثون ألف دينار ، ووجد له عند قاضى القضاة ولى الدين ابن خلدون المالكى عشرون ألف دينار ، ووجد له عند فراشه شقير زير كبير فيه سبعون ألف دينار ، ووجد له عند بابسره فى مكان بكلتان نحاس فيهما ثلاثة وستون ألف دينار ، ووجد له فى سطح مدرسته التى فى القربيين خمس قدور فيها نحو خمسين ألف دينار ، ووجد له فى مكان عند الجامع الأزهر زير كبير فيه مائة وسبعة وثلاثون ألف دينار ، ووجد له مكان عند البرقية عند جارية سوداء زير كبير فيه مائة ألف دينار ، وثلاث برالى فيها لؤلؤ كبير وفصوص مختلفة الألوان ... فتسلم ذلك جميعه الزينى سندل المنجكى الخازندار ، فكان كما قيل :

قد يجمع المال غير آكله
ويأكل المال غير من جمعه
ويقطع الثوب غير لابسه
ويلبس الثوب غير من قطعه

ووجد له عند شخص اسكافى بقج فيها طرز زركش وحوائص ذهب وكنابيش زركش ما يعلم عدد ذلك ، ووجد له فى مكان عند حارة بنى سيس خلف بيته زلعة فيها ذهب عين ، جملة ذلك مائة ألف دينار وثمانية وثلاثون ألف دينار ، ومن الفضة

الدراهم زلعتان ... هذا كله خارج عما وجد له من القماش والفرش والخيول والبرك وغير ذلك من حلى نسائه وسراريه ، وغير ما وجد له من الأملاك والضياع والمراكب والمعاصر والجوارى والعبيد والمماليك والطواشية وغير ذلك ، وقد ضاع له عند الناس أضعاف ذلك . ووجد له من الغلال فى الشون ما لا يحصى من المغل ... وهذا الموجود يقارب موجود الصاحب علم الدين بن زنبور .

ثم ان بعض الناس قبض على الأمير محمود من مكانه من كوم الجارح وأحضره الى السلطان ، فلما مثل بين يديه رسم بتسليمه هو وولده محمد الى شاد الدواوين ، فسجنهما بخزانة شمايل ، فزالت عنه الدنيا كأنها لم تكن . وقيل فى المعنى :

وان امرأ دنياه أكبر همه
لمستمسك منها بحبل غرور

وفى هذه السنة وقع الغلاء العظيم بمصر ، فرسم السلطان بأن يعمل فى كل يوم عشرون اردبا من الدقيق خبزا ويفرق على الفقراء والمساكين وفى الزوايا . فلما اشتد الأمر بذلك توجه شيخ الاسلام سراج الدين البلقينى الى الجامع الأزهر ، واجتمع من الخلائق ما لا يحصى ، ودعوا الله تعالى فى كشف ذلك عن الناس ... وقد اجتمع الغلاء والفناء فى تلك السنة .

وفى أواخر هذه السنة حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند قرا يوسف بن قرا محمد ، وحضر صحبته شخص من التتر قيل انه من قرابة تمرلنك ، وذكروا أن تمرلنك لما رحل جعله نائبا عنه بالرها ، فنزل فى بعض الأيام ليتصيد ، فسمع به قرا يوسف ، فركب مع جماعة من التركمان فقبض عليه وهو سكران وقيده وأرسله الى السلطان ، فلما مثل بين يديه أمر بسجنه فى خزانة شمايل .

وفيها خلع على الصاحب سعد الدين بن البقرى واستقر به وزيرا عوضا عن مبارك شاه ، وخلع على القاضى بدر الدين بن الطوخى واستقر به ناظر النظار .

وفى هذه السنة كانت وفاة المقر السيفى سودون الفخرى الشيخونى نائب السلطنة بالديار المصرية ، وتوفى الصاحب محمد بن رجب بن كلبك ، وغير ذلك جماعة من الأعيان والعلماء .

سنة تسع وتسعين وسبعمائة (١٣٩٧ م) :

فيها حضر قاصد من عند تمرلنك يطلب أطلمش الذى كان قد أمسكه قرا يوسف كما تقدم ، فأرسل السلطان يقول لتمرلنك : « ما أطلق لك أطلمش حتى تطلق أنت من عندك من النواب ومن الأسرى الذين أسرتهم من البلاد » ... فعاد الجواب الى تمرلنك بذلك .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة المقر السيفى تنم الحسنى نائب الشام . فلما بلغ السلطان وصوله الى الريدانية نزل السلطان من القلعة ولاقاه وخلع عليه وأنزله بالميدان الكبير الذى عند الناصرية ، فقدم نائب الشام الى السلطان عشرة مماليك جراكسة ، وعشر جوار ، وعشرة آلاف دينار ، ومصحفا شريفا مكتوبا بالذهب ، ونمجاه مسقطة بالذهب ومرصعة بفصوص ياقوت وفيروز ، وأربعة كنابيش زركش ، وأربعة سروج ذهب ، وأربع بدلات ذهب زنة كل بدلة أربعمائة مثقال شغل المعلم بهرام ، وعشرة كواهى برسم الصيد ، ومائة وخمسين حملا ما بين سمور ووشق وسنجاب وقاقم وقرضيات ، وأثواب صوف ملون ، ومائة فرس خاص ، وخمسين بغلة ، وخمسين جملا ، وعشرين حمل أثواب بعلبكى ، وثلاثين حمل فاكهة

وحلوى شاميه ، وعشرين حمل مخللات ، وحملين علب سكر نبات حموى ، وحملين سواقة فى علب كبار ، وغير ذلك أشياء كثيرة .

ثم ان السلطان عدى الى بر الجيزة وعزم نائب الشام ، ثم توجه الى بلاده على عادته .

وفى هـذه السنة حضر قاصـد صاحب اليمن ــ وهو الملك الأشرف محمد بن الفضل ــ وحضر صحبته القاضى برهان الدين المحلى التاجر الكارمى وأحضرا صحبتهما هدية عظيمة للسلطان لم يسمع بمثلها على أنواع مختلفة ، فخلع السـلطان على قاصد ملك اليمن وأكرمه غاية الاكرام .

وفى هذه السنة خلع السلطان على القاضى تقى الدين الزبيرى واستقر به قاضى القضاة الشافعية بالديار المصرية ، عوضا عن القـاضى صدر الدين المناوى الشافعى .

وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن عوام دمشق قتلوا شحصا من الناس يقال له ابن النشو ، ولما قتلوه أحرقوه بالنار ، وكان سبب ذلك أن هـذا الشخص كان يشترى الغـلال فى أيام الرخص ويخزنها حتى تتشحط المدينـة من الغلال فيبيعها بأغلى ثمن ، فتحملت منه الناس وتعاونوا على قتله فقتلوه وأحرقوه ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

وفيها خلع السلطان على الأمير يلبغا الأحمدى المعروف بالمجنون واستقر به استادارا عوضا عن قطلو بك العلائى .

وفيها جاءت الأخبـار من حلب بأن جاليش تمرلنك قد وصل الى أطراف بلاد الروم وأخـذ مدينة تسمى أرزنكان ، وقتل أهلها ونهب ما فيها . فلما سمع السلطان ذلك أرسل الى سائر النواب بأن يتوجهوا الى شاطىء الفرات ويحصنوا البلاد ، فخرج سائر النواب الى شاطىء الفرات وأقاموا هناك .

وفيها حصل للسلطان توعك فى جسده ، وأقام منقطعا فى الحريم أياما لم يعمل الموكب ، ثم عوفى بعد ذلك ودخل الحمام ، ثم ركب من بعد ذلك وشق القاهرة وزينت له ففرحت الناس بعافيته . فلما طلع الى القلعة انتكس من يومه وضعف أكثر ما كان أولا ، وكثر فى القاهرة القيل والقال بين الناس ، فأقام على ذلك أياما ثم عوفى وركب وتوجه الى سرياقوس ، ثم انه رجع الى القلعة .

وفيها توفى سيدى اسماعيل ابن السلطان حسن ، وتوفى الصاحب سـعد الدين بن البقرى ، وتوفى قاضى القضاة جمال الدين القيصرى الحنفى ، وتوفى قاضى القضـاة شمس الدين الطرابلسى الحنفى ، وتوفى السيد الشريف الأخلاطى الحنفى ، وتوفى الأمير جمـال الدين محمود بن على الظاهرى الاستادار كان ، وقد تقدم أن السلطان سجنه هو وولده محمد فى خزانة شمايل ، فاستمر مقيما بها الى أن مات فغسـل وكفن وصلى عليه ودفن فى مدرسته التى أنشأها خارج باب زويلة ، وقد قاسى من الشدائد ما لا خير فيه ، وآخر الأمر ذهب ماله ومات وهو فى السجن ولم يوجد له ثمن كفن ، حتى ان بعض مماليكه أخرجه من عنده ، فكان كما قيل فى المعنى :

أف لدنيـانا وأفعـالها فانهـا للهم مخـلوقه
همومها لا تنقضى ساعة عن ملك فيها ولا سوقه
واعجبا منها ومن فعلها عدوة للناس معشـوقة

سـنة ثمانمائة من الهجـرة (اولهـا ٢٤ سبتمبر ١٣٩٧ م) :

وانقضى قرن السبعمائة وقد جـرى فيه من الحوادث ما تقدم ذكره . وقد ورد فى الأخبار : «على رأس كل قرن فتنة» ... وهذا حديث صحيح .

فيها رسم السلطان باحضار السيفى المقر تغرى بردى بن يشبغا نائب حلب ، فتوجه لاحضاره أخو الأمير بكتمر جلق .

ومن الحوادث فيها أن السلطان تغير خاطره على الأتابكى كشبغا الحموى ، وعلى المقر السيفى بكلمش العلائى أمير سلاح ، فقيدهما فى يوم واحد وأرسلهما الى السجن بثغر الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل موكبا وخلع على المقر السيفى أيتمش البجاسى واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضا عن كمشبغا الحموى ، وأنعم على الأمير نوروز الحافظى بتقدمة ألف . ثم حضر المقر السيفى تغرى بردى بن يشبغا نائب حلب ، فلما حضر أنزله السلطان فى بيت الأمير طاز الذى عند حمام الفارقانى ، ثم عمل بعد أيام الموكب وخلع على جماعة من الأمراء ، وهم المقر السيفى تغرى بردى بن يشبغا نائب حلب واستقر به أمير سلاح عوضا عن الأمير بكلمش العلائى ، وخلع على الأمير أقبغا اللكاش واستقر به أمير مجلس عوضا عن الأمير شيخ الصفوى ، وخلع على الأمير نوروز الحافظى واستقر به أمير أخور كبير ، وخلع على الأمير بيبرس قريب السلطان واستقر به دوادار كبير ... فلبس هؤلاء الأمراء كلهم فى يوم واحد . وأنعم السلطان على مملوكه على باى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير يشبك الشعبانى بتقدمة ألف ، وأنعم على جماعة بامريات أربعين وامريات عشرة .

وفيها خلع السلطان على الأمير بيقجاه طيفور الشرفى واستقر به نائب غزة عوضا عن الأمير أحمد ابن الشيخ على ، ونقل الأمير أحمد بن الشيخ على الى نيابة صفد ، ونقل نائب صفد الى نيابة طرابلس .

وفيها أرسل السلطان خلف القاضى جمال الدين الملطى من حلب ، فلما حضر الملطى خلع عليه واستقر به قاضى القضاة الحنفية بالديار المصرية عوضا عن القاضى شمس الدين الطرابلسى الحنفى بحكم وفاته . ثم بعد مدة عمل السلطان الموكب وخلع على مملوكه على باى — ويدعى المايات — واستقر به رأس نوبة النوب .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن السلطان تغير خاطره على الأمير علاء الدين بن الطبلاوى والى القاهرة ، فقبض عليه وعلى أخيه وابن عمه وجميع أصحابه وحاشيته وغلمانه وأودعهم فى الترسيم بالقلعة . فلما كان يوم السبت طلع جماعة من العوام الى الرميلة ومعهم مصاحف وأعلام فوقفوا واستغاثوا فأرسل اليهم السلطان وجاقا ، وقال لهم : « ما شأنكم ؟ » ... فقالوا : « نسأل السلطان فى أن يفرج عن الأمير علاء الدين بن الطبلاوى الوالى » ... فلما سمع السلطان ذلك حنق على العوام ، وأرسل اليهم جماعة من المماليك فشتتوهم من الرميلة .

واستمر علاء الدين بن الطبلاوى فى الترسيم ، ثم قال : « ان لى كلاما سرا ما أقوله الا فى أذن السلطان » ... فلم يوافق السلطان على ذلك . ورسم للأمير يلبغا الأحمدى الاستادار بأن يتسلم ابن الطبلاوى ويستخلص منه الأموال . فلما أراد أن ينزل به من القلعة قعد ابن الطبلاوى على باب الزردخانة وأخرج من وسطه خنجرا صغيرا وشق به بطن نفسه ، فأمسك الناس يده فلم يؤثر فيه ذلك ، فلما بلغ السلطان هذه الواقعة تحقق أن ابن الطبلاوى ما كان يريد القرب من السلطان الا ليضربه بذلك الخنجر ، فاشتد عليه غضبه وأمر يلبغا الأحمدى بأن يعاقبه ، فنزل به الى بيته وعاقبه وعصره بالمعاصير فى أكعابه ، وسقاه الجير بالملح ، وضربه بالكسارات ، وأذاقه ما كان يفعله بالناس .

وقد قيل فى المعنى :

جرع كأسا كان يسقى بها والمرء مجزى بأعماله

فظهر له من المال فى مكان ستون ألف دينار ، وفى مكان عشرون ألف دينار . ثم ان يلبغا الأحمدى احتاط على موجوده جميعه فباعوه بمائة ألف دينار ، فلم يكتفوا بذلك وعاقبوه ثانيا وألبسوه خودة حديد محمية بالنار ، فأقر أن له عند ابن عمه مائتى ألف درهم فضة نقرة ، وأقر بأن له عند أخيه مثل ذلك . ثم أقر بأن له عند قريبه تقى الدين الخطيب خمسين ألف دينار ، وعند دواداره على بن عمر عشرة آلاف دينار ... فحمل ذلك جميعه الى الخزائن السلطانية ، وذهب ما كان جمعه ابن الطبلاوى من حلال وحرام ، وبقى عليه اثم ذلك ، فذهبت عنه الدنيا والآخرة ، وقد قيل فى المعنى :

النار آخر دينار نطقت به
والهم آخر هذا الدرهم الجارى
والمرء ما دام مشغوفا بحبهما
معذب القلب بين الهم والنار

ثم ان السلطان رسم بسجن علاء الدين بن الطبلاوى فى خزانة شمايل فسجن بها .

وفى هذه السنة وقع الرخاء بمصر حتى بيع كل اربعه ارطال خبز بدرهم ، ولا أحد يشتريه .

ومن الوقائع اللطيفة أنه فى يوم السبت ثانى عشر ذى القعدة لعب السلطان بالكرة والصولجان مع الأتابكى أيتمش البجاسى فى الحوش السلطانى ، فغلب السلطان المقر الأتابكى أيتمش ، فقال له السلطان : « جاء عليك يوم بالقفيرى » فأراد الأتابكى أيتمش أن يعمل وليمة من ماله ، فقال له السلطان : « أنا أقوم عنك بذلك من مالى » ... فضرب خيمة كبيرة مدورة وعدة صواوين فى الميدان الذى تحت القلعة ، وأرسل خلف سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر ، ورسم للوزير وناظر الخاص بأن يتكلفوا بأمر ذلك المهم ، فعمل فيه من اللحم الضأن عشرين ألف رطل ، ومن الأوز مائتى زوج ، ومن الدجاج ألف طير ، ومن الحيول للذبح عشرين فرسا ، ومن السكر ثلاثين قنطارا ، ومن الفاكهة مائتى علبة ، ومن الحلوى مائتى مجمع ، ومن الزبيب برسم الأقسمة ثلاثين قنطارا ، ومن الدقيق ستين أردبا برسم البوزة ... فعملت البوزة والشش فى أدنان ، وأحضر السلطان مغانى البلد جميعها والأوزان .

ثم ان السلطان صلى الصبح ونزل الى الميدان ، ورسم بألا يمنعوا أحدا من الدخول الى الميدان . فلما تكاثر الناس فى الميدان أشار بعض الأمراء على السلطان بأن يمد السماط الى القلعة ، فمد السماط وأكل هؤلاء والأمراء ، ثم خلع على الوزير وناظر الخاص ، ثم ركب وطلع الى القلعة من وقته ... وكان قصد السلطان أن يقيم فى الميدان الى آخر النهار ويجتمع هناك أرباب الملاهى والملاعب ، فما تم له ذلك . فلما ركب وطلع الى القلعة تكاثر العوام ودخلوا الى الميدان ونهبوا الدنان البوزة والشش ، وحصل فى ذلك اليوم بعض اضطراب بسبب ذلك . وقال بعض الشعراء :

سلطان مصر دام فضل علائه
قد عمنا بالفضل والاحسان
لم أنس يوم السبت حسن مهمه
قد كان يوما جاء بالسلطان

ومن الحوادث فى هذه السنة أنه فى يوم الأحد تاسع عشر ذى القعدة كان وفاء النيل المبارك ، فنزل السلطان من القلعة وتوجه الى المقياس ليخلق العمود ويكسر السد على العادة . فلما دخل الى المقياس وخلق العمود ونزل الى الحراقة لتكسير السد ، جاء اليه مملوك من خشداشينه من مماليك الأتابكى يلبغا العمرى يقال له سودون الأعور —

وكان ساكنا فى البيوت التى بأعلى الكبش — فجاء الى السلطان وأسر اليه حديثا فى أذنه ، فكان مضمون ذلك أنه قال له : « رأيت فى بيت الأمير على باى الذى تحت الكبش مماليك لابسة آلة الحرب ، وقد دخلوا تحت بوائك الخيل وستروا على البوائك بانخاخ حتى لا يراهم أحد » ... وكان هذا البيت محل سكن على باى .

فلما سمع السلطان ذلك أنكره . وكان الأمير على باى من مماليك السلطان الخواص وقد رقاه حتى جعله رأس نوبة النوب . وكان الأمير على باى قبل هذه الواقعة انقطع فى بيته أياما وأظهر أنه مريض ، وظن أن السلطان اذا رجع من كسر السد يدخل يسلم عليه ، فاذا دخل يسلم عليه تخرج تلك المماليك من تحت البوائك التى سترها بالأنخاخ فيقتلون السلطان . وظن أن هذه الحيلة تصعد من يده ، فكان تدميره فى تدبيره كما قيل فى الأمثال :

وان من حارب من لا يقوى
لحربه ، جر اليه البلوى
فحارب الأكفاء والأقرانا
فالمرء لا يحارب السلطانا

ثم ان السلطان أرسل الأمير أرسطاى أحد رءوس النوب الى بيت الأمير على باى ليكشف له الخبر عن صحة ذلك ، فتوجه الأمير أرسطاى الى بيت الأمير على باى ، وأعلم جماعته بأن السلطان اذا رجع من السد يدخل يسلم على الأمير على باى .

فلما فتح السلطان السد ورجع توجه الى بيت الأمير على باى . فلما أراد أن يدخل الى بيته نادته امرأة من أعلى البيوت التى فى الكبش وقالت له : « لا تدخل له » ... وقد قيل ان تلك المرأة رمت على السلطان — لما أراد أن يدخل الى بيت على باى — قلة ، فلما شال السلطان وجهه اليها قالت له لا تدخل اليه ، فثنى السلطان عنان فرسه ومضى ، فأشار عليه بعض الأمراء بأن ينقل فى مشيه ، فنقل وساق هو والأمراء ، فتقنطر فى ذلك اليوم الأمير فارس حاجب الحجاب والأمير بيبرس الدوادار الكبير ثم ركبا . فلما تحقق على باى رجوع السلطان الى القلعة خرج من بيته ومماليكه — وكانوا نحو أربعين مملوكا — فساقوا خلف السلطان الى الرميلة .

وكان من جملة سعد السلطان لما مضى من بيت على باى أنه ساق وطلع الى الرميلة فوجد باب السلسلة مفتوحا ، فطلع منه هو والأمراء ثم أغلقوه خلفهم . فلما جلس فى المقعد الذى فى الاسطبل السلطانى طلع على باى خلفه الى الرميلة ، فوقف فى سوق الخيل هو ومماليكه ساعة ، فنزل اليه جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ، فأوقعوا معه واقعة قوية ، فقتل فيها من المماليك السلطانية خاصكى يقال له بيسق المصارع ، وجرح فيها جماعة كثيرة من المماليك السلطانية .

فلما رأى على باى عين الغلب هرب وانكسر ، وكان معه الأمير يلبغا الأحمدى الاستادار . فلما هرب على باى قبضوا على يلبغا الأحمدى وطلعوا به الى باب السلسلة ، فأراد المماليك السلطانية قتله فمنعهم السلطان من ذلك ، ثم قيدوه ورموه فى البرج .

ثم ان مماليك السلطان مسكوا مملوكا من مماليك على باى — وهو شاد الشربخاناه عنده — كان يقاتل فى ذلك اليوم قتالا شديدا ، فلما قبضوا عليه وأحضروه بين يدى السلطان أمر بقتله فقتلوه قدام السلطان بالسيوف .

فلما انكسر على باى وهرب من الرميلة نهب العوام بيته الذى تحت الكبش ، وأخذوا جميع

بركه وقماشه حتى أخـذوا رخام بيتـه وأبوابه ونهبوا بيوت حاشيته وغلمانه . فلما دخل الليل ظهر الأمير على باى فى مستوقد حمام بالقرب من بيته ، فأتى اليه الأمير بيبرس الدوادار الـكبير وقبض عليه وطلع به الى القلعة ، فأمر السلطان بسجنه .

وكان سبب ركوب على باى على السلطان أن مملوكا من مماليكه أفسد جارية من جوارى الأمير اقباى الطرنطاى وكان سـاكنا بجوار بيت على باى . فلمـا علم الأمير أقباى بذلك قبض على مملوك الأمير على باى وضربه أربعمائة عصـا . فلما بلغ الأمير على باى ذلك تعصب لمملوكه وطلع الى القلعة واشتكى الأمير أقباى الى السلطان ، فلم يلتفت السلطان الى كلام على باى ، فحنق من السلطان وقال أنا آخذ ثارى بيدى ، ثم انقطع على باى فى بيته أياما وأظهر أنه مريض ، وأضمر فى نفسه أن السلطان اذا سمع أنه مريض يدخل يسلم عليه ، فاذا دخل اليه يقتله وتصعد هـذه الحيلة من يده ... فكان الأمر بخـلاف ذلك ، وخانه المراد ، وجنى عليه الاجتهاد .

فلما ركب على باى وجرى منه ما جرى قبضوا عليه ، فلما طلعوا به الى القلعة سجنه السلطان ، ثم طلبه فى قاعة البحرة وخلا به وقال له : « من ألجأك الى هذا الذى قد فعلته ؟ » ... فقـال : « ما ألجأنى أحد لذلك ، ولـكن فعلت ذلك من قهرى منك حيث لم تأخذ بثأرى من أقباى » .

ثم ان السلطان أحضر اليه المعـاصير وعصره بحضرته ، وقرره ان كان لأحد من الأمراء خبرة فى ذلك ، فبرأ سائر الأمراء ، فصار السلطان يعصر على باى فى كل يوم مرتين ويقرره فلم يقر بشىء ، فتزايد حنق السلطان عليه فضربه بكازفولاد كان فى يده فخسف به صدر على باى فمات من وقته ، فغسـلوه وكفنوه ودفنوه تحت الليـل وانقضى أمره ، وصار ذلك مثلا بين الناس يقولون : « زلة على باى » فكان كما قيل فى المعنى :

واذا كانت النفوس كبـارا
تعبت فى مرادها الأجسـام

ثم ان السلطان أفرج عن الأمير يلبغا الأحمدى استادار ونزل الى بيته ، وخلع على الأمير أرسطاى ابن خجا على واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن على باى ، وخمدت هذه الفتنة عن الناس .

فلما كان يوم الاثنين وقت الظهر ماجت الرميلة ولبس المماليك آلة الحرب ووقفوا فى الرميلة ، فغلقوا باب السلسلة وأشاعوا بين الناس أن الامير أقبغا اللكاش والأمير يلبغا الأحمدى الاستادار قد ركبا على السلطان ... وليس لهذا الكلام صحة .

وكان سبب هـذه الفتنـة أن بعض المماليك السلطانية رأى مملوكا من مماليك على باى فساق خلفه وتبعه وسيفه مسـلول ، فظن النـاس أن العسكر قد ركب على السلطان ، فلبس المماليك آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة ، وأشـاع العوام بأن يلبغا الأحمدى وأقبغا اللكاش قد ركبا على السلطان . ثم ان يلبغا الأحمدى وأقبغا اللكاش طلعا الى القلعة وقالا للسلطان : « يا خوند ، هذا كذب العوام ، فالسلطان لا يصدق فينا كلام » . ثم ان السلطان قبض على يلبغا الأحمدى وأرسله الى ثغر دمياط ، وخلع على الناصرى محمد بن سنقر البجكاوى واستقر به استادارا عوضا عن يلبغا الأحمدى .

وفى أثناء هذه الواقعة قبض السـلطان على سبع أنفس من جماعة على باى ورسـم للوالى بأن يسمرهم ، فسمروا وطافوا بهم فى القاهرة على الجمال ، وكان فيهم شخص عجمى يسمى رمضان ، وكان على باى يقول له يا أبى ، وفيهـم مملوك

آقبغا الفيل كان أغات على باى ، فوسطوا الجميع عند بركة الكلاب .

وفى هـذه السنة توفى القاضى برهان الدين صـاحب سـيواس ، وتوفى الأمير جـالى بك اليحياوى أمير آخور كبير ، وتوفى الأمير قلمطاى العثمانى ، وتوفى القـاضى أمين الدين الحمصى كاتب السر بالشام ، وتوفى القاضى تاج الدين بن الشهيد ، وتوفى القاضى نجم الدين بن الطميدى محتسب القاهرة ، وغير ذلك من الأعيان .

سنة احدى وثمانمائة (١٣٩٨/١٣٩٩ م) :

فيها ، فى يوم السبت ثالث عشر صـفر ، نزل السـلطان الى الاصطبل السـلطانى وحكم بين النـاس . وكان ، من حـين جرى من على باى ما جرى ، لم ينزل الى الاصطبل ولم يحكم به .

فلما نزل فى ذلك اليوم تغير خاطره على الأمير نوروز الحافظى أمير آخور كبير ، فقبض عليـه وسجنه بقاعة الفضة المطلة شبابيكها على الايوان . وكان سبب تغير خاطر السلطان على الأمير نوروز الحافظى ما قيل من أنه نقل عنه كلام أنه اتفق مع جماعة من المماليك على قتل السلطان ، فلما تحقق السـلطان ذلك بادر وقبض على الأمـير نوروز الحافظى أمير آخور كبير ، فقبض عليـه وسجنه بقاعة الفضة ، وقيده وأرسله الى السـجن بثغر الاسكندرية ، ونفى معه جمـاعة من الخاصكية ممن كان من عصبته .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على الأمير سودون قريب السلطان واستقر به أمير آخور كبير عوضا عن نوروز الحافظى ، وخلع على الأمـير آرغون شاه الأقبغاوى واسـتقر به أمير مجلس عوضا عن أقبغا اللكاش ، وخلع على أقبغا اللكاش واستقر به نائب الكرك ورسم له بأن يخرج اليها . فلما خرج من القاهرة ووصـل الى غزة أرسـل السلطان فقبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بقلعة الصلبية .

ثم ان السلطان أنعم على الأمير تمراز الناصرى بتقدمة ألف .

وفيها جاءت الأخبار بأن نائب حلب أرغون شاه الابراهيمى قد توفى الى رحمة الله تعالى ، فرسم السلطان للأمير أقبغا الجمالى نائب طرابلس بأن ينتقل الى نيابة حلب عوضا عن أرغون شـاه ، فتوجه الى تقليده الأمير اينال باى بن قجمـاس قريب السلطان ، وأرسل تقليدا الى الأمير يونس المطـاوى الظـاهرى بأن يكون نائب طرابلس ، وأرسل تقليدا الى الأمير دمرداش المحمدى بأن يكون نائب حماه على يد الأمير شيخ المحمودى ، وأرسل تقليدا الى الأمير سـودون الظريف بأن يكون نائب الكرك .

وفى هـذه السنة نادى السـلطان للناس بأن يحجوا رجبيا ، وكان ذلك قد بطل من سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة ، فرسـم باعادته على جارى العادة .

وفى هذه السنة أنعم السلطان على جماعة من الخاصكية بامريات عشراوات ، منهم تغرى بردى الجلبانى ، ومنكلى بغا الناصرى ، وبكتمر جلق الناصرى ، وأحمد بن قطينة . وأنعم على جماعة بامريات أربعين ، منهم بسباى بن باكى ، وتمر بغا بن باشـاه ، وشاهين بن اسـلام ، وجوبان العثمانى ، وجكم العوضى .

وفى هذه السنة قبض السلطان على الصاحب بدر الدين بن الطوخى ، وخلع على الأمـير تاج الدين عبد الرزاق والى قطيا واسـتقر به وزيرا عوضا عن ابن الطوخى .

وفيها رسم السلطان بالافراج عن الأمير يلبغا

الأحمدى الاستادار وأعيد الى وظيفنه كما كان أولا .

وفيهـا خلع السلطان على القـاضى فتح الله واسـتقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية عوضا عن القاضى بدر الدين الكلستانى الحنفى بحكم وفاته . وفيه يقول بعض الشعراء :

فتح الله بعلمو اشتهر فسـبحان من أعطاه
وتبت يد الـكافرين اذا جـاء فتـح الله

وفيها خلع السلطان على الأمير فرج استادار الذخيرة واستقر به نائب ثغر الاسكندرية عوضا عن الأمير صرغتمش المحمدى بحكم وفاته .

وفيهـا ، فى يوم الثلاثاء سـابع عشرى شهر رمضان ، رسم السلطان بالافراج عن الأمير علاء الدين بن الطبلاوى والى القاهرة — وكان له مدة وهو فى السجن بخزانة شمايل كما تقدم—فتجمع وقت خروجه الجم الغفير من الناس ، وأوقدوا له الشموع على الدكاكين ، وتخلق الناس فى ذلك اليوم بالزعفران حتى قيل اشترى الناس فى ذلك اليوم زعفران بعشرين أشرفى . فلمـا خرج ابن الطبلاوى من خزانة شمايل أقام مدة فى بيته ثم رسم له السلطان بأن يتوجه الى الكرك ويقيم بها .

وفيها ، فى يوم الثلاثاء خامس شوال ، لعب السـلطان بالرمح فى الحوش ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ، فلما فرغ من لعب الرمح أكل عسل نحل كخناوى فطاب له فأكل منه كثيرا ، وشرب عقيب ذلك أقسـمة محرفة ، فاسـتحال خلطا صفراويا ، فاشتدت به الحمى فضعف من يومه وثقل فى المرض الى يوم السبت بعـد العصر ، فأشيع بين الناس أنه فى النزع ، فأقام على ذلك الى يوم الأربعاء ثالث عشر شـوال ، فطلع عليه الورشكين ، ثم حصل له الفواق فاضـطربت فى ذلك اليوم القاهرة وضجت ، فركب والى القاهرة ونادى فى المدينـة بالأمان والاطمئنـان والبيع والشراء .

فلما كان يوم الخميس رابع عشر شوال حصل للسلطان افاقة ، فطلب أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضـاة الأربعـة وسـائر الأمراء وأرباب الدولة ، فلما تكامل المجلس عهد السلطان بالملك من بعده الى ولده المقر الزينى فرج ، ثم من بعده الى ولده المقر العزى عبد العزيز ، ثم من بعـده الى ولده المقر الصارمى ابراهيم . ثم ان السلطان كتب فى ذلك المجلس وصية فأوصى فيها لزوجاته وسراريه وخدامه بمال جملته مائتا ألف دينار ، وأوصى بأن تعمر له تربة بثمانين ألف دينـار ، ويشترى لها أوقاف بعشرين ألف دينار ، وأوصى بأن يدفن فى لحد لا فى فسقية ، وأن يكون دفنه بين الفقراء الذين هناك ، وأوصى بأن يكون سائر أملاكه أوقافا على تربته ، وأوصى بأن يكون المقر الأتابكى أيتمش البجاسى وصـيا على أولاده ، وفوض اليه أمر الولاية والعزل . ثم جعـل أمير المؤمنين المتوكل على الله وصـيا على أولاده من بعده ، وجعل المقر السيفى تغرى بردى أمير سلاح وصيا ، والأمير بيبرس الدوادار وصيا ، والأمير يشبك الشعبانى وصيا ، وجعل المقر السيفى تنم الحسنى نائب الشام وصيا . ثم خلع على الأتابكى أيتمش خلعة ، ونزل الى بيته ومعه سائر الأمراء . واستمر السـلطان ملازم الفراش ... قال الأمير صندل المنجكى الخازندار ان السلطان تصدق فى هذه الضعفة فى مدة انقطاعه على الفقراء والعلماء بمائتين وخمسين ألف دينار .

فلما كان ليلة الجمعة خامس عشر شـوال من سنة احدى وثمانمائة توفى السلطان الملك الظاهر برقوق بن أنص العثمانى رحمة الله تعالى عليه ، وكانت وفاته وقت السحر ، فكانت مدة سلطنته

بالديار المصرية والبلاد الشامية الى أن مات على فراشــه ست عشرة ســنة وأربعة أشهر وسبعة وعشرين يوما ، فكانت كما قيل فى المعنى :

ترجو البقاء بدار لا ثبات لها

فهــل سمعت بظل غير منتقــل

وكانت مدة سلطنته الأولى ست سنين وثمانية أشهر الا يوما ، ومدة السلطنة الثانية الى أن مات تسع سنين وثمانية أشهر الا يوما ، ومدة خلعه بين السلطنتين ثمانية أشهر وأياما ، وكانت مدة أتابكيته بمصر أربع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام ، فكانت مدة حكمه بالديار المصرية أتابكا وسلطانا احدى وعشرين سنة وعشرة أشهر وســتة عشر يوما ، وزال ملكه كأن لم يكن ، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير .

ومات الملك الظاهر برقوق وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة ، وخلف من الأولاد ستة : ثلاثة ذكور وهم : سيدى فرج وسيدى عبــد العزيز وسيدى ابراهيم ، وثلاث بنات . وخلف من المال فى الخزائن ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ، وخلف من الخيول اثنى عشر ألف فرس ، ومن الجمال خمسة آلاف جمل ومثلها من البغال .

قال الأمير شهاب الدين بن قطينة : « لما كنت متولى الاستادارية كان عليق الســلطان الظاهــر برقوق فى أيامى فى كل شهر اثنى عشر ألف أردب شعير ، ومن اللحم ستة وعشرين ألف رطل فى كل يوم » .

وبلغت عــدة مماليكه المشتراة ســبعة آلاف مملوك چراكسة خارجا عن أصحــاب الجوامك . وكان كثير البر والصدقات ، فمن ذلك أنه أوقف بلدا فى بر الجيزة على سحابة تطلع فى كل سنة الى الحجاز الشريف برسم الحجاج المنقطعين . وكان له فى كل يوم من شهر رمضان عشرون بقرة تطبخ فى فايزية وتفرق على الحبوس والزوايا وعلى الفقراء ومعها ألف رغيف ، وكان يفــرق فى كل سنة من القمــح سبعة آلاف أردب فى الزوايا والمزارات ، وأبطل فى أيامه مكوسا كثيرة بمصر والشام كانت تحصل مع غاية الضرر ... فأبطل ذلك جميعــه . وعظم أمره حتى خطب باسمه فى أماكن لم يخطب فيها لأحد قبله من الملوك ، فخطب باسمه فى تبريز العجــم وفى الموصل وفى ماردين وفى سنجار وفى دوركى وفى أرض الروم وفى أرزنكان ، وضربت السكة باسمه فى هذه الأماكن .

وأما ما أنشأه فى أيامه من العمــائر فهو جسر الشريعة بالغور ، وجدد بناء خزائن السلاح بثغر الاسكندرية ، وجدد عمــارة زريبة البرزخ بثغر دمياط بعد ما كان قد ظهر منها عظام الشــهداء ، وعمل سورا على مدينــة دمنهور ، وعمر قنــاة العروب بالقدس الشريف ، وجود عمــارة المجراة التى تجرى من بحر النيل الى قلعة الجبل ، وعمر فساقى بطريق المدينة الشريفة عند رأس وادى بنى سالم ، وعمر سور الميدان الذى تحت القلعة بعد ما كان قد خرب ، فرمى بأرضــه أحمــال طين ثم سقاه بماء النيل وزرع فيه القرط فلم يطلع فيه شىء غير النجيل ، وعمر صهريجا كبيرا بالقلعة ، وعمل السبيل والمكتب الذى قــدام دار الضيافة بظاهر القلعة ، وعمر بالقلعــة طاحونا ولم يكن بها قبل ذلك طاحون ، وعمر المدرســة العظيمــة التى بين القصرين والوكالة التى تجاه باب الجوانية ، وله غير ذلك آثار كثيرة بمصر والشام .

وكانت دولته ثابتة القــواعد . فأما قضــاته الشافعية بمصر فالقاضى برهان الدين بن جماعة ، والقاضى ناصر الدين بن الميلــق ، والقاضى بدر الدين بن التقى السبكى ، والقاضى عماد الدين الكركى ، والقاضى صدر الدين المناوى ، والقاضى تقى الدين الزبيرى . وأما قضاته الحنفية فالقاضى

صدر الدين بن منصور ، والقاضي شمس الدين الطرابلسي ، والقاضي مجد الدين الكناني ، والقاضي جمال الدين محمود القيصري ، والقاضي جمال الدين الملطي . وأما قضاته المالكية فالقاضي جمال الدين بن خير ، والقاضي ولي الدين بن خلدون المغربي ، والقاضي شمس الدين الركراكي ، والقاضي شهاب الدين النحريري ، والقاضي ناصر الدين بن التونسي . وأما قضاته الحنابلة فالقاضي ناصر الدين العسقلاني وولده برهان الدين . وأما كتاب سره بالديار المصرية فالقاضي بدر الدين بن فضل الله ، والقاضي علاء الدين الكركي ، والقاضي بدر الدين محمود الكلستاني ، والقاضي فتح الدين فتح الله . وأما نظار جيوشه فالقاضي تقي الدين عبد الرحمن ، والقاضي موفق الدين بن الفرج ، والقاضي جمال الدين القيصري ، والقاضي كريم الدين بن عبد العزيز ، والقاضي شرف الدين ابن الدماميني ، والقاضي سعد الدين بن غراب ، وأما وزراؤه بمصر فالصاحب شمس الدين بن كاتب الأزلان ، والصاحب علم الدين بن القسيس ، والصاحب كريم الدين بن الغنام ، والصاحب موفق الدين أبو الفرج ، والصاحب سعد الدين ابن البقري ، والصاحب ناصر الدين بن الحسام الصفوي ، والصاحب ركن الدين عمر بن قيماز ، والصاحب تاج الدين بن أبي شاكر ، والصاحب ناصر الدين محمد بن كلبك ، والصاحب مبارك شاه الظاهري ، والصاحب بدر الدين بن الطوخي ، والصاحب تاج الدين عبد الرزاق ، والصاحب شهاب الدين أحمد بن قطينة . وأما استاداريا‌ته بمصر فالأمير قرقماس السيفي طشتمر ، والأمير جمال الدين محمود بن علي الظاهري ، والأمير عمر بن قايماز ، والأمير قطلو بك العلائي ، والأمير يلبغا الأحمدي المعروف بالمجنون ، والأمير ناصر الدين محمد بن سنقر البجكاوي ، والأمير بهادر المنجكي ، والأمير يلبغا السالمي . وأما نظار خواصه فالقاضي سعد الدين موسى ، والقاضي سعد الدين ابن البقري ، والقاضي موفق الدين أبو الفرج ، والقاضي سعد الدين بن غراب .

قال المقريزي : « ان الذي أبطله الملك الظاهر برقوق في أيامه من المكوس هو ما كان يؤخذ على الدريس والحلفاء بظاهر باب النصر . وأبطل ما كان مقررا لنائب طرابلس عند توجهه اليها ، وذلك أنه كان يؤخذ ممن يسرح للأمراء نحو العباسة من التجار وأعيان الناس من كل واحد فرس أو جمل أو ثمن ذلك ، وأبطل ما كان يرمى على البلاد من الأبقار عند فراغ الجسور السلطانية ، وأبطل ما كان يؤخذ على معمل الفراريج بناحية النحريرية ، وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط بالديار المصرية والبلاد الشامية » ... واستمر ذلك بطالا الى الآن في صحيفة الملك الظاهر برقوق رحمة الله تعالى عليه .

وقد رثاه الشيخ شمس الدين الزركشي بقصيدة منها :

في باطني للملك الظاهر
حزن سرى مني في سائري
قد صير الندب لنا سنة
عليه من باد ومن حاضر
فبعده للملك يتم غدا
تبكي عليه أعين الناظر
لكن أتانا فرج عاجلا
من بعده بالملك الناصر

الملك الناصر فرج

لما توفى الملك الظاهر برقوق ، نزل من بعـده ابنـه فـرج . وهو الملك النـاصر زين الدين أبو السعادات فرج ، ابن الملك الظاهر برقوق بن أنص العثمـانى ، وهو السـادس والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثانى من ملوك الچراكسة وأولادهم بمصر .

تولى الملك بعهد من أبيه ، وجلس على سرير الملك فى يوم الجمعه خامس عشر شهر شوال سنة احـدى وثمـانمائة ، فبايعه أمير المؤمنين المتوكل بحضرة القضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى الشافعى ، وبحضرة الأتابكى أيتمش البجاسى وسائر الأمراء ، فألبسوه خلعة السلطنة — وهى جبة سوداء بطرز زركش — وركب من الاصطبل السـلطانى ، وطلع من باب سر القصر الكبير والأتابكى أيتمش حامل القبة والطير على رأسه ، فجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض .

وفى حال جلوسه على الكرسى جاء ابن الرداد ببشارة النيل المبارك بما جاءت به القاعدة ، فاستبشر الناس بذلك ، ثم دقت الكئوسات ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء وخطب باسمه فى ذلك اليوم على منابر القاهرة .

قيل ان الملك الناصر فرجا تولى الملك وله من العمر نحو اثنتى عشرة سنة ، وكانت أمـه رومية الجنس تسمى شيرين الطويلة . وفيه يقول بعض الشعراء :

مضى الظاهر السلطان أعظم مالك
الى ربه برقى الى الخلد فى الدرج
وقالوا ستأتى شـدة بعـد موته
فأكذبهم ربى وما جا سـوى فرج

فلما انفض امر الموكب شرع الأمراء فى تجهيز الملك الظاهر برقوق ، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه بالقلعة ، ونزلوا به والأمراء مشاة قدامه ، وكانت جنازته مشهودة بخلاف من يموت من الملوك ، وكثر عليه الأسف والحـزن والبـكاء من الناس حتى وصلوا به الى البقعـة التى اختار الدفـن فيها ، فحفروا له هناك قبرا ودفنوه فيه بين قبور المشايخ والفقراء الذين هناك ، ونصـبوا على قبره خيمة كبيرة ، وأقام القراء يقرءون على قبره ثمانى ليال متوالية ، وكان القـائم بأمر المأتم الأمير يلبغـا الأحمدى الاستادار ، والناصرى محمد بن سنقر البجكاوى استادار الذخيرة .

فلما كان يوم السـبت ثانى يوم موت الملك الظاهر طـلع الأتابكى أيتمش هو والأمراء الى القلعـة ، وعينوا الأمير سودون الناصرى الطيار بأن يتوجه الى تنم الحسنى نائب الشـام بالتعزية بموت الملك الظاهر والبشارة بسلطنة ولده الملك الناصر ، وعينوا الأمير يلبغـا الحافظى الى نائب حمـاه وكذلك الى نائب غـزة وكذلك الى نائب الكرك ، وعينوا الأمير سنبغا الى الأمير نصير شيخ آل فضل ، وأرسلوا اليه خلعـة بأن يكون على عادته .

ولمـا كان يوم الاثنين ثامن عشر شوال عمـل السلطان الموكب فى القصر واجتمع الأمراء ، فلم يطلع الأمير سودون أمير آخور كبير — وكان من قـرابة الملك الظاهـر برقوق — فلما امتنع من الطلوع الى القلعة أرسـل خلفه الأتابكى أيتمش فلم يطلع ، فأرسل خلفه ثانيا فلم يطلع . وكثر القال والقليل بين الناس ، فأرسل الأتابكى أيتمش يقول له انزل من الاصطبل الى بيتك ، فامتنع من ذلك وأرسل الى الأتابكى أيتمش جوابا يابسا ، فحنق منه أيتمش فأرسل اليه جماعة من المماليك فقبضوا

عليه وقيدوه وأرسلوه الى السجن بثغر الاسكندرية ... فهذه كانت أول ما جرى من الحوادث فى دولة الملك الناصر فرج .

ثم ان الأتابكى أيتمش تحول وطلع الى باب السلسلة وسكن به .

ولما كان يوم الخميس حادى عشرى شوال عمل السلطان الموكب وخلع على من يذكر من الأمراء وهم الأتابكى أيتمش البجاسى أتابك العساكر على عادته واستقر أمير آخور كبير أيضا ، وخلع على المقر السيفى تغرى بردى واستقر به أمير سلاح ، وخلع على المقر السيفى أرغون شاه واستقر به أمير مجلس ، وخلع على المقر السيفى أرسطاى واستقر به رأس لوبة النوب ، وخلع على المقر السيفى بيبرس واستقر به دوادارا كبيرا ، وخلع على المقر السيفى فارس واستقر به حاجب الحجاب ، وخلع على الأمير يلبغا الأحمدى واستقر به استادارا على عادته ، وخلع على الصاحب تاج الدين بن أبى شاكر واستقر به وزيرا ، وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف وامريات أربعين وامريات عشرة ، وخلع على الشيخ بدر الدين محمود العينى الحنفى واستقر به محتسب القاهرة عوضا عن تقى الدين المقريزى ، وهذه أول وظائف للعينى بمصر .

وفى ذلك اليوم قبض الأتابكى أيتمش على جماعة من الأمراء وهم : الأمير تمراز الناصرى ، والأمير تمربغا المنجكى ، والأمير طقلجى السيفى يلبغا ، والأمير بلاط السعدى ، والأمير طواو ... فقيدهم وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية . ثم بعد أيام تغير خاطر الأتابكى أيتمش على الأمير يلبغا الأحمدى الاستادار فقبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية .

ثم خلع على الأمير مبارك شاه الظاهرى واستقر به استادارا عوضا عن يلبغا الأحمدى ، فأقام بها مبارك شاه دون الشهر واستعفى منها ، واستقر بها الصاحب تاج الدين بن أبى شاكر فصار وزيرا واستادارا .

وفى أواخر هذه السنة حضر الأمير سودون الطيار — الذى كان قد توجه الى تنم نائب الشام — فأخبر بأن تنم نائب الشام دخل تحت طاعة السلطان الملك الناصر ، وباس له الأرض ، ونادى فى مدينة دمشق بالزينة سبعة أيام ، ودقت له بها البشائر . فلما حضر سودون الطيار بالبشارة خلع عليه السلطان واستقر به أمير آخور كبير . وأنعم على الأمير انال باى من قرابة الملك الظاهر برقوق بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير طاز بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير آقباى الطرنطاوى بتقدمة ألف . ثم خلع على الأمير سودون الماردينى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير أرسطاى ، وخلع على الأمير يلبغا السالمى واستقر به استادارا عوضا عن الصاحب تاج الدين عبد الرزاق ، وخلع على الأمير شهاب الدين أحمد ابن عمر الحسنى بن قطينة واستقر به وزيرا بدلا عن تاج الدين عبد الرزاق .

وفيها جاءت الأخبار من القدس الشريف بأن الأمير علاء الدين بن الطبلاوى قد هرب من القدس وتوجه الى تنم نائب الشام ... وقد تقدم أن الملك الظاهر برقوق نفاه الى الكرك .

وفى أواخر هذه السنة انفصل ابن قطينة من الوزارة واستقر بها القاضى فخر الدين بن غراب .

وفى أواخر هذه السنة جاءت الأخبار من حلب بأن ابن عثمان ملك الروم قد تحرك على بلاد السلطان ، وقد وصل أوائل جاليشه الى بلاد الأبلستين وهو قاصد حلب . فلما بلغ السلطان والأمراء هذا الخبر أمر الأتابكى أيتمش بعقد مجلس بالقصر الكبير ، فحضر أمير المؤمنين المتوكل

والقضاة الأربعــة وشيخ الاســلام سراج الدين البلقيني وسائر الأمراء وضربوا مشورة فى أمــر ابن عثمان ، فوقع الاتفاق على محاربته والخروج اليه ، وأن يؤخذ من أجرة الأملاك شهر واحــد يتقوى بها العسكر على دفع العدو .

ثم بعــد مدة جاءت الأخبار بأن ابن عثمــان وصل الى ملطية وملكها ولم يشوش على أحد من أهلها ، وأمر عسكره بألا ينهبوا لأحد من الرعية شيئا ، فأقام بملطية أياما ثم رجع الى بلاده فبطل أمر التجريدة وسكن الحال .

وفى هذه السنة توفى الأمير بكلمش العــلائى بالقدس الشريف . وتوفى فى هــذه السنة أيضا الأمير شيخ الصفوى أمير مجلس ، وكانت وفاته بالقدس الشريف أيضا . ومات الأتابكى كمشبغا الحموى بالسجن بثغر الاسكندرية ، وتوفى أرغون شاه الابراهيمى نائب حلب ، وتوفى قاضى القضاة الشافعى عماد الدين الأزرقى وهو صاحب تاريخ مكة ، وتوفى قاضى القضاة المالكى ناصر الدين بن التونسى ، ومات فيها جماعة كثيرة .

سنة اثنتين وثمانمائة (١٣٩٩ — ١٤٠٠ م) :

فيها فى يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم ، ركب الملك الناصر ونزل من القلعة وزار قبر والده برقوق وشق من القاهرة ودخل من باب النصر ، وكان له موكب عظيم ، وزينوا له المدينة وضجوا له بالدعاء ، فشق من المدينة وطلع الى القلعة ... وهذا كان أول مواكبه .

وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن تنم نائب الشام خامر وأظهر العصيان ، وخرج عن الطاعة ، وأطلق من كان مسجونا من الأمراء بقلعة دمشق من أيام الملك الظاهر برقوق . فلما بلغ السلطان ذلك طلب المقر الأتابكى أيتمش ، فلما حضر قال له : « أنا قد بلغت الحلم ، وقصدى أن أترشد » . فقال الأتابكى أيتمش . «نعم ... السمع والطاعة» . ثم أرســل خلف أمير المؤمنــين المتوكل على الله والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى ، فلما تكامل المجلس قام المقر الســعدى سعد الدين بن غراب وكيلا عن السلطان ، وادعى فى المجلس بين يدى القضاة ، فأعذر له الأتابكى أيتمش وثبت رشده فى ذلك اليوم وحكم به القضاة وأعذر له أمير المؤمنين .

ثم ان السلطان خلع على أمير المؤمنين وعلى القضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين البلقينى والأتابكى أيتمش ونزلوا الى بيــوتهم . ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بالزينة فزينت له سبعة أيام ، ودقت البشائر ، ونودى بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء والدعاء بالنصر للسلطان ، فضج الناس له بالدعاء .

فلما كان يوم الاثنين عاشر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانمائة ركب المقر الأتابكى أيتمش على السلطان ، وألبس مماليكه آلة الحرب وطلع الى الرميلة بين المغرب والعشاء ، فاجتمع عنده جماعة من الأمراء المقدمين وهم : الأمير تغرى بردى أمير سلاح ، والأمير أرغون شاه البيدمرى أمير مجلس ، والأمير فارس حاجب الحجاب ، وغير ذلك جماعة من الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات ، واجتمع عنــده من المماليك السلطانية والسيفية ما لا يحصى .

واجتمع عند الملك الناصر بالقلعة جماعة من الأمراء المقدمين وهم : الأمير يشبك الشعبانى ، والأمير طاز والأمير سودون الماردينى ، والأمير بيبرس الدوادار ، والأمير اينال باى بن قجماس ،

وجماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات وجماعة كثيرة من المماليك الظاهرية .

فلما لاح الصباح نزلوا الى باب السلسلة وأوقعوا مع أيتمش واقعة عظيمة من طلوع الفجر الى بعد الظهر .

ثم ان الأتابكى أيتمش نادى للعوام بأن كل من أمسك مملوكا من مماليك الظاهر برقوق يأخذ عريه وفرسه . فلما سمع المماليك الذين كانوا مع أيتمش هذه المناداة تسحبوا من عنده وقالوا : « نحن نقاتل معه وهو يريد مسك خشداشيننا !.. » .

فطلعوا الى القلعة فلم يبق مع أيتمش الا بعض مماليك صغار ، فلما تلاشى أمره فل الأمراء الذين كانوا عنده ، فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد انكسر الأتابكى أيتمش وهرب نحو قبة النصر . وقد قتل فى هذه الواقعة بعض أمراء وجرح منهم جماعة وقتل جماعة كثيرة من المماليك الذين كانوا معه .

ولما انكسر أيتمش ومن كان معه من الأمراء نهب العوام بيوتهم وأخذوا كل ما فيها حتى الرخام والأبواب ، ثم نهبوا مدرسة أيتمش التى عند باب الوزير ، وأحرقوا ربعه المجاور للمدرسة ، ثم حفروا قبر أولاده وقد ظنوا أن فيه مالا فما لقوا فيه شيئا غير العظام ، ونهبوا آق سنقر المجاور لبيت أيتمش ، ونهبوا قبة خوند زهرة بنت الملك الناصر محمد بن قلاون المجاورة لبيت أيتمش ، ونهبوا وكالة أيتمش التى عند مدرسته ، ونهبوا مدرسة السلطان حسن وأحرقوا بابها لكون أيتمش كان يحاصر القلعة منها ثم نهبوا بيوت الأمراء الذين ركبوا مع أيتمش ... واستمر النهب فى المدينة يومين .

ثم ان الزعر زاد أمرهم حتى كسروا باب حبس الرحبة وأطلقوا من كان به من المحابيس . وصارت المدينة مائجة ليس بها حاكم ولا وال ولا حاجب ، والسلطان صغير ليس له حرمة ولا كلمة ، واضطربت الأحوال ، ولولا لطف الله تعالى بالناس لنهبوا القاهرة عن آخرها فى هذه الحركة .

ثم جاءت الأخبار بأن الأتابكى أيتمش ، ومن معه من الأمراء ، لما انكسروا توجهوا الى نحو باب الشام ، فلما وصلوا الى هنالك تلقاهم تنم نائب الشام وأنزلهم بالقصر الأبلق الذى بالميدان ، ومد لهم سماطا عظيما ، وأنعم عليهم بكسوة وخيول ومال ، ورتب لهم فى كل يوم ما يكفيهم من سماط وعليق وغير ذلك . وكان وصول الأتابكى أيتمش والأمراء الذين معه الى دمشق فى يوم الاثنين رابع عشرى ربيع الأول من السنة المذكورة ، وكان يوم دخولهم الى دمشق يوما مشهودا وموكبا عظيما .

فلما تحقق السلطان صحة هذا الخبر اجتمع هو والأمراء وضربوا مشورة فى هذا الأمر ، ثم وقع الاتفاق على أن يفرجوا عن جماعة من الأمراء ممن كان مسجونا بثغر الاسكندرية ، فرسم السلطان بالافراج عمن يذكر من الأمراء وهم : الأمير نوروز الحافظى ، والأمير سودون قريب الملك الظاهر برقوق ، والأمير تمراز الناصرى ، والأمير أقباى السيفى طرنطاى ... فلما حضروا عمل السلطان الموكب وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى بيبرس واستقر به أتابك العساكر عوضا عن أيتمش البجاسى ، وخلع على المقر السيفى بكتمر الركنى واستقر به أمير سلاح عوضا عن تغرى بردى بن يشبغا ، وخلع على المقر السيفى تمراز الناصرى واستقر به أمير مجلس ، وخلع على المقر السيفى نوروز الحافظى واستقر به رأس نوبة النوب — والأمير نوروز الحافظى هو الذى جدد القبة على فسقية الخانقاه الشيخونية لما

بقى رأس نوبة النوب ولم يكن بها قبل ذلك قبة — وخلع على المقر السيفى سودون قريب السلطان واستقر به دودارا كبيرا ، وخلع على المقر السيفى أقباى الطرنطاوى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن الأمير فارس ، وخلع على المقر السيفى سودون ابن على باى واستقر به أمير آخور كبيرا عوضا عن سودون الطيار .

وأنعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء وهم : الأمير اينال باى بن قجماس ، والأمير سودون بن زاده — وهو صاحب الجامع الذى فى سويقة العزى — والأمير اينال العلائى حطب .

وأنعم على جماعة بامريات أربعين وامريات عشرة . واستقامت أموره فى السلطنة .

وفيها قبض السلطان على الصاحب فخر الدين ابن غراب وفصله من الوزارة ، وقبض على أخيه القاضى سعد الدين بن ابراهيم ناظر الجيش وناظر الخاص ، وقبض على الأمير شهاب الدين أحمد بن قطينة الاستادار ، وقبض على الشريف علاء الدين البغدادى شاد الدواوين ... وسلمهم جميعهم الى الأمير آزبك الرمضانى رأس نوبة ثانى ليستخرج منهم الأموال ، فأقاموا فى بيت الأمير أزبك أياما ، ثم ان الأتابكى بيبرس شفع فيهم فأفرج السلطان عنهم وخرجوا الى بيوتهم بطالين .

ثم ان السلطان خلع على الصاحب بدر الدين الطوخى وأعاده الى الوزارة ، وخلع على القاضى شرف الدين بن الدماميني واستقر به ناظر الجيش وناظر الخاص ووكيل بيت المال ، فأقام هؤلاء فى هذه الوظائف نحو ثلاثة شهور .

ثم ان السلطان رضى على الصاحب فخر الدين ابن غراب وأعاده الى الوزارة ، وأعاد أخاه القاضى سعد الدين بن غراب الى وظائفه كما كان ، وخلع على القاضى شرف الدين بن الدماميني واستقر به قاضى ثغر الاسكندرية عوضا عن أخيه .

وفيها خلع السلطان على الشيخ أنبيا التركمانى واستقر به شيخ الشيوخ بخانقاه سرياقوس عوضا عن الشيخ اسلام الحنفى .

وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن تنم نائب الشام جمع عسكرا عظيما من الشام وهو قاصد نحو الديار المصرية ، وقد وصل أوائل عسكره غزة . فلما تحقق السلطان صحة هذا الخبر علق الجاليش ، ونادى للعسكر بالعرض ، وأنفق عليهم فى يومه ، ثم برز خيامه الى الريدانية .

فلما كان يوم الخميس رابع رجب من السنة المذكورة طلب السلطان ونزل من القلعة ، وخرج فى موكب عظيم ومعه أمير المؤمنين المتوكل والقضاة الأربعة وسائر الأمراء ، فتوجه الى نحو الريدانية وخرج من بعده أطلاب الأمراء المسافرين معه .

ثم ان السلطان جعل الأتابكى بيبرس نائب الغيبة بمصر الى أن يعود السلطان الى الديار المصرية ، وترك بمصر جماعة من الأمراء العشراوات والحجاب وبعض مماليك سلطانية . ثم ان الملك الناصر عين جماعة من الأمراء بأن يتقدموا أمام العسكر ، وهم الأمير بكتمر الركنى أمير سلاح ، والأمير تمراز الناصرى أمير مجلس ، والأمير شيخ المحمودى الخاصكى أحد الأمراء المقدمين ، والأمير سودون قريب السلطان ، والأمير دقماق المحمدى ، وجماعة من العسكر والمماليك السلطانية نحو ألف مملوك ... فتقدموا أمام العسكر .

فلما كان يوم الجمعة ثامن رجب رحل السلطان من الريدانية وقصد التوجه الى نحو البلاد الشامية

ومن هنا نرجع الى أخبار تنم نائب الشام . فانه لما تولى الملك الناصر فرج خرج عن الطاعة

وأظهر العصيان ، ووضع يده على البلاد الشامية . وقد وافقه على العصيان نائب حلب ونائب حماه ونائب صفد ونائب طرابلس ، والتف عليه من العسكر والعربان ما لا يحصى عددهم . فلما ركب الأتابكى أيتمش بمصر وانكسر كما تقدم ، توجه اليه هو والأمراء الذين ركبوا معه . فلما توجهوا اليه قويت شوكته وعظم أمره ، فصار تنم يركب فى كل يوم بالشام فى المواكب العظيمة مثل مواكب السلطان ، والأمراء والنواب قدامه ، والدف والشبابة والأوزان والجاويشية والشعراء قدامه ، وكان يركب فى خدمته من الأمراء المقدمين ما يزيد على خمسة وعشرين أميرا ، واجتمع عنده من النواب ومن عساكر البلاد الشامية نحو أربعة آلاف انسان ما بين تركمان وعربان وغير ذلك من العساكر ... فحدثت نفس تنم أنه صار سلطانا لا محالة ، وعظم فى نفسه .

هذا ما كان من أمر تنم نائب الشام ، وأما ما كان من أمر الملك الناصر فرج بعد خروجه من مصر ، فانه لما خرج من مصر كان أكثر الناس لا يشكون أنه هو المكسور لا محالة ، وأن تنم هو المنتصر عليه ، والله غالب على أمره . وكان أكثر الأمراء والعساكر خامروا على السلطان فى الباطن ، ومالوا الى تنم نائب الشام ، والسلطان بينهم مثل العصفور فى يدى النسور ، فخرج من مصر وهو فى غاية الضنك ، فكان كما قيل فى المعنى :

خف اذا أصبحت ترجو   وارج ان أمسيت خائف
رب مكروه مخوف   فيه لله لطائف

فلما وصل السلطان كان أقبغا اللكاش نائب غزة خرج هو ونائب حماه ونائب صفد الى قتال الملك الناصر ؛ فألقى الله تعالى الرعب فى قلوب النواب ... فأول من دخل تحت طاعة السلطان دمرداش نائب حماه ، وكذلك نائب صفد . فلما رأى عسكر الشام دخول النواب تحت طاعة السلطان خامر الجميع على تنم نائب الشام ودخلوا تحت طاعة السلطان وتوجهوا اليه فى غزة . ثم ان نائب غزة أقبغا اللكاش هرب من وجه الملك الناصر ، فملك السلطان مدينة غزة . فلما بلغ ذلك تنم نائب الشام خرج من الشام هو والأتابكى أيتمش وبقية الأمراء وأتوا الى مدينة الرملة ، فصار السلطان فى غزة وهم فى الرملة .

ثم ان السلطان أرسل الى تنم نائب الشام ، والى الأتابكى أيتمش قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى ، والأمير ناصر الدين بن الرماح بأن يمشوا فى أمر الصلح بينهم وبين السلطان ... فتوجهوا اليهم ثم انهم عادوا بالجواب بأنهم قد أبوا الصلح ولم يوافقوا على ذلك .

فلما سمع السلطان جوابهم ركب من غزة هو والأمراء والعسكر وتوجهوا اليهم ، وذلك فى يوم السبت ثانى عشرى رجب ، فتلاقى العسكران على مكان يسمى الحبتين ، فكان بينهم هناك واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، فلم تكن الا ساعة يسيرة حتى وقعت الكسرة على تنم نائب الشام وأمسك ، واحتاطوا على بركه ودوابه .

ثم ان الأتابكى أيتمش وبقية الأمراء هربوا وتوجهوا الى نحو الشام ، ثم ان العساكر المصرية نهبوا مدينة الرملة وسبوا أهلها .

ثم ان الأمير جكم العوضى توجه خلف الذين هربوا الى الشام فقبض على الأتابكى أيتمش البجاسى ، وعلى الأمير تغرى بردى أمير سلاح ، وعلى الأمير أقبغا اللكاش نائب غزة ، والأمير بيقجا طيفور حاجب الحجاب بدمشق ، والأمير أرغون شاه البيدمرى أمير مجلس ، والأمير يعقوب شاه الكشبغاوى ، والأمير فارس حاجب الحجاب

... فلما قبض عليهم قيدهم وحبسهم بقلعة دمشق ، ونادى فى الشام بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، والدعاء بالنصر للسلطان الملك الناصر ، فضج أهل الشام له بالدعاء . ثم بعد أيام وصل السلطان الى دمشق ، وكان يوم دخوله اليها يوما مشهودا ، ودخل فى موكب عظيم وقدامه تنم نائب الشام وهو مقيد راكب على كديش أبلق ومعه عشرة من أمراء دمشق وهم فى قيود ، فحبسهم فى قلعة دمشق عند الأتابكى أيتمش ... وفيه يقول بعض الشعراء :

أملت أنك لاتزال بكل من
عاداك بالنصر القريب مظفرا
ورجوت أن تطأ الكواكب رفعة
من فوق أعناق العدا وكذا جرى

ولما دخل السلطان الى دمشق نزل بالقصر الأبلق . ثم انه شرع فى القبض على أصحاب تنم نائب الشام وحاشيته ، فكان من جملة من أمسك من الأمراء الأمير علاء الدين بن الطبلاوى — وقد تقدم أن الملك الظاهر برقوق نفاه الى القدس — فلما مات الملك الظاهر هرب وتوجه الى تنم نائب الشام ، وصار يفرع الظلم بدمشق كما كان يفعل بمصر .

ثم أراد السلطان أن يقبض على الناصرى محمد بن تنكز نائب الشام فهرب تحت الليل وتوجه الى بلاد التركمان ، فكان كما قيل فى المعنى :

من عاشر الزيدانى فاحت عليه روايحو
ويحترق بشرارو من عاشر الحداد

فلما كان يوم الخميس خامس عشرى شعبان حضر الى القاهرة قمج الخاصكي وعلى يده مثالات شريفة تتضمن أخبار هذه النصرة التى حصلت للسلطان ، وقد حضر قمج المذكور من البحر المالح من على الطينة لأن الدرب السلطانى كان مضطرب الأحوال بسبب فساد العربان . فلما جاء هذا الخبر الى القاهرة نادى نائب الغيبة فى القاهرة بالزينة ، فزينت سبعة أيام .

ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن الأمير بلبغا الأحمدى المعروف بالمجنون — وكان استادارا بالديار المصرية — لما توجه السلطان الى الشام صار يرمى الفتنة بين الأمراء الذين كانوا فى القاهرة ، فوثبوا على بعضهم ووقع بينهم الخلف ، وصار كل واحد منهم كل يوم فى فتن ، واضطربت أحوال الديار المصرية ، وتخبطت البلاد الشرقية والغربية ، وكثرت المناسر فى القاهرة حتى صار فى كل حارة مركز يغفرونها فى الليل من الحرامية ، وصاروا يخطفون العمائم فى الحارات الظهر .

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن السلطان لما قام من دمشق بعد هذه النصرة خلع هناك على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى سودون قريب السلطان واستقر به نائب الشام عوضا عن تنم الحسنى ، وخلع على المقر السيفى دمرداش المحمدى ونقله من نيابة حماه الى نيابة حلب ، وخلع على المقر السيفى شيخ المحمودى واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على الأمير دقماق المحمدى واستقر به نائب حماه عوضا عن دمرداش المحمدى ، وخلع على الأمير الطنبغا العثمانى واستقر به نائب صفد على عادته ، وخلع على الأمير جنتمر التركمانى واستقر به نائب بعلبك .

ثم ولى جماعة من القضاة بدمشق منهم : القاضى تقى الدين ابن المكفرى الحنفى ، وولى القاضى شمس الدين النابلسى الحنبلى .

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن السلطان قتل جماعة من الأمراء وهم : الأتابكى أيتمش

البجاسى ، والأمير فارس حاجب الحجاب ، والأمير أقبغا اللكاش نائب غزة ، والأمير جلبان الكمشبغاوى ، والأمير بيقجا طيفور حاجب الحجاب بدمشق ، والأمير أرغون شاه الأقبغاوى ، والأمير يعقوب شاه الكمشبغاوى ، والأمير بيقوت اليحياوى ، والأمير مبارك شاه المعروف بالمجنون ، والأمير بهادر العثمانى نائب البيرة ، وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء مصر والشام ... فكان عدة من قتل فى هذه الحركة نحو أربعة عشر أميرا ، فذبحوا الجميع ببرج الحمام بقلعة دمشق .

ثم ان السلطان أرسل رأس الأتابكى أتتمش البجاسى ورأس الأمير فارس حاجب الحجاب الى القاهرة فى علبة ، فطافوا بهما فى القاهرة ، ثم علقوهما على باب زويلة .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد خنق تنم نائب الشام ، والأمير يونس نائب طرابلس . قيل انما أخر تنم نائب الشام بعد قتل الأمراء ليستصفى أمواله ويقرره على الأموال التى أخذها من البلاد لما أظهر العصيان ، ولعبت به الدنيا ثم رمته وتخلت عنه . فكان كما قيل فى المعنى :

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
له عن عدو فى ثياب صديق

ولما كان يوم الاثنين ثامن شهر رمضان ، حضر خاصكى وأخبر بأن السلطان خرج من دمشق وهو قاصد نحو الديار المصرية .

ثم فى يوم السبت الحادى والعشرين من شهر رمضان حضر الى القاهرة المقر السعدى سعد الدين بن غراب وصحبته حريم السلطان الملك الناصر ، وأخبر بأن السلطان قد وصل الى الصالحية . ولما حضر ابن غراب أشيع بين الناس أن الأمير علاء الدين بن الطبلاوى لما قدم على السلطان بدمشق قيده وأرسله هو والقاضى ناصر الدين بن أبى الطيب كاتب سر الشام صحبة ابن غراب ، فلما وصل الى غزة أرسل السلطان بقتل علاء الدين بن الطبلاوى فمات مخنوقا بغزة ودفن هناك ، وقد قاسى شدائد عظيمة فى أيام الملك الظاهر برقوق وفى أيام ابنه فرج ، وآخر الأمر مات قتيلا بعد ما قاساه ، فكان كما قيل :

ترجو الوليد وقد أعياك والده
فما رجاؤك بعد الوالد الولدا

ثم وقعت شفاعة من الأمراء فى القاضى ناصر الدين بن أبى الطيب كاتب سر الشام بعد ما كان قد رسم بقتله ، فعفا عنه من القتل وحضر صحبة ابن غراب الى مصر .

ولما كان يوم الجمعة سادس عشرى شهر رمضان وصل السلطان الى الديار المصرية ، ودخلها فى موكب عظيم ، وزينت له القاهرة ، فلم يطلع الا من بين الترب ، فدقت له البشائر ، وفرشت له الشقق الحرير من عند تربة طيبغا الطويل الى رأس الصوة ، وحملت القبة والطير على رأسه ، وكان له يوم مشهود حتى طلع الى القلعة وجلس على سرير الملك . ثم عمل الموكب وأنعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء منهم : قطلوبغا الكركى ، وأقباى الاينالى ، وجركس القاسمى ، وجكم العوضى ثم خلع على الأمير مقبل واستقر به زماما ، وخلع على الأمير صواب الجنكلى واستقر به مقدم المماليك السلطانية ، وخلع على فارس الدين شاهين الحلبى واستقر به نائب مقدم المماليك .

وفيها ، فى يوم الثلاثاء رابع عشر شوال ، جاءت الأخبار من بلاد الصعيد بأن الناصرى محمد بن عمر الهوارى كبس على الأمير يلبغا الأحمدى فمسك جماعة من أصحابه وغلمانه وهرب يلبغا الأحمدى .

وكان سبب ذلك أن يلبغا الأحمدى لما سافر السلطان صار يرمى الفتن بين الأمراء الذين كانوا بمصر حتى افتتنوا فى بعضهم ووثبوا على بعضهم ، فقصد نائب الغيبة بأن يقبض على يلبغا الأحمدى فهرب وتوجه الى نحو بلاد الصعيد فلما أراد محمد بن عمر الهوارى أن يقبض على يلبغا هرب فتبعوه فنزل عن فرسه ورمى نفسه فى البحر فغرق ، ثم بعد أيام طلعوا به وقد أكل السمك وجهه فدفنوه ومضى أمره بعد ما أخرب بلاد الصعيد ونهب أموال الناس .

وفيها ، فى ثانى ذى القعدة ، حضر مملوك نائب حلب وأخبر بأن القان أحمد بن أويس صاحب بغداد ، وقرا يوسف أمير التركمان ، حضر اليهم چاليش تمرلنك فأوقعوا معهم واقعة عظيمة ، فانكسر چاليش تمرلنك ، فلما انكسروا أتوا الى نحو ملطية — وكانوا نحو سبعة آلاف انسان — فأرسلوا الى نائب حلب يقولون له : « عين لنا مكانا ننزل به » ... فلما سمع نائب حلب بذلك ركب هو ونائب حماه وتوجهوا الى عسكر تمرلنك ، فأوقعوا معهم واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، فانكسر نائب حماه ، وقتل من عسكر حلب جماعة كثيرة ، منهم جانى بك اليحياوى أتابك العساكر بحلب ، وأسر نائب حماه دقماق المحمدى حتى اشترى نفسه منهم بمال جزيل ، ورجع نائب حلب الى حلب وهو مكسور ... وكانت هذه أول الفتن بين عسكر مصر وبين تمرلنك . فلما بلغ السلطان ذلك رسم لنائب الشام ونائب صفد ونائب طرابلس بأن يجمعوا العساكر ويتوجهوا الى حلب يقيمون بها

وفيها حضر نجاب من مكة المشرفة وأخبر بأن الحرم احترق منه نحو الثلث ، ومن الأعمدة الرخام مائة وثلاثون عمودا ، وعملت النار من باب عزورة الى باب العمرة ... وكان هذا حادثا عظيما لم يسمع بمثله . فلما بلغ السلطان ذلك عين الأمير بيسق الشيخى لعمارة ما احترق من الحرم ، وأرسل معه الخواجا برهان الدين المحلى التاجر الكارمى ، وبعث معه السلطان عشرة آلاف دينار بسبب العمارة فعمروه كما كان ، ولم يجدوا أعمدة رخام فعملوا عوض ذلك حجرا أسود .

وفيها ظهر الأمير صرق وكان مختفيا من حين خامر تنم نائب الشام . فلما ظهر أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بحلب فسافر الى حلب من يومه .

وتوفى فى هذه السنة من الأعيان قاضى القضاة مجد الدين الكنانى الحنفى ، وقاضى القضاة برهان الدين العسقلانى الحنبلى ، والشيخ اسلام الاصبهانى الحنفى ، والأمير بهادر الشهابى مقدم المماليك السلطانية ، وغير ذلك من الأعيان .

سنة ثلاث وثمانمائة (١٤٠٠/١٤٠١ م) :

فيها حضر مملوك من عند نائب حلب وأخبر بأن چاليش تمرلنك قد وصل الى سيواس ، وأن ابن تمرلنك فى الچاليش ومعه عساكر عظيمة ، وأن ابن عثمان والقان أحمد بن أويس وقرا يوسف توجهوا الى مدينة برصا وتركوا بلادهم من خوفهم من تمرلنك ، وقد أشيع عنه أنه لما دخل الى سيواس نهبها وقتل أهلها ، وكان يحفر للناس حفيرة ويدفنهم فيها وهم بالحياة ، وكان يحرق بعضهم بالنار وكانت فتنة تمرلنك أول فتنة وقعت على رأس القرن الثامن .

ثم جاءت الأخبار من حلب بأن تمرلنك قد ملك البهشا وعنتاب ، وقد وصل الى الباب ، وبزاعا بالقرب من حلب

ثم ان تمرلنك أرسل الى نائب حلب قاصدا ،

ومعه مكاتبات من عند تمرلنك فيها عبارة خشنة لنائب حلب . فلما سمع نائب حلب ذلك حنق وأمر بضرب أعناق قصاد تمرلنك ، فعند ذلك اضطربت أحوال مدينة حلب وحصنوا سورها بالمدافع والمكاحل والمقاتلين . فلما بلغ تمرلنك ما فعلوا بقصاده زحف الى قرية من قرى حلب يقال لها جيلان ، واحتاط بمدينة حلب ونهب ما حولها من الضياع .

فلما كان يوم السبت حادى عشر ربيع الأول من سنة ثلاث وثمانمائة خرج عساكر حلب وسائر النواب بعساكرهم ، وأوقعوا مع تمرلنك ، فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصى ، وقد دهمتهم عساكر تمرلنك كأمواج البحار المتلاطمة ، ومالت عليهم كتائب الجنود المتزاحمة ، فلم تثبت معهم عساكر حلب وولوا على أعقابهم مدبرين ، وأقبلوا نحو المدينة منهزمين ، وقد داست حوافر الخيل أجساد العامة ، وحل بهم من البؤس كل داهية طامة . وكان قد احتمى بالمزارات والمساجد الجم الغفير من النساء والأطفال ، فدخلوا اليهم وأسروهم وقرنوهم بالحبال ، وأسرفوا فى قتل النساء والرجال ، وصارت الأبكار تفتض فى المساجد ، ولم يراعوا حرمة المساجد ، فلم يرثوا لبكاء الرضع ، ولم يخشوا دعاء الركع ، وقد صارت المساجد كالمجزرة من القتلى ... فلا حول ولا قوة الا بالله . واستمر هذا الأمر الشنيع يتزايد من يوم السبت الى يوم الثلاثاء .

فلما رأى دمرداش نائب حلب عين الغلب نزل من القلعة ، هو وبقية النواب ، وأخذوا فى رقابهم مناديل وتوجهوا الى تمرلنك يطلبون منه الأمان ، فلما مثلوا بين يديه خلع عليهم أقبية مخمل أحمر ، وألبسهم تيجان مذهبة ، وقال لهم : « أنتم صرتم نوابى » ... ثم أرسل معهم جماعة من أمرائه يتسلمون القلعة ، فاستنزلوا من كان بها وهم فى قيود . واستمر مقيما على حلب نحو شهر ، وعسكره ينهبون القرى التى حول المدينة ويقطعون الأشجار التى بها ، ويهدمون البيوت ، وقد أسرفوا فى القتل ونهب الأموال ، وصارت الأرجل لا تطأ الا على جثة انسان لكثرة القتلى حتى قيل انه بنى من رءوس القتلى عشر مآذن ، دور كل مئذنة نحو عشرين ذراعا ، وصعودها فى الهواء مثل ذلك ، وجعلوا الوجوه فيها بارزة تسفو عليها الرياح ، وتركوا أجساد القتلى فى الفلاة تنهشها الكلاب والوحوش ، فكان عدة من قتل فى هذه الواقعة من أهل حلب — من صغار وكبار ونساء ورجال — نحوا من عشرين ألف انسان ، هذا خارج عما هلك من الناس تحت أرجل الخيول عند اقتحام أبواب المدينة وقت الهزيمة ، وهلك من الجوع والعطش أكثر من ذلك .

فلما ملك تمرلنك مدينة حلب والقلعة نهب جميع ما فى المدينة والقلعة ثم ان تمرلنك أقام على حلب نحو شهر ثم رحل عنها بعد ما جعلها خاوية على عروشها وقد تعطلت فى مدة هذه المحاصرة عن الأذان والاقامة وعن صلاة الجمعة .

ومما يحكى عن أخبار عسكر تمرلنك فيما فعلوه بعسكر حلب ، قيل كانوا يطئون الأبكار فى محراب المساجد وآباؤهن يشاهدون ذلك بعينهم . ولقد حكى من أمر معهم من حين استولوا على حلب الى حين رحلوا عنها لم يسمع فى عسكرهم أذان ، وأنهم يجامعون النساء فى المحيض ، ولا يعاودون الوطء الا بعد اغتسال — ولو كان فى قلب الشتاء — بالماء البارد . وقيل ان تمرلنك كان يحتجب عن عسكره نحو أسبوعين فلا يجتمع على أحد من عسكره ، وينعكف على شرب

الخمور . ففى مدة انعكافه تنهب عساكره البلاد ، ويفسقون فى أهلها ، فلم يجدوا من يمنعهم عن ذلك ولا يردهم ، فيستمروا على ذلك .

ولما كان يوم السبت خامس عشرى ربيع الأول من سنة ثلاث وثمانمائة ، ، حضر مملوك بكلمش العلائى وأخبر بما قد جرى من تمرلنك ، وبما وقع فى حلب ، وبما جرى على النواب ... فعند ذلك اضطربت أحوال الديار المصرية مما جرى فى البلاد الشامية ، فعين السلطان فى يومه الأمير سودون بن زاده ، والامير اينــال حطب رأس نوبة ثانى ، فتوجهوا الى السفر من يومهم لكشف الأخبار عن صحة ذلك .

ثم جاءت الأخبار عقيب ذلك بأن تمرلنك لما أن رحل عن حلب الى حماه فعل بأهلها كما فعل بأهل حلب من القتل والنهب كما تقدم من أفعاله الشنيعة .

ثم حضر نجاب من عند نائب الشام وأخبر بأن جاليش تمرلنك قد وصل الى الشــام عند جبل الثلج . فلما تحقق الســلطان ذلك علق الجاليش ونادى للعسكر بالعرض ، فعـرض وأنفق على العسكر ، وبرز خيامه الى الريدانية ، فاضطربت فى ذلك الوقت أحــوال الديار المصرية ، وماجت القاهرة بأهلها ، فكان كما قيل فى المعنى :

كم لى أنبــه مقلــة من نائم
لم يهد غير سروره الأحــلام
فكأنه اذا جئته مســتصرخا
طفــل يحرك مهــده فينــام

قيل لما علق السلطان الجاليش بسبب خروجه الى تمرلنك ركب شــيخ الاســلام سراج الدين البلقينى والقضاة الأربعة وحاجب الحجاب ووالى القاهرة ونادوا فى الشوارع بأن النفير عام بسبب قتال تمرلنك ، فاضطربت أحوال القاهرة فى ذلك اليوم جدا .

وكان الملك الناصر كلما طرقته هــذه الأخبار يتغافل عنها ويتشاغل بشرب الراح وحب الملاح ، حتى تمكن تمرلنك من البــلاد ، وعم فعله من الفساد . فعند ذلك خرج الملك الناصر وطلب ونزل من القلعة فى يوم الأحد ثالث ربيع الآخر من سنة ثلاث وثمانمائة ، فخرج فى موكب عظيم ، وكان صحبته أمير المؤمنين محمد المتوكل والقضاة الأربعة وهم : قاضى القضاة الشافعى صدر الدين المناوى ، وقاضى القضاة جمال الدين يوسف الملطى الحنفى ، وقاضى القضــاة نور الدين بن الجلال المالكى ، وقاضى القضاة موفق الدين الحنبلى ، وخرج معه سائر الأمراء من المقدمين والأربعينات والعشراوات وسائر العسكر ، فأقام فى الريدانية يومين . ثم عين ستة من الأمراء المقدمين يتقدمون جاليش العسكر وهم : الأتابكى بيبرس الركنى ، والمقر الســيفى بكتمر أمير سلاح ، والمقر السيفى نوروز الحافظى رأس نوبة النوب ، والمقر السيفى أقباى الطرنطاى حاجب الحجاب ، والمقر الســيفى اينال باى بن قجماس ، والمقر السيفى يلبغا الناصرى .

ثم ان الملك الناصر رحل من الريدانية وترك المقر الســيفى تمراز الناصرى أمير مجلس نائب الغيبة بمصر الى أن يحضر السلطان ، والأمير جكا أحــد المقدمين وجماعة من الحجــاب والمماليك السلطانية . فلما وصل الســلطان الى غزة جاءت الأخبار الى القاهرة بأن السلطان لما دخل الى غزة خلع على المقر السيفى تغرى بردى بن يشبغا واستقر به نائب الشــام ، وخلع على المقر الســيفى آقبغا الجمالى واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على المقر السيفى تمربغا المنجكى واستقر به نائب صفد ،

وخلع على المقر السيفى طولو بن على شاه واستقر به نائب غزة ، وخلع على الأمير صدقة بن الطويل واستقر به نائب القدس الشريف .

ثم ان السلطان رحل من غزة فى يوم الاثنين خامس عشر ربيع الآخر وقصد التوجه الى الشام . ولما رحل السلطان من غزة أرسل يطلب من نائب الغيبة ألف فرس وألف جمل يتقوى بها العسكر .

ثم جاءت الأخبار بأن الأمير ابن رمضان أمير التركمان جمع عساكر كثيرة من التركمان وجاء الى حلب وطرد من بها من عسكر تمرلنك الذين نزلوا بحلب ، وأرسل يكاتب السلطان بذلك .

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن تمرلنك نازل بالقرب من سلمية ، وأنه أرسل جماعة من عسكره الى نحو طرابلس فتاهوا عن الطريق ، فدخلوا فى واد بين جبلين ، فوثب عليهم جماعة من عربان جبل نابلس فقتلوا منهم جماعة كثيرة بالنشاب والحجارة فولوا مدبرين .

ثم ان السلطان دخل الى دمشق فى يوم الخميس سادس جمادى الأولى ، ونزل بالميدان الكبير ، وجلس بالقصر الأبلق ، وحكم بين الناس ، وصلى الجمعة بدمشق ، ثم برز خيامه الى قبة يلبغا . فلما كان وقت الظهر جاء چاليش تمرلنك من تحت جبل الثلج — وكانوا نحو ألف فارس — فبرز اليهم چاليش السلطان — وكانوا نحوا من مائة فارس — فأوقعوا مع عسكر تمرلنك واقعة قوية ، فانكسر چاليش تيمرلنك وولوا مدبرين .

ثم فى تلك الليلة جاء جماعة من أمراء تمرلنك ومن عسكره ودخلوا تحت طاعة السلطان ، وأخبروا بأن ولد تمرلنك كان فى الچاليش فقتل وكذلك صهره ، وقد حصل لتمرلنك على ولده غاية الحزن ... فخلع السلطان على أمراء تمرلنك وأنزلهم بدمشق .

ثم حضر عند السلطان الأمير نعير بن حيار أمير آل فضل . وجمع من العربان مالا يحصى عددهم من عربان حارثه وغير ذلك من القبائل .

ثم بلغ السلطان بأن عسكر تمرلنك قد تغلبوا عليه ، ومات من عسكره جماعة كثيرة تزيد عن خمسة آلاف انسان من الثلج الذى ينزل من الجبل . وصار يحضر الى السلطان فى كل يوم جماعة من عسكر تمرلنك ويدخلون تحت الطاعة ، والتف على السلطان جماعة كثيرة من العربان وغيرهم حتى قيل انه تكامل عنده نحو اثنى عشر ألف انسان خارجا عن عسكر مصر . وكانت طوالع الملك الناصر فى مبتداها سعيدة ، والنصر لائح عليه ، ولكن كما قيل فى المعنى :

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله الا ما أرادا

فلما كان يوم الخميس خامس جمادى الآخرة من السنة المذكورة حضر السلطان الملك الناصر فرج الى الديار المصرية على حين غفلة ، وطلع الى القلعة ، وحضر صحبته الخليفة المتوكل ، وجماعة من النواب وهم : نائب الشام ، ونائب صفد ، ونائب غزة ، وغالب أمراء دمشق . وحضر مع السلطان من العسكر نحو ألف مملوك ، وحضر مع كل أمير مملوكان من مماليكهم وليس معهم برك ولا خيول ولا قماش . وكان سبب حضور السلطان على هذا الوجه أن عسكر السلطان بعد أن أوقع مع عسكر تمرلنك مرتين وهو ينكسر ، أرسل تمرلنك يطلب من السلطان الصلح ، وأرسل الى السلطان أميرا من أمرائه يقال له الأمير حسين ، وأرسل معه ابن بنته يمشون بينه وبين السلطان فى أمر الصلح . فلما أن حضروا الى السلطان خلع عليهم وأحسن اليهم ، وأرسل تمرلنك يسأل السلطان أن يطلق له قريبه أطلمش الذى أسر فى

أيام الملك الظاهر برقوق كما تقدم ، وأن تمرلنك يطلق من عنده من الأسرى جميعهم ، وصارت الرسل تتردد بين السلطان وبين تمرلنك مرارا عديدة ، وآخر ذلك كان ليلة الجمعه رابع عشر جمادى الآخرة ، فأقام رسل تمرلنك عند السلطان الى ثلث الليل ، واتفق معهم على أنه فى باكر النهار ينعقد الصلح بينهما ، فبلغ السلطان أن العسكر تقلبوا عليه فى تلك الليلة ، وهرب منهم جماعة من الأمراء وقصدوا بذلك التوجه الى نحو الديار المصرية .

وكان الذى قد تسحب من الأمراء تحت الليل الأمير سودون الناصرى الطيار ، والأمير قانى باى العلائى ، والأمير أحمد بن الشيخ على ، والأمير جقمق . ومن الخاصكية يشبك العثمانى ، ويشبك الساقى الأعرج ، وقمج الحافظى ، وبرسبغا ، وطراباى بن عبد الله ، وجماعة من المماليك السلطانية نحو من أربعين مملوكا .

فلما كانت ليلة الجمعة المذكورة قام الأمراء على السلطان وأركبوه غصبا وخرجوا به من دمشق قرب التسبيح ... وقد جعل الله لكل شىء سببا حتى ينفذ القضاء والقدر .

فلما خرج السلطان والأمراء من دمشق طلعوا على عقبة قدومر ، ونزلوا على ساحل البحر المالح وتوجهوا الى صفد ، فأخذوا نائب صفد معهم وتوجهوا الى غزة . فلما دخل السلطان الى غزة وجد الأمراء الذين تسحبوا من دمشق هناك ، فتوجهوا مع السلطان الى مصر .

قيل وكان سبب تسحب الأمراء من دمشق أن جماعة تقلبوا هناك على الملك الناصر وخرجوا من الشام وقصدوا أن يتوجهوا الى مصر ويسلطنوا الأمير لاچين الچركسى ! فلما تحقق الأمراء ذلك قاموا على السلطان وأركبوه غصبا وخرجوا به من دمشق . فلما دخل السلطان الى القاهرة رسم للأمير يلبغا السالمى استادار العالية بأن يشرع فى عمل برك للسلطان وكسوة للأمراء والخليفة — فانهم خرجوا من الشام ولا برك ولا قماش — فشرع الأمير يلبغا السالمى فى ذلك .

ثم ان السلطان قوى عزمه على أن يخرج الى الشام ثانى مرة ، فعلق الچاليش ورسم بأن يأخذ من بلاد المقطعين على العبرة القديمة ، وأن يأخذ من أملاك القاهرة وضواحيها أجرة شهر واحد ، ومن الرزق عن كل فدان عشرة دراهم ، ومن البساتين عن كل فدان مائة درهم . ثم صاروا يفتحون حواصل التجار أصحاب الأموال ويزعمون أن السلطان يقترض أموال التجار على ذمته الى أن يجىء له مال من البلاد فيعيد لهم ما أخذه من المال ... فكانوا يكبسون حواصل التجار ، فان وجدوا صاحب الحاصل أخذوا من ماله النصف وتركوا له النصف ، وان لم يجدوا صاحب الحاصل أخذوا جميع ما فى الحاصل من قماش أو مال ، ولم يتركوا للتجار شيئا .

ثم أخذ من أوقاف الجوامع والمساجد أجرة شهر واحد — حتى من أوقاف البيمارستان المنصورى — فحصل للناس من ذلك غاية الضرر ، وصاروا فى التراسيم والمصادرة ، وكان المتكلم فى ذلك الأمير يلبغا السالمى الاستادار .

فلما تكامل جبى الأموال تكلم الناس فى حق يلبغا السالمى بأنه أخذ لنفسه فى هذه الحركة من الناس أضعاف ما أورده للسلطان . فلما كثر الكلام فى حقه قبض عليه السلطان وخلع على المقر السعدى سعد الدين ابراهيم بن غراب واستقر به استادارا فصار ناظر الجيوش المنصورة وناظر الخواص الشريفة واستادار العالية . ثم ان السلطان سلم اليه الأمير يلبغا السالمى ، وكذلك الصاحب شهاب الدين أحمد بن قطينة سلمه الى ابن غراب أيضا .

ثم ان السلطان عرض أجناد الحلقة والبحرية ، فكل من يكون قادرا على السفر يأمره بالسفر ، وكل من يكون عاجزا عن السفر يقيم له بديلا أو يأخذ منه نصف خراج اقطاعه عن سنة كاملة . وفرع أشياء كثيرة من أبواب هذه المظالم ، فجمع من ذلك جملة كبيرة ، وقوى عزمه على العود الى الشام ليوقع مع تمرلنك مرة أخرى ، وينفق ما جمعه من المال على العسكر .

ثم أخذ فى أسباب جمع عربان ، فحضر كاشف البحيره وصحبته ستة آلاف فارس من عربان البحيرة ، وحضر شيخ اعرب ابن بقر وصحبته ألفان وخمسمائة فارس من عربان الشرقية ، وحضر شيخ بنى وائل وصحبته ألف وخمسمائة فارس من بنى وائل ، وجاءت الأخبار من عند الأمير نعير شيخ آل فضل بأنه قد جمع خمسة آلاف فارس من عربان جبل نابلس . ثم صار العسكر الذى انقطع فى الشام يدخلون الى مصر وهم فى أنحس حال من العرى والجوع ، فصار السلطان ينعم على كل مملوك بجامكية شهرين معجلا ، وينعم عليه بألف درهم خارجا عن الجامكية ، ليرقع أحوالهم . وقد شرع فى أمر النفقة عليهم والعود الى السفر نحو الشام .

هذا ما كان من أمر الملك الناصر فرج بعد حضوره من دمشق .

وأما ما كان من أمر أهل دمشق مع تمرلنك بعد خروج السلطان منها فانه خرج الى الشام فى ليلة الجمعة حادى عشرى جمادى الأولى من السنة المذكورة ، فأصبح الناس فى يوم السبت مائجين فى بعضهم ، وغلقوا أبواب المدينة وركبوا على الأسوار ، وصاروا يترامون بالنشاب على عسكر تمرلنك . وصار أهل دمشق يسحبون بعضهم بعضا على القتال ، فكان بينهم فى أول يوم واقعة عظيمة ، فقتل فى ذلك من عسكر تمرلنك نحو ألفى انسان .

فلما كان يوم الأحد أرسل تمرلنك يطلب من أعيان دمشق رجلا من عقلائهم حتى يمشى بينه وبين أهل دمشق فى الصلح . فلما أتى قاصد تمرلنك بهذه الرسالة اشتور أهل دمشق فيمن يرسلونه الى تمرلنك ، فوقع الاختيار أن يرسلوا اليه القاضى تقى الدين بن مفلح الحنبلى ، فانه كان انسانا طلق اللسان يعرف بالتركى وباللسان العجمى ، فأرخوه من أعلى السور بسرياق ومعه خمس أنفس من أعيان دمشق ، فغاب عند تمرلنك ساعة ثم رجع من عنده فأخبر بأن تمرلنك تلطف معه فى القول وقال له : « هذه بلد فيها الأنبياء وقد أعتقتها لهم » ... وذكر عنه أنه قد زار قبر أم حبيبة احدى أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما زاره قال : « يا أهل الشام ، مثل هذا القبر يكون بلا قبة ؟ أنا ان شاء الله تعالى أبنى عليه قبة » ... وذكر عنه أنه كان فى مجلسه كثيرا ما يذكر الله تعالى ويستغفر من ذنوبه ، وأن السبحة لا تزال فى يده دائما كما قال ابراهيم المعمار :

قد بلينا بأمير ظلم الناس وسبح
فهو كالجزار فيهم يذكر الله ويذبح

وشرح ابن مفلح عن تمرلنك محاسن كثيرة ، وجعل يخذل أهل الشام عن قتال تمرلنك ويرغبهم فى طاعته ... فصار أهل البلد فرقتين : فرقة ترى ما رآه ابن مفلح ، وفرقة ترى محاربته ولم تسمع قول ابن مفلح . وكان أكثر أهل البلد يرون مخالفة ابن مفلح ، ولم يرجعوا عن قتال تمرلنك وهم الجم الغفير من أهل دمشق . فباتوا على ذلك ليلة الاثنين ، فلما أصبحوا يوم الاثنين غلب رأى ابن مفلح وأصحابه على تلك الطائفة المخالفة لذلك .

ثم ان ابن مفلح قصد أن يفتح باب النصر الذى بدمشق ، فمنعه من ذلك نائب قلعة دمشق وقال لهم : « ان فعلتم ذلك أحرقت البلد جميعا » .

ثم ان ابن مفلح أخذ أعيان أهل دمشق من العلماء والقضاة والمشايخ وتوجهوا الى تمرلنك من أعلى السور بسرياقات . فلما توجهوا الى تمرلنك باتوا فى وطاقه تلك الليلة وأضافهم ، فلما أصبحوا رجعوا الى دمشق وعلى أيديهم مثال من عند تمرلنك مكتوب فيه تسعة أسطر يذكر فيها أمانا لأهل دمشق ، فقرىء ذلك المرسوم على أهل دمشق فى جامع بنى أمية ، ففرح أهل دمشق بذلك وفتحوا باب المدينة وهو الباب المسمى بالصغير ، فحصل لهم طمأنينة وما يعلم ما فى القلوب الا الله . وقد قيل فى المعنى :

لقد ضرنى من كنت أرجو به نفعا
وقد ساءنى أفعاله خلتها أفعى

اذا ما بدا لى ضاحكا زدت خيفة
وفى ضحكة الأفعى فلا تأمن اللسعا

فلما فتحوا باب دمشق دخل الى المدينة أمير من أمراء تمرلنك وجلس على الباب وأظهر أنه يحفظ المدينة من أذى عسكرهم .

ثم ان تمرلنك أرسل خلف ابن مفلح وقرر معه بأن يجبى له من أهل دمشق ألف ألف دينار . فلما رجع ابن مفلح من عنده شرع فى استخراج ذلك من أهل دمشق . فلما كملت تلك الأموال وحملت الى تمرلنك حنق ولم يرض بذلك وقال لابن مفلح : « أنا قررت معكم أن تجمعوا من دمشق ألف ألف تومان . والتومان عندنا كل تومان عشرة آلاف ألف دينار ... فرجع ابن مفلح من عند تمرلنك بخفى حنين .

فلما رجع ابن مفلح الى دمشق أطلق بأهلها النار ، واستخرج من أهلها الأموال بالضرب والعصارات ، فأخذ على رأس كل انسان من كبير وصغير عشرة دراهم شامية ، وفرض على أوقاف الجوامع والمساجد والزوايا أجرة ثلاثة أشهر ... فعند ذلك تزايدت البلايا وعظمت الرزايا فى استخراج الأموال من الناس .

وفى مدة هذه المحاصرة عزت الأقوات بدمشق حتى بيع كل مد من القمح بأربعين درهما شامية . وفى هذه المدة تعطلت صلاة الجمعة والخطبة بدمشق ، ونزل فى جامع بنى أمية أمير من أمراء تمرلنك يقال له شاه ملك ، فدخل بحرمه فى الجامع وأغلق بابه وأخذ بسط الجامع وحصره فستر بها على البوايك ، وصاروا يشربون الخمور فى الجامع ويضربون بالطنبور ويلعبون بالكعاب . وفى هذه المدة تعطلت الصلوات الخمس من مساجد دمشق ، وتعطل الأذان والبيع والشراء ، وتعطلت الأسواق ، وصار عسكر تمرلنك يدخلون المدينة فى كل يوم قليلا قليلا حتى امتلأت منهم المدينة ، وصاروا يحاصرون القلعة أشد المحاصرة . فلما رأى نائب القلعة عين الغلب سلم اليهم القلعة بعد تسعة وعشرين يوما ، فملكوها واحتاطوا على كل ما فيها من صامت وناطق ، واستولوا على المدينة بأسرها .

ثم ان ابن مفلح جمع الأموال ثانيا وأحضرها بين يدى تمرلنك فقال لابن مفلح : « هذه بحسابنا ثلاثة آلاف ألف دينار ، وبقى عليكم سبعة آلاف ألف دينار » . وكان تمرلنك أول ما فرض على أهل دمشق القدر الأول — وهو ألف ألف دينار — فقرر مع ابن مفلح أن هذا القدر يكون خارجا عما تركه العسكر والأمراء لما رحل السلطان من دمشق من برك وقماش وسلاح ودواب وغير ذلك .

فلما رجع ابن مفلح من عند تمرلنك أمر المنادى بأن ينادى فى دمشق بأن كل من كان عنده ودائع للأمراء والعسكر والسلطان يحضر ذلك من غير تأخير ، فامتثل الناس ذلك وأحضروها بين يدى تمرلنك ، فقال لابن مفلح : « قد بقى عليك أن تجمع لنا أموال التجار الغائبين وأعيان البلد » . فجمع له ذلك وأحضره بين يديه ، فقال لابن مفلح : « قد بقى عليك أن تجمع لنا كل دابة فى البلد من فرس وبغل وجمل وحمار » فلما رجع ابن مفلح من عنده جمع كل دابة فى البلد ، فكان عدتها اثنى عشر ألف دابة . فلما أحضر ذلك بين يديه قال لابن مفلح : « اجمع لنا مافى البلد من سلاح من جليلها لحقيرها » . فلما جمع له ذلك وأحضره بين يديه قال له : « قد بقى عليك أن تكتب لنا أسماء حارات دمشق جميعها والخطط » . فرجع من عنده وكتب له ذلك وأحضره اليه . فلما قدمت اليه القوائم وعلم أن الطلب قد انتهى قال لابن مفلح : « قد بقى تكملة ما تقرر عليه الحال من تفريدة المال الذى وقع عليه القرار ، وهو سبعة آلاف ألف دينار » فقال له ابن مفلح : « لم يبق فى البلد لا درهم ولا دينار » ... فحنق من ابن مفلح وقبض عليه وعلى أصحابه وأودعهم فى الحديد ... وآخر الطب الكى . فكان كما قيل فى المعنى :

ان الملوك ظروف الصبر داخلها
وفوق أفواهها شىء من العسل

تحلو لذائقها حتى اذا انكشفت
له تبين ما تحويه من دغل

ثم ان تمرلنك فرق تلك الأوراق التى بأسماء الحارات على أمرائه فتقاسموها ، ثم دخل الى المدينة السواد الأعظم ، فنزل كل أمير من امرائه فى حارة ، وطلب سكانها وفرض عليهم من المال ما لا يقدرون على شىء منه ، فكان الرجل يقام على باب داره وهو فى أنحس هيئة ويقولون له : « هات ما عليك من المال » ... فيقول : « ما عندى شىء من المال » ... فيضرب ضربا شديدا ، فيخرج جميع ما فى بيته من قماش ونحاس وغير ذلك ، حتى يخرج بأولاده ونسائه وعياله ، فتوطأ نساؤه وبناته بين يديه وهو يشاهد ذلك بعينه ، فتفتض أبكار بناته ، ويلاط بولده بين يديه . فاذا قضوا من الوطء أوطارهم أوجعوهم بعد ذلك ضربا ، هذا وصاحب البيت قائم يضرب فى وسط داره .

ولقد تنوعوا فى عذابهم أنواعا ، فكان أحدهم يشد رأس الرجل بحبل قنب ثم يلويه ليا عنيفا حتى يغوص ذلك الحبل فى رأسه ، ثم يؤخذ من تحت ابطيه وتربط ابهام يديه من وراء ظهره ثم يلقى على ظهره ويغم بخرقة فيها رماد سخن ، أو يعلق الرجل من ابهام رجليه فى سقف الدار ثم يوقدون تحته النار حتى يموت من ذلك العذاب أو يسقط من الحبل فى النار . ففعل عسكر تمرلنك بأهل دمشق من هذا النمط وأمثاله ما تشيب من سماعه النواصى ، فأقاموا على ذلك تسعة عشر يوما وهم على ماذكرناه من أنواع هذا العذاب .

فلما كان يوم الثلاثاء ثامن عشرى رجب من سنة ثلاث وثمانمائة دخل فى ذلك اليوم الى دمشق عسكر كأمواج البحر وهم مشاة وبأيديهم سيوف مسلولة، فنهبوا ما بقى فى المدينة ، وأسروا النساء والشباب والرجال وساقوهم فى حبال لا يعلمون أين يذهبون بهم ، ثم تركوا الأطفال الرضع ومن عمره أربع سنين والشيوخ الفانية والعجائز بالمدينة . وكان من جملة من أسروه فى هذه المعركة قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى وغيره من العلماء والفقهاء وقضاة دمشق وأعيان دمشق من التجار

وغيرها ، وأسروا جماعة كثيرة من عسكر مصر وأمرائها وقضاتها وغير ذلك . وكان من أسره تمرلنك من النواب المقر السيفى دمرداش نائب حلب ، والمقر السيفى سودون قريب المقام الشريف نائب الشام ، والمقر السيفى شيخ المحمودى نائب طرابلس ، والمقر السيفى دقماق المحمدى نائب حماه . وأسر من العساكر الحلبية والشامية ومن أمرائهم ما لا يحصى عددهم ، فقيدهم وزنجرهم وساقهم قدامه .

وقيل انه لما توجه الى بلاد ابن عثمان حاصرها وانكسر ابن عثمان — وهو بايزيد بن مراد — فلما أسره جعله فى قفص من حديد وبقى يعجب عليه فى البلاد التى يدخلها . وأسر جماعة من ملوك الهند ، وأخرب بلاد الشرق ونهب ما بها .

فلما كان يوم الخميس مستهل شهر شعبان أمر تمرلنك باحراق مدينة دمشق ، فأضرم بها النار حتى صارت ترمى بشرر كالقصر ، كأنه جمالات صفر . وأحرقوا جامع بنى أمية حتى بقى جدارا قائما بغير سقوف ولا أبواب ولا رخام ، وأحرقوا غالب جوامع دمشق ومساجدها ، وأحرقوا الأسواق التى بها والقياسر بعد ما نهبوا ما فيها ، وأحرقوا غالب حاراتها التى صارت لا تعرف ، كما قيل فى المعنى :

وأمر بالأوطان والسكن الذى
قد كنت أعهده بخير وافر

لم ألق غير البوم فيها ساكنا
تبا له من طير نحس وأكن

وقد أصبحت دمشق ، بعد البهجة والسرور ، والنضرة والحبور ، أطلالا بالية ، ورسوما خالية ، قد خوت على عروشها ، وأقفرت من زخرفها ونقوشها ، لا نرى بها دابة تدب ، ولا حيوانا يهب ، سوى جثث قد احترقت ، وصور فى الثرى قد تعفرت ، وقد صارت تكسى من الذباب ثوبا ، ومغنما للكلاب ونهبا ، لايستهدى اللبيب فيها الى داره ، ولا يفطن الذكى الى محل سكنه من مزاره ... فانا لله وانا اليه راجعون لعظم هذه المصائب ، وشناعة هذه النوائب . فلم توقظنا حوادث الأيام ، ونحن فى ليل الغفلة نيام ، فلا نعتبر بما جرى للأنام ، ولا نرجع عن ذنوبنا والآثام . وقد قال القائل فى المعنى :

ان ترمك الأقدار فى أزمة
أوجبها أجرامك السالفه

فادع الى ربك فى كشفها
ليس لها من دونه كاشفه

وقد هلك فى هذه النازلة من الناس ما لا يحصى عددهم ، فجماعة بالقتل وأنواع العذاب ، وجماعة بالجوع والعطش فى مدة هذه المحاصرة لعدم الأقوات . فكانت هذه الفتنة من أعظم فتن قرن الثمانمائة .

روى فى بعض الأخبار عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه قال : « يارب ... أنت فى السماء ونحن فى الأرض ، فما علامة غضبك من رضاك ؟ » ... فأوحى الله تعالى اليه : « يا موسى ... اذا استعملت عليكم خياركم فهى علامة رضائى ، واذا استعملت عليكم شراركم فهى علامة سخطى . فلا تشتغلوا بسب الملوك ، وتوبوا الى أعطف عليكم قلوب الملوك » ...

فلما كان يوم الجمعة ثانى شهر شعبان ، رحل تمرلنك عن دمشق بعد ما فعل الذى فعله ، فأخذ عسكره وخرج من دمشق . وكانت مدة اقامته بدمشق الى أن رحل عنها نحو ثمانين يوما .

قيل ان تمرلنك لما أراد أن يرحل عن دمشق جمعوا له أطفال المدينة الذين أسر أهلهم ، فكانوا ما بين ابن خمس سنين الى شهر وشهرين ، فركب

تمرلنك وأتى الى ذلك المكان الذى هم به خارجا عن المدينة . فلما أتى اليهم وقف ساعة وهو ينظر اليهم ويتأملهم ، ثم قال للعسكر : « سوقوا عليهم بالخيل » ... فساقوا بالخيل فماتوا أجمعين ، وكانوا نحو عشرة آلاف طفل . فلما رجع لامه أمراؤه على ذلك فقال : « ما نزل على قلبى فيهم رحمة » . فكان تمرلنك يقول : « أنا غضب الله فى أرضه ، يسلطنى على من يشاء من خلقه » . فكان حال الأطفال مع تمرلنك كما قيل فى المعنى :

وجرم جره سفهاء قوم　　فحل بغير جانبه العذاب

ولما رحل تمرلنك عن دمشق صار من بقى فيها من عسكر السلطان ومن أهلها يجتمعون ويترافقون ويخرجون من دمشق الى الديار المصرية ، فيخرج عليهم العربان والعشير وينهبون ما معهم ويعرونهم ولم يتركوا لهم غير اللباس فى وسطهم ، فجرى عليهم من العربان والعشير ما لم يجر عليهم من عسكر تمرلنك ، فكان أكثرهم ينزل من البحر المالح ويجىء من جهة دمياط فيدخلون الى مصر وهم فى أنحس حال . وقد ذهبت حرمة المملكة ، ولم يبق للسلطان قيمة ولا للترك حرمة . فعزم السلطان الناصر على العود الى دمشق ثانيا ويوقع مع تمرلنك مرة أخرى . ثم حضر الطنبغا العنبرى وأخبر الملك الناصر بأن تمرلنك رحل عن دمشق وهو مريض ، وقد طلعت له حمرة فى جسده وقد تألم لها . فلما تحقق السلطان ذلك أبطل أمر التجريدة ولطف الله تعالى بالناس كما قيل فى المعنى :

اصبر قليلا فبعد العسر تيسير
وكل شىء له وقت وتقدير
وللمهيمن فى أحوالنا نظر
وفوق تدبيرنا لله تدبير

ثم حضر سودون نقيب قلعة دمشق وعلى يده كتاب من عند تمرلنك للسلطان ، وهو يعتذر له مما قد جرى . وأرسل يطلب قريبه أطلمش الذى كان قد أسر فى أيام الملك الظاهر برقوق — وقد تقدم سبب ذلك — وأنه اذا حضر أطلمش عنده يطلق من عنده من الأسرى .

فلما حضر كتاب تمرلنك الى السلطان جمع الأمراء واستشارهم فى ذلك وما يصنع ، فأشاروا عليه بأن يطلق أطلمش ويرسله اليه فرسم باطلاقه ، وكان فى البرج بالقلعة . ثم عين معه الأمير قانباى النوروزى أغات سودون بقجة ، وعين معه الأمير شهاب الدين بن غلبك من أمراء حلب ، فتوجهوا الى تمرلنك وصحبتهم أطلمش وقد كساه السلطان وأحسن اليه . فلما وصلوا الى تمرلنك أكرمهم وقبل مراسيم السلطان ، وتفارش وبكى ، واعتذر مما وقع منه ، وقال : « هذا كان مقدرا » ...

وقيل كان تمرلنك — مع هذه السطوة العظيمة — أعرج بوركه الأيمن ، وكان اذا أراد أن يركب تحمله الرجال على أكتافهم حتى يركب . وكان قصير القامة ، غليظ الجسد ، مستدير اللحية ، قد وكزه الشيب . وكان ثقيل الحركة ، ولكن كان له سعد خارق حتى جرى منه ماجرى ، وملك البلاد ، وقهر العباد ، ونهب الأموال وأسر النساء والرجال ، ويتم الأطفال . وقد قيل فى المعنى :

رزق الضعيف بعجزه　　فاق القوى الأغلبا
فالنسر يأكل جيفة　　والنحل يأكل طيبا

فلما تسلم تمرلنك أطلمش أطلق من كان عنده من الأسرى جميعهم وأرسلهم صحبة قانباى النوروزى ، وأرسل للسلطان هدية صحبة الخواجا مسعود الكججاوى ، وكان من جملة الهدية فيل عظيم الخلقة وعلى ظهره صندوق خشب يجلس

فيه نحو عشر أنفس يضربون بالكئوسات .
وأرسل مع الفيل أشياء كثيرة جليلة غير ذلك .

فلما دخل قانباى النوروزى الى القاهرة كان له يوم مشهود ، ودخل لابسا خلعة تمرلنك وهى مخمل أحمر مزهر ، وعلى رأسه تاج مخمل مذهب ، وقدامه الأسرى الذين كانوا عند تمرلنك وقد خلع عليهم ، فلما رأى أهل مصر ذلك الفيل تعجبوا من خلقته غاية العجب ... ولما عاد قانباى النوروزى من عند تمرلنك كان يدعى قانباى التمرلنكى . ثم بعد مدة خلع السلطان على قانباى المذكور واستقر به نائب الكرك ، فأقام هناك مدة يسيرة ثم نقله الى نيابة الاسكندرية

فلما سكن أمر تمرلنك وتحقق رجوعه الى بلاده ، عمل السلطان الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى نوروز الحافظى وجعله مشير الدولة ومدبر المملكة ، فعظمت حرمته على الاطلاق ، ونفذت كلمته فى الآفاق . وخلع على المقر السيفى تغرى بردى واستقر به نائب الشام عوضا عن سودون قريب السلطان . فلما خلع عليه رسم له بأن يخرج الى الشام من يومه ليعمر ما أفسده تمرلنك من دمشق ، فخرج على جياد الخيل من غير طلب .

ثم فى أثناء ذلك حضر المقر السيفى شيخ المحمودى ، وكان أسيرا عند تمرلنك فهرب من عنده وحضر الى القاهرة . فلما حضر فرح به السلطان وخلع عليه واستقر به نائب طرابلس على عادته ، فخرج اليها من يومه بسبب عمارة البلاد .

ثم فى أثناء ذلك حضر المقر السيفى دقماق المحمدى نائب حماه ، وكان أسيرا عند تمرلنك فهرب من عنده وحضر الى القاهرة ، فلما حضر خلع عليه السلطان واستقر به نائب حماه على عادته . ورسم له السلطان بأن يخرج من يومه لعمارة ما أفسده تمر لنك من حماه ، فخرج على جرائد الخيل من غير طلب .

ثم فى أثناء ذلك خلع السلطان على الأمير تمربغا المنجكى واستقر به نائب صفد ، وخلع على الأمير تنكز الحططى واستقر به نائب بعلبك ، وخلع على الأمير طولو ابن على شاه واستقر به نائب ثغر الاسكندرية عوضا عن قانباى النوروزى وأنعم على قانباى النوروزى بتقدمة ألف بمصر .

وفيها ، فى يوم الخميس تاسع عشرى شعبان ، خلع السلطان على القاضى ناصر الدين الصالحى واستقر به قاضى القضاة الشافعية بمصر عوضا عن قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى بحكم أسره عند تمرلنك ، وخلع على القاضى أمين الدين الطرابلسى الحنفى واستقر به قاضى قضاة الحنفية بمصر عوضا عن القاضى جمال الدين الملطى الحنفى بحكم وفاته فى البلاد الشامية ، وخلع على القاضى جمال الدين الأقفهسى المالكى واستقر به قاضى قضاة المالكية بمصر عوضا عن نور الدين بن الجلالى بحكم وفاته ، وخلع على القاضى مجد الدين بن سالم الحنبلى واستقر به قاضى قضاة الحنابلة بمصر عوضا عن القاضى موفق الدين الحنبلى بحكم وفاته . ثم ان القاضى جمال الدين الأقفهسى المالكى أقام فى القضاء الى ثالث عشرى شهر رمضان وعزل عنه وتولى عوضه القاضى ولى الدين بن خلدون المالكى المغربى .

وفيها خلع السلطان على المقر السيفى يشبك الشعبانى واستقر به دوادارا كبيرا ومشير المملكة مع نوروز الحافظى ، وخلع على الأمير يشباى بن باكى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن أقباى الطرنطاى ، وخلع على الأمير تمر البريدى واستقر به مهمندارا عوضا عن الطنبغا المعروف بسيدى ، وأنعم على الطنبغا المذكور بتقدمة ألف بحلب .

نفس الملك الناصر يخشى من الأمير جكم هـذا ، كما قيل فى المعنى :

ان الأسـود لتخشى وهى ساكنة
والكلب يخسا لعمرى وهو نباح

وفى هذه السنة توقف النيل عن الزيادة ، ووقع الغلاء بالديار المصرية ، وتشحطت الغلال حتى بلغ سعرها الى أربعة أشرفية كل أردب ... فأقام على ذلك أياما ثم ان النيل زاد فى يوم واحد ثمانية وأربعين اصبعا وبقى على الوفاء ستة عشر اصبعا ، ثم أوفى وزاد عن الوفاء خمس أصابع . قال القائل فى المعنى :

يانيل مصر كم يد لك بالوفا
أوليتنا بالكسر جبرا دائما
أوفيت قبل الكسر خمس أصابع
كرما فكانت للوفاء خواتما

وأما من توفى فى هذه السنة من الأعيان فهم المقر السيفى سودون نائب الشام ، مات مأسورا عند تمر لنك . وتوفى الأمير بجاس النوروزى أحد الأمراء المقدمين ، وتوفى قاضى القضاة بدر الدين أبو البقاء السبكى الشافعى ، وكانت وفاته فى ليلة السبت سابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة . وتوفى قاضى القضاة جمال الدين يوسف الملطى الحنفي ، وتوفى قاضى القضاة نور الدين بن الجلال المالكي ، مات فى تجريدة تمر لنك باللجون من طريق الشام لما توجه مع السلطان فى تجريدة تمر لنك . وتوفى قاضى القضاة شهاب الدين أحمد النحريرى المالكى ، مات وهو منفصل عن القضاء . وتوفى القاضي شرف الدين بن الدماميني قاضي القضاة بثغر الاسكندرية ، وتوفى الشيخ الحافظ المحدث علاء الدين بن اللحام الحنبلى الدمشقى ، وتوفى سيدي أبو بكر ابن الملك الأشرف شعبان ، وتوفى الصاحب فخر الدين بن مكانس صاحب الأشعار اللطيفة ، وقيل توفى الصاحب فحر الدين ابن مكانس فى دولة الملك الظاهر برقوق كما تقدم والله أعلم . وقد تولى الوزارة مرتين ، وتولى ناظر الجيش وناظر الخاص ، وباشر وظائف كثيرة ، وكان من أهل الفضل والعلم ، وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد ومصنفات لطيفة . ومن شعره قوله فى الامام على كرم الله وجهه :

يا ابن عم الرسـول ان أناسا
قد تولوك بالسعادة فازوا
أنت للعلم فى الحقيقة باب
يا اماما وما سواك مجاز

وتوفى فى هذه السنة أيضا الشيخ بهاء الدين أبو الفتح آخو الشيخ سراج الدين عمر البلقينى الشافعى ، وتوفى الشيخ شمس الدين بن المكين المالكى شيخ الحديث الشريف ، وتوفى سيدي خليل بن تنكز نائب الشام ، وكان ابن بنت الناصر محمد بن قلاون . وتوفى قاضى القضاة بدر الدين الأقفهسى ، وتوفى الخواجا نور الدين بن الخروبى التاجر الكارمى ، وهو صاحب المدرسة التى فى مصر بالقرب من شاطىء النيل ، وكانت وفاته فى عاشر رجب من هذه السنة . وتوفى الشيخ الصالح المجذوب سيدى أبو بكر صاحب الكلوته ، وكان من كبار الأولياء .

سنة اربع وثمانمائة (١٤٠١/١٤٠٢ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن عربان بنى عقبة قد تعرضوا للحجاج ونهبوا ما معهم ، فأوقع معهم أمير الحاج فكسرهم وأسر شيخهم منجد بن خاطر وأحضره بين يدى السلطان فأراد توسيطه ، فالتزم برد ما نهب للحجاج ، فسجن حتي شرع فى رد ذلك .

وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن أهل دمشق

رجموا نائب الشام تغرى بردى وأرادوا قتله فهرب عند نائب حلب ، فلما بلغ السلطان ذلك أرسل تقليدا الى المقر السيفى أقبغا الجمالى بأن يستقر نائب الشام عوضا عن تغرى بردى .

وفيها تزوج المقر السيفى نوروز الحافظى بأخت الملك الناصر فرج — وهى بنت الملك الظاهر برقوق — فكان لهما مهم عظيم ، ودخل عليها فى العشرين من المحرم وفى أثناء ذلك تزوج ايضا المقر السيفى اينال باى بن قجماس بأخت السلطان الصغرى ، ودخل عليها فى نصف صفر ، وكان لهما مهم عظيم .

وفيها فى يوم الأربعاء خامس عشرى صفر ، بلغ الأمراء بأن السلطان قد أسكن آلان الخاصكى فى القاعة الأشرفية وفتح لها من دهليز القصر بابا ، فتخوف الأمراء من ذلك وامتنعوا من الطلوع الى القلعة ، وأقاموا على ذلك أياما ، فأرسل اليهم السلطان الأمير أقباى حاجب الحجاب وهو يقول لهم : « لم لا تطلعوا تبيتوا فى القصر على جرى العادة ؟ » ... فقالوا : « ما نطلع الى القلعة حتى يمسك لنا السلطان ثمانية من الأمراء العشراوات » ... فرسم السلطان لهم بالخروج الى ثغر دمياط ، وجماعة منهم الى الشام ، فركب المقر الأتابكى بيبرس وأتى الى بيت الأمير نوروز الحافظى ، فشفع عنده فيهم ، فلم يوافقه بقية الأمراء على ذلك ، وأرسلوا اليهم حاجب الحجاب فأخرجهم من بيوتهم . فلما أتى الى بيت الأمير سودون بقجه ، وأراد القبض عليه ، رمى نفسه من الطاق الى بركة الفيل وهرب . ثم توجه الى غيره من الأمراء فلم يجد منهم أحدا فى بيته . وكان السلطان أرسل يقول لهم : « تغيبوا من بيوتكم » .

ثم ان السلطان رسم للخليفة والقضاة الأربعة بأن يتوجهوا الى بيوت الأمراء ويشفعوا فى هؤلاء الأمراء ، فتوجهوا اليهم وتحدثوا معهم فى ذلك ، فوقع الاتفاق على أن الأمير سودون الحمزاوى يستقر فى نيابة صفد ويخرج اليها من يومه ، وبقية الأمراء يخرجون الى الشام كما تقرر عليه الحال أولا ، ولم يقبلوا شفاعة الخليفة ولا القضاة الأربعة .

فلما كان يوم الاثنين خامس عشرى صفر طلع الأمير سودون الحمزاوى الى القلعة ، فأحضروا له خلعة ليستقر نائب صفد كما تقرر . فلما أحضروا له الخلعة لم توافق المماليك السلطانية على ذلك ، ومنعوه من لبس الخلعة ، فحصل فى ذلك اليوم بعض اضطراب بين العسكر .

وفيها أرسل السلطان تقليدا الى دقماق المحمدى نائب حماه بأن يستقر نائب حلب عوضا عن المقر السيفى دمرداش المحمدى ، ورسم لدمرداش المحمدى بأن يحضر الى القاهرة لما تقتضيه الآراء الشريفة .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة الطواشى عبد اللطيف الساقى ، وكان ممن أسر عند تمرلنك فهرب من عنده بعد أن قاسى من الشدائد ما لا خير فى ذكره ، وأخبر بأن ابن تمرلنك توجه الى ماردين ثم الى بغداد ، وأوقع مع أهل بغداد واقعة عظيمة فكسره أهل بغداد كسرة قوية ... هذا بعد أن رجع من الشام . فلما بلغ تمرلنك أن ولده قد انكسر توجه هو بنفسه الى بغداد وحارب أهلها وأخربها ، وفعل بها كما فعل بالشام . وأخبر أيضا عن تمرلنك أنه وضع قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى فى تليس وأغرقه فى نهر الفرات عند القنطرة .

وفيها فى يوم الاثنين رابع جمادى الآخرة خلع الملك الناصر على الشيخ جلال الدين عبد الرحمن

ابن شيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى ، واستقر به قاضى القضاة الشافعية بالديار المصرية عوضا عن القاضى ناصر الدين بن الصالحى

وفيها جاءت الأخبار من غزة بأن الأمير صرق الظاهرى نائب غزة قد خامر وخرج عن الطاعة ، فلما تحقق السلطان ذلك خلع على الأمير الطنبغا العثمانى واستقر به نائب غزة عوضا عن صرق ، ثم بعد أيام حضر مقدم البريدية ومعه سيف صرق وأخبر بأن أمير جرم مع عربان نابلس أوقعوا مع صرق فانكسر صرق وقتل فى المعركة ، فأرسلوا سيفه الى السلطان واحتاطوا على موجوده . وفى أثناء ذلك جاءت الأخبار من طرابلس بأن نائب طرابلس شيخ المحمودى قد خرج عن الطاعة ، وأظهر العصيان ، وأمسك حاجب طرابلس وجماعة من أمرائها سجنهم بسجن المرقب ، وأنه قد استخدم جماعة كثيرة من التركمان والعشير ، وعمل له برك عظيم .

وفيها جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير دقماق المحمدى ، لما استقر نائب حلب وتوجه اليها ، خرج اليه دمرداش نائب حلب وأوقع معه واقعة قوية ، فانكسر دمرداش ونهب بركه وهرب الى نحو ملطية .

وفيها فى يوم الاثنين رابع عشرى رجب خلع السلطان على القاضى جمال الدين البساطى المالكى واستقر به قاضى القضاة المالكية عوضا عن قاضى القضاة ولى الدين بن خلدون المغربى الحضرمى المالكى .

ومن الحوادث الفلكية أن نجماً طلع فى الجانب الغربى وله ذؤابة صاعدة الى السماء ، فاستمر يطلع فى كل ليلة بعد المغرب ويقيم الى ثلث الليل ، فأقام على ذلك الى أواخر شهر شعبان ، فكان يطلع بالنهار عند طلوع الشمس ، فكان يرى بالنهار مع ضوء الشمس ويقيم الى وقت الظهر ، ثم اختفى من بعد ذلك .

ومن الوقائع اللطيفة أنه فى يوم الاثنين مستهل شهر شعبان من هذه السنة أخرجوا الفيل الكبير الذى كان تمرلنك ارسله الى الملك الناصر صحبة قانباى النوروزى — وتقدم ذكر ذلك — فلما أخرجوه ليسيروا به توجهوا به الى نحو بولاق ثم رجعوا به من على قنطرة الفخر ليطلعوا به على باب البحر ، فلما عدوا به على قنطرة الفخر وأتوا به الى رأس العطفة التى تخرج الى الخليج الناصرى وهناك بجمون ، فداس الفيل على ذلك البجمون فانخسف به فغاصت رجله فيه الى فخذه فلم يقدر أحد من الناس أن يخلصه ، فأقام على ذلك ساعة ثم مات . فلما أشيع أمره فى القاهرة خرجت اليه الناس زمرا يتفرجون عليه . وقد غلقت الأسواق فى ذلك اليوم بسبب الفرجة ، وكان يوما مشهودا ، وقد رثاه بعض الزجالة بهذا الزجل اللطيف :

تعا اسمعوا بالله يا ناس اللى جرى
الفيل وقع يوم الاثنين فى القنطره

لما أفلسوا غلمان الفيل	راموا الجزاف
خدوه وراحوا صوب بولاق	يجيبوا المطاف
رأوا شويخ من أهل الله	ما فيه خلاف

جوا ياخدوا شاشو منو بالزنطره
دعا على الفيل انقنطر فى القنطره

قالوا بأنو فى البجمون	مغروس يصيح
فقلت حتى أروح أبصر	ان كان صحيح
أجى ألاقى الفيل ميت	ملقى طريح

والناس تطلع فوق ظهره مستظهره
لما وقع يوم الاثنين فى القنطره

واولاد ديار مصر الساده حولـو زمـر
يتعجبوا من هـذا الفيل اللى انحصـر
رأوا دموع عينو تجرى مثـل المطـر
ولو جعير والعـالم دول متفكره
لمـا وقع يوم الاثنين فى القنطـره
فقلت لو يا فيل مرزوق يا اسود دغوش
أين حرمتك بين العـالم واتتـا تهـوش
وكنت يا فيـل السلطان زين الوحوش
وكنت بالاعجاب تزهو فى المخطره
وقد بقيت اليوم مطروح فى القنطره
والفيل لسان حالو ناطق للنـاس يقـول
كم كنت نا ادور فى الزفه فـوقى طبـول
وكنت نا ادور فى المحمل ولـى قبـول
كنى عروسه حين تجلى فى المنظره
واليوم كان آخر مشيى فى القنطرة
وقالت الفيـله امراتو من لى معـين
سهم الفراق قد صاب قلبى يا مسـلمين
ونا غريبـه هنـديه قلبى حـزين
وكان هذا الفيـل زوجى لا معيره
واليوم كان آخر عمرو فى القنطره
وعيطـت حـتى أبكت جيرانهـا
من كتر ما ناحت ناحـو لأحزانهـا
من نارها صـارت تلطم بودانهـا
حتى الزرافـة جاءتهـا متحسرة
تبكى على الفيل اللى مات فى القنطره
لمـا ظهر دا فى شـعبان آخـر رجـب
لاحت لنـا فيـه نجمـه لهـا ذنـب
فقـالت العـالم أجمـع دا لـو سـبب
وايش دلايل ذى الكوكب يامن درى
دلت على الفيل اللى مات فى القنطره

يا ناصر الدين من عمرى ادر الدخـول
والناس تقـول الى قيم صاحب قبـول
لما هلك ذا الفيل مرزوق فصرت أقـول
تعـا اسمعوا بالله يا ناس اللى جـرى
الفيل وقع يوم الاثنين فى القنطره

ومن الحوادث فى هذه السنة أنه فى يوم الجمعة ثانى شـوال وقعت الفتنـة بين الأمـير نوروز الحـافظى ، وبين الأمير جكم العـوضى والأمير سودون طاز أمير آخور كبير ، فلبسوا آلة الحرب فى ذلك اليوم ، ووقفوا بسـوق الخيل ، ونزل السـلطان الى باب السلسلة ثم جلس فى المقعـد المطل على الرميلة ، وطلع الأمراء الذين هم من عصبة السلطان الى باب السلسلة ، وتقاتلوا مع هؤلاء الأمراء أشد القتال . ثم ان السلطان رسم للخليفة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى والقضاة الأربعة بأن يتوجهوا الى الأمراء ويمشوا بينهم بالصلح مع بعضهم ، فتوجهوا اليهم وسعوا بينهم بالصلح ، فاصطلحوا صلحا على فسـاد ، وصارت القلوب معمرة بالعداوة لبعضهم كما قال بعضهم فى المعنى :

أعدى عـدوك أدنى من وثقت به
فحاذر الناس واصحبهم على دخل
فانمـا رجـل الدنيـا وواحـدها
من لا يعول فى الدنيـا على رجل

فطلع السلطان الى القلعـة وخمـدت الفتنة قليـلا .

ثم فى يوم السـبت رسم السـلطان للخليفة والقضـاة الأربعـة بأن يتوجهـوا الى الأمراء ويحلفوهم للسـلطان ، فتوجهوا الى بيت الأمير بيبرس وحلفوه ، ثم توجهوا الى بيت الأمير نوروز الحافظى وحلفوه ، ثم توجهـوا الى بيت الأمير

سودون طاز أمير آخور كبير ، وكذلك بقية الأمراء ، فكانت أيمانهم كاذبة كما قيل فى المعنى :

حلفتهم لا يخونوا فى الهوى ذممى
كأنما حلفوا لى أن ما حلفوا

فلما كان يوم الاثنين خامس شوال طلع الأمراء الى القلعة — وباسوا الأرض للسلطان — واصطلحوا ، فخلع على جماعة منهم ونزلوا الى بيوتهم . فلما نزل الأمير چكم الى بيته أرسل السلطان اليه خلعة وقال : « هذه لأخيك قانباى رسم له السلطان بأن يستقر نائب حماه » ... فلما سمع الأمير جكم ذلك عز عليه وتوجه الى نحو بركة الحبش وأخذ معه أخاه قانباى العلائى والأمير قرقماس الاينالى ، فلما بلغ ذلك الى المماليك السلطانية توجه اليه منهم جماعة نحو خمسمائة مملوك ، فأقاموا هناك يوم الخميس ويوم الجمعة .

فلما كان يوم الجمعة طلع الأمير نوروز القلعة وصلى مع السلطان صلاة الجمعة ، ثم نزل الى بيته فأقام ساعة ، فأرسل اليه السلطان جمدارا وقال له : « قم كلم السلطان » فقال : « أنا كما نزلت من عند السلطان ايش يعمل بى ؟ ولكن غدا أنا بين يديه » ... فلما رجع من عنده الجمدار أقام فى بيته الى بعد العشاء ثم أرسل خلف الأمير تمر بغا المشطوب ، والأمير سودون زاده ، وجماعة من الأمراء العشراوات . فلما تكاملوا ركب الأمير نوروز ومعه الأمراء الذين أرسل خلفهم وتوجهوا جميعا الى الأمير العوضى .

فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله ، ونزل الى باب السلسلة ، وجلس فى المقعد المطل على الرميلة ، وعلق الصنجق السلطانى ، ودقت الكئوسات حربى ، فطلع اليه جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ، فوقفوا فى سوق الخيل ، فأقاموا على ذلك يوم السبت ويوم الأحد فلم يجىء اليهم أحد من الأمراء الذين توجهوا الى بركة الحبش .

فلما كان يوم الأحد توجه المماليك السلطانية الى نحو باب الزغلة عند زاوية القاضى بكار ، فبعد ساعة واذا بجاليش الأمير جكم العوضى قد أقبل من نحو بركة الحبش ، فتلاقوا هناك وأوقعوا مع عسكر السلطان ، فكان بينهم واقعة قوية ، فقتل فى ذلك اليوم ثلاثة من المماليك السلطانية وجماعة من الغلمان ، فكان عدة من قتل وجرح من الناس والغلمان نحو ستين انسانا ، وأسر من المماليك السلطانية اثنا عشر انسانا ، ثم حال بينهم الليل . ففى تلك الليلة تسحب جماعة من الأمراء من عند السلطان الى الأمراء الذين فى بركة الحبش . وكان من الذين تسحبوا الأمير سودون البجاسى ، والأمير تمربغا الطرنطاى ، والأمير سودون الجلب ، وتسحب معهم نحو مائة مملوك من المماليك السلطانية .

فلما كان يوم الثلاثاء أشهر السلطان المنادى للمماليك السلطانية بالعرض ، فعرضوا فى يوم الأربعاء .

فلما كان يوم الخميس فرق السلطان خيولا ولبوسا على المماليك الذين عرضهم . ثم انه ركب وخرج من باب السلسلة ووقف بسوق الخيل ساعة حتى تكامل العسكر ، وأرسل خلف أمير المؤمنين المتوكل والقضاة الأربعة ، فلما حضروا جميعا توجه السلطان والأمراء والعسكر الى باب القرافة ، فتقدم چاليش السلطان وكان فيه من الأمراء الأمير يشبك السودونى ، والأمير سودون تلى ، ثم تبعهما الأتابكى بيبرس ومعه نحو من ألف مملوك . فلما وصلوا الى مصلت خولان التى بالنقعة ، أقبل جاليش الأمراء الذين فى بركة الحبش ، فأوقع الفريقان هناك واقعة قوية ، ثم بعد ساعة واذا

بالملك الناصر قد أقبل ومعه السواد الأعظم ، فوقع فى قلوب الأمراء الذين أتوا من بركة الحبش الرعب من السلطان ، فلما وقع القتال بينهما انكسر الأمراء الذين كانوا فى بركة الحبش . فأول من أمسك منهم الأمير تمر بغا المشطوب ، والأمير سودون بن زاده ، والأمير على بن اينال ، وجرح الأمير يشبك الساقى ، والأمير قمج الحافظى ، وأسر جماعة كثيرة من الأمراء العشراوات والخاصكية والمماليك السلطانية ، وهرب بقية الأمراء منهزمين الى نحو بركة الحبش وقد تمزقوا كل ممزق من الطفشان . فلما حصلت هذه النصرة للملك الناصر — وكانت على غير القياس — رجع الى القلعة ومعه الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء الذين أسروا قدامه مشاة ، وهم فى زناجير حديد ، حتى طلع الى القلعة وهو فى غاية النصر ، وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

الملك الناصر أعظم به
من ملك جاء بأمر عجيب
قد كتب السعد باقباله
نصر من الله وفتح قريب

هذا ما كان من أمر الملك الناصر فرج .

وأما ما كان من أمر الأمير جكم العوضى ، والأمير نوروز الحافظى ، والأمير قانباى العلائى ، والأمير يشبك بن أزدمر أخى اينال ، والأمير قرقماس وبقية الأمراء ، لما أن وقعت عليهم الكسرة وهربوا ، استمروا الى أن وصلوا الى الميمون ، فأقاموا هناك يومين ثم عدوا الى بر الجيزة ، فأخذوا خيول الدشار والهجن التى هناك ، وأقاموا فى الجيزة ثلاثة أيام . ثم ان الأمير نوروز الحافظى حضر تحت الليل الى القاهرة ، وتوجه الى بيت الأتابكى بيبرس ، فطلع به الى السلطان وقابل به ، فان نوروز كان صهر الملك الناصر فرج زوج أخته . فلما أن قابله رسم له السلطان بأن يستقر نائب الشام ، وأرسل اليه خلعة ورسم له بأن يخرج من يومه .

وكان من جملة سعد الملك الناصر أن فى تلك الليلة اتفق جماعة من المماليك السلطانية نحو من ألف مملوك بأن يتوجهوا الى الأمير نوروز والأمير جكم ، فلما حضر الأمير نوروز رسم له بأن يستقر نائب الشام ، فلما برز خيامه فى الريدانية وخرج اليها أرسل اليه السلطان من قيده ثم أرسله من هناك الى ثغر الاسكندرية فسجن بها . فلما بلغ الأتابكى بيبرس ذلك عز عليه لكونه حلف لنوروز بالطلاق أنه اذا قابل به السلطان لا يشوش عليه . فلما فعل به السلطان ذلك عز على الأتابكى بيبرس .

هذا ما كان من أمر الأمير نوروز الحافظى .

وأما ما كان من أمر الأمير جكم العوضى فانه أرسل يسأل السلطان أن يرسم له بأن يتوجه الى ثغر دمياط من غير سجن ، فرسم له بذلك ، فتوجه اليه الأمير اينال حطب رأس نوبة ثانى فأحضره الى القاهرة فى ليلة الأربعاء . فلما حضر طلع الى باب السلسلة عند الأمير سودون أمير آخور كبير ، فشاور عليه السلطان فرسم بتقييده ، فقيد هو والأمير سودون زاده وجماعة من الأمراء الذين قد خامروا على السلطان وتوجهوا الى الأمير جكم ، فقيدوا أجمعين ، وأرسلوا الى السجن بثغر الاسكندرية ، وكان المتسفر عليهم الأمير سودون تلى .

ثم ان السلطان رسم بالافراج عن الأمير يشبك الشعبانى — وكان بالسجن بثغر الاسكندرية — فلما حضر خلع عليه واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير جكم العوضى .

ثم ان السلطان رسم بالافراج عن الأمير قطلوبغا

الحسنى والأمير أقباى الكركى والأمير جركس القاسمى المصارع ، فتوجه لاحضارهم الأمير سودون بقجة ، فأخرجهم من السجن بثغر الاسكندرية .فلما حضروا طلعوا الى القلعة وباسوا الأرض ، فأنعم عليهم السلطان بتقادم ألوف عوضا عن الأمراء الذين توجهوا الى السجن بثغر الاسكندرية كما تقدم ، فكانوا مثل بابات خيال الظل ، فشىء يجىء وشىء يروح ، كما قد قيل فى المعنى :

رأيت خيال الظل أعجب منظرا
لمن هو فى علم الحقيقة راقى
تمر وتمضى بابة بعد بابة
وتفنى جميعا والمحرك باقى

وفى هذه السنة ، فى يوم الثلاثاء ثالث عشر شوال ، ورد كتاب من ثغر الاسكندرية حضر من بلاد ابن عثمان على يد جماعة من التركمان فأخبروا فيه بأن تمرلنك قد هلك عن يقين [1] . قال القاضى تقى الدين المقريزى محتسب القاهرة : « كنت عند القاضى فتح الله كاتب السر الشريف فجاءه كتاب ابن عثمان يذكر فيه موت تمرلنك ، وأن القان أحمد بن أويس رجع الى بلاده وكذلك قرا يوسف ، وأخبر بأن الحمرة التى طلعت فى جسد تمرلنك وهو على دمشق استمرت ترعى فى جسده حتى مات بها وعجل الله بروحه الى النار » . كما قد قيل :

زبانية النيران تكره وجهه
ومنه استعاذت مذ رأته جهنم

قيل انه لما دفن كان يسمع عواء فى قبره مثل عواء الكلاب . وقال بعض السياح انه قد شاهد الدخان يطلع من قبره . وقيل انه لما دفن لم تقبله الأرض ، فصنعوا له صندوقا من خشب ووضعوه فيه وعلقوه بين السماء والأرض وقيل ان تمرلنك كان قد جمع عساكر كثيرة وقال : « ما أرجع حتى أدخل مصر وأفعل بها ما فعلت فى دمشق » ... فأخذه الله تعالى وكفى الناس شره . وقد قال القائل :

مات تمرلنك وجاءت لنا
أخباره فيما تأتى اليه
وقد كفانا ربنا شره
والله كافى من توكل عليه

وفى هذه السنة تأخر خروج المحمل من القاهرة الى ثانى عشرى شوال ، وهذا لم يعهد قط . وكان أمير المحمل فى تلك السنة الأمير نكسبيه الأزدمرى ، فكان تأخير المحمل الى هذه المدة لأمر حصل لأمير الحاج فعاقه عن الخروج

ومن الحوادث فى هذه السنة أن الأمراء دخلوا بيت الأتابكى بيبرس ولعبوا معه بالكرة ، فلما فرغوا وقصدوا التوجه الى بيوتهم خرج اليهم فى أثناء الطريق جماعة من المماليك الناصرية فضربوا الأمراء ، فهرب الأمير يشبك الشعبانى الدوادار فطلع الى باب السلسلة وأقام فيه الى العصر فلما بلغ ذلك الى السلطان رسم لوالى القاهرة بأن يحضر المماليك الذين فعلوا هذه الفعلة ، فأحضر منهم ثلاثة مماليك فضربهم السلطان بالمقارع وأشهرهم فى القاهرة ، فخمدت الفتنة قليلا .

وفى هذه السنة تزايدت عظمة المقر السعدى ابراهيم بن غراب ، وحظى عند الملك الناصر حتى انه استقر به أمير مجلس ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وصار يجلس مع الأمراء المقدمين تحت أمير كبير .

وفيها جاءت الأخبار من البحيرة بأن العربان نهبوا البلاد وأخذوا المغل وقتلوا جماعة كثيرة من

(1) فى « المنهل الصافى » و « الشذرات » وغيرهما ان تمرلنك توفى سنة ٨٠٧ هـ

الفلاحين ، فأرسل اليهم السلطان تجريدة وكان بها من الأمــراء المقدمين عشرة وهم : الأمــير يكتمر الركنى أمير ســلاح ، والمقر الســعدى ابراهيم ابن غراب أمــير مجلس ، والمقر السيفى يشــبك الشعبانى أمير دوادار ، والأمير سودون الماردينى ، والأمير يلبغا الناصرى ، واينال باى بن قجماس ، والأمير سودون بن على باى ، والأمير قطلوبغا الكركى ، والأمير ألان اليحياوى ، والأمير اينال العلائى نائب حــلب . ومن الأمــراء الطبلخانات والعشراوات أربعة عشر أمــيرا ، ومن المماليــك السلطانية أربعمائة مملوك — فخرجوا من القاهرة على حمية وتوجهوا الى البحيرة فأوقعوا مع العربان فطردوهم الى برقة ونهبوا أموالهم ومواشيهم .

سنة خمس وثمانمائة (١٤٠٢/١٤٠٣ م) :

فيها تغير خاطــر السلطان على المقــر الأتابكى بيبرس ، فرسم له بأن يتوجه هو وعياله الى ثغــر دمياط ، فأخذ فى أسباب توجهه الى دمياط ، فطلع سائر الأمراء المقدمين وشفعوا فيه عند الســلطان فبطل أمر سفره الى دمياط ورطى عليه .

سنة ست وثمانمائة (١٤٠٣/١٤٠٤ م) :

فيها وقع الخلف بين الأمــراء بمصر ، وجاءت الأخبار بأن عربان الشرقية والغربية قد كثر منهم الفساد . ثم جاءت الأخبــار من البــلاد الشامية والحلبية بأن النــواب قد خامروا وخرجوا عــن الطاعة ، وصار القيل والقال فى كل يوم عمالا بين الناس ، والأمراء فرقتان : فرقة مع الملك الناصر ، وفرقة عليه .

سنة سبع وثمانمائة (١٤٠٤/١٤٠٥ م) :

فيهــا وقع الوباء بالديار المصرية ، وكثر موت الفجأة ، وتحركت دموية بالناس ، وكان ذلك فى قوة البرد والشمس فى برج الدلو ، وكثر بالناس السعال والانحــدار ، فمات فى مدة ســبعة عشر يوما — وقيل فى دون الشهر — كثير من الناس ، وصاروا يتساقطون فى الطرقات موتا ... فأقام مدة يسيرة ثم ارتفع . فمات فى هذه المدة اليسيرة نحو ما كان يموت فى الفصول الكبار ، ولكن لم يظهر فيه طعن بل كان أهوية متحركة وأوخاما ، ولأجل ذلك لم يعده الشيخ شهاب الدين بن حجــر رضى الله عنه من جملة الطواعين التى وقعت بمصر لأنه لم يظهر فيــه طاعون ، وقد فرق بين الوباء وبين الطاعون فى كتابه المسمى ببذل الماعون فى أخبــار الطاعون .

فلما وقع هذا الوباء بمصر فتح المقر السعدى ابن غراب مغسلا برسم الأموات عند بيته الذى عند جامع بشتك الناصرى ، فكانوا يأتون اليه بالأموات على عتالــين يطرحونهم على بابه حتى يخرجهم من مغسله ، فكفن فى تلك السنة من ماله جماعة كثيرة من الغرباء وغيرهم لا يحصى عددهم ، فسمى فصل ابن غراب .

وفيها توفى سيدى على ابن سيدى محمــد وفى رضى الله تعالى عنه .

سنة ثمان وثمانمائة (١٤٠٥/١٤٠٦ م) :

فيها خلع على سعد الدين بن غراب واستقر كاتب السر الشريف بمصر عوضا عن فتح الله بعد القبض عليه والمصادرة وأقيم فى الترسيم .

وفيها جاءت الأخبار بأن دمرداش نائب حلب قد أطلق الأمير جكم العوضى من السجن ومعه جماعة من الأمراء وتوجه بهم الى حلب ، فاضطربت أحوال الملك الناصر بسبب ذلك ، وضاقت عليه الأمور ، وصار فى غاية الضنك مع الأمراء بخلفهم ، وتعصب عليه الأتابكى بيبرس وجماعة من الأمراء ، وصاروا يعاكسونه فى الأمور .

فلما كان يوم الأحد خامس عشرى ربيع الأول من السنة المذكورة نزل الملك الناصر من القلعة بعد العصر وهو ماش متنكر ، فاختفى فى مكان لا يعلم . فلما نزل من القلعة وبلغ ذلك الأمراء ركبوا وطلعوا الى باب السلسلة ، فلما اجتمعوا ضربوا مشورة فيمن يسلطنونه ، فوقع الاتفاق على سلطنة أخيه المقر العزى عبد العزيز ، فطلبوه من دور الحرم وسلطنوه فى ذلك اليوم ، ولقبوه بالملك المنصور ، وخلع الملك الناصر فرج من السلطنة ، فكانت مدة سلطنته فى هذه المدة ست سنين وخمسة أشهر وعشرة أيام ... ثم يعود الى السلطنة من بعد ذلك مرة ثانية — كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى — والله سبحانه وتعالى أعلم .

الملك المنصور عز الدين

هو الملك المنصور عز الدين أبو العز ابن الملك الظاهر برقوق بن أنص العثمانى الجركسى ، وهو السابع والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بمصر ، وهو الثالث من ملوك الجراكسة وأولادهم بالديار المصرية ، بويع بالسلطنة بعد العشاء ، وتلقب بالملك المنصور ، وجلس على سرير الملك ليلة الاثنين سادس عشرى ربيع الأول من سنة ثمان وثمانمائة بعهد من أبيه الملك الظاهر برقوق كما تقدم ، فباسوا له الأرض ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء ، ولم تدق له الكؤسات . فلبس خلعة السلطنة من القصر الكبير ، وحملت القبة والطير على رأسه ، وجلس على سرير الملك .

قال المقريزى : « تسلطن الملك المنصور عبد العزيز وله من العمر عشر سنين ، وكانت أمه أم ولد رومية الجنس تسمى تنق باى » .

فلما تسلطن لم يتم أمره فى السلطنة ، ولا ساعدته الأقدار ، ولم يبلغ المراد كما قيل فى المعنى :

ما كل من نال المعالى ناهضا
فيها ، ولا كل الرجال فحول

فلما تسلطن المنصور صار الأتابكى بيبرس صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وصار يتصرف فى أمر المملكة بحسب ما يختار من ذلك ، فانخفضت كلمة المقر السيفى يشبك الشعبانى الدوادار ، فعز ذلك عليه وتمنى عود الملك الناصر فرج ، فشكا ذلك الى المقر السعدى ابن غراب فى خلوة ، فقال له ابن غراب : « لا تهتم لذلك ... الملك الناصر عندى مختفى » ... ففرح يشبك بذلك ، وقام الى ابن غراب وقبل رأسه ثم أخذ فى أسباب ظهور الملك الناصر فرج .

فلما كان يوم الخميس رابع جمادى الآخرة ظهر الملك الناصر من بيت سودون الحمزاوى الذى عند البركة الناصرية . فلما أشيع ذلك اضطربت القاهرة وماجت ، ولبس العسكر آلة الحرب ، وصار الأمراء والعسكر فرقتين : فرقة مع الملك الناصر ، وفرقة مع أخيه عبد العزيز . وكان من عصبة الملك المنصور عبد العزيز : الأتابكى بيبرس ، والأمير سودون المحمدى ، والأمير اينال باى ابن قجماس ، والأمير سودون الماردينى ، وجماعة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، وجماعة من العسكر . وكان من عصبة الملك الناصر فرج : المقر السيفى يشبك الشعبانى الدوادار ، وجماعة كثيرة من الأمراء . وكان أكثر العسكر مع الملك الناصر ، فلبسوا آلة الحرب واقتتلوا فى ذلك اليوم أشد القتال ، فلم تكن الا ساعة يسيرة حتى انكسر الأتابكى بيبرس ومن معه من الأمراء ، وانتصر عليهم الملك الناصر فرج ، فركب من بيت سودون الحمزاوى وطلع الى القلعة وملكها . فرسم لأخيه

عبد العزيز بأن يدخل الى دور الحرم فدخلها وأقام بهـا محتفظا ، فكانت مدة سلطنته بمصر شهرين وعشرة أيام ، وكان فى السلطنة آلة لا ينتفع بهـا والأمر كله فى هذه المدة للأتابكى بيبرس .

عودة الملك الناصر فرج

قال المقريزى : « عاد الملك النـاصر فرج الى السلطنة وجلس على سرير الملك فى يوم الخميس رابع جمادى الآخرة من سـنة ثمـان وثمانمائة ، وبايعه الخليفة ثانيا .

فلما جلس على سرير الملك قبض على الأتابكى بيبرس ، وقيـده وأرسـله الى السجن بثغـر الاسكندرية ، وأرسل معه جماعة من الأمراء الذين كانوا سببا لسلطنة أخيه عبد العزيز ... والذى كان قصد الملك الناصر يفعله بالأتابكى بيبرس فى الأول فعله فى الآخر ، كما قيل فى المعنى :

قالت ترقب عيون الحى ان لها
عينا عليك اذا ما نمت لم تنم

ثم ان الملك الناصر عمل الموكب وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى تغرى بردى واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضا عن بيبرس ، وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف عوضا عمن نفى من الأمراء ، فاستقامت أموره فى هـذه المرة ، ولم يختلف عليه اثنان كما قيل : « وربمـا صحت الأجسام بالعلل » .

ومن الحوادث فى هذه السنة وفاة أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله ، ابن الخليفة المعتضد بالله أبى بكر بن المستكفى بالله ابن الامام احمد الحاكم بأمر الله . وكانت وفاته فى ليلة الثلاثاء ثامن عشرى رجب من سـنة ثمـان وثمانمائة . فكان مجموع خلافته بالديار المصرية الى أن مات نحوا من خمس وأربعين سنة — بما فيها من عزل وولايه — وكان كريما جوادا ممدوحا لا يرد سائلا ، كما قيل :

كأنه فى العطاء بحر ندى
وبذله النقد فيه تيـار

ولكن قاسى من الملك الظاهر برقوق شـدائد عظيمة ، وتركه فى القيد وهو مسجون ببرج الحية الذى بقلعـة الجبل نحو سبع سنين . وكان اماما عظيما ، كفئا للخلافة ، كثير البر والصدقات ، يحب فعل الخير . فلما مات دفن عند أقاربه بمشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ولما مات خلف من الأولاد سبعة وهم : العباس وكان أكبرهم ، وداود وسليمن وحمزة ويوسف ويعقوب وموسى ، وكل منهـم ولى الخلافة الا يعقوب وموسى لم يليا الخلافة .

وقيل جاء للمتوكل نحو مائة ولد من صلبه مابين ذكور واناث وسقوط . وهذا لم يقع لخليفة قبله سوى عبد الملك بن مروان الأموى ، فانه لما مات خلف من الأولاد أربعة وهم : الوليـد وسليمن ويزيد وهشام ، وكل منهم ولى الخلافة .

ولما توفى محمدالمتوكل تولى الخلافة من بعده ابنه العباس ، وتلقب بالمستعين بالله .

ومن الحوادث أن ابن نعير أرسل الى السلطان رأس جكم العـوضى الذى تسلطن بحلب وتلقب بالملك العادل ، فخرج من حلب الى قتال قرا ملك أمير التركمان فقتل فى المعركة بين بساتين آمد ولا يعلم من قتله ، فكانت مدة سلطنته بحلب نحوا من شهرين ، فعلق رأسـه على باب زويله ، وكان له يوم مشهود ، وكفى الملك الناصر شره .

وفيهـا توفى الأمير بيبرس الفارقانى — وهو صاحب الحمام الذى تجاه المدرسة البندقدارية — وكان بيبرس هـذا من المعمرين ، وكان من أهل الدين والصلاح وله مشاركة فى العلم ، وكان له

شعر جيد ، وكان رجلا أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان يزن الشعر بالطباع ، وينظم منه ما لا تمجه الأسماع ، فمن ذلك قوله :

من لى بظبى غرير   باللحظ يسبى الممالك
اذا تبدى بليل   جلا سناء الحوالك
من حور رضوان أبهى   لكنه تجل مالك

ذكر ذلك صاحب كتاب زهر الخمائل فيمن نظم الشعر من الترك الأصائل .

سنة تسع وثمانمائة (١٤٠٦/١٤٠٧ م) :

فيها أخرج الملك الناصر أخاه عبد العزيز الذى تسلطن الى ثغر الاسكندرية فسجن بها ، وأرسل معه أخاه سيدى ابراهيم ، وذلك فى ثامن صفر . وأقاما بثغر الاسكندرية نحو أربعين يوما ، ثم جاءت الأخبار بموتهما فى يوم واحد ، وكانت وفاتهما فى ليلة الاثنين سابع ربيع الأول من سنة تسع وثمانمائة . فقيل ان الملك الناصر أشغلهما فى حلوى أرسلها اليهما ، فلما بلغه موتهما أرسل فأحضرهما ودفنهما فى الخانقاه البرقوقية التى فى الصحراء .

وفيها خلع على البدرى حسن بن نصر الله واستقر به وزيرا بمصر عوضا عن ابن البقرى .

وفيها عزل جلال الدين البلقينى عن القضاء وأعيد اليه الاخنائى ، فأقام به مدة ثم أعيد اليه الجلال البلقينى .

سنة عشر وثمانمائة (١٤٠٧/١٤٠٨ م) :

فيها أفرج السلطان عن الأمير جكم العوضى والأمير نوروز . فلما حضرا خلع على الأمير نوروز الحافظى واستقر به نائب الشام ، وخلع على الأمير جكم العوضى واستقر به نائب حلب . فلما توجها الى البلاد أظهر كل منهما العصيان والمخامرة على السلطان .

فأما جكم العوضى فانه تسلطن بحلب ، وباس له الأمراء الأرض ، وتلقب بالملك العادل ، وصار واضع اليد على البلاد الحلبية ، وأخرج أوقاف الناس وجعلها اقطاعات وفرقها مثالات على عسكر حلب ، وصار يحكم من الشام الى الفرات ، فانتزعت يد الملك الناصر من البلاد الشامية والحلبية ، وصار حكمه لايجاوز غزة ، فضاق الأمر على الملك الناصر حتى كادت روحه تزهق . فما مضى قليل حتى جاءت الأخبار من حلب بأن جكم العوضى قد قتل ولا يعلم من قتله . وكان سبب ذلك ان خارجيا من التركمان من أولاد قرا يوسف خرج عليه فخرج اليه جكم مع العساكر الحلبية فالتقى معه فكان بينهم واقعة عظيمة ، فقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، وفقد جكم العوضى فى المعركة ولا يعلم له خبر ولا عرف كيف قتل . فلما جاءت الأخبار الى مصر بذلك سر الملك الناصر وقد كفاه الله تعالى أمر جكم بعد غيره كما قد قيل :

الصبر أولى بوقار الفتى   من قلق يهتك ستر الوقار
من لزم الصبر على حالة   كان على أيامه بالخيار

وفى المعنى :

صبرنا على جور الزمان وربما
تفرج أيام الكريهة بالصبر

فلما قتل جكم التنف الأمير نوروز الحافظى على الأمير شيخ المحمودى نائب طرابلس وأظهروا العصيان ، والتف عليهم جماعة من النواب وصاروا يأكلون البلاد الشامية والحلبية من غزة الى الفرات ، وصار بيد الملك الناصر مصر وأعمالها فقط ، وهو فى غاية الحصر مع مماليك أبيه بمصر ، فكان يسلى همه بكثرة السكر لا يصحو منه ليلا ولا نهارا ، كما قيل فى المعنى :

وما اجتمعت والهم يوما لأنها
بكاساتها صفراء للهم فاقعة

سنة احدى عشرة وثمانمائة (١٤٠٨/١٤٠٩ م) :

فيها ظهر فى السماء بعد معيب الشمق حمرة عظيمة من الجهة الغربية ، ثم اشتدت تلك الحمرة حتى صارت كالنار الموقدة ، ثم جاور تلك الحمرة برق ساطع ، فصار كلما لمع يحيل للناظر أنها نار لا محالة ، ثم انتشرت تلك الحمرة حتى كادت أن تغطى ثلث السماء . واستمر الحال على ذلك الى نصف الليل ، فخاف الناس من ذلك وتضرعوا الى الله بالدعاء ، فانكشفت تلك الحمرة قليلا قليلا ، وصحت السماء فأصبح الناس يتحدثون بما وقع فى تلك الليلة من العجائب . وقد قال القائل :

ما خاب عبد على الله الكريم له
توكل صادق فى السر والعلن
حاشاه أن يحرم الراجى اجابته
اذا دعاه لكشف الهم والحَزَن

ومن الوقائع الغريبة جاءت الأخبار بأن جاليش الأمير شيخ المحمودى والأمير نوروز قد جاء من غزة وهم فى عساكر لا تحصى . فلما سمع الملك الناصر بذلك خرج هو والأمراء على الهجن ، فتلاقى العسكران على السعيدية وكان بينهما واقعة عظيمة ، فانكسر الملك الناصر ورجع الى القاهرة وهو مهزوم ، فتبعه شيخ ونوروز ودخلا الى القاهرة ، فقوى حال الملك الناصر على شيخ ونوروز فكسرهما كسرة قوية ، فرجعا الى الشام مهزومين وانتصر عليهما الملك الناصر ، ولكن قتل فى هذه الحركة جماعة كثيرة من الأمراء والمماليك .

وفيها تعين نوروز لنيابة الشام ثم بطل نوروز من نيابة الشام وأرسل السلطان تقليدا الى شيخ بنيابة الشام وتقليدا الى دمرداش بنيابة حلب ، ثم عين نوروز الى القدس بطالا ، ثم كتب الى دمرداش نائب حلب بالحضور الى مصر ، ورسم لشيخ بنيابة طرابلس مع نيابة حلب ، وهذا من العجائب ... ثم ان شيخ بعد ذلك خامر على السلطان ، فجرد اليه ورجع من غير طائل .

وفيها توفى الأمير باش باى رأس نوبة النوب .

سنة اثنتى عشرة وثمانمائة (١٤٠٩/١٤١٠ م) :

فيها تزايد جور الملك الناصر فى حق مماليك أبيه ، فصار ينفى منهم جماعة ويغرق منهم جماعة ، فكان الأتابكى تغرى بردى ينهى الملك الناصر عن هذه الأفعال الشنيعة فلا يلتفت الى كلامه . فلما ثقل عليه أمره خلع عليه واستقر به نائب الشام . فلما توجه تغرى بردى الى الشام أسرف الملك الناصر فى قتل مماليك أبيه ، فكان يسكر الى نصف الليل ويخرج الى الحوش وهو سكران ، فيعرض المماليك الذين فى السجن بالأبراج فيحضرونهم فى زناجير فيقدمون اليه واحدا بعد واحد ، فيقول : « من هذا ؟ » ... فيقولون له هذا فلان من الطبقة الفلانية ، فيقول : « قدموه » ... فيبطحونه على الأرض فيذبحه بيده ثم يدوس على وجهه برجله وربما كان يبول عليهم أو يصب عليهم النبيذ ... وكل هذا من شدة قهره وما قاساه منهم ، فكان يذبح من المماليك فى كل ليلة بحسب ما يختار فى تلك الليلة ، وذكروا عنه أشياء شنيعة من هذا النمط . فاستمر على هذه الحالة مدة طويلة حتى قيل انه ذبح فى هذه المدة من مماليك أبيه نحوا من ألفى مملوك ، وقد تجرأ على القتل حتى صار يقتل فى كل ليلة نحو عشرين مملوكا ...

وكان الملك الناصر معذورا فيهم ، فانه كان يسامح الواحد منهم المرة والمرتين والثلاث وهم يغدرونه ويخامرون عليه ، حتى كان يقول الملك

المؤيد شيخ فى بعض مجالسه بعد قتل الملك الناصر فرج : « ما صبر أحد من الملوك كصبر الملك الناصر على مماليك أبيه » ... فانه ما كان يقتل الواحد منهم حتى يكون قد سامحه مرارا عديدة وهم يغدرونه ... وقد جرى له معهم من الوقائع ما يطول شرحه عن هذا المختصر ، وهم مع ذلك لا يزدادون عليه الا طغيانا ولو أسرف فى قتلهم .

سنة ثلاث عشرة وثمانمائة (١٤١٠/١٤١١) :

فيها وقع الطاعون بالقاهرة ، وكانت قوة عمله فى شهر رمضان ، وفى ذلك يقول القاضى مجد الدين بن فضل الله :

تزايد الطاعون لما أتى
شعبان والحمى به صعبه
ودام فى الصوم على فتكه
وفطر الضعيف على كبه

وفيها انتهت زيادة النيل الى أحد وعشرين ذراعا ، وكان الوفاء أول مسرى .

وفيها جاءت الأخبار بأن شيخ المحمودى ونوروز الحافظى قطعا اسم الملك الناصر من الخطبة بدمشق وأعمالها .

وفيها توفى جلال الدين بن خطيب داريا ، وكان عالما فاضلا بارعا فى فن البديع وله شعر جيد حسن .

سنة اربع عشرة وثمانمائة (١٤١١/١٤١٢ م) :

فيها نفرت قلوب المماليك من الملك الناصر ، وصار منهم جماعة يتسحبون تحت الليل ويتوجهون الى نوروز الحافظى وشيخ المحمودى ، فكانوا يتوجهون من العقبة الى غزة ومن غزة الى الشام ، فتسحب من العسكر نحو الثلث .

وفى هذه السنة وفى النيل المبارك فى أول يوم من مسرى ، وبلغت الزيادة فى تلك السنة اثنين وعشرين ذراعا واصبعا من الثالث والعشرين ، فحصل للناس فى تلك السنة غاية الضرر الشامل ، وغرقت أكثر البساتين ، وانقطعت الطرقات حتى قيل فى المعنى :

قد زاد هذا النيل فى عامنا
فأغرق الأرض بانعامه
وكاد أن يعطف من مائه
عرى على أزرار أهرامه

وفيها جاءت الأخبار بأن نوروز الحافظى وشيخ المحمودى قد قويت شوكتهما والتف عليهما سائر النواب وغالب عسكر مصر ، والتف عليهما جماعة كثيرة من العشير ومن عربان جبل نابلس ، واجتمع عندهما من الأمراء ما يزيد على أربعة وعشرين أميرا من أمراء مصر والشام . فمنهم الأمير قرقماس المعروف بسيدى الكبير ، والأمير بكتمر جلق ، والأمير سودون المحمدى ، والأمير شاهين الأفرم ، والأمير طوغان الحسنى ، وغير ذلك من الأمراء المصرية والشامية .

فلما تحقق الملك الناصر ذلك عرض العسكر ، وأنفق عليهم ، وبرز خيامه الكل فى جمعة واحدة ، ثم نزل من القلعة فى موكب عظيم ، وطلب طلبا عظيما ، وأمر العسكر بأن يخرجوا وهم لابسون آلة الحرب . وكان صحبته الخليفة العباس والقضاة الأربعة ، منهم قاضى القضاة الشافعى جلال الدين بن سراج الدين البلقينى ، وبقية القضاة ما يحضرنى أسماؤهم الآن ، ومن المباشرين القاضى فتح الله كاتب السر الشريف ، وسائر الأمراء والعسكر ، فتوجه الملك الناصر الى نحو الريدانية فأقام بها يومين ، ثم انه رحل منها وقصد التوجه الى نحو الشام .

وكانت هذه التجريدة ثالثة تجريدة خرج فيها الملك الناصر بنفسه .

فان أول تجريدة جردها الى الشام كانت بسبب تنم الحسنى نائب الشام لما أظهر العصيان كما تقدم .

والتجريدة الثانية كانت بسبب تمرلنك لما وصل الى الشام وجرى منه ما جرى كما تقدم .

والتجريدة الثالثة كانت بسبب نوروز الحافظى وشيخ لما أظهروا العصيان فخرج اليهما الملك الناصر بنفسه .

سنة خمس عشرة وثمانمائة (١٤١٢ م) :

فيها دخل الملك الناصر الى الشام وأقام بها أياما ، ثم توجه خلف النواب ، فكانوا يتوجهون فى كل يوم من بلد الى بلد والملك الناصر يسوق خلفهم ليلا ونهارا فأتعب العسكر ، وانقطع منهم جماعة من شدة السوق والتعب .

فلما كان يوم الثلاثاء خامس عشرى المحرم من سنة خمس عشرة وثمانمائة ، وصل الملك الناصر الى اللجون — وهى من ضياع الشام — فتلاقى هنالك الملك الناصر والنواب بعد العصر ، وكان الملك الناصر قد اصطبح وهو لا يعى من شدة السكر ، فأراد الكبس على النواب فى تلك الساعة ، فمنعه الأمراء من ذلك فلم يسمع لهم ، فتقدم اليه القاضى فتح الله كاتب السر وتكلم معه فى أن ينزل هناك ساعة حتى يستريح العسكر من شدة السوق فلم يلتفت الى كلامه وقال : « أنا لى سنين أنتظر هذا اليوم . ومتى نزلت هنا ساعة هربوا من وجهى الى مكان آخر » ...

فلما رأى الأمراء والعساكر هذه الأحوال الفاسدة تسحبوا من عنده الى النواب ، فأول من تسحب من عنده من الأمراء الأمير قجقار أمير سلاح فتوجه الى النواب . فلما رأى العسكر ذلك صاروا يتسحبون من عنده قليلا قليلا حتى لم يبق معه الا القليل من العسكر ، فبان عليه عين الغلب ، فكبس على النواب وقت غروب الشمس ، فلم تكن الا ساعة يسيرة حتى انكسر الملك الناصر وهرب بمن بقى معه من العسكر ، فولى مدبرا الى نحو الشام ، فكان كما يقال فى المعنى :

ما تفعل الأعداء فى جاهل
ما يفعل الجاهل فى نفسه

فدخل الى الشام وبات فى تربة تنم فى ليلة الأربعاء سادس عشرى المحرم . فلما ولى الملك الناصر استولى الأمير نوروز وشيخ على بركه وخزائن المال وملكوها ، وقد انتصر شيخ ونوروز على الملك الناصر ، وفى ذلك يقول الشيخ تقى الدين بن حجة الحموى من قصيدة يمدح بها الملك المؤيد شيخ :

وجمعت باللجون جم عساكر
دارت عليهم من سطاك دوائر
وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة
فكأن هاتيك السروج مقابر

فلما دخل شيخ ونوروز الى الشام طلعوا الى دار السعادة ، واجتمع هناك سائر الأمراء وأحضروا القضاة الأربعة ورسموا بأن يكتبوا محضرا بأفعال الملك الناصر ، بأنه سفاك للدماء ، مدمن للخمر . فكتبوا محضرا بذلك وشهد فيه جماعة كثيرة من أعيان الناس ، ثم خلعوا الملك الناصر من السلطنة . واشتوروا فيمن يولونه السلطنة ، فقال نوروز لشيخ : « لا أنا ولا أنت تتسلطن ، ولكن اجعلوا الخليفة العباس ... هذا هو السلطان . ويكون الأمير شيخ أتابك العسكر ومدبر المملكة بمصر ، ويكون الأمير نوروز نائب الشام ، ويحكم فى البلاد الشامية من غزة الى

الفرات ، يولى بها من يختار ويعزل من يختار ... فتراضوا على ذلك ، وحلف جميع الأمراء على ذلك ، وتعاهد الأمير شيخ ونوروز على ذلك ، وأن الخليفة اذا بقى سلطانا بمصر لايعزل ولايولى حتى يراجع فى ذلك الأمير شيخ والأمير نوروز . ثم سلطنوا الخليفة العباس كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

واستقر الأمير شيخ أتابك العساكر بمصر ، واستقر الأمير نوروز الحافظى نائب الشام كما تقرر الحال عليه .

هذا ما كان من أمر النواب .

وأما ما كان من أمر الملك الناصر فرج بعد الكسرة التى وقعت له على اللجون ، فانه لما جرى له ما جرى ولى منهزما فتوجه الى نحو الشام ، وأقام فى تربة تنم ، وأرسل الى الأمير شيخ يطلب منه الأمان . وكان الأمير نوروز صهر الملك الناصر زوج أخته ... فلو طلب منه الأمان أولا ما أصابه شىء . ولكن قصد الأمير شيخ فأرسل اليه من قيده وأحضره الى السجن بقلعة دمشق . ثم انهم أثبتوا عليه الكفر كما قيل ، والله اعلم بحقيقة ذلك.

فلما كانت ليلة السبت سادس شهر صفر من سنة خمس عشرة وثمانمائة دخل على الملك جماعة من الفداوية وقتلوه بالخناجر فى تلك الليلة وهو بالبرج بقلعة دمشق ، فلما أصبحوا وأشيع ذلك بين الناس لم يصدقوا بذلك ، فأخرجوه من البرج وألقوه على مزبلة خارج البلد وهو عريان مكشوف الرأس ليس عليه غير اللباس فى وسطه ، وصار الناس يأتون اليه أفواجا ينظرون اليه ، ولو أمكن مماليك أبيه أن يحرقوه لفعلوا به ذلك مما قاسوه منه . فأقام على ذلك ثلاثة أيام لم يدفن ، ثم غسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه بمقبرة باب الفراديس بدمشق ... هذا ما جرى للملك الناصر فرج والله أعلم . فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما ، وذلك خارج عن مدة خلفه بأخيه عبد العزيز ، وهى شهران وعشرة أيام . وقتل وله من العمر نحو ست وعشرين سنة والله أعلم . وقد قيل فى المعنى :

يا نفس صبرا والا فاهلكى جزعا
ان الزمان على ما تكرهين بنى
لا تحسبى نعمة سرتك صبحتها
الا بمفتاح أبواب من الحَزن

ولما توفى الملك الناصر خلف من الأولاد سبعة : ثلاثة صبيان وأربع بنات . فأما الصبيان فهم : محمد وفرج وخليل الذين نفاهم المؤيد شيخ الى ثغر الاسكندرية ، وأقام خليل هناك الى أن توفى فى أثناء دولة الملك الأشرف اينال ، ونقل بعد موته ودفن بتربة جده الملك الظاهر برقوق التى بالصحراء . وأما البنات فخوند شقرا ، وخوند آسية ، وخوند زينب ، وخوند هاجر .

وكان الملك الناصر فرج شجاعا بطلا مقداما كريما ، غير أنه كان سفاكا للدماء ، مسرفا على نفسه ، منهمكا فى شرب الخمر وسماع الزمور ، عنده كثرة الجهل مع قلة الدين . وكانت الدنيا على أيامه جائلة ، وحقوق الناس ضائعة ، وقد خربت غالب البلاد الشامية فى أيامه ... من تمرلنك ومن عصيان النواب ، وخربت أوقاف الناس التى بالبلاد الشامية فى أيامه لما عصى جكم العوضى وتسلطن بحلب . وكم قتل من أبطال ، ويتم من أطفال ، وجرت فى أيامه أمور شتى يطول شرحها عن هذا المختصر ، حتى فرج الله تعالى بموته وزوال دولته . وكانت الناس معه فى غاية الضنك .

وكانت صفته أبيض اللون يميل الى صفرة ، أشهل العينين ، وافر الأنف ، نحيف الجسد ،

معتدل القامة ، عربى الوجه ، مستدير اللحية ، أشقر الذقن ، مهيب الشكل . وكانت أمه رومية ، فجمع بين قبح الفعل والشكل . وكان كل من يراه يرعد لشدة بأسه وعظمة سطوته .

وأما ما أنشأه بالديار المصرية من العمائر فهو المدرسة التى تجاه باب زويلة التى تسمى الدهيشة ، وعمر الجامع الذى هو داخل الحوش السلطانى بالقلعة ، وجدد بالدهيشة التى بالقلعة أشياء كثيرة ، وعمر الربعين اللذين عند جامع الصالح خارج باب زويلة ، وله غير ذلك أشياء كثيرة من الانشاء بالديار المصرية .

وأما من توفى فى أيامه من الأعيان فمنهم شيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى الشافعى ، وتوفى القاصى تقى الدين بن الشهيد صاحب ديوان الانشاء . وتوفى فى أيامه القيم خلف الغبارى صاحب الأزجال اللطيفة ، وكان فريد عصره فى هذا الفن الشريف بدمشق . وتوفى الشيخ شمس الدين الشهير بالمزين ، وكانا من أعيان دمشق . فلما بلغ الشيخ عزالدين الموصلى وفاتهما — وكانا من أضداده — أنشد نقول :

دمشق قالت لنا مقالا
معناه فى ذا الزمان بين
اندمل الجرح واستراحت
ذاتى من الفتح والمزين

وتوفى الشيخ زين الدين بن العجمى عين كتاب الانشاء بالديار المصرية ، وكان له شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

انظر الى الغدران كيف تجعدت
أمواجها فزهت وراقت منظرا
وحكت سطورا فى طروس خطها
قلم النسيم بلطفه لما انبرى

وتوفى الشيخ علاء الدين بن أيبك الدمشقى ، وكان من فحول الشعراء .

سلطنة الخليفة المستعين بالله

هو أبو الفضل العباس ، ابن الامام محمد المتوكل على الله ، ابن المعتضد بالله ، ابن المستكفى بالله ابن الامام أحمد الحاكم بأمر الله . تسلطن بدمشق بعد خلع الملك الناصر فرج بن برقوق فى يوم الاثنين سابع عشرى المحرم من سنة خمس عشرة وثمانمائة . فمن المؤرخين من عده من جملة السلاطين بالديار المصرية ، ومنهم من عده من جملة خلفاء بنى العباس . وهذه القواعد لم تتفق لخليفة قبله من بنى العباس أنه تسلطن بمصر وحكم بها على هذا الوجه . وفيه يقول بعض الشعراء :

سلطاننا حاز الفخار بأسره
وبأمره مجموع كل الناس
ولقد روى الضحاك عن ثغر له
والجفن فى الاغضا عن العباس

وكان سبب سلطنة الخليفة العباس أنه لما عصى نوروز الحافظى وشيخ المحمودى جرد اليهم الملك الناصر . فلما انكسر الملك الناصر خلعوه من السلطنة ، واتفق رأى نوروز وشيخ على سلطنة الخليفة العباس كما تقدم ذكر ذلك ، فأحضروا له خلعة السلطنة ، وألبسوها له وباسوا له الأرض .

وكان القائم فى سلطنة الخليفة الأمير نوروز الحافظى . قيل لما أرادوا أن يولوا الخليفة السلطنة امتنع من ذلك غاية الامتناع ، فقال له الأمير نوروز : « لا تخف ، أنا ظهرك ، لا يصيبك الا ما يصيب رقبتى » . فشرط عليه الخليفة العباس قبل أن يلى السلطنة شروطا كثيرة ، منها

أنه اذا خلع من السلطنة يستمر فى الخلافه على حاله الأول ، فأجابوه الى ذلك .

فلما ولوه السلطنة خلع على المقر السيفى نوروز الحافظى واستقر به نائب الشام ، وأضاف اليه جميع خراج البلاد الشامية ، وسلم اليه قلعة دمشق ، ثم خلع على المقر السيفى شيخ المحمودى واستقر به أتابكى العساكر بمصر ومدبر المملكة ونظام الملك ، وصار نوروز يحكم من غزة الى الفرات ، والخليفة والأتابكى شيخ يحكمان من قطيا الى أقصى بلاد الصعيد وأعمال الديار المصرية قاطبة .

فلما وقع الاتفاق على ذلك خرج الخليفة من دمشق وصحبته الأتابكى شيخ وبقية الأمراء والعساكر ، فلما توجهوا قاصدين مصر كان الخليفة العباس فى مدة السفر فى غاية العز والعظمة ، نافذ الكلمة ، وأطاعه سائر العسكر .

فلما دخلوا الى مصر كان للخليفة العباس موكب عظيم ، وحمل الأتابكى شيخ على رأسه القبة والطير . فلما طلع الخليفة الى القلعة وسكن بها سكن الأتابكى بباب السلسلة ، فكانت الأمراء اذا نزلوا من عند الخليفة يدخلون الى المقر الأتابكى شيخ فى باب السلسلة ، ويعطونه الخدمة ثانيا ، فيقع بين يديه الابرام والنقض ، والحل والعقد .

وكان الأتابكى شيخ لا يمكن الخليفة من كتابة مربعة أو منشور أو مرسوم حتى يعرض عليه ذلك جميعه .

فاستمر الأمر على ذلك مدة يسيرة . ثم ان الأتابكى شيخ بدا له أن يتسلطن ويخلع الخليفة العباس من السلطنة ، فعند ذلك أحضر القضاة الأربعة وسائر الأمراء وكتب محضرا بأن عربان الشرقية والغربية قد خرجوا من الطاعة ، وكثر الفساد فى البر والبحر ، واضطربت الأحوال ، وأن الوقت محتاج لاقامة سلطان تركى له سطوة يقمع أهل الفساد وتنصلح الأحوال على يده . فعند ذلك خلعوا الخليفة العباس من السلطنة ولم يخلعوه من الخلافة ، فبايع الأتابكى شيخ بالسلطنة .

فلما تسلطن شيخ استمر الخليفة العباس بالقلعة فى مكان محتفظا به لا يجتمع به أحد ، فأقام على ذلك مدة يسيرة . ثم ان شيخ خلعه من الخلافة أيضا وولى أخاه داود وتلقب بالمعتضد بالله .

وكان الخليفة العباس لما خلع من الخلافة عهد الى ولده ، فلم يمض الملك المؤيد شيخ عهده ، وولى أخاه داود ، ثم أرسل الخليفة العباس الى السجن بثغر الاسكندرية . وكانت مدة سلطنته بالشام ومصر ستة أشهر الا أياما ... فما كان أغناه عن هذه السلطنة !

وكان فى مدة سلطنته مع الأتابكى شيخ فى غاية الضنك ، ليس له فى السلطنة غير مجرد الاسم فقط ، والأمر كله للأتابكى شيخ . وكانت مدة خلافته دون السلطنة ثمانى سنين وأشهرا .

واستمر الخليفة فى السجن بثغر الاسكندرية الى دولة الملك الأشرف برسباى ، فأخرجه من السجن وأسكنه فى بعض دور الاسكندرية . واستمر على ذلك الى أن مات فى الوباء الذى وقع فى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ، وكانت وفاته فى يوم الأربعاء حادى عشرى جمادى الآخرة من تلك السنة ، ودفن هناك رحمة الله عليه .

ومن الحوادث فى أيامه ما نقله الشيخ شهاب الدين بن حجر فى تاريخه أن قاضى قضاة الحنفية ، صدر الدين بن العديم ، تولى الحسبة فى تلك الأيام مضافا لما بيده من قضاء الحنفية ، وهو أول من جمع بين القضاء والحسبة فى وقت واحد ، ولم

يسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الدول الماضيه . وفيه تقول بعض الشعراء :

من ولى الحسبة يصـــبر على
تعــرض الخــارج والعـــابر
فليس يحظى بالمنى والغـنى
فيهم ســوى المحتسب الصابر

الملك المؤيد المحمودى

هو الملك المؤيد أبو النصر شيخ ابن عبد الله المحمودى الظاهرى ، وكان يعـرف بالخاصكى . وهو الثامن والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الرابع من ملوك الجراكسة وأولادهم .

بويع بالسلطنة بعد خلع الخليفة العباس فى يوم الاثنين مستهل شـــهر شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة (١٤١٢ م) ، فلبس خلعة السلطنة من باب السلسلة وطلع الى القصر الكبير ، وجلس على سرير الملك وباسوا له الأرض ، وتلقب بالملك المؤيد ، ودقت له البشائر ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء من الخاص والعام . وفيه يقول الشيخ ناصر الدين بن كميل الشاعر :

تسلطن الشـــيخ وزال العنا
فالنـــــاس فى بشر وتيه وفيخ
فلا تقــــاتل بصــبى ولا
تلق به جيشـــا وقاتل بشيخ

وكان أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق ، اشتراه من الحواجا محمود شاه وأعتقه ، وأخرج له خيلا وقماشا وصار جمدارا ، ثم بقى خاصكيا ، ثم بقى ساقيا . وكان يعــرف بشيخ المجنون ، ثم بقى أمير عشرة ، ثم بقى أمير أربعين . وسافر الى الحجاز أمير حاج فى سنة احدى وثمانمائة ، ثم بقى مقدم ألف فى دولة الملك الناصر فــرج بن برقوق ، ثم بقى نائب طرابلس ونائب الشام أيضا . وأسره تمرلنك على حلب كما تقدم ووقع له فى دولة الملك الناصر فرج أمور شتى ومحن عظيمة ، وسجنه الملك الناصر بخزانة شمايل ، فأقام بها مـــدة ، ثم خرج الى الشام والتف على جـــكم العوضى ونوروز الحافظى ، ولم يزل فى عصيان وهجاج فى البلاد الشامية حتى مضى أكثرعمره ... فلما جرد الملك الى نوروز وقتل الملك الناصر كما تقـــدم ، وتسلطن الخليفة العباس ، بقى أتابك العساكر بمصر ونظام المملكة ، ثم انه خلع الخليفة من السلطنة وتسلطن عوضه .

فلمـــا تسلطن وتم أمره فى السلطنة قبض على جماعـــة من الأمراء وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ، وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف ووظائف سنية ، وأنعم على ولده المقر الصارمى ابراهيم بتقدمة ألف ، وأقام له من الأمراء عصبة ، وأرضى الجند بالاقطاعات ، ثم قرب جماعة حضروا معه من البلاد الشامية فرقاهم الى وظائف سنية ، فمنهم المقر الزينى عبد الباسط بن خليل ، ومنهم المقر النـــاصرى ناصر الدين بن البارزى ، ومنهم القاضى علم الدين داود بن الكويز ، والقاضى بدر الدين بن مزهر ، والأمير ناصر الدين التاج وأخوه ، والشيخ تقى الدين بن حجة الحموى عين أعيان الشعراء ، وغـــير هؤلاء جماعة كثيرة حضروا معه من البلاد الشامية الى الديار المصرية .

ثم انه قبض على القاضى فتح الله كاتب السر الشريف واحتاط على موجوده من صامت وناطق ، ثم انه خنقه ودفنه تحت الليل . فلما مضى أمر فتح الله خلع على المقر القاضوى ناصر الدين بن البارزى واســـتقر به كاتب السر بالديار المصرية عوضا عن فتـــح الله ، واستقر بالمقـــر الزينى

عبد الباسط كاتب الخزائن الشريفة ، ثم جعله والى القاهرة وناظر الجوالى وناظر الكسوة الشريفة . واستقر بالقاضى علم الدين بن الكويز ناظر الجيوش المنصورة ، واستقر بالأمير ناصر الدين التاج استادار الصحبة ، وقرر كل واحد منهم فى وظيفة تليق به . ثم انه قرب من الأمراء من شاء منهم ، وأبعد من شاء منهم ، واستقامت أموره فى السلطنة ، وأطاعه الجند ولم يختلف عليه اثنان من العسكر .

سنة ست عشرة وثمانمائة (١٤١٣ م) :

فيها جاءت الأخبار من دمشق بأن نوروز الحافظى لما بلغه أن شيخ خلع الخليفة العباس من السلطنة وتسلطن عوضه ، عز ذلك عليه ، ولم يقبل الأرض للملك المؤيد شيخ ، وأظهر العصيان وتعجب من شيخ كيف خان الأيمان والعهود التى كانت بينه وبين نوروز — وكانوا أعظم من الاخوة ينامون على مخدة واحدة — فخان شيخ الأيمان والعهود وتسلطن بمصر ، فكان كما قيل:

وحلفت أنك لا تميل مع الهوى
أين اليمين وأين ما عاهدتنى ؟

واستمر نوروز يخطب باسم الخليفة العباس على منابر دمشق وأعمالها ، ولم يخطب باسم الملك المؤيد شيخ ، ولاضرب باسمه سكة ، واستمر واضعا يده على البلاد الشامية من غزة الى الفرات .

وفى هذه السنة خلع السلطان على منكلى بغا الشمسى وولاه محتسبا بالقاهرة ، وهو أول من تولى الحسبة من الأتراك ولم يتولها قبله أحد من الأتراك .

ومن الحوادث فى تلك السنة أنه ظهر بالقاهرة شخص يدعى أنه يصعد الى السماء ويكلم البارى جل جلاله فى كل يوم مرة ، فاعتقده جماعة كثيرة من عوام مصر فلما شاع أمره بين الناس رسم السلطان بأن يعقدوا له مجلسا بالصالحية ، فاجتمع له هناك القضاة الأربعة ، فأراد القاضى المالكى أن يثبت عليه الكفر ، فشهد جماعة من أهل الطب بأن فى عقله خللا فسجنوه ولم يثبت عليه الكفر ... وهذه الواقعة متفق على صحتها فى زمن المؤيد شيخ .

سنة سبع عشرة وثمانمائة (١٤١٤ م) :

فيها قوى عزم الملك المؤيد شيخ بأن يخرج الى الشام بسبب عصيان نوروز ، فعلق الجاليش وعرض العسكر وأنفق عليهم ، وخرج من القاهرة فى موكب عظيم وصحبته الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة وسائر الأمراء . وقرر الأمير ططر نائب الغيبة الى أن يحضر السلطان ، والأمير سودون قرا سنقر حاجب الحجاب يحكم بين الناس . فلما وصل الى دمشق وجد نوروز قد حصن دمشق وركب على سورها المدافع من كل جانب ، فحاصره الملك المؤيد شيخ أشد ما يكون من المحاصرة ، ونصب حول مدينة دمشق صاعدة مناجيق ، ولا زال يحاصر نوروز مدة طويلة حتى ضجر نوروز وأرسل يطلب من شيخ الأمان على نفسه ، وكان بقلعة دمشق . فما زالوا على ذلك حتى غلب نوروز وسلم نفسه الى شيخ . وآخر الأمر قطع شيخ رأس نوروز فى قلعة دمشق وأرسلها الى القاهرة وعلقت على باب زويلة ثلاثة أيام ثم دفنت .

وكان شيخ باغيا على نوروز ، فكأن لسان حال نوروز يقول :

يا غادرا بى ولم أغدر بصحبته
وكان منى مكان السمع والبصر

قد كنت من قلبك القاسى أخاف جفا
فجاء ما قلتــــه نقشا على حجــر

قال الشيخ تقى الدين بن حجة الشاعر . وفى النيل المبارك فى سنة ست عشرة وثمانمائة فى أوائل مسرى ، فنزل الملك المؤيد وخلق المقياس وكسر السد على العادة — وذلك قبــل أن يتوجه الى دمشق بسبب نوروز — فأنشدته فى ذلك اليوم مهنئا :

أيا ملكا بالله صـــار مــــؤيدا
ومنتصـــبا فى ملكه نصــب تمييز

كسرت بمسرى سد مصر وتنقضى
وحقك بعــد الكسر أيام نوروز

فكان الفأل بالنطق . وتوجه الملك المؤيد عقيب ذلك الى نوروز وقطــع رأسه وأرسلها الى مصر صحبة الأمير جرباش قاشق ، وذلك فى جمــادى الأولى سنة سبع عشرة وثمانمائة ، فارتجت لهــا مصر ، وأقام بعد ذلك فى دمشق أياما حتى مهد البلاد الشامية ، وعزل من عزل ، وولى من ولى وخلع على قانباى المحمدى واستقر به نائب الشام عوضا عن نوروز الحافظى ، وخلع على الأمــير اينال الصصلانى واستقر به نائب حلب ، وخلع على الأمير سودون بن عبــد الرحمن واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على الأمير جانى بك البجاسى واستقر به نائب حماه ، ثم قصد التوجه الى نحو الديار المصرية ، فلما دخل الى مصر كان له يوم مشهود ، وزينت له القاهرة ، وحملت على رأسه القبة والطير حتى طلع الى القلعة .

سنة ثمانى عشرة وثمانمائة (١٤١٥ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن النواب المقدم ذكرهم قد أظهروا العصيان وخرجوا عن الطاعة ، فجرد اليهم الملك المؤيد ثانيا ، وخرج اليهم بنفسه وأوقع معهم فانتصر عليهم وقبض على قانبــاى المحمدى نائب الشام وقطــع رأسه ، ثم قبض على اينال الصصلانى وقتله على صدر أبيه ، ثم قتل الأب بعد ذلك . ثم انه ولى جمــاعة من الأمراء نوابا غير هؤلاء ورجع الى الديار المصرية ، فلم يقم سوى مدة يسيرة . وقد جاءت الأخبار بأن النــواب قد خامروا وأظهروا العصيان ، فجرد اليهم ثالث مرة وخرج بنفسه . فلما بلغ النواب مجيئه هربوا من وجهه وتوجهوا الى قرا يوسف أمير التركمان ، فاستقر بنواب غيرهم ممن يثق بهم . وفى هذه المرة مهد البلاد الشامية والحلبية ، وقطع جادرة هذه النواب الذين كانوا مخامرين عليه .

ثم رجع الى الديار المصرية ، وقــد صفا له الوقت ، وانشأ له مماليك كثيرة ، وجدد له أمراء وحســنت أوقاته بمصر . فكان ينزل من القلعــة ويتوجه الى بولاق ويقيم عند القاضى ناصر الدين ابن البــارزى فى بولاق . وكان يعمــل المواكب هناك وتجتمع الأمراء المقدمون عنده . وكان ينزل يعوم فى بعض الأوقات فى البحر وحوله الأمراء والخاصكية .

وكان يتباهى فى يوم كسر سد النيل المبارك ، ويلزم الأمراء المقدمين بأن كل واحد منهم يزين له حراقة ويجعل فيها الصناجق والكئوسات ، فاذا وفى النيل يحضرون له بالذهبية الى بولاق ، ويتوجه الى المقياس يخلق العمود ويكسر السد ، والأمراء المقدمون حوله فى الحراريق المزينة حتى يســدوا البحر من كثرة المراكب ، ويكون له يوم مشهود لم يسمع بمثله فيما تقدم . وقد فاق فى ذلك على ما كان يصنعه فى ذلك اليوم أستاذه الملك الظاهر برقوق . وكان يتباهى فى المواكب الجليلة الى الغاية .

وكان رجلا كثير التنزه ، لا يقيم بالقلعة الا قليلا وأكثر أيامه فى بولاق . وقيــل كانت الرماحــة

تلعب قدامه فى بولاق وهو ينظر اليهم من البارزية ولم يمش أحد من الملوك على طريقته فى اللهو والقصف .

سنة تسع عشرة وثمانمائة (١٤١٦ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، وفتك غاية الفتك فى البرية ، وقد قال بعض الشعراء :

رعى الرحمن دهرا قد تولى
يجازى بالسلامة كل شرط
وكان الناس فى غفلات أمن
فجا طاعونهم من تحت ابط

سنة عشرين وثمانمائة (١٤١٧ م) :

فيها ظهرت أعجوبة . ولدت جاموسة بمدينة بلبيس مولودة لها رأسان وأربع أيد وسلستا ظهر ، ولها دبر واحد وفرج واحد ، ولها رجلان فى حقوها ، فأقامت أياما وماتت .

ومن العجائب أيضا ما ذكره العلامة شهاب الدين بن حجر فى تاريخه أن المصونة فاطمة بنت قاضى القضاة جلال الدين بن سراج الدين عمر البلقينى ولدت ولدا ذكرا له ذكر وفرج ، وله يدان زائدتان فى كتفيه ، وله قرنان فى رأسه مثل قرون الثور ، فأقام ساعة ومات .

وذكر أيضا فى تاريخه أن جملا ذبح بمدينة غزة بعد العشاء فأضاء لحمه فى الليل كما يضىء الشمع . وقيل رمى بقطعة من لحمه لكلب فلم يأكل منها شيئا ، ولم يعلم سبب ذلك ... وهذا من العجائب التى وقعت فى تلك السنة .

سنة احدى وعشرين وثمانمائة (١٤١٨ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، واستمر يسلسل حتى دخلت سنة اثنتين وعشرين ، فكان تارة يزيد وتارة ينقص .

وفى سنة احدى وعشرين وقع الغلاء أيضا بالديار المصرية ، ونزل الملك المؤيد شيخ واستسقى كما جرت بذلك العادة . وقيل ان الملك المؤيد لما نزل الى الاستسقاء لبس جبة صوف أبيض وعلى رأسه عمامة صغيرة جدا بعذبة مرخية خلفه ، وعلى كتفه مئزر صوف أبيض ، وركب فرسا بغير قماش حرير ولا سرج ذهب ، وذبح هناك بيده أغناما وأبقارا وفرقها على الفقراء ، وفرق فى ذلك اليوم على الفقراء ثلاثين ألف رغيف ، وصلى على الرمل من غير سجادة . وتواضع الى الله تعالى فى ذلك اليوم ، فزاد النيل ووفى فى أواخر توت ثم انهبط بسرعة ، وشرقت أكثر البلاد ، واستمر الغلاء بمصر سنة كاملة ، وعزت الأقوات .

سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة (١٤١٩ م) :

فيها كملت عمارة جامع الملك المؤيد شيخ الذى هو داخل باب زويلة ، وكان مكان هذا الجامع سجنا يحبس فيه أصحاب الجرائم ، وكان يعرف بخزانة شمايل . وكان شمايل هذا من جملة جماعة والى القاهرة ، فلما خرج الملك الكامل صاحب المدرسة الكاملية الى قتال الفرنج لما أخذوا ثغر دمياط ، كان شمايل هذا يمشى فى ركاب الملك الكامل ، ويسبح فى البحر تحت الليل ، ويكشف عن أخبار الفرنج ويأتى الملك الكامل بالأخبار ، فحظى عنده بذلك . فلما انتصر الملك الكامل على الفرنج جعل شمايل هذا والى القاهرة ، فبنى له هذا السجن فنسب اليه ، وقيل « خزانة شمايل » .

وكان الملك المؤيد شيخ من جملة من حبس فى خزانة شمايل فى دولة الملك الناصر فرج بن برقوق فقاسى بها شدائد عظيمة ، فنذر فى نفسه ان خلص من هذه الشدة وبقى سلطانا يهدم هذا السجن

ويبنى مكانه جامعا فلما تولى الملك بمصر هدمه وبنى مكانه هذا الجامع وقد تناهى فى زخرفته ورخامــه وسقوفه وأبوابه ، فلم يبن فى القاهرة مثله ولا مثــل سقفه ، ولكنه ظلم أعيان الناس فى تحصــيل رخامه ، وصاروا يكبسون البيــوت والحارات بسبب الرخام ، فظـلم خلق الله حتى حصل هذا الرخام ومن جملة ظلمه فيه أنه أخذ باب مدرســة الســلطان حسن والتنــور الكبير وجعلهما فى جامعه ، وأعطى فيهما أبخس الأثمان . وأخذ العمودين السماق اللذين فى المحــراب من جامع قوصون الذى بالقرب من بركة الفيــل ، ووزع أخشاب سقوفه ودهانها على أعيان المباشرين فكان كما قيل :

بنى جامعا لله من غير حله
فجاء بحمد الله غير موفق
كمطعمة الأيتام من كد فرجها
فليتك لاتزنى ولا تتصدقى

ولما تم بناء هذا الجامع وقف عليه الأوقاف الجليلة من بلاد ومستقفات ، وقرر فيه حضورا من بعد العصر ، ورتب لهم جوامك وخبزا ، وقرر شيخ الحضور الشــيخ شمس الدين الديرى الحنفى ، وجعل الخطابة للقاضى ناصر الدين بن البارزى ، وأودع بهذا الجامع خزانة كتب نفيسة .

قيل لما كملت عمارة هذا الجامع رسم السلطان بأن تملأ الفسقية التى فى صحن الجامع سكرا وماء ليمون ، فملئت سكرا ووقف رءوس النواب يفرقون السكر على الناس بالطاسات ، وخلع فى ذلك اليوم على جماعة كثيرة من المشدين والمهندسين والبنائين والمرخمين والنجارين . فلما كان يوم الجمعة حضر بالجامع القضــــاة الأربعة وسائر الأمراء وأرباب الوظائف وأعيان العلماء ، وخطب فى ذلك اليوم القاضى ناصر الدين بن البارزى كاتب السر الشريف خطبه بليغة ، وكان يوما مشهودا . فلما كان وقت الحضور فى الجــامع اجتمع الطلبة وخرج الشيخ شــمس الدين الديرى من الخــلوة وقدامه ولد السلطان المقر الصارمى ابراهيم ، وهو حامل سجادة الشــيخ شمس الدين الديرى حتى فرشها له فى المحراب ، وفى ذلك يقول بعض شعراء العصر :

ان يقولوا سجادة فوق بحــر
لولى يمشى عليهــا كــرامه
قلت هذى سجادة فوقها البحـ
ـــر فحدث عنه بغــير ملامه

ومن الحوادث أنه لما بنوا مئذنتى هذا الجامع مالت احداهما الى السقوط عند ما كملت ، فرسم بهدمها فهدمت ثم أعيدت ثانيا ، فقال العلامة شهاب الدين بن حجر يداعب قاضى القضــاة بدر الدين محمود العينى الحنفى فى هذه الواقعة :

لجــامع مولانا المــؤيد رونق
منارته تزهو من الحسن والزين
تقــول وقد مالت عليهم ترفقوا
فليس على هدمى أضر من العين

فأجابه عن ذلك بدر الدين بن العينى :

منارة كعروس الحسن اذ جليت
وهــدمها بقضاء الله والقـــدر
قالوا أصيبت بعين قلت ذا غلط
ما أوجب الهدم الا خسة الحجر

ومما عد له من المحاسن أنه أبطل مكس الفواكه قاطبة ، ونقش ذلك على رخامة وجعلها بباب هذا الجامع لما كمل بناؤه .

سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة (١٤٢٠ م) :

فيها توفى المقر الصارمى ابراهيم ابن السلطان المؤيد شيخ . وقيل ان أباه المؤيد سمه فى حلوى ،

وسبب ذلك أن سيدى ابراهيم كان شجاعا بطلا لا يمل من الحرب والقتال ، فمالت اليه قلوب الجند . وكان الملك المؤيد لا يزال يعتريه ضربان المفاصل ، وكان قد ثقل عن الحركة ، فكان يحمل على أكتاف المماليك اذا نقل من مكان الى مكان ، فقال القاضى ناصر الدين بن البارزى للملك المؤيد : « ان العسكر يقصدون خلعك من السلطنة ويولون سيدى ابراهيم » ... فحسن له أن يشغله . فلما شغله ومات حزن عليه الناس حزنا شديدا ، ودفن داخل القبة التى فى الجامع المؤيدى .

فلما كان يوم الجمعة حضر السلطان المؤيد فى الجامع ، وصلى الجمعة فى مأتم ابنه ، فخطب القاضى ناصر الدين بن البارزى فى ذلك اليوم خطبة فى معنى ذلك حتى ينفى عنه كلام الناس ، فروى وهو على المنبر هذا الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما أن دخل على ولده ابراهيم وجده يجود بنفسه ، فلما رآه رسول الله صلى الله عيه وسلم جعلت عيناه تذرفان وقال : « ان العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول الا مايرضى ربنا ، واننا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون » فلما سمع الملك المؤيد ذلك شق عليه وقال فى نفسه : « يغرينى على ولدى حتى أقتله ثم يندمنى عليه ؟ » ... فلما فرغ القاضى ناصر الدين من صلاة الجمعة قدم اليه سلطانية سكر وشغله فيها ، فتوجه الى بيته وأقام أياما ومات ، والمجازاة من جنس العمل .

سنة أربع وعشرين وثمانمائة (١٤٢١ م) :

فيها ثقل الملك المؤيد فى الضعف ولزم الفراش ، واستمر على ذلك أياما حتى مات فى يوم الاثنين تاسع المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، فغسل فى القلعة وكفن وصلى عليه ونزلوا به من القلعة والأمراء مشاة قدامه حتى توجهوا به الى جامعه ، فلم يدخلوا به من باب زويلة ودخلوا به من الباب الذى عند الخضريين .

وقيل مات وله من العمر خمس وستون سنة ، وخلف من الأولاد صبيا وبنتين ، وهو سيدى أحمد الذى تسلطن بعده ، وهو ابن خوند سعادات . وكانت احدى بناته متزوجة بالأتابكى قرقماس الشعبانى ، والأخرى متزوجة بالأمير يشبك الفقيه الدوادار ، وهى أم ولده سيدى يحيى .

فكانت مدة سلطنة الملك المؤيد شيخ بالديار المصرية والبلاد الشامية ثمانى سنين وخمسة أشهر وثمانية أيام . وكان ملكا جليلا كفئا للسلطنة ، عارفا بأحوال المملكة ، وافر العقل ، مقداما فى الحرب ، وله مكايد وحيل وثبات وقت التقاء الجيوش حتى ضرب به المثل ، فكان يقال : نعوذ بالله من ثبات شيخ ، ومن حطمة نوروز الحافظى .

وكان المؤيد كريما على من يستحق الكرم ، وشحيحا على من يستحق الشح . وكان يضع الشىء فى محله . وهو الذى مهد البلاد الشامية والحلبية ، وقطع جدر تلك النواب العصاة الذين أخربوا غالب البلاد الشامية . وكان يميل الى اللهو والطرب ، ويستعمل الراح ويميل الى الملاح . وكان يستعمل الأشياء المخدرة من المصطلات . وكان يقرب أرباب الفنون . وكانت أرباب الفنون تتباهى فى أيامه فى فنونهم لجودة فهمه وحسن معرفته . وكان يغنى من فن الموسيقى ويركز الفن وينظم الشعر . ومن نظمه الرقيق قوله من قصيدة :

فتنتنا سوالف وخدود
وعيون نواعس وقدود
أسرتنا الظبا وهن نعاس
وخضعنا لها ونحن الأسود

ولم يزل يركز هذه الأبيات الى الاستشهاد باسمه فقال :

وأنا الخاصكى شيخ المؤيد
نظم شعرى جواهر وعقود

وله أشياء كثيرة من الفن دائرة بين المغنين الى الآن .

وكان منقادا الى الشريعة ويحب أهل العلم ويقرب الفقهاء والصلحاء ويبرهم ويحب فعل الخير ، وله أوقاف كثيرة على جهات بر وصدقة . ولكن ذكر له المقريزى أشياء كثيرة من المساوىء ، منها أنه كان جهوري الصوت ، سفيها فى كلامه . وكان غير مقبول الشكل ، واسع العينين ، كبير الكرش ، درى اللون ، أكث اللحية ، معتدل القامة ، متركن الوجه ، كبير الأنف . وكان سفاكا للدماء ، قتل جماعة كثيرة من النواب والأمراء . وكان اذا ظفر بأحد من أعدائه لا يرحمه . وكان كثير المصادرات للرعية . وأحدث فى أيامه أشياء كثيرة من أبواب المظالم لما كان يخرج الى التجاريد .

وأما ما أنشأه من العمائر بالديار المصرية فهو الجامع الكبير الذى هو داخل باب زويلة ، وعمر الجامع الذى فى رأس الصوة مكان المدرسة الأشرفية التى هدمها الملك الناصر فرج بن برقوق ، وعمر الجامع الذى عند المقياس ، وعمر الخلاوى والمئذنة التى فى المدرسة الخروبية التى فى بر الجيزة ، وجدد عمارة القبة التى فى قاعة البحرة ، وجدد عمارة التاج والسبعة وجوه التى كانت بالقرب من الكوم الابيض ، ولكن هدم ودرست معالمه فى دولة الملك الظاهر جقمق ، وكان من جملة المفترجات القديمة بمصر فهدمه الناصرى محمد بن اينال قريب الملك الظاهر جقمق .

وللملك المؤيد آثار كثيرة غير ذلك بمصر والشام .

وكانت دولته ثابتة القواعد ، وصير الذئب والغنم يمشيان فى صعيد واحد .

فأما قضاته الشافعية فالقاضى جلال الدين بن سراج الدين البلقينى الشافعى ، والقاضى ولى الدين العراقى الشافعى . وأما قضاته الحنفية فالقاضى بدر الدين محمود العينى الحنفى ، والقاضى التفهنى ، والقاضى صدر الدين بن العديم الحنفى . وأما قضاته المالكية فالقاضى نصر الدين بن التونسى المالكى . وأما قضاته الحنابلة فالقاضى علاء الدين ابن مغلى الحنبلى

وأما من توفى فى أيامه من الأعيان فقاضى القضاة جلال الدين بن سراج الدين البلقينى الشافعى . قيل انه توفى بمنزلة الصالحية عند عود الملك المؤيد من البلاد الشامية . فلما توفى جلال الدين فى الصالحية ودخل السلطان الى الديار المصرية اشتوروا فيمن يولونه قاضيا عوضا عن جلال الدين ، فأخبروا السلطان بذكر ابنه تاج الدين وأخيه علم الدين صالح ، فلما بلغ الشيخ شهاب الدين بن حجر ذلك أنشد يقول :

مات جلال الدين قالوا ابنه
يخلفه أو فالأخ الكاشح
فقلت تاج الدين لا لائق
بمنصب الحكم ولا صالح

ثم وقع الاختيار على تولية الشيخ ولى الدين العراقى فولى عوضا عن جلال الدين البلقينى .

وتوفى فى أيام المؤيد من الأعيان الشيخ شمس الدين البنانى وكان من كبار الحنفية ، وتوفى الشيخ مجد الدين الفيروزابادى صاحب القاموس ، وتوفى الشيخ خلف النحريرى وكان من كبار المالكية ، وتوفى الشيخ جمال الدين بن ظهيرة قاضى القضاة الشافعية بمكة ، وتوفى الشيخ

برهان الدين بن رفاعة الدمشقى وكان من أعيان دمشق وله شعر جيد ، وتوفى ابن هشام العجمى ، وتوفى القاضى ناصر الدين بن البـارزى الجهنى الشـافعى كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، وتوفى الشـيخ عز الدين الموصلى صـاحب شرح البديعية ، وتوفى الشيخ جمـال الدين بن خطيب داريا وكان من فحول الشعراء ، وتوفى الشـيخ علاء الدين بن أينبك الدمشـقى وكان من فحول الشعراء ، وتوفى فى أيامه جماعة كثيرة من الأعيان .

ولما توفى الملك المؤيد شيخ تولى من بعده ابنه الملك المظفر .

الملك المظفر أبو السعادات

هو الملك المظفر أبو السعادات أحمد ، ابن الملك المؤيد شيخ المحمودى الظاهرى . وهـو التاسع والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهـو الخامس من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد .

تسلطن بعد موت أبيه الملك المؤيد شيخ فى يوم الاثنين تاسع المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة . تسلطن وله من العمر سنة وثمانية أشهر وسـبعة أيام ، فكان مرضعا . وكانت ولايته تقرب من ولاية سابور ذى الأكتاف الذى تولى الملك وهو فى بطن أمه ، فوضعوا على بطنها تاج الملك وسابور حمل . فكانت ولاية الملك المظفر أحمد تقرب من ذلك . وكانت أمه خوند سعادات بنت الأمير صرغتمش الناصرى .

فلما تسلطن كان الأتابكى الطنبغا القرشى غائبا فى التجريدة هو وجمـاعة من الأمراء نحو البلاد الشامية بسبب عصيان النواب ، وكان بمصر من الأمراء المقر السيفى ططر أمير مجلس .

فلمـا توفى الملك المؤيد شيخ تعصب مماليكه وقالوا : « ما نسلطن الا ابن أسـتاذنا » . وكان المماليك المؤيدية نحو خمسة آلاف مملوك . فلمـا حضر الخليفـة والقضاة الأربعة وقصدوا المبايعة لأحمـد ابن الملك المؤيد عارض الخليفة فى ذلك وقال : « هذا صغير وتضيع أحوال المسلمين بين الأمراء » ... فقال المماليك : « الأمير ططر يكون مدبر المملكة الى أن يحضر الأتابكى الطنبغا » ... فمـا وسع الخليفة الا أنه بايعه على كره منـه ، فسلطنوه ولقبوه بالملك المظفر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، ثم أجلسوه على سرير الملك وهو فى حجر المرضعة .

وكانت العـادة اذا تسلطن سلطان وجلس على سرير الملك فى القصر الكبير تدق الكثوسات داخل القصر . فلما أجلسوا الملك المظفر أحمد على سرير المملكة وهو فى حجر المرضعة دقت الكثوسات فى القصر ، فاضطرب الملك المظفر اضـطرابا شديدا وأغمى عليه ، فحصل له فى الحال حول فى عينيه من الرجفة ، واستمر فى كل وقت يضطرب الى أن مات .

فلما تم أمره فى السلطنة ثار المماليك المؤيدية على الأمير ططر بسبب الامريات والوظائف ، وصار ططر معهم فى غاية الضـنك ، فما وسـعه الا أن يرضيهم بكل ما يمكن ، فخلع على الأمير على باى المؤيدى واستقر به دوادارا كبيرا وكان أمير عشرة ، وخلع على الأمير تغرى بردى بن قصروه واستقر به أمير آخور وكان أمير عشرة ، ثم جعـل جماعة من الأمراء المؤيدية مقدمى ألوف ، وجماعة منهم أمراء طبلخانات ، وجماعة منهم أمراء عشراوات . ثم انه فرق الاقطاعات السنية على المماليك المؤيدية .

ثم جاءت الأخبار من البلاد الشامية بأن جقمق الأرغونى نائب الشام قد خامر وخرج عن الطاعة ، وكذلك يشبك المؤيدى نائب حلب قد خامر أيضا

وخرج عن الطاعة ، وكذلك بقية النواب قد خامروا وخرجوا عن الطـاعة . وكان الأتابكى الطنبغـا القرشى لما توجه الى الشام بسبب عصيان النواب أوقع معهم بمن معه من الأمراء فهربوا الى نحـو صرخد .

ثم ان الأتابكى الطنبغا لما توجه الى صرخد جمع العربان والعشير ورجع الى دمشق وأوقع مع نائب الشام جقمق فانكسر جقمق منه وهرب الى نحـو حلب ، فملك الأتابكى الطنبغا دمشق وقلعتها . فلما بلغه وفاة الملك المؤيد وسلطنة ابنه أظهر العصيان وخرج عن الطاعة ، وأقام بدمشق وحصنها ونصب على سورها المكاحل بالمدافع ، والتفت عليه العربان والعشير . فلما بلغ الأمراء ذلك خلعوا على ططر واستقروا به أتابكى العسـكر عوضا عن الطنبغا القرشى .

ثم اتفق الحـال على أن الأتابكى ططر يأخـذ السلطان معه فى محفة ويتوجه هو والعسكر الى دمشق بسبب الطنبغا القرشى والنواب . فخـرج ططر من القاهرة وصحبته الملك المظفر احمـد فى محفة ، والمرضعة معـه ، وخرج من مصر وسائر الأمراء والعسكر ، وكانت خوند سعادات صحبة ابنها فى المحفة لما خرج الى الشام حتى تأمن عليه من القتل .

وكانت خوند سعادات لما انقضت عدتها مشت الأمراء بينها وبين ططر بأن يتزوج بها . فلما خرج ابنها الى الشام خرجت معه ، فلما وصلوا به الى الشام ألقى الله تعالى الرعب فى قلب الطنبغا القرشى وجقمق نائب الشام . فلما دخل الملك المظفر الى الشام حضر اليه الطنبغا القرشى وفى رقبته منديل فباس الأرض قدام الملك المظفر وهو فى المحفة . فلمـا وقعت عليه عين الأتابكى ططر قبض عليـه وسجنه بقلعة دمشق ، ثم قبض على جقمق نائب الشام وسجنه بقلعة دمشق أيضاً . ثم انه أمر بخنقه وبخنق الطنبغا القرشى فخنقا تحت الليل ، ثم قبض على جماعة من النواب وقتلهم .

وأخذ فى أسباب القبض على جماعة من الأمراء المؤيدية ، فاحتال عليهم وأظهر أنه قد مرض وأقام بقلعة دمشق . ولما بلغ الأمراء ذلك طلعوا يسلمون عليه ودخلوا عليه ، فقبض على جماعة منهم حتى قيل قبض فى يوم واحد على أربعين أميرا من الأمراء المؤيدية وحبسهم بقلعة دمشـق ، ثم قبض على جماعة من المماليك المؤيدية نحو ثلثمـائة مملوك وحبسهم بقلعة دمشـق . فعند ذلك صـفا لططر الوقت ، والتفت عليه خشداشينه القاهرية ، وفرق عليهم الاقطـاعات والوظائف ، وقويت شـوكته وعصبته ، وصار يمهد لنفسه فى الباطن ...

فعند ذلك خلع الملك المظفر أحمد من السلطنة ، وتسلطن عوضه بدمشق . وكان الخليفة المعتضد بالله داود صحبته ، والقضاة الأربعة ، فبايعوا ططر وسـلطنوه ، وذلك فى يوم الجمعـة تاسع عشرى شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، وتلقب بالملك الظاهر ، وخطب باسمه فى ذلك اليوم على منابر دمشق .

فلما تم أمـره فى السـلطنة هناك طلق خـوند سعادات أم الملك المظفر أحمد وقد خاف على نفسه منها . والذى خاف منه وقع فيه كما سيأتى ذكـر ذلك فى موضعه ، فلم ينل من الدهر قصده .

فلمـا تسلطن قصد التوجه الى نحـو الديار المصرية ، وأخذ الملك المظفر معه وأمه ورجع الى مصر . فلما دخل الى القاهرة كان له يوم مشهود ، وزينت له المدينة ، وحملت على رأسه القبة والطير ، ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب الى أن طلع القلعة . فلما جلس على سرير الملك أرسل الملك المظفر أحمد الى السجن بثغر الاسكندرية ، وأرسل معه المرضعة

والدادة ، فكانت مدة سلطنته بمصر سبعة أشهر وعشرين يوما ... فما كان أغناه عن هذه السلطنة ، والحول الذى حصل فى عينيه لما دقت الكئوسات فى القصر يوم سلطنته كما تقدم ، وآخر الأمر سجن ! وأقام فى السجن الى أن مات بثغر الاسكندرية فى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة فى دولة الأشرف برسباى . ومات بالطاعون ، ثم نقل بعد موته الى القاهرة ودفن على أبيه داخل القبة التى فى الجامع المؤيدى الذى هو داخل باب زويلة . ومات وله من العمر نحو احدى عشرة سنة ، ولم يع أيام سلطنته وانما وعى نفسه فى السجن الى أن مات فيه . وقد دخل مماليك أبيه فى خطيئته حيث سلطنوه وهو فى هذه السن .

وكان المظفر هذا حسن الشكل جميل الصورة ، وانما حدث له ذلك الحول فى عينيه من يوم سلطنته كما تقدم .

ومن الحوادث فى أيامه أن فى هذه السنة — وهى سنة أربع وعشرين وثمانمائة — زاد النيل المبارك زيادة مفرطة ، واستمر ثابتا الى آخر هاتور من الشهور القبطية ، وهذا قط لم يعهد فى الاسلام . وحصل للناس فى تلك السنة الضرر الشامل واستبحرت الأراضى وغرق أكثر البساتين ، وفات الزرع عن أوانه ، وانقطعت الطرق من الماء . وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

يا رب ان النيل زاد زيادة
أدت الى هدم وفرط تشتت
ما ضره لو جا على عاداته
فى دفعه أو كان يدفع بالتى

وتوفى فى أيامه قاضى القضاة الشافعية ولى الدين العراقى ، والشيخ شمس الدين الديرى الحنفى . وقيل بل مات فى أثناء دولة الملك الأشرف برسباى والله أعلم بذلك .

الملك الظاهر ططر

هو الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد ططر الظاهرى الجركسى . وهو الثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وهو السادس من ملوك الجراكسة فى العدد .

كان أصله من مماليك الظاهر برقوق من مشترواته ، ثم أعتقه وأخرج له خيلا وقماشا وصار من جملة المماليك السلطانية الجمدارية ، ثم هرب من الملك الناصر فرج وتوجه الى حلب والتف على جكم العوضى لما تسلطن بحلب ، فلما قتل جكم التف ططر على شيخ ونوروز لما أظهرا العصيان بالشام ، فلما قتل الملك الناصر بالشام وتسلطن الخليفة العباس أنعم على ططر بامرية عشر . ثم بقى أمير أربعين فى دولة الملك المؤيد شيخ ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى رأس نوبة النوب ، ثم بقى أمير مجلس ... كل ذلك فى دولة المؤيد شيخ . فلما مات الملك المؤيد وتسلطن ابنه الملك المظفر بقى ططر مدبر المملكة ، فلما أظهر العصيان الأتابكى الطنبغا القرشى ، لما كان بالشام ، بقى ططر أتابك العساكر عوضا عنه . فلما خرج الى الشام صحبة الملك المظفر أحمد وظفر بالأتابكى الطنبغا القرشى والأمير قجقار القردمى أمير سلاح ونائب الشام چقمق الأرغون شاوى وجماعة من النواب ، وقتلهم كما تقدم ذلك ، قبض على جماعة كثيرة من الأمراء المؤيدية وسجنهم بقلعة دمشق ، فعند ذلك صفا له الوقت وقويت شوكته ، والتفت عليه خشداشينه الذين كانوا مفرقين فى بلاد الشرق ، فخلع الملك المظفر من السلطنة وتسلطن عوضه بالشام ، وطلق خوند سعادات أم الملك ، فقيل انها أشغلته فى مندل الفرش لما خلع ابنها من السلطنة فمرض ططر بالشام

ودخل الى مصر وهو عليل ، واستمر يسلسل فى المرض ولزم الفراش ، فهو كما قيل فى المعنى :

فكان كالمتمنى أن يرى فلقا
من الصباح فلما أن رآه عمى

فلم يزل عليلا حتى مات فى يوم الأحد رابع ذى الحجة من سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، ومات وله من العمر نحو خمس وخمسين سنة ، ودفن بجوار قبر الامام الليث بن سعد رضى الله تعالى عنه ... فكانت مدة سلطنته بالشام وبمصر ثلاثة أشهر وأياما . وقد تحمل فى هذه المدة اليسيرة اثم من قتله من الأمراء والمماليك فى طلب السلطنة ، وقد مهد لغيره فكان كما قيل فى المعنى :

الا انما الأرزاق تحرم ساهرا
وآخر يأتى رزقه وهو نائم

ولما مرض ططر عهد بالسلطنة الى ابنه محمد .

الملك الصالح ناصر الدين

هو الملك الصالح ناصر الدين محمد ، ابن الملك الظاهر ططر ، وهو الحادى والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم ، وهو السابع من ملوك الجراكسة وأولادهم بالديار المصرية فى العدد .

بويع بالسلطنة بعد موت أبيه ططر فى يوم الأحد رابع ذى الحجة سنة أربع وعشرين وثمانمائة .

تسلطن وله من العمر نحو احدى عشرة سنة . فلما بايعه الخليفة أحضروا له خلعة السلطنة ، وتلقب بالملك الصالح ، ودقت له البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وجلس على سرير الملك .

فلما تم أمره فى السلطنة خلع على المقر الأتابكى جانى بك الصوفى واستقر به أتابك العساكر على عادته ، ومدبر المملكة . فصار الأتابكى جانى بك فى تلك الأيام صاحب الحل والعقد والابرام والنقض ، فعز ذلك على بقية الأمراء ، وصار الأمير طراباى الظاهرى حاجب الحجاب يرمى الفتن بين الأتابكى جانى بك الصوفى وبين المقر السيفى برسباى الدقماقى أمير دوادار كبير ، فوثب الأمير برسباى على الأتابكى جانى بك الصوفى ، فهرب فى أواخر النهار ، فقبض عليه بعض المماليك وأحضروه الى الأمير برسباى ، فقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ، فاجتمعت الكلمة من بعد ذلك فى برسباى ، وصار صاحب الحل والعقد .

ثم ان برسباى وقع بينه وبين الأمير طراباى حاجب الحجاب ، فقبض عليه وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ، فعند ذلك صفا للأمير برسباى الوقت ، وقويت شوكته ، فتعصب له جماعة من الأمراء وخلعوا الملك الصالح محمد بن ططر من الملك وتسلطن برسباى . فكانت مدة سلطنة الملك الصالح بمصر ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما لا غير . وكان ليس له فى السلطنة الا مجرد الاسم فقط .

فلما خلعه برسباى من السلطنة عطف عليه ولم يسجنه بثغر الاسكندرية كعادة أولاد الملوك ، بل أدخله دور الحرم وأسكنه فى قاعة البربرية هو وأمه خوند بنت الأمير سودون الفقيه . ثم ان الأشرف برسباى زوج الملك الصالح ببنت الأتابكى يشبك الأعرج . واستمر الملك الصالح ساكنا فى القلعة بدور الحرم ، ورسم له الملك الأشرف برسباى بأن ينزل ويركب فى كل جمعة ويزور قبر والده ططر . فكان يركب صحبة المقر الناصرى محمد الملك الأشرف برسباى ويسيرون نحو المطرية .

وسيدى محمد هذا كان ابن الأشرف برسباى ، وكان أكبر من ولده سيدى يوسف ولكن توفى فى حياة والده عقيب الفصل الذى جاء فى سنة ثلاث

وثلاثين وثمانمائة . وكان الملك الصالح محمد بن ططر هذا يبهل كثير الخباط . فكان يسمى الفرس البوز (الفرس الأبيض) ، فقال بعض الخدام لاتقل الفرس الأبيض وقل الفرس البوز ، فحفظ منه ذلك الاسم ، فطلب يوما سلطانية صينى أبيض فقال : « هاتوا السلطانية البوز » ... فنهره بعض الخدام ونهاه عن ذلك ، فقال له : « لالاتى علمنى هذا » ... وكان له من أنواع الخباطة أشياء كثيرة ليس هذا محلها ، فكان كما قيل فى الأمثال :

فى الناس من تسعده الأقدار
وفعـــله جميعـــه ادبار

واستمر الملك الصالح على ذلك حتى توفى فى ليلة الخميس ثانى عشرى جمادى الآخر سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ، ومات بالطاعون الذى وقع فى تلك السنة ، ودفن على والده ططر بجوار قبر الامام الليث . ومات وله من العمر اثنتان وعشرون سنة .

ولما مات الملك الصالح محمد رسم الملك الأشرف برسباى لأولاد الأسياد الذين كانوا فى دور الحرم من داخل بأن ينزلوا يسكنون المدينة . وأنعم على كل واحد منهم بفرس ومائة دينار ، فنزلوا من يومئذ وسكنوا بالمدينة ، وبطل أمرهم .

الملك الأشرف برسباى

هو الملك الأشرف أبو النصر برسباى الدقماقى الظاهرى ، وهو الثانى والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وهو الثامن من ملوك الجراكسة وأولادهم . بويع بالسلطنة بعد خلع الملك الصالح محمد بن الظاهر ططر فى يوم الأربعاء ثامن ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة (١٤٢١م) ، فلبس خلعة السلطنة من باب السلسلة وركب من المقعد ، وحملت على رأسه القبة والطير حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض من الأكابر والأصاغر ، وتلقب بالملك الأشرف ، ودقت له البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء من الخاص والعام .

قيل لما خلع الملك الصالح محمد بن ططر من السلطنة حضر أمير المؤمنين المعتضد بالله داود والقضاء الأربعة ، وحضر الأتابكى بيبغا المظفرى وسائر الأمراء فاشتوروا فيمن يولونه السلطنة ، فقال الأتابكى بيبغا : « الأمير برسباى يكون سلطانا ، وهو أحق بها منى » ... فآثره بالسلطنة على نفسه .

وكان الملك الأشرف برسباى يومئذ دوادارا كبيرا ولم يكن أتابك العساكر . وأصله جركسى الجنس ، جلبه بعض التجار الى البلاد الشامية فاشتراه الأمير دقماق المحمدى نائب ملطية مع جملة مماليك صغار . ثم انه قدمه الى الملك الظاهر برقوق فأخذه وجعله من جملة المماليك السلطانية ونزل بطبقة الزمامية . وكان أغاته الأمير جركس القاسمى المصارع .

ثم ان الملك الظاهر برقوق أعتقه وأخرج له خيلا وقماشا ، ثم بقى خاصكيا ، ثم ساقيا فى دولة الملك الناصر فرج ، ثم التف على شيخ ونوروز لما خامرا بالشام ، فلما قتل الملك الناصر فرج وتسلطن الملك المؤيد شيخ جعله أمير عشرة ، ثم بقى أمير طبلخانات ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم تولى نيابة طرابلس ، ثم قبض عليه الملك المؤيد وسجنه بقلعة المرقب مدة طويلة ، ثم أطلقه وأنعم عليه بتقدمة ألف بدمشق . فلما خامر نائب الشام جقمق الأرغون شاوى قبض على برسباى وسجنه بقلعة الشام . فلما توجه ططر الى الشام وقبض

على جقمق نائب الشام وحبسه فى قلعة دمشق أفرج عن برسباى وأحضره صحبته الى القاهرة لما تسلطن بدمشق . ثم انه خلع عليه واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير على باى المؤيدى .

واستمر برسباى على ذلك حتى توفى الظاهر ططر وتسلطن ابنه الصالح محمد ، فوقعت الفتن بين الأتابكى جانى بك الصوفى وبين الأمير برسباى فقبض عليه الأمير برسباى وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية . فعند ذلك خلع الملك الصالح محمد من السلطنة وتسلطن عوضه كما تقدم .

فلما تم أمر برسباى فى السلطنة عمل الموكب وخلع من يذكر من الأمراء وهم : المقر الأتابكى بيبغا المظفرى واستقر به أتابك العساكر على عادته . وكان بيبغا هذا عظيم اللسان قليل الكلام بالعربى يابس الطباع ، سيىء الخلق ، فلم توافق العسكر على سلطنته ، فقنع بيبغا بالأتابكية دون السلطنة . فكان كما قيل فى المعنى :

اذا منعتك أشجار المعالى
جناها الغض فاقنع بالشميم

وخلع على الأمير جقمق العيسوى واستقر به أمير سلاح على عادته ، وخلع على الأمير أقبغا التمرازى واستقر به أمير مجلس ، وخلع على الأمير سودون بن عبد الرحمن واستقر به دوادارا كبيرا ، وخلع على الأمير قصروه بن عثمان واستقر به أمير آخور كبير ، وخلع على الأمير أزبك المحمدى واستقر به رأس نوبة النوب ، وخلع على الأمير جقمق العلائى واستقر به حاجب الحجاب ، وخلع على المقر السيفى جانى بك البجاسى واستقر به نائب الشام ، وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألف ، وعلى جماعة بامريات طبلخانات ، وعلى جماعة بامريات عشرة ، ثم أنفق على العسكر وفرق الاقطاعات على جماعة منهم .

واستقامت أحواله فى السلطنة ، وراق له الوقت . ثم أخذ فى أسباب تقريب جماعة من حاشية الملك المؤيد شيخ ، فخلع على المقر الزينى عبد الباسط بن القرشى خليل واستقر به ناظر الجيوش المنصورة ، وقد رقى فى أيامه الزينى عبد الباسط حتى صار صاحب الحل والعقد فى تلك الأيام . وكان الملك الأشرف لا يتصرف فى شىء من أحوال المملكة الا برأى القاضى عبد الباسط . فعظم أمره فى تلك الأيام حتى أطلق عليه عظيم الدولة فى أيامه ، واستمر على ذلك فى مدة دولة الملك الأشرف كلها . ثم قرب الأمير ناصر الدين التاج واستقر به والى القاهرة على عادته ، وكان أصل التاج من الشوبك ، وكان جده من النصارى ، وكان ينادم الملك الأشرف ولا ينشرح الا به . وكان التاج واسطة خير ، قليل الأذى ، لا تتكلم فى حق أحد الا بخير ، ليس عنده ضرر . وفيه يقول الشيخ تقى الدين بن حجة :

سبع وجوه لتاج مصر
تقول ما فى الوجود شبهى
وعندنا ذو الوجوه يهجى
وأنت تاج بفرد وجه

وقرب أيضا القاضى بدر الدين بن مزهر حتى صار كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، وقرب جماعة كثيرة من حاشية الملك المؤيد شيخ غير هؤلاء .

سنة ست وعشرين وثمانمائة (١٤٢٢ م) :

فيها وفى النيل المبارك فى ثامن عشر أبيب من الشهور القبطية ، ولم يسمع بمثل هذا فيما تقدم من السنين الماضية . وفيه يقول بعض الشعراء :

لما وفى النيل المبارك عاجلا
عم البلاد وللروابى طفغا
نشروا القلوع وبشروا بوفائه
فالراية البيضا عليه بالوفا

وفى هذه السنة رسم السلطان للأمير جرباش الكريمى المعروف بقاشق — بأن يتوجه الى ثغر الاسكندرية بسبب حفر خليج الاسكندرية ، لأنه قد طم بالرمال وضعف جريان الماء فيه . فتوجه اليه الأمير جرباش وجمع ما قدر عليه من الرجال فجمع ثمانمائة وسبعين انسانا ، وابتدأ فى حفره فى حادى عشر جمادى الأولى من تلك السنة المذكورة ، فانتهى العمل منه ومشى فيه الماء فى مدة أربعة أشهر فسر الناس بذلك .

سنة سبع وعشرين وثمانمائة (١٤٢٣ م) :

فيها تزايدت عظمة الأمير جانى بك مملوك الملك الأشرف برسباى وصار أمير طبلخاناه دوادار ثانى ، واجتمعت فيه الكلمة وصار صاحب الحل والعقد فى دولة أستاذه . وهو صاحب المدرسة التى بالقرب من المنجكية .

ومما يحكى عنه أنه نفى الأتابكى بيبغا المظفرى الى ثغر الاسكندرية من غير علم السلطان . فلما علم السلطان بذلك لم يقل له ليش فعلت ذلك . وتناهت عظمته حتى التف عليه جميع العسكر ، وكان الأمراء المقدمون ينزلون معه من القلعة الى بيته الذى بالقرب من سوق الجوار . ولم يزل جانى بك على ذلك حتى تخيل منه الملك الأشرف أن يثب عليه فشغله فى حلوى فاستمر عليلا ملازم الفراش حتى مات فى أثناء دولة أستاذه . ولو عاش لوثب على أستاذه وتسلطن .

ومن الحوادث فى أيامه أن شخصا من العوام شنق نفسه ، وسبب ذلك أنه كانت له زوجة يحبها فطلقها فتزوجت بغيره ووكلته فيه ، فشنق نفسه من قهره منها فمات .

سنة ثمان وعشرين وثمانمائة (١٤٢٤ م) :

فيها حجت خوند جلبان زوجة الملك الأشرف برسباى ، وهى أم ولده المقر الجمالى يوسف ، وكان المتسفر عليها القاضى عبدالباسط .

سنة تسع وعشرين وثمانمائة (١٤٢٥ م) :

فيها أرسل السلطان تجريدة الى قبرس ، فأعطاه الله تعالى النصر ، وفتح مدينة قبرس فى تلك السنة وأسر ملكها وجىء به الى القاهرة أميرا . فكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت المدينة سبعة أيام . ودخل عسكر الفرنج وهم فى زناجير وملكهم راكب وعليه آلة الحرب . وكانت هذه النصرة على غير القياس .

وفى هذه السنة كملت عمارة مدرسة السلطان — وهى المدرسة الأشرفية التى عند سوق الوراقين — فلما وقعت هذه النصرة وأسر ملك الفرنج فى تلك السنة رسم السلطان بأن تعلق خوذة ملك الفرنج على باب هذه المدرسة لتكون تذكارا له . وهى الى الآن معلقة فى باب هذه المدرسة .

سنة ثلاثين وثمانمائة (١٤٢٦ م) :

فيها جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن الأتابكى جانى بك الصوفى قد كسر قيده وهرب من السجن . وقيل ان جارية دخلت اليه فى السجن وقد تحملت بمبرد لطيف فى فرجها ، فبرد به قيده وهرب من أعلى حيطان البرج وتدلى فى حبل صغير وهرب . فلما بلغ الملك الأشرف ذلك اضطربت جميع أحواله ، وصار يكبس البيوت والحارات ، وقبض على أصهار جانى بك الصوفى وعاقبهم ، وكذلك عياله ومماليكه ، وجرى بسبب ذلك على الناس مالا خير فيه ، وصار كل من له عدو يكذب عليه ويقول جانى بك الصوفى مخبأ عنده ، فيكبسون عليه بيته وينهبون ماله ويعاقبون ذلك الرجل أشد العقوبة . واستمر الملك الأشرف على

ذلك وهو لا يهنأ له عيش حتى ظهر جانى بك فى بلاد التركمان عند أولاد قرا يوسف ، فعند ذلك سكن الاضطراب من القاهرة .

وفيها قبض السلطان على الصاحب بدر الدين نصر الله وعلى ولده صلاح الدين ، وقرر عليهما مالا .

وفيها تولى قاضى قضاة الشافعية العلامة الحافظ شهاب الدين بن حجر الكنانى العسقلانى الشافعى — وهو أول ولايته — فنزل من القلعة الى بيته فى موكب .

سنة احدى وثلاثين وثمانمائة (١٤٢٧ م) :

فيها ابتدأ السلطان الملك الأشرف بعمارة مدرسته التى فى خانقا سرياقوس ، وقد تناهى فى رخامها وزخرفها ، ثم عمل فيها خطبة ، ولم يعمل مثلها فى ذلك المكان وكان أول من خطب فيها الشيخ عبد الرحيم الحموى الواعظ ، وقد قرره السلطان فى الخطابة بل كان خطيبا فى الأشرفية التى عند سوق الوراقين أيضا .

سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة (١٤٢٨ م) :

فيها خلع السلطان على الأمير حقمق العلائى واستقر أمير آخور كبير عوضا عن الأمير فصروه ابن عثمان .

وفيها نزل السلطان الى الرماية ، وشق من المدينة وزينت له ، وكان له يوم مشهود والله سبحانه وتعالى أعلم .

سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة (١٤٢٩/١٤٣٠ م) :

فيها وقع الطاعون العظيم بالديار المصرية . وكان هذا الطاعون مخالفا لبقية الطواعين ، فان عادة الطعن يقع فى فصل الربيع ، وهذا وقع فى وسط الشتاء . واستمر يسلسل أربعة أشهر . وكانت قوة عمله فى الغرباء والأطفال والمماليك والعبيد والجوار ، فمات فيه من الناس ما لايحصى عددهم . حتى قيل انتهى من مات فى يوم واحد الى أربعة وعشرين ألف جنازة ، حتى ضج الناس من ذلك وصار يودع بعضهم بعضا . وفى ذلك نقول القائل:

قد نقص الطاعون ثلث الورى
وأهلك الوالد والوالده
كم منزل كالشمع سكانه
أطفاهمو فى نفخة واحده

وفى أول شعبان لم يسن غير طفل صغير مرضع ، وارتفع الوباء بالكلية فى ليلة واحدة ، فسبحان الحى الذى لا يموت ... ولكن ما ارتفع حتى أخلى عدة أماكن .

ومات فيه من الأعيان الملك الصالح محمد بن ططر ، وسيدى محمد بن الملك الأشرف برسباى .

وجاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بموت الخليفة العباس الذى تسلطن ، ومات هناك أحمد ابن المؤيد شيخ .

قال الحافظ بن حجر : « لما كثر الطاعون بمصر اجتمع أعيان العلماء بالجامع الأزهر ودعوا الله برفعه . فازداد أمر الطاعون ولم يتناقص » .

سنة اربع وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٠/١٤٣١ م) :

فيها كسفت الشمس وقت العصر حتى ظهرت النجوم بالنهار ، واستمرت مكسوفة نحو ساعة الى قريب الغروب .

سنة خمس وثلاثين وثمانمائة (١٤٣١/١٤٣٢ م) :

فيها حصر الى الأبواب الشريفة بعض التراكمة وصحبتهم رأس الأتابكى جانى بك الصوفى ، قطعها بعض التراكمة الذين كان عندهم وأرسلها الى السلطان ليحظى عنده بذلك . فلما حضرت الرأس رسم السلطان بأن يطوفوا بها فى القاهرة ، فطافوا

بها ثم علقوها فى باب زويلة ثلاثة أيام ، ثم رسم السلطان بأن ترمى ميضة جامع الحاكم فرميت بها وبطل أمر جانى بك الصوفى .

سنة ست وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٣/١٤٣٢ م) :

فيها جاءت قصاد قرا ملك الى السلطان وطلعوا الى القلعة وصحبتهم هدية للسلطان ، فمن جملتها فرس مرآة مكفتة بذهب ، ومن جملتها خروف بأليتين ، وخلعة للسلطان مخمل أحمر مرقومة بالذهب ، وبعض أثواب مخمل ، وصقورة برسم الصيد .

فلما رأى السلطان تلك الهدية استقلها وعز عليه أمر الخلعة . ثم انه عزم قصاد قرا ملك فى البحيرة ، ثم أحضر تلك الخلعة وألبسها لشخص من الشهدارية ــ وكان مضحكا ــ فرقص بها قدام السلطان فضحك عليه . ثم أحضر نارا وأحرق تلك الخلعة بحضرة القصاد ، وذبح الخروف ثم قال للقصاد : « استاذكم ان أراد أن يبهدل أحدا ايش يعمل فيه ؟ » ... فقالوا له : « يرميه فى الماء » ... فرسم السلطان برميهم فى البحيرة ، فرموهم فيها ، فأقاموا ساعة ثم أطلعوهم ، فرسم السلطان بقص أذناب خيلهم ، وقال لهم : « اخرجوا سافروا فى هــذا الوقت ، وقولوا لأستاذكم يلاقينى على الفرات » ...

فلما جرى ذلك علق السلطان الجاليش ونادى للعسكر بالعرض ، وأخذوا فى أسباب الخروج الى التجريدة .

وقد أولوا الخروف بأنكم عندنا مثل النعاج ، والمرآة بأنكم مثل النساء ... انظروا وجهكم فى هذه المرآة . وأولوا الخلعة بأنك نائب من تحت يدنا ...

ثم ان السلطان أنفق على العسكر ، وعين من الأمراء أربعة مقدمين يقيمون بالقاهرة مع جماعة من الحجاب ، وعين جماعة من الأمراء يتوجهون معه الى البلاد الشامية .

فلما انتهى شغل السلطان عزم على السفر ، وكان نائب الغيبة أقبغا المعروف بالتمرازى أمير مجلس وجماعة من الحجاب وبعض مماليك سلطانية . وبرز خيامه الى نحو الريدانية .

ثم ان السلطان طلب وخرج من الميدان الذى تحت القلعة ، فكان فى طلبه مائتا فرس ملبسة بالبركستوانات الفولاذ والحرير الملون ، وكان فيه كجاوتان زركش ، وكان فيه خمسون فرسا بسروج ذهب وكنابيش ، وكان له يوم مشهود بموكب عظيم . وكان صحبته أمير المؤمنين المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة وهم : ابن حجر ، وبدر الدين العينى ، وشمس الدين البساطى ، ومحب الدين البغدادى الحنبلى . وخرج معه سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر . فأقام بالريدانية يومين ثم رحل وقصد التوجه الى نحو البلاد الشامية ، فكان له فى الشام موكب عظيم وكذلك فى حلب .

ثم خرج من حلب وقصد التوجه نحو آمد من ديار بكر . فلما وصل الى هناك حاصر قلعة آمد أشد المحاصرة ، ونصب عليها عدة مجانيق فلم يقدر عليها ، فأقام هناك مدة ، فوقع فى العسكر الغلاء ، فقلق من ذلك ، وكانت العوام تغنى وتقول : « فى آمد رأينا العونه ، فى كل خيمه طاحونه ، الغلام نهاره يطحن ، والجندى يجيب المونه » ... فلما سمع المماليك ثارت أخلاقهم على السلطان وقصدوا الوثوب عليه هناك ، فخشى الملك الأشرف أن تقع هناك فتنة ، فلم يقع بينه وبين قرا ملك واقعة ولا قابَلَهَ ، فمشى بعض الأمراء بين قرا ملك وبين السلطان بالصلح ، فأرسل اليه السلطان القاضى محب الدين بن الأشقر نائب كاتب السر ، فحلف قرا ملك أنه لا يتعدى على بلاد السلطان ولا يحصل منه فساد .

ثم ان السلطان قصد التوجه الى نحو الديار المصرية . قيل ان السلطان صرف على هذه التجريدة من المال خمسمائة ألف دينـــار ولم يظفر بطائل . فلمـــا رجع عاد قرا ملك الى ما كان عليـــه من العصيان .

سنة سبع وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٣/١٤٣٤ م) :

فيها عاد الملك الأشرف برسباى الى نحو الديار المصرية ، فدخل الى القاهرة فى موكب عظـيم ، وحملت على رأسه القبة والطير ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير حتى طلع القلعة ... وهو آخر من جرد من الملوك وخرج بنفسه الى البـــلاد الشامية . فلما وصل السلطان خرج ولده المقـــر الجمالى يوسف الى تلقيه من العكرشة .

سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٤/١٤٣٥ م) :

فيها خلع على المقر السيفى جقمق العـــلائى واستقر أمير سلاح . وتوفى الشـــيخ تقى الدين الحسنى شارح كتاب أبى شجاع على مذهب الأمام الشافعى .

وفيها خلع على القاضى أمين الدين بن الهيصم واستقر فى الوزارة عوضا عن كريم الدين بن كاتب المناخات .

سنة تسع وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٥/١٤٣٦ م) :

فيها استقر المقر السيفى جقمق العلائى أتابك العساكر بالديار المصرية .

وفيهـــا تزايدت عظمة الملك الأشرف برسباى حتى صارت مماليكه المشتروات خمسة آلاف .

وفيها عمر السلطان الملك الأشرف تربته التى فى الصحراء عند تربة الظاهر برقوق وجعل فيهـــا مدرسة .

وفيها نزل السـلطان الى الرماية ، وشـــق فى القاهرة وزينت له .

وفيها توفى الشيخ صلاح الدين الأقفهسى وكان من أعيان العلماء .

سنة أربعين وثمانمائة (١٤٣٦/١٤٣٧ م) :

فيها شوش السلطان على أولاد الناس من أجناد الحلقة ، وصادرهم بسبب اقطاعاتهم ، وأخذ منهم على العبرة القديمة ، فحصل لهم الضرر الشامل . وكان المتكـــلم فى ذلك المقـــر الســـيفى أركماس الظاهرى أمير دوادار كبير ، فجار عليهم وحصل لهم منه غاية الضرر . وكان سبب ذلك أنه بلـــغ السلطان أن شاه رخ بن تمرلنك تحرك على البلاد ، فقصد السلطان أن يجرد اليه بنفسه ثانيا ، فصادر أجناد الحلقة بسبب ذلك .

وفيها توفى الشـــيخ بدر الدين بن الدمامينى المالكى المخزومى ، وكان من أهل العلم والفضل ، وله شعر جيد . فمن ذلك قوله فى قاضى القضـــاة ناصر الدين التونسى المالكى لما ولاه أمر العقود فى مبادى عمره :

يا قاضـــيا ليس يلفـــى نظيره فى الوجـــــود
قد زدت فى الفضل حتى قلدتنى بالعقـــــود

وفيها كانت وفاة الشيخ زين الدين الخراط الأديب الفاضل ، وله شعر جيد .

سنة احدى وأربعين وثمانمائة (١٤٣٧/١٤٣٨ م) :

فيها وقـــع الطاعون بالديار المصرية ، وهـــو الطاعون الثانى الذى جاء فى آخر دولته . وكان خفيفا بالنسبة الى الطاعون الذى كان قبله ، فمات فى هذا الفصل ما لا يحصى عددهم من مماليـــك وأطفال وجوار وعبيد وغـــير ذلك . وفى هـــذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

تغـــير فى مصر الهـــواء بأهلهـــا
بدا وعليـــه صـــفرة ونحـــول

وصح بها موت النسيم وكيف لا
وقد جاءه الطاعون وهو عليل

ثم ان الملك الأشرف برسباى مرض عقيب ذلك وسلسل فى المرض ، فحصل له ماليخوليا وخفة عقل ونزق ، فرسم بنفى الكلاب الى بر الجيزة ، فصار كل من أمسك كلبا يأخذ له نصف فضة من صيرفى باب السلسلة ، فأمسك العياق من الكلاب نحو ألف كلب فنفوهم الى بر الجيزة .

ثم انه نادى بأن امرأة لا تخرج من بيتها مطلقا ، فكانت الغاسلة اذا أرادت التوجه الى ميتة تأخذ ورقة من المحتسب ، وتجعلها فى رأسها حتى تمشى فى السوق .

ثم انه نادى فى القاهرة بأن فلاحا لا يلبث زمطا مطلقا ، لا من كبير ولا صغير ، فامتثل الناس ذلك .

ثم انه رسم بتوسيط الحكماء ، فوسط الرئيس خضر ، ووسط الرئيس شمس الدين بن العفيف .

واستمر على هذه الخرافات الى أن مات ، فكانت وفاته فى يوم السبت بعد العصر ، فبات بالقلعة وأخرجوه فى يوم الأحد ثالث عشر ذى الحجة سنة احدى وأربعين وثمانمائة ، ودفن بتربته التى أنشأها عند البرقوقية بالصحراء ، وصلى عليه العلامة ابن حجر .

ومات وله من العمر نحو خمس وسبعين سنة . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ست عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام ، فكثر عليه الحزن والأسف من الناس . فان مصر كانت هادية فى أيامه من الفتن والحروب التى كانت فى الدول الماضية . وقد قال القائل :

والمرء كالظل ولا بد أن
يزول ذاك الظل بعد امتداد

قيل ان الملك الأشرف لما ثقل فى المرض أحضر الخليفة الى داره والقضاة الأربعة وسائر الجند والأمراء ، وحلف المماليك ثم أنفق عليهم لكل واحد ثلاثون أشرفيا ، وعهد الى ولده يوسف بالسلطنة ، وجعل الأتابكى جقمق العلائى وصيا عليه ونظام المملكة . ثم انه رسم بأن يعاد الى أجناد الحلقة من أولاد الناس ما أخذ منهم بسبب الاقطاعات كما تقدم ، فرسم للأمير أركماس الظاهرى بأن يعاد الى كل واحد ما أخذ منه بالتمام والكمال ويكتب عليه شهادة بذلك ، فأعادوا الى أجناد الحلقة ما كان أخذ منهم .

وكان الملك الأشرف برسباى ملكا جليلا مبجلا فى موكبه ، وكان منقادا الى الشريعة ويحب أهل العلم ويقربهم . وكانت معاملته أحسن المعاملات من أجود الذهب والفضة ، ولا سيما الأشرفية البرسبيهية ، فانها من خالص الذهب ، والى الآن يرغب اليها الناس فى المعاملة .

وكانت صفة الملك الأشرف برسباى أنه عربى الوجه ، طويل القامة ، أبيض اللون ، مستدير اللحية شائب الذقن ، حسن الشكل ، صبيح الوجه ، عليه سكينة ووقار ومهابة مع لين جانب . وكان عنده معرفة بأحوال السلطنة ، كفئا للملك ، كثير البر والصدقات ، وله معروف وآثار ... لكنه كان عنده طمع زائد فى تحصيل الأموال ، محبا لجمع الأموال من المباشرين وغيرهم .

ومما أنشأه من العمائر فى أيامه المدرسة التى عند سوق الوراقين ، والمدرسة التى فى الصحراء التى دفن فيها ، والمدرسة التى فى خانقاه سرياقوس ، وعمر الوكالة التى فى الصليبة والربعين اللذين بها وله انشاءات كثيرة بالديار المصرية وغيرها . وكان الأمير حاسوك شادا على عمائره .

وخلف من الأولاد صبيين وهما يوسف وأحمد . وكان من أزواجه خوند جلبان وهى أم ولده يوسف ، وخوند فاطمة بنت الظاهر ططر ، وخوند

، الأتابكى يشبك الأعرج ، وأرسل فأحضر بنت
، عثمان ملك الروم لكنه لم يدخل عليها . وكان
ر ملوك الچراكسة كما قيل فى المعنى :

قالوا فهل جاد الزمان بمثـله
قلت الزمان بمثله لشـحيح

وأما من توفى فى أيامه من الأعيان فهم قاضى
ضاة الهروى ، وقاضى القضاة علاء الدين بن
نى الحنبلى ، وقاضى القضاة التفهنى الحنفى ،
لشيخ ناصر الدين الديرى الحنفى ، وابن النقاش
، أعيان علماء الشافعية ، والشيخ شهاب الدين
ريزى المؤرخ ، والأتابكى بيبغا المظفرى ، وغير
ك من الأعيان .

الملك العزيز أبو المحاسن الدقماقى الظاهرى

هو الملك العزيز أبو المحاسن جمـال الدين
يـسـف ، ابن الملك الأشرف برسباى الدقماقى
ظاهرى ، وهو الثالث والثلاثون من ملوك الترك
ولادهم بالديار المصرية ، وهو التاسع من ملوك
چراكسة وأولادهم فى العدد .

بويع بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الأشرف
، يوم السبت ثالث عشر ذى الحجة سنة احدى
'ربعين وثمانمائة ، وتسلطن وله من العمر نحو
ربع عشرة سنة ، وتلقب بالملك العزيز . وأمه أم
لد چركسية تسمى جلبان .

فلما بايعه الناس بالسلطنة جلس على سرير
لملك ، وحمل الأتابكى چقمق القبة والطير على
أسه من باب الستارة الى القصر الكبير . فلما
بلس باس له الأمراء الأرض ، فاستقر بالأتابكى
چقمق العلائى نظام المملكة وصاحب الحل والعقد .

سنة اثنتين واربعين وثمانمائة (١٤٣٨/١٤٣٩ م) :

فيها دبت عقارب الفتنة بين الأتابكى چقمق
وبين الأمراء الأشرفية ، وصاروا يعاكسون الأتابكى
چقمق فيما يفعله من الأمور . وصار الملك العزيز
مع چقمق مثل اللولب يدوره كيف شاء ، فليس له
فى السلطنة غير مجرد الاسم فقط لأجل كتب العلامة
على المراسيم . وكان الأتابكى چقمق مع الأمراء
الأشرفية فى غاية الضنك ، وقصدوا قتله فى القصر
عدة مرار . ولولا أن فى أجله فسحة لقتل من يوم
مات الأشرف .

ثم ان جماعة من الأمراء المؤيدية والناصرية
التفوا على چقمق وتعصبوا له ، فوثبوا على الملك
العزيز ، والتف عليهم جمـاعة كثيرة من المماليك
السيفية فأوقعوا مع المماليك الأشرفية ، فلم تكن الا
ساعة من النهار حتى انكسر المماليك الأشرفية ،
وأحاط بهم كل رزية ، فتشتتوا وتفرقوا ، بيـد
النوى وتمزقوا . فلما انكسروا وقع الاتفاق وتحقق
على سلطنة الأتابكى چقمق ، فأحضروا الخليـفة
المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة ، فخلعوا الملك
العزيز من السلطنة وولوا الأتابكى چقمق ، فكان
الذى خلع الملك العزيز قاضى القضاة شهاب الدين
ابن حجر .

فلما تولى الأتابكى چقمق رسم بأن العزيز يدخل
الى دور الحرم ولم يسجنه بثغر الاسكندرية كعادة
أولاد الملوك ، فأخلى له قاعة البربرية وأقام بها .
وكان قصد السلطان چقمق بأن يزوج الملك العزيز
ويستمر ساكنا بالقلعة ، فما صبر الملك العزيز ووقع
منه ما سيأتى ذكره فى موضعه . فكان كما قيل
فى المعنى :

قد يدرك المتأنى جل مقصـده
وقد يكون مع المستعجل الزلل

فكانت مدة سلطنة الملك العـزيز يوسف بن
الأشرف برسباى بالديار المصرية ثلاثة أشهر وخمسة
أيام كأنها أضغاث أحلام .

الملك الظاهر چقمق

هو الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد چقمق العلائى الظاهرى ، وهو الرابع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو العاشر من ملوك الچراكسة وأولادهم .

بويع فى السلطنة بعد خلع الملك العزيز يوسف ابن الأشرف برسباى فى يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة ، فحضر الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة فخلعوا الملك العزيز من السلطنة وولوا چقمق ولقبوه بالملك الظاهر ، ثم أحضرت له خلعة السلطنة فلبسها من باب السلسلة ، وركب فرس النوبة ، وحمل القبة والطير على رأسه المقر السيفى قرقماس الشعبانى أمير سلاح ، وقد تقدم أنه حضر مع العسكر الذين كانوا فى التجريدة .

فلما ركب من المقعد وطلع من باب سر القصر الكبير جلس على سرير الملك ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء ، ودقت له البشائر فى ذلك اليوم بالقلعة ، وفرح غالب الناس بتوليته لكونه كان رجلا دينا خيّرا قليل الأذى .

وكان أصل الملك الظاهر چقمق جركسى الجنس ، جلبه الحواجا كزل فاشتراه منه العلائى على بن الأتابكى اينال اليوسفى وقدمه الى الملك الظاهر برقوق فصار من جملة المماليك السلطانية ، ثم بقى خاصكيا ، ثم بقى ساقيا ، ثم أمسك وحبس فى دولة الملك الناصر فرج ، ثم أطلق وصار أمير طبلخاناه خازندار فى دولة الملك المؤيد شيخ ، ثم مقدم ألف فى دولة الملك الظاهر ططر . ثم بقى حاجب الحجاب فى دولة الملك الأشرف برسباى ، ثم بقى أمير آخور كبير ، ثم بقى أمير سلاح ، ثم بقى أتابك العساكر ... كل ذلك فى دولة الملك الأشرف برسباى . فلما مات الأشرف وتولى ابنه العزيز يوسف بقى چقمق نظام المملكة ومشيرها ، فبقى مع المماليك الأشرفية فى غاية الضنك ، وأقام على ذلك مدة يسيرة ، ثم تعصب له جماعة من الأمراء المؤيدية والناصرية وخلعوا الملك العزيز من السلطنة وولوا چقمق .

فلما جلس على سرير الملك وتم أمره فى السلطنة وباس له الأمراء الأرض قبض فى ذلك اليوم على الأمير جوهر الزمام اللالا وسجنه فى البرج بالقلعة. ثم قرر فى وظيفة الزمامية فيروز الساقى ، ثم توفى جوهر اللالا فى أثناء ذلك من الرجفة ، ثم عمل الموكب فى القصر الكبير وخلع على من يذكر من الأمراء وهم المقر السيفى قرقماس الشعبانى واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضا عن نفسه وقرره فى اقطاعه وهو نظام المملكة وزاد عليه امرية أربعين بدمشق ، وخلع على المقر السيفى أقبغا التمرازى واستقر به أمير سلاح عوضا عن قرقماس الشعبانى ، وخلع على المقر السيفى يشبك السودونى واستقر به أمير مجلس عوضا عن أقبغا التمرازى ، وخلع على المقر السيفى تمراز القرمشى واستقر به أمير آخور كبير عوضا عن الأمير جانم الأشرفى ، وخلع على المقر السيفى قراقجا الحسنى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن تمراز القرمشى ، وخلع على المقر السيفى تغرى بردى البكلمشى — الشهير بالمؤذى — واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن يشبك السودونى ، وأقر المقر السيفى أركماس الظاهرى دوادارا كبيرا على عادته كما كان فى دولة الملك الأشرف برسباى ... فهذا كان ترتيب الأمراء المقدمين أرباب الوظائف فى مبتدأ دولته ، ثم انتقلت الوظائف من بعد ذلك الى

جماعة من الأمراء حسبما يأتى ذكر ذلك فى مواضعه عند انتقال الوظائف .

ثم ان الملك الظاهر أنعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء ، وأنعم على جماعة بامريات طبلخانات ، وعلى جماعة بامريات عشرة ، وأرضى جماعة المؤيدية والناصرية بكل ما يمكن من ذلك .

ثم انه أنفق على العسكر نفقة السلطنة ، وفرق الاقطاعات على المماليك السلطانية والمماليك السيفية الذين كانوا سببا لسلطنته ... فأقام فى السلطنة مدة يسيرة والأمر ساكن ، ثم بات الناس وأصبحوا وقد أشيع فى ليلة عيد الفطر — والناس فى اضطراب — أن الملك يوسف قد تحسب من القلعة ونزل بعد المغرب فى صفة صبى طباخ ، وعليه ثياب رثة ، وعلى رأسه دست طعام ، وقد لوث وجهه بسواد الدست فكان ذلك فألا عليه . فلما وصل الى باب القلعة ضربه الطباخ الذى وراءه واستخفه فى المشى . فلما نزل من القلعة اضطربت الأحوال ، وكان مماليك أبيه أوقعوه فى هذه البلية ، فلما وقع تخلوا عنه وتبرأ كل أحد منه . فكان كما قيل فى المعنى :

لقـاء أكثر من يلقاك أوزار
فلا تبال أغابوا عنك أو زاروا
أخلاقهم حين تبلوهن أوعار
وفعلهم مأثم للمـرء أو عار
لهم لديك اذا جاءوك أوطـار
اذا قضوهاتنحواعنكأو طاروا

ثم ان الملك العزيز استمر مختفيا نحو شهر ، والوالى فى كل ليلة يكبس البيوت والحارات بسبب الملك العزيز ، وصار كل من كان له عدو يكذب عليه فيكبسون بيته . واستمر الناس فى جمرة نار مطلوقة الى أن توجه الملك العزيز الى بعض الأمراء فنم عليه . فلما بلغ بلباى المؤيدى ذلك — وكان ساكنا فى زقاق حلب —جاء ماشيا وقبض على الملك العزيز وتوجه به الى باب السلسلة ، فأنعم عليه السلطان بخمسمائة دينار وجعله أمير أربعين ، وقيد العزيز ، ودقت الكئوسات تحت الليل بسبب ذلك . فلما أصبح الصباح ونزلوا بالملك العزيز من القلعة ، توجهوا به الى البحر ومضى الى الاسكندرية فسجن بها ، وآخر الطب الكى ، وكم عجلة أعقبت ندامة... وكان قصـد الملك الظاهر أن يزوج الملك العزيز ويبقى ساكنا فى القلعة ، فما سلم من مماليك أبيه ، وحسنوا له الهروب حتى هرب ، وقد دخلوا فى خطيئته برأيهم المعكوس . وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء من أبيات :

ولم يدخلوه السـجن الا مخافة
من العين أن تطرا على ذلك الحسن
وقلنا له شاركت فى الاسم يوسفا
فشاركه أيضا فى الدخول الى السجن

واستمر الملك العزيز فى السجن مدة دولة الملك الظاهر جقمق كلها . فلما كانت دولة الملك الأشرف اينال رسم للملك العزيز بالافراج ، وأن يسكن فى بعض دور الحرم بثغر الاسكندرية ، وأن يركب الى الجامع وقت صلاة الجمعة . واستمر على ذلك الى دولة الملك الظاهـر خشقدم ، فتوفى بثغـر الاسكندرية كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

ومن هنا نرجع الى أخبار دولة الملك الظاهر جقمق ، فانه لما رجع العسكر الذى كان قد توجه الى البلاد الشامية ، وحضر صحبة العسكر المقر السيفى قرقماس الشعبانى فوجد الملك العزيز قد تسلطن ، وكان قرقماس فى نفسه من السلطنة شىء ، فلما تسلطن جقمق جعله أميرا كبيرا فاستمر على ذلك أياما ثم لعب الأكرة مع السلطان ، فقصـد الأتابكى قرقماس أن يقبض على السـلطان وهو

يلعب الأكرة ، فدنا منه وأراد أن يقبض عليه وهو راكب على الفرس ، فانجذب منه السلطان وساق الى الدهيشة .

فلما انقضت الأكرة ونزل الأمراء الى بيوتهم لبس الأتابكى قرقماس آلة الحـــرب وطلع الى الرميلة ، فالتفت عليه جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ، ولكن كان أكثر الأمراء والعسكر مع الملك الظاهر جقمق . فلما ركب قرقماس وطلع الى الرميلة وقف بسوق الخيل ، فنزل السلطان الى باب السلسلة وجلس فى المقعد المطل على الرميلة .

فلما تسامعت الأمراء الذين من عصبة السلطان طلع الى الرميلة تسعة أمراء مقدمون منهم الأمير بيبغا الطيـــار ، والأمير تمرباى ، والأمير قراقجا الحسنى ، والأمير يشبك السودونى ، والأمير تمراز القرمشى ، والأمير تغرى بردى المؤذى ، وغير ذلك من الأمراء المقدمين وغيرهم ، فأوقعوا مع قرقماس واقعة قوية ، فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد كسر الأتابكى قرقماس وهــرب واختفى فى غيطه الذى عنــد الجزيرة الوسطى . وسبب ذلك أن مملوكا يسمى بلبان كان فى باب السلسلة ، فحــرر على قرقماس وضربه بسهم نشاب فجاء فى يده فخرقها من وسط كفه ، فتألم لذلك قرقماس وهرب من وقته وانكسر . فلما بلغ ذلك السلطان أنعم على بلبان المذكور باقطاع ثقيل وجعله خاصكيا .

ثم ان قرقماس أقام فى غيطه ثلاثة أيام وأرسل يطلب من السلطان الأمان ، فأرسل اليــه بعض الأمراء ، فطلع به الى القلعة ، فقيــده السلطان وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ، وخمدت الفتنة ولم ينل قرقماس مقصوده ، فكان كما قيل فى المعنى :

يا خاطب الدنيا الى نفسه
تنح عن خطبتهـــا تسـلم
ان التى تخطب غــدارة
قريبـــة العرس من المأتم

ثم ان السلطان خلع على المقر السيفى أقبغـــا التمرازى واستقر به أتابك العســاكر عوضا عن قرقماس الشعبانى ، وجعله أيضا نائب السلطنة ، وصـــار يحكم بين النـــاس وعلى بابه رأس نوبة ونقباء ، وهو آخر من تولى نيابة السلطنة بالديار المصرية ، وكانت هذه الوظيفة قد بطلت من أيام محمد بن قلاون — وكانت أكبر من الأتابكية — ويخرج النائب الاقطاعات الخفية من غير مشورة السلطان .

وفيها توفى قاضى القضاة المالكى شمس الدين البساطى وولى القضاء البدر التونسى عوضه .

سنة ثلاث واربعين وثمانمائة (١٤٣٩/ ١٤٤٠) :

فيها جاءت الأخبار من البلاد الشامية بأن اينال الجكمى نائب الشام قد خرج عن الطـــاعة وأظهر العصيان ، وكذلك تغرى برمش نائب حلب ، فعين السلطان لهم تجريدة ثم خلع على المقر السيفى أقبغا التمرازى واستقر به نائب الشام عوضا عن اينـــال الجكمى ، وخلع على المقر السيفى يشبك السودونى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن أقبغا التمرازى .

فلما توجه العسكر الى البلاد الشامية أوقعوا مع النواب ، فانكسر النواب ، وأسروهم وقطعوا رءوسهم وأرسلوها الى القـــاهرة ، فعلقوها على باب زويلة .

وقد وقع للملك الظـــاهر فى أوائل دولته محن عظيمة ، منها تسحب الملك العزيز من القلعة ، ومنها وثوب الأتابكى قرقماس عليــه ، ومنها عصيان النواب ، وحصل له غاية الاضطراب . ثم انه أثبت

على الأتابكى قرقماس كفرا ، وحكم به قاضى القضاة المالكى شمس الدين البساطى .

ومن النوادر ما حكاه بعض المؤرخين أن الأتابكى قرقماس هذا لما أرادوا ضرب عنقه وهو فى السجن أحضروا له المشاعلى فضربه ثلاث ضربات بالسيف فلم يؤثر فيه ذلك ، ففتشوه فوجدوا فى فمه خاتم فضة . وكان قرقماس أصله من مماليك الظاهر برقوق ، وكان ضرب عنقه وهو بثغر الاسكندرية فى السجن .

ثم ان الملك الظاهر صفا له الوقت من بعد ذلك ، وعاش فى أرغد عيش ، ودام فى السلطنة الى أن مات على فراشه كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه . فكان كما قيل فى المعنى :

لا تسأل الدهر فى بأساء يكشفها
فلو أردت دوام البؤس لم يدم

سنة اربع واربعين وثمانمائة (١٤٤٠/١٤٤١ م) :

فيها خلع السلطان على القاضى جمال الدين بن البارزى واستقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية . وكان القاضى جمال الدين بن البارزى صهر الملك الظاهر جقمق زوج أخته ، فرقى فى تلك الأيام الى الغاية . وخلع على القاضى جمال الدين يوسف بن كاتب جكم واستقر به ناظر الخواص الشريفة على عادته ، ثم قبض على القاضى عبد الباسط ناظر الجيوش المنصورة وصادره واستصفى أمواله فأخذ منه نحو مائتى ألف دينار ، ثم نفاه الى مكة ، ثم نقله الى الشام . ولما انفصل القاضى عبد الباسط من نظارة الجيش استقر بها القاضى محب الدين بن الأشقر عوضا عن القاضى عبد الباسط .

وفيها عزل السلطان قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر من القضاء وولى القاضى علم الدين صالح البلقينى ، فقال القاضى شهاب الدين بن حجر :

يا أيها السلطان لا تستمع
فى أمر قاضيك كلام الوشاه
والله لم نسمع بأن امرأ
أهدى له قط ولا قدر شاه

فأقام القاضى علم الدين البلقينى فى قضاء القضاة مدة يسيرة وعزل عنها ثم أعيد ابن حجر الى القضاء ثانى مرة .

سنة خمس واربعين وثمانمائة (١٤٤١/١٤٤٢) :

فيها كانت وفاة أمير المؤمنين المعتضد بالله أبى الفتح داود بن المتوكل ، وكانت خلافته ثمانيا وعشرين سنة وشهرين . وقد بايع فى أيامه من السلاطين ستة وهم : المظفر أحمد بن المؤيد شيخ ، والظاهر ططر ، وابنه ، والأشرف برسباى ، وابنه ، والملك الظاهر جقمق .

ولما مات الخليفة داود نزل السلطان وصلى عليه ، وكان كثير البر والصدقات . وكانت وفاته فى يوم الأحد رابع ربيع الأول من هذه السنة .

وفى هذه السنة كان وفاء النيل رابع عشر أبيب ، وقد وقع مثل ذلك فى أيامه مرتين .

وفيها عزل البدر العينى عن الحسبة ، وتولى الشيخ على العجمى الخراسانى .

وفيها توفى الشيخ تقى الدين المقريزى المؤرخ .. والأصح أنه توفى سنة ست وأربعين لا فى السنة المذكورة .

ولما مات المعتضد تولى من بعده أخوه سليمان ابن المتوكل ، ولقب بالمستكفى بالله ، فقال الناس : ورث سليمان داود .

سنة ست واربعين وثمانمائة (١٤٤٢/١٤٤٣ م) :

فيها من الحوادث أن طائفة من العبيد السود خامروا على أستاذهم ، وعدوا بر الجيزة فأقاموا

هنـاك وأظهروا العصيان ، وجعلوا لهم سـلطانا ووزيرا وأميرا كبيرا ودوادارا . وصار سـلطانهم يركب وعلى رأسه صنجق أصفر وحوله جماعة من العبيد نحو من خمسمائة عبد ، فصاروا يفسدون هناك وينهبون ما يمر عليهم من غلال وغير ذلك ، فحصل للناس منهم غاية الأذى . فلما بلغ السلطان ذلك عين لهم بعض الأمراء ومعه جماعة من المماليك السلطانية ، فعدوا اليهم وأوقعوا معهم ، فانكسر العبيد وأسر سلطانهم ومسك منهم جماعة وهرب الباقون ورجعوا الى القـاهرة ، فرسم السلطان ونادى فى القـاهرة بأن كل من كان له عبد كبير يطلع به الى باب السلسلة ويقبض ثمنه اثنى عشر دينارا ، فامتثل الناس ذلك ، فاشترى منهم السلطان جماعة وأرسلهم الى بلاد ابن عثمان ورسم ببيعهم هناك ، فتوجهـوا بهم فى مركب وهم فى الخشب وباعوهم هناك ، وقطع جادرة العبيد الشناترة من مصر ، وخمدت تلك الفتنة التى كانت بين العبيد .

وفيها كان قاضى القضـاة بدر الدين محمود العينى الحنفى محتسب القـاهرة ، فكان يعزر السوقة بذهاب المال ، فمن وجد فى بضاعته غشا يرسـلها الى الحبوس فيأكلها المحبوسون ، فكان يعزر بذلك .

سنة سبع واربعين وثمانمائة (١٤٤٣/١٤٤٤ م) :

فيها تزايدت عظمة القاضى زين الدين أبى الخير ابن النحاس حتى صـار وكيل بيت المـال وناظر الكسوة وناظر الجوالى ، فانفرد بالسـلطان حتى قيل كان السلطان قصد أن يزوجه باحدى بناته ، وقد صار عزيز مصر فى أيامه ، وأبطل كلمة جميع المباشرين ، واجتمعت فيه الكلمة ، وصار صاحب الحل والعقد بمصر كما قيل فى المعنى :

يقول بيت المـال لما رأى
تدبيره ذاك الجلى الجليل
الله أعطـانى وكيلا رضا
فحسبى الله ونعم الوكيل

سنة ثمان واربعين وثمانمائة (١٤٤٤ م) :

فيها أرسل السلطان خلف القاضى عبد الباسط — وكان منفيا بمكة — فلما حضر أكرمه السلطان وأقام فى بيتـه بطالا وفى غاية العز والعظمـة ... وكان يطلع الى السلطان فى رأس كل شهر ويهنى به ، فيكرمه السـلطان ويعظمه . واستمر على ذلك حتى مات .

وفيها وثب مماليك الأمير تغرى بردى المؤذى عليه وهو فى بيته ، فرموا عليه بالنشاب وهو جالس فى المقعد فهرب ودخل الى البيت وأغلق عليه الباب ، فاستمروا يحاصرونه من أول النهـار الى العصر ، واستمر من الطربة مريضا الى أن مات . فلما مات خلع السلطان على الأمير اينال العلائى واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عنه .

سنة تسع واربعين وثمانمائة (١٤٤٥ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، ومات فيه من الناس ما لا يحصى عددهم ، لكنه كان خفيفا بالنسبة الى الطاعون الذى جاء فى أيام الأشرف برسباى . وفيه يقول الشيخ شمس الدين النواجى :

يا الها أهدى الى الخلق رحمى
بوباء جم الثـواب العظيـم
قد شريت النفوس منـا فخذها
بالرضا فى قضـاك والتسـليم

وفيها كان مولد الشيخ جلال الدين بن الشيخ كمال الدين الأسيوطى ، وذلك فى جمادى الآخرة من تلك السنة .

وفيها توفى الأتابكى يشبك السودونى ، واستقر فى الأتابكية اينال العلائى الأجرود ، وكان دوادارا

كبيرا . واستقر بالأمير قانباى الجركسى دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير اينال العلائى .

وفيها تولى الشيخ شمس الدين محمد القاياتى قاضى القضاة الشافعية عوضا عن ابن حجر ، فقال الشهاب المنصورى فى القاياتى تعصبا لابن حجر :

ان كان شمس الدين قاياتيكم
مستثقل الحركات والسكنات
لا غرو أن أضحى جبانا فى الورى
فالجبن منسوب الى القايات

وفيها تزايدت عظمة الأمير زين الدين الجبى استادار العالية ، ورقى فى أيام الملك الظاهر هذا الى الغاية ، وهو صاحب الجامع الذى بالحبانية ، والجامع الذى فى بولاق ، والجامع الذى بين السورين ، وله عدة جوامع بمصر وغيرها . وكان له حرمة وافرة وكلمة نافذة ، وكان الملك الظاهر منقادا له لا يسمع فيه مرافعة ، ولم يجىء بعده من يناطيه فى الاستدارية ، بل كان آخرهم .

سنة خمسين وثمانمائة (١٤٤٦ م) :

فيها تغير خاطر السلطان على الأمير جانى بك الظاهرى حاجب الحجاب بسبب عبد قاسم الكاشف الذى كان قد اشتهر بالصلاح ، فنفى الأمير جانى بك الى ثغر دمياط لأمر أوجب ذلك .

وفيها رسم السلطان باعادة مولد سيدى أحمد البدوى بعد ما كان بطل .

وفيها هجم الفيل الكبير على سايسه وقتله . فلما بلغ السلطان رسم بقتل الفيل .

وفيها أحضر السلطان الأمير خشقدم الناصرى من الشام ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمه ألف .

سنة احدى وخمسين وثمانمائة (١٤٤٧ م) :

فيها تغير خاطر السلطان على الشيخ برهان الدين البقاعى ، وقد وقف شخص وشكاه للسلطان ، فأمر بسجنه بالمقشرة ، وأخرج عنه وظيفته فى قراءة الحديث ، ثم نفاه الى الهند حتى شفع فيه بعض الأمراء .

سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة (١٤٤٨ م) :

فيها كانت وفاة الشيخ الصالح السيد الشريف الحسيب النسيب شمس الدين محمد الطباطبى أعاد الله علينا من بركاته ، ودفن بالقرافة الكبرى عند الشيخ فضل الله بن فضالة .

وفى هذه السنة كان مولدى ، وذلك فى يوم السبت سادس ربيع الآخر من السنة المذكورة . هكذا نقلته من خط والدى رحمة الله عليه .

وفيها من الحوادث أن السلطان رسم بسد خوخة الجسر التى ببركة الرطلى لأمر أوجب ذلك ، فحصل عند الناس اضطراب زائد بسبب ذلك . ثم تكلم فى ذلك الجمالى يوسف ناظر الخاص فرسم باعادة كل شىء على حاله .

وفيها تولى قاضى القضاة الشافعية الشيخ شرف الدين يحيى المناوى ، وكان قاضيا على القدر دينًا خيّرا من أهل العلم والصلاح .

وفيها من الحوادث أن شخصا أعجميا يسمى الشيخ أسد الدين كان يدعى أنه شريف ، فجاء الى الشيخ على المحتسب وقال له : « اجمعنى على السلطان فانى أعرف صنعة الكيمياء » .. ! فجمعه عليه فأوحى اليه أنه يطبخ له كيمياء ، وأن هذا وجه حل ، فانطاع السلطان الى كلامه وأجرى عليه ما يحتاج اليه من أسباب ذلك ، وصرف عليه جملة مال نحوا من عشرة آلاف دينار ، ولم تصح معه الكيمياء ، فكان يأخذ الحرير الأحمر بالأرطال ويوقده فى النار ، ولا يأكل شيئا فيه روح ، فأتلفه

على الملك الظاهر جمله مال ولم يفد ذلك شيئا .
فكان كما قيل فى المعنى :

كاف الكنوز وكاف الكيمياء معـا
لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعاً
وقد تحـدث قوم باجتماعهمـا
وما أظنهمـا كانا ولا اجتمعـا

فأوحوا الى السلطان أن هـذا يعبد النـار ، وتحدثوا فى حقه بكلمات كثيرة ، فأرسله السلطان الى المدرسة الصالحية فحكم فيـه بعض نواب القـاضى المالكى بدر الدين التونسى بأنه كفر ، فضربوا عنقه تحت شباك الصالحية ، وكان له يوم مشهود .

سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة (١٤٤٩ م) :

فيها توقف النيل عن الوفاء ثلاث أصابع وقيل أربعا ، وأقام على ذلك أياما لم يزد شيئا ، فرسم السلطان بأن يخرج الناس للاستســقاء ، فخرج القضاة الأربعـة وأمير المؤمنين المسـتكفى بالله سليمان ومشايخ العلم والصلحاء وأعيان الناس ، ولم ينزل السلطان فعز ذلك على النـاس . وقد تقدم أن الملك المؤيد شيخ نزل بنفسه واستسقى مع الناس ، وكان عليه جبة صوف أبيض ، فلم يوافق الملك الظاهر على ذلك . ثم خرج أطفال المكاتب وعلى رءوسهم المصاحف ، وخرج طائفة اليهود وعلى رؤوسهم التوراة ، وخرج طائفـة النصارى وعلى رءوســهم الانجيــل ، وأخرجوا معهم بعض أبقار وأغنام ، وخرج معهم الســواد الأعظم من رجال ونساء وأطفال رضع ، والخلق يسـتغيثون : « يا ألله ارحمنا » ... وكان يوما تسكب فيه العبرات ، فتوجهوا نحو الصـحراء عند الجبل الأحمر ، وأحضروا هناك منبرا ، وكان قاضى القضاة الشافعية يومئذ القاضى شرف الدين يحيى المنـاوى ، فصـعد المنبر وخطب خطبـة الاستسقاء على جارى العادة ، فلما أراد أن يحول رداءه — كما جرت به العادة فى خطبة الاستسقاء — سقط الرداء الى الأرض ، فتطير الناس من ذلك . الناس بذلك . وأنعم السلطان على ابن أبى الرداد ومعه رايات زعفران ونادى بزيادة أصـبع ففرح الناس بذلك . وأنعم السلطان على ابن أبى الرداد بمائة دينـار بسبب هذه الزيادة تم ان البحـر نقص فى تلك الليلة أصبعين .

ومن النكت اللطيفة أن بعض العلماء خرج فى بغداد ليستسقى بالناس ، وكان فى السماء بعض سحاب وقت خروجه ، فلما خرج ودعا للنـاس ورفع يديه بالدعاء تقطع السحاب وصحت السماء من الغيم ، فخجل ذلك العـالم ودفع الى منزله . وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

خرجنـا لنستسـقى بفضـل دعائه
وقد كاد سحب الغيم أن يلحق الأرضا
فلما ابتدا يدعو تكشـفت السـما
فمـا تم الا والسحاب قد انفضـا

فلمـا نزل البحر ، وقد بقى على الوفاء ثمانية أصابع ، رسم السلطان بأن يكسروا السد ان زاد البحر أو لم يزد ، فكسروا السد فلم يجر الماء الا قليـلا ، فدخل غالب المـاء الى بركة الفيل من البجمون ، ثم نزل البحر من بعـد ذلك ولم يزد شيئا ، فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وماجت الناس على بعضها ، وحصـل الضرر الشـامل ، وشرقت البلاد ، وعزت الأقوات وشحط السعر فى القمح والشعير والفول وسائر الحبوب ، وتزايد سعر كل شىء وتناهى سـعر القمح الى خمسـة أشرفية كل أردب ، ثم تناهى الى سبعة أشرفية كل أردب ، وغلا سعر كل شىء من البضائع حتى روايا الماء ، وعم الغلاء سـائر البلاد ، وشرقت غالب

البساتين وماتت الأشجار وماتت البهائم . فلما جرى ذلك حول الأمراء شونهم الى بيوتهم ومعهم مماليكهم ملبسة خوفا من العوام أن ينهبوا القمح .

ثم ان العوام رجموا القاضى أبا الخير بن النحاس وكيل بيت المال ، وقد بلغهم عنه أنه قال للسلطان : « ان العوام يأكلون بذهبهم حشيشا ، ويأكلون فوقه بأربعة أنصاف حلوى . فالذى يأكلون به حلوى يأكلون به خبزا » ... فرجموه وهو نازل من القلعة ، وخطفوا عمامته من على رأسه ، وأخذوا خواتمه من أصابعه . ثم رجموا العلائى على بن القيسى محتسب القاهرة بسبب الخبز ، فانه وصل سعر كل رطل خبز نصفى فضة ، وقاسى الصاحب أمين الدين بن الهيصم والأمير زين الدين الاستادار فى هذه الغلوة من المماليك ما لا خير فيه ، وصاروا يضربونهم ويرجمونهم ، وتشحط اللحم والجبن وسائر البضائع ، حتى الروايا الماء . واستمرت هذه الغلوة نحو سنتين . وقد رثى بعض الشعراء الخبز لما عز وتشحط بقوله :

قسما بلوح الخبز عند خروجه
من فرنه وله الغداة فوار

ورغائف منه تروقك وهى فى
سحب الثفال كأنها أقمار

من كل مصقول السوالف أحمر الـ
ـخدين للشونيز فيه عذار

كالفضة البيضاء لكن يغتدى
ذهبا اذا قويت عليه النار

تلقى عليه فى الخوان جلالة
لا تستطيع تحده الأبصار

فكأن باطنه بكفك درهم
وكأن ظاهر لونه دينار

ما كان أجهلنا بواجب حقه
لو لم تبينه لنا الأسعار

ان دام هذا السعر فاعلم أنه
لا حبة تبقى ولا معيار

ثم وقع الطاعون فى هذه السنة أيضا بالديار المصرية ، ومات فيه ما لا يحصى عددهم من مماليك وأطفال وجوار وعبيد ومرباء حتى قيل كان يموت فى كل يوم نحو عشرة آلاف انسان ، وفى ذلك يقول شمس الدين النواجى :

رب نج الأنام من هول طعن
قد قضى غالب الورى فيه نحبه

رخصت قيمة النفوس فأضحت
كل روح تباع فيه بحبه

وفى أواخر هذه السنة كانت وفاة القاضى عبد الباسط ناظر الجيوش المنصورة كان . فكانت وفاته فى سادس شوال من السنة المذكورة ، وكان له بر ومعروف وفعل خير ، وأنشأ عدة مدارس بمصر ومكة والمدينة وبيت المقدس ، وكان له سحابة تطلع فى كل سنة برسم الحجاج المنقطعين ، وقطع من طريق العقبة ، وأرسل حجارين قطعوا منها ما كان يشوش على الحجاج . وكان القاضى عبد الباسط عزيز مصر فى أيامه ، فلما مات تزوج الملك الظاهر بينته ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

سنة اربع وخمسين وثمانمائة (١٤٥٠ م) :

فيها كانت وفاة شيخ الاسلام قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى الكنانى الشافعى رحمة الله تعالى عليه [١] ، وكانت جنازته مشهودة . ولما مات لم يخلفه أحد من العلماء من بعده ، وقد رثاه الشيخ شهاب الدين المنصورى بقصيدة منها :

(١) فى « الشذرات » وغيرها ان وفاة ابن حجر كانت سنة ٨٥٢

بكاك العلم حتى النحو أضحى
مع التصريف بعدك فى جدال
وقد أضحى البديع بلا بيان
وقد سلفت معانيه الغوالى
وقد درست دروس العلم حزنا
وقد ضل الجواب عن السؤال
تنكرت المعارف فى عيالى
وتمييزى غدا فى سوء حال
وما عوضت من بدل وعطف
سوى توكيد سقمى واعتلالى
وكم جنت المنون على كرام
وجندلت الكمى بلا قتال
فيا قبرا ثوى فيه تهنى
فقد حزت الجميل مع الجمال
سقاك الله عينا سلسبيلا
وأسبغ ما عليك من الظلال

سنة خمس وخمسين وثمانمائة (١٤٥١ م) :

فيها وفاة أمير المؤمنين المستكفى بالله سليمان ابن المتوكل على الله محمد . وكانت وفاته فى يوم الجمعة ثانى المحرم من السنة المذكورة ، فكانت مدة خلافته نحو عشر سنين . ولما مات نزل السلطان وصلى عليه ومشى فى جنازته حتى دفن عند أقاربه بالمشهد النفيسى . ومات ولم يعهد لأحد من اخوته .

فلما كان يوم الاثنين خامس المحرم عقد السلطان مجلسا بالقصر الكبير ، وجمع فيه القضاة الأربعة وهم : قاضى القضاة الشافعية شرف الدين يحيى المناوى ، وقاضى قضاة الحنفية سعد الدين الديرى ، وقاضى القضاة الحنابلة عز الدين الحنبلى ، وقاضى القضاة المالكية شمس الدين البساطى .

وكان المتكلم فى ذلك المجلس القاضى كمال الدين محمد بن البارزى كاتب السر الشريف . فلما تكامل المجلس وقع الاختيار على تولية حمزة بن المتوكل — وكان أسن اخوته — فولاه السلطان . ثم ان القاضى كمال الدين بن المبارك البارزى استرعى السلطان مبايعة الخليفة حمزة ، ولقبوه بالقائم بأمر الله ، ثم أحضروا له التشريف فألبسوه له ، ونزل من القلعة فى موكب عظيم وقدامه القضاة الأربعة وأعيان الناس حتى وصل الى بيته وهو فى غاية العظمة ، فكان أحق بقول القائل :

كل يهنيك بالتشريف محتفلا
يا من بأيامه المعروف معروف
لكننى بك أختار الهناء له
فان قدرك للتشريف تشريف

ومن الحوادث أن السلطان رسم بحرق شخوص خيال الظل جميعها وأبطلها ، ورسم بابطال نوبة خاتون التى كانت تعزف بالقلعة بعد العشاء .

وفيها توفى العلامة قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى صاحب التاريخ البدرى .

سنة ست وخمسين وثمانمائة (١٤٥٢ م) :

فيها توفى القاضى كمال الدين ابن القاضى ناصر الدين البارزى كاتب السر الشريف بالديار المصرية . فلما أن توفى القاضى كمال الدين بن البارزى خلع الملك الظاهر على القاضى محب الدين ابن الأشقر واستقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، عوضا عن القاضى كمال الدين بن البارزى ، وخلع على القاضى جمال الدين يوسف واستقر به ناظر الجيوش المنصورة مع ما بيده من نظارة الخاص .

وكان القاضى كمال الدين بن البارزى من أهل الفضل والعلم ، وله خط جيد وعبارة حسنة . وكان له نظم رقيق ، وقد فاق والده القاضى ناصر الدين البارزى .

ومن النكت اللطيفة قيل كتب القاضى ناصر الدين البارزى تقريظا ، وقد استوفى الى آخر الورقة ، فلما فرغ قالوا له : « لابد من كتابة ولدك القاضى كمال الدين على هذا التقريظ » . فأمره بأن يكتب تحت خطه — ولم يبق من الورقة الا قدر أصبعين — فكتب القاضى كمال الدين تحت خط والده :

مرت على فهمى وحلو لفظها
مكرر ، فما عسى أن أصنعا ؟
ووالدى — دام بقاء سؤدده —
لم يبق فيها للكمال موضعا

فانظر الى حسن أدبه ، مع بلوغ القصد وحسن ما وقع له بالتورية مع تضمين اسمه وعدم الحشو ، وحسن المقابلة بين الحلو والمر ، وهذا فى غاية الرقة .

ومن الحوادث فى أيام الملك الظاهر جقمق أن البلاد لما شرقت رسم للمقطعين بأن البلاد التى رويت من ماء النيل فى تلك السنة يأخذون عنها من الفلاحين القطيعة قطيعتين ، ففعلوا ذلك ومشى هذا الأمر .

ومن الحوادث فى أيامه أن بركات ، أمير مكة ، كان قد أظهر العصيان ، فتوجه اليه القاضى شرف الدين الأنصارى فحضر صحبته ، فلما وصل نزل اليه السلطان ولاقاه من المطعم ، فدخل صحبته وطلع الى القلعة ، فخلع عليه وأكرمه وزالت تلك الوحشة التى كانت بينهما .

سنة سبع وخمسين وثمانمائة (١٤٥٣ م) :

فيها توعك جسد السلطان ولزم الفراش وسلسل فى المرض . فلما ثقل عليه الضعف أرسل خلف أمير المؤمنين القائم بالله حمزه والقضاة الأربعة ، فلما حضروا عهد بالملك الى ولده المقر الفخرى عثمان ، وخلع نفسه من السلطنة ، واستمر عليلا ملازم الفراش الى أن توفى فى ليلة الثلاثاء رابع شهر صفر سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، فغسلوه وكفنوه وصلى عليه الخليفة حمزة بالقلعة ، ونزلوا به من باب المدرج ، وتوجهوا به الى تربة قانباى الجركسى التى عند دار الضيافة فدفن هناك ، وكثر عليه الحزن والأسف من الناس .

وقيل مات وله من العمر نحو احدى وثمانين سنة . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية وما مع ذلك أربع عشرة سنة وعشرة أشهر ويوما وقيل يومين .

وكان ملكا عظيما جليلا دينا خيرا متواضعا كريما يحب فعل الخير . وكان عنده لين جانب ، يحب العلماء وينقاد الى الشريعة ، ويقوم الى العلماء اذا دخلوا عليه . وكان يحب الأيتام ويكتب لهم الجوامك ، ولا يخرج اقطاع من له ولد الا الى ولده . وكانت الدنيا فى أيامه هادئة من الفتن والتجاريد . وكان يحسن للأمراء التراكمة ويعطيهم العطايا الجزيلة ، فكانوا تحت طاعته فى مدة ولايته .

وكان الملك الظاهر طاهر الذيل عفيفا عن ... و ... .

وكانت صفته : معتدل القامة ، غليظ الجسد ، درى اللون ، مستدير الوجه ، مستدير اللحية ، حسن الشكل ، عليه وقار وسكينة ، مهيبا فى العيون . وكان فصيح اللسان بالعربية ، متفقها

وله مسائل فى الفقه عويصة ترجع له فيها العلماء .. لكنه كان صاحب ودينة ، ماشيا على قاعدة الأتراك : عنده الدعوى لمن سبق ، وكان عنده حدة زائدة وبادرة فى الأمر .

ومن مساويه أنه كان عنده خرق فى حق العلماء ، منها أنه سجن قاضى القضاة ولى الدين السقطى فى المقشرة ، ومنها أنه عزر الشيخ شمس الدين الكاتب فى وسط الصالحية وكان يكره جماعة الأشرف برسباى ونفى منهم جماعة ، ونفى أبا الخير بن النحاس — الذى ما كان عنده أعظم منه — وسجنه بالديلم أياما ، وسجن جماعة كثيرة من العلماء بالمقشرة ، وصادر القاضى عبد الباسط وأخذ أمواله ، وأثبت على الأتابكى قرقماس الشعبانى كفرا وأرسل يضرب عنقه بثغر الاسكندرية ، وأثبت على الأمير بخشاى كفرا وضرب عنقه . وكان اذا سمع بأن أحدا يسكر ينفيه ويقطع جامكيته ويخرج اقطاعه . وغضب فى وقت على النصارى فهدم جانبا من كنائسهم ، وحجر على بيع النبيذ ، وكتب على اليهود والنصارى قسائم ألا يعصروا خمرا ، ثم كبس البيوت والحارات بسبب ذلك وأراق من الخمور أشياء كثيرة ، ثم أمر بسد خوخة باب الجسر التى عند بركة الرطلى فأقام مسدودا أياما ثم رسم بفتحه . وكان له أشياء كثيرة من هذا النمط بحسب الوسائط السوء ... وبالجملة كانت محاسنه أكثر من مساويه ، وكان خيار ملوك الترك من الجراكسة بالنسبة الى غيره من الملوك كما قيل فى المعنى .

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها
كفى المرء فضلا أن تعد معايبه

ولما مات الملك الظاهر خلف من الأولاد ثلاثة صبيا وبنتين ، وهم : الملك المنصور عثمان الذى تسلطن بعده . وأما البنتان فاحداهما من خولد التى هى بنت البارزى تزوجت بالأتابكى أزبك ، والأخرى تزوجت بالأمير جانبك الظريف أولا ثم تزوجت بالأتابكى أزبك بعد موت أختها

وأما نساؤه فخوند بنت البارزى أولا ، وخوند بنت الأمير جرباش الكريمى قاشق امير سلاح ، وخوند بنت ابن عثمان ، وخوند الجركسية ، وتزوج ببنت عبد الباسط ناظر الجيش .

وكانت دولته ثابتة القواعد وأما أمراؤه الأتابكية فالأمير قرقماس الشعبانى أولا ، ثم الأمير أقبغا التمرازى ، ثم الأمير يشبك السودونى ثم الأمير اينال العلائى .

وأما دواداريات فالأمير اركماس الظاهرى أولا ، ثم الأمير تغرى بردى المؤذى ، ثم الأمير اينال العلائى ، ثم قانباى الجركسى ، ثم الأمير دولاتباى المؤيدى .

وأما قضاته الشافعية فالقاضى شهاب الدين بن حجر أولا ، ثم القاضى علم الدين صالح البلقينى والقاضى شمس الدين القاياتى ، والقاضى ولى الدين السقطى ، والقاضى شرف الدين يحيى المناوى . وأما قضاته الحنيفية فالقاضى سعدالدين ابن الديرى . وأما قضاته المالكية فالقاضى شمس الدين محمد البساطى أولا ، ثم القاضى بدر الدين ابن التونسى ، ثم القاضى ولى الدين الأموى . وأما قضاته الحنابلة فالقاضى محب الدين العسقلانى أولا ، ثم القاضى بدر الدين البغدادى ، والقاضى عز الدين الحنبلى .

وأما كتاب سره فالقاضى بدر الدين بن مزهر أولا ، والقاضى كمال الدين بن البارزى ، والقاضى محب الدين بن الأشقر من بعده .

وأما نظار جيوشه فالقاضى عبد الباسط أولا ،

ثم القاضى محب الدين بن الأشقر ، والقاضى جمال الدين يوسف بن كاتب جكم .

وأما نظار الخواص الشريفة فالقاضى جمال الدين يوسف بن كاتب جكم المذكور .

وأما وزراؤه فالصاحب كريم الدين ابن كاتب المناخات ، والصاحب أمين الدين بن الهيصم .

وأما استدارياته فالأمير عبد الرحمن بن الكويز والأمير زين الدين يحيى . وتولى غير هؤلاء جماعة لم تطل مدتهم فلم نذكرهم ههنا .

وأما من تولى الحسبة فى أيامه فالقاضى محمود العينى ، والشيخ على العجمى ، والعلائى على بن القيسى ، وعبد العزيز بن محمد الصغير أيضا .

وأما ولاة القاهرة فى أيامه فمنصور بن الطبلاوى وجانى بك ، وقراجا ، وعلى بن القيسى ، وغير ذلك من الأتراك وغيرهم .

وأما من توفى فى أيامه من الأعيان فهم الخليفة داود ، والخليفة سليمان ، وقاضى القضاة شمس الدين البساطى المالكى ، وقاضى القضاة ولى الدين السقطى الشافعى ، وقاضى القضاة محب الدين العسقلانى الحنبلى ، وقاضى القضاة بدر الدين البغدادى الحنبلى ، وقاضى القضاة بدر الدين التونسى المالكى ، وقاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى — وهو صاحب التاريخ البدرى — وكان العينى من أهل الفضل وله عدة مصنفات فى علوم جليلة ، وكان له شعر جيد . وفيه يقول بعض الموالة هذه الأبيات المواليا ، وقد جمع فيها الفنون السبعة وهو قوله :

قوما لدو بيت قاضى قد زجل شينى
بكان وكان امتدح بين الورى زينى
وانقل موشح مواليا بلا مينى
فأبحر الشعر مجراها من العينى

وتوفى فى أيام الملك الظاهر ولده المقر الناصرى محمد ، وتوفى القاضى الوفائى ، وابن الجزرى شيخ القراءات . وتوفى الحافظ عبد الرحيم الحموى المحدث ، وتوفى شيخ الزهاد محمد بن سلطان ، والشيخ كمال الدين المجذوب ، والشيخ عبادة المالكى ، والشيخ شمس الدين الحنفى ، والشيخ أبو الفتح بن أبى الوفاء ، والأمير جوهر اللالا الزمام القنقباى الخازندار .

وتوفى فى أيامه جماعة كثيرة من الأمراء المقدمين وأعيان الناس من الأكابر .

وتوفى فى أيامه من الشعراء الشيخ تقى الدين ابن حجة صاحب شرح البديعية ، توفى بحماه . وتوفى الشيخ شهاب الدين بن مبارك شاه ، وكان من أعيان الشعراء . وتوفى الشيخ شمس الدين بن كميل ، وكان له شعر جيد . وتوفى البدر البشتكى من أعيان الشعراء ، وتوفى الشيخ شمس الدين النواجى صاحب حلبة الكميت ، وكان من أعيان الشعراء ، وقد رثاه الشهاب المنصورى حيث قال :

رحم الله النواجى فقد
فقد الدنيا وأبقى ما روى
وانطوى فى شقة البين فيا
حسرة العشاق من بعد النوا (جى)

الملك المنصور أبو السعادات

هو الملك المنصور أبو السعادات ، فخر الدين عثمان ، ابن الملك الظاهر جقمق العلائى ، وهو الخامس والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الحادى عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد .

بويع بالسلطنة بعد خلع أبيه من السلطنة فى يوم الخميس حادى عشرى المحرم سنة سبع وخمسين وثمانمائة (١٤٥٣ م) .

تسلطن وله من العمر نحو تسع عشرة سنة . وكانت أمه أم ولد رومية الجنس ، فلبس خلعة السلطنة من الدهيشة ، وركب وتوجه الى القصر الكبير والأتابكى اينال العلائى حامل القبة والطير على رأسه . فلما جلس على سرير الملك باست له الأمراء الأرض ، ودقت له البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء — هذا كله ووالده الظاهر فى قيد الحياة — فأقام اثنى عشر يوما حتى توفى والده .

فلما تم أمره فى السلطنة خلع على الأمير تمربغا واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير دولاتباى المؤيدى .

ثم انه قبض على الأمير زين الدين استادار ، وكان بينه وبينه حظ نفسى من أيام والده ، فلما قبض عليه لم يرث له وسلمه الى الأمير فيروز الزمام . ثم خلع على الأمير جانى بك نائب جدة واستقر به استادارا عوضا عن زين الدين ، ثم نقل زين الدين من عند فيروز الزمام وسلمه الى الأمير جانى بك نائب جدة فعاقبه وأحضر اليه المعاصير وعصره فى أركابه حتى كسرها ، واستخرج منه نحو أربعين ألف دينار ، واستمر فى العقوبة أياما . وفيه يقول بعض الشعراء :

أخبار زين الدين قد شاعت بها
أعداؤه بين الورى تتعهد

لا غرو ان هم بالغوا فى عصره
فالكرم يعصر والجواد يقيد

ثم ان الملك المنصور أخذ فى أسباب نفقته على العسكر ، ولم يكن فى الخزائن شىء من المال .

قيل خلف الملك الظاهر جقمق فى الخزائن من المال ثلاثين ألف دينار لا غير ، فشكا ذلك الى القاضى جمال الدين يوسف ناظر الخاص ، فقال : « على ذلك » . ثم ضرب دنانير ذهب ينقص كل دينار عن الأشرفى قيراطين ، وسماها المناصرة ، فضرب منها جملة كثيرة ، وأراد أن ينفق ذلك على العسكر

ولما كان يوم الاثنين مستهل ربيع الأول من سنة سبع وخمسين وثمانمائة وثب المماليك الأشرفية والمؤيدية ، والتف عليهم جماعة من المماليك السيفية . فلما وثبوا توجهوا الى بيت الأتابكى اينال العلائى فأركبوه غصبا ، وأتوا به الى البيت الكبير الذى عند حدرة البقر . فلما استقر به أرسل خلف أمير المؤمنين حمزة ، فلما حضر أخذ فى أسباب خلع الملك المنصور عثمان فكتبوا محضرا وشهد فيه جماعة الخاصكية بما يوجب خلعه ، فخلع من السلطنة وبويع الأتابكى اينال بالسلطنة . واستمرت الحرب ثائرة بين الفريقين من يوم الاثنين الى يوم الأحد سابع ربيع الأول ، فانكسر الملك المنصور عثمان فى ذلك اليوم .

وكان الملك المنصور أرسل يحضر عربانا من الشرقية وعربانا من البحيرة ، فمنعه من ذلك الأمير قانباى الچركسى وما مكنه من ذلك ، وقال : « تطمع العرب فى الترك » ... ولا زال اينال يحاصر الملك المنصور وهو بالقلعة ، وقطع عنه الماء ومنع عنه الأكل ، حتى ضجر وانكسر ، فملك اينال باب القلعة وولوا الظاهرية منهزمين كأنهم لم يكونوا .

فلما تسلطن اينال قبض على الملك المنصور وقيده وسجنه بالبحرة وهو مقيد فأقام بها الى يوم الأحد ثامن عشرى ربيع الأول ، فأنزلوه من القلعة من باب القرافة وهو مقيد الى أن وصلوا به البحر فأنزلوه فى الحراقة وتوجهوا به الى السجن بثغر الاسكندرية ، وكان المتسفر عليه الأمير خير بك الأشقر أمير آخور ثانى . فلما وصل الى الاسكندرية سجن بها ورجع الأمير خير بك ... فكانت مدة

سلطنة الملك المنصور عثمان ثلاثة وأربعين يوما ، وكانت كسنة من النوم ، أو يوم أو بعض يوم ، كما قيل فى المعنى :

فلم يقم الا بمقـــدار أن
قلت له أهـــلا أخى مرحبا

واستمر الملك المنصور بثغـر الاسكندرية الى دولة الملك الظاهر خشقدم ، فرسم بالاطلاق ، وأن يسكن فى بعض دور الاسكندرية ، وأن يركب الى صلاة الجمعة . واستمر على ذلك الى دولة الأشرف قايتبــاى ، فنقله الى ثغر دميــاط ، وكان يركب ويتصيد ثم طلب من السلطان اذنا بأن يحج فأنعم له بذلك ، فحضر الى القاهرة وطلع الى القلعة ، فأكرمه السلطان وخلع عليه ، ثم أقام له بركا وسنيحا وتوجه الى الحجاز فحج وعاد الى القاهرة ، وأقام بها نحوا من شهرين ... ففى هذه المدة كان يطلع القلعــة ويضرب الأكرة مع الســلطان ، ورسم له السلطان بأن يتوشح ببند أصفر حين يلعب الأكرة ، فكان فى غاية العز والعظم .

وكان الملك الأشرف قايتبــاى مملـوك أبيــه الظاهر چقمق ، والأتابكى مملوك أبيه وصهر زوج أختــه ، وسائر الأمراء الظاهرية مماليك أبيــه . وكان الأتابكى تمراز الشمسى متزوجا ببنت الملك المنصور ... فساعدته الأقدار من كل جانب .

ثم رسم له السلطان بالعود الى ثغر دمياط ، وأقام فيها حتى توفى بها أثناء دولة الملك الأشرف قايتباى ، ونقل بعد موته من دمياط ودفن فى تربة أبيه الملك الظاهر .

ومات الملك المنصــور وله من العــمر أربع وخمسون سنة . وكان كريما سخيا لين الجانب .

الملك الأشرف إينال

هو الملك الأشرف أبو النصر ، سيف الدين اينال ، العلائى الظاهرى ، وهو السادس والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثانى عشر من ملوك الچراكسة وأولادهم .

بويع بالسلطنة بعد خلع الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر چقمق ، وذلك يوم الاثنين ثامن ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، وتلقب بالملك الأشرف .

وقد تقـــدم أن جماعة من الأشرفية والمؤيدية والمماليك السيفية ، لما وثبوا على الملك المنصور ، توجهوا الى بيت أتابكى اينال وأركبوه غصبا وأتوا به الى حدرة البقر فى بيت قوصون فجلس به ، وأرسل خلف أمير المؤمنين حمزة ، فلما حضر قام فى سلطنة الأتابكى اينــال غاية القيــام ، وخلع الملك المنصــور من السلطنة قبــل أن ينكسر ، وبايع الأتابكى اينال ، ونودى باســمه فى القــاهرة . واستمرت الحرب ثائرة بينهم ســبعة أيام ، وقتل فى هذه المدة من الناس ما لا يحصى . وآخر الأمر انكسر الملك المنصور وملك اينال باب السلسلة .

فلما استقر بيــاب السلسلة بعث جمــاعة من الأشرفية قبضــوا على الملك المنصور وقيــدوه وأدخلوه البحرة ، وقبضوا على جماعة من الظاهرية فبات ليلة الاثنين فى باب السلسلة .

فلما كان يوم الاثنين أحضر اليه شعار الملك ، وأفيض عليه ، وقدمت له فرس النوبة فركب من سلم الحراقة ، وحملت القبة والطير على رأســه وولده الشهابى أحمد ، ومشت قدامه الأمراء حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض ، ودقت له البشائر

بالقلعة ، ونودى باسمه فى القــاهرة ، وارتفعت الأصوات بالدعاء له من الخاص والعام .

وكان أصل الملك الأشرف اينال چركسي الجنس جلبه الخواجا علاء الدين على فاشتراه منه الملك الظاهر برقوق وصار من جملة مماليكه . فلما توفى الملك الظاهر برقوق وتولى بعده ابنه الناصر فرج أعتقه وأخرج له خيلا وقماشا وبقى جمدارا ، ثم بقى أمير عشرة فى دولة الملك المظفر أحمد ابن المؤيد شيخ ، ثم بقى أمير طبلخاناه رأس نوبة ثانى فى دولة الملك الأشرف برسباى ، ثم بقى نائب غزة مع الأشرف برسباى . ولما توجه الى آمد جعله نائب الرها ، وذلك فى سنة ست وثلاثين وثمانمائة . ثم أحضره الأشرف برسباى الى القاهرة وأنعم عليه بتقدمة ألف — واستمرت نيابة الرها بيده زيادة عن التقدمة — ثم نقله الأشرف الى نيــابة صفد وخرج اليها فى سنة أربعــين وثمانمائة ، واستمر بصفد الى دولة الظاهر چقمق ، فبعث خلفه . فلما أحضره قرره فى تقدمة تغرى بردى المؤذى . فلما توفى الأتابكى يشبك السودونى قرر فى الأتابكية عوضا عن يشبك السودونى ، وذلك فى سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، واستمر على ذلك حتى توفى الظاهر چقمق وتولى ابنه الملك المنصور عثمان ، فوثب عليه العسكر وتوجهــوا الى بيت الأتابكى اينال فأركبوه غصبا ، وأقام الحرب ثائرة بينهما سبعة أيام ، فلما انكسر المنصور وقع الاتفاق على سلطنته فسلطنوه ، وتلقب بالملك الأشرف .

فلمــا تم أمره فى الســلطنة وجلس على سرير الملك أخــذ فى تدبير أمره واصلاح شأنه . ثم انه عين الأتابكية لولده المقر الشهابى أحمد ، فعز ذلك على الأمراء ، فقرر فيها ثانى بك البردبكى وخلع عليه وأقره فى الأتابكية عوضا عن ولده ، وأنعم على ولده الشهابى أحمد بتقدمة ألف .

ثم عمل الموكب وخلع على الأمير خشقدم وقرره أمير سلاح عوضا عن تنم بن عبد الرزاق ، وخلع على طوخ بويتى بازق وقرره أمير مجلس ، وخلع على قرقماس الجلب وقرره رأس نوبة النوب عوضا عن اسنبغا الطيار ، وخلع على چرباش كرت وقرره أمير آخور كبير عوضا عن قانى باى الچركسى ، وخلع على يونس الأقباى المؤيدى وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن تمربغا الظاهرى ، وخلع على جان بك القرمانى وقرره حاجب الحجاب عوضا عن خشقدم الناصرى ، وخلع على تمــراز الاينالى الأشرفى وقرره فى الدوادارية الثانية عوضا عن اسباى ، وخلع على جانى بك القجماسى الأشرفى وقرره فى شادية الشراب خانه عوضــا عن لاچين الظاهرى ، وخلع على خير بك الأشقر وقرره أمير آخور ثانى ، وخلع على جانبك نائب جدة واستمر متحــدثا فى الاســتادارية ، وخلع على قانى باى الأعمش وقرره فى نيابة القلعة ، وخلع على يونس العلائى وقرره فى نيابة الاسكندرية ، وخلع على يشبك الناصرى وقرره رأس نوبة ثانى .

وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف منهم أرنبغا اليونسى وبرسباى البجاسى وغير ذلك من الأمراء .

ثم أنعم بامرية طبلخانات وعشراوات على جماعة كثيرة من الأمراء منهم جانبك الظريف وقرره فى الخازندارية الكبرى عوضــا عن آزبك بن ططخ ، وأنعم على بردبك زوج ابنته بامرية عشرة ، وقرر يشبك الأشقر فى استدارية الصحبة عوضا عن سنقر أحد أمراء الظاهرية .

ثم انه شرع فى ارسال الملك المنصور الى ثغر الاســكندرية ، فنزل به من باب الدرفيل وهو مقيد ، فتوجهوا به الى الاسكندرية لسجن بهــا بعد أن أنزلوه الى البحر فى الحراقة وتوجهوا به ،

وكان المتسفر عليه خير بك الأشقر أمير آخور ثانى ، فسجنه ورجع .

ثم أنزل من قبض عليه من الأمراء ، وهم : تنم ابن عبد الرزاق أمير سلاح ، وفانى باى الچركسى أمير آخور كبير ، وتمربغا الدوادار الكبير ، ولاچين شاد الشراب خاناه ، وأزبك بن ططخ خازندار كبير ، وسنقر العايق ، وجانم الساقى ، وجانى بك وسودون الأفرم ... فتوجهوا بالجميع الى ثغر الاسكندرية فسجنوا بها وهم فى قيود حديد .

وفى ربيع الأول ابتدأ السلطان بتفرقه النفقة — وهى نفقة البيعة — على الجند ، وكانت قد ضربت قبل ذلك ، وهى الدنانير المناصرة تنقص عن وزن الأشرفى قيراطين من ذهب . وكان القائم فى ذلك ناظر الخاص يوسف . فلما تسلطن اينال ضربت باسمه وأنفقها على الجند . وجلس السلطان للتفرقة على الجند ، فأنفق على جماعة من الجند مائة ، وعلى جماعة منهم خمسين دينارا ، وعلى جماعة منهم خمسة وعشرين دينارا ، وعلى جماعة عشرة دنانير ... وهو أول من شح فى نفقة البيعة وميز الجند بعضا على بعض ، فكلمه بعض الأمراء فى ذلك فأجاب بأن الأمير تمربغا الدوادار رتب ذلك فى قوائم فى دولة المنصور ، وقد مضى ذلك على هذا الحكم ، فما تنبغى الزيادة على ذلك والخزائن مشحوتة من المال ، وان هذا القدر ما تحصل الا من المصادرات من ناظر الخاص يوسف وزين الدين الاستادار وغير ذلك من المباشرين . وهذا أول تصرفات اينال فى أحوال أمور المملكة فى الولاية والعزل

وفيه توفى جقمق اليشبكى الخاصكى أحد معلمى الرمح ، وكان ترشح أمره الى نيابة القلعة بمصر . وكان شجاعا مقداما فى الحرب ، جرح فى هذه الواقعة واستمر ملازما للفراش حتى مات .

وتوفى الشيخ على الرفاعى شيخ المدرسة الأشرفية — أشرفية برسباى — التى بالصحراء وتوفى شمس الدين الأبح كاتب المماليك ، وتوفى الأمير أرنبغا اليونسى الناصرى الذى تقرر فى تقدمة الألف . وتوفى جانبك الوالى الزردكاش الكبير وكان من مماليك يشبك الجكمى ، فلما مات خلع السلطان على نور كار الحاجب الثانى ، وقرر فى الزردكاشية الكبرى عوضا عن جانبك الوالى ، وقرر فى الحجوبية الثانية سمام الحسنى . وقد قرر السلطان جماعة كثيرة من الأشرفية البرسبيهية فى عدة وظائف سنية ، وقرر منهم جماعة كثيرة رءوس نوب حتى بلغ عدتهم فى أيام دولته فوق الخمسة والعشرين أميرا رأس نوبة ، وقرر عدة دوادارية فوق عشرة أنفار ، وعدة سقاة وبوابين ، وفرق الاقطاعات على غالب المماليك الأشرفية .

وقبض على جماعة كثيرة من مماليك الظاهر ، ونفى منهم جماعة من أعيانهم الى بلاد الشام ، ونفى منهم جماعة الى الوجه القبلى نحو قوص فاستقامت أموره فى السلطنة ، وثبتت قواعد دولته ، واستمر فى السلطنة الى أن مات على فراشه كما سيأتى ذكر ذلك .

وفى ربيع الآخر قدم جانم الأشرفى الذى كان أمير آخور كبير ونفى الى صفد ، وحضر جانى بك قلقسير الأشرفى الذى كان نفى الى طرابلس فحضر من غير اذن ، فأنعم عليه السلطان بامرية عشرة .

وفيه حملت نفقات الأمراء اليهم على جارى العادة .

وفيه رسم السلطان بتوسيط شخص من مماليك القاضى عبد الباسط يقال له لبان ، فوسطه — ومعه اثنان من أصحابه — وسبب ذلك أنهم كانوا يحضرون عندهم بنات الحظ ، فاذا بتن عندهم يقتلونهن ويأخذون ما عليهن من القماش . ففعلوا

ذلك غير مرة حتى غمز عليهم فأشهروهم فى القاهرة وقدامهم أقفاص حمالين فيها عظام الأموات التى كانوا يقتلونها من النساء ، وكان لهم يوم مشهود .

وفيه قرر فى قضاء الشافعية بحلب القاضى تاج الدين عبد الوهاب وصرف عنها الزهرى .

وفيه عقد السلطان لولده المقر الشهابى أحمد على بنت الأمير دولات باى الدوادار الكبير .

وفى جمادى الأولى توفى الشيخ سراج الدين عمر التبانى الحنفى . وكان عارفا بفن علم الرمل ، وله فى ذلك يد طائلة [1] ، وكان من خواص المؤيد شيخ ، وكان رئيسا حشما وله شهرة زائدة .

وفيه قبض السلطان على قراجا الخازندار ، وكان من المقدمين الألوف ، ورسم باخراجه الى القدس بطالا ، ولم يكن له ذنب غير أنه أخـذوا منه التقدمة وقرروا فيها جانم الأشرفى .

وفيه قرىء تقليد السلطان بالقصر على العادة ، وحضر الخليفة والقضاة الأربعة ، فلما انتهى المجلس خلع السلطان على الخليفة والقضاة ونزلوا الى بيوتهم .

وفيه توفى قاضى القضـاة الحنبلى بدر الدين عبـد المنعم بن محمد بن محمد بن عبـد المنعم البغدادى ، وكان عالما فاضلا معظما عند الناس وأرباب الدولة وله حرمة وافرة ، ومولده سـنة احدى وثمانمائة . وكان أعور باحدى عينيه ولكنه كان من أعيان علماء الحنابلة من أهل الفضل .

وقد قال فيه بعض الشعراء يداعبه :

ورب أعمـى قال فى مجـلس
يا قوم ما أصعب فقـد البصر
أجابه الأعـور من خلفـه
عندى من دعواك نصف الخبر

فلما خلع السلطان على الشيخ عز الدين الكنانى ابن قاضى القضاة برهان الدين ، ابن قاضى القضاة مجد الدين بن نصر الله ، وقرر فى قضاء الحنابلة بمصر عوضا عن قاضى القضاة بدر الدين البغـدادى بحكم وفاته .

وفيه جاءت الأخبار بقتل سونجبغا اليوسى ، وتغرى بردى القلاوى ، وكان كاشف الوجه القبلى ، وكان قرر فى الوزارة فى أواخر دولة الظاهر جقمق . أخذ الوزارة عن أمين الدين بن الهيصم ، وكان فرج بن النحال ناظر الدولة يومئذ ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، فتوجه سونجبغا للقبض عليه فتخانقا وهما على الخيل ، فقتل كل منهما صاحبه بالخناجر ، فماتا معا فى يوم واحد . وكان سونجبغا من مماليك الناصر فرج بن برقوق ، وكان من جملة أمراء الطبلخانات ، وسافر أمير الحاج غير مرة ، وكان لا بأس به .

وفيه أنعم السلطان على برسباى المؤيدى باقطاع تغرى بردى القـلاوى ، وقرر بلباى الاينالى فى امرية سونجبغا .

وفيه توفى الشيخ محب الدين أبو القاسم محمد النويرى المالكى ، وكان من أعيان علماء المالكية ، وكان ذكر للقضاء غير ما مرة ولم يتم له ذلك . ومولده سنة احدى وثمانمائة .

وفيـه قرر فى تقدمة المماليك الطواشى لؤلؤ الرومى الأشرفى وصرف عنها مرجان العادلى

وفيه قرر فى كشف الوجه القبلى قراجا العمرى عوضا عن القلاوى .

وفيه توفى الشيخ عز الدين التكرورى المالكى وكان عالما فاضلا أديبا بارعا ، وكان له خط جيد وشعر رقيق . وكان مولده سنة احدى وستين وسبعمائة .

وفيه قدم القاضى محب الدين بن الشحنة الى القاهرة من غير طلب ، فأراد السلطان أن يرده الى

---

(1) كامل !

حلب ، فأوعد بمال ، فأذن له بالدخول الى مصر فدخل على كره من الجمالى يوسف ناظر الخاص .

وفيه توفى الأمير قانصوه النوروزى ، وكان من أعيــان الرماة بالنشاب ، مشهورا بالفروسية بين الأتراك .

* * *

وفى جمادى الآخــرة توفى الأمير دولات باى المحمودى المؤيدى ، أمير دوادار كبير كان . وكان أصله من مماليك المؤيد شيخ ، وكان حج فى تلك السنة . فلما عاد قبض عليه الملك المنصور وبعث به الى السجن بثغر الاســكندرية . فلما تسلطن الأشرف اينال رسم بالافراج عنــه ، فحضر الى القاهرة وقرر فى تقــدمة ألف ، فأقام مدة يسيرة وتوفى . وكان أميرا جليلا عارفا بأحوال المملكة ، سيوسا فى أفعاله . ومات وله من العمر نحو ستين سنة . وكان منهمكا فى لذات نفسه ، يميل الى شرب الراح وحب المــلاح . وهو والد سيدى عمر . وكان لا بأس به .

ولما مات قــرر فى تقدمتــه خير بك المؤيدى المعروف بالأجرود ، وقرر قايتباى المحمودى فى تقدمــة ألف بدمشق ، وهى تقدمة قانصــوه النوروزى .

وفيه خرجت تجريدة الى البحيرة بسبب فساد العربان ، وكان باش العسكر طوخ بانى بازق أمير مجلس .

* * *

وفى رجب رسم السلطان بدوران المحمل ونودى فى القاهرة بالزينة — وكان له مدة وهو بطال — فساقوا الرماحة فى تلك السنة . وكان جانى بك الظريف هو باش الرماحة .

وفيه قرر القاضى زين الدين أبو بكر بن مزهر فى نظر الاصطبل ، وقرر القاضى محب الدين بن الشحنة باستمراره فى قضاء حلب وتوجــه الى حلب .

وفيه تزوج الأمير جانى بك الظريف بنت الملك الظاهر جقمق ، وهى أخت زوجة الأمير أزبك بن ططخ .

وفيــه جاءت الأخبار بقتل قشم المحمــودى الناصرى كاشف البحيرة ، قتــله عربان البحيرة غدرا . فلما قتل قشم قرر عوضه فى كشف البحيرة حسن الدنكرى .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى ثالث عشرى مسرى ، فنزل لكسره المقر الشهابى أحمد ابن السلطان ، وكان له يوم مشهود ، وهو أول فتحة للسد .

* * *

وفى شعبان كانت وليمة عرس خوند فاطمة بنت السلطان ، على الأمير يونس البواب أمير دوادار كبير ، وكان مهما حافلا بالقلعــة وأقام ثلاثة أيام متوالية ، ثم نزلت فى محفة الى دار زوجها وكانت ليلة حافلة عند نزولها من القلعة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة نائب صفد يبغوت ابن صفر خجا المؤيدى المعروف بالأعرج ، وكان أميرا جليلا ، ولى نيابة حماه ونيابة صفد ثم سجن ثم عاد الى صفد ومات بها .

وفيه ثارت فتنة كبيرة ، وركب المماليك وطلعوا الى الرميلة واضطربت الأحوال ، وسبب ذلك أن المماليــك طلبوا من السلطان نفقة البيعة ، وقالوا ان التى قد أنفقها السلطان انما هى نفقة الملك المنصــور ونحن نطلب منك نفقــة ثانية ، فبعث يعتذر اليهم ويقول لهم ان الخــزائن خالية من المال ، وهــذه النفقة من المصادرات لجماعة من المباشرين ... فسكنت الفتنة قليلا ، وكانت هذه تعليمة من المماليك السيفية .

وفى رمضان جاءت الأخبار بوفاة جغنوس الناصرى نائب بيروت .

وفيه اختفى الصاحب أمين الدين بن الهيصم . فلما اختفى خلع السلطان على سعد الدين فرج بن النحال كاتب المماليك وقرره فى الوزارة عوضا عن ابن الهيصم ، وكان عين للوزارة ناظر الخاص يوسف ، فاستعفى من ذلك ، فقرر بها سعد الدين فرج ، وقرر عوضه فى كتابة المماليك ابن عمه عبد الرحمن . وفيه خلع السلطان على اياس الطويل وقرره فى نيابة صفد عوضا عن يبغوت الناصرى . وكان اياس الطويل أتابك العساكر بطرابلس ، وكان خشداش السلطان . وقرر فى أتابكية طرابلس حطط الناصرى ، وكان من العشراوات بطرابلس ، وقرر فى امرية حطط جانى بك المحمودى المؤيدى وكان منفيا بطرابلس .

وفيه توجه القاضى عبد الكافى بن الذهبى كاتب السر بدمشق ، وكان من أعيان الدماشقة ، حسن الخط والعبارة .

* * *

وفى شوال كان العيد يوم الجمعة ، وخطب مرتين ، فلهج الكثير من الناس بزوال السلطان فلم يصح ذلك .

وفيه قرر جانى بك فى نيابة جدة على عادته .

وفيه خرج الحاج من القاهرة . وكان أمير ركب المحمل جانى بك الظريف ، وأمير ركب الأول عبد العزيز بن محمد الصغير ، وكان لهما يوم مشهود .

وفيه اختفى زين الدين الاستادار . وكان الأشرف اينال ، لما استعفى منها جانى بك نائب جدة ، خلع السلطان على زين الدين وولاه الاستادارية على كره منه . فلما اختفى خلع السلطان على العلائى على بن محمد الاهناسى ، وكان برد دار بالمفرد عند زين الدين الاستادار ، ثم كان استادارا عند المقر الشهابى أحمد بن الملك الأشرف اينال. فلما غيب زين الدين سعى فى الاستادارية الكبرى ، فخلع عليه السلطان وولاه الاستادارية عوضا عن زين الدين ، وهذه أول عظمة العلائى على بن الاهناسى .

وفيه وصل قاصد ملك الروم محمد بن عثمان يخبر السلطان بفتح القسطنطينية العظمى ، وقد صنع المكايد فى فتحها ، وكان الفتح فى يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى من هذه السنة . فلما بلغ ذلك دقت البشائر بالقلعة ، ونودى فى القاهرة بالزينة . ثم ان السلطان عين برسباى أمير آخور ثانى رسولا الى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح العظيم ، فخرج برسباى وتوجه الى بلاد ابن عثمان .

* * *

وفى ذى القعدة لبس السلطان الصوف فى سادس هاتور القبطى ، وقد عجل السلطان بلبسه .

وفيه خلع السلطان على محب الدين بن الشحنة وقرره فى كتابة السر بمصر ، وصرف عنها محب الدين بن الأشقر ، وهذا أول عظمة ابن الشحنة بمصر . وكان قرر فى قضاء الحنفية بحلب ، فتكاسل عن التوجه الى حلب ، وسعى فى كتابة السر حتى قرر بها .

وفيه خرج المقر الشهابى أحمد ابن السلطان الى الرماية وصحبته خشقدم أمير سلاح وبرسباى البجاسى فلما عاد زينت القاهرة وكان له يوم مشهود .

وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد سيدى درويش الرومى الاقصرائى نزيل الخانكة ، وكان من الصالحين ، وظهرت له كرامات خارقة .

وفيه توفى القاضى ضياء الدين بن النفيسى

الشـافعى الحلبى كاتب السر بحلب ، وكان من أعيان الناس الرؤساء بحلب .

وفيه قرر شمس الدين محمد بن آصيل فى نظر الجوالى عوضا عن شرف الدين الأنصارى .

وفيه طلع شخص الى السلطان وأخبره بأن فى زيادة جامع الحاكم صندوقا من البلور فيه أوراق تدل على خبيئة فى الجامع من أعظم الخبايا ، فأمر السلطان القاضى ناظر الخاص يوسف أن يتوجه الى هناك ، فتوجه وحضر قاضى القضاة علم الدين الباغينى ، واجتمع الجم الغفير من الناس وحفروا ذلك المكان الى أن كاد ينبع الماء من أرضه فلم يجـدوا فيه شيئا ، وانفض ذلك الجمـع من غير طائل ، ولم يظفروا بشىء مما قالوه .

وفيه قبض السلطان على المحتسب على العجمى وصادره وقرر عليه مالا وأقام فى الترسيم عنـد الزمام حتى يورد المال ، وقرر عوضه فى الحسبة عليا بن أحمد الكاشف المعروف بابن ارم .

* * *

وفى ذى الحجة قرر فى نيابة اسكندرية جانى بك النوروزى نائب بعلبك عوضا عن يونس العلائى ، وقدم يونس العلائى الى القاهرة وقرر فى امرية طبلخاناه .

وفيه توفى حطط الناصرى ، وكان ولى نيـابة غزة وأتابكية طرابلس ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بأن قد ظهر شخص يقال له ابن الفلاح المشعشع وقد حصل منه غاية الفساد ، وقتـل من النـاس ما لا يحصى ، ونهب الركب العـراقى . وقد أعيا أمره نائب الشـام ، فانزعج السلطان لهذا الخبر .

وفيـه ظهر زين الدين الاستادار ، وطلع الى القلعة وقابل السلطان ، فأمره بملازمة داره وألا يجتمع بأحد من الناس .

سنة ثمان وخمسين وثمانمائة (١٤٥٤ م) :

فى المحرم قرر فى كتابة السر بدمشـق الحافظ قطب الدين الخضيرى عوضا عن صلاح الدين بن السابق ، وهذه أول ولاية الخضيرى لهذه الوظيفة . ثم بعد مدة جمع بين قضاء الشافعية بدمشق وكتابة سرها .

وفيه قرر أقبردى الظاهرى الساقى فى أتابكية حلب عوضا عن على باى العجمى ، وقرر فى نيابة حلب عوضا عن أقبردى قاسم بن القشاشى .

وفيه وصل قاصـد على باى الحمزاوى نائب حلب وعلى يده تقدمه حافلة الى السلطان ، وكان قد أشيع عنه العصيان والمخامرة ، فبطل ذلك .

وفيه خلع السـلطان على الشيخ محيى الدين الكافيجى وقرر فى مشيخة الخانقـاه الشيخونية عوضا عن العلائى كمال الدين بن الهمـام الحنفى بحكم رغبته عنها ومجاورته بسكة المشرفة .

* * *

وفى صـفر رسم السـلطان بنفى زين الدين الاستادار الى القدس ويقيم به . فلمـا خرج الى سبيل ابن قايماز بعث السلطان اليه من فتشه فلم يجد معه شيئا غير ثلثمائة دينار وبعض فضة ، وقد كان وشى به عند السلطان بأن معه مالا ، ثم رسم باعادته الى القـاهرة ، وطلع الى القلعة فأدخلوه البحرة ، وأحضر اليه السـلطان فى يومه المعاصير وعصره فلم يقر بشىء من المال ، فأجاب بأن يبيع أوقافه ويرضى السـلطان ، فتكلم ناظر الخاص يوسف فى أمره وأحضره بين يدى السـلطان وهو محمول بين أربعة . وقيل ان السلطان لم يعصره فى هذه المرة بل ضربه فى الدهيشة نحوا من خمسمائة عصا ، فلما حضر بين يديه تكلم له تمراز الدوادار الثانى فخلع عليه السلطان وأعاده الى الاستادارية

وصرف عنه عليا بن الأهناسى . ثم ان السلطان خلع على زين الدين وقرره كاشف الكشاف بالوجهين القبلى والبحرى ، مضافا الى الاستادارية ، فراج أمره قليلا .

وفيه رسم السلطان بالافراج عن أبى الخير بن النحاس من السجن وأن يقيم بطرابلس بطالا .

* * *

وفى ربيع الأول قرر حمزة بن البشيرى فى نظر الدولة عوضا عن التاج الخطيرى .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه نحو الصحراء بسبب تربته التى أنشأها هناك ، فلما عاد شق من القاهرة وصعد الى القلعة — وهذا أول ركوبه فى سلطنته — وكان له يوم مشهود .

وفيه عمل السلطان المولد الشريف على العادة ، وكان حافلا .

وفيه انتهت عمارة جامع برد بك صهر السلطان الذى أنشأه بخط قناطر السباع المطل على الخليج .

* * *

وفى ربيع الآخر توفى الناصرى محمد بن المخلطة . وكان فاضلا مالكى المذهب ... ولى نظر البيمارستان ، وكان محمود السيرة .

وفيه قدم جلبان نائب الشام على السلطان ، وكان أشيع عنه العصيان .

وفيه توفى تقى الدين الأذرعى الشافعى ، وكان عالما فاضلا ، نائبا فى الحكم بدمشق ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى جمادى الأولى عزل تمراز عن الدوادارية الثانية ، وكان ذلك من تلقاء نفسه .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر دمياط بوفاة سيدى خليل ابن الملك الناصر فرج بن برقوق . وكان دينا خيرا رئيسا حشما ، ومولده سنة أربع عشرة وثمانمائة . فلما مات رسم السلطان بنقل جثته الى القاهرة ، فنقل ودفن فى تربة جده الظاهر برقوق ، وأظهرت عليه أخته خوند شقرا غاية الحزن ، وعملت له نعيا بالمغانى تعزف بالطارات نحو سبعة أيام حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه قرر فى الوزارة الصاحب أمين الدين بن الهيصم على عادته ، وصرف عنها سعد الدين فرج ابن النحال .

وفيه طلعت تقدمة جلبان نائب الشام الى السلطان ، وكانت تقدمة حافلة ، ومثلها للمقر الشهابى أحمد ، ثم بعد أيام أضافه السلطان وخلع عليه ورسم له بالعود الى الشام على عادته .

وفيه خلع السلطان على الأمير برد بك صهره ، وكان من أعيان مماليكه وقرره فى الدوادارية الثانية عوضا عن تمراز الأشرفى ، ورسم الى تمراز أن يتوجه الى القدس بطالا . وكان تمراز رجلا أحمق سيىء الخلق غير محبب للناس .

* * *

وفى جمادى الآخرة توفى قاضى ثغر اسكندرية شمس الدين محمد بن عامر المالكى ، وكان من الأفاضل فى مذهبه .

وفيه قرر قانى باى الموساوى فى نيابة ملطية ، وقرر فى نيابة البيرة الناصرى محمد والى الحجر عوضا عن قانى باى الموساوى .

وفيه خلع على القاضى تاج الدين بن المقسى وقرر فى كتابة المماليك عوضا عن عبد الرحمن بن النحال ابن عم الصاحب سعد الدين فرج .

وفيه خرجت تجريدة الى نحو البحيرة ، وكان باش العسكر جانم الأشرفى وبرسباى البجاسى وجماعة من الجند ، وخرجوا لأجل عرب البيد .

وفيه عزل محب الدين بن الشحنة عن كتابة السر ، وأعيد اليها محب الدين بن الأشقر .

وفى رجب أدير المحمل على العادة .

وفيه سافر الأمير برد بك صهر السلطان ، والقاضى شرف الدين الأنصارى ، وتوجها الى القدس . وسبب ذلك أن السلطان صنع كسوة الى ضريح سيدنا الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام . وكان لخروجهما يوم مشهود .

وفيه توفى جانى بك مملوك القاضى عبد الباسط الذى كان ولى الاستادارية فى أيام الأشرف برسباى ، وكان لا بأس به .

وفيه أعيد الشيخ على العجمى الى الحسبة ، وصرف عنها عبد العزيز بن محمد الصغير .

وفيه قدم برسباى الذى توجه قاصدا الى محمد ابن عثمان ، وخلع عليه .

* * *

وفى شعبان عرض السلطان جماعة من العسكر ، وقطع جوامك أولاد الناس ممن تجدد فى أيام الظاهر جقمق ، وقد انشحت الديوان من كسوة العسكر وشكا الاستادار من ذلك . ثم انه بعد ذلك شفع فيهم الأمير يونس الدوادار الكبير فأبقاهم على حالهم ، ورد اليهم جوامكهم التى قطعت عنهم ، ولله الحمد .

وفيه سمر السلطان شخصا من العربان يقال له الفضل — وقد كان مشتهرا بالشجاعة وقتل النفس — فاشهره فى القاهرة هو وأولاد عمه ثم سلخوهم وبعثوا بهم الى بلاد الشرقية ، وكانوا من المفسدين .

وفيه توفى قاضى القضاة الحنفية بمكة المشرفة — وهو رضى الدين أبو حامد بن الضياء — وكان من أعيان العلماء الحنفية بمكة وله نظم جيد ، ومولده سنة احدى وتسعين وسبعمائة .

وفيه ، فى ثالث عشر مسرى ، كان وفاء النيل المبارك . ونزل المقر الشهابى أحمد ابن السلطان وفتح السد على العادة ، وكان له يوم مشهود .

* * *

وفى رمضان جاءت الأخبار بوفاة صاحب الأبلستين — وهو سليمان بن محمد بن قراجا بن دلغادر التركمانى — وكان من خيار التراكمة ، لم تتحرك فى أيامه فتنة ، وكان مثقلا بالشحم جدا .

وفيه قدم جان بك نائب جدة من الحجاز ، فخلع عليه السلطان خلعة سنية .

* * *

وفى شوال وصل ركب من المغرب من عند صاحب تونس ، وصحبته هدية حافلة ، وخرج صحبة الحاج الى مكة .

وفيه قرر فى الاستادارية الناصرى محمد بن أبى الفرج نقيب الجيش ، وقرر سعد الدين فرج بن النحال فى الوزارة عوضا عن أمين الدين ابن الهيصم بحكم اختفائه ، ثم أعاد كتابة المماليك الى سعد الدين فرج ، وصرف عنها تاج الدين بن المقسى ، فصار سعد الدين فرج بعده معه الوزارة وكتابة المماليك .

* * *

وفى ذى القعدة تغير خاطر السلطان على زين الدين الاستادار وضربه ضربا مبرحا ، وتسلمه الجمالى يوسف ناظر الخاص على مال يورده .

وفيه جاءت الأخبار بأن أصلان بن سليمان بن دلغادر تملك الأبلستين عوضا عن أبيه بحكم وفاته .

* * *

وفى ذى الحجة استقر تقى الدين ابن نصر الله فى نظر الدولة ، وكانت شاغرة مدة طويلة .

وفيه توفى الناصرى محمد الصغير معلم النشاب ، وكان أستاذا فى هذا الفن ، وقد جاوز الثمانين

سنة من العمر . وهو والد عبد العزيز الذى ولى الحسبة .

وفيه ثارت جماعة من المماليك الجلبان ونزلوا الى بيت ابن أبى الفرج الاستادار على حين غفلة ونهبوا ما فيه عن آخره ؛ واختفى هو ثم طلع الى السلطان واستعفى من الاستادارية فأعفاه السلطان من ذلك ، وقرر فيها قاسم الكاشف ، وبقى ابن أبى الفرج فى نقابة الجيش على عادته .

وفيه قدم نجاب ببشارة الحاج وأخبر بأن المبشر قد عوقه العربان فى الطريق ، فلم يحضر أحد من الجند بالبشارة على العادة .

سنة تسع وخمسين وثمانمائة (١٤٥٤/١٤٥٥ م) :

فيها : فى المحرم ، قدم قاصد من عند الأمير ابراهيم بن قرمان أمير التركمان وعلى يده مكاتبة مضمونها أنه أرسل يشكو فيها من ملك الروم محمد بن عثمان فما اكترث السلطان لذلك ، ثم انه أرسل اليه بجواب هين ، وما أكرم قاصده ... فمضى غير راض . وكان هذا سببا لعصيان ابن قرمان كما يأتى الكلام على ذلك .

وفيه تغير ماء النيل المبارك تغيرا فاحشا ، وغلبت عليه الخضرة جدا حتى تعجب الناس من ذلك .

وفيه نودى فى القاهرة بخروج المماليك البطالة من القاهرة ، وهدد من تأخر منهم بعد سماع المناداة .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وأخبر بما قاساه من شدة السيول وموت الجمال وقطع الطريق من العربان ، وقد أخذ ركب المغاربة ، وكانت سنة صعبة مهولة ، وقد جاء عليهم السيل فى وادى عفان فاحتمل الجمال بأحمالها وقذفها فى البحر الملح .

وفيه توفى الشيخ شرف الدين أبو الفتح محمد الراعى الشافعى المدنى العثمانى ، وكان من أعيان العلماء الشافعية ، وله سند فى الحديث .

وفيه وقع أمر عجيب ، وهو أن جماعة من مماليك الأمير برد بك — صهر السلطان — ماتوا بالطاعون ، وقد ظهر ذلك بداره فقط ولم يظهر ذلك بغير بيت برد بك .

وفيه ارتفع سعر الذهب حتى بلغ الدينار الأشرفى ثلثمائة وسبعين درهما .

* * *

وفى صفر جاءت الأخبار بموت جلبان نائب الشام . وكان جلبان هذا دينا خيرا ، وأصله من أتباع الملك المؤيد شيخ . وهو جركسى الجنس ، وقيل غير جركسى . ويقال انه مسلم الأصل ، ومات وقد جاوز الثمانين سنة من العمر ، وتولى عدة ولايات ، منها ولاية نيابة حماة ونيابة طرابلس ونيابة حلب ونيابة الشام . وقد طالت أيامه فى السعادة . فلما توفى عين السلطان نيابة الشام الى قانى باى الحمزاوى نائب حلب ، وخرج الى تقليده يونس العلائى . ثم ان السلطان خلع على جانم الأشرفى وقرره فى نيابة حلب عوضا عن قانى باى الحمزاوى ، وعين الأمير برد بك الدوادار الثانى صهر السلطان لتقليده ، ثم يعود الى دمشق لضبط موجود جلبان نائب الشام . ثم ان السلطان أنعم على يونس العلائى بتقدمة ألف ، وهى تقدمة جانم الأشرفى بحكم انتقاله الى نيابة حلب .

وفيه توفى يشبك الناصرى رأس نوبة ثانى . فلما مات قرر فى رأس نوبة الثانية سودون قراقاش المؤيدى ، وقرر فى امرية سودون قراقاش مغلباى طاز ، وقرر النوروزى فى امرية عشرة .

* * *

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد الشريف على العادة ، وكان مولدا حافلا .

وفيه حصلت زلزلة خفيفة بمصر ، واستمرت تعاود الناس أياما .

وفيه وصلت تقدمة من عند الملك أصلان صاحب الأبلستين ، وكانت تقدمة حافلة ما بين خيول وبغال وجمال بخاتى وقماش حرير وغير ذلك .

وفيه خلع السلطان على شمس الدين نصر الله بن النجار الكاتب القبطى وقرره فى الوزارة عوضا عن سعد الدين فرج ، فلم يقم بها ابن النجار الا قليلا واختفى .

❋ ❋ ❋

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على سعد الدين فرج وأعاده الى الوزارة كما كان ، وقرر حمزة بن الشيرى فى نظر الدولة وصرف ابن كاتب الشعير عنها .

وفيه توفى الصاحب أمين الدين بن الهيصم ، وهو ابراهيم بن عبد الغنى بن ابراهيم القبطى ، وقيل كان ينسب الى المقوقس صاحب مصر ، وكان حشما رئيسا يميل الى أهل العلم ، وله اشتغال بالفقه على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه . ولم يكن شافعيا ، وولى الوزارة غير ما مرة . وكان مولده سنة ثمانمائة ، وكان نادرة فى أبناء جنسه ، مسددا فى أمر الوزارة فى الغلوة التى وقعت فى أيام الظاهر جقمق لما شرقت البلاد ، وكان لا بأس به فى المباشرين .

وفيه خرج جانم الأشرفى الذى قرر فى نيابة حلب ، وكان له يوم مشهود وتجمل عظيم .

وفيه انزلت خوند زينب الخاصكية زوجة السلطان الى بولاق ، فأقامت فى القطينية التى ببولاق ، وكان قد حصل لها توعك شديد فى جسدها ، فنزلت لترى البحر حتى يذهب عنها الوخم ، فنزل اليها السلطان وأعادها . فلما حصل لها الشفاء أحرقوا فى بولاق حراقة نفط هائلة حافلة ، وخرجت البنت من خدرها بسبب الفرجة ، وكانت تلك الليلة فى بولاق من الليالى المشهورة . فلما عوفيت طلعت الى القلعة فى محفة وحولها الخوندات والستات وأعيان نساء الأمراء والمباشرين حتى طلعت الى القلعة ، وكان لها مهم حافل بالقلعة .

وفيه توفى الأمير خاير بك الأجرود المؤيدى أحد الأمراء المقدمين بمصر . فلما مات أنعم السلطان بتقدمته على الأمير قانم التاجر بن صفر خجا المؤيدى ، وهذه أول تقدمته بمصر .

❋ ❋ ❋

وفى جمادى الأولى تزايد شر المماليك الجلبان ، وتوجهوا الى بولاق ، ونهبوا شون الأمراء لأجل الشعير ، فانه كان مشحوتا ، وصاروا ينزلون الفقهاء والمباشرين عن خيولهم وبغالهم ويأخذونها من تحتهم ، وحصل منهم فى حق الناس غاية الضرر — ولا سيما التجار فى الأسواق — فكان المماليك يخطفون القماش من الدكاكين وسائر البضائع ... واستمروا على ذلك حتى وقع فيهم الطاعون كما يأتى ذكر ذلك .

وفيه توفى الأديب البارع شاعر العصر شمس الدين محمد بن حسن بن على بن عثمان النواجى الشافعى[1] ، ومولده سنة ثمان وثمانين وسبعمائة . وكان عالما فاضلا ، أديبا بارعا ، وله شعر جيد . فمن ذلك قوله من نوع الاكتفاء :

خليلى هذا ربع عزة فاسعيا
اليه وان سالت به أدمعى طوقا (ن)

فجفنى جفا طيب المنام وجفنها
جفانى ، فيالله من شرك الأجفا (ن)

ومثله له :

(١) تقدمت وفاة النواجى فى حوادث سنة ٨٥٧ ، والصواب ماهنا .

يا ضيف بيت الله نلت المنى
منذ تحصنت بأم القرا (ن)
لب بحج واعتمار وقل
لله ما أسعد هذا القرا (ن)

وله :

فتنت بحسن عواد بديع
مليح الشكل معشوق الشمايل
يحرك عوده فينا بلطف
فيقتلنا بأطراف الأنامل

وقوله ملغزا فى اسم سعيد :

ما اسم لعبد ان تزل عينه
يعد فى الحال لنا سيدا
عليه فرض الصوم لكنه
اذا مضى الربع له عيدا

ومن مصنفاته البديعة « حلبة الكميت » فى وصف الخمرة وما قيل فيها ، و « تأهيل الغريب » فى الأدبيات المطولة ، و « مراتع الغزلان فى وصف الحسان من الغلمان » ، و « الشفا » وله غير ذلك من المصنفات الغريبة . ولما مات رثاه الشهاب المنصورى بقوله :

رحم الله النواجى فقد
فقد الدنيا وأبقى ما روى
وانطوى فى شقة البين فيا
حسرة العشاق من بعد النوا (جى)

* * *

وفى جمادى الآخرة توفى الشيخ الصالح سيدى محمد المغربى المجذوب رحمة الله عليه . ولما مات أخذه السلطان اينال ودفنه بجوار تربته تبركا به .

وفيه خلع السلطان على عبد العزيز بن محمد الصغير ، وقرر فى الحسبة مضافا لما فى يده من نقابة الجيش ، وكان قد تغير خاطر السلطان على
الشيخ على العجمى وصرفه من الحسبة و
عبد العزيز بن محمد الصغير .

وفيه تغير خاطر السلطان على فخر الد
السكر والليمون ناظر ديوان المفرد ، وضر
يديه بسبب تأخر جوامك الجند ، وكان ا
فى غاية الشحتة .

وفيه توفى القاضى صلاح الدين خليـ
السابق ، وكان فاضلا رئيسا حشما ، ولى
مر حلب وكتابة سر دمشق ونظر جيشهم
ذلك من الوظائف ، وكان حسن السيرة

وفيه ثارت فتنة عظيمة . وسبب ذلك أن
من المماليك الظاهرية استمالوا بعض جلبـ
السلطان . وكان السلطان عين تجريدة قبل
للبحيرة ، وكتب غالب الجند فيها من المما
الظاهرية ، وعين الباش عليهم الأمير خشقد
سلاح . فلما جرى ذلك وقفوا فى الرميلة
نزل الأمير يونس الدوادار الكبير ، ف
بالدبابيس ، وجرح فى ذلك اليوم شخـ
المماليك وقطعت أصابعه . ثم ان الأمير
الدوادار تحيل فى صعوده الى القلعة
السلطان بذلك ، فطلب السلطان جانى بك ا
ومرجان مقدم المماليك ، وبعث بهما لكشـ
الأخبار ، وما سبب وثوب المماليك على
يونس الدوادار . ثم ان نوكار الزردكاش
الى المماليك الجلبان الذين وثبوا مع طائفة
المماليك الظاهرية ليستميلهم عن ذلك ويستر
فعاد الجواب الأول بأن يسلمهم الأمير
الدوادار ، وقد صمموا على ذلك ، وكانت
الحركة فى سلخ جمادى الآخرة .

* * *

فلما استهل رجب بدأ السلطان بضرب الأ
فلم يطلع غالب الأمراء الى القلعة . ثم ان المم

أصبحوا لابسين آلة الحرب ، ووقفوا بسوق الخيل . وقد اشتد الأمر ، ومنعوا الأمراء من الصعود الى القلعة ، فبعث السلطان يقول للخليفة : « غيب من بيتك حتى تسكن هذه الفتنة » . فلم يغب من بيته ، فتوجه اليه المماليك وأركبوه من بيته وأتوا به الى البيت الكبير الذى عند حدرة البقر ، فأقام به ، واشتد القتال . فلما بلغ السلطان ذلك نزل الى باب السلسلة وجلس بالمقعد المطل على الرميلة ، وعلق الصنجق السلطانى على رأسه ، ودقت الكئوسات حربيا ، فوقع فى ذلك اليوم قتال هين ... فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد انفض ذلك الجمع وفر المماليك شيئا بعد شيء ، فلما رأى ذلك المماليك الظاهرية تسحبوا من الرميلة — وقد اشتد الحر — وتوجه كل أحد من المماليك الى داره . وكان رأس الفتنة من المماليك الظاهر يشبك بن مهدى ، وكان يومئذ جنديا من جملة المماليك السلطانية . فلما انفض الجمع قام السلطان من المقعد وطلع الى القلعة ، وقام الخليفة أيضا وتوجه الى داره ، وخمدت هذه الفتنة ، وكان الخليفة يظن أن هذه الحركة يحصل له فيها نفع كما حصل له فى حركة الملك المنصور مع الأشرف اينال . فانه لما تسلطن أنعم على الخليفة حمزة باقطاع ثقيل ومال وخلع وخيول وغير ذلك ، فظن الخليفة أن هذه الحركة مثل الأولى ، فجاء الأمر بخلاف ذلك ... وكم من عجلة أعقبت ندامة ، فكان كما قيل فى المعنى :

اذا ما أراد الله خيرا لعبده
ينله ، وما للعبد ما يتخير
وقد يهلك الانسان من باب أمنه
وينجو ، بعون الله ، من حيث يحذر

وكان الخليفة قام فى سلطنة الأشرف اينال قياما عظيما ، وخلع الملك المنصور قبل أن ينكسر ، وأمر بحرق سبيل المؤمنين حتى أخذوا الميدان ... فظن الخليفة أن تكون هذه الفتنة يحصل له فيها مثل تلك المرة ، فلما توجه الخليفة الى بيته أرسل السلطان خلفه وقد بقى له ذنب ، اذ أرسل السلطان يقول له : « غيب من بيتك حتى تخمد هذه الفتنة » ... فاستتر فى بيته حتى آركبوه المماليك برضاه وجاء الى البيت الكبير كما تقدم ذكر ذلك . فلما طلبه السلطان وحضر بين يديه ، وبخه بالكلام فلم ينطق بالجواب وأمسك لسانه عن ذلك ، وكان به بعض صمم فكان كما قيل :

اذا كان وجه العذر ليس بواضح
فان اطراح العذر خير من العذر

ثم ان السلطان آمر بادخاله الى البحرة ، فدخل اليها وأقام بها أياما وهو فى الترسيم . ثم ان السلطان رسم باخراجه الى السجن بثغر الاسكندرية ، فنزل من القلعة بعد المغرب فى سابع رجب ، وصحبته جانى بك القرمانى حاجب الحجاب ، فأوصله الى البحر حتى نزل فى الحراقة وسار الى الاسكندرية ؛ فسجن بها الى أن مات فى أواخر دولته ، ودفن بثغر الاسكندرية على شقيقه العباس الذى ولى السلطنة بعد قتله الناصر فرج بن برقوق ، فكانت مدة الخليفة حمزة فى الخلافة أربع سنين وستة أشهر وأياما . وكان رئيسا حشما كفئا للخلافة ، وكان له حرمة وافرة ، وشهامة زائدة ، بايع الملك المنصور عثمان والأشرف اينال .

ومن النكت الغريبة اللطيفة ، قيل لما أرادوا خلع الخليفة حمزة من الخلافة قال : « اشهدوا على أنى قد خلعت نفسى من الخلافة ، وخلعت السلطان اينال من السلطنة » . فاضطرب المجلس لذلك ، فقال قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى : « ان خلعه للسلطان لا يصح وقد بدأ بخلع نفسه أولا ثم

حتى يخلع السلطان وهو غير مولى للخلافة » ... فلم يصح منه عزله للسلطان ، فعدت هذه من النوادر .

فلما عزل الخليفة حمزة من الخلافة تكلموا فيمن يلى بعده الخلافة ، فوقع الاتفاق على ولاية أخيه الجمالى يوسف بن محمد المتوكل .

خلافة المستنجد بالله أبى المحاسن

هو المستنجد بالله ، أبو المحاسن يوسف بن محمد المتوكل على الله . وهو الثالث عشر من خلفاء بنى العباس بمصر . بويع بالخلافة بعد خلع أخيه حمزة فى يوم الخميس ثالث عشر رجب سنة تسع وخمسين وثمانمائة . وكانت صفة ولايته أن عمل موكب بالقصر ، وطلع القضاة الأربعة وهم : علم الدين صالح البلقينى الشافعى ، وسعد الدين الحنفى ، وولى الدين السنباطى المالكى ، وعز الدين الحنبلى . فلما تكامل المجلس سكت القضاة ساعة لم يتكلم منهم أحد فى شىء ، فقال قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى : « نقل بعض علماء مذهبى أن السلطان له أن يعزل الخليفة ويولى غيره ... فهذا كان حاصل المسألة فى خلع الخليفة حمزة وولاية أخيه الجمالى يوسف » ... فعند ذلك قام القاضى كاتب السر محب الدين بن الأشقر ، وقال فى المجلس : « نشهد عليك — يا مولانا السلطان — أنك عزلت الخليفة حمزة من الخلافة ووليت أخاه الجمالى يوسف » ... فقال : « نعم » ... فأحضروا له التشريف ، وأفيض عليه ، وتلقب بالمستنجد بالله ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، والقضاة الأربعة قدامه ، وأعيان الناس ، حتى أوصلوه الى بيته وهو فى غاية العظمة ، وقد طالت أيامه فى الخلافة جدا .

ثم ان السلطان قبض على جماعة من المماليك الظاهرية ، ممن كانوا سببا لاقامة هذه الفتنة ، وسجنهم بالبرج ، واختفى منهم جماعة كثيرة ، ونفى منهم جماعة الى البلاد الشامية .

وفيه قدم الأمير برد بك — صهر السلطان — وكان قد توجه الى القدس كما تقدم . فلما حضر أتى صحبته زين الدين الاستادار ، وكان السلطان نفاه الى القدس . فلما عاد خلع عليه السلطان وأعاده الى الاستادارية ، وصرفه عنها قاسم الكاشف .

وفيه أدير المحمل على العادة ، وساق الرماحة أحسن سوق .

وفيه توفيت خوند زاده بنت أورخان بن محمد ابن عثمان ملك الروم ، وهى زوجة الظاهر جقمق ، وتزوجت أيضا بالأشرف برسباى ، وماتت فى عصمة برسباى البجاسى حاجب الحجاب .

وفيه قبض السلطان على يشبك النوروزى نائب طرابلس ، وحمل الى قلعة المرقب فسجن بها .

* * *

وفى شعبان جاءت الأخبار بوفاة السيد الشريف بركات سلطان مكة . وهو بركات بن عجلان بن رميثة الحسنى ، وكان من خير أمراء مكة ، ومولده سنة اثنتين وثمانمائة .

وفيه ، فى خامس عشر مسرى ، كان وفاء النيل المبارك ، ونزل المقر الشهابى أحمد ابن السلطان وفتح السد على العادة .

وفيه خلع السلطان على اينال اليشبكى ، وقرر فى نيابة طرابلس عوضا عن يشبك النوروزى ، وقرر فى نيابة صفد جانى بك التاجى عوضا عن اياس الطويل ، وقرر فى نيابة غزة خاير بك النوروزى أحد الأمراء بصفد ، وقرر فى نيابة ملطية أقبردى الساقى أتابك العسكر بحلب عوضا عن قايتباى الناصرى ، وقرر فى أتابكية حلب

سودون الناصرى أتابك طرابلس — وكان هـذا كله بتدبير الجمالى يوسف ناظر الخاص

وفيه زاد النيل زيادة مفرطة حتى قطع الجسور وغرق غالب البلدان ، فبعد ما جرى ذلك هبط النيل بسرعة ، وشرق جانب من البلاد ، وارتفع سعر الغلال بسبب ذلك .

وفى رمضان قرر ابن الوجيه فى نظر الجيش بحلب عوضا عن ابن السفاح .

وفيه قرر فى قضاء الشافعية بمكة محب الدين الطبرى ، وصرف عنهـا أبو السعادات بن ظهيرة ، وقرر فى نظر الحـرم الشريف برهان الدين بن ظهيرة الذى عظم أمره فيما بعد وانتهت اليه رياسة مكة .

وفيه قدم جانى بك نائب جدة وسعى الى السيد الشريف محمـد بن بركات المتوفى فى امرية مكة عوضا عن أبيه بخمسين ألف دينار ، فولاه السلطان وأقام بها حتى توفى فى صفر سنة ثلاث وتسعمائة وكان من خيار أمراء مكة .

* * *

وفى شوال رسم السلطان بعمل كسوة للحجرة الشريفة ، فلما انتهى العمل منها عرضها ناظـر الخاص يوسف على السلطان ، فألبسه كامليـة حافلة .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل بيبرس الأشرفى .

وفيه تغير خاطر السلطان على نقيب الجيش ابن محمد الصغير وهو عبد العزيز ، فضربه بين يديه ضربا مبرحا ، وأمر بنفيـه الى دمياط لأمر أوجب ذلك . ثم ان السلطان خلع على العـلائى على بن القيسى وقرره فى نقابة الجيش عوضا عن عبدالعزيز ابن محمد الصـغير ، وكان السلطان عينهـا الى خشكلدى الزردكاش ، فوقع الاختيار بعـد ذلك على ابن القيسى .

وفى ذى القعدة قرر جمال الدين الباعونى فى قضاء الشافعية بدمشق وصرف عنها سراج الدين الحمصى ، وأمر أن يخرج الى حمص ويقيم بها .

وفيه شرع الجمالى ناظر الخاص فى بناء مدرسة بالصحراء ، فجاءت مدرسة حافلة لم يعمر فى الصحراء مثلها . وكان مصروف ذلك من مال ناظر الخاص يوسف دون مال السلطان ، فقيل له انه صرف عليها اثنى عشر ألف دينـار وزيادة على ذلك . وأنشأ زاوية تجـاه المدرسـة ، وحوشـا لدفن جماعة السلطان .

* * *

وفى ذى الحجة قرر فى الحسبة الشـيخ على العجمى على عادته ، وكان يعرف بيار على .

وفيه توفى العلامة محب الدين محمد بن أحمـد ابن أبى يزيد الأقصرائى الحنـفى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم ، وكان امام الأشرف برسباى ومولده سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، وهـو الشيخ أمين الدين الأقصرائى .

وفيه توفى أقبردى الساقى الظاهرى نائب ملطية وكان لا بأس به .

وفيه توفى الشهاب أحمد الحاضرى الحنفى ، وكان عارفا بالقراءات السبع وتعبير الرؤيا .

وفيه توفى خليفة سيدى ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه ، وكان مالكى المذهب وله اشتغال بالعلم ويعرف بسنان الأبودرى .

وفيه صلى السلطان صلاة عيد النحر ، وخرج من الجامع مسرعا ، وتوجه الى الحوش ونحر به وخالف العادة ... وسبب ذلك أنه قويت الاشاعات بوقوع فتنة فى ذلك اليوم من المماليك الجلبان ، فبادر السلطان وتوجه الى الحوش ونحر به فسكن الاضطراب قليلا .

سنة ستين وثمانمائة (١٤٥٥/٥٦ م) :

فيها ، فى المحرم ، قرر أقباى الجكمى فى نيابة ملطية عوضا عن أقبردى الساقى ، وقرر فى نيابة طرسوس آقباى السيفى جارقلطو ، عوضا عن أقباى الجكمى . وتوفى الناصرى محمد بن الحلبى والى الحجرة .

وفيه وصل الحاج وأخبر بأنه لم يحج فى هذه السنة أحد من العراق خوفا من المشعشع الذى ظهر منه الفساد ، وقد شاع خبره فيما تقدم . وكان فى تلك السنة الأمير برد بك البجمقدار أمير الحاج هو والأمير بيبرس الأشرفى ، وكانت سنة صعبة على الحاج .

* * *

وفى صفر ثار المماليك الجلبان على ناظر الخاص يوسف وضربوه ، وأخذوا عمامته من فوق رأسه وصار مكشوف الرأس ، ولولا أنه هرب لقتلوه لا محالة ، وكانت المماليك تزايد شرهم جدا .

وفيه ثارت الغلمان والعبيد على الوزير ، ونزلوا من القلعة وتوجهوا الى بيت الوزير وصاروا ينهبون بعض دكاكين القاهرة ، وخطفوا عمائم الناس ، حتى وصلوا الى دار سعد الدين فرج فاختفى من داره فنهبوا ما وجدوه فى الدار ، وسبب ذلك انشحات اللحم المقرر للجند .

وفيه خرج يونس العلائى — أحد الأمراء المقدمين — الى بر الجيزة لحفظ الخيول التى فى الربيع ، وكانت عربان البيد قد أفسدوا بر الجيزة وأخذوا خيول الأمراء والجند من مراعيها .

* * *

وفى ربيع الأول أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى قيل أمطرت فى قليوب بردا وزن كل بردة خمسون درهما ، وهلك به بعض مواش وأفسد الزرع .

وفيه ظهر الصاحب فرج بعدما كان مختفيا ، فخلع عليه بالاستمرار ، وخلع على فخر الدين بن السكر والليمون وقرر فى نظر الدولة وكانت شاغرة .

* * *

وفى ربيع الآخر عمر السلطان الربع والحمام وما بينهما الذى بين القصرين .

وفيه خرج جماعة من الأمراء والجند الى نحو الجون على العادة لاحضار الأخشاب .

* * *

وفى جمادى الأولى توفى المسند جمال الدين عبد الله بن محمد بن أحمد التسترى ، وكان عالى السند ، من أهل الفضل والعلم .

وفيه وصل الخواجا جمال الدين عبد الله القابونى رسولا من عند بن عثمان ملك الروم محمد ، وعلى يده مكاتبة تتضمن ما فتحه من الفتوحات السنية ، فأكرمه السلطان غاية الاكرام . ولما أراد التوجه الى ابن عثمان عين معه السلطان قانى باى اليوسفى المهمندار وعلى يده هدية من عند السلطان الى ابن عثمان ، وأخذ قانى بك اليوسفى فى أسباب تعلق السفر الذى عين فيه .

وفى أثناء هذا الشهر ظهر فى السماء نجم بذنب طويل جدا ، وكان يظهر من جهة الشرق ، ودام يطلع نحوا من شهرين — وكان من نوادر الكواكب — فتكلم فيما يدل عليه من الأمر ، وزاد الكلام بسببه ، ثم اختفى ذلك النجم وأقام مدة طويلة نحوا من ثلاث سنين حتى وقع بمصر الطاعون ووقع بمصر أيضا الحريق كما سيأتى ذلك فى موضعه .

قال صاحب « مرآة الزمان » ان أول ما ظهر نجم الذنب عندما قتل قابيل أخاه هابيل ، وظهر عند وقوع الطوفان ، وعند وقود نار ابراهيم الخليل عليه السلام ، وظهر عند هلاك قوم عاد وثمود ،

وظهر عند هلاك فرعون ، وظهر عند قتل الامام عثمان بن عفان ، وظهر عند قتل الامام على كرم الله وجهه ، وظهر عند قتل جماعة كثيرة من الخلفاء . وفى الغالب يحدث عند ظهور نجم الذنب حادث عظيم — وقد جرب ذلك وصح — من فناء وقتل وفتن ، وخسف وزلازل وغير ذلك .

* * *

وفى جمادى الآخرة توفى القاضى الذى بالاسكندرية شهاب الدين أحمد المحلى الشافعى وكان فاضلا ، فى سعة من المال ، وكان تاجرا فى البهار ، وسعى فى قضاء الاسكندرية على خلاف ما جرت به العادة من ولاية المالكية ، وقد سعى بمال حتى تولى ومات وقد جاوز السبعين من العمر .

وفيه قبض السلطان على زين الدين الاستادار وضربه بين يديه علقة قوية بسبب تأخيره للجامكية ورسم عليه فى طبقة الزمام وهو فى الحديد . ثم انه خلع على سعد الدين فرج بن النحال ونقله من الوزارة الى الاستادارية ، وخلع على العلائى على ابن محمد الاهناسى وقرره فى الوزارة عوضا عن سعد الدين فرج ، وهذه أول عظمة علاء الدين على فى الوزارة ، وهو على بن الأهناسى .

* * *

وفى رجب كانت نهاية عمارة مدرسة السلطان التى أنشأها فى الصحراء ، وخطب بها وعمل السلطان هناك وليمة حافلة ، وحضر بها القضاة الأربعة وسائر الأمراء وأعيان الناس ، ومد بها الأسمطة الحافلة ، وكان يوما مشهودا .

وفيه طلع الأمير يونس الدوادار الكبير الى القلعة ، وكان مريضا وشفى ، فخلع عليه السلطان خلعة حافلة ، ونزل الى دواره فى موكب حافل وقدامه الأمراء وأرباب الدولة من المباشرين وغيرهم .

وفيه أفرج السلطان عن زين الدين الاستادار وتسلمه ناظر الخاص يوسف على مال .

وفيه أدير المحمل على العادة ، وساقوا الرماحة بحضرة قاصد ملك الروم محمد بن عثمان .

وفيه ماتت ملك باى الجركسية سرية الملك الأشرف برسباى أم ولده سيدى أحمد ، وكان تزوج بها قرقماس الجلب وماتت معه ، وهو الذى ربى سيدى أحمد ابن الأشرف برسباى .

* * *

وفى شعبان رسم السلطان بنفى زين الدين الاستادار الى المدينة المشرفة بعد أن أخذ منه عشرة آلاف دينار ، وتوجه من البحر الى المدينة الشريفة .

وفيه سافر الخواجا ابن القابونى قاصد ابن عثمان ، وخرج صحبته قانى باى اليوسفى المهمندار . وكان أشيع موت ابن عثمان قبل خروج القاصد ، ثم جاءت الأخبار بأن ابن عثمان قد شفى وهو فى قيد الحياة ، فرسم السلطان بدق الكئوسات بالقلعة ثلاثة أيام .

وفيه توفى الأمير اسباى الجمالى الظاهرى من مماليك الظاهر جقمق ، وكان ولى الدوادارية الثانية ثم نفى الى القدس فمات به ، وكان لا بأس به ، لين الجانب متواضعا ، وكان معروفا وموصوفا بالشجاعة وبالفروسية .

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير ابراهيم بن قرمان أمير التركمان قد زحف على بلاد السلطان ، وقد أظهر العصيان ، واستولى على طرسوس وأدرنة وكولك . فلما سمع السلطان ذلك تشوش لهذا الخبر ، وعين تجريدة الى ابن قرمان ، وجعل باش العسكر خشقدم الناصرى أمير سلاح ، ومعه جماعة من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشروات ، وعين من الجند نحوا من أربعمائة مملوك ، وعين سنقر

قرق شبق الزردكاش بأن يتوجه ، قبل خروج العسكر ، لكشف الأخبار عن ذلك .

وفيه كان وفاء النيل المبارك فى سادس مسرى.

وفيه نزل المقر الشهابى أحمد ابن السلطان وفتح السد على العادة .

* * *

وفى رمضان تزايد أذى المماليك الجلبان فى حق الناس ، وصاروا ينهبون حواصل البطيخ الصيفى وسائر البضائع ، حتى امتنعت السوقة من البيع ، وارتفع سعر كل شىء من المأكول وغير ذلك .

وفيه قبض السلطان على عشرة أنفار من الزغلية وجدوهم يضربون الزغل ، فأمر بتوسيطهم أجمعين .

***

وفى شوال خرج الحاج من القاهرة على العادة وكان أمير ركب المحمل قانم التاجر أحد المقدمين وأمير الأول عبد العزيز بن محمد الصغير ، وكان السلطان قد رضى عليه وقرره من جملة الحجاب بالقاهرة .

وفيه ضرب السلطان خاير بك الوالى بين يديه ضربا مبرحا لأمر أوجب ذلك .

وفيه حصل للقاضى ناظر الخاص يوسف توعك فى جسده ، فانقطع عن طلوع القلعة أياما ثم شفى بعد ذلك وطلع الى القلعة ، فخلع عليه السلطان خلعة حافلة ، ونزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه أرباب الدولة وأعيان الناس ، فزينت له القاهرة من داره الى القلعة ، وقعدت له جوق المغانى على الدكاكين ، وتخلقت الناس بالزعفران وأوقدوا له الشموع على الدكاكين ، وكان له يوم مشهود ، وفيه يقول الشهاب المنصورى :

يا جوهر الفرد الذى عن جسمه زال العرض
أجفان من أحببته تحملت عنك المرض

***

وفى ذى القعدة توفى قانى باى الأعمش الناصرى نائب القلعة ، فلما مات قرر فى نيابة القلعة عوضه النوروزى سودون ، وأنعم السلطان بامرية قانى باى الأعمش على ولده الناصر محمد ، وهو أصغر أولاده ، وكان أمير عشرة .

وفيه قرر فى نظر الجوالى القاضى زين الدين أبو بكر بن مزهر ، وصرف عنها ابن أصيل .

***

وفى ذى الحجة قدم قاصد جهان شاه ، وصحبته هدية للسلطان ، وعلى يده مكاتبة تتضمن أنه بعث يشكو الى السلطان من حسن بك الطويل بأنه جائر عليه وقد زحف على بلاده ، فأرسل اليه السلطان الجواب عن ذلك .

وفيه نزل السلطان الى المطعم الذى بالريدانية ، وألبس الأمراء الصوف ، وشق من القاهرة فى موكب عظيم ، وكان يوما مشهودا .

وفيه توفى الشيخ برهان الدين الرفاعى الشافعى وكان من أهل العلم والفضل ، مولده بعد الثمانين والسبعمائة .

وتوفى أركماس اليشبكى ، أحد الامراء العشروات ورءوس النوب

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب اليمن ، وهو الملك أبو الفتح عمر بن على بن رسول التركمانى ، وكانت دولة بنى رسول أقامت باليمن نحوا من مائتين وثلاثين سنة ، وكان سبب تسمية جدهم برسول أن الخلفاء كانت تبعثه رسولا الى البلاد الشامية وغيرها من البلاد فسمى رسولا ، ومازال يرتقى حتى ملك بلاد اليمن وانفرد بها ، ومعرفته مشهورة فى التواريخ القديمة .

سنة احدى وستين وثمانمائة (١٤٥٦/١٤٥٧ م) :

فيها ، فى المحرم ، قرر العلائى على بن القيسى فى ولاية القاهرة عوضا عن خاير بك القصروى ، وقد تغير خاطر السلطان على خاير بك وضربه وسجنه بالقلعة ، وقرر عليه مالا له صورة ، وخلع على الناصرى محمد بن أبى الفرج ، وقرر فى نقابة الجيش عوضا عن على بن القيسى .

وفيه نودى على الدينار بثلاثمائة درهم ، وكان قد زاد سعره حتى بلغ ثلاثمائة وسبعين درهما ، وكان قد كثر الغش فيه وفى الفضة .

وفيه قرر كسباى السمين وثانى بك الصغير ، قرر كل منهما رأس نوبة عصاة .

وفيه جاءت الأخبار بأن سنقر الزردكاش لما وصل الى حلب توجه من هناك الى طرسوس ، فتحارب مع نائبها الذى أقامه ابن قرمان ، فقتله وأرسل رأسه الى السلطان ، فطيف بها وعلقت على باب زويلة ثلاثة أيام . وقد تقدم أن السلطان أرسل لكشف أخبار ابن قرمان .

وفيه توفى الأمير جرباش الكريمى صهر الملك الظاهر چقمق ، وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق ، وتولى عدة وظائف سنية منها حاجبية الحجاب وامرية مجلس وامرية سلاح ، ولما كبر سنه لزم داره ورتب له ما يكفيه حتى مات وقد تجاوز التسعين سنة من العمر .

***

وفى صفر ثارت فتنة كبيرة بالقلعة من المماليك الجلبان ، وكان السلطان فى الدهيشة ، فلما تزايد الأمر منهم خرج اليهم السلطان وهو ماش من الدهيشة وقد هموا أن يهجموا عليه ، فلما عاينوه رجموه بالحجارة فولى وهو مستعجل حتى وقعت احدى نعليه من رجله فلم يلتفت اليها ومر حافيا ، ويقال انه أصابته طوبة من الرجم فى ظهره وانعطب بعض الخاصكية من الرجم فى وجهه ، وكانت حادثة شنيعة قل أن يقع فى الحوادث أشنع منها . فلما دخل السلطان الدهيشة أغلقوا عليه الباب وكان عنده بعض الأمراء . واستمر الحال على ذلك الى العصر ، والأمراء والخاصكية قد تعوقوا بالقلعة ، فترددت الرسل بين السلطان وبين المماليك الجلبان فى هذه الواقعة ، فآل الأمر فيها بأن زادهم ألف درهم فى الكسوة ، فصارت من يومئذ ثلاثة آلاف درهم لكل مملوك ، وزادهم فى الأضحية رأسا من الغنم فى كل سنة ... فسكنت الفتنة قليلا . وقد استطالوا بعد ذلك على الناس ، ووقع منهم أمور شنيعة يطول الأمر فى شرحها ، وعظم أذاهم بالناس جدا ، ووقع منهم أمور ما وقعت من مماليك السلاطين قبلهم قط .

وفيه عقد مجلس بين يدى السلطان ، وحضر القضاة الأربعة ومشايخ العلم ، فلما تكامل المجلس تكلم الجمالى يوسف مع القضاة بسبب غش الفضة فى المعاملة ، وأحضروا نقود الدول القديمة من أيام المؤيد شيخ الى دولة الظاهر چقمق ، فسبكت فلم يوجد أكثر غشا وفسادا من ضرب فضة دولة الأشرف اينال ، فأمر السلطان باشهار المناداة فى القاهرة بابطال المعاملة الحلبية والدمشقية ، فوقف حال الناس وأشيع بين الناس أن العامة ترجم الجمالى يوسف ناظر الخاص . واضطربت الأحوال فنودى فى القاهرة بأن كل شىء على حاله فى المعاملة الحلبية وغيرها ، ثم نقض ذلك بعد مدة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم من علماء الحجاز يدعى جلال الدين أبو السعادات ابن ظهيرة الشافعى ، وكان علامة ولى قضاء مكة ونظر الحرم والحسبة ، وكان حسن السيرة .

وفيه توفى الشيخ سراج الدين الحمصى الشافعى

قاضى دمشق ، وكان عالما فاضلا ولى عدة وظائف منها قضـاء طرابلس وحلب ودمشق وغير ذلك ، وكان قد ترشح أمره لقضـاء مصر — بل وكتابة السر — ولم يتم له ذلك .

وفيه توفى الطواشى عبـد اللطيف الرومى المنجكى مقـدم المماليك ، وكان لا بأس به بين الخدام .

***

وفى ربيـع الأول توفى القـاضى شهاب الدين أحمد بن محمد الزفتاوى الشافعى ، نائب الحكم بالديار المصرية ، وكان من أهل العلم والفضل ، ومولده سنة تسعين وسبعمائة .

وفيه عمل السلطان المولد الشريف على العادة ، وكان يوما حافلا .

وفيه خلع السـلطان على ولده المقر الشهابى أحمد وقرره أمير ركب المحـمل ، ورسم لزوجته خوند زينب وأولاده بأن يحجوا فى تلك السنة ، وشرع لهم فى عمل برك حافل ، وحجت صحبـة ولدها المقر الشهابى أحمد .

***

وفى ربيـع الآخر آعيد خاير بك القصروى الى ولاية القاهرة وصرف عنها على بن القيسى .

وفيه جاءت الأخبـار من المدينة الشريفة بأن شخصا من الأشراف يقال له الشريف برغوت تسلق الى سطح الحجرة النبوية الشريفة واختلس عدة قناديل ذهب وفضة ، فأخـذها وفر الى الينبع ، فقبض عليه بعد أيام وأخـذ ما معه من القناديل وسجن ، وكانت هذه الفعلة من أقبح الفعائل .

***

وفى جمادى الأولى خرجت التجـريدة المعينة الى ابن قرمان ، وكان باش العسكر خشقدم أمير سلاح ومعه جماعة من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشراوات ، ومن المماليك نحـو من أربعمائة مملوك ، وكان لخروجهم يوم مشهود .

وفيه أرسل السلطان زردخانة حافلة على يد نوكار الزردكاش بسبب العسكر المتوجه الى ابن قرمان ، وكان نوكار مريضا فخـرج غصبا على كره منه .

***

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار بوفاة نوكار الزردكاش ، مات بغزة ، وكان من مماليك الناصر فرج بن برقوق وكان لا بأس به . فلما مات خلع السلطان على سنقر الأشقر المعروف بقرقشبق ، وقرر فى الزردكاشية عوضا عن نوكار النـاصرى بحكم وفاته .

***

وفى رجب طفش جماعة من فرسان العـربان ركاب خيول ، وشرعوا يعرون الناس من الصحراء الى أن وصلوا الى رأس الصوة — وكان ذلك وقت القائلة — فخطفوا عمائم الفقهاء ، وسلبوا قماش الناس عنهم ، ولم يجـدوا من يردهم عن ذلك ، وكانت هـذه اباحة صعدت من أولئك العربان .

وفيه توفى قاضى قضـاة المالكية ولى الدين السنباطى ، وهو محمد بن عبد اللطيف بن اسحق ابن أحمد بن اسحق بن ابراهيم بن سليمان بن داود بن عتيق الأموى المالكى ، وكان عالما فاضلا من أعيـان المالكية ، ومولده سنة ست وثمانين وسبعمائة . فلما توفى وقع الكلام على من يلى قضاء المالكية ، فوقع الاختيار على ولاية السيد الشريف حسام الدين بن حرير ، فسعى فى ذلك بمال جزيل . وكان السـاعى له فى ولاية القضاء الجمالى يوسف ناظر الخـاص ، وكان يومئذ فى المالكية من هو أعلم منه ، ولكن ساعدته الأقدار

وولى قضاء المالكية وأقام بها مدة طويلة الى أن مات .

وفيه أدير المحمل على عادته ، ولكن حصل فيه من المماليك الجلبان غاية الضرر فى حق الناس ، من خطف النساء والصبيان ، وعظم الفساد ، وخطف عمائم الناس وغير ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بأن حسن بيك الطويل — صاحب ديار بكر — تحارب مع جهان شاه صاحب تبريز والعراقين ، فجرى بينهم من الحروب ما يطول شرحه ، وآل الأمر الى أن حسن الطويل قد انتصر على جهان شاه . فلما جاءت الأخبار بذلك سر السلطان بنصرة حسن الطويل على جهان شاه .

وفيه عاد قانى باى اليوسفى الذى كان توجه الى ابن عثمان ملك الروم وأخبر بأنه أكرمه غاية الاكرام .

***

وفى شعبان جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر الذى توجه من مصر صحبة الأمير خشقدم أمير سلاح دخل بلاد ابن قرمان ، وشن فيها الغارات ، وأخربوا غالب بلاده ، وقطعوا الأشجار التى بها ، وقتلوا جماعة كثيرة من عسكره . فلما بلغ السلطان ذلك سر به .

***

وفى رمضان أرسل السلطان جماعة من العسكر الى اللجون بسبب قطع الأخشاب على العادة ، وكان الباش على العسكر يشبك بن سليمان المعروف بالفقيه المؤيدى أحد الأمراء الطبلخانات يومئذ ، وهو الذى تولى الدوادارية الكبرى فيما بعد .

وفيه توفى عالم الحنفية وشيخهم بالديار المصرية الأستاذ الشيخ كمال الدين محمد بن الهمام الحنفى وهو محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود السيواسى المصرى الحنفى شيخ الشيوخ بالخانقاه الشيخونية ، وكان فريد عصره فى علماء الحنفية ، عالما عاملا فاضلا رحمة الله عليه . وكان مولده سنة تسع وثمانين وسبعمائة . وكان معظما عند الملوك وأرباب الدولة ... ولى مشيخة الأشرفية والشيخونية وغير ذلك من الوظائف السنية .

وفيه وصل سودون القصروى — أحد الدوادارية — وأخبر بنصرة العسكر المتوجه الى ابن قرمان ، وقد استولى العسكر على غالب بلاده وأخربها وأحرق أشجارها ، فلما تحقق السلطان أمر بضرب البشائر بسبب هذه النصرة ، فدقت الكئوسات بالقلعة ثلاثة أيام .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، ونزل المقر الشهابى أحمد ولد السلطان وفتح السد على العادة وكان يوما مشهودا ، ولكن كان فى شهر رمضان ، فقيل أفطر فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من العياق الأوباش ، وكان يوما شديد الحر .

وفيه عمل السلطان مسايرة حافلة ، وركب معه أرباب الدولة من المباشرين وغيرهم .

***

وفى شوال توفى الأمير جانى بك القرمانى حاجب الحجاب ، وكان لا بأس به ، وقد جاوز الثمانين سنة من العمر ، وكان لين الجانب متواضعا مات فى التجريدة التى أرسلت الى ابن قرمان .

وفيه وصل العسكر الذى توجه الى بلاد ابن قرمان ، ودخل باش العسكر الأمير خشقدم أمير سلاح ، وكان يوم دخولهم يوما مشهودا بالقاهرة ، ولكن حصل للعسكر بعد خروجهم من غزة وباء فمات منهم ما لا يحصى ، ودخل الباقون وهم متوعكون ، حتى الأمراء وأكثر الجند .

وفيه قرر فى تقدمة جانى بك القرمانى أبا يزيد التمربغاوى ، وقرر فى امرية أبى يزيد برسباى المؤيدى .

قاضى دمشق ، وكان عالما فاضلا ولى عدة وظائف منها قضـاء طرابلس وحلب ودمشق وغير ذلك ، وكان قد ترشح أمره لقضـاء مصر — بل وكتابة السر — ولم يتم له ذلك .

وفيه توفى الطواشى عبـد اللطيف الرومى المنجكى مقـدم المماليك ، وكان لا بأس به بين الخدام .

***

وفى ربيـع الأول توفى القـاضى شهاب الدين أحمد بن محمد الزفتاوى الشافعى ، نائب الحكم بالديار المصرية ، وكان من أهل العلم والفضل ، ومولده سنة تسعين وسبعمائة .

وفيه عمل السلطان المولد الشريف على العادة ، وكان يوما حافلا .

وفيه خلع السـلطان على ولده المقر الشهابى أحمد وقرره أمير ركب المحـمل ، ورسم لزوجته خوند زينب وأولاده بأن يحجوا فى تلك السنة ، وشرع لهم فى عمل برك حافل ، وحجت صحبـة ولدها المقر الشهابى أحمد .

***

وفى ربيـع الآخر أعيد خاير بك القصروى الى ولاية القاهرة وصرف عنها على بن القيسى .

وفيه جاءت الأخبـار من المدينة الشريفة بأن شخصا من الأشراف يقال له الشريف برغوت تسلق الى سطح الحجرة النبوية الشريفة واختلس عدة قناديل ذهب وفضة ، فأخـذها وفر الى الينبع ، فقبض عليه بعد أيام وأخـذ ما معه من القناديل وسجن ، وكانت هذه الفعلة من أقبح الفعائل .

***

وفى جمادى الأولى خرجت التجـريدة المعينة الى ابن قرمان ، وكان باش العسكر خشقدم أمير سلاح ومعه جماعة من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشراوات ، ومن المماليك نحـو من أربعمائة مملوك ، وكان لخروجهم يوم مشهود .

وفيه أرسل السلطان زردخانة حافلة على يد نوكار الزردكاش بسبب العسكر المتوجه الى ابن قرمان ، وكان نوكار مريضا فخـرج غصبا على كره منه .

***

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار بوفاة نوكار الزردكاش ، مات بغزة ، وكان من مماليك الناصر فرج بن برقوق وكان لا بأس به . فلما مات خلع السلطان على سنقر الأشقر المعروف بقرقشبق ، وقرر فى الزردكاشية عوضا عن نوكار النـاصرى بحكم وفاته .

***

وفى رجب طفش جماعة من فرسان العـربان ركاب خيول ، وشرعوا يعرون الناس من الصحراء الى أن وصلوا الى رأس الصوة — وكان ذلك وقت القائلة — فخطفوا عمائم الفقهاء ، وسلبوا قماش الناس عنهم ، ولم يجـدوا من يردهم عن ذلك ، وكانت هـذه اباحة صعدت من أولئك العربان .

وفيه توفى قاضى قضـاة المالكية ولى الدين السنباطى ، وهو محمد بن عبد اللطيف بن اسحق ابن أحمد بن اسحق بن ابراهيم بن سليمان بن داود بن عتيق الأموى المالكى ، وكان عالما فاضلا من أعيـان المالكية ، ومولده سنة ست وثمانين وسبعمائة . فلما توفى وقع الكلام على من يلى قضاء المالكية ، فوقع الاختيار على ولاية السيد الشريف حسام الدين بن حرير ، فسعى فى ذلك بمال جزيل . وكان السـاعى له فى ولاية القضاء الجمالى يوسف ناظر الخـاص ، وكان يومئذ فى المالكية من هو أعلم منه ، ولكن ساعدته الأقدار

وولى قضاء المالكية وأقام بها مدة طويلة الى أن مات .

وفيه أدير المحمل على عادته ، ولكن حصل فيه من المماليك الجلبان غاية الضرر فى حق الناس ، من خطف النساء والصبيان ، وعظم الفساد ، وخطف عمائم الناس وغير ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بأن حسن بيك الطويل — صاحب ديار بكر — تحارب مع جهان شاه صاحب تبريز والعراقين ، فجرى بينهم من الحروب ما يطول شرحه ، وآل الأمر الى أن حسن الطويل قد انتصر على جهان شاه . فلما جاءت الأخبار بذلك سر السلطان بنصرة حسن الطويل على جهان شاه .

وفيه عاد قانى باى اليوسفى الذى كان توجه الى ابن عثمان ملك الروم وأخبر بأنه أكرمه غاية الاكرام .

* * *

وفى شعبان جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر الذى توجه من مصر صحبة الأمير خشقدم أمير سلاح دخل بلاد ابن قرمان ، وشن فيها الغارات ، وأخربوا غالب بلاده ، وقطعوا الأشجار التى بها ، وقتلوا جماعة كثيرة من عسكره . فلما بلغ السلطان ذلك سر به .

* * *

وفى رمضان أرسل السلطان جماعة من العسكر الى اللجون بسبب قطع الأخشاب على العادة ، وكان الباش على العسكر يشبك بن سليمان المعروف بالفقيه المؤيدى أحد الأمراء الطبلخانات يومئذ ، وهو الذى تولى الدوادارية الكبرى فيما بعد .

وفيه توفى عالم الحنفية وشيخهم بالديار المصرية الأستاذ الشيخ كمال الدين محمد بن الهمام الحنفى وهو محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود السيواسى المصرى الحنفى شيخ الشيوخ بالخانقاه الشيخونية ، وكان فريد عصره فى علماء الحنفية ، عالما عاملا فاضلا رحمة الله عليه . وكان مولده سنة تسع وثمانين وسبعمائة . وكان معظما عند الملوك وأرباب الدولة ... ولى مشيخة الأشرفية والشيخونية وغير ذلك من الوظائف السنية .

وفيه وصل سودون القصروى — أحد الدوادارية — وأخبر بنصرة العسكر المتوجه الى ابن قرمان ، وقد استولى العسكر على غالب بلاده وأخربها وأحرق أشجارها ، فلما تحقق السلطان أمر بضرب البشائر بسبب هذه النصرة ، فدقت الكئوسات بالقلعة ثلاثة أيام .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، ونزل المقر الشهابى أحمد ولد السلطان وفتح السد على العادة وكان يوما مشهودا ، ولكن كان فى شهر رمضان ، فقيل أفطر فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من العياق الأوباش ، وكان يوما شديد الحر .

وفيه عمل السلطان مسايرة حافلة ، وركب معه أرباب الدولة من المباشرين وغيرهم .

* * *

وفى شوال توفى الأمير جانى بك القرمانى حاجب الحجاب ، وكان لا بأس به ، وقد جاوز الثمانين سنة من العمر ، وكان لين الجانب متواضعا مات فى التجريدة التى أرسلت الى ابن قرمان .

وفيه وصل العسكر الذى توجه الى بلاد ابن قرمان ، ودخل باش العسكر الأمير خشقدم أمير سلاح ، وكان يوم دخولهم يوما مشهودا بالقاهرة ، ولكن حصل للعسكر بعد خروجهم من غزة وباء فمات منهم ما لا يحصى ، ودخل الباقون وهم متوعكون ، حتى الأمراء وأكثر الجند .

وفيه قرر فى تقدمة جانى بك القرمانى أبا يزيد التمربغاوى ، وقرر فى امرية أبى يزيد برسباى المؤيدى .

وفيه خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد ، وخرج ابن السلطان فى موكب حافل . وخرجت والدته خوند زينب فى محفة زركش هى وأولاده خوند زوجة الأمير برد بك ، وزوجة الأمير يونس البواب أمير دوادار كبير ، وخرج ولد السلطان سيدى محمد صحبة أخيه المقر الشهابى أحمد ، وكان لهم يوم مشهود .

وحج فى تلك السنة جماعة كثيرة من أعيان المباشرين ، منهم القاضى محب الدين بن الأشقر كاتب السر ، والقاضى علم الدين شاكر بن الجيعان وجماعة من أولاده ، والقاضى أبو بكر بن مزهر ناظر الاصطبل ، وغير ذلك من الأعيان .

وفيه حضر جانى بك نائب جدة ، وحضر صحبته زين الدين الاستادار ، وقد تقدم أن السلطان نفاه الى المدينة الشريفة ، ثم رضى عليه وأحضره الى القاهرة .

وفيه أنعم السلطان على جانى بك الاسماعيلى — المعروف بكوهية — بامرية عشرة .

وفيه خلع السلطان على برسباى البجاسى وقرر فى حجوبية الحجاب عوضا عن جانى بك القرمانى بحكم وفاته .

***

وفى ذى القعدة قدم قاصد صاحب بغداد بهدية للسلطان ومكاتبة أنه كسر الخارجى الذى يقال له المشعشع ، وقتل غالب عسكره ، وأن الحاج العراقى تجهز فى تلك السنة بعد ما كان له مدة وهو منقطع بسبب أمر المشعشع ، فأكرم السلطان ذلك القاصد وأقام أياما وسافر .

وفيه توفى الشيخ سراج الدين عمر الوردى الشافعى ، وكان من أهل العلم .

وفيه خلع السلطان على القاضى صلاح الدين المكينى وقرره فى الحسبة .

***

وفى ذى الحجة ثار المماليك الجلبان بالقلعة ، ومنعوا الأمراء من الطلوع الى القلعة ، وذلك بسبب زيادة رأس غنم فى كل سنة ، فشح السلطان فى ذلك ، ثم رسم لكل واحد بزيادة رأس غنم فى الأضحية وخمدت الفتنة قليلا .

وفيه ، فى ثامن عشريه ، قدم مبشر الحاج — وهو دمرداش الطويل — وأخبر بأن الحاج قاسى عطشة عظيمة فى أثناء الطريق ، ومات من الناس ما لا يحصى ، وأخبر بسلامة خوند وأولاد السلطان فضربت البشائر بالقلعة لهذا الخبر .

وفيه توفى أزبك الششمانى أحد الأمراء بمصر .

وفيه أخرج السلطان تقدمة طوخ بونى بازق بحكم عجزه عنها ، وكان مريضا ، وقرر فى تقدمته برسباى البجاسى . وقرر فى تقدمة برسباى البجاسى بيبرس خال الملك العزيز ، وقرر فى امرية مجلس جرباش المعروف بكرت عوضا عن طوخ بونى بازق وقرر يونس العلائى أمير آخور كبير عوضا عن جرباش كرت بحكم انتقاله الى امرية مجلس .

سنة اثنتين وستين وثمانمائة (١٤٥٧/١٤٥٨م) :

فيها ، فى المحرم ، أنعم السلطان على قايتباى المحمودى بامرية عشرة ، وكان أحد الدوادارية وقايتباى هذا هو الذى تسلطن فيما بعد ، وكان بين تأميره وسلطنته تسع سنين وبعض شهور .

وفيه قرر فى نيابة ملطية تغرى بردى .

وفيه توفى القاضى شهاب الدين السيرجى أحد نواب الحكم بالديار المصرية ، وكان من أهل العلم والفضل ، وكان مولده سنة ثمان وسبعين وثمانمائة

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، ووصل ابن السلطان ووالدته واخوته ، وكان لهم يوم مشهود وموكب حافل ، ولاقاهم الأمراء وأرباب الدولة من البويب ، ومشت الأمراء قدام محفة خوند حتى طلعت الى القلعة والأمراء مشاة قدامها من البويب ، ثم طلعت هى وأولادها وحمل الأمير فيروز الزمام على رأسها القبة والطير ، وفرشت لها الشقق الحرير من باب الستارة الى أن جلست على المرتبة بقاعة العواميد ، ونثر على رأسها خفايف الذهب والفضة ، ثم دخلت اليهم التقادم من الأمراء والمباشرين لخوند وأولادها . وكان ما أهداه الجمالى يوسف ناظر الخاص قندورة لخوند الكبرى مثلث ذهب ولؤلؤ وريش ، فكان مصروفها ما يزيد على اثنى عشر ألف دينار ، وهذا خارج عن بقية التقادم لها ولأولادها لكل منهم تقدمة على انفراده ، ولا سيما ما أهداه للمقر الشهابى أحمد ولد السلطان وأخيه الناصرى محمد ، حتى قيل انه صرف فى هذه الحركة نحو مائة ألف دينار ما بين تقادم وأسمطة وغير ذلك ، وهذا من ماله دون مال غيره . وأفعال ناظر الخاص يوسف فى أخباره تقارب أخبار جعفر البرمكى ، وهذا الأمر مشهور بين الناس .

وفيه وصلت تقدمة من عند قانى باى الحمزاوى نائب الشام ، ومن جملتها خيول نحو ثمانين فرسا ، أحدها مسروج بسرج بلور من نوادر السروج .

* * *

وفى صفر رسم السلطان باحضار أزبك بن ططخ الظاهرى — وكان مقيما بطالا — فلما طلع الى السلطان بالقلعة ألبسه سلاريا من ملابسه ونزل الى بيته ، فأنعم عليه بامرية عشرة .

وفيه مات الشيخ عبد الكريم — خليفة سيدى أحمد البدوى رحمة الله عليه — مات قتيلا ولا يعلم من قتله . وكان غير مشكور فى سيرته ، وولى خلافه سيدى أحمد البدوى مدة طويلة . فلما مات ولى بعده صبى من أقاربه اسمه عبد المجيد .

وفيه توفى القاضى علاء الدين على بن آقبرس التركى الأصل ، وكان عالما فاضلا على مذهب الشافعى . وكان رئيسا حشما ، ولى عدة وظائف سنية منها الحسبة ونظر الأوقاف وناب فى القضاء ، وكان من أعيان نواب الشافعية ، ومولده سنة احدى وثمانمائة .

* * *

وفى ربيع الأول نودى فى القاهرة بتسعير الذهب والفضة ، وضرب السلطان فضة جديدة . فسعر الدينار الذهب بثلثمائة ، والفضة الجديدة كل أشرفى بخمسة وعشرين ونصفا عددية جيدة من خالص الفضة ، وأبطل سائر المعاملات من تلك الفضه المغشوشة التى كان وصل الدينار منها الى أربعمائة وستين درهما ... فخسر الناس فى هذه الحركة ثلث أموالهم ، ولكن انصلح أمر المعاملة بعدما كانت فسدت ، ففرح طائفة من الناس بذلك واغتم آخرون . وكان القائم فى ذلك الجمالى يوسف ناظر الخاص ، فاضطربت الأحوال لذلك مدة ، ثم مشت تلك المعاملة الجديدة وسكن الاضطراب قليلا قليلا ، وصار كل من قبض عليه السلطان من الزغلية يوسطه أو يقطع يده ، فوقع الرعب فى قلوب الزغلية ، وكان ذلك سببا لاصلاح المعاملة ، وقد انصلحت بعد جهد كبير . وقال الشهابى المنصورى فيمن أهدى اليه دينارا عند المناداة على الذهب :

أمولاى قد آثرتنى متفضلا
وأهديت دينارا قد استغرق الوصفا

ولكنه قد خاف أمر مليكه
ألم تره من خوفه نقص النصفا

وفيه توفى الشيخ الصالح المسلك المعتقد سيدى مدين ، وكان من الأولياء وللناس فيه اعتقاد .

وفيه توفى الشيخ شهاب الدين أحمد بن مبارك شاه ، وهو أحمد بن محمد بن حسين بن ابراهيم بن سليمان القاهرى الحنفى . وكان عالما فاضلا شاعرا ماهرا وله نظم جيد ، وألف الكتب النفيسة فى الأدبيات وغير ذلك ، منها كتاب يقال له السفينة ، كله محاسن وفوائد ، ومولده سنة ست وثمانمائة . ومن شعره — عشرة مقابلة بعشرة — قوله :

فرع ، جبين ، محيا ، قامة ، كفل
صدغ ، فم ، وجنات ، ناظر ، ثغر
ليل ، هلال ، صباح ، بانة ، ونقا
آس ، أقاح ، شقيق ، نرجس ، درر

* * *

وفى ربيع الآخر توفى جانم البهلوان الأشرفى — أحد الأمراء العشراوات رءوس النوب — وكان رئيسا حشما شجاعا بطلا بارعا فى فنون الفروسية .

وفيه حصل للسلطان توعك فى جسده ثم شفى ، فضربت البشائر بالقلعة بسبب ذلك وبأبواب الأمراء .

وفيه توفى الأمير طوخ بن تمراز الناصرى المعروف ببونى بازق ، وكان أصله من مماليك الناصر فرج ابن الظاهر برقوق ، ومات بطالا بعدما كان أمير مجلس ، وكان كبر سنه وعجز عن الحركة .

وفيه توفى القاضى شهاب الدين أحمد المعروف بقرقماس ، وهو أحمد بن على بن محمد بن مكى ابن محمد بن عبيد بن عبد الرحيم الأنصارى الدماصى الحنفى . وكان عالما فاضلا ، وناب فى القضاء بخط بولاق . وكان مولده سنة تسعين وسبعمائة .

وفيه توفى سودون النوروزى نائب القلعة . فلما مات قرر بعده فى نيابة القلعة كمسباى السمين ، وقرر جانى بك كوهية أحد رءوس النوب عن كمسباى السمين .

وفيه توفى الناصرى محمد بن لاجين الجندى الحنفى ، وكان من أعيان الحنفية .

* * *

وفى جمادى الأولى خلع السلطان على الطواشى مرجان العادلى وقرره فى تقدمة المماليك .

وفيه قرر فى نظر الدولة منصور بن الصيفى ، وهذا أول ظهوره فى الرياسة .

وفيه توفى المغنى الأستاذ فى فن النشيد ، فريد عصره ووحيد دهره ، ناصر الدين محمد المازونى القاهرى . وكان بارعا فى فن الغناء ، وكان يضرب به المثل فى حسن النغم ومعرفة الفن ، ولم يجىء بعده من هو فى طبقته الى يومنا هذا . وقد رثاه الشهاب المنصورى بهذه الأبيات :

يا نزهة السمع سكنت الثرى
فللملاهى أيما لهفى
كم لطمة من قدم أو يد
فى خدى الدوكة والدف

وقوله أيضا :

كانت به لذاتنا موصولة
فانقطعت بموته اللذات
وكانت الأصوات تزهو بهجة
فارتفعت لموته الأصوات

وكان حصل للمازونى خلط فالج فأقام به مدة طويلة حتى مات ، فكان يقول : « ارحموا من سكت حسه ، وبطل نصفه » .

وفيه نزل السلطان من القلعة وصحبته الأمراء وأرباب الوظائف من الدولة ، فساروا الى نحو جزيرة أروى ثم توجه الى بولاق ، وكان له يوم مشهود . فلما شق من بولاق أمر بهدم ما كان بها

من الأخصاص — وكانت تضيق الطريق على السالك — فهدمت من يومها .

وفيه مات الشيخ شهاب الدين أحمد بن الأوجاقى الشافعى ، وكان عالما فاضلا ذكيا .

وفيه صرف القاضى صلاح الدين المكينى عن الحسبة ، وقرر بها قانى باى اليوسفى المهمندار ، وكان جماعة من الجلبان ثاروا على المحتسب فكان هذا سببا لصرفه عن الحسبة .

وفيه قدم قاصد من عند ابن قرمان وعلى يده مكاتبة يعتذر فيها عما حصل منه من الخروج عن الطاعة ، وأرسل يسأل السلطان فى العفو عنه والصلح معه ، فاجابه السلطان الى ذلك .

* * *

وفيها نزلت صاعقة عظيمة ببولاق حتى كادت تحرق عن آخرها ، وكان ذلك يوم الجمعة من شهر رجب . واستمر فى كل ليلة يحترق فى مصر والقاهرة حريق ، وأقام على ذلك نحو سنة حتى ضج الناس من ذلك .

سنة ثلاث وستين وثمانمائة (١٤٥٨/١٤٥٩ م) :

فيها توفى القاضى محب الدين بن الأشقر كاتب السر الشريف . فلما توفى خلع السلطان على القاضى محب الدين بن الشحنة ، واستقر به كاتب السر الشريف عوضا عن ابن الأشقر . وكانت وفاته فى رجب .

وفيها توفى الشيخ على العجمى المحتسب .

وفيها توفى قانباى الحمزاوى نائب الشام واستقر بها جانم الأشرفى .

وفيها ظهر فى السماء نجم له ذنب طويل نحو سبعة أذرع ، فكان يطلع من جهة الشرق ، ثم صار يظهر من جهة الغرب ، فأقام على ذلك مدة ثم اختفى .

ومن الحوادث فى أيامه أن حضر الى الأبواب الشريفة جاكم ابن ملك قبرس وطلب من السلطان نجدة ، فعين السلطان معه تجريدة ، وكان باش العسكر الأمير يونس الدوادار . ثم ان السلطان شرع فى عمارة مراكب أغربة بالجزيرة الوسطى . وكان الشاد على عمارة هذه الأغربة الأمير سنقر قرق شبق الزردكاش ، فحصل منه غاية الظلم لأرباب الغيطان بسبب الأخشاب . فلما كملت عمارة تلك الأغربة نزل السلطان بنفسه ، وكشف على عمارة الأغربة ، وكان له يوم مشهود ، ونزل من القلعة فى موكب عظيم ، وتوجه الى الجزيرة الوسطى فرموا قدامه الأغربة فىّ البحر — والنفط والطبل عمال — حتى انتهى ذلك ، ثم رجع الى القلعة . فلما خرجت التجريدة وتوجهوا الى بلاد الافرنج لم يحصل من العسكر الذى توجه نتيجة ، ورجع الأمير يونس الدوادار من التجريدة بسرعة وترك بقية العسكر فى قبرس ، ورجع الى القاهرة فما شكره أحد من العسكر على ذلك ، وبقى ممقوتا عندهم الى أن مات .

وفيها توفى الأمير يونس العلائى الناصرى أميرآخور كبير ، فخلع السلطان على الأمير برسباى البجاسى ، واستقر به أمير آخور كبير عوضا عن يونس العلائى ، وخلع على الأمير سودون قراقاش واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن برسباى البجاسى ، وأنعم على الأمير جانى بك نائب جدة بتقدمة ألف .

سنة اربع وستين وثمانمائة (١٤٥٩/١٤٦٠ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، وكان مبدؤه من الشام ، وكان طاعونا عظيما جدا مات فيه ثلث المماليك والأطفال والجوارى والعبيد والغرباء ، واستمر عمالا نحو خمسة أشهر . وكان الورد فى تلك السنة كثيرا ، فصاروا يعملون على التوابيت قواصير جريد يغرزون فيها الورد . وقد

انتهت الجنائز فى كل يوم الى اثنى عشر ألف جنازة . وقد قال القائل :

أسفى على سكان مصر اذ غدا
للطعن فيها ذات وخز سارى
الموت أرخص ما يكون بحبة
لكن هذا صار بالقنطار

وفيها توفى العلامة الشيخ جلال الدين المحلى الشافعى . وفيها توفى الزينى أبو الخير بن النحاس وفى هذه السنة كانت وفاة القاضى برهان الدين ابراهيم بن الجيعان كاتب الخزائن الشريفة ومستوفى ديوان الجيش .

سنة خمس وستين وثمانمائة (١٤٦٠/١٤٦١ م) :

فيها توجه الأتابكى أحمد ابن المقام الشريف الى السرحة ، فلما عاد زينت له القاهرة ، وكان يوم دخوله يوما مشهودا ، وطلع الى القلعة فى موكب عظيم .

وفيها توفى الناصر محمد بن أيتمش الخضيرى — ابن أخت خوند بنت خاصبك — توفى يوم دخول الأتابكى أحمد الى القاهرة ، فكدر عليهم ذلك اليوم .

واستمر الملك الأشرف اينال قائما فى ملكه وهو فى أرغد عيش ، وأولاده حوله ، وكان غالب الأمراء أصهاره ، والعسكر فى قبضة يده . واستمر على ذلك حتى مرض بألم الخصية ، وسلسل فى المرض حتى مات . وكانت وفاته يوم الخميس بعد العصر خامس عشر جمادى الأولى سنة خمس وستين وثمانمائة ، ودفن من يومه فى تربته التى أنشأها له القاضى ناظر الخاص يوسف بالقرب من تربة القاضى عبد الباسط التى فى الصحراء ، فكثر عليه الحزن والأسف كما قيل فى المعنى :

هى الدنيا اذا كملت وتم سرورها خذلت
وتفعل بالذين بقوا كما فيمن مضى فعلت

وتوفى الملك الأشرف اينال وله من العمر احدى وثمانون سنة . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ثمانى سنين وشهرين وستة أيام ، وخلف من الأولاد أربعة وهم : الأتابكى أحمد الذى تسلطن بعده ، والمقر الناصر محمد أخوه الصغير ، وابنته خوند بدرية زوجة برد بك ، وابنته خوند فاطمة زوجة يونس البواب الدوادار الكبير .

ولم يتزوج اينال غير أم أولاده خوند زينب بنت خاصبك .

ولما ثقل فى المرض عهد بالملك الى ولده الأتابكى أحمد ، فتسلطن ووالده فى قيد الحياة .

وكانت صفة الملك الأشرف اينال : طويل القامة ، أسمر اللون ، عربى الوجه ، خفيف العوارض ، وكان يعرف باينال الأجرود . وكان ملكا هينا لينا قليل الأذى ، ولولا جور مماليكه فى حق الناس لكان خيار ملوك الجراكسة . وكان كل من يقع له من الزغلية يوسطه وكانت أيامه كلها لهوا وانشراحا . وكان أميا لايقرأ ولايكتب ، فكانوا يخطون له على المراسيم حتى يمشى عليها بالقلم . وقيل انه فى مدة سلطنته لم يسفك دما قط بغير وجه شرعى ، فعد ذلك من النوادر .

ومن الحوادث فى أيامه أنه كان يقع بالقاهرة فى كل ليلة حريق فى عدة أماكن ، حتى ضج الناس من ذلك ، ولم يعلم سبب هذه النازلة ولا من كان يفعل ذلك . فاستمر الأمر على ذلك مدة ثم بطل .

وفى أيامه تحرك ابن قرمان على بلاد السلطان ، فأخرج اليه تجريدة — وكان باش العساكر المقر السيفى خشقدم أمير سلاح — فلما توجهوا الى بلاد ابن قرمان لم يقاتلهم ولم يقع بينهم قتال ، فرجع العسكر الى الديار المصرية وهم سالمون .

ومن الحوادث فى أيامه أن خوند زوجة

السلطان مرضت فنزلت الى بولاق وأقامت فى القطبية ، فنزل السلطان وسلم عليها فلما حصل لها الشفاء أحرقوا فى بولاق حراقة نفط ، فخرجت فى تلك الليلة البنت من خدرها بسبب الفرجة على ذلك ، وكانت من الليالى المعدودة فى القصف والفرجة .

وكانت دولة الملك الأشرف اينال تامة القواعد .

فأما أتابكيته فالمقر السيفى ثانى بك الظاهرى ، وولده المقر الشهابى أحمد .

وأما دواداريانه فالمقر السيفى يونس البواب صهره ، والأمير برد بك الدوادار الثانى مملوكه وصهره أيضا .

وأما قضاته الشافعية فالقاضى علم الدين صالح البلقينى وأما قضاته الحنفية فشيخ الاسلام سعد الدين الديرى وأما قضاته المالكية فالقاضى ولى الدين السنباطى ، ثم السيد الشريف حسام الدين بن حريز وأما قضاته الحنابلة فالقاضى عز الدين أحمد بن نصر الله الحنبلى

وكان الجمالى يوسف ناظر الخاص مدبر مملكته ، كما كان القاضى عبد الباسط فى دولة الأشرف برسباى .

وكان ينقاد الى الشريعة ، ويحب العلماء ، قليل العزل للقضاة وأرباب الوظائف .

وكان معظم مساويه مماليكه الجلبان . وبالجملة كان الأشرف اينال من خيار ملوك الجراكسة .

الملك المؤيد أبو الفتح العلائى الناصرى

هو الملك المؤيد أبو الفتح شهاب الدين أحمد ، ابن الملك الأشرف اينال العلائى الناصرى . وهو السابع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثالث عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد .

بويع بالسلطنة فى حياة والده . وكانت صفة مبايعته بالسلطنة أن أباه لما أشرف على الموت طلع الأمير برد بك — صهر السلطان — واجتمع بخوند زوجة السلطان ، وذكر لها أن الأحوال فاسدة ، والأمور فى اضطراب . ومن الرأى أن السلطان يعهد الى ولده بالسلطنة . فدخلت خوند على السلطان وذكرت له ذلك ، فأمر باحضار الخليفة والقضاة الأربعة ، فحضر الخليفة الجمالى يوسف، والقضاة الأربعة وهم : علم الدين صالح البلقينى الشافعى ، وسعد الدين الديرى الحنفى ، وحسام الدين بن حريز المالكى ، وعز الدين الحنبلى ، وحضر أرباب الدولة من أرباب الحل والعقد . فلما تكامل المجلس دخل بعض الشهود على السلطان ، وشهدوا عليه بخلع نفسه من السلطنة وتولية ولده .

ثم ان الخليفة بايع الأتابكى أحمد بن اينال بالسلطنة عوضا عن أبيه وتلقب بالملك المؤيد . فلما تمت له البيعة احضر له شعار الملك ، وهو العمامة السوداء والجبة والسيف البداوى ، وأفيض عليه الشعار ، وقدمت اليه فرس النوبة ، وركب من باب الدهيشة ، وحمل الأمير خشقدم أمير سلاح على رأسه القبة والطير ، وقد نرشح أمره لأن يلى الأتابكية

فلما ركب من الدهيشة مشت قدامه الأمراء قاطبة — والخليفة عن يمينه — حتى دخل القصر الكبير ، ونزل عن فرسه ، وجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض من كبير وصغير ، ودقّت له البشائر بالقلعة .

ثم نزل الوالى ونادى فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والدعاء للملك المؤيد ، فارتفعت الأصوات بالدعاء

وكان محبباً للناس ، قليل الأذى . ثم خلع على الخليفة والأمير خشقدم ، ونزلا الى دورهما .

وكان له من العمر لما تولى السلطنة نحو من ثمان وثلاثين سنة أو زيادة على ذلك . وكانت أمه خوند زينب بنت خاصبك . وكان كامل الهيبة ، حسن الشكل ، أبيض اللون ، مستدير اللحية ، أسود الشعر ، طويل القامة ، غليظ الجسد ... وكان كفئا للسلطنة ... ولكن لم يساعده الزمان ، وجنى عليه وخان ، كما قيل :

اذا طبع الزمان على اعوجاج
فلا تطمع لنفسك فى اعتدال

فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب وجلس على سرير الملك ، وقال فيه القائل :

بمهجتى أفدى مليكا غدا
مؤيدا بالنصر كالشمس
فلو تراه فوق كرسيه
لقلت هذا آية الكرسى

ثم أخذ فى تدبير ملكه ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى خشقدم الناصرى أمير سلاح ، فقرره فى الأتابكية عوضا عن نفسه ، وأخرج له مكتوبا باقطاعه الذى كان بيده . وخلع على جرباش المحمدى — المعروف بكرت — وقرره فى امرية سلاح . وخلع على قرقماس الجلب وقرره فى امرية مجلس عوضا عن جرباش كرت . وخلع على قانم التاجر وقرره رأس نوبة النوب عوضا عن قرقماس الجلب . وقرر فى تقدمة جرباش كرت بيبرس خال الملك العزيز . ثم شغرت تقدمة فأراد أن ينعم بها على صهره الأمير برد بك الدوادار الثانى ، فوقف اليه جانى بك الظريف وباس الأرض وطلب التقدمة التى شغرت ، فأبى السلطان من ذلك ، وحصل بين جانى بك الظريف وبين الأمير يونس الدوادار الكبير فى ذلك اليوم تشاجر بسبب ذلك ، ونزل جانى بك الظريف من عند السلطان غير راض ، وكان ذلك سببا فى سرعة زوال الملك المؤيد أحمد عن قريب .

ثم ان السلطان نادى فى الحوش للعسكر بأن نفقة البيعة فى يوم الثلاثاء عشرى هذا الشهر لكل مملوك عشرون دينارا ، فسر الجند بذلك وارتفعت له الأصوات بالدعاء ... هذا كله جرى ووالده الأشرف فى قيد الحياة ، الى أن مات فى يوم الخميس بعد العصر . وذلك فى خامس عشر جمادى الأولى من تلك السنة . فلما مات شرعوا فى تجهيزه ، وأخرجوه عند باب الستارة ، وصلى عليه الخليفة وولده الملك المؤيد أحمد ، ثم نزلت جنازته من سلم المدرج وتوجهوا به الى تربته التى أنشأها بالصحراء كما تقدم .

ثم ان السلطان بعث نفقات الأمراء فحمل للأتابكى خشقدم أربعة آلاف دينار ، ولأرباب الوظائف من الأمراء والمقدمين لكل واحد منهم ألفان وخمسمائة دينار ، ولبقية المقدمين لكل منهم ألفا دينار ، وحمل للأمراء الطبلخانات لكل واحد منهم خمسمائة دينار ، وحمل للأمراء العشراوات لكل واحد منهم مائتا دينار

ثم أنفق على الجند — على العادة القديمة — من مائة دينار الى ما دون ذلك الى عشرة دنانير .

ثم أنعم السلطان على يشبك البجاسى الأشرفى ، ويشبك هذا كان من مماليك الأشرف اينال ، وكان فى أيام أستاذه مقدم ألف بحلب ، ثم حضر الى القاهرة فبقى مقدم ألف بمصر .

* * *

وفى جمادى الآخرة عين السلطان جماعة من خواصه من الأمراء والخاصكية بالتوجه الى البلاد الشامية وغيرها ببشارة السلطنة الى النواب وغيرهم .

وفيه جاءت الأخبار من قبرس بأن جانى بك الأبلق — الذى كان مقيما بقبرس مع جماعة من المماليك السلطانية — أرسل يخبر بأن أخت جاكم صاحب قبرس فرت الى رودس لتستنجد بصاحبها ليمدها بعسكر حتى تحارب أخاها وتأخذ منه مدينة شيرينه ، فأرسل جانى بك الأبلق يستحث السلطان فى ارسال تجريدة تنجده سريعا ، وكان يظن أن الأشرف اينال فى قيد الحياة .

وفيه خلع السلطان على مجد الدين بن البقرى وقرره فى الاستادارية عوضا عن منصور بن الصفى بحكم صرفه عنها ، وهذه أول ولاية مجد الدين للوظائف السنية .

وفيه توفى الطواشى مرجان العادلى مقدم المماليك ، وكان حبشى الجنس ، وكان عنده شدة بأس وعسوفة زائدة ، فلما مات قرر فى تقدمته جوهر النوروزى .

وفيه توفى جسيل بن أحمد بن عميرة شيخ العرب بالكفور بالغربية ، وكان ظالما عسوفا ، وكان فى سعة من المال وهو بخيل جدا .

وفيه توفى الصاحب سعد الدين فرج ابن ماجد النحال . وكان أصله من الأقباط ، ولى عدة وظائف سنية منها الوزارة والاستادارية غير ما مرة ، وولى أيضا كتابة المماليك وغير ذلك من الوظائف . وكان رئيسا حشما دينا خيرا مشكورا فى مباشرته ، وكان عنده حدة مزاج فى ذاته ، ومولده فى سنة احدى وثمانمائة .

وفيه كان قراءة تقليد السلطان بالقصر الكبير . وحضر الخليفة والقضاة الأربعة وأرباب الدولة ، وجلس القاضى كاتب السر محب الدين بن الشحنة على كرسى وقرأ التقليد على العادة . ثم ان السلطان خلع على الخليفة والقضاة الأربعة ونزلوا من القلعة فى موكب حافل .

وفيه ثارت عربان لبيد ، ووصلوا الى البحيرة ، وشنوا بها الغارات ، ونهبوا الغلال . فلما بلغ السلطان ذلك بادر وأرسل خلفهم تجريدة ولم يرسل من المماليك الجلبان أحدا ، فعز ذلك على المماليك القرانصة وأضمروا له السوء .

***

وفى رجب ظهر فى القاهرة وضواحيها الأمن والعدل والرخاء ، وأحب الرعية السلطان حبا شديدا ، ومالت اليه النفوس قاطبة كما قيل :

دولته للأنام عيد	باق وأيامه مواسم
قد أظهر العدل فى الرعايا	وأبطل الجور والمظالم
وصير الشاة فى حماه	تمشى مع الذئب والضياغم
لو نطقت مصرنا لقالت	يا ملك العصر والأقالم
ملأ قلب الملوك رعبا	أغنى عن السمر والصوارم

وفيه هجم المنسر على المتفرجين بجزيرة بولاق ، وكان فى الظلمة نصف الليل ، فنهبوا من الناس شيئا كثيرا ، وكان الناس قد خرجوا عن الحد فى الفتك والقصف بسبب الفرجة ، ونصبوا هناك الخيام حتى سدوا رؤية البحر ، وصاروا يقيمون فى الرمل ليلا ونهارا من نساء ورجال وهم فى غاية التزخرف ، فهجم عليهم المنسر على حين غفلة ونهب ما قدر عليه ، ولم ينتطح فى ذلك شاتان .

وفيه قدم الأشرفى الذى كان دوادارا ثانيا بمصر ونفى فى دولة الأشرف اينال ، فلما مات اينال قدم الى القاهرة من غير اذن السلطان . فلما حضر نزل عند الأتابكى خشقدم . فلما بلغ السلطان ذلك شق عليه وأمر باخراجه من حيث جاء ، فخرج من يومه ، وأمر بسجنه ، فشفع فيه بعض الأمراء ، فأنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بدمشق ، وألبسه كاملية سمور ، وخرج من مصر سريعا ، فشق ذلك على جماعة الأشرفية ، وكثر القيل والقال بين الناس ، ولهجوا بوقوع فتنة عن قريب .

وفيه وصل الطواشى شاهين غزالى الذى توجه

الى دمشق لضبط تركة زوجة قانى بك الحمزاوى نائب الشام . واشتملت تركتها على أشياء غريبة من تحف ومعادن نفيسة وأقمشة مثمنة وأوانى فضة وبلور مما لا يسمع بمثله ، فكان هذا الموجود أعظم من موجود الخوندات ، فأمر السلطان ببيعه فى كل يوم ثلاثاء ، فأقاموا نحوا من شهر وهم يبيعون فى ذلك الموجود .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه نحو القرافة وعاد سريعا ، وهذا أول ركوبه فى السلطنة ... وكان آخر ركوبه .

وفيه أمطرت السماء بردا كبارا كل حصوة قدر بيضة الحمامة ، وكان غالب ذلك ببلاد الشرقية ، وتلف بها أكثر الزرع وهلك بها بعض بهائم .

وفيه توفى الأمير فيروز الزمام الخازندار الكبير ، وكان أصله من خدام فيروز الحافظى . وكان رئيسا حشما ، وولى عدة وظائف منها الزمامية والخازندارية الكبرى وغير ذلك من الوظائف . وكان سيىء الأخلاق حاد المزاج ، وكان فى سعة من المال ، ووجد له من الأصناف والمال ما يزيد على مائة ألف دينار . قيل ابتيع له حاصل فيه فحم بألف دينار . ومات وله من العمر مايزيد على ثمانين سنة ، ولم يجىء بعده مثله من الخدام .

* * *

وفى رمضان أشيع بين الناس أن السلطان عول على امساك جماعة من الأمراء الأشرفية . ثم انه أمر نقيب الجيش بأن يدور على الأمراء ويأمرهم بالصعود الى القلعة وما عرف السبب لذلك ، فأخذوا حذرهم وباتوا على وجل ، ولم يطلع اليه أحد .

فلما كان ليلة السبت سابع عشر رمضان وثب جماعة من المماليك الأشرفية والظاهرية ، واستمالوا معهم غالب المماليك الاينالية ، ولعبوا بهم وأفسدوا عقولهم ، وضحكوا عليهم ، فلبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة . فلما عظم الأمر نزل السلطان الى باب السلسلة وجلس بالمقعد المطل على الرميلة ، فاشتد الحر فى ذلك اليوم ، واستمروا على ذلك حتى حال بينهما الليل .

فلما أصبح يوم الأحد ثامن عشر رمضان نزل السلطان الى المقعد المطل على الرميلة وثبت للقتال ، فلما رأى مماليك أبيه قد وثبوا عليه تحقق أنه مكسور لا محالة ، فكان كما قيل :

كنت من كربتى أفر اليهم

فهمو كربتى فأين المفر ؟

ثم كانت الكسرة على أحمد ، فطلع من باب السلسلة وتوجه الى قاعة البحرة ، ثم طلب أخاه الناصرى محمدا وأمرهم أن يغلقوا عليهما الباب . فلما بلغ العسكر أن الملك المؤيد قد اختفى توجهوا الى بيت الأتابكى خشقدم ، فأركبوه غصبا حتى طلعوا الى باب السلسلة . وحضر الخليفة والقضاة الأربعة ، فخلعوا الملك المؤيد أحمد من السلطنة وبايعوا الأتابكى خشقدم ، فكانت مدة الملك المؤيد فى السلطنة أربعة أشهر وثلاثة أيام .

وكان المماليك كاتبوا جانم نائب الشام أن يحضر الى مصر ليلى السلطنة ، وأرسلوا اليه صورة حلف ، وكتب فيه الأمراء الأشرفية خطوط أيديهم بأنهم ارتضوا بجانم أن يكون هو السلطان عليهم ، وأرسلوا يستحثوله فى الحضور فأبطأ عليهم ، فما صبروا الى أن يحضر ، فوثبوا على المؤيد فى رمضان وحاربوه ثلاثة أيام ، فلما انكسر التفوا على الأتابكى خشقدم وولوه السلطنة عارية الى أن يحضر جانم نائب الشام ، فصار الهزل جدا وكان كما قيل فى المعنى :

وان صبابتى كانت مزاحا

فصيرها الهوى حقا يقينا

وكان الملك المؤيد أحمد كفئا للسلطنة ، ذا

عقل ورأى ، كامل الهيبة ، ساس الناس فى أيامه أحسن سياسة ، وقمع مماليك أبيه عما كانوا يفعلونه من تلك الأفعال الشنيعة . وكان بصيرا بمصالح الرعية ، ولو أقام فى السلطنة لحصل للناس به غاية النفع ... ولكن خانه الزمان ، وأخذ من حيث كان يرجو الأمان ، كما قيل :

واذا جفاك الدهر ـ وهو أبو الورى
طـرا ـ فـلا تعتب على أولاده

الملك الظاهر أبو سعيد

هو الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم الناصرى المؤيدى ، وهو الثامن والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو أول ملوك الروم بمصر ... ان لم يكن أيبك التركمانى من الروم ، ولا لاجين من الروم ، فخشقدم أول ملوك الروم بمصر .

وكان الظاهر خشقدم أصله رومى الجنس ، جلبه الخواجا ناصر الدين ـ وبه يعرف بالناصرى ـ فاشتراه منه الملك المؤيد شيخ ثم أعتقه ، وأخرج له خيلا وقماشا وصار جمدارا ، ثم بقى خاصكيا فى دولة الملك المظفر أحمد ابن الملك المؤيد شيخ . ودام على ذلك دهرا طويلا الى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق فأنعم عليه بامرية عشرة ، وذلك فى سنة ست وأربعين وثمانمائة (١٤٤٢/ ١٤٤٣ م) ، وصار رأس نوبة . واستمر على ذلك الى سنة خمسين وثمانمائة (١٤٤٦ م) ، فأنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بدمشق ، فتوجه اليها ودام بدمشق الى أن تغير خاطر السلطان على الأمير قانى بك الظاهرى حاجب الحجاب بسبب عبد قاسم الكاشف الذى كان قد اشتهر بالصلاح ، فعند ذلك نفى السلطان الأمير قانى بك الى ثغر دمياط .

فلما جرى ذلك سعى القاضى أبو الخير ابن النحاس وكيل بيت المال ـ هو والأمير تمربغا الدوادار الثانى ـ للأمير خشقدم ، فأحضره السلطان من دمشق ، وأنعم عليه باقطاع الأمير قانى بك حاجب الحجاب ، وذلك فى صفر سنة أربع وخمسين وثمانمائة ، فأقام على ذلك الى أن مات الملك الظاهر جقمق وتسلطن الملك الأشرف اينال ، فبقى الأمير خشقدم أمير سلاح فى دولة الأشرف اينال ، وسافر فى أيامه باش العسكر فى التجريدة التى توجهت الى حلب بسبب ابن قرمان .

فلما رجع من التجريدة أقام أمير سلاح الى أن توفى الملك الأشرف اينال وتسلطن ولده الملك المؤيد أحمد ، فاستقر بالأمير خشقدم أتابك العساكر عوضا عن نفسه ، وذلك فى سنة خمس وستين وثمانمائة .

فلما وثب المماليك على الملك المؤيد فى شهر رمضان ـ كما تقدم ذكر ذلك ـ اتفق رأى الأمراء على سلطنة الأتابكى خشقدم الى أن يحضر المقر السيفى جانم نائب الشام فيسلطنوه . فلما أبطأ عليهم الأمير جانم سلطنوا الأتابكى خشقدم نيابة عن جانم ، فكانت سلطنة خشقدم فلتة كما قيل فى المعنى :

وان صبابتى كانت مزاحا
فصيرها الهوى حقا يقينا

وكانت سلطنة الأتابكى خشقدم فى يوم السبت سابع عشر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة (١٤٦٠/١٤٦١ م) ، فصلى الظهر وجلس فى المقعد الذى فى باب السلسلة ، وحضر الخليفة والقضاة الأربعة وهم على الوصف المقدم ذكره ، فخلعوا الملك المؤيد أحمد من السلطنة وبايعوا الأتابكى خشقدم ، فأحضروا له خلعة السلطنة فلبسها من المقعد الذى فى باب السلسلة ، وركب من هناك فرس النوبة وطلع الى باب القصر الكبير ، وحمل

على رأسه القبة والطير المقر السيفى جرباش كرت أمير سلاح .

فلما جلس على سرير الملك باس له الأمـــراء الأرض وتلقب بالملك الظاهر ، ودقت له البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالأدعية الفاخرة .

ثم انه أرسل قيد الملك المؤيد وأخاه فى البحرة . ثم نزل بهما وقت الظهر من القلعة وخلفهما أوجاقية بخناجـر وأرسلهما الى السجن بثغر مدينـــة الاســكندرية وأرسل معهما الأمير قراجا الطويل الاينالى . وكان المتسفر عليهما الأمير خـير بك المصـــارع ، فتوجه بهـــا الى ثغر الاســكندرية وسجنهما بها .

ثم ان السلطان رسم على خوند الخاصبكية ـــ أم الملك المؤيد ـــ وجعـل عليها عشرة من الخدام ، منهم خشقدم اللالا ، فصار يقسو عليها ثم انه أخذ للسلطان من خوند المذكورة جمـــلة كثيرة من المال نحو مائة ألف دينار .

ثم أنه فى أواخر شهر رمضان توفى الأمير يونس البواب الدوادار الكبير ـــ وكان صـــهر الملك الأشرف اينال ـــ فكثر عليه الحزن والأسف .

ثم ان السلطان عمل الموكب فى القصر الكبير ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى جرباش المحمدى المعروف بكرت ، فخلع عليـــه واستقر به أتابك العساكر عوضا عن نفسه . وخلع على المقر السيفى قرقماس الجلب واستقر به أمير سلاح عوضا عن جرباش . وخلع على المقرالسيفى قانم التاجر المؤيدى واستقر به أمير مجلس . وخلع على المقر السيفى بلباى المؤيدى واستقر به حاجب الحجاب . وخلع على المقر السيفى جانى بك نائب جدة واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن الأمـــير يونس البواب بحكم وفاته كما تقدم . ثم انه نقل المقر السيفى برد بك الجمقدار واستقر به حاجب الحجاب . وخلع على المقر السيفى يبرس خال العزيز واستقر به رأس نوبة النوب ، ثم خلفه تمر بغا لما جاء من مكة حين أمسك الأمير يبرس ونفى كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه . وكان تمربغا بمكة ، فلما حضر لمصر استقر به رأس نوبة النوب . وخلع على المقر السيفى جانى بك الظريف واستقر به دوادارا ثانيا وأنعم عليـــه بتقدمه ألفمع الدوادارية . وخلع على المقر السيفى جانى بك الأشرفى ، واستقر به شاد الشربخاناه ، وأنعم عليه بتقدمة ألف مع الشادية . وخلع على الأمير اينال الأشقر ، واستقر به والى القاهرة . وخلع على الأمير تنم رصاص واستقر به محتسب القـــاهرة . وأنعم على جماعة كثيرة من الأمـــراء الأشرفيـــة بامريات عشرة ... ولم تـــكن ولاية هؤلاء الأمراء فى موكب واحد بل كانت فى مواكب متعددة حسبما يأتى ذكر ذلك فى موضعه .

ثم ان الأمير جانى بك نائب جدة قرب جماعة من الاينالية ولم يمكن السلطان من التشويش عليهم ـــ منهم : أزدمر الطويل ، وثانى بك قرا ، وجانى بك الخشن ، وشاد بك أبانطة ، وقانصوه المؤيدى ، وغير ذلك من الاينالية جماعة كثيرة ـــ ـــ فصار هؤلاء من عصبة جانى بك نائب جدة . وكان متخيلا من جماعة الأشرفية والمـــؤيدية ، فقويت شوكته ، وتعصبت له الاينالية واجتمعت فيه الكلمة وصار صاحب الحل والعقد فى تلك الأيام ، والسلطان خشقدم فى قبضة يده يدوره كيف شاء .

وكان السلطان خشقدم متخيلا أيضا باطنـــا وظاهرا ، فلم يزل الملك الظاهر خشقدم ينسبل الى جانى بك نائب جدة ويداريه حتى انتهز الفرصة فى قتله وقتله كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ،

فكان لسان حال جانى بك نائب جدة يقول :

لا تأمنن عـــدوا ولو دنا للمنيـــة
فحيـــة السم تدعى فى حالة الموت حية

ثم ان الملك الظاهر خشقدم آنفق على العسكر نفقة كاملة ، وفرق الاقطاعات الثقال على المماليك وأرضى جميع الجند بكل ما يمكن ، فاستفامت أحواله فى السلطنة ، وزال عنه الشك .

فلما كان يوم التاسع والعشرين من شهر رمضان من السنة المـذكورة ، جاءت الأخبـــار بأن المقــر السيفى جانم نائب الشام فد وصـــل الى خانقاه سرياقوس ، وقد تقدم أن الأمراء الأشرفية أرسلوا كاتبوه بأن يحضر الى القاهرة بسرعة حتى يسلطنوه عوضـا عن الملك المؤيد أحمـــد ابن الأشرف اينال . فلما أبطأ عليهم وثبوا على الملك المؤيد وخلعوه من الســـلطنة ، وولوا الأتابكى خشقدم سلطانا ، واســـتقر المقر السيفى جرباش كرت أتابك العسكر بمصر فلما حضر جانم من الشام وجد القاعدة قد انخرمت ، والوظائف قد انقسمت ، وفاته الشنب ، وعز الطلب ، فكان كما قيل فى المعنى :

وثب الثعلب يوما وثبـــة
شغفا منه بعنقـــود العنب
لم ينله ، قال : هذا حامص
حصرم ليس لنـا فيــه آرب

فلما بلغ الظاهر خشقدم حضور جانم بك نائب الشـــام اضطربت أحـــواله ، وتزايدت أوجاله ، فاجتمع بالأمراء وضربوا فى ذلك مشورة ، فوقع الاتفاق بأن جانم يرجع الى الشام ولا يدخل الى مصر ، وأن يكون نائب الشام على عادته . فتوجه اليه الصاحب علاء الدين بن الأهناسى وصحبته خلعة الى الأمير جانم بأن يكون نائبا على عادته ، فتوجه اليه فى ليلة عيد الفطر ، ومد له فى الخانقاه يوم العيد مدة عظيمة ، ولم يمكن السلطان أحدا من الأمراء المقدمين بأن يتوجه اليه ، فتوجه اليه بعض أمراء عشراوات من الأشرفيـــة منهم تمراز الشمسى وغير ذلك .

ثم ان السلطان أرسل الى الأمير جانم عشرة آلاف دينار ، وأنعم عليه بيرك الأمـــير يونس الدوادار جميعه ، وصار يرضيه بكل ما يمكن ، فرجع الأمير جانم الى الشام وهو بخفى حنين . وكان ذلك ترتيبا من الأمير جانى بك نائب جدة فانه كان كثير الحل والخداع .

فلما رجع الأمير جانم الى الشام أرسل السلطان الى نائب قلعة الشام مراسيم فى الدس بأن يقبض على جانم نائب الشام ، فرمى عليه بالمدافع وهو جالس فى دار السعادة ، فهرب وقام من وقته وأخذ عياله وأولاده وخرج من الشام هاربا . فلما خرج نهبوا دار السعادة وأخذوا جميع بركه وقماشه . فلما خرج من الشام توجه الى نحو مدينة الرها واستمر فى هجاج وعصيان فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بذلك عين له السلطان تجريدة وعين الأمير جانى بك نائب جدة أمير العسكر ، فأخذ فى أسباب ذلك .

ثم ان السلطان خلع على خشداشـيه المقـــر السيفى تنم المؤيدى واستقر به نائب الشام عوضا عن جانم الأشرفى لما تسحب من الشـــام ، فأقام الأمير تنم فى نيابة الشام الى أن مات هناك ودفن بالشام ، والله سبحانه وتعالى أعلم

سنة ست وستين وثمانمائة (١٤٦١/١٤٦٢ م) :

فيها عمل السلطات الموكب فى القصر الكبير . فلما طلع الأمراء واجتمعوا بالقصر عول فى تلك الليلة على مسك جماعة من الأمراء الأشرفية . فلما كان بعد العشاء غلقوا أبواب القلعة ، ودخل على الأمراء وهم فى القصر جماعة من المماليك

الظاهرية وهم لابسون الزرديات والخود ، وبأيديهم سيوف مسلولة ، ومع بعضهم قسى ونشاب ، فقبضوا على الأمير جانى بك الظريف ، والأمير جانى بك المشد ، والأمير بيبرس خال العزيز ، وغيرهم من الأمراء الأشرفية نحو من اثنى عشر انسانا . فلما قبضوا عليهم قيدوا الأمراء المقدمين ونزلوا بهم من القلعة ، وهم : الأمير جانى بك الظريف ، والأمير بيبرس خال العزيز ، والأمير جانى بك المشد ، وغير ذلك من الأمراء العشراوات فلما نزلوا بهم توجهوا بهم الى السجن بثغر الاسكندرية .

فلما جرى ذلك وثب جماعة الأشرفية على الملك الظاهر خشقدم ، ولبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة ، فنزل اليهم جماعة من المماليك الظاهرية فوقعوا معهم .

ثم ان المماليك الأشرفية توجهوا الى الأتابكى جرباش كرت — وكان فى تربة الظاهر برقوق بسبب موت ابنته التى ماتت نفساء ، وهى زوجة الأمير أقبردى اليوسفى — فلما توجهوا اليه اختفى الأمير جرباش منهم فى فسقية الموتى ولم يقابلهم ، فلم يزالوا عليه حتى طلعوا به من فسقية الموتى ، وسلوا عليه السيوف وأركبوه غصبا ، وشالوا على رأسه صنجقا ، ودخلوا به من باب النصر وشقوا به من القاهرة ولقبوه بالملك الناصر فصار العوام يضجون له بالدعاء ، حتى وصل الى البيت الكبير الذى عند حدرة البقر ، فأقام هناك . ثم ان الأشرفية قاتلوا قتالا هينا وكان رأس هذه الفتنة الأمير سنقر قرق شبق الزردكاش وكان من شرار جماعة الأشرفية ، فلم يطبوا طبة ، وصارت أحوالهم سبة .

ثم ان الملك الظاهر خشقدم أرسل الى الأتابكى جرباش بعض الخاصكية فتلطف به وأخذه وطلع به الى القلعة ، فلما طلع تحيل عليه الأمير جانى بك نائب جدة وقال : « خشكلدى ملك ناصر » ... فلم يرد عليه جوابا . فلما طلع الأتابكى جرباش الى القلعة نزل المماليك الظاهرية ، وأوقعوا مع المماليك الأشرفية واقعة قوية ، فلم تكن الا ساعة غير بطية ، حتى انكسر المماليك الأشرفية كسرة قوية ، وأحاطت بهم كل رزية ، فولوا مدبرين ، ورجعوا خائبين ... فعند ذلك توجه جماعة من المماليك الظاهرية الى بيت الأمير سنقر الزردكاش ونهبوا ما فيه وأحرقوه ، ثم قبضوا على الأمير سنقر الزردكاش وعلى جماعة كثيرة من الأشرفية ونفوهم فى أماكن شتى ، وخمدت هذه الفتنة كأنها لم تكن .

ثم ان السلطان قبض على جماعة من الاينالية ونفاهم ، ثم نفى الأمير برد بك — صهر الملك الاشرف اينال — الى مكة .

وفيها خلع السلطان على خشداشيه الأمير جانى بك كوهيه ، واستقر به دوادارا ثانيا عوضا عن الأمير جانى بك الظريف .

وفيها خلع السلطان على الأمير اينال الأشقر والى القاهرة ثم استقر به نائب ملطية . وخلع على الأمير تمر الظاهرى واستقر به والى القاهرة عوضا عن اينال الأشقر .

وفيها عزل السلطان ناظر الخاص عبد الرحمن ابن الكويز واستقر بالقاضى شرف الدين الأنصارى ناظر الخواص الشريفة عوضا عن عبد الرحمن بن الكويز .

وفيها فصل السلطان قاضى القضاة علم الدين صالح من القضاء ، وأعاد القاضى شرف الدين يحيى المناوى . وقيل بل عزل القاضى علم الدين وتولى المناوى فى دولة المؤيد أحمد بن اينال ، وهذه

ثالثـة ولاية للمنـاوى . وكذلك فصـل القاضى سعد الدين الديرى من القضاء وولى ابن الصواف عوضا عنه .

وفيها عزل السلطان الصاحب علاء الدين بن الأهناسى ، وخلع على الصاحب بن الصنيعة واستقر به وزيرا .

وفيها عزل السلطان الأمـير زين الدين يحيى الاستادار وولى مجد الدين بن البقرى استادارا عوضا عنه

ومن الحوادث فى هذه السنة أن النيل المبارك توقف فى أبيب عند مبتدأ الزيادة ، وأقام فى ذلك التوقف نحو خمسة عشر يوما ولم يزد شيئا ، فضـج النـاس من ذلك ، وتشـحطت الغـلال ، وشطح سعر القمح الى ألف درهم كل أردب ، وحصل للنـاس الضرر الشامل لقلة الزيادة وقد دخلت مسرى ، وقد قيل فى المعنى :

ولقد عهـدت النيل سـنيا يرى
عمـرا ويتبع أمـره تسـديدا
والآن أضحى فى الورى متشيعا
متوقفـا ما ان يحب يزيدا

فلمـا استقر الأمر على ذلك رسم السلطان للقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهـوا الى المقياس ، ويبيتوا به ويتلوا هناك القـرآن والحديث الشريف ويدعوا الله تعالى بزيادة النيل . فتوجه القاضى يحيى المناوى والسيد الشريف، ابن حريز المالكى وجماعة من العلماء فأقاموا فى المقياس أياما ورجعوا ولم يزد النيل شيئا فأرسل السلطان الى الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائى يستفتيه فى ذلك فقال الشيخ أمين الدين . « اجمعوا بنى العباس من الرجال والنساء ، من صغارهم لكبارهم ثم يضعون فى أفواههم شيئا من الماء ويمجونه فى اناء ثم يصبونه فى فسـقية المقياس » ... ففعلوا ذلك فكانت فيه البركة [1] .

ثم ان القاضى علم الدين صالحا البلقينى توجه الى المقياس وأقام هناك ثلاثة أيام ، ففى اليـوم الرابع زاد ثلاث أصـابع ، ففـرح الناس بذلك ، ورجع القاضى علم الدين وشق من القاهرة وقدامه رايات زعفران ، وانطلقت له النســاء بالزغاريت من الطيقـان ، ثم وفى النيل فى تلك السنة وثبت ثباتا عظيما الى أواخر توت ، وتوجه المقر السيفى قانم التاجر وكسر السد ، وقد قال القائل :

سد الخليج بكسره جبر الورى
طـرا ، فكل قد غدا مسرورا
البحر سلطان ، فكيف تواترت
عنه البشـائر اذ غـدا مكسورا

ثم فى عقيب ذلك عزل السـلطان القاضى يحيى المناوى وأعاد القاضى علم الدين صالحا البلقينى .

سنة سبع وستين وثمانمائة (١٤٦٢/١٤٦٣ م) :

فيها جاءت الأخبـار من حلب بأن جانم نائب الشام قد قتل ، وقيل ان مماليكه قد قتلوه وهو فى قلعة الرها . فلما صح هذا الخبر دقت الكئوسات ثلاثة أيام ، وبطلت التجريدة التى كانت تعينت اليه.

ثم ان السلطان أرسل قبض على الأمير تمراز الأشرفى وسجنه بالمرقب ، وأشيع عنه أنه قتل قتيلا فأثبت عليه السلطان كفرا وأرسل اليه شخصا من المالكية يقـال له الشـارعى فضرب عنقه على باب السـجن الذى بالمرقب . وكان تمراز هـذا سيىء الخلق مر اللسان مستحقا لكل سوء ، وكان منفيا فى البلاد الشامية من أول دولة الملك الأشرف اينال ، وآخر الأمر قتل هناك ومضى أمره .

وفيها أرسل السلطان تجريدة الى نحو بلاد

(١) تأمل غفلة الاجداد .. وقاك الله شر الغفلة .

الافرنج برودس ، وكان باش العسكر الأمير برد بك البجمقدار .

وفيها كسفت الشمس كسوفا فاحشا من بعد الضحى الى قرب العصر ، حتى أظلمت الدنيا فى أعين الناس .

وفيها خلع السلطان على القاضى برهان الدين ابراهيم بن الديرى واستقر به كاتب السر الشريف عوضا عن القاضى محب الدين بن الشحنة ، واستقر القاضى محب الدين بن الشحنة قاضى قضاة الحنفية عوضا عن ابن الصواف .

وفيها توفيت والدة المقر الشهابى أحمد بن العينى ، وكانت وفاتها فى يوم السبت ، فتوجه معها الى التربة الأمير جانى بك نائب جدة ، والقاضى كاتب السر ابراهيم بن الديرى . فلما رجعوا من التربة خلط ابن الديرى مع الأمير جانى بك فى الكلام ، فقال لجانى بك ان هذه الميتة نزلت من القلعة فى يوم السبت ولا بد أن يعقبها أحد كبير وأظنه السلطان ، فأخذ جانى بك منه الكلام ونقله للسلطان ، فتغير خاطر السلطان على ابن الديرى ، فلما طلع الموكب قال له : « ياقاضى ، فى أى حديث ورد أن الميت اذا خرج فى يوم السبت لابد أن يتبعه أحد كبير ؟ » . ثم قال له : « الزم بيتك » ... فكان كما قيل :

العقل زين والسكوت سلامة
فاذا نطقت فلا تكن مكثارا
فلئن ندمت على سكوتى مرة
فلقد ندمت على الكلام مرارا

ثم ان السلطان عزل ابراهيم بن الديرى من كتابة السر بسبب ذلك ، وخلع على القاضى زين الدين أبى بكر بن مزهر ، واستقر به كاتب السر الشريف عوضا عن ابن الديرى ، فكانت مدة ولاية القاضى برهان الدين بن الديرى دون الشهرين ، وقد سعى فيها بخمسة آلاف دينار ...

وفيها أخرج السلطان تقدمة الأمير جانى بك المرتد الناصرى ، وجعله طرخانا ، ورتب له مايكفيه ، واستمر على ذلك الى آن مات فى أثناء دولته .

وفيها قبض السلطان على المهتار على فطيس — مهتار الأشرف اينال — وسلمه الى الأمير جانى بك نائب جدة ، فضربه علقة قوية وأخذ منه خمسة آلاف دينار ، فباع أملاكه وجميع ما يملكه حتى سدد ذلك .

وفيها استعفى القاضى شرف الدين الأنصارى من نظارة الخاص ، فخلع عليه السلطان واستقر به وكيل بيت المال ، وخلع على عبد الرحمن بن الكويز وأعاده الى نظارة الخاص .

وفيها استقر مثقال البرهانى مقدم المماليك عوضا عن صندل الهندى .

وفيها استقر القاضى تاج الدين بن المقدسى فى نظارة الجيش عوضا عن الزين بن مزهر .

وفيها توفى شيخ الاسلام قاضى القضاة الحنفى سعد الدين ابن الديرى ودفن بتربة الظاهر خشقدم وقد تولى القضاء نحو ثلاثين سنة ، وكان من عظماء الحنفية ، وكانت وفاته فى شهر ربيع الأول من سنة سبع وستين ، ومات وهو منفصل عن القضاء .

سنة ثمان وستين وثمانمائة (١٤٦٣/١٤٦٤ م) :

فيها عزل عبد الرحمن بن الكويز من نظارة الخاص ، واستقر بها الصاحب علاء الدين بن الأهناسى ، واستقر ناظر الخاص ووزيرا فأقام على ذلك مدة ثم اختفى وغيب ، فخلع السلطان على مجد الدين بن البقرى واستقر به وزيرا عوضا عن ابن الأهناسى . وخلع على القاضى تاج الدين بن المقدسى واستقر به ناظر الخاص . ثم ان مجد الدين ابن البقرى قبض على الصاحب علاء الدين بن

الأهناسى فسجنه السلطان فى البرج الذى فى القلعة واحتاط على موجوده ، فأخذ منه مائة ألف دينار ورسم بنفيه الى مكة ، فخرج وسافر من البحر الملح .

وفى هذه السنة عظم أمر الأمير جانى بك نائب جدة والتفت عليه جماعة الظاهرية من خشداشينه ، فكان ينزل من القلعة وعسكر مصر قدامه ، أولهم عند قناطر السباع وآخرهم فى الرميلة ، وسائر المباشرين قدامه ، مستمرا ذلك فى كل يوم . وهو أول من اتخذ السعاة يمشون قدامه كلما ركب ونزل — زيادة فى العظمة — فثقل أمره على الملك الظاهر خشقدم . وكان الظاهر خشقدم أنشأ له مماليك كثيرة ، وثبتت قواعده فى السلطنة ، وصارت خشداشينه المؤيدية غالبهم أمراء ، فعول على قتل جانى بك نائب جدة فى الباطن وأضمر له السوء .

ثم ان الأمير جانى بك ، لما كملت عمارة القبة التى أنشأها فى منشية المهرانى ، عمل هناك وفدة عظيمة ، وأحضر سوارى طوالا على البر وعلق فيها قناديل ، وعزم على جماعة من الأمراء ومد مدة عظيمة ، وكانت ليلة لم يسمع بمثلها . وحضر هناك ابن رحاب المغنى ، وابراهيم بن الجندى ، وجمع بين قراء البلد والوعاظ ، وكان ذلك فى ليلة الجمعة . فلما كان يوم الثلاثاء ثامن ذى الحجة سنة سبع وستين وثمانمائة طلع الأمير جانى بك نائب جدة الى القلعة على جارى العادة ، وكان معه الأمير تنم رصاص المحتسب ، وكان السلطان قرر مع جانى بك أنه فى ذلك اليوم يمسك الأمير قانم التاجر والأمير قايتباى المحمودى المؤيدى ، فطلع فى ذلك اليوم بدرى ، وكانت المعمولية والطبخة له كما قيل فى المعنى :

وكم من طالب يسعى لشىء
وفيه هلاكه لو كان يدرى

فلما طلع الى القلعة ودخل من بابها ، ووصل الى الجامع ، خرج اليه كمين من المماليك الأجلاب من مماليك الظاهر خشقدم فقتلوه هناك هو والأمير تنم رصاص ، ورموا على رءوسهما فص حجر بعد أن طعنوهما بالرماح حتى وقعا الى الأرض موتى . فلما أصبح الصباح غسلوهما وكفنوهما وصلوا عليهما بالقلعة ونزلوا بهما ، فدفن الأمير جانى بك فى تربته التى أنشأها خارجا من باب القرافة . فلما سمع مماليكه لبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة ، فرموا عليهم بالنشاب من باب السلسلة فولوا مدبرين ، وراحت على من راحت ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

وكان الأمير جانى بك نائب جدة أميرا عظيما ، صاحب حرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، وكان صاحب حيل وخداع ، وهو الذى رتب للملك الظاهر خشقدم فى مسك الأمراء الأشرفية ورجوع جانم نائب الشام الى الشام بعدما ترشح أمره الى السلطنة ، فكان حال جانى بك مع الظاهر خشقدم كما قيل فى المعنى :

أعلمه الرماية كل يوم
فلما استدّ ساعده رمانى

وكان الأمير جانى بك مولعا بغرس الأشجار ، وأنشأ عدة غيطان بالمنشية ، وهى منشية المهرانى . وكان كثير التنزه . وكانت صفته أخضر اللون ، قصير القامة جدا مستدير اللحية ، شائب الذقن ، عارفا بأحوال المملكة ، فصيح اللسان بالعربى ، أصله من مماليك أسنبغا الطيارى وقدمه الى الملك الظاهر جقمق ، فهو معتوق الملك الظاهر جقمق من جملة مماليكه .

سنة تسع وستين وثمانمائة (١٤٦٤/١٤٦٥ م) :

فيها خلع السلطان على خشداشيه الأمير يشبك

الفقيه واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير جانى بك نائب جدة .

وفيها أنعم السلطان على خشداشيه الأمير جانى بك كوهيه بتقدمه ألف ، وخلع على مملوكه الأمير خير بك واستقر به دوادارا ثانيا عوضا عن جانى بك كوهيه .

وفيها أنعم السلطان على سبطه المقر الشهابى أحمد ابن العينى بتقدمة ألف وقرره فى أمرية الحاج وقرر فى امرية الركب الشرفى يحيى ابن الأمير يشبك الفقيه

وفيه اختفى زين الدين الاستادار ، فصرف السلطان مجد الدين بن البقرى من الوزارة وقرره فى الاستدارية ، واستمرت الوزارة شاغرة أياما حتى خلع السلطان على الشمس محمد البباوى ناظر الدولة وقرره فى الوزارة عوضا عن ابن البقرى . فلما قرر البباوى فى الوزارة عد ذلك من مساوى خشقدم ، وقالت الناس : « الزفر تولى الوزارة بمصر » ... ومن يومئذ انحط قدر الوزارة جدا ، وتبهدل هذا المنصب الى الغاية .

قال الامام أبو شامه المؤرخ : « كانت الوزارة على عهد الخلفاء وظيفة عظيمة جليلة ، وكان الوزير يجلس بحضرة الخلفاء على مقدار خمسة أذرع ، وكان هو المتصرف فى أمر المملكة بما يختار . فلما جاءت دولة الأتراك قدموا نيابة السلطنة على الوزارة ، فتلاشى أمر الوزارة من يومئذ ، وصارت الوزارة تنقسم الى أربع جهات ، منها كتابة السر ، والاستادارية ، ونظر الخاص ، وشاد الدواوين . وكانت خلعة الوزارة فى قديم الزمان عمامة بيضاء برقمات ذهب شغل تنيس ، وطيلسان أبيض برقمات ذهب ، وجبة صوف بيضاء بطرز ذهب ، وفى عنقه عقد جوهر بعشرة آلاف دينار ، وسيف مقلد به مسقط بالذهب ، ويركب حجرة بخمسمائة دينار ، وفى قوائمها أربع جوهرات ، وفى عنقها جوهرة كبيرة بألف دينار ، وترفع على رأسه أعلام بيض ، ويحمل على رأسه منشور الولاية وهو مكتوب فى حرير أبيض ، فبطل ذلك كله » ...

فلما تولى البباوى شق ذلك على الناس لكونه لم يكن من أهل ذلك . وكان البباوى طباخا ، وكان أميا لايقرأ ولا يكتب ، وفى كلامه غرتلة . وكان أسود اللحية ، عنده عترسة ويبس ، وكان أصله معاملا فى اللحم من جملة المعاملين ، ولكن وعده الله بذلك من القدم . وفيه يقول بعض الشعراء :

قالوا البباوى قد وزر   فقلت كلا لا وزر
الدهر كالدولاب لا   يدور الا بالبقر

وقال آخر :

تجنب العلم والفضائل
ومل الى الجهل ميل هائم
وكن حمارا مثل البباوى
فالسعد فى طالع البهائم

فلما تولى الوزارة جاء فيها على الوضع ، وسكن فى بيت الوزارة التى فى بركة الرطل ، ودقت على بابه الكئوسات ، ولبس الخف والمهاميز . وكان الظاهر خشقدم قائما معه فهابه جميع المباشرين وخافوا منه . وكان يكبس البيوت على من يجده يسكر ، ويغرمه جملة مال تحت الليل ، حتى ضجت منه الناس . وكانت له حرمة وافرة وكلمة نافذة . وجاء على الناس مجىء وحش ، فكان لا يقبل رسائل أحد من الأمراء ، وصادر فى مدة ولايته جماعة من أعيان الناس والتجار ، وكان يكره من يسكر . ثم أن السلطان سلمه الأمير زين الدين الاستادار فأحضر له المعاصير وقصد عصره ، فترامى عليه الأمير زين الدين وصار يقبل رجليه حتى عفا عنه من العصر ، وكذلك جماعة كثيرة غير زين

الدين صاروا تحت أمره وأخذ أموالهم ، وكان كما قيل :

ومن أعظم البلوى كريم أصابه
قضاء وأضحى تحت ذل لئيم

وفيها توفى قاضى القضاة الشافعى علم الدين صالح البلقينى ، فلما توفى خلع السلطان على القاضى يحيى المناوى وأعاده الى القضاء ، فلم يقم الا مدة يسيرة وسعى عليها القاضى صلاح الدين أحمد بن بركوت المكينى الشافعى ، فعزل السلطان القاضى يحيى المناوى وولى صلاح الدين المكينى .
وفى ذلك اليوم عزل السلطان القاضى محب الدين ابن الشحنة الحنفى وولى القاضى برهان الدين ابراهيم ابن الديرى قاضى قضاة الحنفية . فتولى القاضيان فى يوم واحد ، ونزلا من القلعة فى موكب واحد وعليهما التشاريف .

وفيها خلع السلطان على القاضى كمال الدين ابن القاضى جمال الدين ناظر الخاص واستقر به ناظر الجيش ، وكان الساعى له الأمير خير بك الدوادار . فانه كان صهره زوج أخته .

وفيها أرسل السلطان تجريدة الى البحيرة ، وكان فيها خمسة أمراء مقدمين ، منهم الأمير قرقماس الجلب أمير سلاح ، والأمير جانى بك قلقسيز ، وغير ذلك من الأمراء .

وفيها حجت خوند الأحمدية زوجة السلطان خشقدم ، وكان المقر الشهابى أحمد بن العينى أمير المحمل ، وكان الشرفى يحيى ابن الأمير يشبك الفقيه أمير أول ، وحج الأمير يشبك الفقيه مع ولده فى تلك السنة .

وقد أظهر المقر الشهابى أحمد بن العينى فى هذه الحجة من الكبرياء والعظمة ما لم يظهره غيره من أبناء الملوك ، فصنع أكوارا من الذهب مرصعة بفصوص ياقوت وبلخش وفيروز ، وصنع كنابيش مثلث بذهب ولؤلؤ وريش ، وخرج من القاهرة فى موكب عظيم وسائر الأمراء والمباشرين قدامه ، وخوند الأحمدية فى محفة زركش ، فكان له يوم مشهود .

وفيها توفى الأمير جانى بك المرتد الناصرى ومات وهو طرخان ، وكان السلطان أخرج عنه التقدمة .

وفيها أمطرت السماء ، وجاء رعد وبرق ، وهبت رياح باردة ، وذلك فى أواخر بشنس بعد أن قلع السلطان الصوف ، فلبس الصوف بعد ذلك أياما .

سنة سبعين وثمانمائة (١٤٦٥/١٤٦٦ م) :

فيها عاد المقر الشهابى أحمد بن العينى من الحجاز الشريف ، وخوند الأحمدية ، فكان لهم يوم مشهود .

وفيها كانت وفاة المقر الصاحبى العلائى على ابن الأهناسى ، توفى بمكة المشرفة ودفن هناك ، وكذلك الأمير برد بك صهر الملك الأشرف اينال توفى بمكة ودفن هناك . قيل مات قتيلا من العرب فى رابغ ، ثم نقل من رابغ الى مكة ودفن بها .

وفيها كانت وفاة الشيخ شهاب الدين بن أبى السعود أحد شعراء العصر ، وهو من السبعة الشهب .

وفيها عزل السلطان قاضى القضاة صلاح الدين المكينى وولى القاضى أبا السعادات البلقينى ، فأقام فى قضاء القضاة أربعة أشهر ثم سعى عليه القاضى ولى الدين الأسيوطى ، وكان الساعى له الأمير خير بك الدوادار الثانى ، فتولى الأسيوطى وعزل القاضى أبو السعادات .

وفيها أعاد السلطان القاضى محب الدين بن الشحنة الى قضاء الحنفية .

وفيها أخرج السلطان تجريدة الى بر الجيزة

بسبب فساد العربان ، وكان باش العسكر الأمير بلباى المؤيدى أمير أخور كبير ، والأمير برد بك هجين ، فطردوا من هناك العربان وأقاموا مدة ورجعوا . وقتل من المماليك السلطانية هناك ستة لما وقعوا مع العربان .

وفيها نزل السلطان الى الرماية ، وشق من المدينة ، وزينت له وكان له موكب عظيم .

وفيها عزم المقر الأتابكى قانم على السلطان فى الربيع ، فنزل اليه هو وسائر الأمراء والعسكر ، فمد له الأتابكى قانم هناك سماطا عظيما قيل كان مصروفه الف دينار ، ففرق الأكل على جميع العسكر واحضر للسلطان هناك أرباب الملاعيب من المشعبدين وغير ذلك ، فانشرح السلطان فى ذلك اليوم الى الغاية هو والأمراء . ولما رجع السلطان دخل الى بيت منصور الاستادار ، ثم توجه الى بيت الصاحب شمس الدين البباوى ، فأقام السلطان عند قانم الى ما بعد العصر ثم طلع الى القلعة فى موكب عظيم .

وفيها نزل السلطان وخلق المقياس وكسر السد ، وهذا لم ير من بعد الملك المؤيد شيخ بأن سلطانا نزل وكسر السد بنفسه .

وفيها خلع السلطان على منصور القبطى واستقر به استادارا ، فأقام بها مدة ثم قبض عليه وسجنه بالمقشرة ، ثم خلع على شرف الدين ابن كاتب غريب واستقر به استادارا ، ثم أثبتوا على منصور القبطى كفرا وضربوا عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية .

وفيها توفيت خوند الأحمدية زوجة الظاهر خشقدم ، وهى جدة المقر الشهابى أحمد بن العينى فلما ماتت تزوج السلطان بسريته خوند سوارباى أم ولديه .

وفيها ، فى أواخر هذه السنة فى يوم الاربعاء ثامن عشرى ذى الحجة ، نزل الصاحب شمس الدين البباوى من بيته الذى سكن فيه على بركة الرطلى ، فنزل فى مركب وتوجه الى نحو قناطر بنى منجا ، فلما رجع ووصل الى فم خليج الزربية انقلبت به المركب هناك فغرق قريب البر ، فأطلعوا جميع ما غرق معه حتى حق الدقاق ، وهو لم يظهر له خبر ولا وقف له على أثر — حتى ولا فى شطنوف التى هى محط رحال الغرقى — فكان من بقية قوم نوح ، أغرقوا فأدخلوا نارا ... وقد قال القائل :

لا تكرهوا الموت ان فيه
حصاد من طاب مع خبيث

فمستريح ومستراح
منه كما جاء فى الحديث

فلما غرق البباوى خلع السلطان على يحيى ابن صنيعة ، ثم قاسم — وهو قاسم المعروف بشنيعة — وعبد القادر ، واشتركا فى التكلم فى الوزارة ، ثم انفرد بها الزينى قاسم ، واستمر على ذلك مدة طويلة .

سنة احدى وسبعين وثمانمائة (١٤٦٦/١٤٦٧ م)

فيها توفى الأتابكى قانم بن صفر خجا المؤيدى التاجر ، وقد مات فجأة فى ليلة واحدة . فلما مات خلع السلطان على المقر السيفى بلباى المؤيدى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن قانم التاجر ، ثم خلع على المقر الشهابى أحمد بن العينى واستقر به أمير آخور كبير عوضا عن بلباى المؤيدى ، فتزايدت عظمة المقر الشهابى أحمد ابن العينى فى تلك الأيام ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وصار له حرمة وافرة وكلمة نافذة ، وهو الذى أنشأ القصر العظيم المطل على البحر بمنشية المهرانى . ولما كملت عمارة هذا القصر نزل السلطان اليه ، وأقام هناك الى ما بعد العصر ، وتفرج فى

ذلك اليوم على البحر وانشرح ، وكان يوما سلطانيا .

وفيها توفى قاضى القضاة شرف الدين يحيى المناوى ، وكان من أعيان خيار علماء الشافعية ، وتوفى وهو منفصل عن منصب القضاء .

وفيها تغير خاطر السلطان على الرئيس علاء الدين بن رحاب ، فشكه فى الحديد ورسم بنفيه الى الشام ، فخرج وتوجه الى قطيا وأقام بها أياما ، ثم شفع فيه كاتب المماليك بن جلود فرسم السلطان بعوده . وكان سبب نفى ابن رحاب أنه كان اذا عمل سماعا فى مكان يقوم فى ذلك المكان عربدة ، فعمل سماعا فى باب الوزير فقتل فى تلك الليلة قتيل ، فنفى السلطان ابن رحاب بسبب ذلك .

وفيها نزل السلطان للرماية ، وشق من القاهرة وزينت له .

وفيها نزل السلطان وكسر السد بنفسه .

وفيها غرق السلطان خازندار الأمير جانى بك نائب جدة المسمى يرش ، وكان شابا صغيرا فتأسف عليه الناس .

وفيها توفيت بنت السلطان التى من خوند سورباى ، وكانت مستحقة للزواج .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة قاصد ابن عثمان ملك الروم ، فأكرمه السلطان الى أن عاد الى بلاده .

وفيها نزل السلطان الى المطعم بالمطرية ، ولبس الصوف هناك ، وشق من المدينة وزينت له ، وكان له موكب عظيم .

سنة اثنين وسبعين وثمانمائة (١٤٦٧/١٤٦٨ م) :

فيها تزايدت عظمة السلطان خشقدم ، وبلغت عدة مماليكه نحو أربعة آلاف مملوك ، وصار غالب خشداشينه مقدمى ألف ، منهم الأمير يشبك الفقيه ، والأمير مغلباى طاز ، والأمير قنبك المحمودى ، والأمير جانى بك كوهية ، وغير ذلك جماعة كثيرة أمراء طبلخانات وعشراوات . ثم أمر جماعة كثيرة من مماليكه منهم الأمير خير بك الدوادار الثانى ، ومنهم الأمير خشكلدى اليسقى ، ومنهم الأمير كنباى ، والأمير مغلباى المحتسب ، والمقر الشهابى أحمد بن العينى ، وغير ذلك جماعة كثيرة من مماليكه .

وفيها جاءت الأخبار من حلب بأن خارجيا تحرك على البلاد يقال له شاه سوار ، فرسم السلطان للأمير برد بك الجمقدار نائب حلب بأن يخرج اليه فخرج اليه . ثم جاءت الأخبار من بعد ذلك بأن برد بك نائب حلب لما خرج الى سوار التف عليه وأظهر العصيان على السلطان وقصدوا التوجه الى الشام . فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله وعين الى سوار تجريدة وبها من الأمراء خمسة مقدمو ألوف .

ثم ان السلطان دور المحمل الرجبى فى تلك السنة على جارى العادة ، فلما كان ليلة حراقة النفط فى الرميلة احترق بالنفط فى تلك الليلة سقف الاسطبل السلطانى ، فكان ذلك فألا على السلطان ، ولم ينجح أمره من بعد ذلك ...

ثم ان النيل المبارك وفى فى أثناء تلك السنة ، فنزل لكسر السد السلطان بنفسه على جارى العادة ، فكان له موكب عظيم ، وكان ذلك آخر مواكبه . فلما كسر السد وطلع الى القلعة حم من يومه ولزم الفراش ، ثم ثقل فى المرض وسلسل .

وكان القائم بتدبير أمور المملكة الأمير خير بك والمقر الشهابى أحمد بن العينى ، فعينوا الأمير أزبك بن ططخ — رأس نوبة النوب — بأن يخرج الى العقبة بسبب فساد العربان ، فخرج وتوجه الى العقبة ووصل الى الأزلم . ثم عينوا الأمير قرقماس الجلب أمير سلاح ، والأمير يشبك الفقيه

أمير دوادار كبير بأن يتوجهوا الى نحو الصعيد بسبب فساد العربان — وكل ذلك عن لسان السلطان وهو ملازم الفراش على غير استواء — فخرج هؤلاء مسرعين من غير تأخير . وكان الأمير خير بك متخبلا من هؤلاء الأمراء فأخرجهم بسرعة حتى يصفو له الوقت ويبلغ قصده ، فكان كما قيل :

وسالمتك الليالى فاغتررت بها
وعند صفو الليالى يحدث الكدر

ولما ثقل السلطان خشقدم فى المرض نزل بفرس من الاسطبل من الخيول الخاص ، وعرضه على الأمراء للبيع ، فاشتراه ابن العينى بخمسمائة دينار ، وقيل بألف دينار . فلما أرسل ثمنه للسلطان تصدق بثمنه كله على الفقراء ، وكانت هذه عادة قديمة عند الملوك اذا حصل لهم توعك يفعلون ذلك .

وفى مدة توعك السلطان اضطربت أحوال الديار المصرية ، وصار الأمير تمر الوالى يطوف فى كل ليلة فى المدينة معه مماليك ملبسة والمشاعلية تنادى : « كل من يمشى فى الليل يقطع أنفه وآذانه » ...

واستمر السلطان مريضا نحو أربعين يوما ، فلما كان يوم السبت بعد الظهر عاشر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة توفى السلطان الملك الظاهر خشقدم ، ودفن فى تربته التى أنشأها فى الصحراء . ومات وله من العمر نحو خمس وسبعين سنة ، ومات بحمى كبدية ، وخلف من الأولاد صبيين وهما سيدى منصور وأخوه ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ست سنين وخمسة أشهر وعشرين يوما بما فيها من مدة توعكه وانقطاعه .

وكان ملكا جليلا مهيبا ، كفئا للسلطنة ، عارفا بأحوال المملكة . وكان حسن الشكل ، معتدل القامة ، مترك الوجه ، أحمر اللون ، مستدير اللحية ، ضخم الجسم ، شائب الذقن ، فصيح اللسان بالعربى . وكان ماشيا على النظام القديم ، تابعا لطريقة الملوك السالفة فى عمل المواكب فى القصر الكبير والمبيت به فى كل ليلة اثنين وخميس . وكان ماشيا على طريقة أستاذه الملك المؤيد شيخ فى كسر السد بنفسه ، ولبس الصوف فى المطعم . وكان كثير الرمايات فى كل سنة ، ويشق من القاهرة فى المواكب الجليلة ، وكان يدور فى كل سنة المحمل فى رجب ، وتسوق الرماحة على جارى العادة أربعين يوما ، ثم يلبسون الأحمر وتزين القاهرة ثلاثة أيام ويخرج الناس فى ذلك عن الحد فى القصف والفرجة . وكانت أيامه كلها لهوا وانشراحا ، ولم يجىء فى أيامه الطاعون بمصر ، ولا جرد تجريدة الى البلاد الشامية .

وكان ترفا فى ملبسه ، فصنع له ركبا من ذهب ومهاميز من ذهب . وكان يلبس السمور الأسود الذى على لون الحبر لا يوجد الآن . وكان يلبس القباء الصوف الفاخر ، ويبطنه بالمخمل الأحمر الكفوى . وكان اذا ركب وساق لا ينفرد ذيله من تحت فخذه ولو ساق سوقا قويا وكان كريما على من يستحق الكرم ، بخيلا على من يستحق البخل .

لكن كان من مساويه جور مماليكه فى حق الناس . ومن مساويه أنه كان غير عفيف عن ... و ... ومن مساويه أنه كان سريع العزل للقضاة والمباشرين ، ويأخذ أموالهم ويعزلهم بسرعة . ومن مساويه قتل جانى بك نائب جدة من غير ذنب ، وأخذ أموال ابن الأهناسى — حتى رخام بيته — بغير حق ولم يترك لأولاده شيئا ، وقتل جماعة من الأمراء بغير ذنب . وبالجملة أنه كان قليل الأذى بالنسبة الى من جاء بعده من الملوك .

وكان يحب العلماء والصلحاء ، وينقـاد الى الشريعة ، وكانت البلاد على أيامه هادية من الفتن ، وهو آخر من مشى من الملوك على النظام القديم .

فأما أتابكيته فالمقر السيفى جرباش كرت أولا ، ثم قانم التاجر ، ثم بلباى .

وأما دواداریاته فالأمير جانى بك نائب جـدة ، والأمير يشبك الفقيه .

وأما قضاته الشافعية فالقاضى يحيى المنـاوى — تولى فى أيامه مرتين — والقـاضى علم الدين صالح البلقينى ، والقاضى صلاح الدين المكينى ، وأبو السعادات البلقينى ، والقـاضى ولى الدين الأسيوطى . وأما قضـاته الحنفيـة فالقاضى سعد الدين الديرى أولا ، ثم ابن الصواف ، ومحب الدين بن الشـحنة — تولى فى أيامه مرتين — والقـاضى برهان الدين الديرى . وأما قضـاته المالكية فالسيد الشريف القاضى حسام الدين بن حريز . وأما قضاته الحنابلة فالقـاضى عز الدين الحنبلى .

وأما كتـاب السر فالقـاضى محب الدين بن الشحنة أولا ، ثم ابراهيم بن الديرى ، ثم أبو بكر ابن مزهر .

وأما نظار جيوشـه فتـاج الدين بن المقسى ، والقاضى كمال الدين بن ناظر الخاص يوسف .

وأما نظار خواصـه فعبـد الرحمن بن الكويز أولا ، ثم شرف الدين الأنصارى ، والعـلائى بن الأهناسى ، وتاج الدين بن المقسى .

وأما وزراؤه فعـلاء الدين بن الأهناسى أولا — وقد تولى الوزارة فى أيامه ثلاث مرات — ثم ابن صـنيعة ، ثم مجـد الدين بن البقرى . ثم الشرفى يوسف ، ثم البيـاوى ، ثم قاسم وشريكه عبد القادر .

وأما استاداريته فزين الدين أولا ، ثم مجـد الدين بن البقـرى ، ثم منصـور . ثم قاسـم الكاشف ، ثم ابن كاتب غريب ... فهذه جملة من تولى فى أيامه من أرباب الوظائف من القضـاة والمباشرين .

أما من توفى فى أيامه فهم : قاضى القضاة سعد الدين الديرى الحنفى ، وصالح البلقينى ، ويحيى المناوى ، وشـمس الدين القرافى من أعيان نواب المالكية ، والأتابكى قانم التاجر ، وسيدى محمـد ابن الأشرف اينال توفى بثغر الاسكندرية . وتوفى الأمير تنم نائب الشام بدمشـق ، وتوفى تمرباى ططر أحـد المقـدمين ، وتوفى الأمـير جانى بك الظريف بسجن المرقب ونقل بعد موته الى مصر ودفن بالصحراء فى القبة التى عمرت له بعد موته . وتوفى الأمـير خشكلدى القوامى أحـد الأمراء الطبلخانات ، وكان من أعيان المؤيدية وقيل من الناصرية . وتوفى من العلماء أيضا الشيخ جلال الدين المحلى — وكان من أعيان علماء الشافعية — والأصح أنه توفى فى دولة الأشرف اينال كما تقدم . وتوفى من المشايخ الشيخ عمر الكردى ، والشيخ محمد الشريفى الشاذلى ، والشيخ على الطيبى . وتوفى فى أيامه من الشعراء شهاب الدين بن أبى السعود توفى بمكة ، وسـيدى على بن بردبك ، والشيخ شهاب الدين بن صالح وكان من فحول الشعراء ، ومن شعره فيمن أهدى اليه بطيخـا وقطرا وقاله ارتجالا :

بعثت الى بطخـا وقطـرا
يشابه ذاك هـذا فى الصـفات
همـا نوعان عنـد الـذوق كل
تولد فى الحقيقـة من نبـات

الملك الظاهر بلباى المؤيدى

هو الملك الظاهر أبو النصر سيف الدين بلباى المؤيدى . وهو التاسع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وهو الرابع عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد بمصر ، بويع بالسلطنة بعد موت الملك الظاهر خشقدم .

تسلطن فى يوم السبت بعد العصر ، وهو اليوم العاشر من ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة .

وكان أصله جركسى الجنس ، جلبه الأمير اينال ضضع من بلاد الجراكسة فاشتراه منه الملك المؤيد شيخ فى سنة عشرين وثمانمائة ، فأقام فى الطبقة مدة ثم أعتقه ، وأخرج له خيلا وقماشا وصار جمدارا ، ثم بقى خاصكيا ، ثم ساقيا فى دولة الملك الظاهر جقمق ، ثم بقى أمير عشرة ، ثم بقى أمير أربعين ، ثم بقى مقدم ألف فى دولة الملك الأشرف اينال ، ثم بقى حاجب الحجاب فى دولة الملك الظاهر خشقدم ، ثم بقى أمير آخور كبير ، ثم بقى أتابك العساكر بمصر بعد موت قانم التاجر فى سنة سبعين وثمانمائة .

فلما توفى الظاهر خشقدم وقع الاتفاق على سلطنته دون الأمراء ، فحضر الخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة الأربعة ، فاستجمعوا فى المقعد الذى فى باب السلسلة فبايعوه بالسلطنة ، ثم آحضروا له خلعة السلطنة فلبسها ، وركب من المقعد وطلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض ، وتلقب بالملك الظاهر ، ودقت له البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالأدعية الفاخرة .

فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب بالقصر الكبير وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى تمربغا أمير مجلس ، خلع عليه واستقر به أتابك العساكر عوضا عن نفسه . وخلع على المقر الشهابى أحمد بن العينى واستقر به أمير مجلس عوضا عن تمربغا ، فنزل ابن العينى من باب السلسلة وسكن فى بيت جانى بك نائب جدة المطل على الخليج . ثم خلع السلطان على المقر السيفى قنبك المحمودى واستقر به أمير سلاح عوضا عن الأمير قرقماس الجلب . وخلع على المقر السيفى برد بك هجين واستقر به أمير آخور كبير عوضا عن ابن العينى .

فلما فعل ذلك لم يتم أمره فى السلطنة ، وبان عليه العجز ، وكان خشنا قليل المعرفة ، لأنه كان يدعى بلباى المجنون ، فصار منقادا مع الأمير خيربك الدوادار بشعرة ، ولا يتصرف فى شىء من أمور المملكة الا برأيه ، وصار مع المماليك الخشقدمية فى غاية البلية .

ثم ان الأمير خير بك أشار على السلطان بلباى بأن يمسك الأمير قرقماس الجلب ، والأمير أرغون شاه استادار الصحبة ، والأمير قلمطاى الاسحاقى ، فأرسل بالقبض عليهم — وكان الملك الظاهر خشقدم أرسلهم الى نحو الصعيد مع الأمير يشبك الفقيه كما تقدم — فأرسل للقبض عليهم من هناك وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية فلما وقع ذلك نفرت منه قلوب الرعية ، وكان تدميره فى تدبيره .

ثم لما أنفق على العسكر قطع نفقة أولاد الناس والخدام ، فكثر عليه الدعاء . ثم ان النفقة تشحطت فشكا ذلك الى الأمير خير بك ، فقال له : « يامولانا السلطان ، ان كان فى حاصلك شىء من المال فأنفقه على العسكر ، وقد صارت الخزائن بيدك خذ منها ما شئت » ... فسمع له وطلع بماله جميعه جملة واحدة فأنفقه على العسكر ، وقد نفد منه ما كان حصله من حين كان جنديا .

ثم بعد أيام حضر الأمير أزبك بن ططخ رأس نوبة النوب ، والأمير جانى بك ، والأمير قلقسير حاجب الحجاب — وكان السلطان خشقدم أرسلهم الى العقبة بسبب فساد العربان — فلما حضروا كان صحبتهم جماعة كثيرة من العربان نحو ستين انسانا ، وكان الأمير أزبك انتهى فى هدا السفر الى الأزلم .
فلما عرض العربان على السلطان بلباى أمر بتوسيطهم أجمعين ، ولم يعرف الظالم من المظلوم ، فصاروا فى ذمته ، وكان فيهم صغار دون البلوغ .

ثم لما رجع الأمير أزبك من العقبة أشار خير بك على السلطان بلباى بأن يستقر به نائب الشام . فلما طلع أزبك فى يوم الجمعة الى القلعة خلع عليه السلطان بعد صلاة الجمعة — وهو فى باب الستارة — خلعة ، واستقر به نائب الشام ، ورسم له بأن يتوجه الى الشام بعد ثلاثة أيام ، فخرج الى الشام فى يوم الاثنين فى أواخر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة .

فلما توجه الأمير أزبك الى الشام عمل السلطان الموكب ، وخلع على الأمير قايتباى المحمودى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير أزبك لما بقى نائب الشام .

ثم ان الأمير يشبك الفقيه حضر من الصعيد فأقره على حاله دوادارا كبيرا كما كان ... وكل ذلك ترتيب الأمير خير بك الدوادار .

ثم ان الأمير يشبك الفقيه قصد الوثوب على الأمراء الخشقدمية ، وأن يقبض على جماعة منهم ، فجمع خشداشينه — وهم قنبك المحمودى أمير سلاح ، والأمير جانى بك كوهية ، والأمير مغلباى طاز ، والأمير طوخ الزردكاش ، وجماعة المؤيدية كلهم — فلبسوا آلة الحرب وركبوا فى يوم الخميس فلما تحقق العسكر ذلك التف عليهم جماعة من الاينالية وجماعة من الأشرفية والمماليك السيفية ، فتوجهوا الى بيت الأمير يشبك الفقيه . فعند ذلك طلع الأمير يشبك الفقيه الى المدرسة التى تسمى الجاولية ، فقعد هناك وحفر خندقا عند المدرسة الصرغتمشية ، وواحدا عند رأس الكبش ، وواحدا عند قناطر السباع ، ثم ركبوا مكحلة فى شباك المدرسة الجاولية ، واستمروا فى ذلك اليوم كله يقعون مع المماليك الخشقدمية .

فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة نزل الأمير قايتباى رأس نوبة النوب من القلعة ومعه جماعة من المماليك الاينالية والظاهرية ، فتوجهوا الى الأمير يشبك الفقيه وأوقعوا معه ، فكان بينهم واقعة عظيمة ، وقتل فى ذلك اليوم ثلاثة من المماليك السلطانية .

فلما كانت ليلة السبت هرب الأمير يشبك الفقيه ، وهرب بقية الأمراء المؤيدية ، وانكسروا كسرة قوية ، فنهب العوام بيوتهم ، وولى سعدهم ، وأتت عكوسهم ، فخابت آمالهم ، ولم ينفع اجتهادهم ، كما قيل فى المعنى :

اذا لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجنى عليه اجتهاده

فلما كان يوم السبت سابع جمادى الأولى من سنة اثنتين وسبعين اجتمع الأمراء بالقلعة ، وأحضروا الخليفة والقضاة الأربعة ، وخلعوا الظاهر بلباى من السلطنة ، ووقع الاتفاق من الأمراء على سلطنة الأتابكى تمربغا كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ، ثم دخلوا بالظاهر بلباى الى البحرة وقيدوه ، ثم قبضوا على الأمير قنبك المحمودى أمير سلاح وقيدوه وأدخلوه الى البحرة . ثم ان الأمير يشبك الفقيه توجه الى الأمير قايتباى ، ثم قبضوا على الأمير جانى بك كوهية ، ومغلباى طاز ، وطوخ الزردكاش ، وبقية المؤيدية من كبير وصغير ولم يتركوا منهم أحدا . فأما الملك الظاهر بلباى فانه

أقام فى البحرة يومين ثم نزلوا به هو والأمير قنبك المحمودى ، فتوجهوا بهما الى السجن بثغر الاسكندرية وأما الأمير يشبك الفقيه وطوح الزردكاش فتوجهوا بهما الى ثغر دمياط . وأما جانى بك نوهية ومغلباى ظاز فما أدرى فى أى مكان توجهوا بهم . أفى ثغر دمياط مع الأمير يشبك الفقيه أو لا ... فكانت مدة سلطنة الظاهر بلباى بالديار المصرية شهرين الا أربعة أيام ، وكانت كأنها سنة من النوم ، أو يوم أو بعض يوم ، كما قيل فى المعنى :

ركب الأهوال فى زورته

ثم ما سلم حتى ودعا

وبه زالت دولة المؤيدية كأنها لم تكن ... فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير .

وكان الظاهر بلباى من عمره أرشل قليل المعرفه ، وكان يعرف ببلباى المجنون ، وكان عمره كله فى غلاسة هو ومماليكه . وكان ملبسه مغلسا من عمره ، وشكله سمج ، وتدبيره سيىء ... فجمع بين قبح الفعل والشكل وسوء الطباع ومقت اللسان كما قيل :

وفظ غليظ الطبع لا ود عنده

وليس لديه للأخلاء تأنيس

تواضعه كبر ، وتقريبه جفا

وترحيبه مقت ، وبشراه تعبيس

وقد زال سعده جملة واحدة ، فكانت أيامه شر أيام مع قصرها ، وخرج ماله على أنحس وجه .

وكان مع خير بك الدوادار فى غاية الضنك ، ليس له فى السلطنة الا مجرد الاسم فقط ، ولا يتصرف فى شىء من أمور المملكة الا بشورة الأمير خير بك ، فكان اذا سئل فى شىء يقول : « ايش كنت أنا ؟ ... قل له » ... يعنى قل لخير بك حتى سمته العوام « قل له » ...

وكان خيربك جعل السلطان بلباى آلة ، وهو ممهد لنفسه فى الباطن ، وقد طمعت آماله فى السلطنة ، وحدثته نفسه بذلك ، والله غالب على أمره ...

الملك الظاهر أبو سعيد

هو الملك الظاهر أبو سعيد تمربغا الظاهرى . وهو الأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثانى من ملوك الروم بمصر فى العدد .

كان أصله رومى الجنس من مشتريات الملك الظاهر چقمق ورباه صغيرا . فلما تسلطن چقمق جعله خاصكيا ، ثم بقى من جملة السلحدارية ، ثم بقى خازندارا ، ثم بقى أمير أربعين ، ثم دوادارا ثانيا فى أثناء دولة الملك الظاهر چقمق ، وسافر الى الحجاز أميرا فى سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، ثم بقى مقدم ألف فى دولة الملك المنصور عثمان بن چقمق ، ثم نفى الى ثغر الاسكندرية وسجن بها نحو ست سنين ، ثم نقله الملك الأشرف اينال الى مكة فأقام بها نحو ثلاث سنين .

فلما تسلطن الظاهر خشقدم رسم باحضاره من مكة ، فلما حضر خلع عليه واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن قرقماس الجلب فأقام على ذلك مدة ، ثم نفاه الظاهر خشقدم الى ثغر الاسكندرية فأقام فى السجن ثلاثة أيام هو والأمير أزبك ططخ ، فشفع فيهم الأتابكى قانم التاجر ، فرسم السلطان باحضارهم . فلما حضروا أقام على ذلك مدة ، ثم بقى أمير مجلس لما نفى الأتابكى جرباش كرت الى ثغر دمياط عند ما بقى قانم التاجر أتابك العساكر ، ثم بقى أتابك العساكر فى دولة الملك الظاهر بلباى عند ما تسلطن .

فلما ركب المؤيدية وانكسر الأمير يشبك الفقيه خلعو، الظاهر بلباى من السلطنة ، ثم وقع الاتفاق من الأمراء على سلطنة الأتابكى تمربغا ، فأحضروا الخليفة والقضـاة الأربعة وبايعوا الأتابكى تمربغا بالسلطنة ، وذلك فى يوم السبت سابع جمـادى الأولى سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة ، فلبس خلعة السلطنة من الحراقة التى فى باب السلسلة ، وركب من سلم المقعد ، وطلع من باب سر القصر الكبير ، وحمل القبة والطير على رأسه المقر السيفى قايتباى رأس نوبة النوب .

فلما جلس على سرير المـلك باس له الأمراء الأرض ، وتلقب بالملك الظاهر أيضا ، ودقت له الكئوسات بالقلعة ، ونودى باسمه فى القـاهرة ، وضج النـاس له بالأدعية الفاخرة ، وفرح غالب الناس بولايته لأنه كان رجلا عاقلا عارفا بأحوال المملكة .

وكان كفئا للسلطنة ، وقد اشـتمل على جملة من المحاسن فى علم الفروسية وغير ذلك من سائر الفنون حتى كان يزن بيده فى القبان ، وكان يعقد البركاوات الحرير بيده ، وله غير ذلك محاسن كثيرة فى فنون لعب الرمح والنشاب ... ولكن لم يساعده الزمان ، وجنى عليـه وخان ، فلم تكن حـركاته سعيدة ، ولم تكن أيامه مديدة ، فكان كما قيل فى المعنى :

انى تأملت الزمان وفعـــله
فى خفض ذى شرف ورفع الأرذل
كطبائع الميـــزان فى أفعـــاله
تضع الرواجح والنواقص تعتلى

فلما تم أمره فى السـلطنة عمل الموكب بالقصر الكبير ، وخلع على من يذكـر من الأمراء وهم : المقر السيفى قايتباى المحمودى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن نفسه ، وخلع على المقر السيفى جانى بك قلقسيز واستقر به أمير سلاح عوضا عن قنبك المحمودى ، وخلع على المقر السيفى خيربك واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن يشبك الفقيه ، وخلع على المقر السيفى خشكلدى اليسقى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن قايتباى المحمودى ، وخلع على المقـر السيفى تمر الوالى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن بردبك هجين لما بقى أمير آخور كبير ، وخلع على الأمير كسباى الخشقدمى واستقر به دوادار ثانيا عوضا عن الأمير خيربك .

وفى تلك الأيام كتب الأمير كسباى كتابه على خوند بنت الملك الأشرف اينـال ، ولكنه لم يدخل عليها .

ثم ان السلطان تمربغا رسم بالافراج عن الأمير قرقماس الجلب فأحضره من ثغر الاسكندرية ، ثم رسم بالافراج عن الأمير تمراز الشمسى فأحضره من ثغر دمياط ، وكذلك الأمير دولات باى النجمى ... وهؤلاء من مماليك الأشرف برسباى .

ثم أنعم على الأمير مغلباى الخشقدمى بتقدمة ألف ، وأنعم على جمـاعة كثيرة من الخشقدمية بامريات عشرة وامريات أربعين .

ثم انه رسم بتدوير المحـمل الرجبى فى تلك السنة ، فساقوا الرماحة على العادة فى القرافة .

ومن الحوادث فى أيامه أنه قبض على الشرفى يحيى بن الأمير يشبك الفقيه وصادره وأخذ منه نحو عشرة آلاف دينار ، وكان قصده يصادر أعيان النـاس بسبب النفقة ، وقد صـار مع المماليك الخشقدمية تحت الضنك والقهر فى كل يوم .

فلما كان ليلة الاثنين سادس رجب عمل السلطان الموكب فى القصر الكبير وطلع الأمراء على جارى العادة الى القلعة ، فطلع الأمير خيربك ودخل الى القصر . فلما كان وقت المغرب غلقت أبواب القلعة ودخل جماعة من المماليك الخشقدمية ومعهم سيوف

مسلولة فقبضوا على السلطان تمربغا وهو جالس فى الخرجاة المطلة على الرميلة ، وقبضوا على جماعة من الأمراء وحبسوهم تحت الخرجاة التى يجلس فيها السلطان . وكان الأمير خيربك اتفق مع المماليك الاينالية فى الباطن بأنه يمسك السلطان والأمراء الظاهرية وتصير الاينالية والخشقدمية شيئا واحدا ، وأنه اذا مسك السلطان من فوق تركب الاينالية من أسفل ، فيمسكوا بقية الأمراء ، وأن خيربك يتسلطن ... فانخرم معهم الحساب ، وضلوا عن الصواب ، كما قيل :

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله الا ما أرادا

فلما مسك السلطان تمربغا — ومعه جماعة من الأمراء الذين طلعوا الى القلعة فى تلك الليلة — ظن خير بك أنه قد تسلطن ووصل الى ذلك ، فجلس على سرير الملك وتلقب بالملك الظاهر مثل أستاذه خشقدم ، وباس له الأرض المماليك الخشقدمية ، وأنعم على جماعة منهم بوظائف سنية ، وتصرف فى تلك الليلة بما يقتضيه له الاختيار ، ولسان الحال يناديه : « كلام الليل يمحوه النهار ... »

وكان الأتابكى قايتباى غائبا فى الربيع لم يطلع فى تلك الليلة الى القلعة مع الأمراء ، فلما بلغه خبر مسك السلطان والأمراء ، ركب تحت الليل ودار على جماعة الظاهرية من خشداشينه ، ثم داروا على الاينالية واستمالوهم على خير بك وقالوا لهم نحن نرضيكم ، فوقع الاتفاق فى تلك الليلة على خلع السلطان تمربغا ، وأن الأتابكى قايتباى هو السلطان ، وأن يقبضوا على الخشقدمية كلهم .

فلما وقع القرار على ذلك باس الأرض تحت الليل للأتابكى قايتباى أعيان الاينالية ، وأركبوه وطلعوا به الى الرميلة . فلما بلغ خير بك ما جرى ، اضطربت أحواله ، وضاق به الأمر ، وأدركه طلوع النهار ، فأخرج السلطان تمربغا من تحت الخرجاة ، والأمراء الذين سجنوا معه ، وأجلس السلطان على مرتبته ، وباس له الأرض ثم انسطح بين يديه وقال له : « وسطنى ... فانى كنت باغيا عليك » . فقال له السلطان : « يا أمير دوادار لا أنت ولا أنا بقى لنا بقاء » . فلما طلع النهار ملك الظاهرية والاينالية باب السلسلة ، وانكسر الخشقدمية ، فطلع الأتابكى قايتباى الى باب السلسلة ، وجلس فى المقعد الذى يطل على الرميلة ، وحضر الخليفة والقضاة الأربعة ، ثم خلعوا الظاهر تمربغا من السلطنة ، وولوا الأتابكى قايتباى كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

فلما طلع السلطان قايتباى الى القلعة ، قبض على المقر السيفى خير بك ، وعلى المقر السيفى الشهابى أحمد بن العينى ، وعلى الأمير كسباى الدوادار ، وعلى الأمير خشكلدى المعروف بالبيسقى ، وعلى الأمير مغلباى ، وعلى جماعة كثيرة من الأمراء الخشقدمية ، فقيدوا الأمير خير بك وابن العينى وسجنوا فى مكان بالقلعة ومعهم المهتار عبد الكريم . وأما الملك الظاهر تمربغا فأدخلوه الى البحرة من غير قيد — وهو فى غاية العز والعظمة — وأكرمه السلطان قايتباى غاية الاكرام ، فانه كان أغات جميع ظاهرية جقمق ، فالكل جاءوا من بعده .

ثم ان السلطان رسم للملك الظاهر تمربغا بأن يتوجه الى ثغر دمياط من غير قيد ولا سجن ، ورسم له بأن يركب الى صلاة الجمعة ويتنزه فى غيطان دمياط ، فنزلوا به تحت الليل وتوجهوا به فى مركب الى ثغر دمياط فأقام بها ، فكانت مدة سلطنته بمصر ثمانية وخمسين يوما لا غير ، فكان كما قيل فى المعنى :

لم أستتم عناقه لقدومه

حتى ابتدأت عناقه لوداعه

ولم يعلم بأحد من ملوك الترك أنه خلع من السلطنة فى أقل من هذه المدة ، ولم تفد معرفة الملك الظاهر تمربغا شيئا ، وعارضه الزمان كما قيل فى المعنى :

واذا جفاك الدهر — وهو أبو الورى
طرا — فلا تعتب على أبنائه

وكيف كان تمربغا يمكث فى السلطنة والقسمة كانت من القدم لقايتباى ؟ ... وقد قال القائل فى المعنى :

الرزق فى الوجوه للمرء ملتزم
ما هو لمن سمى الا لمن قسم

واستمر الملك الظاهر تربغا فى أرغد عيش بثغر دمياط حتى حسن له الشيطان أن ينسحب من ثغر دمياط ، فتسحب من هناك كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

الملك الأشرف قايتباى

هو الملك الأشرف أبو المنصور سيف الدين قايتباى المحمودى الظاهرى . وهو الحادى والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الخامس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر .

كان أصله جركسى الجنس ، جلبه الى مصر الخواجا محمود فى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة ، فاشتراه منه الملك الأشرف برسباى هو وعدة مماليك صغار ، ضريبة كل مملوك خمسون دينارا . فلما اشتراه أنزله بالطبقة وصار من جملة المماليك الكتابية ، واستمر على ذلك حتى توفى الأشرف برسباى ، وتسلطن الظاهر جقمق ، فاشتراه من بيت المال على يد حاسوك — وصى الملك الأشرف برسباى — هو وعدة مماليك كتابية . واستمر فى رق الظاهر جقمق حتى أعتقه ، ثم أخرج له خيلا وقماشا وصار جمدارا ، ثم بقى خاصكيا ، ثم بقى دوادارا كبيرا . فلما توفى الظاهر جقمق وتسلطن الظاهر بلباى جعله رأس نوبة النوب عوضا عن أزبك بن ططخ لما بقى نائب الشام . ثم لما تولى الظاهر تمربغا جعله أتابك العساكر عوضا عن نفسه ، فلما وثب خير بك على الظاهر تمربغا ووقع له ما تقدم ذكره ، وقع الاتفاق من العسكر على سلطنته وخلع الظاهر تمر بغا ، وكان القائم فى ذلك طائفة الاينالية والظاهرية .

فلما انكسر خير بك وطائفة الخشقدمية حطم الأمير يشبك بن مهدى كاشف الوجه القبلى مع جماعة من العسكر ، فملكوا باب السلسلة وقبضوا على خير بك ، فتقلب العسكر على الظاهر تمربغا وأشرف على الخلع . فعند ذلك طلع الأتابكى قايتباى الى باب السلسلة وجلس بالمقعد الذى به ، واشتوروا فيما يكون من الأمر فى الظاهر تمر بغا ، فلم يوافق العسكر على ابقاء الظاهر تمربغا فى السلطنة ، فأرسلوا خلف أمير المؤمنين المستنجد بالله يوسف ، فحضر وحضر القضاة الأربعة — وهم ولى الدين الأسيوطى الشافعى ، ومحب الدين بن الشحنة الحنفى ، وحسام الدين بن حريز المالكى ، وعز الدين الحنبلى — وحضر جماعة من الأمراء .

فلما تكامل المجلس عملت صورة شرعية فى خلع الظاهر تمربغا من السلطنة ، فخلعه الخليفة فى الحال وبايع الأتابكى قايتباى ، وتلقب بالملك الأشرف . ثم أحضروا له شعار الملك — وهى العمامة السوداء والجبة السوداء التى بالطراز الذهب والسيف البداوى — فلما أرادوا أن يفيضوا عليه شعار الملك تمنع من ذلك وبكى ، فألبسوه ذلك الشعار غصبا وهو يمتنع غاية الامتناع ثم قدمت اليه فرس النوبة ، فركب من سلم الحراقة ،

وأذن للأمير جانى بك قلقسير أمير سلاح بأن يفرد الصنجق السلطانى على رأسه لعدم حضور القبة والطير من الزردخاناه ، فرفع الصنجق على رأسه ، وقد ترشح أمره للأتابكية .

فلما ركب سار ومشت قدامه الأمراء بالشاش والقماش ، وركب الخليفة عن يمينه ، وسار حتى طلع من باب سر القصر الكبير .

فلما طلع جلس على سرير الملك ، وقبلت له الأمراء الأرض ، وذلك يوم الاثنين سادس رجب من السنة المذكورة .

فلما تمت بيعته وراج أمره خلع على الخليفة ونزل الى داره ، ثم خلع على المقر السيفى جانى بك قلقسير الأشرف برسباى وقرره فى الأتابكية عوضا عن نفسه ، ونزل الى داره فى موكب حافل .

وقيل تولى الملك الأشرف قايتباى الملك وله من العمر نحو من خمس وخمسين سنة وقد وكزه الشيب قليلا ، ثم دخل يشبك بن مهدى وتمراز الشمسى على الظاهر تمربغا ، وأقاموه من فوق مرتبته وأدخلوه الى قاعة البحرة وهو فى غاية الاكرام ، ثم أخذوا منه النمچاه والترس والدواة وأحضروها بين يدى الأشرف قايتباى . ثم ان الأشرف قايتباى رسم بتقييد خير بك ، فقيد هو وابن العينى ، وأدخلوهما الى مكان بالقرب من القصر الكبير ، وأدخلوا معهما عبد الكريم — مهتار الملك الظاهر خشقدم — وهو أول حكم وقع للأشرف قايتباى . ثم ضربت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام ، وفيه يقول الشهاب المنصورى :

سلطاننا الأشرف فى بذله
وعدله قد جمع الفضلا
تقبل الله الذى عزه
بالنصر منه الصرف والعدلا

وكان لما أراد أن يلبس شعار الملك شرط على العسكر أنه لا ينفق عليهم نفقة البيعة فرضوا بذلك ، فلما تسلطن لم ينفق على العسكر شيئا .

ثم أخذ السلطان فى أسباب القبض على أعيان الخشقدمية ، فقبض على كسباى الدوادار الثانى وقد ظهر من بيت يشبك بن مهدى ، وقبض على مغلباى ورسم باخراجه الى القدس يقيم به بطالا ، ورسم باخراج كسباى الى حلب ، واختفى خشكلدى البيسقى . ثم صار فى كل يوم يقبض على جماعة من الخشقدمية ، ويشتت شملهم ويسجنهم بالقلعة ، ما بين أمراء وخاصكية

ثم ان السلطان رسم باحضار قرقماس الجلب من دمياط ، واحضار جماعة من الأشرفية ، منهم بيبرس خال العزيز ، ومنهم جانى بك المشد وبيبرس الطويل ... وكانوا بالقدس . ثم أشار بعض الظاهرية على السلطان بعود هذه الجماعة الأشرفية الى القدس على عادتهم ، فخرج الأمر من السلطان بأن يعادوا بعد ما كانوا قد وصلوا الى قطيا ، فعادوا الى القدس .

وفى ثامن هذا الشهر رسم السلطان باخراج الظاهر تمربغا الى ثغر دمياط ، فخرج وهو فى غاية العز والاكرام من غير تقييد ، وقد رفق به ، وكان السلطان يرسل اليه فى كل يوم أسمطة حافلة وهو بالبحرة . وعند ما خرج للسفر اجتمع به السلطان واعتذر اليه فى أمر السلطنة ، وأن ذلك لم يكن باختياره وكان على كره منه ، وكان بين تمربغا وبين قايتباى أيمان عظيمة بأنه لا يغدر ولا يتسلطن ، فلم تتم هذه الأيمان .

ثم ان السلطان ودع الظاهر تمربغا ونزل من القلعة وهو راكب على فرس من مركب السلطان ، ونزل من باب القرافة بعد العشاء ، وتوجه الى ساحل البحر ، ونزل فى الحراقة ، وتوجه الى ثغر دمياط . فلما وصل الى دمياط نزل فى

أحسن دورها ، وكان يركب الى صلاة الجمعة . واستمر بدمياط الى ان كان من أمره ما سنذكره .

وفيه أشار بعض الظاهرية على السلطان بأن يطلق من كان سجنه من الخشقدمية .

ثم ان السلطان أخذ فى أسباب مصادرة خير بك الذى تسلطن هو وابن العينى ، فطلب السلطان من خير بك نحوا من ستين ألف دينار خارجا عن بركه وخيوله وسلاحه وغير ذلك ، وعلى ابن العينى نحوا من مائتى ألف دينار وذلك خارج عن بركه وسلاحه وغير ذلك .

وفيه عمل السلطان الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : يردبك هجين وقرره فى امرية سلاح عوضا عن قانى بك المحمودى ، وخلع على يشبك بن مهدى وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن خير بك . ولما حضر قرقماس الجلب من دمياط خلع عليه وقرره فى امرية مجلس عوضا عن ابن العينى ، وكان قرقماس الجلب لما نفى الى الاسكندرية أمير سلاح فنزل درجة الى أسفل . وقرر فى الدوادارية الثانية قان بردى الابراهيمى الاينالى ، عوضا عن كسباى الخشقدمى وقرر فى ولاية القاهرة قانى باى الحسنى الاينالى ، عوضا عن اصباى البواب الخشقدمى . وأنعم على قراجا الطويل الاينالى بتقدمة ألف . ثم ان بعض الأمراء شفع فى الناصرى محمد ابن الأتابكى جرباش كرت — وكان مقيما بدمياط من حين نفاه الظاهر خشقدم فى واقعة يرش مملوك جانى بك نائب جدة وقد تقدم ذكر ذلك — فلما حضر خلع عليه كاملية بسمور ونزل الى داره .

وفيه أخذ السلطان فى أسباب تعيين تجريدة الى شاه سوار بن دلغادر — وقد تقدم ما وقع منه فى أيام الظاهر خشقدم — وقد قويت شوكته والتف عليه عسكر ثقيل من التركمان وغيرهم ، وقد أظهر العصيان والمخامرة ، فخشى السلطان من أمره وأراد أن يأخذ أموره بالقوة . وكان يمكنه أن يرسل الى سوار خلعة وهدية وتخمد هذه الفتنة ، فلم يوافق على ذلك ، وأخذ الأشياء بالعترسة ، فعين له تجريدة ثقيلة وعين بها الأمير قلقسير الأتابكى ، وبرد بك هجين أمير سلاح ، ولاتق رأس لوبة النوب ، وتمر حاجب الحجاب ، وعدة أمراء طبلخانات وعشراوات ، وعدة وافرة من الجند — والغالب فيهم من المماليك الخشقدمية — وجعل السلطان ذلك عوضا عن نفيهم .

وفيه عمل السلطان الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : جانى بك الفقيه الظاهرى وقرره فى الأميراخورية الكبرى عوضا عن بردبك هجين ، وقرر فى الأميراخورية الثانية يشبك حسن عوضا عن جانى بك الفقيه بحكم انتقاله ، وقرر فى حسبة القاهرة قانصوه الخفيف تاجر المماليك وأنعم عليه بامرية عشرة .

وفيه رسم السلطان باخراج خير بك الذى تسلطن — وقد سمته العوام « سلطان ليلة » — فخرج تحت الليل وهو مقيد راكب فرسا والأوجاقى يردفه على جارى العادة . فلما وصل الى شاطىء البحر نزل فى الحراقة وانحدر حتى وصل الى ثغر اسكندرية فسجن بها ، ورجع من كان معه من الاينالية .

وبه زالت دولة الخشقدمية كأنها لم تكن ... فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير .

وفيه نودى من قبل السلطان بابطال المشاهرة التى تتعلق بالمحتسب — وهى نحو ألف دينار فى كل شهر — فبطل ذلك مدة يسيرة ثم عاد بعد ذلك كل شىء على عادته .

وفيه ابتدأ السلطان بتفرقة الأقاطيع على الجند — وكان أكثرهم اينالية — وأمر منهم جماعة

كثيرة حتى رضوا ، وكان قصدهم اثارة فتنة ، واتفقوا مع الخشقدمية على ذلك ، ثم غلب سعد الأشرف قايتباى على ما قصدوه وخمدت تلك الفتنة .

وفيه قرر فى أتابكية دمشق شادى بك الجلبانى عوضا عن سرامرد العثمانى بحكم القبض عليه .

وفيه وصل سودون البرقى من دمشق من غير اذن السلطان — وكان عين من جملة المقدمين بمصر — فلما حضر أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف ، وعين للتجريدة وكان مريضا فأعفى من السفر وأقام بمصر مدة ومات .

وفيه أحضر أزدمر الابراهيمى الطويل — وكان مسجونا بقلعة دمشق — فلما حضر أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف ، وقد صار يدارى الاينالية مداراة .

وفيه عرض السلطان العساكر بسبب التجريدة لسوار ، واستمر جالسا على الدكة وهو يعرض ويكتب الى ما بعد العصر ، ثم ضيق على أولاد الناس ، وألزمهم بالسفر الى سوار أو يقيموا لهم بدلا ، فصار يأخذ من كل واحد — ان كان لا يسافر — مائة دينار عوضا عن البديل الى السفر ، وقرر على جماعة من المباشرين جملة مال وأمرهم باحضاره بسرعة ليستعين به على نفقة العسكر ... فهذه أول شدة وقعت منه فى حق الناس . واستمر الأمر منه يتزايد فى كل يوم حتى جاوز الحد فى ذلك ، وكان ما سنذكره فى موضعه . فلما تكامل حضور المال حملت النفقات للأمراء المعينين للسفر ، فحمل للأتابكى جانى بك قلقسير أربعة آلاف دينار ، ثم حمل لبقية الأمراء المقدمين لكل واحد ثلاثة آلاف دينار ، وللأمراء الطبلخانات لكل واحد خمسمائة دينار ، وللأمراء العشراوات لكل واحد مائتا دينار ، وأنفق على الجند لكل واحد من المماليك مائة دينار ، وهذا على العادة القديمة الجارية بها العوائد . فلما تزايد أمر التجاريد تضاعفت النفقات جدا حتى بلغت نفقة الأتابكى ازبك بن ططخ نحوا من ثلاثين ألف دينار فى كل سفرة على ما سيأتى ذكر ذلك فى محله .

* * *

وفى شعبان خلع السلطان على يشبك السيفى على باى وقرره فى نيابة قلعة دمشق ، وقرر فى حجوبية الحجاب بدمشق ابراهيم بن بيغوت ، وقرر فى نيابة قلعة حلب تمر باى أخا ألماس .

وفيه أحضر السلطان الشهابى أحمد بن العينى بين يديه فى الدهيشة ووبخه بالكلام بسبب ما قرر عليه من المال الذى لم يورد منه شيئا ، فسطحه على الأرض بالدهيشة وقام وضربه بيده نحوا من عشرين عصا حتى شق كعبه وأدماه وأغمى عليه ، فشفع فيه بعض الأمراء وتوجهوا به الى طبقة الزمام فأقام بها أياما ، ثم تسلمه يشبك بن مهدى أمير دوادار كبير فنزل به الى داره ليورد ما قرر عليه من المال . وكان ابن العينى لما قرر فى أمرية مجلس ونزل من باب السلسلة سكن فى بيت جانى بك نائب جدة المشهور ، فلما انكسر خير بك وزال أمر الخشقدمية نهبوا بيت ابن العينى عن آخره حتى قيل نهب له من البرك والقماش شىء بنحو من خمسين ألف دينار . وكان ابن العينى ماشيا على طريقة أولاد السلاطين حتى أطلق عليه عزيز مصر ، وربما تعصب له بعض جماعة من الخشقدمية بأنه يتسلطن بعد خلع الظاهر بلباى من السلطنة ولم يتم له ذلك . وقد لطف الله تعالى به حيث لم يتسلطن فكان يقضى عمره كله فى القيد والسجن الى أن يموت .

وفيه ، فى يوم الاثنين ثانى عشره ، خرج الأمراء والعسكر المعينون للتجريدة ، وكان لهم يوم مشهود — وهذه أول تجريدة خرجت من مصر الى شاه سوار — فكانوا نحو عشرين أميرا ما بين

مقدمى ألوف وطبلخانات وعشراوات ، ومن الجند فوق ألف مملوك . ثم فى ليالى السفر أنفق السلطان جامكية أربعة أشهر معجلا ، وصرف لهم الكسوة ، وأعطى لكل واحد منهم جملا ، وأرضى العسكر بكل ما يمكن .

وفيه ركب السلطان ودار على الميدان حول القلعة . فلما عاد طلع من باب السلسلة ، وكان نزل الى الميدان ، وهو أول ركوبه ونزوله من القلعة وهو سلطان ثم تكرر ركوبه من بعد ذلك ليلا ونهارا حتى خرج ذلك عن الحد،فترك بعض المؤرخين ضبط ركوبه ونزوله من القلعة اذ لم يحص ذلك بعد أن كان ركوب السلطان نادرة مما يؤرخ فى التواريخ القديمة .

وفيه اختفى الوزير قاسم شغيته . فلما اختفى خلع السلطان على عبد القادر ناظر الدولة بالتحدث فى الوزارة حتى يقرر بها من يختار .

وفيه قرر دمرداش العثمانى فى نيابة القدس عوضا عن محمد بن حسن بن أيوب ، وقرر فى نظر القدس برد بك التاجى عوضا عن حسن التميمى .

وفيه خلع السلطان على شاهين الجمالى وقرره فى نيابة جدة ، وقرر أبو الفتح المنوفى — موقع السلطان وهو أمير — فى نظر جدة مستوفيا على شاهين .

وفيه أفرج السلطان عن الشهابى أحمد بن العينى ، وخلع عليه كاملية بسمور ، ونزل الى داره ، وقد تحفظ أمره بواسطة الأمير يشبك الدوادار . والتزم ابن العينى بأن يورد فى كل شهر عشرين ألف دينار من الذهب النقد ، فكان جملة ما أورده للخزانة الشريفة مائة ألف دينار وتسعة وثلاثين ألف دينار ، وذلك خارج عن تعلقاته وجهاته . وهذه من النوادر الغريبة حيث جمع ابن العينى هذه الأموال الجزيلة فى دون الأربع سنين منذ قرر فى التقدمة الى أن قبض عليه ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه ركب السلطان ونزل الى القرافة وزار الأولياء ، وعاد من طريق قناطر السباع ، ودخل الى دار سودون البرقى وعاده فى مرضه ، وأقام عنده ساعة ، ثم ركب وطلع الى القلعة .

وفيه أخرج السلطان جماعة من الخشقدمية الى جهة الوجه القبلى مع الكشاف وغيرهم كما كانت عادة المماليك الاينالية .

وفيه قرر بيبرس الأشقر فى أتابكية صفد

وفيه توفى سودون البرقى — وكان يعرف بالتمشى — وكان أصله من مماليك الظاهر چقمق وقاسى محنا وشدائد ونفى واختفى وكان انسانا حسنا ، وعندما بقى مقدم ألف مات فى سنته .

وفيه خلع السلطان على الصاحب شمس الدين محمد — والد الصاحب علاء الدين الاهناسى — وقرره فى الوزارة عوضا عن قاسم شغيته ، وقرر ولده محمدا فى نظر الدولة عوضا عن عبد القادر .

وفيه أشيع أنه فقد من الخزينة السلطانية نحو عشرين ألف دينار ، فظهر أن خوند سوارباى وسرارى الظاهر خشقدم قد سرقوا ذلك ، فرسم السلطان على خوند سوارباى وأقامت فى الترسيم مدة حتى أرضت السلطان .

وفيه وصل الى الأبواب الشريفة السيد على بن بركات الحسنى وقد غضب من أخيه محمد سلطان مكة . فلما طلع الى القلعة أكرمه السلطان وخلع عليه واستمر مقيما بمصر ورتب له ما يكفيه الى أن مات بعد مدة طويلة . وكان السيد محمد سلطان مكة أرسل للسلطان ستين ألف دينار على أنه يعوقه عنده بمصر حتى لا يقيم فتنة بمكة ، شرفها الله وعظمها .

وفيه ركب السلطان ونزل الى القرافة وزار الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما

ورحمهما ، ثم سار الى بركة الحبش ولعب بالكرة ، ثم عاد الى القلعة وخلع على تانى بك المعلم كاملية بسمور وقد أعجبه ضربه للكرة .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة — وهو أول بخارى ختم للسلطان — وكان يوما مشهودا . وحضر القضاة الأربعة وأعيان العلماء ، وفرقت الصرر على من له عادة ، وكذلك الخلع فرقت على أعيان العلماء ، وكان ختما حافلا .

* * *

وفى شوال وقعت غلوة خفيفة بالقاهرة ، وتشحطت الغلال وارتفع سعرها ، فاشتكت الناس للسلطان ، وصار اذا شق من القاهرة يسمعونه الكلام المنكى .

وفيه توعك السلطان وانقطع من الموكب أياما ، ثم شفى فأقيمت الخدمة بالقصر لأجل خروج الحاج .

وفيه قدم جانى بك حبيب من بلاد الروم — وكان هاربا من أيام الظاهر خشقدم — فتوجه الى بلاد ابن عثمان . فلما حضر أكرمه السلطان وخلع عليه وبعث اليه الأمير يشبك الدوادار بألف دينار ليرقع أحواله .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة نظام الدين بن مفلح قاضى القضاة الحنبلى بدمشق ، وكان من أهل العلم

وفيه صعدت الى القلعة خوند فاطمة بنت العلائى على بن خاصبك ، فكان لها يوم مشهود . وكانت مقيمة بدار السلطان التى بسوق الغنم الى أن طلعت القلعة فى ذلك اليوم

* * *

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار بأن العسكر الذى توجه الى شاه سوار قد انكسر كسرة شنيعة ، وأسر الأتابكى قلقسير ، وقتل جماعة من الأمراء والجند وقتل منهم ما لا يحصى ، وكان غالب العسكر من الخشقدمية ، وقتل من الأمراء المقدمين الأمير برد بك هجين المحمودى الظاهرى أمير سلاح ، وأصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان لا بأس به . وجرح الأمير تمر حاجب الحجاب فى وجهه . وأما من قتل من الأمراء العشراوات فمنهم أيدك الأشرفى ، واسنبغا بن صفر خجا المؤيدى نائب باب القلعة ، وتمرباى الساقى الأشرفى ، وقانصوه النوروزى ، وتمرباى قزل الظاهرى ، وتانى بك السيفى ، وجانى بك الثور ، وجانى بك البواب المؤيدى ، وقطلوباى المحمودى الأشرفى العزيزى ، ومغلباى الخليلى الأشرفى ، ويشبك الغزى الظاهرى ، ويشبك الأشقر . قيل انه فوجر على سوار فضرب عنقه بين يديه وأما من قتل من الخاصكية والمماليك السلطانية فما ضبطوا . وقد نهب برك الأمراء والعسكر قاطبة ، والذى سلم دخل الى حلب فى أسوأ حال من العرى والمشى ، وقد قوى أمر سوار ، وتوجه الى عينتاب وحاصر قلعتها وملك البلد ، وأشيع بين الناس أن ابن عثمان ملك الروم أرسل نجدة من عسكره الى سوار .

وفيه جاءت الأخبار من البحيرة بأن العربان قد تحالفوا على الخروج عن طاعة السلطان ، فوثبوا هناك وأحرقوا الجرون ونهبوا بلاد المقطعين فلما بلغ السلطان ذلك عين تجريدة بها عدة من الأمراء ، وعين تجريدة الى الشرقية وتجريدة الى الوجه القبلى بسبب أولاد ابن عمر ، ثم خلع على شيخ العرب صقر وقرره فى مشيخة عربان البحيرة ، ثم عزل خشقدم ، كاشف البحيرة ، وولاها لمحمد الصغير . فلما وردت أخبار كسرة العسكر على يد سوار اشتغل السلطان بذلك عن كل شىء ، ودهمته هذه الأمور الشنيعة عن التجاريد التى عينها .

وفيه ابتدأ السلطان بوقوع المساوى منه ، فأخرج قرية انبابه عن الخليفة المستنجد بالله

يوسف ، وكانت بيده من حين تسلطن المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال ، وكان أقطعها له لما تسلطن فأخرجها السلطان عنه باسم جانى بك حبيب . ثم بعد مدة يسيرة أخرج عنه جزيرة ابن الصابونى وأقطعها لبعض مماليكه ... فعد ذلك من مساويه .

وفيه وصل قانصوه الجيلانى الحاجب بدمشق وعلى يده مكاتيب أزبك نائب الشام يخبر فيها بكسر العسكر ودخولهم الى حلب وهم فى أسوأ حال ، وأن أزبك نائب الشام دخل الى حلب وهو مجروح فى وجهه ، وليس اه برك ولا قماش ولا مماليك ، ودخل نائب حلب ونائب طرابلس على هذا الوجه ودخل غالب العسكر عرايا مشاة . وكانت هذه الواقعة فى يوم الاثنين سابع ذى القعدة من السنة المذكورة . فلما وردت هذه الأخبار ماجت القاهرة وحار السلطان فى أمره ، وما يظن أن سوارا يقوى على العسكر لكثرته .

وفيه جاءت الأخبار عقيب ذلك بأن سوارا سجن الأتابكي جانى بك قلقسيز فى جب ، وأن عسكر سوار قد قوى بما نهبه من العسكر من خيول وسلاح وبرك ، وقد عزم سوار بأن يزحف على حلب فلما تحقق السلطان ذلك أمر بعقد مجلس بالقلعة ، فحضر الخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة الأربعة — وهم ولى الدين الأسيوطى الشافعى ، ومحب الدين بن الشحنة الحنفى ، وحسام الدين بن حريز المالكى ، وعز الدين الحنبلى — وحضر شيخ الاسلام أمين الدين يحيى الاقصرائى ومشايخ من العلماء ، وحضر سائر الأمراء ، وكان هذا المجلس بالحوش السلطانى . فلما تكامل المجلس قام القاضى كاتب السر أبو بكر بن مزهر ، وتكلم عن لسان السلطان ، ووجه الخطاب الى الخليفة والقضاة ومشايخ العلم بما معناه من كلام طويل بأن بيت المال مشحوت من المال ، وأن سوار الباغى قد استطال على البلاد وقتل العباد ، ولابد من خروج تجريدة عسكر لتحمى بلاد السلطان ، وأن العسكر يحتاج الى نفقة ، وليس فى بيت المال شىء ، وأن كثيرا من الناس معهم زيادة فى أرزاقهم ووظائفهم ، وأن الأوقاف قد كثرت على الجوامع والمساجد ، وأن قصد السلطان يبقى لهم ما يقوم بالشعائر فقط ويدخل الفائض الى الذخيرة ... فمال الخليفة وقضاة الجاه الى شىء من معنى الاجابة الى ذلك . فبينما هم على ذلك اذ حضر شيخ الاسلام أمين الدين الاقصرائى الحنفى — وكان قد تأخر عن الحضور فأرسل خلفه السلطان — فلما حضر أعاد اليه كاتب السر الكلام الذى وقع فى أول المجلس . فلما سمع هذا الكلام أنكره غاية الانكار وقال فى الملأ العام من ذلك المجلس : « لا يحل للسلطان أن يأخذ أموال الناس الا بوجه شرعي واذا نفد جميع ما فى بيت المال ينظر الى ما فى أيدى الأمراء والجند وحلى النساء فيأخذ منه ما يحتاج اليه . واذا لم يوف بالحاجة ، ففى ذلك ينظر فى المهم : ان كان ضروريا فى المنع عن المسلمين حل ذلك بشرائط متعددة ... وهذا هو دين الله تعالى ، ان سمعت آجرك الله على ذلك ، وان لم تسمع فافعل ما شئت ، فانا نخشى من الله تعالى أن يسألنا يوم القيامة ويقول لنا : لم لا نهيتموه عن ذلك وأوضحتم له الحق ؟... ولكن السلطان ان أراد أن يفعل شيئا يخالف الشرع فلا يجمعنا ، ولكن بدعوة فقير صادق يكفيكم الله مؤنة هذا الأمر كله » ... ثم قام ... فانجبه منه السلطان ، وانفض المجلس من غير طائل ، وكثر القال والقيل ، وشكر الأمراء الشيخ أمين الدين على ذلك وغالب الناس ، وكثر الدعاء فى ذلك اليوم للشيخ أمين

الدين رحمه الله ، وعد هذا المجلس من النوادر .

ثم ان السلطان نادى للجند بالعرض وأخذ فى أسباب خروج تجريدة . فلما أن دخل الدهيشة وهو فى غاية الحدة من الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، واذا بالأخبار جاءت اليه من ثغر دمياط بفرار الظاهر تمربغا من دمياط ، وأن شيخ العرب محمد بن عجلان وعيسى بن سيف الدين أنزلوه فى مركب وطلعوا به من الطينة وقصدوا به نواحى حلب . فلما تحقق السلطان ذلك اضطربت أحواله ، وضاق الأمر عليه من كل جانب ، ونسى ما كان فيه من أمر سوار وعرض العسكر .

ثم زاد القال والقيل فى هروب الظاهر تمربغا من دمياط ، فعند ذلك عين السلطان يشبك الدوادار بأن يخرج ويلاقى الظاهر تمربغا من غزة فخرج على جرائد الخيل مسرعا .

ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بأن لا يخرج أحد من بيته بعد صلاة العشاء ولا يحمل سلاحا ولا يحصل كلام ، وحصل للناس فى تلك الأيام غاية القلق .

وفيه قرر فى قضاء الشافعية بدمشق قطب الدين الخيضرى عوضا عن ابن الصابونى مضافا لما بيده من كتابة السر . ثم قرر فى نظر الجيش البدر ابن المزلق عوضا عن ابن الصابونى أيضا بحكم القبض عليه .

وفيه جاءت الأخبار بأن سبع وسباع — ولدى هجار — وثبا على الينابعة . وكان قد خرج اليهما على بن بركات — أخو صاحب مكة المشرفة — فكسروه ... وهذه أول فتنة الينبع .

وفيه عين السلطان تجريدة الى سوار — وهى التجريدة الثانية — فعين بها من الأمراء قرقماس الجلب أمير مجلس باش العسكر ، وسودون القصروى ، وقراجا الطويل الاينالى ، وازدمر الطويل الاينالى ، وعدة أمراء طبلخانات وعشراوات ، وعين من الجند فوق الألف مملوك .

وفيه جاءت الأخبار بأن سوارا قد أطلق الأتابكى جانى بك قلقسير وقد وصل الى قرب حلب .

وفيه جاءت الأخبار بقتل سبع وسباع ولدى هجار أمير الينبع ، وقد وقعت فتنة عظيمة بالينبع بين خنافر وبينهما حتى قتلهما ، وكان سبع وسباع حصل منهما غاية الضرر الشامل .

* * *

وفى ذى الحجة توفى شخص يسمى عصام الدين البخارى الحنفى ، وكان من أهل العلم ، وكان أكثر اقامته بدمشق ، واشتغل بدمشق على جماعة على مذهب أبى حنيفة ، وكان من الأفاضل .

وفيه جاءت الأخبار من غزة بأن أرغون شاه الأشرفى قد قبض على الظاهر تمربغا . فلما وصل الأمير يشبك الى بلبيس تلقاه وحمله فى محفة وتوجه به من هناك الى ثغر الاسكندرية من غير تقييد . ثم ان السلطان رفق به ولم يسجنه ، وقد رسم له بأن يسكن بدار الملك العزيز التى بالاسكندرية ، وأن يركب الى صلاة الجمعة والعيدين . ثم ان الظاهر تمربغا كتب للسلطان كتابا بخط يده وقال فيه : « المملوك تمربغا يقبل الأرض » ... وأرسل يعتذر اليه مما وقع منه بسبب تسحبه من دمياط ، واعتذر بأنه قصد التوجه الى شاه سوار ليصلح بينه وبين السلطان وتخمد هذه الفتنة ، كما قيل :

اذا كان وجه العذر ليس بواضح
فان اطراح العذر خير من العذر

وكان الظاهر تمربغا أرشل قليل الحظ معكوس الحركات فى أفعاله ، ليس له سعد ولا قسم له ، كما قيل :

دع التعرض ان الأمر مقدور
وليس للسعى فى الادراك تأثير
والمرء يعجز عن تحصيل خردلة
بالسعى ان لم تساعده المقادير

وفيه أيضا وصل أرغون شاه وعلى يده محضر بأنه سلم الظاهر تمربغا الى الأمير يشبك الدوادار الكبير وتوجه من بلبيس الى الاسكندرية . وكان أرغون شاه قبض على تمربغا لما خرج من الطينة ، فلما حضر أرغون شاه بين يدى السلطان شكره على ذلك ، وخلع عليه خلعة حافلة ، وأركبه على فرس بسرج ذهب وكنبوش ... فعز ذلك على جميع الظاهرية لكونه قبض على تمربغا ، ولم يكن هذا قصدهم

وفيه تزايد سعر القمح وانتهى الى سبعمائة درهم كل أردب ، ففتح السلطان شونه وباع منها بأقل من سبعمائة فحصل للناس بذلك بعض رفق .

وفيه ثارت المماليك بالقلعة ، ومنعوا الأمراء من الطلوع اليها ، وكادت أن تكون فتنة كبيرة . وسبب ذلك تأخر الوزير عن حمل اللحم المرتب والخبز .

وفيه قبض السلطان على الصاحب شمس الدين محمد والد الصاحب علاء الدين الاهناسى ووكل به فى طبقة الزمام .

وفيه توقف النيل عن الزيادة ثلاثة أيام ، فقلق الناس لدلك وزاد سعر القمح ، ثم بعث الله تعالى بالزيادة حتى حصل الوفاء .

وفيه توفى الشيخ تقى الدين أحمد بن محمد بن محمد بن حسن بن على الشمنى القسطينى ثم السكندرى الحنفى . وكان اماما عالما فاضلا خيرا دينا عارفا بالفقه والأصول ، وله تصانيف وتآليف فى فنون العلم ، أجازه البلقينى وابن الملقن والعراقى وغير ذلك من العلماء ، وكان عين للقضاء الأكبر غير ما مرة وهو يمتنع من ذلك .

وفيه قبض على شخص سرق ستر الامام الليث ابن سعد رضى الله عنه ، فرسم السلطان بقطع يده ، فشهر وقطعت يده .

وفيه توفى الشيخ شهاب الدين أحمد بن أسد بن عبد الواحد السيوطى ثم السكندرى الشافعى . وكان عالما فاضلا بارعا فى العلم ، عارفا بالقراءات بالروايات السبع ، ومولده سنة ثمانمائة .

وفيه أفرج عن الصاحب شمس الدين الاهناسى ، وخلع عليه باعادة الوزارة ، وصرف ولده محمد عن نظر الدولة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة أبى القاسم بن جهان شاه صاحب كرمان ، وكان لا بأس به . ولى على كرمان بعد أبيه ، وجرى عليه أمورشتى ، وآخر الأمر قتل .

وتوفى الشيخ أبو عبد الله محمد التونسى الموصلى المالكى رحمه الله تعالى . وكان عالما فاضلا من أكابر علماء تونس ، وعاش نحوا من سبعين سنة .

وتوفى قانصوه خوتى الأشرفى أحد مقدمى الألوف بدمشق رحمه الله تعالى .

وتوفى قراكير العثمانى ، المعروف بجماز الخاصكى ، وكان لا بأس به رحمه الله تعالى .

وتوفى طوغان ميق العمرى المؤيدى أحد الأمراء العشراوات .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب طرابلس الغرب .

وفيه توفى القاضى علم الدين أبو الفضل بن جلود كاتب المماليك ، وكان أصله من الأقباط

يسمى ابن اسحق ، وكان من أعيـان المباشرين ، ورأى من العز والعظمة غاية .

وخرجت هذه السنة وقد وقع فيهـا من الفتن والشرور والأنكاد مالا يكاد أن يضبط ، وقتـل فيها من العسكر والأمراء ما لا يحصى . وتولى فيها ثلاثة سلاطين بل أربعـة : بخير بك سلطان ليلة . وتوفى فيها الظاهر خشقدم ، وتبدد شمل جمـاعة الخشقدمية ، وزالت دولتهم ، ووقع فيهـا غاية الفساد فى البلاد الحلبية بسبب عصيان شاه سوار . وقد تقدم ما جرى من الضرر فى حق العسكر .

سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة (١٤٦٨/١٤٦٩ م) :

فيها ، فى المحرم ، صعد القضاة الى القلعة للتهنئة بالعام الجديد . فأمر السلطان بعقد مجلس بسبب مشترى مماليك الظاهر خشـقدم ، فاشترى من المماليـك الكتابية نحوا من خمسمائة ممـلوك ، ضريبة كل مملوك عشرة آلاف درهم ، وقد طمع فى حق أولاد الظاهر خشقدم .

وفيه خلع السلطان على عبد الكريم بن علم الدين بن جلود ، ، وقرره فى كتابة المماليك عوضا عن أبيه بحكم وفاته ، وكان شابا لم يلتح بعد

وفيـه عينت الأتابكيـة لأزبك بن ططخ نائب الشـام ، عوضا عن الأتابكى جانى بك قلقسيز ، بحكم أسره عند سوار ، فخرجت اليـه البشارة بذلك وطلب الى مصر سريعا ليلى الأتابكية .

وفيه ارسل السـلطان بالقبض على تانى بك المعلم ، الذى توجه أمير ركب المحمل ، فقبض عليه من العقبه وحمل للقدس بطالا .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الخواجا شهاب الدين ابن المزلق الدمشقى ، وكان من اعيـان التجـار بدمشق ، ولم يكن يلى شيئا من الوظائف كأخيه

وفيه توفى جانى بك قجا التمشى المؤيدى مات بطالا ، وكان بيده امرية عشرة .

وفيه ، فى ليلة خامس عشره خسف جميع جرم القمر حتى أظلمت الدنيا ، ودام على ذلك الى قرب آخر الليل حتى انجلى .

وفيه توفى شـاد بك شبق الأشرفى نائب ملطية أولا ، ثم بقى مقدم ألف بدمشق .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، فلمـا وفى توجه الأمير قرقماس الجلب أمير مجلس ، وفتـح السد على العادة .

وفيه توفى أصيل الحصرى ، وهو ابن محمد بن ابراهيم بن على بن عثمان بن يوسف بن عبد الرزاق ابن عبد الله المغربى — كان مالكى المذهب ، وكان عشير الناس ، كثير المداعبـات والنوادر ، لطيف الذات محبا لأرباب الدولة ، وعاش مدة من العمر طويلة ، وكان مولده سنة ثمان وثمانين وسبعمائة .

وفيه حضر الزينى عبد الرحمن بن الـكوير الذى كان ناظر الخـاص ، وقرر فى دولة الظاهر خشقدم ، فوجه الى ابن عثمان ملك الروم ، فأقام عنده حتى توفى الظاهر خشقدم فحضر الى القاهرة . فلما مثل بين يدى السلطان خلع عليه ونزل الى داره .

وفيـه حضر قاصد حسن الطويل ، وعلى يده مكاتبة بالتهنئة للسلطان بالملك ، وصحبته هـدية حافلة .

* * *

وفى مستهل صفر توفى العـلامة شمس الدين محمد بن ابراهيم الشروانى الشافعى . وكان اماما عالما فاضلا نادرة عصره ، بارعا فى فنون العـلم ، خضعت له الناس من أهل زمانه ، وشهرته تغنى عن مزيد ذكره ، ومولده سنة ثمانين وسبعمائة .

وفيه ركب السلطان ونزل من القلعة وتوجه الى نحو طره والعدوية على سبيل التنزه ، فأقام هناك الى آخر النهار ، ومد هناك أسمطة حافلة ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه توقف النيل عن الزيادة وقلق الناس لذلك ، وارتفع سعر الغلال ، وتكالب الناس على مشترى القمح ، ثم بعث الله بالزيادة .

وفيه خلع السلطان على بلباى الظاهرى أحد العشراوات ، وقرر فى نيابة الاسكندرية عوضا عن قانصوه اليحياوى — وقرر قانصوه اليحياوى نائب طرابلس عوضا عن اينال الأشقر — وقرر اينال الأشقر فى نيابة حلب عوضا عن برد بك البجمقدار ، بحكم انتقاله الى نيابة الشام عوضا عن أزبك بن ططخ ، بحكم انتقاله الى الأتابكية عوضا عن جانى بك قلقسير ، بحكم أسره عند شاه سوار .

وفيه نودى على الفلوس الجدد بأربعة وعشرين الرطل وكانت بستة وثلاثين ، فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر دمياط بوفاة الأمير مغلباوى طاز الأبو بكرى المؤيدى ، أحد مقدمى الألوف بمصر . مات بدمياط بطالا ، وكان خيرا دينا ، موصوفا بالشجاعة ، وهو صاحب الجامع الذى أنشأه بدرب الخازن — ومات وقد نيف على الثمانين سنة من العمر رحمه الله تعالى ، ونقل بعد موته الى القاهرة ودفن بتربته التى أنشأها .

وفيه وصل المقر السيفى أزبك نائب الشام ، فلما صعد الى القلعة أكرمه السلطان وخلع عليه ، وقرره فى الأتابكية ، عوضا عن جانى بك قلقسير بحكم أسره عند سوار ، فنزل الى داره فى موكب حافل ، وكان له يوم مشهود .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة خوند فاطمة بنت الأشرف اينال . وكانت توجهت الى الاسكندرية بسبب ختان أولاد أخيها الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال ، فطعنت هناك وماتت ، وكان الطعن عمالا بالاسكندرية ، فحملت الى القاهرة ، ودفنت بتربة أبيها الأشرف اينال . وكان تزوج بها كسباى الدوادار الثانى الخشقدمى ولم يدخل عليها ، وكانت قبل ذلك تزوجت بالأمير يونس البواب الدوادار الكبير ، وماتت وهى فى عصمة كسباى . وكانت شابة جميلة لها من العمر نحو من سبع وعشرين سنة ، فكثر عليها من الناس الأسف والحزن والبكاء . وكانت من الأخيار .

وفيه توقف السلطان عن صرف جوامك أولاد الناس وجماعة من الفقهاء والمتعممين ، وأحضر قوسا ثقيلا وبه سهم نشاب طومار ، وصار يدفعه لأولاد الناس . فكل من لا يقدر على سحبه يقطع جامكيته . فحصل لأولاد الناس فى ذلك اليوم كسر خاطر ، وافتضح منهم جماعة ، ووبخهم بالكلام ، ونزلوا من القلعة ، وهم فى غاية الفكر ، وقطع فى ذلك اليوم عدة جوامك ، فكثر الدعاء عليه بسبب ذلك .

وفيه توفى الطواشى سرور الطلايبهى شيخ الخدام بالحرم النبوى ، وكان قد طعن فى السن جدا . وتوفى القاضى شرف الدين عيسى العطولى الشافعى ، أحد نواب الشافعية ، وكان لا بأس به .

***

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة ، وكان يوما حافلا مشهودا .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة السلطان الملك الظاهر بلباى المؤيدى ، مات وهو

بالسجن بالطاعون ، وقد قاسى شدائد ومحنا وآخر الأمر مات قهرا ، وقد تقدم ذكره .

وفيه هبط النيل سريعا فى أثناء توت فتزايد أمر الغلال ، وشطح سعر القمح ، وابتدأ وقوع الطاعون بالقاهرة .

وفيه عين السلطان الأمير أزدمر الطويل الانالى بأن يخرج ومعه خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية الى حفظ البلاد الحلبية ، ويقيم بحلب الى أن تحضر التجريدة ويخرج عقيب ذلك . وكان بلغ السلطان بأن عسكر سوار نزل على قلعة دريدة وحاصرها فبادر الأمير أزدمر وخرج فى قلب الشتاء ليحفظ حلب . وكان ذلك عين الصواب

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قانم طاز الأشرفى أحد مقدمى الألوف بحلب ، مات وهو فى أسر سوار ، وكان موصوفا بالشجاعة والفروسية ، ومات وقد جاوز الستين من العمر

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى خانقاه سرياقوس ، ونصب هناك الخيام وأقام بها يومين ، وعمل هناك أسمطة حافلة ، وحضر هناك مع السلطان قاصد حسن الطويل ، وقاصد ملك الهند ، فكانت اقامتهم هنا مشهورة . وحصل للسلطان بذلك انشراح ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه قبض السلطان على الصاحب شمس الدين الاهناسي والد الصاحب علاء الدين — وسلمه الى الأمير يشبك الدوادار ، فعاقبه وسجنه عنده أياما ، ثم قرر عليه ألفى دينار وأطلقه .

وفيه جلس السلطان على الدكة بالحوش لتفرقة الجامكيه ، فقطع عدة جوامك لأولاد الناس والمتعممين ، وأحضر عنده ثلاثة أقواس بعضها أقوى من بعض ، وصار كلما دعا باسم شخص من أولاد الناس ، يدفع اليه من الأقواس قوسا ويأمره بجذبه ، فان أوفى جذبه كتبه للتجريدة ، أو يحمل مائة دينار عن بدل السفر ، وان لم يجذبه قطع جامكيته . وصار بعض الأمراء يشفع فيمن له ألف جامكية بأن يبقى على حاله ، ومنهم من ألزمه بخمسين دينارا لمن له ألف جامكية ، فحصل لأولاد الناس الضرر الشامل بسبب هذه المصادرة ، وهان عليهم ترك الجامكية من كثرة توبيخ السلطان لهم .

وفيه أنعم السلطان على برقوق شاد الشراب خاناه بتقدمة ألف ، وعلى قنبردى الدوادار الثانى بتقدمة ألف ، ثم فى آخر الجوامك قطع عدة جوامك للفقهاء والمتعممين ، وفعل بهم كما فعل بأولاد الناس فى مصادراتهم .

وفيه أمر السلطان باحضار علاء الدين بن الصابونى فى الدهيشة . فلما حضر أمر بضربه بين يديه ، فضرب ضربا مبرحا على رجليه ، وألزمه بحمل مائة ألف دينار ، فأذعن الى ذلك ثم حمل الى طبقة الزمام فى الترسيم ، ووكل به جماعة من الخاصكية الى أن يورد ما قرر عليه من المال

وفيه خلع السلطان على يشبك الدوادار خلعة حافلة كخلعه الأتابكى ، وقرره فى الوزارة مضافا للدوادارية الكبرى ، فأخذ الوزارة عن الصاحب شمس الدين والد الصاحب علاء الدين الاهناسى ، وقرر قاسم شغيته فى نظر الدولة ، عوضا عن محمد ابن شمس الدين الاهناسى ، . فلما تم أمر يشبك فى الوزارة أخذ فى قطع مرتبات اللحم التى كانت للفقهاء والمتعممين قاطبة ، وكان ذلك باذن السلطان . ففتك يشبك الدوادار غاية الفتك ، ورسم على جماعة من المتعممين ، وقصد أن يأخذ منهم ما أكلوه فى الماضى . وكان منهم من له أربع زبادى لحم ، والخمسة زبادى ، بل وأكثر من ذلك ، فرسم على بدر الدين الدميرى كتكوت حتى شفع فيه بعض الأمراء ، وهرب ، واختفى حمزة بن

البشرى ، واستمر مختفيا حتى مات بعد مــدة ، وحصل للفقهاء والمتعممين فى هذه الحركة غاية الضرر والبهدلة ، وما أبقى ممكنا فى ذلك . وقطع لحوم جماعة كثيرة من أولاد الناس والفقهاء والمتعممين والنســاء ، وكان القائم فى ذلك قاسم شــغيته ، وحسن للسلطان ذلك . وهذا أول فتح باب المظالم . وصار الأمر يتزايد من بعد ذلك .

وكان فى الزمن القديم تبــاع الزبادى اللحم ، وتشترى النســاء والفقهاء وغير ذلك من الناس ، فامتنع هــذا الأمر فى تلك الدولة ، وصار اللحم يصرف للمماليك فقط . وكان الوزراء المتقدمون يسدون هذا المسد للديوان أحسن الســداد ، مع كثرة اللحــوم المرتبة للناس على ذلك الديوان ، وآخر من كان قائما بسداد هذا الديوان : الصاحب علاء الدين ابن الاهناسى ، ثم ابن البباوى ، ثم ابن الصنيعة وغيره من الوزراء ، حتى ولى قاسم شــغيته ، فحسن ليشبك الدوادار ذلك حتى فعل بالناس ما فعل .

وفيه خرج الأتابكى أزبك بن ططخ الى جهــات البحيرة بسبب فساد العربان ، فأقام هناك مدة ثم عاد .

وفيه قرر سودون القصروى رأس نوبة النوب عوضا عن نانق الظاهرى ، بحكم وفاته .

وفيه قرر تالى بك الاينالى فى الدوادارية الثانية عوضا عن قنبردى الاينالى ، وقرر قانصوه الخفيف الاينالى فى شــادية الشرابخاناه ، وقرر جانى باى الخفيف الاينالى فى تجارة المماليك ، وقرر مثقال الحبشى الساقى فى مشيخة الحرم الشريف النبوى ، عوضا عن سرور الطلابيهى بحكم وفاته . وكان مثقال هذا عشير الناس كثير الانهماك على شرب الراح ، فمقتــه السلطان ، وألبسه مشيخة الحرم الشريف لعله يتوب . وفيه يقول المنصورى :

يمم لدى كف مثقال فراحتــه
فيها لمن أمه جود وأفضــال
واعجب له فرعاه الله من رجل
فيه قناطير خير وهو مثقــال

وفيه أنفق السلطان على العسكر المعين للتجريدة الى سوار ، فأعطى لكل مملوك مائة دينار .

وفيه خلع السلطان على يشبك جن وقرره فى الحاج بركب المحمل ، وكان قد قرر قبل ذلك فى امرية الأخورية الثانية . وخلع على يشبك الجمالى وقرره فى امرية الحاج فى الركب الأول .

وفيــه جاءت الأخبــار بأن حسن الطويل قد استولى على ممالك العراق ، وطرد من كان بها من الملوك ، وقد تزايدت عظمته جدا ، فخشى السلطان منــه فى الباطن ، وأخذ حذره ، ولكن شغله عنه أمر سوار .

وفيه أرسل السلطان نفقات الأمراء المعينين الى التجريدة ، فحمل لأزدمر الطويل ستة آلاف دينار ، وحمل لقجماس الطويل أحد الأمراء الطبلخانات خمسمائة دينار ، وحمل للأمراء العشراوات لكل واحد منهم مائتى دينار ... فكان الذى صرف على هذه التجريدة التى خرج فيها أزدمر الطويل ، ومن عين معه من الأمراء ومن الجنــد — وهم نحو من خمسمائة مملوك — ما يزيد على مائتى ألف دينار . فخرج أزدمر الطويل ومن عين معه من الأمراء ومن الجند ، فى أوائل الشتاء ليقيم فى حلب .

وفيه خرج علاء الدين بن الصابونى الى دمشق . وخرج معه خاصكى يقال له جانى بك الأشقر ، ليحضر ما بقى عليه من المال الذى التزم به ، فخرج الى دمشق فى الترسيم .

* * *

وفى ربيع الآخر طلع القضاة الى التهنئة بالشهر ،

فتكلم السلطان معهم فى المجلس فى قطع جوامك العواجز من الجند والنساء . وأخذ يشكو للقضاة من انشحات الديوان ، وخراب البلاد ، وصار يدعو على نفسه بالموت حتى يستريح مما هو فيـــه من التعب ... فطال الكلام فى ذلك المجلس بسـبب ذلك ، ثم انفض الأمر من غير طائل ، وقام القضاة ونزلوا من القلعــة . فلمــا فرق الجــامكية فى الشهر الأول المذكور ، جلس على عادته ، واستدعى بالجامكية ، وصار يقطع عدة جوامك للعواجز من الجند والأيتام والنساء . وصار فى كل شهر على عادته ، تفرق الجامكية بحضرته ، ويقطع فى كل شهر للناس بحسب ما يختار منها . وهو أول من جلس على تفرقة الجامكية بنفســه من الملوك ، واستمر ذلك من بعده تفعله الملوك الى يومنا هذا فى كل يوم تفرق فيه الجامكية . ولم يعهد هذا من ملك قبله أنه حضر تفرقة الجامكية بنفسه .

وفيه قرر يشبك البجاسى الذى كان نائب حلب وعزل . قرره السلطان فى نيابة حماه عوضا عن محمد بن مبارك فعد هذا من النوادر ، لكونه قرر فى نيابة حماه بعد نيابة حلب .

وفيه خلع السلطان على يشبك الجمالى ، وقرره فى الحسبة عوضا عن قانصوه الخفيف ، بحكم انتقاله الى شادية الشرابخـــاناه . فجــاء يشبك الجمــالى فى الحســبة على الأوضاع ، وصار له حرمة وافرة .

* * *

وفى جمادى الأولى توفى الأمير جوهر التركمانى اليشبكى الخازندار الكبير والزمام ، وكان هندى الجنس ، سيىء الخلق ، غير محمود السيرة .

وفيه خرج تمراز الشمسى قريب السلطان وتوجه الى الغربية للكشف على الجسور ، وصار يتوجه اليها فى كل سنة ، ويقيم بها أشهرا .

وفيه توفى العرس خليل والد شيخنا الشيخ عبد الباسط الحنفى ، وهو خليل بن شاهين الصفوى الأشرفى ، وكان ذكيا لبيبا عارفا . تولى عدة وظائف سنية من الوزارة ونيابة الكرك ، ونيابة القدس ، ونيابة ملطية ، وأتابكية حلب ، ونيابة الاسكندرية ، وتقدمة ألف بدمشق ، وحج بالناس أمير المحمل . وكان من أعيـــان الرؤســـاء ، وكان نادرة فى أولاد الناس ، وكان مولده سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، وكان حنفى المذهب ، اشـــتغل على جمـــاعة من العلماء ، وأجازه فى الحديث الحافظ بن حجر .

وفيــه خلع عــلى الطواشى جوهر النوروزى الحبشى ، وقرره فى الزمامية والخازندارية الكبرى عوضا عن جوهر التركمانى .

وفيه توفى الشـــيخ المسلك العــارف بالله تعالى حسام الدين حسين بن محمود الأصفهانى الرفاعى الشافعى ، وكان دينا خيرا لا بأس به .

وفيه عاد الأمير يشــبك الدوادار من الوجه القبــلى . وقد نهب البــلاد ، وأسر نساء العربان وأولادهم ، حتى قيل أحضر معه نحوا من أربعمائة امرأة ، وقد مات منهن من الجوع عـــدة كثيرة . فلما عاد يشــبك حصل من العــربان بسبب ذلك ما لا خير فيه فى البلاد ، وسلب المسافرين ، ووقع منهم غاية الفساد .

وفيه جاءت الأخبــار بوفاة شيــخ العــرب حسن بن بغداد ، أحد مشايخ الغربية ، وكان فى سعة من المــال ، فأحاط الســلطان على موجوده قاطبة .

* * *

وفى جمادى الآخرة ارتفع سعر الغلال عما كان ،

واشتد الغلاء على الناس ، وجاءت الأخبار بافشاء الطاعون باقليم البحيرة .

وفيه توفى الطواشي شاهين غزالى الظاهرى الرومى ، وكان بارعا فى الجمال ، وافتتن به كثير من النساء والرجال ، وكان حسن الشكل ، وافر العقل ، كثير الأدب ، حشما فى نفسه . وكان فى سعة من المال ، غاويا متجرا ، وكان منهمكا فى ملاذ نفسه . فلما مات نزل السلطان وصلى عليه ، ثم توجه من الصلاة الى بركة الحبش ، وأقام بها الى آخر النهار ، ثم عاد الى القلعة . وفى شاهين غزالى يقول الشهاب المنصورى :

قد صاغك الله من لطف ومن كرم
وزاد حسنك بالاحسان تزيينا
فاخفض جناح الرضا واصطد طيور وغى
من جو اخلاصنا ان كنت شاهينا

وقال آخر :

أيها العشاق اصغوا واسمعوا حسن مقالى
كل عاشق لو غزال وأنا شاهين غزالى

وفيه ذكرت أعجوبة ... نقل شيخنا الشيخ عبد الباسط بن خليل الحنفى فى تاريخه أن شخصا من الجند يقال له يوسف السيفى يشبك الصوفى ، خرج ليسير نحو الجبل المقطم ، فرأى حصاة مرمية فى الأرض ، فأخذها فاذا عليها مكتوب بخط جيد قديم : « قد قرب الوقت فاعتبروا واتقوا الله » وهى كتابة بغير نقط ، ولا شكل ، فأحضرها بين يدى الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، حتي رآها وتعجب من ذلك ، ولكن طعن فيها بعض الناس ، وقال انها مصنوعة ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

وفيه عرض السلطان العسكر ، وأخذ فى أسباب خروج العسكر الى سوار ، وهى التجريدة الثانية ، فعين باش العسكر الأتابكى أزبك بن ططخ وقرقماس الجلب أمير مجلس ، وسودون القصروى رأس نوبة النوب ، وتمر حاجب الحجاب ، وقراجا الطويل الاينالى .. ومن الأمراء الطبلخانات خاير بك ابن حديد ، وجانى بك الزينى ، ومن الأمراء العشراوات زيادة على العشرين أميرا . ثم رسم لأولاد الناس : من أراد السفر فليسافر ، ومن لم يسافر يحمل الى بيت المال مائة دينار ويقدمها بدلا عنه ، وهذا لمن يكون له جامكية واقطاع ، ومن لم يكن له اقطاع وله ألف دينار أو له جامكية ألف درهم ، يحمل خمسة وعشرين دينارا .

وفيه قبض السلطان على الشهابى أحمد بن العينى ، وسجن بالقلعة ليورد بقية المال الذى كان قرر عليه ، فأقام بالقلعة أياما حتى حمل ما عليه من المال المقرر . فعند ذلك خلع عليه السلطان ونزل الى داره .

وفيه أنفق السلطان على العسكر لكل مملوك مائة دينار ، ولكل أمير مقدم ألف : ألفا دينار . وحمل للأمراء الطبلخانات لكل واحد خمسمائة دينار ، وللأمراء العشراوات لكل واحد مائتا دينار . فكان جملة ما صرف على هذه التجريدة نحوا من أربعمائة ألف دينار ... فلما كان يوم الموكب طلع قرقماس الجلب الى القلعة ، وطلب من السلطان الاعفاء من السفر ، وأظهر العجز ، وأن يكون طرخانا فى أى مكان يختار السلطان . فلم يجب الى ذلك وخاشنه السلطان فى اللفظ ، وألزمه بالسفر ، وأكد عليه . فلما نزل الى داره كثر القيل والقال ، بأن ستكون فتنة . فلما بلغ السلطان ذلك لم يؤثر عنده ، ونزل الى خليج الزعفران وأقام به الى آخر النهار . ثم عاد الى القلعة وبطلت تلك الاشاعة .

* * *

وفى رجب حضر من البحيرة الأتابكى أزبك فلما نزلت له النفقة تمنع من السفر ، وزعم أنه لا يطيق

مماليك السلطان اذا عمل باش العسكر ، فما زال يتلطف به حتى أجاب الى السفر ، وقبل منه النفقة .

وفيه وصل قاصد حسن الطويل ، وعلى يده هدية للسلطان ، ومكاتبة تتضمن ما ملكه من القلاع من ملك العراقين ، وعلى يده عدة مفاتيح لعدة قلاع وحصون . وأرسل يتملق للسلطان بأن كل ما يملكه من البلاد هو زيادة فى ممالك السلطان ، وأنه النائب عنه فيها ، فأكرم السلطان قاصده ، وأضافه ، وخلع عليه كاملية حافلة ، وأرسل الى حسن الطويل هدية حسنة سنية ، وأذن للقاصد بالسفر . وكان هذا من حسن الطويل عين الخداع لما يأتى منه بعد ذلك .

وفيه توفى القاضى معين الدين ابن الطرابلسى الحنفى ، وهو محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن أحمد بن أبى بكر الطرابلسى وكان عالما فاضلا ، ناب فى القضاء مدة . ثم نزل عن ذلك ، ولزم العبادة والتصوف حتى مات .

وفيه أكمل السلطان تفرقة النفقة على العسكر المعين الى تجريدة سوار . ثم ابتدأ بتفرقة الجمال . ثم عجل لهم جامكية أربعة أشهر ، وأعطاهم الكسوة أيضا ، وأرضاهم بكل ما يمكن . ووقع فى يوم تفرقة الجمال نادرة غريبة : وهى أن الهجانة لما أحضروا الجمال وساقوها الى الميدان ، تزاحمت عند باب الميدان وقت دخولها ، فمات منها فى ساعة واحدة ، نحو من ثلثمائة بعير ، فتشاءم الناس لذلك وصرحوا بعدم نصرة العسكر ، وكذلك جرى .

وفيه كان ابتداء وقوع الطاعون بالقاهرة وهو أول طاعون وقع فى دولة الأشرف قايتباى .

* * *

وفى شعبان توفى قاضى القضاة المالكى حسام الدين بن حريز بن أبى القاسم الهاشمى القرشى العلوى الحسنى ، وكان أصله مغربيا من طربطاى ، ثم نشأ بمنفلوط ، وولى القضاء بها مدة طويلة ، وكان عالما فاضلا جوادا سمحا ، فى سعة من المال ، سمع على ولى الدين العراقى وغيره من العلماء ، وآل أمره الى أن ولى القضاء الأكبر بمصر ، وصفا له الوقت ، وطالت أيامه بها . وعظم أمره فى القضاء ، وكان مولده سنة أربع وثمانمائة وكان يعاب بكثرة القيام فى أغراض نفسه . ولما مات تولى من بعده أخوه عمر سراج الدين ، وقرر فى قضاء المالكية عوضا عن أخيه . وتوفى المسند شمس الدين محمد بن النقاش الوفائى الصوفى الشافعى سمع الحديث من والده الشيخ سراج الدين عمر بن عمر بن حسن .

وفيه تزايد أمر الطاعون جدا ، وعمل فى الأطفال والمماليك والعبيد والجوارى والغرباء عملا بليغا ذريعا ، حتى عظم الأمر فى ذلك . وفيه يقول الشهاب المنصورى :

يا نعم عيشة مصر وبئس ما قد دهاها
لما فشا الطعن فيها حاكى السهام وباها

وفيه خلع السلطان على المقر السيفى يشبك الدوادار ، وقرره فى الاستدارية ، مضافا لما بيده من الدوادارية والوزارة وكشوفية الكشاف ، فعظم أمره جدا . وما أظن أن هذه الوظائف قد جمعت لأحد من الأمراء قبله . فكان الانسان اذا قرب من بابه يستعيذ بالله من هول ما يرى من الظلمة التى ببابه . فلما ولى يشبك الاستادارية قبض على مجد الدين بن البقرى ، وشرف الدين بن كاتب غريب ، وطلب منهما مالا . فحصل من ابن البقرى خمسة آلاف دينار . وأما ابن كاتب غريب فانه أظهر العجز ، وحلف أنه لا يملك شيئا ، وكان متمرضا ، فرسم السلطان بحمله الى البرج الذى بالقلعة ، فسجن به .

وفيه خرج العسكر المعين الى سوار ، فخرجوا من القاهرة فى تجمل زائد ، وطلبوا أطلابا حافلة ... فخرج الأتابكى أزبك ومعه من العسكر والأمراء ما تقدم ذكره ، وخرج قبل ذلك الأمير أزدمر الطويل ، ومعه خمسمائة مملوك . فصار الطاعون عمالا ، والتجريدة خارجة ، والعسكر فى غاية الضرر على أولادهم وعيالهم . ومات فى أثناء الطريق جماعة كثيرة بعد خروجهم من الريدانية . وقيل ان السلطان نزل تحت الليل الى الأتابكى أزبك ، وأقام عنده ساعة وودعه ، وعاد الى القلعة كل ذلك تحت الليل ، ولم يشعر به أحد من الناس.

وفيه توفى الأديب البارع الفاضل الشهاب بن صالح ، وهو أحمد بن محمد بن صالح بن عثمان ابن محمد الشافعى . وكان عالما فاضلا شاعرا ماهرا من فحول الشعراء . وله نظم حسن السبك ومولده سنة عشرين وثمانمائة . ومن شعره الرقيق فيمن أهدى اليه بطيخا وقطرا قوله :

بعثت الى بطيخا وقطرا
يشابه ذاك هذا فى الصفات
هما نوعان عند الذوق كل
تولد فى الحقيقة من نبات

وله فى اسم فرج :

شكا فؤادى هم الصد يافرج
وفيك أصبح صدرى ضيقا حرجا
واستيأس القلب حتى رحت أنشده
يامشتكى الهم دعه وانتظر فرجا

والتورية فيه ثلاثية

وفيه عظم أمر الطاعون بالقاهرة . وصارت الغرباء يموتون فى الطرقات بعضهم على بعض ، فشرع الأمير يشبك الدوادار فى بناء مغسل بالقرب من مدرسة السلطان حسن . وصارت تحمل اليه الطرحاء من الموتى ، فيكفنهم ويخرجهم ويدفنهم ويصرف عليهم من ماله ، فحصل للناس بذلك غاية الرفق فى تلك الأيام .

* * *

وفى رمضان اشتد الغلاء والفناء بمصر والشام وحلب ، حتى قيل بيعت الغرارة القمح بدمشق بنحو من أربعين دينارا ، وزيادة .

وفيه مات للسلطان ولد اسمه سيدى أحمد ، وهو أول أولاده من خوند الخاصكية ، وكان عمر ابن السلطان نحوا من أربع سنين ... ثم ماتت له ابنة اسمها ست الجراكسة ، وعمرها نحو من ست سنين من خوند أيضا .

وفيه توفى الطواشى لؤلؤ الزمام الأشرفى ، وكان خازندار كبير زمام . وتوفى يشبك خازندار الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال ، وكان أمير عشرة . ومات مغلباى الخشقدمى ، وكان من الأمراء العشراوات ، ومات ابن أخت السلطان وكان شابا حسنا صغير السن ، ومات جان بلاط الاينالى أحد الأمراء العشراوات . ومات جكم المحمدى الخشقدمى أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان حاجب ثانى . ومات اينال باى ميق الأشرفى أحد الأمراء العشراوات ، ومات آقبردى الهوارى الاينالى أحد الأمراء العشراوات . ومات قانى باى الحسنى الاينالى رأس النوب . ومات آنص باى الأعور الاينالى أمير آخور التبن والدريس ، ومات أركماس قرا أحد الأمراء العشراوات ، ومات قانى باى الحسينى الاينالى أحد العشراوات وكان والى القاهرة ، وكان غير عسوف فى ولايته .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة بيبرس خال الملك العزيز ، ومات بالقدس بطالا . وكان فى عشر الثمانين . وولى عدة وظائف سنية ، وجرى عليه

شدائد ومحن ، وكان الخشقدمى لا بأس به فى جماعة الأشرفية .

وفيه توفى الشيخ جمال الدين أبو الفضل خطيب مكة ، وهو محمد بن محمد بن أحمد العقيلى النويرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا ، سمع على جماعة من العلماء ، وولى خطابة مكة ، ثم قدم الى مصر وأقام بها الى أن مات وكان معظما عند أرباب الدولة ، وقد ترشح أمره لأن يلى القضاء بمصر ، فما تم له ذلك .

وفيه حصل للأمير يشبك الدوادار توعك فى جسده . فنزل اليه السلطان وعاده .

* * *

وفى شوال تناقص أمر الطاعون ، وأخذ فى الارتفاع ، بعد ما فتك فى الناس فتكا ذريعا .

وفيه خلع السلطان على قانى باى آنص الساقى وقرره فى الحجوبية الثانية عوضا عن جكم ابن أخت السلطان بحكم وفاته .

وفيه كان وصول الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، وكان بثغر الاسكندرية ، فاستأذن السلطان فى الحضور ليحج ، فأذن له فى ذلك فحضر . فلما صعد الى القلعة ووقف بين يدى السلطان ، وأراد أن يقبل الأرض ، نهاه السلطان عن ذلك ، وبالغ فى اكرامه ، ثم أحضر اليه كاملية بسمور ، وفوقانى أخضر بطرز ذهب ، وقدم اليه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، فركب من الحوش ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وقدامه الأمراء ، فتوجه الى دار الأتابكى أزبك عند أخته زوجة أزبك ، وكان غائبا فى التجريدة ، فأقام عندها ، ثم بعد أيام أضافه السلطان بالبحرة ، ثم بعد ذلك ألبسه كاملية بسمور وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ونزل فى موكب حافل . فعد مجيئه الى مصر ، وطلوعه الى القلعة ، من النوادر ، ثم ان السلطان أخذ فى أسباب عمل برك للملك المنصور لأجل الحج .

وفيه خلع السلطان على خشقدم الأحمدى الطواشى ، وقرر رأس نوبة السقاة عوضا عن شاهين غزالى . وخلع السلطان على مرجان النقوى الحبشى وقرره فى مشيخة الخدام بالمدينة الشريفة.

وفيه توفى أقباى اليحياوى الاينالى أحد الأمراء العشروات ، وكان شابا شجاعا بطلا .

وفيه أرسل السلطان الى الظاهر تمربغا ، وهو بالاسكندرية ، فرسا بسرج ذهب وكنبوش وكاملية بسمور ، وأذن له فى الركوب الى الصلاة فى الجمعة والعيدين ، والى حيث شاء من أماكن الاسكندرية

وفيه توفى الأمير قان بردى الابراهيمى الاينالى أحد مقدمى الألوف بمصر .

وفيه جاءت الأخبار بقتل السلطان أبى سعيد بن أحمد بن سعيد بن سعدان شاه تمرلنك ، وكان متملكا على سمرقند وبخارى ، وقتل على يد حسن الطويل ، وكان من أجلّ ملوك الشرق قدرا . فلما قتل تولى من بعده أحمد ، وهو باق على ملكه الى يومنا هذا .

وفيه خلع السلطان على يشبك بن حيدر الاينالى وقرره فى ولاية القاهرة ، فحسنت أوقاته بها ، ودام فى الولاية نحوا من عشرين سنة .

وفيه استقر فى مشيخة المدرسة الصلاحية — المجاورة لقبة الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه — الشيخ كمال الدين ابن امام المدرسة الكاملية عوضا عن زين العابدين ابن قاضى القضاة يحيى المناوى بحكم وفاته .

وفيه خرج الحاج على العادة ، وخرج صحبتهم الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق ،

فأنعم عليه السلطان بأشياء كثيرة من برك وسنيح وغير ذلك .

وفيه لبس السلطان البياض فى يوم الاثنين سادس عشريه — الموافق الثالث عشر بشنس — فخرج من الدهيشة لابس البياض . وقد خالف العادة فى ذلك بعدم لبسه له يوم الجمعة وهى العادة القديمة ، فعيب ذلك عليه .

وفيه عاد القاضى شرف الدين الأنصارى من جبل نابلس ، وكان خرج بسبب جمع العشير المتوجه مع التجريدة فقيل انه صرف على جمع العشير من النفقة نحوا من مائتى ألف دينار .

وفيه نزل السلطان نحو قليوب ، ثم عرج على جسر أبى المنجا ، ثم عاد الى تربة يشبك الدوادار ، فأقام بها الى ما بعد العصر ثم عاد الى القلعة .

* * *

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر لما وصل آخذ باب الملك ، وأنهم فى استظهار على العدو سوار . ثم جاءت الأخبار من نائب حلب بقتل مال باى الأقطع أخى سوار وجماعة كثيرة من عسكره ، وبعث برأس مال باى الأقطع ومعها رأسان من أمرائه ، فلما حضرت تلك الرءوس طيف بها فى القاهرة ، ثم علقت بباب زويلة وباب النصر .

وفيه جاءت الأخبار بموت خاير بك البهلوان ، وكان أحد الأمراء بدمشق ، قتل هو وجماعة من العسكر فى واقعة مال باى أخى سوار .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى نحو طرا فأضاف هناك محمد بن البلاح ، فأقام الى آخر النهار وعاد .

وفيه سافر السلطان الى جهة بحيرة تنيس ، وكان معه من الأمراء المقدمين برقوق الناصرى ، واستمر فى هذه السفرة أياما ، وانقطع خبره عن الناس مدة ، وقد قرب عيد النحر ، فبعث مرسوما بطلب قاضى القضاة الشافعى ولى الدين الأسيوطى ليصلى به صلاة عيد النحر بفارسكور ، فخرج القاضى بسرعة وأخذ معه أشياء من نوع المآكل هدية للسلطان ، فتوجه الى نحو فارسكور ، فعيد السلطان هناك وقطع أضحية جماعة من أولاد الناس والفقهاء والنساء ، حتى الخوندات وجماعة كثيرة من الجند ، فحصل للناس كسر خاطر بسبب ذلك ... وكان العسكر فى هذا العيد غائبا فى التجريدة ، والسلطان مسافر ، وكان عقيب الفصل وقد فقدت الناس أولادهم وعيالهم ، وقطعت ضحاياهم المرتبة لهم بالديوان السلطانى من قديم الزمان .

وفى يوم عيد النحر كانت بشارة النيل المبارك بما جاءت به القاعدة ، ثم نودى عليه من غد .

واستمر السلطان فى هذه السرحة غائبا نحوا من أربعين يوما ، وطاف عدة بلاد من الشرقية والغربية ، فدخل عليه جملة تقادم من مشايخ العربان والمدركين من خيول ومال وغير ذلك .

وكان خروجه الى السفر على حين غفلة ، ولم يكن معه من الأمراء المقدمين سوى برقوق وبعض أمراء عشراوات وبعض عسكر . ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قصد العود الى الديار المصرية ، وقد وصل الى بلبيس . فلما وصل الى الخانقاه خرج اليه أرباب الدولة قاطبة ، ثم نودى فى القاهرة بالزينة فزينت زينة حافلة . فلما كان يوم الخميس تاسع عشر الشهر المذكور دخل القاهرة من باب النصر فى موكب حافل ، وقد حمل القبة والطير على رأسه المقر السيفى برقوق أحد المقدمين ، وموجب ذلك غياب الأتابكى أزبك بالتجريدة ، وكان له يوم مشهود ، ومشت قدامه الجنايب بالأرقاب الزركش ، ولاقاه الأوزان والشعراء والشبابة السلطانية ، وفرشت تحت حافر فرسه

الشـــقق الحرير من عند مدرسة أم الســـلطان التى بالتبانه الى القلعة ، ونثر على رأسه خفايف الذهب والفضة ، ومشت قدامه الأمراء الرءوس النوب بالشـــاش والقماش من بين القصرين الى القلعة ، واصـــطفت له المغانى من النســـاء فى الدكاكين ، واستمر فى ذلك اليوم موكب حافل حتى طلع الى القلعة ، وهذا أول مواكبه الحافلة .

وصادف أن قاصد حسن الطويل كان حاضرا ، وصار متعجبا من حسن هـــذا الموكب ، وكان قد حضر وعلى يده رأس أبى ســـعيد ملك سمرقند ، وقد تقدم أنه قتل على يد حسن الطويل فلمـــا طلع السلطان الى القلعة وجلس على الدكة بالحوش حضر قاصد حسن الطويل ورأس أبى سعيد معه فى علبة ، وكان العسكر بالشاش والقماش ، وكان الموكب عاما . فلما انفض الموكب أقام السلطان بعد ذلك أياما ثم حضر تانى بك الظاهرى أحد رءوس النوب ــ وكان من جملة من خرج فى التجريدة ــ فأخبر بكسر العسكر ورجوعه من حلب .. وهذه ثانى كسرة وقعت لعسكر مصر مع سوار . فلما تحقق الســـلطان ذلك اضطربت أحواله وماجت القاهرة بمن فيها . وكان سبب انكسار العسكر أن سوار تحيـــل عليهم حتى دخلوا فى مواضع ضـــيقة بين أشجار ، فخرج عليهم السواد الأعظم من التركمان بالقسى والنشاب والسيوف والأطبار ، فقتلوا من العسكر ما لا يحصى عددهم .

وأخبر تانى بك بقتل الأمير قرقماس الجلب ، وكان يعرف بقرقماس بن يشبك خجا الأشرفى ، وكان أميرا جليلا حشما رئيسا يقرب للأشرف برسباى ، وولى عدة وظائف سنية ، منها رأس نوبة النوب وامرية مجلس وامرية السلاح ، ثم جرى عليه فى دولة الظاهر بلباى ما تقدم ذكره وسجن ثم أطلق وتوجه الى دمياط ثم عاد الى مصر فى دولة الأشرف قايتبـــاى ، وأعيد الى امرية مجلس ، وخـــرج الى التجريدة وقتل فى المعركة .

وأخبر بموت جماعة من الأمراء وغيرهم ، منهم سودون القصروى رأس نوبة النوب ، مات بحلب وكان مجروحا فحمل الى حلب ومات بها ، وكان قد طعن فى السن ونيف على الثمانين سنة فى العمر . وكان انسانا حسنا دينـــا خيرا ، وهو صـــاحب المدرسة التى بخط الباطلية بجوار داره . وولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة قلعة مصر ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى رأس نوبة النواب ومات بحلب ، وكان أصله من مماليك قصروه نائب الشام ، وكان دواداره

وتوفى برسباى أمير آخور ثانى ، وكان يعـــرف ببرسباى الأبو بكرى ، وكان أمير عشرة ورأس نوبة .

وتوفى اينال باى بن ميق الاينالى ، وكان أمير عشرة . وتوفى تغرى بردى الأرمنى المنصورى . وتوفى طقطمش المحمـــدى الأشرفى برسباى ، قيل رماه سوار من أعلى السور فمات لوقته ، وكان شجاعا بطلا . ونوروز الدوادار ، وفارس البكتمرى أحـــد العشراوات ، وقجماس الطويل الحســـنى الظاهـــرى أحـــد الأمراء الطبلخانات ، ونوروز شكال ابن تغرى بردى الأرمنى المنصورى أحـــد العشراوات ، ونوروز تمر العلائى الأشرفى برسباى قيل رماه سوار من أعلى الســـور فمـــات لوقته ، وكان شـــجاعا بطلا ، ونوروز الدوادار بن عينى الأشرفى أحـــد العشراوات وكان أمير خازندار ، وقانم بيضا اليوسفى الظاهرى أحد العشراوات .

وقتل أيضا من أمراء دمشق : الشرفى يحيى بن جانم نائب الشـــام أحد مقدمى الألوف بدمشق ، وكان يوصف بالشجاعة . وقتل محمد بن تنم بن

عبد الرزاق نائب الشام أحد الأمراء الطبلخانات بدمشق وحاجب ثانى بدمشق ، وفارس الشهمى أحـد الأمراء بدمشق ، وشـاد بك آمر الاينالى أتابك دمشق ، وتمر باى الجلبانى أحـد الأمراء بدمشق ، وابراهيم بيغوت نائب حماه وكان حاجب الحجاب بدمشق ، وجانى بك السيفى تغرى برمش دوادار السـلطان بدمشق ، وشـاد بك الحسنى الشـعبانى أحـد أمراء دمشـق ، وعبد الرحمن الحمزاوى أحد الأمراء الطبلخانات بدمشق .

وأما من قتل من الجنـد والمماليك السلطانية ومشايخ عربان جبل نابلس والعشـير والتركمان والغلمـان فمـا أمكن ضبطه . وكانت هذه من الواقعات المشهورة التى لم يسمع بمثلها فلما شاع بين الناس ذكر من قتل من الأمراء والعسكر صار بالقـاهرة فى كل حارة نعى ليلا ونهارا مثل أيام الوباء ، فزاد قلق الناس من سوار ، ودخل الوهم فى قلوب العسـكر مثل أيام تمرلنك ، وصـاروا يرعدون من ذكره . وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

يا رب ان سوارا قـد بغـى وبه
قد أصبح الناس فى ضيق وفى قلق
فاكسر سوارا ودعه فى السلاسل فى
خواتم الأمر يستعطى من الحلـق

وقال آخر :

ان سـوارا قـد غـدا مخلخـلا
عسكره قـد حـل فى دار البوار
يارب شـتت شـمله حتى نرى
خـواتم الأمـر له كسر سـوار

وصار العسكر بعد ذلك يدخلون الى القاهرة فى أنحس حال من العـرى والجوع ، وبعضهم مجـروح وبعضهم ضعيف ، وكان يدخل بعضهم وهو راكب على حمـار أو جمل أو يدخل ماشيا وهو عريان ، ولم يلاقوا فى هذه التجريدة خيرا ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

* * *

وفى ذى الحجة خلع السلطان على الأمير برقوق الناصرى وقرره كاشف التراب بالشرقية ، وحصل به نفع لقمع العربان المفسدين وعمارة الجسور .

وفيه توفى القاضى فتح الدين ابن وجيه الدين ابن سويد المـالكى المصرى ، وهو محمـد بن عبد الرحمن بن حسن ، وكان عالمـا فاضـلا فى مذهبه وناب فى القضاء ، وهو والد جلال الدين ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى من الأتراك جانم المجنون الخشقدمى وكان أحـد الأمراء العشراوات . وتوفى جقمـق المؤيدى وكان أحـد الأمراء العشراوات . وتوفى اياس البجاسى نائب القدس ، وكان لا بأس به .

وتوفى العلائى على ابن القيسى ، وهو على ابن اسكنور بن تمار تمر ، مات مع السلطان لما أن خرج الى السرحة مرض فى أثناء الطريق ومات ثم نقل الى القـاهرة على جمل ودفن فى تربته التى بباب الوزير ، وكان رئيسا حشما ، ولى عـدة وظائف منها الحسبة وولاية القـاهرة وحاجب الحجـاب بمصر ، وكان عنده بعض خفة ووهج مع عسوفة وبطش ، وكان مولده سنة ثلاثين وثمانمائة .

وفيه توفى الواعظ البارع المنشد عبد القادر بن محمد الوفائى ، وكان ممن له ذكر وشهرة فى فنه وكان لا بأس به .

وقد خرجت هذه السنة عن الناس وهم فى أمر مريج ، وقد وقع فيها أمور شتى ... الغلاء والفناء والفتن ببلاد الشرق ، وقتل أمراء وعسكر ممن تقدم ذكرهم ، ووقع فيها مصادرات بسبب التجاريد وقطع أرزاق الناس من جوامك وغيرها ، وفقدت الناس فيها أولادهم وعيالهم ، وما لاقى أحد فيها خيرا .

سنة اربع وسبعين وثمانمائة (١٤٦٩/١٤٧٠ م):

فيها، فى المحرم، خلع السلطان على الزينى أبى بكر بن القاضى عبد الباسط وقرره فى نظر الجوالى عوضا عن الشهابى أحمد بن ناظر الخاص يوسف.

وفيه أخرج السلطان خرجا من جلبانه نحو المائتى مملوك — وهذا أول خرج أخرجه فى سلطنته — وسماهم الأشرفية.

وفيه خرج الأمير يشبك الدوادار الى الوجه القبلى بسبب جمع المغل من البلاد القبلية.

وفيه جاءت الأخبار بوفاة تمر باى السيفى أخى آلماس نائب قلعة حلب، وكان شابا حسنا جميل الصورة وأصله من الاينالية.

وفيه دخل الحاج الى القاهرة، ودخل صحبتهم الملك المنصور عثمان ابن الظاهر جقمق فحج وعاد فلما طلع الى القلعة أجله السلطان وأكرمه، وخلع عليه كاملية بسمور وفوقها فوقانية أخضر بطرز زركش عريض حافل، ونزل فى موكب حافل الى ان أتى دار الأتابكى أزبك.

وفيه عقد الأمير يشبك الدوادار على خوند فاطمة بنت السلطان المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال، وكان العقد بالجامع الذى بالقلعة بين يدى السلطان، والقضاة الأربعة حاضرون وسائر الأمراء.

* * *

وفى صفر كان وفاء النيل المبارك، ووافق ذلك الرابع والعشرين من مسرى فلما وفى نزل الأمير لاجين الظاهرى — أحد مقدمى الألوف — وفتح السد على العادة.

وفيه أضاف السلطان، الملك المنصور عثمان بالبحيرة، وخلع عليه وأذن له بالتوجه الى ثغر دمياط. فخرج وانحدر من يومه. وقد وقع له أمور لم تقع لأحد من أبناء السلاطين قبله. وكان لما حضر أذن له السلطان بأن يلعب معه الأكرة، فكان يلعب مع السلطان والأمراء المقدمين وهو ببند أصفر مثل السلطان، وقد بلغ السلطان فى تعظيمه جدا.

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن قرقماش الصغير نائب ملطية تقاتل مع عسكر سوار، فكان بينهما واقعة عظيمة، وقتل فيها من عسكر سوار فوق خمسمائة انسان، وأسر جماعة كبيرة من أمرائه وأقاربه، وكان ذلك بمكيدة صعدت بيد قرقماس حتى بلغ فيها ذلك.

وفيه توفى طومان باى المحمدى — المعروف بدش سر الظاهرى — أحد الأمراء العشراوات، وكان لا بأس به.

وفيه توفيت خوند فاطمة ابنة الظاهر ططر، وأخت الملك الصالح محمد بن ططر وزوجة الملك الأشرف برسباى، وماتت وعليها جملة ديون.

* * *

وفى ربيع الأول أنعم السلطان على يشبك جن بتقدمة ألف، وأنعم على قانصوه الأحمدى المعروف بالخفيف بتقدمة ألف، وقرر فى شادية الشربخاناه دولات باى حمام الأشرفى عوضا عن قانصوه الخفيف، وقرر فى رأس النوبة الثانية برد بك المشطوب اليشبكى عوضا عن دولات باى حمام

وفيه عمل السلطان المولد النبوى على العادة وكان حافلا.

وفيه توفى بنجاص العثمانى الظاهرى أحد العشراوات وكان حاجبا ثانيا.

وفيه خلع السلطان على جانى بك حبيب العلائى الاينالى، وقرره فى الأمير آخورية الثانية عوضا عن يشبك جن، ودام فى هذه الوظيفة عدة سنين.

وفيه توفى الشيخ نور الدين على البطليمى

الضرير ، وكان من أعيان أهل العلم والفضل وكف بصره فى سابع سنة من عمره بجدرى أصابه فى عينه ، وكان يعرف بابن شاور البرلسى ومولده سنة ست أو سبع وثمانمائة ، وكان له نظم جيد .

وفيه خلع السلطان على يشبك الجمالى المحتسب وقرره فى امرية سلاح بركب المحمل ، وقرر فى امرية أول أقبردى بن أصباى الأشرفى برسباى .

وفيه توفى مغلباى لزن سقل الظاهرى الخشقدمى ، وكان من أحد المقدمى الألوف بمصر ثم أخرج الى القدس بطالا فمات به . وكان أميرا دينا خيرا ولى عدة وظائف سنية ، منها شادية الشون وحسبة القاهرة ، ثم بقى مقدم ألف بمصر ، ثم نفى الى القدس ومات به .

وفيه أرسل السلطان وقبض على زين الدين الاستادار وكان بطالا مقيما فى داره . فلما قبض عليه أحضره بين يديه ووبخه بالكلام ثم أمر بضربه بين يديه فضرب ضربا مبرحا حتى كاد أن يهلك ، ثم سجنه بالبرج الذى بالقلعة وصار يحضره بين يديه كل يوم بعد يوم ويضربه أشد الضرب ، فمات وهو فى البرج . فلما أعلموا السلطان بذلك لم يصدق بموته وأمر باحضاره بين يديه وهو ميت ، فكشف عن وجهه ورفسه برجله ثم أمر بحمله الى داره ليغسلوه ويدفنوه ، فحمل من القلعة الى داره .

وكان بين السلطان وبين زين الدين الاستادار عداوة قديمة من حين كان السلطان جنديا الى أن تسلطن ، فأخذ بثأره منه وقتله ، وكان يظن أن مع زين الدين الاستادار مالا فعاقبه وطلب منه من المال ما لا يقدر عليه ، فمات تحت العقوبة . وكان أصل زين الدين من الأرمن ، وكان اسمه يحيى ابن عبد الرزاق الأرمنى ، وكان يعرف بالأشقر ابن كاتب علوان ، وكان يقرب لابن أبى الفرج . وقد رأى فى دولة الظاهر جقمق من العز والعظمة ما لم يره أحد بعده من الاستادارية ، وعظم أمره جدا ، وأنشأ بالقاهرة وغيرها عدة جوامع يخطب فيها وعدة مدارس ، وولى الاستادارية غير ما مرة وغيرها من الوظائف ، وباشر الاستادارية أحسن مباشرة ، وأنشأ فيها من المظالم ما لم يسمع بمثله ، وجرى عليه من الشدائد والمحن والأنكاد ما لا يعبر عنه ، وصودر غير ما مرة ، وغرم الأموال الجزيلة ، وعصر فى أكعابه وضرب غير ما مرة ، وغرم الأموال فى دول غير أيام قايتباى ، ونفى الى المدينة المنورة الشريفة والى القدس الشريف وغير ذلك من الأماكن . وكان مولده قبل قرن الثمانمائة ، ولم يلق فى آخر عمره خيرا ، وله أخبار يطول شرحها ... رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه .

وفيه توفى شمس الدين محمد بن عبد الرزاق ابن عبد القادر بن نفيس الأذرعى الشافعى . وكان من أهل العلم والفضل ، سمع على جماعة من العلماء رضى الله عنهم ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى ربيع الآخر توفى القاضى شهاب الدين أحمد بن سعيد بن السوسى المالكى المغربى قاضى قضاة المالكية بدمشق ، وولى قضاء الاسكندرية ، وكان من أهل العلم والفضل وجرت عليه أمور شتى ، وأذهب أموالا جمة على وظيفة القضاء . وتوفى السيد الشريف أبو هاشم حمزة بن أحمد ابن على الحسنى الدمشقى الشافعى ، وكان من أهل العلم والفضل .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى قانصوه اليحياوى باستقراره فى نيابة حلب عوضا عن

اينال الأشقر ، وكتب الى اينال الأشقر بالحضور الى القاهرة على تقدمة ألف بها .

وفيه أرسل السلطان الى يشبك البجاسى نائب حماه باستقراره فى نيابة طرابلس ، وقرر موضعه فى نيابة حماه بلاط اليشبكى أحد مقدمى الألوف بدمشق ، وقرر فى تقدمة بلاط بدمشق تمراز أتابك حلب ، وقرر فى أتابكية حلب تغرى بردى ابن يونس ، وقرر فى حجوبية الحجاب بدمشق محمد بن مبارك عوضا عن بيغوت الماضى خبر موته فى واقعة سوار .

وفيه قرر لاجين الظاهرى فى كشف الجسور بالبهنساوية .

وفيه قرر يشبك جن فى كشف الجسور بالبحيرة .

وفيه توفى قانصوه الساقى التمشى الأشرفى أحد الأمراء العشراوات ، وكان متمرضا من حين عاد من التجريدة .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن رمضان — أمير التركمان — أخذ جماعة من التركمان وكبس على أعوان سوار وأخذ منهم قلعة سيس ، فسر السلطان بهذا الخبر وأرسل الى ابن رمضان خلعة سنية .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة قانى بك المحمودى المؤيدى الذى كان أمير سلاح بمصر ونفى الى الاسكندرية فى دولة الظاهر تمربغا ، فأقام بالبرج الى أن مات . وكان قد جاوز الثمانين سنة من العمر ، وكان فى أوائل عمره شجاعا بطلا وولى عدة وظائف سنية منها أمير مجلس وامرية سلاح وقاسى شدائد ومحنا فى آخر عمره الى أن مات .

* * *

وفى جمادى الأولى حضر الى القاهرة قراجا السيفى جانى بك نائب جدة أحد الأمراء العشراوات ، وأخبر بأن شاه سوار أطلق الأتابكى جانى بك قلقسيز وبعث به الى حلب وقد أكرمه غاية الاكرام ، وقصد بذلك أن يرضى خاطر السلطان . وقرر مع الأتابكى جانى بك قلقسيز بأن يكون سفيرا بينه وبين السلطان فى أمر الصلح .

وفيه نزل السلطان الى الرماية ببركة الحاج ، وعاد من يومه وطلع من بين الترب .

وفيه ارتفع سعر الغلال حتى بلغ كل أردب قمح أربعة أشرفية ، وبلغ سعر كل أردب فول أو شعير سبعمائة درهم ، وبلغ ثمن الحمل التبن نحو أشرفى ذهب ، وعمت هذه الغلوة سائر البلاد حتى البلاد الشامية وغيرها .

***

وفى جمادى الآخرة نزل السلطان ، وتوجه الى خليج الزعفران على سبيل التنزه ، وأقام هناك ثلاثة أيام ثم عاد الى القلعة .

وفيه وصل اينال الأشقر الذى تقدم ذكره ، فأكرمه السلطان وخلع عليه ونزل الى دار أعدت له . ثم انه بعد أيام خلع السلطان عليه وأقره فى رأس نوبة النوب الكبرى عوضا عن سودون القصروى بحكم وفاته بسبب تجريدة سوار كما تقدم ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من يومئذ .

وفيه توفى خشكلدى القوامى الناصرى ، وكان أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان جركسى الجنس من مشتروات الناصر فرج بن برقوق . وكان دينا خيرا متواضعا ، وكان قد جاوز الثمانين من العمر .

وفيه توفى قاضى قضاة المالكية بدمشق محيى الدين عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد الوارث البكرى المصرى المالكى ، وكان من أعيان علماء المالكية ، وناب فى الحكم بمصر مدة ثم ولى قضاء دمشق . وتوفى تمر باى التمرازى

أحد أمراء العشراوات ، وكان ولى المهمندارية وأقام بها مدة .

وفيه قرر أبو الفتح المنوفى كاتب السلطان — وهو أمير — فى نظر الأوقاف والبيمارستان بالقاهرة . وأشيع بين الناس أن سبب ذلك تحكير الأمير يشبك الدوادار الكبير على الغلال بالوجه القبلى ومنع المراكب من حمله . وفيه يقول الشهاب المنصوري :

وظالم منه أتانا الغلا
يا ويله فى الحشر من ربه
فادعوا وقولوا ربنا اطمس على
أمواله واشدد على قلبه

وفيه خلع السلطان على لاجين ، وقرره أمير مجلس عوضا عن قرقماس الجلب ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين قتل قرقماس الجلب فى واقعة سوار . ثم بعد أيام وصل الأتابكى قلقسيز وصعد الى القلعة فقام له السلطان واعتنقه ثم خلع عليه كاملية بسمور ، وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش . وركب من باب البحرة ونزل من القلعة فى موكب حافل . ثم بعد أيام خلع عليه السلطان وقرره فى امرية سلاح ، عوضا عن برد بك هجين بحكم وفاته فى واقعة سوار ، وكانت الوظيفة شاغرة . ومن العجائب أن السلطان بعث بمرسوم بمنع جانى بك قلقسيز من الدخول الى مصر ، وأن يقيم بحلب ، فقدم جانى بك قبل وصول المرسوم الى حلب بسبعة أيام . فلما حضر قرره فى امرية سلاح بعدما كان أميرا كبيرا .

وفيه قرر جقمق الظاهرى فى نيابة دمياط .

***

وفى شعبان كانت نهاية بناء السبيل الذى أنشأه السلطان بخط القشاشين من تحت الربع ، فجاء السبيل والمكتب فوقه نهاية فى الحسن ، ولا سيما فى ذلك المكان .

وفيه عاد الأمير يشبك الدوادار من الوجه القبلى — وكانت مدة غيبته نحوا من سبعة أشهر — ففعل ببلاد الصعيد من المظالم ما لا يسمع بمثله ، حتى انه شوى بالنار محمودا شيخ بنى عدى ، وخوزق من العربان جماعة ، وسلخ جلد جماعة ، ودفن جماعة فى التراب وهم أحياء ، وفعل بالعربان من أنواع هذا العذاب ما لم يفعله أحد قبله ... فدخل الرعب فى قلوبهم . فلما صعد الأمير يشبك الى القلعة خلع عليه السلطان خلعة سنية ، ونزل الى داره فى موكب حافل ثم بعد ذلك قدم للسلطان تقدمة سنية مما ينيف على مائة ألف دينار ما بين ذهب عين وخيول وقماش ورقيق وغلال وسكر وعسل وغير ذلك .

وفيه توفى سنطباى بن قصرويه الأشقر الأشرفى أحد الأمراء العشراوات ، وكان مريضا من حين عاد من التجريدة .

***

وفى رمضان أمر السلطان بفتح شونتين ، وبيع القمح منهما سعر ألف درهم الأردب ، وكان وصل سعره الى أربعة أشرفية كل أردب ، فحصل للناس بعض رفق وكثر الخبز على الدكاكين .

وفيه نودى من قبل السلطان بأن من أخذ منه شىء من أولاد الناس وغيرهم بسبب بعث البدل الى التجريدة ، فليصعد الى القلعة فى ثامن هذا الشهر ليرد اليه ما أخذ منه من المبلغ . فلما صعد أولاد الناس الى القلعة رد اليهم ما أخذ منهم بحكم النصف ، فتعجب الناس لذلك وما السبب فيه ... فعد ذلك من النوادر .

وفيه توفى القاضى حسام الدين بن بريطع الحنفى

الدمشقى قاضى قضاة الحنفية بدمشق ، وكان من أعيان الحنفية ، ولى قضاء غزة وصفد وطرابلس ودمشق غير ما مرة . وكان رئيسا حشما وله نظم ونثر جيد وخط جيد ، وألف الكتب الجليلة .

وفيه حضر الأتابكى آزبك ، وكان مقيما بحلب من حين كسر العسكر ، فدخل القاهرة هو ومن بقى معه من الأمراء والعسكر وصحبته شاه بضاع أخو سوار الذى أخذ منه سوار البلاد . فلما صعد الأتابكى آزبك الى القلعة خلع عليه السلطان وعلى من معه من الأمراء وعلى شاه بضاع ، وكان معه يحيى كاور أخو سوار أيضا وكان مسك قبل ذلك . فلما مثل بين يدى السلطان آمر بسجنه فى البرج الذى بالقلعة .

وفيه اختفى القاضى تاج الدين بن المقسى ناظر الجيش ... فلما اختفى خلع السلطان على الزينى عبد الرحمن بن الكويز وأعاده الى نظر الخاص .

وفيه صعد قاصد سوار الى القلعة وصحبته هدية للسلطان ، فلم يؤذن له فى صعودها معه ، وحضر بمكاتبة سوار فكان مضمونها أنه يطلب الصلح من السلطان لكن على شروط منه لم يقبلها السلطان ، منها أن يكتب له السلطان تقليدا بامرية الأبلستين ، وأن ينعم عليه بتقدمة ألف بحلب ... وان فعل ذلك يسلم عينتاب للسلطان . فطال الكلام من القاصد والسلطان ولم ينتظم الأمر بينهما فى شىء من الصلح ، ونزل القاصد بغير خلعة .

وفيه خلع السلطان على الجمالى يوسف بن فطيس وقرره فى نيابة القدس عوضا عن دمرطاش العثمانى بحكم انتقاله الى نيابة سيس .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم دمشق الشيخ بدر الدين ابن قاضى شهبة ، وهو محمد بن أبى بكر بن أحمد الأسدى الشهبى الدمشقى الشافعى ، وكان عالما فاضلا ، بارعا فى الفقه ، عارفا بمذهب الشافعية ، عالم الشام على الاطلاق . وترشح أمره لقضاء دمشق غير ما مرة ، ومولده فى سنة ست وثمانمائة .

***

وفى شوال خلع السلطان على البدرى بدر الدين محمد بن الكويز ، وقرره فى معلمة المعلمين عوضا عن البدرى حسن بن الطولونى .

وفيه خرج الحاج من مصر فى تجمل زائد عن العادة ، وخرج صحبتهم الشيخ كمال الدين ابن امام المدرسة الكاملية وكان متوعكا فى جسده ، فلما وصل الى ثغرة حامد مات هناك . وكان عالما فاضلا بارعا سمع على جماعة من العلماء منهم ولى الدين العراقى وابن الجزرى والحافظ بن حجر وغيرهم من العلماء ، وولى عدة تداريس جليلة . وكان من أعيان علماء الشافعية ومولده سنة ثمان وثمانمائة .

وفيه وقعت كائنة عظيمة لجلال الدين عبد الرحمن ابن سويد المالكى ، وطلب الى بيت اينال الأشقر رأس نوبة النوب بسبب أوقاف باعها كانت موقوفة على مدرسة جده ، فغرم بسبب ذلك مالا له صورة ، وحصل له غاية البهدلة من اينال الأشقر ، وما خلص الا بعد جهد كبير ، وافتقر حاله عقيب هذه الكائنة وباع جميع ما يملكه حتى سد ما جاء عليه من المال .

وفيه تزايد ظلم اينال الأشقر حتى صار غالب الناس ما تشتكى الأمر عنده . واشتكى بعض الناس من شخص شاهد ، فضربه وقطع أكمامه وركبه على ثور وأشهره بالقاهرة .

وفيه ابتدأ السلطان بعمارة تربته التى أنشأها بالصحراء وجعل بها جامعا بخطبة ، وقرر به صوفية

وحوضا وصهريجا وأشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف .

***

وفى ذى القعدة قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض وابتدأ بضرب الكرة مع الأمراء .

وفيه جاءت أخبار بقتل تراباى الظاهرى الخشقدمى ، وكان أميرا بحلب قتله بعض العربان بالبلاد الحلبية ، وكان شجاعا وولى حسبة القاهرة وكان من أعيان الخشقدمية .

***

وفى ذى الحجة طلب السلطان الشيخ تقى الدين الحصنى ، وقرره فى مشيخة تدريس قبة الامام الشافعى رضى الله عنه عوضا عن الشيخ كمال الدين الإمام بالمدرسة الكاملية الماضى ذكر وفاته بطريق الحجاز

وفيه انتهى ضرب الكرة وأضاف السلطان الأمراء ثم اشتغل بتفرقة الضحايا على العسكر .

وفيه كانت وفاة الجمالى يوسف ابن الأتابكى تغرى بردى اليشبغاوى الرومى نائب الشام . وكان الجمالى يوسف رئيسا حشما فاضلا حنفى المذهب وله اشتغال بالعلم . وكان مشغوفا بكتابة التاريخ وألف فى ذلك عدة تواريخ ، منها تاريخه الكبير الموسوم « بالنجوم الزاهرة » و « المنهل الصافى » و « مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة » . وله تاريخ آخر فى وقائع الأحوال على حروف الهجاء ، وله غير ذلك عدة مصنفات . وكان نادرة فى أولاد الناس ، ومولده سنة ثلاث عشرة وثمانمائة .

وفيه توفى حذيفة بن أحمد الدكمارى المنوفى الحنفى . وكان فاضلا خيرا دينا له شهرة وذكر وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم سمرقند ، وهو الشيخ عبد الله بن عبد الواحد ، وكان من ذرية أبى الليث السمرقندى فضل الله . وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم والزهد ، وله شهرة زائدة ببلاد سمرقند ، ومولده سنة ست وثمانين وسبعمائة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة أمير المدينة المشرفة — وهو السيد الشريف زهير بن سليمان بن هبة الحسنى — وكان ولى امرية المدينة بعد ضيغم والى امرية مكة الى أن مات قتيلا . وتوفى من الأتراك بيبرس بن ططخ الأشرفى ، وكان ولى تقدمة ألف بدمشق . وتوفى جانى بك الحسنى الاينالى أحد الأمراء العشراوات ورءوس النوب . وتوفى دولات باى الاينالى أحد العشراوات ، وكان متمرضا حين عاد من التجريدة ومات بغزة .

وفيه من الحوادث أن السلطان طلب مالا من الست سارة والدة القاضى ناظر الخاص يوسف بن كاتب جكم ليتساعد على خروج التجريدة الى سوار ، فتشكت من ذلك وأظهرت العجز ، فحلف وحياة رأسه لم يأخذ منها أقل من مائة وخمسين ألف دينار ، وصمم على ذلك وقرر معها أنها لاتبيع ملكا ولا ضيعة ولا بستانا ، ولم يقدر أحد من الأمراء ولا غيرهم يخفض عنها شيئا من ذلك ... فاستمرت تورد ذلك المال على حكم ماقرر عليها عدة شهور حتى غلقت ذلك القدر بالتمام والكمال ولم تبع لا ضيعة ولا ملكا . فلما غلقت المال جميعه أرسل خلفها ، فلما حضرت قام اليها وعظمها وخلع عليها كاملية مخمل بسمور ، وأكرمها غاية الاكرام ، ونزلت الى دارها مكرمة معظمة .

سنة خمس وسبعين وثمانمائة (١٤٧٠/١٤٧١ م) :

فيها ، فى المحرم ، كانت الأسعار غالية فى جميع أصناف المأكولات من الحبوب وغيرها ، وعز وجود

الأرز والدجاج من مصر جدا ، وتشحط الخبز من الأسواق ، وصار الناس يستعملون خبز الذرة والدخن . وهذا قط ماوقع ولا فى الغلاء الذى جاء فى دولة الملك الظاهر جقمق ، وتناهى سعر القمح الى سبعة أشرفية الاردب ، ولم يأكل الناس الذرة ولا الدخن فى تلك الأيام .

وفيه كثر القال والقيل بين العلماء بالقاهرة فى أمر الشيخ العارف بالله تعالى سيدى عمر بن الفارض نفعنا الله تعالى به والمسلمين ببركته ... وقد تعصب عليه جماعة من العلماء بسبب أبيات قالها فى قصيدته التائية ، واعترضوا عليه فى ذلك وصرحوا بفسقه بل وتكفيره ، ونسبوه الى من يقول بالحلول والاتحاد ... وحاشاه أن ينسب اليه هذا المعنى ، ولكن قصرت أفهام جماعة من علماء هذا العصر ولم يفهموا معنى قول الشيخ عمر رضى الله عنه فى هذه الأبيات ، فأخذوا بظاهرها ولم يوجهوا لها معنى ، فكان كما قال المتنبى :

وكم من عائب قولا صحيحا
وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذهان منه
على قدر القرائح والفهوم

وكان رأس من تعصب على الشيخ عمر بن الفارض برهان الدين البقاعى ، وقاضى القضاة محب الدين بن الشحنة ، وولده عبد البر . ونور الدين المحلى ، وقاضى القضاة عز الدين المحلى ، وتبعهم جماعة كثيرة من العلماء يقولون بفسقه . وأما من تعصب من العلماء للشيخ ، فهم : الشيخ محيى الدين الكافيجى الحنفى ، والشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى ، والشيخ بدر الدين بن الغرس ، ونجم الدين يحيى بن حجى ، وشيخنا الجلال بن الكمال الأسيوطى ، والشيخ زكريا الأنصارى ، وتاج الدين بن شرف فلما زاد الرهج فى هذه المسألة كتبت الفتاوى فى أمر ابن الفارض التى ظاهرها الخروج عن قواعد الشريعة ، فكتب الشيخ محيى الدين الكافيجى على هذا السؤال ما هو أحسن عبارة وأقرب الى الانصاف ، وألف الجلال السيوطى فى ذلك كتابا سماه « قمع المعارض فى الرد عن ابن الفارض » ، وألف البدر بن الغرس فى ذلك كتابا شافيا فى هذا المعنى واضحا فى الرد على من تعرض لابن الفارض ، وصنف بعض العلماء كتابا سماه « درياق الأفاعى فى الرد على البقاعى » . ووقع فى هذه المسألة مشاحنات بين العلماء يطول شرحها فى هذا المعنى ، ثم هجوا البقاعى وابن الشحنة وغيرهما من العلماء ممن تعصب على ابن الفارض ، وصاروا يكتبونها ويلصقونها فى مزاره فمن ذلك قول الشهاب المنصورى فى البقاعى وأجاد :

ان البقاعى بما قد قاله مطالب
لا تحسبوه سالما فقلبه يعاقب

وقوله من قصيدة مطولة مضمنة لأبيات سيدى عمر بن الفارض رضى الله تعالى عنه :

بين البقاعى وبين التاج من شرف
ما بين معترك الأحداق والمهج
يقول من صح فيه سهم صاحبه
أنا القتيل بلا اثم ولا حرج
كلاهما مدع حوضا بفكرته
فى كل معنى لطيف رائق بهج
يقول هذا لهذا غير مكترث
دع عنك لومى وعدعن نصحك السمج

ماذا تقـول ولى فى الشرع أجوبة
عنى تقوم بها عند الهوى حججى
دع التعارض لا تشـــهر بواتره
فكم أماتت وأحيت فيـه من مهج
فلو ســلكت سبيلى كنت متبعـا
أوفى محب بما يرضــيك مبتهج
لو سـلم المعتــدى للمهتدى لرجا
قول المبشر بعـد اليأس بالفـرج
فمن يكن منهمـا ناج فعصبته
هم أهل بدر فلا يخشون من حرج

وهذه مطولة وهذا القدر منها كاف .

ومن نظم الأقدمين فى سيدى عمر بن الفارض رضى الله تعالى عنه :

جز بالقرافة تحت ذيل العـارض
وقل السـلام عليك يابن الفارض
أبرزت فى نظم السـلوك عجـائبا
وكشفت عن سر مصـون غامض
وشربت من بحـر المحبـة والولا
فرويت من بحـر محيط فائض

وقال الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

عمـر بن الفـارض الحبر الذى
قصرت عن فهـم ما رام الفـكر
لـم يـكن يؤذيه الا جاهـل
فارفضوه وترضـــوا عن عمر

ولبعضهم يهجو ابن الشحنة :

اصبحت يا ابن الشحنة الحنفى فى
كل القبـائح أوحـد الأزمان
فى مصر عــلم أبى حنيفة تدعى
جهــلا وأنت معـرة النعمـان

وقال أبو النجا القمى :

أقعـدت يا حليبى للفارضى يا كا
لمـا ادعيت فسقا للفارضى يا كا (فر)
وما خلصت حتى أقمت شاهداكا

ثم ان بعض الأمراء تعصب لسيدى عمـر بن الفارض رضى الله عنه ، وتعصب له السلطان أيضا ورسم لكاتب السر ابن مزهر بأن يكتب صـفة سـؤال الى الشيخ أبى يحيى زكريا الشافعى ، فكتب السؤال وهو هذا : « مايقول الشيخ الامام العالم العـلامة ، البحر الفهامة ، زكريا الأنصارى الشافعى ، نفع الله المسلمين به ، عمن قال بكفر سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله سيدى عمر بن الفارض ، تغمده الله تعالى برحمته ورضـوانه ، فيمن زعم أن عقيدته فاسدة بناء على ما فهمه من كلامه فى مواضع مرجعها الى اطلاقات معلومة عند السادة الصوفية باصطلاح تخاطبهم لا محـذور فيها شرعا ... فهل يحمـل كلام هذا العـارف على اصطلاح أهل طريقته أم على اصطلاح أهل ملة غير الاسـلام ؟ فمـا الجـواب عن ذلك ؟ أفتـونا أجورين » .

ثم قدم هذا السؤال الى الشيخ زكريا ، فامتنع عن الكتابة غاية الامتنـاع ، فألح عليه أياما حتى كتب ، فأجاب بقوله : « يحمل كلام هذا العارف — رحمة الله عليه ، ونفع ببركاته — على اصطلاح أهل طريقته ، بل هو ظاهر فيه عندهم ، اذ اللفظ المصطلح عليه حقيقة فى معناه الاصطلاحى مجاز فى غيره كما هو مفرر فى محله ، ولا ينظر الى مايوهمه تعبيره فى أبيات فى التائية من القول بالحلول والاتحـاد ،

فانه ليس من ذلك فى شىء بقرينتى حاله ومقاله المنظوم فى تائيته بقوله من أبيات القصيدة :

ولى من أتم الرؤيتين اشارة
تنزه عن رأى الحلول عقيدتى

« وهذا يصدر عن العارف بالله اذا استغرق فى بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحل ذاته فى ذاته ، وصفاته فى صفاته ، ويغيب عن كل ما سواه بعبارات تشعر بالحلول والاتحاد لقصور العبارة عن بيان حالته التى يرقى اليها كما قاله جماعة من علماء الكلام رضى الله تعالى عنهم . ولكن ينبغى كتم تلك العبارات عمن لم يدركها فما كل قلب يصلح للسر ، ولا كل صدف ينطبق على الدر ، ولكل قوم مقال ، وما كل ما يعلم يقال . وحق لمن لم يدركها عدم الطعن فيها كما قيل :

واذا كنت بالمدارك غرا
ثم أبصرت حاذقا لا تمارى
واذا لم تر الهلال فسلم
لأناس رأواه بالأبصار

ولو ذاق المنكر ما ذاق هذا العارف لما أنكر عليه ، كما قال القائل :

ولو يذوق عاذلى صبابتى
صبا معى لكنه ما ذاقها

« والحالة هذه ، والله يمنح بفضله ، ويمنع من يشاء بعدله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وكتبه زكريا بن محمد الأنصارى الشافعى » .

فلما كتب الشيخ زكريا على هذا السؤال سكن الاضطراب الذى كان بين الناس بسبب ابن الفارض رضى الله تعالى عنه ، ونفع به وببركاته المسلمين أجمع آمين .

وفيه عقيب ذلك عزل ابن الشحنة عن قضاء الحنفية ، وحصل له عقيب ذلك فالج ، وذهل وسلب من العلم ، وحصل لولده عبد البر مع القلقيلى ما سنذكره فى موضعه .

وأما البقاعى فكادت العوام أن تقتله ، وحصل له من الأمراء ما لا خير فيه ، فهرب واختفى حتى توجه الى مكة فمات هناك .

وأما امام المدرسة الكاملية فخرج وهو مريض الى الحجاز فمات فى أثناء الطريق بعد خروجه من القاهرة بستة أيام .

وقد جرى على من تعصب على ابن الفارض ما لا خير فيه ، وظهرت بركته فى المتعصبين عليه شيئا فشيئا الى الآن .

وقد روى فى بعض الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى قال : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » ، أى أعلمته بأنى محارب له — أورده النووى فى الأربعين حديثا .

وفيه جاءت الأخبار بأن شاه سوار تقاتل مع ابن رمضان أمير التركمان ، فانكسر ابن رمضان وملك سوار قلعة اياس . فانزعج السلطان لهذا الخبر وأخذ فى أسباب تجريدة الى سوار .

وفيه بعث الأمير يشبك خبرا من البحيرة يطلب نجدة بسبب عربان لبيد ، فعين السلطان الأتابكى أزبك ومعه عدة من الأمراء والجند ، فخرج الى البحيرة .

وفيه وقعت أعجوبة غريبة ، وهى أن امرأة ولدت مولودا وهو جسد بلا رأس ولا له يدان ولا رجلان ، فسبحان القادر الصانع يخلق ما يشاء ! فعاش ساعة ومات .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة برد بك البجمقدار نائب الشام ، وكان يعرف ببرد بك الفارسى

الظاهرى ، ويعرف أيضا بالأقرع ، وكان من أعيان الناس وجماعة الظاهريه ، وكان امير عشرة فى دولة أستاذه الظاهر جقمق ، ثم بقى أمير طبلخانات رأس نوبة ثانى فى دولة الأشرف اينال ، ثم بقى مقدم ألف وحج أمير محمل غير ما مرة ، ثم ولى حاجب الحجاب ، ثم بقى نائب حلب فى دولة الظاهر خشقدم ، ثم قبض عليه وحمل الى القدس بطالا ، ثم أعيد الى نيابة حلب ، ثم بقى نائب الشام فوليهـا مرتين ومات بها ، وكان أسيرا عند سوار وهو نائب حلب ، وأطلق بعد موت الظاهر خشقدم وقاسى شدائد ومحنا .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وكان الركب الأول والمحمل ركبا واحدا ، وكان الحاج قاسى فى السنة المذكورة مشقة زائدة من العطش وموت الجمال ، فأرسل يشبك الدوادار شقادف وزادا وماء الى المنقطعين من الحاج ، فلاقوهم من قريب الينبع وحصل بذلك لهم غاية النفع .

وفيه توفى أبو بكر بن على دوادار برد بك البجمقدار نائب الشام ، ويقال انه سم أستاذه برد بك ، فمات أبو بكر قبل أستاذه بأيام . وكان أبو بكر رقى فى أيام أستاذه حتى صار له ذكر وشهرة طائلة بحلب والشام .

وفيه حضر قاصد حسن بك الطويل وعلى يده مكاتبة يذكر فيها أنه قتل جماعة من أولاد تمرلنك وملك بلادهم .

وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم يخبر أنه افتتح عدة بلاد من بلاد الافرنج البنادقة .

وفيه عين السلطان الأمير اينال الأشقر رأس نوبة النوب ، ومعه عدة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، وعدة من الجند بسبب قتال سوار . وقد خشى السلطان من سوار أن يكبس حلب على حين غفلة ، فأرسل هذه التجريدة يقيمون بحلب الى أن يرسل تجريدة ثقيله بعد ذلك . فلما عينه بعث اليه النفقة من يومه ، وقد حمل اليه اثنى عشر ألف دينار ، ثم أنفق على بقية الأمراء والجند وألزمهم الخروج بسرعة ، فخرجوا عقيب ذلك من غير أطلاب ولا أشلة ، وقد عز ذلك على اينال الأشقر لكونه خرج فى قلب الشتاء ...

* * *

وفى صفر توفى الأمير برد بك المشطوب اليشبكى أحد الأمراء الطبلخانات ورأس نوبة ثانى ، وكان لا بأس به ، وأصله من مماليك يشبك نائب حلب .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وكان الوفاء ثانى عشرى مسرى . فلما أوفى توجه قلقسير الأتابكى كان ، وهو على امرية سلاح ، ففتح السد على العادة ، وكان الأتابكى أزبك غائبا فى البحيرة .

وفيه عمل السلطان الموكب وخلع على الأمير برقوق الناصرى وقرره فى نيابة الشام عوضا عن برد بك البجمقدار بحكم وفاته . وكان برقوق يومئذ أحد مقدمى الألوف بمصر ، فانتقل الى مدينة الشام فى مدة يسيرة ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه ظهر القاضى تاج الدين بن المقسى وكان مختفيا ، فخلع عليه السلطان وأعاده الى نظر الخاص ، وعزل عنها عبد الرحمن بن الكويز . وكان القائم فى عودة ابن المقسى الى نظارة الخاص الأمير يشبك الدوادار ، فنزل من القلعة فى موكب حافل ومعه الأمير يشبك الدوادار وأعيان الدولة حتى قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفى .

* * *

وفى ربيع الأول ، فى مستهله ، ركب السلطان وتوجه الى طرا ، فصعد القضاة للتهنئة بالشهر فلم يجدوا السلطان بالقلعة ، فأخبرهم نقيب الجيش

عن لسان السلطان بأن يصعدوا للسلطان اذا حضر بعد العصر . وفيه دخل خاير بك الظاهرى الخشقدمى الذى كان تسلطن ليلة واحدة ، فنزل فى بولاق فى بيت صهره ناظر الخاص يوسف ، وكان السلطان رسم له بأن يتوجه الى مكة ويقيم بها . وكان الساعى له فى ذلك الأمير يشبك الجمالى ، فأقام ببولاق أياما حتى عمل له برك وخرج الى مكة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا ، وجلس برقوق الذى قرر فى نيابة الشام رأس الميمنة .

وفيه نزل السلطان الى جهة المطرية ، ونصب هناك الخيام ورسم للأمراء بالتوجه معه ، وأقام هناك أياما على سبيل التنزه ، وصنع هناك الأسمطة الحافلة ، حتى قيل كان مصروف الأسمطة ألف دينار . وفيه خلع السلطان على قاصد حسن الطويل .

وفيه توفى الأمير ثانى بك المعلم المحمدى الأشرفى ، مات بالقدس بطالا ، وكان عارفا بفنون لعب الرمح .

* * *

وفى ربيع الآخر صعد القضاة الى القلعة للتهنئة بالشهر ، فلما أرادوا الانصراف أخذ السلطان فى الكلام معهم بسبب محراب جامع ابن طولون بأن فى أصل وضعه الانحراف عن جهة القبلة ، فقال كاتب السر : « هذا الجامع تحت نظر قاضى القضاة الشافعى » ... فقال القاضى : « ينبغى أن يتغير هذا المحراب ويجدد غيره الى جهة القبلة » ... وانفض المجلس على ذلك ولم يغير فيه شىء الى الآن .

وفيه خرج برقوق الى محل نيابة الشام ، وطلب طلبا حافلا وكان له يوم مشهود .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن حسن الطويل تحرك على أخذ البلاد الحلبية ، وأنه أظهر العداوة للسلطان ، وقد طمع فى عسكر مصر بموجب مافعله معهم سوار . فثار السلطان لهذا الخبر وقصد أن يخرج الى حلب بنفسه .

وفيه نادى السلطان فى القاهرة بأنه قد أبطل عدة مكوس ، منها مكس قطيا ومكس الخشب والأطرون بالبحيرة ، وغير ذلك عدة مكوس أبطلها بمصر وجدة ، فدعا له الناس بسبب ذلك .

وفيه عين السلطان القاضى شرف الدين الأنصارى وكيل بيت المال بأن يخرج الى جبل نابلس لجمع العشير بسبب التجريدة الى سوار ، فخرج هو ودولات باى الخازندار .

وفيه عين فى امرية الحاج بالمحمل يشبك الجمالى ، وفى امرية الأول اقبردى الأشرفى على عادتهما فى العام الماضى .

وفيه قرر السلطان فى الزردكاشية الكبرى جانم السيفى تمرباى عوضا عن فارس الذى توجه الى دمشق .

* * *

وفى جمادى الأولى أرسل السلطان بعزل بلاط اليشبكى عن نيابة حماه وقد أرسل يستعفى من ذلك .

وفيه عين السلطان تجريدة ثقيلة الى سوار ، وعين بها من الأمراء المقدمين يشبك دوادار كبير باش العسكر ، وتمراز التمشى ابن أخت السلطان أحد المقدمين ، وخاير بك حديد الأشرفى ، وأزدمر الطويل الابراهيمى ولم يتم السفر ، ثم عين قانصوه الخفيف ولم يتم له السفر . وعين تمر حاجب الحجاب ولم يتم له السفر . وعين عدة أمراء طبلخانات وعشراوات ، وعرض الجند وكتب منهم

عدة أمراء وأعلمهم بأن السفر يكون بعد أن يربع الخيل .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى خاير بك القصروى بأن يستقر نائب حماه عوضا عن بلاط اليشبكى ، فلما وصلت اليه الخلعة باستقراره فى نيابة حماه مات فجأة قبل دخوله الى حماه . وكان أميرا جليلا تولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة القلعة بمصر ، ونيابة غزة ، ثم نيابة صفد ، ثم قرر فى تقدمة ألف بدمشق ، ثم قرر فى أتابكية طرابلس ، ثم فى نيابة حماه ... فمات ولم يدخلها .

وفيه توفى قاضى القضاة الشافعى بحلب — وهو السيد الشريف تاج الدين عبد الوهاب بن عمر بن حسن بن على بن حمزة الحسينى الحلبى الشافعى — وكان من أهل العلم والفضل .

وفيه توفى الأمير يشبك جن الاسحاقى الأشرفى أحد مقدمى الألوف بمصر — وكان يعرف بالبهلوان — ومات وله من العمر نحو من سبعين سنة . وكان حاد المزاج سيىء الخلق .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قرق شبق الأشرفى الذى كان زردكاش بمصر ، ثم نفى ومات وهو مقدم ألف بدمشق . وكان علامة فى لعب الرمح .

* * *

وفى جمادى الآخرة أنعم السلطان على برسباى قرا المحمدى بتقدمة ألف ، وهى تقدمة يشبك جن ، وقرر فى الخازندارية قجماز الاسحاقى الظاهرى عوضا عن برسباى قرا بحكم انتقاله الى التقدمة ، وكان قجماز هذا أغا السلطان قديما .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى الخانقاه ، ثم سار الى العكرشا وهو راكب الهجن . ثم عاد الى القلعة بعد أيام

وفيه توفى جكم الأجرود الأشرفى نائب صفد .

* * *

وفى رجب نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو قناطر العشرة وأقام هناك سبعة أيام ، وتوجه الى الأهرام وهو ماش وحوله الأمراء ، وكانت تلك الأيام مشهودة فى القصف والفرجة ، ونصب له أشاير على رءوس الأهرام ، وعملت له هناك أسمطة فاخرة حافلة ، وصار ابن رحاب المغنى عمال فى كل ليلة ، وبقية مغانى البلد ، وابتيع المجمع الحلوى هناك بنصفين ، والصحن الطعام الخاص بنصف فضة . ثم ان السلطان رحل من هناك بعد مضى سبعة أيام وتوجه الى الفيوم ، فلما دخلها زينت له وكان يوم دخوله الى الفيوم يوما مشهودا ، ودخل عليه جملة تقادم من الكاشف ومشايخ العربان ، فكانت مدة غيبته فى هذه السفرة نحوا من عشرين يوما ، وكان ذلك فى قلب الشتاء فى زمن الربيع ، ثم عاد السلطان الى القلعة .

وفيه وقع العدل والعطاء بالديار المصرية ، حتى بيعت البطة الدقيق بستة أنصاف ، والرطل الخبز بدرهم نقرة ، وبيع الفدان البرسيم المخضر بدينار ، وكثرت اللحوم والأجبان ، وانحط سعر سائر البضائع .

وفيه جاءت الأخبار بأن قانصوه اليحياوى — نائب حلب — قد وقع بينه وبين نائب قلعة حلب ، فبعث يشكوه للسلطان ، فأنصف السلطان نائب حلب على نائب القلعة .

وفيه خلع السلطان على قجماز الاسحاقى وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن بلباى العلائى بحكم استقراره فى نيابة صفد عوضا عن جكم الأشرفى المعروف بالأجرود .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن سوارا قد

استولى على سيس وقلعتها ، ففزع السلطان لهذا الخبر .

* * *

وفى شعبان عزل قاسم شغيته عن نظر الدولة ، ورسم عليه الأمير يشبك الدوادار وطلب منه مالا ، وعين السلطان الأمير برسباى قرا أحد المقدمين بأن يخرج جاليش العسكر الى سوار قبل خروج الأمير يشبك ، فخرج ومعه عدة من الجند ، وبعث اليه السلطان أربعة آلاف دينار .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى أن السلطان أعاد الى جماعة ما كان أخذه منهم من المال ، لما صادرهم بسبب التجريدة الأولى ، فأعاد الى فارس الركنى ألفا وخمسمائة دينار ، وأعاد الى الشهابى أحمد بن أسنبغا الطيار ألف دينار ، وأعاد الى فارس السيفى دولات باى ألف دينار ، وبعث لا بن العينى خمسة عشر ألف دينار من بعض ما أخذه منه ، وأعاد الى جماعة كثيرة ما كان أخذه منهم فى المصادرة ... فتعجب الناس من ذلك لكونه فعل ذلك من تلقاء نفسه ، وأشيع بين الناس أنه رأى فى المنام ما أوجب هذا من رد المال على أربابه ، فكان حال الناس معه كما قال القائل فى هذا المعنى :

كنا نؤمل أن ننال بجاهكم
خيرا يكون على الزمان معينا
والآن نقنع بالسلامة منكم
لا تأخذوا منا ولا تعطونا

ولكن فعل بعد ذلك بالناس من المصادرات وأخذ الأموال ما يعجز عنه الواصفون .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأن العين التى أجراها السلطان الى عرفات قد انتهى العمل منها ، ووصل ماؤها الى عرفات ، وحصل به غاية النفع لأهل مكة المشرفة . وكان لهذه العين لحو من مائة سنة وكسور وهى معطلة عن الجريان . وكان جوبان أجرى ماءها فتعطلت من بعده حتى أجراها السلطان .

* * *

وفى رمضان أنفق على الجند الكسوة وأنفق على المماليك المعينين للتجريدة نفقة السفر لكل مملوك عشرون دينارا وكسوة عشرة دنانير ، واستمر ينفق عليهم ثلاثة أيام متتابعة .

وفيه كانت وفاة الأديب البارع الفاضل الشهاب الحجازى أحمد بن محمد بن على بن حسن بن ابراهيم الأنصارى الخزرجى الشافعى . وكان عالما فاضلا بارعا فى الأدب وله عدة مصنفات فى الآداب، منها كتاب « روض الآداب » و « القواعد فى المقامات » و « شرح المعلقات » و « وقلائد النحور فى جواهر البحور » و « التذكرة » وغير ذلك من الكتب النفسية . وكان ظريفا لطيف الذات ، كثير النوادر ، عشير الناس ، حسن المحاضرة ، وله شعر جيد . فمن ذلك قوله :

فى حندس الليل أتانا فتى
ونادم القوم فبئس النديم
قلت لأصحابى لما أتى
قد جاءنا فى جنح ليل بهيم

ومن قصائده :

قصدت رؤية خصر مذ سمعت به
فقال لى بلسان الحال ينشدنى :
انظر الى الردف تستغنى به وأنا
مثل المعيدى فاسمع بى ولا ترنى

وكان مولده فى أوائل قرن الثمانمائة ، فلما مرض الشهابى الحجازى بعث اليه الشهاب المنصورى بهذين البيتين :

قيل الشهاب سقيم قلت وا أسفا
ما بال أحمد لا يخلو من العلل

وزن الرقائق من أضحى يجوزها

ووصفه بفنون العلم والعمـل

ولمـا توفى الشهاب الحجازى رثاه الشـهاب المنصورى بهذه الأبيات :

زادنى فقد الحجازى شجى
هل يطيب العيش فقدان الحجا

لو درى القمـرى أبدى نوحه
أو غراب البين أضحى مسحجا

صار فى زورق نعش قاطعـا
منـك يا بحر المنايا لججـا

وامتطى طرف الردى مستوقرا
طالبـا من هم دنيـاه النجا

ان يكن فى الترب أمسى هابطا
فسـيرقى فى الجنان الدرجا

أو يكن ليـل الضريح عاكرا
فسـيلقاه شـهابا أبلجـا

فلتطب أرجاء قبـر زارها
انهـا حاكته فى حسن الرجا

فالحجـازى مـكة تبصره
والشـهاب اشـتاقه بدر الدجا

قلت كان بالقاهرة سبعة من الشعراء اجتمعوا فى عصر واحد ، وكل واحـد يدعى بشهاب ، فكان يقال السبعة الشهب ، وهم : الشهاب بن حجـر رحمه الله عليه ، والشهاب ابن الشـاب التائب ، والشهاب بن أبى السعود ، والشهاب بن مبارك شاه الدمشقى ، والشـهاب بن صالح ، والشـهاب الحجازى ، والشهاب المنصورى . فلما مات الستة رثاهم الشهاب المنصورى بهذه الأبيات :

خلت سماء المعانى من سنا الشهب
فالآن أظلم أفق الشـعر والأدب

تقطب العيش وجها بعد رحلة من
تجانبـوا بالمعـانى مركز القطب

تعطلت خـرد الأيام من درر
كانت تحلى بهـا منهم ومن ذهب

لو تعلم الأرض ماذا ضمنت بطرت
بهم كما يبطر الانسـان بالنسب

ولو درى المسك أن الأرض قبرهم
لود نشقة عرف من شـذى الترب

وهذا اختصار من القصيدة التى لهم رحمة الله عليهم أجمعين .

وفيه توفى كسباى الزينى المؤيدى الذى كان نائب الاسكندرية وعزل عنها .

* * *

وفى شوال كان خـروج العسكر المعـين الى سـوار ، فخرج الأمير يشـبك الدوادار الكبير ، وأزدمر الاستادار ، وكاشف الكشـاف ، وباش العسكر ، فكان فى غاية العز والعظمة ، وقد فوض اليه السلطان أمور البلاد الشامية والحلبيـه وغير ذلك من البلاد ، وجعل له الولاية والعزل فى جميع أحوال المملكة ، وكتب معـه خمسمائة عـلامة ، ويكتب على البياض ، وجعل له التصرف فى جميع النواب والأمراء ما خلا نائب حلب ونائب الشام فقط ... فكان له لما خرج يوم مشهود ، وطلب طلبا حافلا بحيث لم يعمل مثله قط ، وجر فى طلبه عدة خيول ملبسة بركستونات فولاذ مكفتة بالذهب وبركستونات مخمل ملون ، وصنع فى رنكه صفة سبع . وقد اقترح أشياء عجيبـة غريبة لم يسبق اليها ، ورسم لمماليكه بأن تخرج فى الطلب باللبس الكامل ، وخـرج صحبته الأمراء الذين تقـدم ذكـرهم ، ومن الجنـد نحـو من ألفى مملوك ، فرجت لهم القاهرة ، واستمرت الأطلاب تنسحب الى قريب الظهر . فلما كانت ليـلة الرحيل ، نزل

السلطان عند يشبك ، وتكلم معه طويلا ، ثم أضافه الأمير يشبك وركب من عنده وتوجه الى الخانقاه ، ثم عاد الى القلعة . ثم فى ثانى ليلة نزل الأمير يشبك بعد العشاء ، ورحل من الريدانية قاصدا الشام . ثم خرج العسكر أفواجا أفواجا حتى سد الفضاء ، وكانوا من أعيان الشجعان . فتفاءل الناس بأن هذا العسكر ينتصر ، وأن سوارا مأخوذ لا محالة ، وكذا جرى ... وقد عيب على السلطان نزوله الى الأمير يشبك فى الوطاق مرتين ، وهذا بخلاف عادة الملوك وقواعدهم القديمة .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان لهم يوم مشهود . ولكن تأخر الى يوم عشريه بسبب فرار غلمان أمير حاج .

***

وفى ذى القعدة ولد للأمير يشبك ولد من زوجته خوند ، ابنة الملك المؤيد أحمد بن الملك الأشرف اينال ، فسموه منصورا . وكان له مهم حافل .

وفيه خلع السلطان على السيد الشريف سبع ابن ظافر ، وقرره فى امرية الينبوع عوضا عن ظافر .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو صقيل ، وقد أضافه القاضى كريم الدين بن جلود كاتب المماليك ، فأقام هناك الى آخر النهار ، وعاد الى القلعة .

***

وفى ذى الحجة خلع السلطان على شيخ عربان الشرقية صقر بن بقر وقرره فى مشيخة الشرقية عوضا عن قريبه عيسى بن بقر ، وسجن ابن بقر بالمقشرة ، بعد ما ضرب بين يدى السلطان ضربا مبرحا .

وفيه عين السلطان الأمير تمر حاجب الحجاب ، والأمير قانصوه الخفيف الاينالى ، بأن يخرجا الى الشرقية بسبب فساد العربان . ورسم السلطان لهما بأن من وجدوه من بنى سعد وبنى وائل يقبضون عليه .

وفيه كان ابتداء عمارة الايوان الكبير الذى بالقلعة . فأمر السلطان بتجديده واصلاح ما فسد من بنائه وكان الشاد على عمارته القاضى كاتب السر ابن مزهر ، والبدرى بدر الدين بن الكويز ومعلم المعلمين ، فصرف عليه نحو من عشرين ألف دينار . وكان قصد السلطان أن تقام الخدمة على العادة القديمة ، ويركب منه ، فلم يتم له ذلك ... واستمر الأمر على حاله الى الآن .

وفيه توفى الاستاذ المغنى الموسيقى محمد المعروف ببرقوق التونسى ، وكان بارعا فى الغناء والانشاد ، وكان له شهرة طائلة . قدم من الغرب يروم الحج فتوفى بالقاهرة .

سنة ست وسبعين وثمانمائة (١٤٧١/١٤٧٢ م) :

فيها ، فى المحرم ، فى أول يوم كانت بشارة النيل ، فتفاءل الناس بأنها سنة مباركة .

وفيه توفى قاضى القضاة برهان الدين بن الديرى الحنفى ، وهو ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن سعد بن مصلح العبسى القدسى الحنفى ، مات وهو منفصل عن القضاء . وكان عالما فاضلا رئيسا حشما . وولى عدة وظائف سنية ، منها نظر الاسطبل ، ونظر الجيش ، وكتابة السر ، وقضاء الحنفية ، ومشيخة الجامع المؤيدى ، وغير ذلك من الوظائف .

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه نحو شبيين القناطر ، وكان معه الأتابكى أزبك وجماعة من الأمراء ، فبينما هو سائر فى أثناء الطريق ، اذ شب فرس الأتابكى أزبك على فرس السلطان

ورفسه ، فجاءت الرفسة فى قصبة ساق السلطان فانكسرت ، فنزل بشيبين وهو فى غاية الألم من ساقه ، وأرسل يطلب محفة حتى يعود فيها الى القاهرة . فلما وصل هذا الخبر الى القاهرة كثر بها القال والقيل بسبب عود السلطان فى المحفة . فلما عاد طلع الى القلعة وهو فى المحفة حتى نزل على باب البحرة ، وكانت القاهرة قد زينت لقدومه . فلما طلع تحت الليل هدمت الزينة وأشيع أن السلطان على غير استواء ، حتى نزل المنادى ونادى للناس بالأمان والاطمئنان ، وسلامة السلطان ، وان تعاد الزينة كما كانت ، فزينت القاهرة ثانيا ثم ان السلطان خرج وجلس على الدكة ، وعلم المراسيم ، وجهز مراسيم الى البلاد الحلبية بسلامته من هذا العارض ، حتى سكن ذلك الاضطراب ، وخمدت هذه الاشاعات من البلاد الشامية والحلبية .

وفيه توفى تغرى بردى بن يونس أتابك حلب ، وكان لا بأس به .

وفيه حضر صحبة الحاج القاضى كمال الدين ابن ظهيرة قاضى جدة ، أخو القاضى برهان الدين ابراهيم بن ظهيرة قاضى مكة المشرفة ، ليسعى لأخيه فى عوده الى القضاء . وكان قد صرف عنه .

وفيه جاءت الأخبار بأن شاه سوار قتل قرقماس الصغير نائب ملطية ، وقد تقدم ما فعله قرقماس بجماعة سوار . فلما ظفر سوار بقرقماس قتله أشر قتلة . قيل انه أوقفه فى مكان وبنى عليه حائطا . وقيل بل علقه فى شجرة واستمر يرمى عليه بالنشاب حتى مات . وكان قرقماس الصغير هذا أصله من مماليك الأشرف اينال ، وكان شجاعا بطلا مقداما فى الحرب . وكان لا بأس به

وفيه عين السلطان نيابة ملطية لاينال الحكيم عوضا عن قرقماس الصغير بعد قتله .

وفيه خلع السلطان على الشيخ سيف الدين الحنفى وقرره فى مشيخة الجامع المؤيدى عوضا عن برهان الدين الديرى بحكم وفاته وكانت هذه الوظيفة مع أولاد الديرى بحكم شرط الواقف الملك المؤيد شيخ ، فأخرجها السلطان عنهم للشيخ سيف الدين ، ولم يلتفت الى شرط الواقف

***

وفى صفر جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يشبك الدوادار أخذ قلعة عينتاب من جماعة سوار ، وأن سوارا أخذ أولاده وعياله وماله وأودعهم بقلعة زمنوطو ، وصار عنده التتر من العسكر ، بخلاف العادة .

وفيه عاد الأمير حاجب الحجاب من الشرقية . وقد قبض على جماعة من العربان المفسدين ، وفيهم موسى بن عمران ، وآخر يقال له طاجن — وكان من أعيان العربان المفسدين — فرسم السلطان بتوسيط موسى ومعه جماعة من بنى سعد ، وبنى حرام ، وبنى وائل . فلما بلغ العربان قتل هؤلاء أظهروا العصيان ، وأفسدوا فى البلاد ... فرسم السلطان للأمير تمر باى بعوده الى الشرقية ، فعاد عن قريب .

وفيه ركب السلطان وصلى صلاة الجمعة بالقلعة ، وكان له مدة لم يركب بسبب كسر قصبة ساقه ، فلما ركب كان له يوم مشهود بالقلعة .

وفيه رسم السلطان لابن الطولونى بأن يجدد عمارة الميضأة التى بجامع القلعة ، فوسعها ورسم بعمارة الجامع ، فصرف على ذلك ألف دينار .

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك أخذ من سوار ما كان استولى عليه من أدنه وطرسوس ،

وتحارب مع جماعة سوار أشد المحاربة ، حتى طردهم من تلك البلاد وملكها .

وفيه كان وفاء النيل المبارك فى سادس عشرى مسرى ، فتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة .

وفيه توفى أسنبغا التترى اليشبكى الناصرى أحد الأمراء العشراوات ، ورءوس النوب ، وكان لا بأس به .

وفيه ركب السلطان ونزل من القلعة وتوجه الى جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وكشف عما تهدم من حيطانه وسقوفه وأمر ببنائه من ماله ... وشرع فى ذلك .

* * *

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا .

وفيه نودى من قبل السلطان بألا يشكو أحد أحدا للسلطان الا بعد أن يرفع أمره لأحد من الحكام ، فاذا لم ينصفه يقف بعد ذلك للسلطان . وكان قد كثرت شكاوى الناس بين يدى السلطان ، حتى ان امرأة شكت زوجها لأجل أنه وطىء جارية فى ملكه ، فما أطاقت زوجته الغيرة وشكته للسلطان بقصة .

وفيه خلع السلطان على الأمير يشبك الجمالى وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل على عادته . وكان السلطان عين برسباى الشرفى ، فاستعفى من ذلك فعفا عنه .

* * *

وفى ربيع الآخر نزل السلطان الى نحو خليج الزعفران على سبيل التنزه ، وكان معه الأتابكى أزبك وجماعة من الأمراء ، فأقام هناك الى آخر النهار ، فلما عاد ووصل الى الحسينية وجد فى طريقه جنازة ، وهى امرأة غريبة ليس معها أحد من الناس سوى الحمالين ، فنزل عن فرسه ومن معه من الأمراء ، فصلى عليها فى قارعة الطريق . وقدم الجماعة الذين حضروا الصلاة فعد ذلك من النوادر . وقد وقع مثل هذه الواقعة للأمير أحمد ابن طولون ، واستمر ماشيا قدام الميت حتى واراه التراب .

وفيه بعث السلطان الى الأمير أزبك اليوسفى أحد الأمراء المقدمين ، فخلع عليه وقرره فى نيابة عينتاب ، فنزل الى داره وهو مهموم ، وأقام على ذلك أياما حتى شفع فيه الأتابكى أزبك وأعفى من ذلك .

* * *

وفى جمادى الأولى حضر محمد بن نائب بهنسا بمكاتبة يذكر فيها انحلال أمر سوار من الأمير يشبك ، وأن عسكر سوار قد فل عنه ، وهو خائف من العسكر . ثم أرسل الأمير يشبك يطلب من السلطان نفقة للعسكر يتوسع بها ، فان العليق كان هناك مشحوتا ، فبعث السلطان مائة ألف دينار تفرق على العسكر هناك .

وفى هذا الشهر كانت وفاة قاضى القضاة عز الدين أحمد الحنبلى ، وهو أحمد بن ابراهيم ابن نصر الله بن أحمد بن محمد بن هاشم بن اسماعيل بن نصر الله بن أحمد العسقلانى الحنبلى ، وكان عالما فاضلا متواضعا فكه المحاضرة ، بقية الناس ، سمع على جماعة من العلماء وأجازوه ، وناب فى الحكم مدة ، ثم ولى القضاء الأكبر بعد وفاة قاضى القضاة بدر الدين البغدادى فى سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، واستمر فى هذه الولاية مدة طويلة نحوا من عشرين سنة ، وباشر منصب القضاة بعفة ونزاهة ، وحمدت عند الناس سيرته ، واتنهت اليه رياسة مذهبه ، وولى عدة تداريس

جلبلة ، وعاش من العمر مدة طويلة وقد قارب الثمانين سنة ، ومولده سنة ثمانمائة ، فلما مات استمر منصب القضاء شاغرا لم يتول به أحد ، فأقام نحوا من أربعة أشهر وكان السلطان أرسل خلف برهان الدين بن مفلح من الشام ليلى القضاء ، وكان السلطان رسم لبدر الدين السعدى تلميذ قاضى القضاة عز الدين الحنبلى ، بأن ينظر فى الأحكام المتعلقة بمذهبه الى أن يحضر البرهان ابن مفلح من الشام . فلما عاد القاصد الذى توجه الى ابن مفلح أخبر بأن ابن مفلح مريض ، وأرسل يعتذر للسلطان فى عدم الحضور الى القاهرة ، وتعلل بأشياء تدل على عدم قبوله للولاية . فلما عاد هذا الجواب على السلطان أخذ القاضى كاتب السر ابن مزهر يسعى للسعدى فى أن يلى القضاء ، وكان يومئذ فى الحنابلة من هو أفضل من السعدى ، ولكن الحظوظ تختلف . فلما كان ختم البخارى فى رمضان أحضر السلطان خلعة ، وخلع على بدر الدين السعدى ، واستمر به قاضى القضاة الحنبلية بمصر عوضا عن القاضى عز الدين بحكم وفاته . فنزل من القلعة فى موكب حافل جدا ، وقد استكثر الناس غالبهم على السعدى ذلك ، وكان شابا لم يظهر البياض بلمته . وقد داعبه بعض الشعراء بهذه المداعبة وهى :

قاضيكم ما مثله فى حكمه
عفيف ذيل ليس يدعى زانيا
قد ساس أمر الناس فى أحكامه
فلم ترى أسوس منه قاضيا

وفيه أيضا :

حضرت فى الدرس على قاضى
لص على التقليد فى درسه
فيحسن البحث على وجهه
ويوجب الدخل على نفسه

وفيه خرج السلطان الى الرمأية ببركة الحبش ، وكان معه الأتابكى أزبك وبقية الأمراء هناك ، ثم عاد الى القلعة ، وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وكان له يوم مشهود ، واصطاد فى ذلك اليوم ثلاثة كراكى وبلشون .

* * *

وفى جمادى الآخرة قدم قاصد من عند صاحب بلاد الهند الملك غياث الدين ، وأحضر على يده هدية الى السلطان ، والى الخليفة المستنجد بالله يوسف ، وأرسل يطلب منه تقليدا بولايته على اقليم الهند عوضا عمن كان قبله من ملوك الهند ، فأكرمه السلطان وخلع عليه ، وكتب له الخليفة تقليدا بما سأل .

وفيه وصل قاصد من عند الأمير يشبك الدوادار وعلى يده مكاتبة من يشبك يذكر فيها أنه وقع بينه وبين عسكر سوار واقعة مهولة على نهر جيحون ، وجرح فيها الأمير تمراز التمشى فى يده بسهم نشاب . وكان أول من ألقى نفسه فى النهر هو ... فلما بلغ العسكر رموا أنفسهم فى النهر خلفه ، فجرح تمراز وأغمى عليه ، فحملوه ورجعوا به الى الوطاق . ثم ان الأمير يشبك تثبت وقت الحرب ، وزحف بالعسكر على عسكر شاه سوار ، وكان بين الفريقين ساعة تشيب منها النواصى ، فانكسر عسكر سوار كسرة بليغة ، وقتل منهم ما لا يحصى عده ، وكان النصر لعسكر مصر على عسكر سوار كما قيل :

جيوشنا كالأسود أضحت
تقتحم الحرب بالعزائم
وسيف سلطاننا طويل
له بقوس العدا غنائم

فالنصر بالفتــح مــذ أتــاه
صير قلب الحســود وارم
فيــاله فى الورى مليــك
لقمع أهــل الفســاد صارم

فلما رأى سوار الكسرة عليه هرب فى نفر قليــل من عسـكره ، وطلع الى قلعــة زمنوطو واختفى . فلما بلغ الأمير يشـبك أن ســوارا فى قلعــه زمنوطو ، حاصرها أشد المحاصرة ، ورمى عليها بالمدافع واســتمر محاصرا لها حتى كان من أمره ما سنذكره . فخلع الســلطان على القاصــد الذى جاء بهذه الأخبار والبشارة ، وكذلك الأمراء خلعوا عليه ، وانشرح السلطان بهذا الخبر

وفيه نزل الى الرماية وغاب يوما وليلة ، فلما عاد طلع من الصليبة فى موكب حافل .

وفيه خسف جرم القمر جميعا ، وكان خسوفا مهولا فاحشا

* * *

وفى رجب صار السلطان ينزل الى الاصطبــل ويحكم فيــه بين الناس يوم السبت والثــلاثاء . فتكاثرت عليه المحاكمات ، وتزايدت شــكاوى الناس اليه . فوقف شخص يقال له محمد القليبى واشتكى من ناظر الخاص تاج الدين أحمــد بن المقسى ، وكان السلطان متحاملا عليه فأمر بضربه بالمقارع بين يديه ، فضرب نحو عشرين شيبيا حتى أدمى ، وكان يوما شديد البرد جدا ، وأمر بسجنه فى البرج الذى فى القلعه ، فطلع وهو ماش من باب السلسلة الى البرج عريانا مكشوف الرأس ، والدم يسيل من أجنابه ، فعد ذلك من مساوىء قايتباى .

وفيــه ضرب انسان من أولاد الناس امــرأة بسكين فى جنبها وهى ماشية بين الناس فى الطريق فماتت فى الحال ، فلما تحققموتها هرب ولم يعلم ما سبب ذلك .

وفيه نزل السلطان الى نحو المطرية ، ثم عاد من جهة قنطرة الحاجب ، فأذن عليــه المغرب عنــدما وصل الى المدرسة الجيعانية التى بالقرب من بركة الرطلى ، فنزل وصلى المغرب هناك خلف من صلى من العوام ، وكان الامام فى ثانى ركعة ، فصلى مع الجماعة ، فلما فرغت الصلاة وجد الامام صبيا أمرد فأعاد الصلاة ثانيا . ثم ركب من هناك وطلع الى القلعة .

وفيه رسم السلطان ليشبك الجمالى المحتسب بأن ينادى فى القاهرة بأن امرأة لا تلبس عصــابة مقنزعة ، ولا سرافوس حرير ، وأن تكون العصابة طولها ثلث ذراع ، وهى بختم السلطان من الجانبين . وكتب بذلك قسائم على من يبيع عصائب النساء وصمم الســلطان على يشبك المحتسب فى تكرير المناداة فى ذلك ، وصارت رسل المحتسب يطوفون فى الأسواق ، فان وجدوا امرأة بعصــابة مقنزعة أو سراقوس ، يضربونها ويجرسونها ، والعصابة معلقة فى رقبتها . فقلق النساء من ذلك ، وصارت المرأة اذا خرجت لنحو حاجة خرجت من غير عصابة مكبية رأسها ، أو تلبس عصابة طويلة فلما طال عليهن الأمر لبسن العصائب الطوال التى رســم بها السلطان . وكن يلبسنها اذا خرجن الى الأسواق فقط على كره منهن . ويلبسن العصــائب المقنزعة فى بيوتهن . وفى هــذه الواقعــة يقول الأديب زين الدين بن النحاس الشاعر :

أمــر الأمام مليكنا بعصائب
فى لبسها عسر على النسوان
فقلقن ثم أطعنه ولبســـنها
ودخلن تحت عصائب السلطان

واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة ، ثم رجعن الى ما كن عليــــه من لبس العصائب المقنزعـــة

والسراقوس ، ولم يلتفتن الى تحجر السلطان فى ذلك .

وفيه خلع السلطان على برسباى الشرفى وقرره فى امرية الحاج بالمحمل ، وكان قد أعفى من ذلك . وقرر يشبك الجمالى فى امرية الحاج ، ثم بطل وقرر فيها برسباى الشرفى .

وفيه خلع السلطان على البدرى بدر الدين بن مزهر القاضى كاتب السر ، وقرره فى نظر الخاص عوضا عن تاج الدين بن المقسى ، بحكم صرفه عنها وكان بدر الدين بن مزهر صغير السن ، لم يلتح ، حين قرره فى نظارة الخاص .

***

وفى شعبان نزل السلطان الى خليج الزعفران وقد أضافه الزينى أبو بكر بن عبد الباسط ، فأقام عنده الى آخر النهار ، وعاد الى القلعة .

وفيه انتهت مواكب الاسطبل وضبط مافرقه السلطان على الفقراء وأرباب الديون فى هذه المدة . فكان نحوا من ثمانمائة دينار .

وفيه ظهر بالسماء نجم له ذنب مستطيل ، وكان يظهر من جهة الغرب ، ثم صار يظهر من الشرق .

وفيه خرج الأمير قانى باى صلق وتوجه الى جهة حلب ، وعلى يده كوامل الشتاء للنواب ، وعدة خلع للأمير يشبك الدوادار ، وبرسم من يرد عليه من التركمان ، وأرسل على يده نحوا من أربعين ألف دينار برسم توسعة للعسكر .

وفيه عرض السلطان محابيس المقشرة وأطلق منهم جماعة ، وكان بها شخص له نحو من ثلاثين سنة ، فعمل مصلحته ووزن عنه للمدينين مبلغ له صورة وأطلقه .

وفيه نزل السلطان وعدى الى بر الجيزة ، فأضافه شخص من عرب اليسار يقال له محمد بن برقع ، فمد له أسمطة حافلة ، وبات عنده ، ثم عدى وتوجه الى شبرى ، وطلع من هناك وتوجه الى العباسة ، فأضافه هناك الشيخ بيبرس بن شعبان شيخ العرب . وأقام بالعباسة أياما ثم عاد الى القلعة .

وفيه توفى الأمير طوخ الأبوبكرى المؤيدى الذى كان زردكاش ، ونفى الى ثغر دمياط ، ثم شفع فيه وعاد الى القاهرة . ثم مات وهو بطال ، وكان لا بأس به .

***

وفى رمضان رسم السلطان للقاضى عبد الغنى بن الجيعان بأن يفرق على الفقهاء والعلماء توسعة فى رمضان لعيالهم ، واستمر ذلك عمالا فى كل شهر رمضان مدة أيام الأشرف قايتباى الى أن مات ، ثم تناقص ذلك من بعده .

وفيه رسم السلطان باحضار الأتابكى جرباش كرت ، وكان مقيما بثغر دمياط ، وكذلك الأمير يشبك المؤيدى ، الذى كان دوادارا كبيرا ، فتكلم لهما بعض الأمراء بأن يحضرا الى القاهرة ويكونا فى دورهما بطالين ، الى أن تنقضى أعمارهما ، فأجاب السلطان الى ذلك ، وأمر باحضارهما ، وكان الشرفى يحيى بن يشبك الفقيه متمرضا ، فلما حضر أبوه أقام مدة يسيرة ومات ، وكان شابا حسنا حشما رئيسا شجاعا بطلا ، حوى أنواع الفروسية ، وساق من جملة الرماحة بالمحمل ، وكان الظاهر خشقدم أنعم عليه بامرية عشرة ، وكانت أمه خوند بنت المؤيد شيخ ، وكان نادرة فى أبناء جنسه . ومولده سنة ثمان وثمانمائة .

وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم وعلى يده هدية للسلطان . وقد حضر يروم الحج .

وفيه ختم البخارى وخلع فى ذلك اليوم على

بدر الدين السعدى ، وقرره فى قضاء الحنابلة عوضا عن عز الدين الحنبلى .

وفيه صعد فى يوم عيد الفطر سيدى منصور بن الظاهر خشقدم الى القلعة ليهنىء السلطان بالعيد ، وكان السلطان جالسا على الكرسى بالقصر الكبير . فلما وقف سيدى منصور بين يديه خلع عليه متمر ، ثم طلبه وأجلسه معه على الكرسى — وكان صغير السن دون البلوغ — فعد جلوسه مع السلطان على الكرسى من النوادر التى ما وقعت قط .

وفيه جاءت الأخبار من عند يشبك الدوادار بأن شاه سوار قد تلاشى أمره ، وفل عنه غالب عسكره ، وأرسل يطلب الصلح من الأمير يشبك ، وأن يكون نائبا عن السلطان فى قلعة درندة ، وأنه يرسل ولده بمفاتيح القلعة ، فما وافق السلطان على ذلك الا أن يحضر سوار بنفسه ، ويقابل السلطان .

وفيه توفى القاضى نجم الدين العجلونى محمد ابن عبد الله بن عبد الرحمن الزرعى الدمشقى الشافعى مذهبا ، وكان عالما فاضلا ، قدم الى القاهرة بطلب من السلطان ليلى القضاء ، فتوعك فى جسده فمات ، ودفن بالقاهرة .

وفيه خرج الحاج من القاهرة وكان أمير ركب المحمل برسباى الشرفى ، وأمير ركب الأول الشهابى أحمد ابن الأتابكى تانى بك البرديكى الظاهرى برقوق .

وفيه وقعت حادثة غريبة وهى أن نجارا كان عمالا بالقلعة فى بعض طباق المماليك ، فسقط من مكان فمات لوقته ، وكان له أولاد وعيال وهو فقير ، فوقف أولاده وعياله بقصة للسلطان يلتمسون منه شيئا من الصدقة ، فأمر لهم بمائة دينار ، وأمر للميت بثوب بعلبكى وثلاثة أشرفية يجهزونه بها ، فعد ذلك من محاسن الأشرف قايتباى .

وفيه رسم السلطان بشنق جارية بيضاء ومعها غلام ، فشهروهما فى القاهرة على جملين ، وكان سبب ذلك أن الجارية اتفقت مع الغلام على قتل سيدها ، وأخذ ماله ويهربان ، فقتلاه ودفناه فى الاصطبل . فلما ظهر أمرهما ، رسم السلطان بشنقهما فشنقا .

وفيه توفيت خوند مغل بنت البارزى زوجة الملك الظاهر جقمق ، وكانت دينة خيرة ولها بر ومعروف ، وهى التى عمرت جامع الشيخ مدين بالمقس ، ووقفت عليه أوقافا كثيرة ، وكانت ناظرة الى فعل الخير .

وفيه كانت نهاية عمارة الجامع الذى قد أنشأه تمراز أحد الأميراخورية بجوار قنطرة عمر شاه .

* * *

وفى ذى القعدة غرقت مركب ببحر النيل ، وكان فيها بضائع كثيرة لتجار من الأروام ، ولم ينج منها سوى ثلاثة أنفار ، فعين السلطان شرف الدين بن كاتب غريب ، ومعه القاضى جلال الدين ابن الأمانة أحد نواب الشافعية ، الى المكان الذى غرقت فيه المركب لضبط مايظهر من تلك البضائع التى غرقت هناك ، فلم يظهر من ذلك الا اليسير وغرق الأكثر .

وفيه قدم قاصد من عند حسن الطويل ، وعلى يده هدية للسلطان ومكاتبة فيها أشياء سرا ، فلم ينشرح السلطان لقدوم هذا القاصد ، ولم يعلم ما فى المكاتبة .

وفيه توفى يوسف بن مغلطاى نائب ثغر دمياط وكان لا بأس به .

وفيه وقعت فتنة كبيرة بين بنى حرام وبنى

وائل . وكثر الفساد من العربان بالشرقية ، حتى امتنع مرور الناس من الأسفار الى الشرقيــة من كثرة القتــل ، وقطــع الطريق ، وســلب أثواب المسافرين .

***

وفى ذى الحجة وصل قاصــد من عنــد يشبك الدوادار ومعه مكاتبة ، يخبر فيها أن سوارا أرسل يطلب الأمان لنفسه ، وأنه يقيم بقلعة زمنوطو هو وعياله . فقال له الأمــير يشبك : « حتى نكاتب السلطان بذلك » .

وفيه قدم اياس الطــويل المحمدى الذى كان نائب طرابلس ، فأكرمه السلطان وخلع عليه وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ورسم له بأن يعــود الى طرابلس ، وأنعم عليــه بامرية بطرابلس يأكلها وهو طرخان . وكان قد شاخ وكبر ســنه وعجز عن الحركة .

وفيه وصل الأتابكى جرباش كرت من ثغر دمياط هو ويشبك الفقيه ، الذى كان دوادارا كبيرا وشفع فيه بعض الأمــراء بأن يكون بداره بطالا حتى ينتهى أجله . فرسم السلطان باحضــاره هو ويشبك الفقيه ، فلما طلع الأتابكى جرباش الى السلطان عظمه ، وقام اليه وأجلسه الى جانبــه . ثم ان الأتابكى جرباش قام وقبــل يد السلطان فى أن يشفع فى جانى بك كوهيه ، بأن يحضر هــو أيضــا الى القاهرة ، وكان بثغر دمياط . فأجابه السلطان الى ذلك ، ورسم باحضــاره ، ثم خلع على الأتابكى جرباش ويشــبك الفقيــه ، ونزلا الى دارهما .

وفيه أمر السلطان بانشاء البرج العظيم بقرب ثغر رشيد ، فجاء غاية فى الحسن من البناء والاتقان

وفيــه تزايد فساد بنى حــرام وبنى وائل ، وفسدت أحــوال الشرقية ، فعين لهم الســلطان تجريدة ، وكان بهــا من الأمراء الأتابكى أزبك وجانى بك قلقسير أمير سلاح وأزدمر الطويل ، أحد المقدمى الألوف . وعين معهم جماعــة كثيرة من الجند ، وأمرهم بالخروج الى الشرقية سريعا .

وسبب ذلك أن العــربان من بنى وائل وبنى حرام ، هجموا على القاهرة حتى وصلوا الى رأس خط الحسينية ، ونهبوا الدكاكين ، وسلبوا أثواب الناس . واستمر الحال على ذلك من بعد العصر الى ما بعد المغرب ، فرجعوا حيث جاءوا . فلما بلغ السلطان ذلك عين لهم هؤلاء الأمراء ، فخرجوا من يومهم سريعا ... ثم ان الأتابكى أزبك عاد الى القاهرة بعد أيام ، ومعه بعض عربان ، فأودعوهم فى المقشرة . وأما بقية الأمراء ، فرسم لهم السلطان بالاقامة فى الشرقية لرد العربان المفسدين .

وفيه ولدت امرأة أربعــة أولاد فى بطن واحد وهم صبيان وبنتان ، وكان أبوهم فقــيرا فحملهم الى السلطان ، فلما وضعوا بين يديه تعجب منهم ، ورسم لأبيهم بعشرة دنانير ، وخمسة أرادب قمح .

وفيــه جاءت الأخبار بوفاة أزدمر الصــغير الابراهيمى الظاهرى ، أحد الأمراء العشراوات ، ورءوس النــوب ، مات قتيلا على حصــار قلعة زمنــوطو ، وكان شجاعا بطــلا عارفا بأنواع الفروسية . وتوفى حسن التميمى ابن بيرم بن ططر نائب القدس والخليل ، وكان لا بأس به .

وفى هذه السنة كانت الفتن المهولة ببلاد فارس ، واستمرت الفتن عمالة حتى ملكهــا بنو أوطاس . وكانت الفتن ببلاد الشرق بين حسن الطويل وبين ملوك هراة وسمرقند . وكانت الفتن عمالة بسبب سوار . وخرجت السنة المذكورة عن شرور وفتن فى بلاد الشرق وغيرها .

سنة سبع وسبعين وثمانمائة (١٤٧٢/١٤٧٣ م) :

فيها ، في المحرم ، وقع بين الأتابكي أزبك وتغرى بردى ططر بسبب ضرب الكرة ، وقد زاحم فرس تغرى بردى ططر ، فرس الأتابكي أزبك ، فحنق منه فزاحمه عدة مرار وهو صابر له ، ثم حنق منه فضربه بالصولجان حتى تكسر على ظهره . وتغرى بردى يسب الأتابكي أزبك ، ويشتمه شتما فاحشا ، حتى وقف بينهما الأمير جانى بك قلقسير ، فثنى الأتابكي عنان فرسه ، ونزل الى داره كالغضبان . فتنكد السلطان غاية النكد بسبب ذلك .

وفيه توفى قلمطاى الأشرفى الاسحاقى ، أحد الأمراء العشراوات ، وكان مشهورا بالشجاعة والفروسية .

وفيه حضر قانى باى صلق وعلى يده مكاتبة الأمير يشبك الدوادار ، تتضمن القبض على شاه سوار ونزوله من قلعة زمنوطو ، وقد وصل قانى باى صلق من حلب الى مصر فى ثلاثة عشر يوما . فلما صحت الأخبار عند السلطان سر بذلك ، وخلع على قانى صلق خلعة حافلة ، وكذلك سائر الأمراء خلعوا عليه حتى المباشرون . فحصل له جملة خلع سنية .

وكان من ملخص أخبار القبض على شاه سوار أنه لما طلع الى قلعة زمنوطو واختفى بها ، حاصره الأمير يشبك الدوادار أشد المحاصرة ، وقد فل عن سوار عسكره وأراد الله خذلانه ، فأرسل يطلب الأمير تمراز التمشى ، قريب السلطان ، فتلطف الأمير يشبك بالأمير تمراز حتى وافقه الى طلوعه الى سوار ، فطلع الى قلعة زمنوطو وصحبته القاضى شمس الدين أجا الحلبى قاضى العسكر ، وهو والد القاضى كاتب السر الآن . فلما طلع الأمير تمراز الى سوار واجتمع به ، تعلل سوار بأنه يلبس خلعة السلطان ، ويبوس الأرض ولا يقابل الأمير يشبك . فما وافقه الأمير تمراز على ذلك ، فقال له سوار : « أنا قتلت من العسكر جماعة كثيرة وأخشى اذا نزلت اليهم يقتلونى » . فقال الأمير تمراز : « ضمانك علىّ فما يصيبك شيء » . فما وافق سوار على نزوله من القلعة . فقام الأمير تمراز والقاضى شمس الدين بن أجا من عنده والمجلس مائع .

فلما عاد الأمير تمراز بالجواب على الأمير يشبك ، لم بوافق على ذلك ، وحاصر سوارا ، وضيق عليه ، ورمى عليه بالمدافع فما أطاق سوار ذلك ، فأرسل يطلب الأمير تمراز والقاضى شمس الدين بن أجا ثانيا ، على أنه ينزل صحبتهما ، فطلع اليه الأمير تمراز وابن أجا ثانيا ، فطال بينهما المجلس ، وقيل ان سوارا أضاف الأمير تمراز وابن أجا بقلعة زمنوطو . فلما طال جلوس الأمير تمراز وابن أجا بقلعة زمنوطو عند سوار ، ماج العسكر على بعضه ، وأشيع بأن سوارا قد قبض على الأمير تمراز وابن أجا بقلعة زمنوطو ، فلما مضى من النهار النصف نزل الأمير تمراز هو والقاضى ابن أجا وصحبتهما شاه سوار ، وهو فى نفر قليل من عسكره ، فتوجه الى وطاق الأمير يشبك الدوادار ونزل عن فرسه ودخل على الأمير يشبك فى الخيمة فقام اليه ورحب به وأحضر اليه خلعة وألبسها له . فلما أراد الانصراف من عنده ، قال الأمير يشبك : « امض الى نائب الشام وسلم عليه » وكان يومئذ برقوق نائب الشام . فلما توجه اليه سوار نزل عن فرسه ، ودخل الى برقوق نائب الشام ، وصحبته الأمير تمراز . فلما وقف بين يدى برقوق قال له برقوق : « من أنت ؟ » قال له : « أنا سوار » . قال : « أنت سوار ؟ » قال : « نعم أنا سوار » .

فجعل يكرر عليه هذا الكلام فيقول له : « نعم أنا سوار » . ثم قال له برقوق : « أنت الذى قتلت الأمراء والعسكر ؟ » فسكت سوار . ثم قال برقوق : « أحضروا له خلعة » . فأتوا اليه بخلعة وفى ضمنها جنزير . فلما ألبسوها له وضعوا الجنزير فى عنقه . فلما رأى جماعة سوار أنه وضع فى جنزير ، ثاروا على جماعة برقوق وسلوا سيوفهم . وكان برقوق أكمن كمينا حول الخيمة ، وهم لابسون آلة الحرب ، فهجموا على جماعة سوار ، وقطعوهم ثم قبضوا على سوار وأدخلوه فى بعض الخيام . فلما رأى الأمير تمراز ذلك شق عليه وقال لبرقوق : « أنا نزلت بسوار من القلعة وحلفت له أنكم لاتشوشوا عليه ، فكيف يبقى أحد يأمن لكم ؟ » . فأخرق برقوق بالأمير تمراز خراقا فاحشا ، وربما لكمه . فخرج تمراز من عند برقوق وهو غضبان . وكان الأمير يشبك حلف للأمير تمراز أنه اذا قابله سوار لايقبض عليه ولايشوش عليه . فلما نزل اليه سوار ندب برقوق الى مافعله بسوار . وكان هذا عين الصواب . ودع الأمير تمراز يغضب . فلما تحقق العسكر القبض على سوار ، قاموا على حمية ، وقصدوا التوجه الى الديار المصرية . وهذا ملخص ماوقع فى أمر القبض على سوار . واستمر الأمير تمراز غضبان من الأمراء حتى دخل القاهرة . فلما قبض على سوار خلع الأمير يشبك على شاه بضاع أخي سوار وقرره عوضا عن أخيه فى امرية الأبلستين .

* * *

وفى صفر جاءت الأخبار بأن تانى بك السيفى ألماس الأشرفى نائب البيرة ... (بياض بالأصل) .

وفيه توجه الأتابكى أزبك الى نحو البحيرة فغاب أياما ثم عاد من هناك ومعه جماعة من العربان المفسدين ، وهم فى الحديد ، فرسم السلطان بسجنهم فى المقشرة .

وفيه عرض السلطان أولاد الناس وأمرهم بأن يلعبوا بالرمح بين يديه حتى يمتحنهم فى ذلك ، ويعلم من يلعب بالرمح ، ومن لا يلعب .. فحصل لهم غاية المشقة لأجل ذلك ، ووبخهم بالكلام ، وربما قصد الاخراق بهم .

وفيه عزل السلطان قاضى القضاة سراج الدين ابن حريز المالكى ووكل به بالطبقة ، ثم خلع على برهان الدين اللقانى أحد نواب الحكم ، وقرره فى قضاء المالكية عوضا عن ابن حريز . واستمر ابن حريز فى الترسيم .

وفيه كتب السلطان عدة فتاوى ، وأخذ عليها خطوط مشايخ العلم والقضاة فى أمر سوار فأفتوه بأنه خارجى ، وأنه لا يبقى فى قيد الحياة .

وفيه ضرب السلطان ثلاثة من مماليكه الجلبان ومعهم آخر من المماليك الخشقدمية ، فضربهم ضربا مبرحا ، وقد بلغه بأنهم سكروا وعربدوا على الناس . ثم نفى المملوك الخشقدمى الى البلاد الشامية .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه نحو دمياط ورشيد وغير ذلك من البلاد ، فسار فى البحر فى عدة مراكب ، وكان صحبته الأتابكى أزبك والأمير أزبك اليوسفى ، وغير ذلك من الأمراء . واستمر السلطان غائبا فى هذه السفرة نحوا من ثلاثة عشر يوما ، وقد تنزه فى هذه السفرة ، وطاف عدة بلاد ، ثم عاد الى القلعة ..

وفيه أحضر الى القاهرة جماعة من الافرنج قبض عليهم نائب ثغر الاسكندرية ، وكانوا يعيثون بسواحل البحر الملح . فلما عرضوا على السلطان

رسم بسجنهم فى المقشرة ، فأسلم منهم جماعة ، وجماعة سجنوا بالمقشرة .

وفيه حضر الشيخ علاء الدين الحصنى ، وكان خرج بصحبة الأمير يشبك الدوادار فغضب عليه ، وحصلت له كائنة عظيمة مع يشبك ، فهرب منه وأتى الى القاهرة واختفى بها .

***

وفى ربيع الأول جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك دخل الى الشام وصحبته سوار ، فزينت له الشام زينة حافلة ، وكان له يوم مشهود ، فأقام بالشام ثلاثة أيام ورحل عنها الى غزة . فلما سمع السلطان بهذا الخبر أمر بتبييض باب النصر وباب زويلة ، وضرب عليهما الرنوك الذهب . ثم أخذ فى أسباب ملاقاة الأمراء ، فكسا الأمراء المقدمين كل واحد أربع بدلات ، وجهز لهم ملاقاة الى الصالحية .

وفيه كان وفاء النيل المبارك حادى عشرى مسرى ، فنزل الأتابكى أزبك ، وفتح السد على العادة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه دخل الامير يشبك وبقية الأمراء والعسكر الى الخانقاه السرياقوسية ، وصحبتهم سوار واخوته وهم فى زناجير . فلما وصل الأمير يشبك الى الخانقاه : خرج الأمراء وأرباب الدولة الى ملاقاته ، ثم رحل من الخانقاه ونزل الى الريدانية فخرج القضاة الأربعة وأعيان مشايخ العلماء . ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بالزينة فزينت زينة حافلة ، ورجت القاهرة لدخول سوار ، حتى بلغ أجرة كل بيت على الشارع أربعة أشرفية ، وأجرة كل دكان أشرفى ذهب ، بسبب الفرجة على سوار . فخرجت البنت من خدرها تنظر الى سوار الذى قتل العباد ، ويتم الأطفال ، ونهب الأموال .

فلما كان يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثمانمائة ، دخل الأمير يشبك الدوادار الى القاهرة ، وصحبته شاه سوار . وكان الأمير تمراز التمشى دخل الى القاهرة وهو منفرد عن الأمراء ، لم يرافقهم ، واستمر غضبان بسبب ماحصل له مع برقوق نائب الشام ، لأجل قبضه على سوار . وقد تقدم ذكر ذلك ... ثم ان سوارا أدخل قدام الأمير يشبك وهو راكب على فرس ، وعليه خلعة تماسيح على أسود ، وعلى رأسه عمامة كبيرة ، وهو فى زنجير كبير طويل ، وراكب الى جانبه شخص من الأمراء العشراوات ، يقال له تنم الضبع من الظاهرية الجقمقية — وهو مشكوك مع سوار فى الزنجير — وكان قدام سوار اخوته وأقاربه وأعيان من قبض عليه من أمرائه ممن نزل معه من قلعة زمنوط ، فكانوا نحوا من عشرين انسانا ، وهم راكبون على أكادش ، وعليهم ملاليط بيض ، وعلى رءوسهم عمائم ، وهم فى زناجير ومشكوك معهم جماعة من أعوان الوالى . فشق الأمير يشبك من القاهرة وهو فى موكب حافل ، وقدامه الأمراء ممن كان معه فى التجريدة ، وممن كان مقيما بمصر . وسارت الأطلاب أمامه شيئا بعد شىء ، واصطفت الناس على الدكاكين ، وكان له يوم مشهود بالقاهرة لم يقع نظيره فى الفرجة ، وكان من نوادر الزمان .

واستمر الأمير يشبك فى ذلك الموكب حتى طلع الى القلعة ، فعمل السلطان الموكب فى القصر الكبير ، وقبل الأمراء الأرض . ثم انتقل الى الايوان ، فجلس به ، وكان من حين جدد معاليمه لم يجلس به سوى ذلك اليوم ، قصدا أن يعرض سوارا هناك ، فتزاحمت عليه الناس ، فانتقل السلطان الى الحوش ، وجلس على الدكة ، وطلب سوارا هناك . فلما مثل بين يديه وبخه بالكلام ،

وعاتبه عتابا لطيفا ، وسوار ساكت لم يتكلم . ثم ان السلطان وسم بتسليم سوار الى الوالى يشبك ابن حيدر ، فتسلمه هو واخوته . ثم اخرجوا أخاه يحيى كاور الذى كان فى البرج ، وقد قبض عليه قبل ذلك ، وكان مسجونا فى القلعة ، وسلمه للوالى فلما تسلمهم والى القاهرة نزع الخلعة عنه فى الحال ، وأحضروا لهم جمالا ، فأركبوا سوارا على جمل ، وألبسوه ملوطة بيضاء ، وجعل فى عنقه طوق حديد ، وفيه عمود من حديد طويل ، وفى رأس العمود جرس ، حسبما قد رسم السلطان له بذلك . ثم سمروا اخوته وأقاربه على جمال ، وهم عرايا ورءوسهم مكشوفة . واخوة سوار الأربعة هم : أردوانة الأحدب ، وحداد ، ويحيى كاور ، وسلمان ، وجماعة من أمرائه ... فلما سمروهم وأركبوهم على ظهور الجمال ، نزلوا بهم من الصليبة ، والمشاعلية تنادى عليهم : « هذا جزاء من تخامر على السلطان » . واستمروا على ذلك حتى وصلوا الى باب زويلة ، فشنكلوا سوارا ، وعلقوه فى وسط باب زويلة ، وأخوه يحيى كاور عن يمينه فى الدخول من باب زويلة لصوب باب النصر ، وأردوانة عن شماله كذلك ، وعلقوا حدادا داخل الباب . وأما سلمان فكان أمرد مليح الشكل ، فرق الناس له ، فشفع فيه الأمير يشبك وخلصه من الشنكلة . ثم توجهوا بالباقى الى باب النصر فوسطوهم بأجمعهم . واستمر سوار معلقا حتى مات هو واخوته ، فأقاموا معلقين يوما وليلة — والناس ينظرون اليهم — ثم أنزلوهم وغسلوهم وكفنوهم وصلوا عليهم ، وتوجهوا بهم الى تل غال بالقرب من زاوية كهنبوش فدفنوهم هناك ، ثم قلعوا الزينة .

وخمدت فتنة سوار كأنها لم تكن بعد ما ذهب عليها أموال وأرواح ، وقتل جماعة كثيرة من الأمراء ، وكسر الأمراء ثلاث مرات ، ونهب بركهم . وقد انتهكت حرمة سلطان مصر عند ملوك الشرق وغيرهم ، حتى ان الفلاحين طمعوا فى الترك ، وتبهدلوا عندهم بسبب ما جرى عليهم من سوار . وكادت أن تخرج المملكة عن الجراكسة ، وقد أشرف سوار على أخذ حلب ، وقد خطب له فى الأبلستين ، وضربت هناك السكة باسمه ... ولولا لطف الله تعالى بالناس ، واخذال سوار لفسدت أحوال المملكة جدا .

وكانت صفة سوار أنه جميل الصورة ، حسن الشكل ، مستدير الوجه ، أبيض اللون ، مشرب بحمرة ، أشهل العينين ، أسود اللحية ، معتدل القامة ، ضخم الجسد . وكان فى عشر الأربعين من العمر ، وكانت مخايل الحشمة والرآسة محصورة فيه ، يقرب فى الشكل من القاضى ناظر الخاص تاج الدين بن المقسى ، وكان شجاعا بطلا ، وكان له سعد خارق فيما وقع له من النصرة على عسكر مصر غير ما مرة ، وكان من أعظم أولاد دلغادر ، وقد وقع له ما لم يقع لأحد من أجداده قبله ، وقد شق على الأمير تمراز قتل سوار على هذا الوجه ، واستمر غضبان مدة . وفى واقعة سوار قال المنصورى :

يأيها الملك الذى سطواته
تغنى عن العسال والبتار
علق سوارا فوق باب زويلة
ان كنت منه آخذا بالثار
فلأنت تعلم أن ذلك معصم
ما كنت تتركه بغير سوار

وقوله أيضا فى الأمير يشبك لما حضر الى القاهرة وصحبته سوار :

منذ وافى الأمير يشبك مصرا
حبذا مصر موطن الأوطار

لبست حجل نيلها وتحلى
زند بابى زويلة بسوار

وفيه حضر الى القاهرة كسباى الظاهرى الخشقدمى ، الذى كان دوادارا ثانيا ونفى الى الشام فأرسل الأمير يشبك يشفع فيه ، فأجيب الى ذلك ، فأحضر كسباى صحبته ، واستمر فى داره بطالا حتى مات كما سيأتى الكلام عليه .

***

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على برسباى الشرفى ، وقرره فى امرية الحاج بالمحمل ، وقرر الشهابى أحمد بن الأتابكى تانى بك البردبكى بامرية الركب الأول ، وكان متوعكا فى جسده فأخذ يستعفى من السفر فما أعفى من ذلك .

وفيه توفى جانى بك الأبيض أحد الحجاب ، وكان قد جاوز السبعين سنة وكان لا بأس به .

وفيه توجه القاضى شرف الدين الأنصارى الى جهة الطينة ، وكان معه مائة مملوك من مماليك الأمير يشبك الدوادار ، فلما وصل الى هناك وجد فى البحر الملح مراكب فيها أفرنج يعبثون بالمسلمين المسافرين ، فقبض على مركب منها وأسر من فيها من الفرنج ، وأحضرهم صحبته لما عاد .

وفيه عزل قاضى القضاة الحنفى ابن الشحنة ، وأمر بالتوكيل به بطبقة الزمام ، وذلك بسبب ما وقع فى عقد المجلس الذى كان بين خوند شقرا وبين أختها خوند آسية ، بسبب وقف الظاهر برقوق ، فتعصب ابن الشحنة لخوند شقرا ، فحنق السلطان منه وعزله ، وكان فى نفسه منه شىء بسبب ولده عبد البر ، وكانت هذه آخر ولايته للقضاء ، ولم يل بعدها القضاء . واستمر فى الترسيم بطبقة الزمام بسبب تعلقات أوقاف الحنفية . ثم ان السلطان خلع على الشمسى شمس الدين محمد الامشاطى ، وقرره فى قضاء الحنفية عوضا عن محب الدين بن الشحنة بحكم انفصاله عن القضاء ، فأفيض عليه شعار القضاء ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وكان قد تمنع من الولاية غاية التمنع ، فألزمه بذلك السلطان .

وفيه شفع الأتابكى فى قاضى القضاة محب الدين ابن الشحنة ، فنقل الى بيت كاتب السر حتى يقيم حساب أوقاف الحنفية .

***

وفى جمادى الأولى توفى دقماق الأشرفى الاينالى نائب القدس ، وكان شابا حسن الشكل موصوفا بالشجاعة .

وفيه جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن حسن بك الطويل ، ملك العراقين ، قد جمع من العساكر ما لا يحصى ، وهو زاحف على بلاد السلطان ، وقد بعث ولده محمدا مع عسكر ثقيل ، وقد وصلوا الى الرها ... فكثر القال والقيل بين الناس بسبب ذلك ، فما صدق العسكر أن خمدت عنهم فتنة سوار ، فاتتشى لهم فتنة حسن الطويل . وزاد الكلام بين الناس بأن هذا ما هو مثل شاه سوار ، وأن هذا لا يطاق . فقلق السلطان والعسكر لهذا الخبر فكان كما قيل فى المعنى :

شكوت جلوس السان ثقيل
فجانا آخر من ذاك أثقل
فكنت كمن شكا الطاعون يوما
فجاء له على الطاعون دمل

***

وفى جمادى الآخرة عين السلطان تجريدة الى حسن الطويل ، وعين بها من الأمراء المقدمين ثلاثة ، وهم : جانى بك قلقسير أمير سلاح ، وسودون الأفرم ، وقراجا الطويل الاينالى ، وعدة من الأمراء الطبلخانات ، والعشراوات ، ومن

الجنـد نحو من خمسمائة مملوك . فلمـا عينهم أنفق عليهم وأمرهم بالمسير الى حلب بسرعة من غير تأخير .

وفيه وقع تشـاجر عظيم بين الأمير يشـبك الدوادار ، وبين الأمير خاير بك بن حديد ، وذلك بحضرة السلطان . وكان سـبب ذلك صحصاح الكاشف ، فانه وقع بينه وبين الأمـير خـاير بك بسـبب بلاده التى فى الفيـوم ، فتعصب الأمير يشبك الصحصاح ، فوقع بينهما ما لا خير فيه .

وفيه أخرج السلطان تقدمة سودون الأفرم وقد استعفى من السفر الى حسن الطويل ، فلما أخرج عنه التقدمة أنعم بها على قجماس الاسحاقى ورتب لسودون الأفرم ما يكفيه ، وبقى طرخانا بمصر .

وفيه شفع فى جانى بك المشد الأشرفى برسباى وكان مقيما بالقدس بطالا ، فحضر الى القـاهرة ، ورتب له ما يكفيه ، واستمر مقيمـا بداره مدة حتى مات .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر حسن الطويل قد اسـتولى على كحتا وكركر ، وبعث مكاتبة مكتوبة بماء الذهب الى شـاه بضـاع صاحب الأبلستين ، بأن يسلم اليـه القلاع التى حوله ولا يخرج عن طاعته . وأرسل له فى المكاتبة ألفاظا مزعجة بما معنـاه « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ثم هدده فى مكاتبته بأنه متى خالفه يحصل له منه ما هو كيت وكيت .

فأرسل بضاع المكاتبة للسلطان ، فلما قـرأها السلطان وعلم ما فيها ، انزعج لذلك ، وتأثر . ثم عين الأمير يشبك الدوادار باش العسكر . وعين تجريدة أعظم من الأولى التى عينهـا قبل ذلك . فعين بها من الأمراء المقدمين يشـبك الدوادار ، واينـال الأشقر ، وبرسـباى قرا ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات عدة وافرة . وكتب من الجند فوق ألفى مملوك . ثم أنفق عليهم وأخذوا فى أسباب الخروج الى السفر ، فخرجت التجريدة الأولى قبل ذلك . وكان باش العسكر جانى بك قلقسيز أمير سلاح ، ومن معه من الأمراء . فلما رحل من الريدانية خرج الأمير يشبك ومن معـه من الأمراء ، فرجت لهم القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود .

* * *

وفى رجب لما صعد القضاة للتهنئة بالشهر صعد معهم الشـيخ أمين الدين الأقصرائى ، فأخـذ السلطان يتكلم معه بسبب حسن الطويل ، فتكلم الشيخ أمين الدين بكلام انزعج منه السـلطان ، وقد تقدم له معه فى واقعة سوار بما تكلم به فى ذلك المجلس ، وقد تأثر منه السلطان فى الباطن .

وفيه أرسل نائب الشام مكاتبة حسن الطويل الى السـلطان ، وكان أرسـل يهدده فى هـذه المكاتبة ، ويأمره بأشياء لا يمكن شرحها . وكتب فى صدر المكاتبة « يأأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . فانزعج السلطان لهذا الخبر .

وفيـه جاءت الأخبـار من حلب بأنورديش نائب البيرة قـد قبض على جمـاعة من عسـكر حسن الطويل ، وكسر جاليشه ... فسر السلطان بهذا الخبر .

وفيه وصل الى القـاهرة من بلاد جركس ، أخت السلطان واسمها جان كين ، ومعها ولدها ، فصعدت الى القلعة فى محفة وحولهـا الخدام ، وحضر معها عدة نساء جراكسة .

وفيه رحـل الأمير يشـبك هو وعسـكره من الريدانيـة ، وكان مصروف السـلطان على هذه التجـريدة فيما أنفقـه مبلغ أربعمائة ألف دينـار ، وعشرين ألف دينـار ، خارجـا عن أشـياء كثيرة بعثهـا للأمراء . فلما وصل الأمير

يشبك الى الخانقاه ، نزل اليه السلطان وودعه هنـاك ، واجتمع به فى خلوة ، وعرض عليه مكاتبة حسن الطويل التى بعثها الى نائب الشام .

* * *

وفى شعبان ثارت جماعة من المماليك الجلبان ، على شرف الدين بن كاتب غريب ، وكان متكلما فى الوزارة والاستادارية عن الأمير يشبك ، فتوجهوا الى داره ، وكسروا أبوابه ، فهرب واختفى . وكانت هذه أول حوادث الجلبان فى الفتك . واستمرت الحوادث منهم تتزايد حتى كان منهم ما سنذكره فى موضعه .

وفيه حضر قاصد نائب حلب وأخبر أن نائب حلب قبض على عثمان بن أغلبك ، وشخص آخر كان استادارا على تقدمة حسن الطويل التى كانت بحلب ، وقبض على جماعة آخرين نحوا من أربعين نفرا ، وقد نسبوا الجميع الى المواطأة مع حسن الطويل ، وكانوا يكاتبونه بأخبار المملكة . فأمر نائب حلب بشنقهم .

وفيه هلك بترك النصارى الملكية ، وهو فخر ابن الصيفى ، وكان فى النصارى لا بأس به .

وفيه كانت وفاة الشيخ فخر الدين المقسمى ، وهو عثمان بن عبد الله بن عثمان بن عفان الشافعى . وكان من أعيان علماء الشافعية ، وكان عالما فاضلا بارعا فى الفقه ، دينا خيرا وافر العقل . وذكر بأن يلى القضاء الأكبر غير ما مرة . وولى عدة تداريس جليلة ، منها مشيخة الحديث بالشيخونية ، وكان قد جاوز الستين سنة من العمر . فلما مات قرر فى مشيخة الحديث بالشيخونية الشيخ جلال الدين السيوطى عوضا عن الفخر المقسمى .

* * *

وفى رمضان نزل السلطان الى دار تمر يعوده ، وكان نقطعا عن الركوب ، فسلم عليه وعاد الى القلعة .

وفيه وصل ركب من المغاربة من تونس ، وكان صحبتهم الحرة زوجة صاحب تونس . وحضر صحبتها قاضى الجماعة الشيخ أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن عمر القلجانى ، وكان من فضلاء علماء المالكية ، فأكرمه السلطان والأمراء ، ورأى من العز والعظمة حظا وافرا .

وفيه صلب على باب زويلة جارية سوداء قد قتلت ستها ، فأمر القاضى اللقانى المالكى بصلبها حتى تموت .

وفيه توفى جانى بك قرا العلائى الأشرفى أحد الأمراء العشراوات وشاد الشون وكان لابأس به .

وفيه توفى أيضا أرغون شاه استادار الصحبة ونائب غزة . وكان هو الذى قبض على الظاهر تمربغا لما تسحب من دمياط ، وكان أصله من مماليك الأشرف برسباى ، وكان محمود السيرة .

وفيه ختم البخارى بالقلعة ، وكان ختما حافلا وخلع فيه السلطان على القضاة ومشايخ العلم . وفرقت الصرر على الفقهاء .

* * *

وفى شوال جاءت الأخبار بوفاة برقوق الناصرى الظاهرى نائب الشام ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان شجاعا بطلا مقداما فى الحرب ، عارفا بأنواع الفروسية فى فنون لعب الرمح والرماية بالنشاب ، وولى عدة وظائف سنية ، منها شادية الشربخاناه ، ثم تقدمة ألف ، ثم نيابة الشام ، ومات بها — وكان قد جاوز الستين سنة من العمر — فلما حضر سيفه أظهر السلطان الحزن والبكاء وتأسف عليه ، وكان عنده بمنزلة الأخ . ثم أمر باحضار أولاده وعياله الى القاهرة ، ثم رسم بنقل جثته الى القاهرة ليدفن فى تربته التى بباب القرافة ، وكان لبرقوق بر ومعروف . وهو الذى أنشأ القبة على ضريح العارف بالله

الشيخ عمر بن الفارض رحمه الله تعالى ورضى عنه .

وفيه توفى الأتابكى جرباش كرت المحمدى الناصرى وكان طرخانا الى أن مات بمصر . وكان قد قارب التسعين سنة من العمر ، وأصله من مماليك الناصر فرج . وكان أميرا جليلا حشما رئيسا ، ولى عدة وظائف سنية ، منها الأمير آخورية الكبرى وامرية مجلس ، وامرية سلاح . ثم بقى أتابك العساكر بمصر ، وترشح أمره الى أن يلى السلطنة لما وثبت جماعة الأشرفية على الظاهر خشقدم ، كما تقدم ، وكان متزوجا بخوند شقرا بنت أستاذه الناصر فرج ثم نفى بعد ما وقع له ما ذكر الى دمياط . ثم أحضر الى القاهرة ومات بها وجرى عليه شدائد ومحن ، كما قيل :

اذا طبع الزمان على اعوجاج
فلا تطمع لنفسك فى اعتدال

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يشبك الدوادار دخل الى حلب ، وكان له يوم مشهود ، فلما استقر بحلب قدم عليه قاصد من عند حسن الطويل ، وعلى يده مكاتبة شرحها أنه أرسل يطلب جماعته الذين أسروا وسجنوا بحلب ، وأنهم اذا أطلقوهم يطلق من عنده من الأسرى وكان عنده دولات باى النجمى الذى كان نائب ملطية ، وجماعة آخرون ، فلم يلتفت اليه يشبك ولا أجابه عن ذلك بشىء .

وفيه توفى الزينى عبد الرحمن بن الكويز الذى كان ناظر الخاص ، وهو عبد الرحمن بن داود بن عبد الرحمن بن خليل . وكان أصلهم نصارى من الشوبك ، وحضر جدهم داود صحبه المؤيد شيخ لما قدم الى مصر . وكان عبد الرحمن رئيسا حشما فى سعة من المال ، وولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة الاسكندرية ، ثم ولى الاستادارية ونظر الخاص . ثم جرى عليه شدائد ومحن ، وفر الى بلاد ابن عثمان ملك الروم ، وأقام هناك مدة ثم عاد الى مصر . وكان يدعى أنه يعرف علم الحرف ، وكان له نظم سافل ومولده فى سنة ثمانمائة .

وفيه توفى نوروز الأشرفى ، كاشف الوجه القبلى ، وكان لا بأس به .

وفيه خرج الحاج على العادة ، وكان الشهابى أحمد ابن الأتابكى تانى بك أمير ركب الأول مريضا على غير استواء ، فلم يرق له السلطان ، وخرج على غير استواء ، وهو فى محفة فى النزع . فلما وصل الى بركة الحاج مات ليلة الرحيل ، وكان حشما متأدبا رئيسا ، وكان من الأمراء العشراوات ، وتوجه الى الحجاز أمير ركب الأول غير ما مرة . وكان مولده بعد العشر والثمانمائة ، فلما بلغ السلطان موته طلب جانى بك الأشقر أحد مماليكه وخواصه ، ورسم له بأن يتوجه أمير ركب الأول عوضا عن الشهابى أحمد بن تانى بك ، فتسلم جميع بركه وجماله ، وسافر على الركب الأول ، ثم حمل الشهابى أحمد الى القاهرة وغسل وكفن وصلى عليه ودفن ، فعد ذلك من النوادر الغريبة ، ولم يكن يمر الحج على بال جانى بك فى هذه السنة فكان كما قيل :

ألا انما الأقسام تحرم ساهرا
وآخر يأتى رزقه وهو نائم

وفيه أرسل السلطان خلعتين : احداهما الى جانى بك قلقسير أمير سلاح ، بأن يستقر فى نيابة الشام عوضا عن برقوق بحكم وفاته — وكان المشار اليه بالتجريدة — فتوجه الى الشام واستقر بها وأما الخلعة الثانية فبعث بها الى اينال الأشقر ، بأن يستقر فى امرية سلاح عوضا عن المذكور المتقدم .

* * *

وفى ذى القعدة طلع الخليفة المستنجد بالله

يوسف ومعه القضاة الأربعة ليهنوا السلطان بالشهر على العادة ، فتكلم الخليفة مع السلطان فى أمر ابنته ست الخلفاء ، التى كان عقد عليها خشكلدى السيفى . فطال الكلام فى ذلك وانفض المجلس على غير طائل . ثم فسخ عقدها عن خشكلدى فيما بعد .

وفى هذا المجلس تكلم السلطان مع قاضى القضاة الحنفى شمس الدين الامشاطى ، فى اقامة قاضٍ برسم حل الأوقاف والاستبدالات ، فقال : « ان السلطان له ولاية التفويض الى من شاء من النواب ، وأما أنا فلا ألقى الله تعالى بحل وقف ، ولا بعمل استبدال » وقام من المجلس كالغضبان . فتأثر السلطان منه فى الباطن رحمه الله تعالى ورضى عنه .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يشبك بعث جماعة من العسكر الى البيرة لقتال عسكر حسن الطويل ، وقد بلغه أن حالهم تلاشى الى الفرار ، وأن حسن الطويل أرسل يكاتب الافرنج ليعينوه على قتال عسكر مصر ، وهذا أول ابتداء عكسه لكونه أرسل يستعين بالافرنج على قتال المسلمين .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان ملك الروم أرسل قاصده الى الأمير يشبك ، بأن يكون عونا للسلطان على قتال حسن الطويل ، فأكرم القاصد ، وأرسل صحبته القاضى شمس الدين بن أجا قاضى العسكر ، بأن يتوجه الى ابن عثمان وعلى يده هدية حافلة ، ومكاتبة بأن ينتىء بينه وبين السلطان مودة ، بسبب أمر حسن الطويل .

وفيه وصل الى السلطان مكاتبة من عند ابن الصوا من حلب ، يخبر فيها بأن الأمير يشبك قد انتصر على عسكر حسن الطويل ، ورحلهم عن البيرة ، وأن والد حسن الطويل قد جرح جرحات بالغة ، وآخر من أولاده أصيب فى عينه ، ووقع بين الفريقين مقتلة شديدة ، وقتل فى المعركة شخص من الأمراء العشراوات يقال له قرقماس المصارع ، المعروف بالعلائى أمير آخور رابع ، وكان صهر مؤلف هذا التاريخ ، زوج أخته ، وكان انسانا حسنا دينا خيرا موصوفا بالشجاعة والفروسية علامة فى رمى النشاب والصراع ، أصيب بسهم فى صدغه فمات لوقته . ولم يقتل فى هذه المعركة أحد من العسكر سواه . ثم رحل عسكر حسن الطويل من البيرة ، وقد خذلهم الله تعالى بعد ما عدوا من الفرات ، وطرقوا البلاد الحلبية من أطرافها ، فردهم الله تعالى عن المسلمين . وقد قالت الشعراء فى هذه النصرة عدة مقاطيع ، فمن ذلك قول شمس الدين القادرى :

أيا حسن الطويل بعثت جيشا
كأغنام وهن لنا غنائم
فنار الحرب قد قتلت سوارا
وأنت لسبكها لا شك خاتم

وقال المنصورى :

هل عارف بالخارجى المعتدى
يخبر الينا باسمه وصفاته
قالوا نعم حسن فقلت هلاكه
قالوا الطويل فقلت ليل شتاته

وقوله أيضا :

أيها العسكر الذى سار قصدا
لقتال الطويل لا تنظروه
لا تطيلوا مع العدو كلاما
فى وغى الحرب والطويل اقصروه

وقال محمد بن شادبك :

عروس الحرب تقطعها المواضى
بأرواح الأعارب والأعاجم

وقد جليت وفى يدها سوار

وها حسن لكف الحرب خاتم

وقوله أيضا :

أيا حسن الطويل قصرت عمرا

وفاتك المعالى والمغانم

سوار قد سبكناه ابتداء

وأنت بناره للسبك خاتم

وفى هذا الشهر كسفت الشمس كسوفا عاما ، وأظلمت الدنيا ، واستمر الكسوف نحوا من ثلاثين درجة .

وفيه قدم قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وقد أتى من جهة البحر الملح ، فأكرمه السلطان ، وأحضر صحبته مكاتبة حسن الطويل الى ملوك الافرنج بأن يمشوا على ابن عثمان وسلطان مصر من البحر ، وهو يمشى عليهم من البر ، وقد ظفر هذا القاصد بقاصد حسن الطويل ، وهو قاصد نحو بلاد الافرنج ، فقبض عليه فى أثناء الطريق وهو فى مركب وأسره . ثم ان القاصد أقام بمصر أياما وأضافه السلطان وأذن له فى السفر وخلع عليه . ثم ان السلطان عين دولات باى حمام الأشرفى ، بأن يتوجه قاصدا نحو ابن عثمان .

***

وفى ذى الحجة تغير خاطر السلطان على الأمير خاير بك بن حديد الأشرفى ، وأمره بلزوم داره ، وهذه أول كائنة وقعت له . ثم جرى عليه بعد ذلك ما هو أعظم من ذلك ، فأقام بداره أياما لا يركب . ثم بعث السلطان خلفه الى ضرب الكرة . فلما طلع الى القلعة وضرب الكرة ، إتفق أن السلطان قد سقط من يده الصولجان ، فترجل خاير بك عن فرسه وناوله للسلطان ، فخلع عليه وأركبه فرسا من خيوله ، ونزل الى داره وهو مكرم .

وفيه توفى جانم اللفاف المؤيدى ، وكان أمير عشرة ولكن مات طرخانا .

وتوفى طوخ النوروزى وكان أمير عشرة ومات طرخانا .

وفيه حضر مبشر الحاج ، وأخبر بأنه لما وصل المحمل العراقى ، ودخل المدينة الشريفة ، كان أميرهم شخص يقال له رستم ، وصحبته قاض يقال له أحمد بن وجيه ، فضيقوا على قضاة المدينة ، وأمروهم بان يخطبوا فى المدينة باسم الملك العادل حسن الطويل خادم الحرمين الشريفين . فلما خرجوا من المدينة وقصدوا التوجه الى مكة ، كاتب أهل المدينة أمير مكة بما وقع منهم ، فخرج اليهم الشريف محمد ابن الشريف بركات ، ولاقاهم من بطن مر قبل أن يدخلوا الى مكة . وقبض على رستم أمير ركب المحمل العراقى ، وقبض على القاضى الذى صحبته ، وعلى جماعة من أعيانهم ، وأودعهم فى الحديد ليبعثهم الى السلطان . ثم أطلق بقية من كان فى ركبهم من الحجاج ، ولم يتعرض لهم .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الشيخ المسلك العارف بالله تعالى سيدى ابراهيم بن على بن عمر المتبولى رحمه الله تعالى . توفى بأسدود بالمنوفية ، ودفن بها . وكان خرج الى زيارة بيت المقدس فأدركته المنية هناك فمات . وكان خيرا دينا مباركا وللناس فيه اعتقاد حسن . وكانت شفاعته عند السلطان والأمراء لا ترد . وكان له بر ومعروف ، وأنشأ ببركة الحاج حوضا وسبيلا وبستانا . وكان يأوى الفقراء والمنقطعين ، وكان نادرة فى عصره صوفى وقته .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم سمرقند العلامة الشيخ علاء الدين على بن محمد الطوسى

البتاركانى الحنفى ، وكان له شهرة ببلاد سمرقند . والف فى العلوم الجليلة ، وكان من أعيان علماء الحنفية .

وفيه توفى اياس الطويل المحمدى الناصرى ، الذى كان نائب طرابلس ، الذى تقدم ذكره .

وفيه من الوقائع أن البرهان البقاعى وقاضى الجماعة أبو عبد الله القلجانى المغربى المالكى وقع بينهما بحث فى بعض المسائل ، فوقع من البرهان البقاعى فى ذلك المجلس جواب ضبطه عليه قاضى الجماعة ، وصرح بكفره وأشهد عليه وأراد أن تقام عليه الدعوى عند قاضى القضاة المالكى . فلما علم كاتب السر ابن مزهر بذلك ، طلب البقاعى عنده ، وحكم بعض القضاة بحقن دمه . ولولا كاتب السر ما حصل للبقاعى خير . والذى جرى على البقاعى بسبب سيدى عمر بن الفارض رحمه الله ورضى عنه ، فانه كان رأس المتعصبين عليه . واستمر البقاعى فى عكس حتى مات .

سنة ثمان وسبعين وثمانمائة (١٤٧٣/١٤٧٤ م) :

فيها ، فى المحرم ، وقع الرخاء بالديار المصرية ، حتى ابتيع الرطل اللحم السليخ بثمانية نقره ، والبطة الدقيق بأربعة أنصاف . ووقع الرخاء فى سائر الحبوب ، وابتيع القنطار البطيخ العبدلاوى بثلاثة أنصاف . ووقع الرخاء فى سائر المأكولات قاطبة .

وفيه جاءت الأخبار من الاسكندرية بأن الافرنج قد عبثوا ببعض سواحلها ، وأسروا من المسلمين تسعة أنفار ، وفعلوا مثل ذلك بثغر دمياط . فلما جرى ذلك عين لهم السلطان فى الحال الأمير محمد بن قجماس الأسحاقى أحد مقدمى الألوف ، وأمره بالخروج من يومه . فخرج بعد العصر وسافر من البحر فى عدة مراكب ، وأمره السلطان أن يتبع الفرنج حيث ساروا .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نوى ، وقد أضافه هناك ابن طفيش ضيافة حافلة ، وأقام عنده الى آخر النهار ، وعاد الى القلعة .

وفيه رسم السلطان بعزل القاضى القمى المالكى ، أحد نواب الحكم ، بسبب حكم حكمه . فشكاه الخصم الى السلطان بأنه جار عليه ، فحنق منه السلطان وأمر بعزله .

وفيه وصل الحاج وصحبتهم ابن أمير مكة ، والقاضى برهان الدين بن ظهيرة الشافعى ، وولده أبو السعود وأخوه ، وأحضروا صحبتهم رستم أمير الحاج العرقى. والقاضى اللذين بعث بهما حسن الطويل وصحبتهما كسوة الكعبة المشرفة ، وأمر أهل المدينة والكعبة بأن يخطبوا فيهما باسم العادل حسن الطويل ، فسجن السلطان رستم والقاضى فى البرج الذى بالقلعة ، وتأخر الحاج فى السنة المذكورة عن ميعاده ثلاثة أيام ، بسبب موت الجمال وقلة المياه . ثم أرسل خاير بك الخشقدمى الذى سمى « سلطان ليلة » ، يسأل فضل السلطان بأن ينقله من مكة الى القدس ليقيم بها حتى يموت ، فشفع فيه الأمير يشبك الجمالى ، فأجيب الى ذلك ، ونقل من مكة الى القدس . وحضر صحبة الحاج الشيخ ساد الأذربيجانى الحنفى ، وهو شيخ تربة الأمير يشبك الدوادار .

* * *

وفى صفر خلع السلطان على القاضى ابراهيم بن ظهيرة ، وأعاده الى قضاء الشافعية بمكة ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ومعه القضاة الأربعة ، وأعيان الدولة .

وفيه خلع السلطان على تمراز التمشى ، وقرره

فى رأس النوبة الكبرى عوضا عن اينال الأشقر بحكم انتقاله الى امرية سلاح .

وفيــه عين السلطان برسباى الأشرفى استادار الصحبة ، بأن يتوجه قاصــدا الى ابن عثمان ملك الروم وصحبته هدية سنية .

* * *

وفى ربيع الأول كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى خامس مسرى الموافق لخــامس ربيع الأول . فلما أوفى توجه الأمير لاجين الظاهرى أمير مجلس وفتح السد على العادة . وفى ذلك اليوم نودى على النيل بزيادة اثنى عشر اصبعا بعد سبعة عشر ذراعا ، فكان زيادته ثلاثة أذرع فى ستة أيام .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة ، فلم يحضر فيه من الأمراء المقدمين سوى ثلاثة أنفار . وكان آكثر الأمراء غائبا فى التجريدة .

وفيــه توفى القاضى زين الدين عبد القادر بن عبد الرحيم بن الجيعان . وكان رئيسا حشما كثير العشرة للناس ، ومات وهو فى عشر الخمسين .

وفيه جاءت الأخبار بهلاك صاحب قبرس ، وهو جاكم بن جوان بن حينوس الكيتلانى ، وكان من أعيان ملوك الافرنج ، وهو الذى حضر الى الديار المصرية فى دولة الأشرف اينال ، وكان شابا حسنا فى شكله ، فلما هلك تولى من بعده أخوه .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان بعث عسكرا لمحاربة حسن الطويل ، فسر السلطان لذلك .

وفيه توفى الأمير يشبك الفقيــه ابن سلمان شاه المؤيدى الذى كان دوادارا كبــيرا فى دولة الظاهر خشقدم ثم نفى الى دمياط . ثم شفع فيه وعاد الى القــاهرة ، وأقام بها بطالا حتى مات . وكان دينا خيرا ، وله اشتغال بالعلم . وكان قد شاخ سنه ، وقاسى شدائد ومحنا ومات ولده قبله بمدة يسيرة ، وغص عليه ، وكان ولده شابا حسنا مليح الشكل مشهورا بالفروسية . وقد تقدم ذكر ذلك .

* * *

وفى ربيع الآخر أطلق السلطان رستم أمير الحج العراقى ، وأطلق القــاضى الذى صحبته ، وخلع عليهما وبعثهما الى بلادهما ترضيا لخاطر حسن الطويل ، وقد أشار بذلك الأمير يشبك الدوادار .

* * *

وفى جمادى الأولى جاءت الأخبار بوفاة الأشرفى استادار الصحبة ، الذى توجه قاصــدا الى بلاد ابن عثمان ، وكانت وفاته بحلب ، وكان لا بأس به فى ذاته .

وفيه خلع الســلطان على الماس الأشرفى أحد خواصه . وقرره فى استادارية الصحبة عوضا عن برسباى الشرفى بحكم وفاته . وعين قاصدا الى ابن عثمان .

وفيــه خلع السلطان على جانى بك الأشقر الدوادار ، وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل ؛ وخلع على قانصوه خمسمائة الخاصكى ، احــد مماليك السلطان ، وقرره فى امرية الركب الأول ، وقانصوه هو الذى تسلطن ولم تتم له السلطنة . وجرى له ما جرى .

وفيه أمر السلطان بتوسيط عبد صغير السن قد ذبح سيدته وأخذ مالها وهرب ، فقبض عليه من ليلته .

* * *

وفى جمادى الآخرة ثار جماعــة من المماليك الجلبان ، على السلطان بالقلعة ، ومنعوا الأمــراء من الصعود ، واستمر الحال على ذلك غــد ذلك اليوم ، حتى سكن الأمر قليلا بعد ما قصــدوا جماعة من خواص السلطان .

وفيه من الوقائع الغريبة أن شخصا حلبيا كان

عنده مسن من الرخام الأخضر له عنده نحو من ثلاثين سنة . فاتفق أن ذلك المسن سقط من يد صاحبه فانكسر نصفين ، فخرجت منه دودة غريبة الشكل ، فمد الحلبى يده اليها ، وأخذها يقلبها فلدغته فى اصبعه ، فاضطرب ساعة ووقع لوقته ميتا . وهذا من غريب الاتفاق .

وفيه أرسل يشبك يسأل فى الحضور . فان العسكر قد قلق من قلة العليق ، فلما بلغ السلطان حنق واغتاظ . ثم أذن لهم بالحضور بعد ذلك .

* * *

وفى رجب نزل السلطان ، وتوجه الى الرماية ببركة الحبش ، فاصطاد ثلاثة كراكى ، وعاد من يومه ، وشق من القاهرة فى موكب حافل .

وفيه ثار جماعة من الجلبان بالقلعة ، ومنعوا الأمراء والمباشرين من الصعود الى القلعة ، وكان رأس الفتنة شخصا من مماليك السلطان يقال له على باى الخشن . فلما خمدت هذه الفتنة ضربه السلطان نحوا من ألف عصا ، ونفاه الى الشام . فجاءت الأخبار بعد مدة بأنه سقط عليه حائط ومات تحت الردم . ففرح فيه غالب الناس .

وفيه جاءت الأخبار باستقرار قراجا الطويل الاينالى فى نيابة حماه ، عوضا عن بلاط اليشبكى بحكم صرفه عنها . وحمل بلاط عقيب ذلك الى السجن بقلعة دمشق . ومات فى السجن بعد مدة يسيرة . وكان قد شاخ وجاوز السبعين سنة من العمر .

* * *

وفى شعبان عاد الأتابكى أزبك من البحيرة ، وخلع عليه السلطان ، ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفيه حضر من الجند جماعة كثيرة ممن كان فى التجريدة ، صحبة الأمير يشبك الدوادار ، فلما حضروا اختفوا بالقاهرة ، ولم يظهروا .

وفيه وقعت نادرة غريبة : وهى أن أبا بكر بن مزهر كاتب السر ، عطس بحضرة السلطان ، فشمته السلطان مرتين ، فعد ذلك من النوادر .

* * *

وفى رمضان أنعم السلطان على تغرى بردى ططر بتقدمة ألف ، وهى تقدمة قجماس الاسحاقى ، مضافة الى تقدمة قراجا الطويل الاينالى ، وقد انتقل الى نيابة حماه .

وفيه قرر ملاح اليوسفى الظاهرى فى نيابة القلعة .

وفيه كان دخول الأمير يشبك الدوادار الى القاهرة وقد عاد من التجريدة . فكان يوم دخوله يوما مشهودا ، فخلع عليه السلطان ، ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، وخلع فى ذلك اليوم على قضاة القضاة ومشايخ العلم ، وفرقت الصرر على الفقهاء .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم دمشق الشيخ زين الدين خطاب بن عمر بن مهنا بن يوسف بن يحيى العجلونى . وكان عالما فاضلا مفتيا من أعيان الشافعية . ومولده سنة تسع وثمانمائة .

* * *

وفى شوال كان موكب العيد حافلا ، حضر فى ذلك اليوم بالقلعة قاضى مكة البرهان بن ظهيرة وولده أبو السعود وأخو البرهان بن ظهيرة ، وكان الشريف بركات ابن أمير مكة حاضرا وجماعة من أعيان مكة . فخلع السلطان على الجميع فى ذلك اليوم .

وفيه خرج الحاج على العادة وكان أمير ركب المحمل جانى بك الأشقر ، وأمير ركب الأول قانصوه خمسمائة ، فالتزم الأمير يشبك بعمل بركه من ماله . وكان الأمير يشبك قد عقد على أخت قانصوه وصاهره ، وخرج صحبة الحاج شاهين نائب جدة ، وخرج القاضى ابراهيم بن ظهيرة وجماعته ، وابن أمير مكة قاصدين التوجه الى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وعظمها . وقد أوردوا للسلطان فى هذه الخطرة نحوا من مائة ألف دينار . فأكرمهم السلطان وأجلهم ، ورتب لهم ما يكفيهم من الأسمطة وغير ذلك . وأنزلهم فى بيت أم ناظر الخاص يوسف الذى ببركة الرطلى ، ورأوا فيها بهجة أيام النيل . ثم بعد ذلك سافروا .

وفيه وقف الأمير يشبك الدوادار الى السلطان ، واستعفى من الوزارة ومن الاستادارية ، فاجابه السلطان الى ذلك ، ولكن حتى يغلق سنته . وكان من أمره ما سنذكره .

* * *

وفى ذى القعدة رسم السلطان ليشبك الجمالى ، بأن يخرج قاصدا لابن عثمان ملك الروم ، وأبطل ألماس الدى كان قد تعين قبل ذلك .

وفيه تزوج أزدمر الطويل الاينالى ببنت الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، وكان له مهم حافل .

وفيه ثار جماعة من المماليك الجلبان ونزلوا الى جهة بولاق فنهبوا ما فيها . ثم قصدوا شونة الأمير يشبك الدوادار ، فنهبوا ما فيها ، وصاروا يأخذون جمال السقايين ، ويحملونها ما نهبوه من الشعير . فلما تزايد الأمر منهم نزل السلطان وهو سائق ، ومعه مقدم المماليك ، ولكن ما نزل الا بعد فوات الأمر . وحصل منهم فى ذلك اليوم غاية الضرر للناس ، من نهب وخطف بعمائم الناس ، وغير ذلك . فبات السلطان تلك الليلة فى جامع زين الدين الأستادار الذى ببولاق ، فأضافه تلك الليلة بعض قضاة بولاق ، وهو القاضى تقى الدين البرمزى امام الجامع المذكور وخطيبه ، ضيافة حافلة . فشكر له السلطان ذلك .

* * *

وفى ذى الحجة قصد جماعة من المماليك الجلبان الاخراق بالأمير يشبك الدوادار ، وقصدوا قتله ، ففر منهم ، وتوجه الى نواحى الجيزة حتى تخمد الفتنة . فاستمر غائبا نحوا من خمسة عشر يوما ففى هذه المدة كثر القال والقيل بين الناس . وامتنع الأمراء من الصعود الى القلعة والسلطان مقيم بالدهيشة ، كالغضبان من مماليكه ، والأبواب مغلقة عليه . فطلع الأتابكى أزبك ، وأزبك اليوسفى ، وتمر حاجب الحجاب ، وكاتب السر ، وشرف الدين الأنصارى ، وآخرون من الأمراء ... على انهم يتلطفون بالسلطان ، ويمشون بينه وبين مماليكه بالصلح . فامتنع السلطان من ذلك ، وصمم على عدم الصلح مع المماليك . ثم خرج الى الحوش وجلس على الدكة ، وطلب من كان رأس الفتنة فى هذه الحركة ، وهو شخص من المماليك يعرف بالأقطش ، فأمر بتوسيطه فجردوه من ثيابه فى الحال ، فشفع فيه الأمراء فما أجاب الا بعد جهد كبير ، ثم ضرب ذلك المملوك فوق ألف عصا ، وسجنه بالبرج . وهذا كله جرى والأمير يشبك غائب فى الجيزة لم يحضر الا بعد أيام ، حتى سكنت هذه الفتنة .

وفيه حضر الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق بطلب من السلطان — وهذه ثانى مرة حضرها الى القاهرة — فلما حضر أكرمه السلطان ، وخلع عليه ، ونزل فى دار الأتابكى أزبك عند أخته . ثم أمره بالصعود الى القلعة لضرب الكرة مع الأمراء ،

وعومل معاملة السلاطين فى ارخاء البند الأصفر ، وتغيير الفرس فى مكان يغير فيه السلطان فرسه ، حتى عد ذلك من النوادر التى ما وقعت قط . وأقام الملك المنصور بالقاهرة نحو شهرين حتى عاد الى دمياط . وكان فى غاية العز والاكرام . ووقع له أمور ما وقعت لأحد من أبناء الملوك قبله . وكان حضوره الأول بسبب الحج ، وهذه المرة بسبب زيارة السلطان .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة البدرى حسن بن المزلق ناظر جيش دمشق . وكان رئيسا حشما ، ولى عدة وظائف سنية .

وفيه توفى الأمير سودون الأفرم المحمدى الظاهرى ، وكان أحد مقدمى الألوف ، ولكن مات وهو طرخان . وكان بيده امرية عشرة يأكلها حتى مات .

وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد سيدى محمد الاسلامبولى رحمة الله تعالى عليه . وكان يعرف بالأقباعى ، وكان من عباد الله الصالحين ، وله كرامات ومكاشفات خارقة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة ملك التكرور رحمه الله تعالى . وكان من أجل ملوك التكرور قدرا .

وفيه توفى عبد القادر بن جانم نائب الشام . وكان شابا حسنا لا بأس به . وتوفى فى هذه السنة جماعة كثيرة من الأعيان لم نذكرهم خوف الاطالة

سنة تسع وسبعين وثمانمائة (١٤٧٤/١٤٧٥ م) :

فيها ، فى المحرم ، قدم قاصد حسن الطويل وعلى يده مكاتبة تتضمن الاعتذار عما كان منه ، وأن ذلك لم يكن باختياره . فأكرم السلطان ذلك القاصد ، وأظهر العفو عما جرى منه . وكان أشيع عن حسن الطويل أنه قتل . وأظهر بعض التركمان قميصه وهو ملطخ بالدم ، ثم ظهر كذب هذه الاشاعة . وقد ذكر موته غير ما مرة ، ثم يظهر أنه كذب .

* * *

وفى صفر أمر السلطان بقطع خصيتى شخص من الأتراك ، يقال له شاهين ، وهو خازندار اينال الأشقر . وكان نقل عنه للسلطان أنه فعل الفاحشة ببعض مماليكه الأحداث ، وأنه كثير العشرة لهم . فخصاه السلطان بمصر العتيقة وبرىء من ذلك بعد مدة . وعاش مدة طويلة ومات . وكان ذلك فى أيام ظهور شخص يهودى بمصر العتيقة ، عارف بالاخصاء ، وفعل ذلك مع جماعة كثيرة من الناس ، وبرئوا من ذلك .

* * *

وفى ربيع الأول تغير خاطر السلطان على الأمير قانصوه الخفيف الاينالى ، أحد مقدمى الألوف ، فرسم لنقيب الجيش بأن يتوجه الى داره ويخرجه منفيا الى دمياط ، فتوجه اليه وأخرجه من يومه . وحصل لقانصوه الخفيف منه غاية البهدلة . وأخرجه خروج الشؤم . فكثر القال والقيل بسبب ذلك .

وفيه فى ليلة الخميس عاشره ثارت فتنة عظيمة من المماليك الجلبان ، وقصدوا قتل الأمير يشبك ، وهو فى داره . فلما بلغ السلطان ذلك بعث للأتابكى أزبك وبقية الأمراء أن يلبسوا آلة الحرب ، وأن يثبوا على المماليك الجلبان . فاضطربت الأحوال ، وماجت القاهرة ، وغلقت الأسواق ، واتسع أمر الفتنة . وأشار بعض الأمراء على السلطان بخمود هذه الفتنة . وخشوا من أمر طائفة الاينالية ، لأنهم تأثروا لنفى قانصوه الخفيف . فبعث السلطان ألماس استادار الصحبة ، ومعه عدة وافرة من المماليك الجلبان ، الى دار الأمير يشبك الدوادار ، فقبلوا يده ،

واعتذروا له بما وقع منهم ، فأكرمهم وخلع على الماس كاملية بسمور ، وأرضى الجلبان بالكلام ، وسكنت الفتنة قليلا .

وفيه أنعم السلطان على ورديش نائب البيرة بتقدمة ألف . وهى تقدمة قانصوه الخفيف بحكم نفيه الى دمياط .

وفيه توفى تنم العجمى بن ططخ الظاهرى ، أحد الأمراء العشراوات . وكان خشداش الأتابكى أزبك وكان لا بأس به .

وفيه رسم السلطان بنفى سودون المؤيدى ، فنفاه الى مكة . وكان قد نسب الى شىء من أمر الفتنة الماضية مع المماليك الجلبان ، وقد وشى به بعض المماليك عند السلطان فنفاه .

وفيه فى ليلة عيد ميكائيل نزلت النقطة ، وأمطرت السماء فى تلك الليلة مطرا غزيرا ، حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه بعث الأمير يشبك الدوادار الى القاضى علم الدين شاكر بن الجيعان ، يسأله فى استبدال قاعات البرابخية التى ببولاق ، ودفع لهم الثمن من ذلك خمسة آلاف دينار . وكان قاضى القضاة الحنفى شمس الدين صمم على عدم الاستبدالات قاطبة . فضيق عليه الأمير يشبك حتى استبدل له البرابخية ، فقامت عليه الألسنة بسبب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار من القدس بوفاة خاير بك الظاهرى الخشقدمى ، الذى سموه سلطان ليلة ، وكان رئيسا حشما ، وجرى عليه شدائد ومحن ، ونفى فى عدة أماكن من البلاد ، وآخر الأمر توفى بالقدس الشريف .

وفيه وفى النيل المبارك وقد توقف أياما ، وحصل للناس غاية القلق ، حتى بعث الله تعالى بالوفاء ، وكان لعشرين من مسرى . فلما وفى نزل الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة ، وسر الناس بذلك .

وفيه كان المولد النبوى وكان له يوم مشهود .

* * *

وفى ربيع الآخر ظهر بالسماء نجم له ذنب طويل . وكان يظهر بعد العشاء ، واستمر على ذلك مدة ، ثم اختفى .

وفيه كانت وفاة العلامة الشيخ زين الدين قاسم ابن قطلوبغا السودونى الحنفى ، وكان عالما فاضلا فقيها حاذقا كثير النوادر ، مفتيا من أعيان الحنفية ، وكان مولده فى سنة احدى وثمانمائة وكان نادرة عصره .

وفيه خلع السلطان على جانى بك الأشقر ، وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل ، وقرر جانى بك الخشن الاينالى فى امرية الركب الأول .

وفيه نفى السلطان جماعة كثيرة من مماليكه ، منهم اينال الخفيف الذى ولى حاجب الحجاب فيما بعد ، وغيره من المماليك السلطانية ، ممن أثار تلك الفتن الماضية .

وفيه قدم للسلطان قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وعلى يده مكاتبة تتضمن الشفاعة فى اينال الحكيم ، وكان قد جرى عليه كائنة ، وفر الى ابن عثمان ، فقبل السلطان شفاعته وأكرم ذلك القاصد وخلع عليه ، وأقام بمصر مدة ثم عاد الى بلاده .

* * *

وفى جمادى الأولى ، فى ليلة الجمعة ، كانت وفاة الامام العالم العلامة محيى الدين الكافيجى ، وهو محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومى ، الحنفى . وكان اماما عالما فاضلا بارعا فى العلوم ، ماهرا فى الفقه والحديث والعلوم العقلية وغير ذلك ، وانتهت اليه رياسة مذهبه بمصر ، وصار مفتيها على الاطلاق ، وألف فى العلوم الجليلة ، وكان مهيبا

معظما عند السلطان والأمراء ، ولى عدة وظائف منهـا مشيخة الخانقاه الشيخونية ، ومشيخة تربة الأشرف برسباى ، وغير ذلك ، وشهرته تغنى عن مزيد التعريف به . ومولـده سـنة ثمان وثمانين وسبعمائة وكان من أفاضل الحنفية رحمه الله تعالى . وفيه يقول المنصورى وقد أضافه فى خلوته بحلاوة قرع فقال فيه :

ياعـين أعيـان الزمـان ويا
محيى بمصر سـنة الشرع
لم يقرع الباب امرؤ نحوكم
الا وذاق حـلاوة القـرع

ولما مات رثاه المنصورى بهذه الأبيات :

بكت على الشيخ محيى الدين كافيجى
عيونـنـا بدمـوع من دم المهـج
كانت أساريرهـذا الدهر من درر
تزهى فبـدل ذاك الـدر بالسـبج
فكم ترى من سـماح من مكارمـه
فقـرى وقوم بالاعطاء من عـوج
يانور عـلم أراه اليـوم منطفئـا
وكانت النـاس تمشى منـه فى سرج
فلو رأيت الفتـاوى وهى باكيـة
رأيتهـا من نجيـع الدمـع فى لجج
ولو مرت بثنـاء عنـه ريح صـبا
لاستنشقوا من شـذاها أطيب الأرج
ياوحشـة العلم من فيـه اذا اعتركت
أبطـاله فتـوارت فى دجى الرهـج
لم يلحقوا شـأو علم من خصـائصه
أتى ورتبتـه فى أرفـع الـدرج
قـد طال ما كان يقربنـا ويقرئنا
فى حالتيـه بوجـه منـه مبتهـج
سـقيا له وكسـاه الله نور سـنا
من سـندس بسـدا الغفران منتسج

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى نحو طرا ، وأقام بها الى آخر النهار ، وعاد .

وفى عقيب ذلك رسم السـلطان بنفى اثنين من الاينالية ، وهذا أول الفتك بهم .

وفيه توفى سودون المنصورى مات قتيلا ، سقط من سطح ، وكان مشغول الرأس فمات لوقتـه ، وكان شـابا حسن الشكل ، كثير الاسراف على نفسه ، فقصـد السلطان أن يصلى عليه ، فلما علم كيفية موته لم يصل عليه ، نعوذ بالله من ذلك .

وفيه خلع السـلطان على خشقدم الأحمـدى الطواشى ، وقرره فى الوزارة عوضـا عن الأمـير يشبك الدوادار ، بحكم استعفائه عنها ، وقرر قاسم شـغيته فى نظر الدولة . فلما أحضروا لخشـقدم الخلعة شرع يلطم بيديه على وجهه ويبكى ، وصار يدعى الفقر والعجز ، ويكرر الاستعفاء ، والسلطان لم يلتفت لكلامه ، فلبس الخلعة ونزل الى داره .

وفيه حضر قاصد من عند ملك الهند ، وعلى يده هدية للسلطان ، ومن جملتها سبع عظيم الخلقة ، وخيمة كبيرة ، وغير ذلك . فأكرمه السلطان ، وخلع عليه .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى خليج الزعفران ، ونصب هناك تلك الخيمة التى أهداها له ملك الهند وكانت غريبة . فأقام هناك ثلاثة أيام فصادف دخول الأمير يشبك الجمالى ، الذى كان توجـه الى ابن عثمان ملك الروم ، فعاد من سفره ، وقابل السلطان فى خليج الزعفـران ، وعليـه خلعة ابن عثمان ، ومكاتبة تتضمن التودد بينهما ، فانسر السلطان بذلك .

وفيه أمر السلطان ببناء ما تهدم من جامع عمرو

ابن العاص رضى الله عنه ، فقيل انه صرف عليه خمسة آلاف دينار .

* * *

وفى جمادى الآخرة خلع السلطان على الشيخ سيف الدين الحنفى ، وقرره فى مشيخه الخانقاه عوضا عن محيى الدين الكافيجى ، وخلع على ابن قاضى القضاة سعد الدين الديرى ، وقرره فى مشيخة الشيخونية ، وكانت مشيخة المؤيدية مع أولاد ابن الديرى بحكم شرط الواقف ، فعادت اليهم . وفيه أعيد السيد الشريف موفق الدين أحمد الحموى فى نظارة الجيش لدمشق ، عوضا عن ولد برهان الدين النابلسى ، وكان قد وليها بعد وفاة البدر بن مزلق .

وفيه وقعت تشحيطة صعبة بالقاهرة ، وعز وجود الخبز من الدكاكين ، وتزاحم الناس على شراء القمح ، واستمر ذلك مدة حتى دخل المغل الجديد .

* * *

وفى رجب قرر السلطان الشيخ أبا عبد الله القلجانى المغربى ، قاضى الجماعة ، فى مشيخة تربة السلطان ، وقرر فى خطبتها الشيخ أبا الفضل الحرقى ، وقرر بها ثلاثين صوفيا ، يحضرون فى الخمسة أوقات ، وقرر فيها شيخ الميقاتية بدر الدين الماردينى ، وقرر فى قراءة المصحف بها ناصر الدين الأخميمى ، وخازن الكتب بها العلائى على بن خاص بك ، وبنى للصوفية حول التربة عدة بيوت يسكنون بها دائما ، ثم رتب لهم الجوامك والخبز والزيت والصابون وغير ذلك من أنواع البر والمعروف ، وخطب بها فى الشهر المذكور ، وحضر الأمراء والقضاة الأربعة وأرباب الدولة قاطبة ، وكان يوما حافلا .

وفيه خلع على القاضى أبى الفتح المنوفى ، وقرره فى نيابة جدة عوضا عن شاهين الجمالى ، وأضيف اليه الصرف أيضا ، عوضا عن محمد بن عبد الرحمن .

وفيه غضب السلطان على شادبك أباز الاينالى الأشرفى ، أحد العشراوات ، فألبسه زنطا عتيقا وأمر بحمله الى خان الخليلى ليباع ، وقد ثبت أنه باق على ملك المنصور عثمان بحكم أنه ورثه من قانى باى الجركسى . فأمر السلطان بأن يباع ويحمل ثمنه الى الملك المنصور ، فشفع فيه الأتابكى أزبك ، فما قبل منه .وآل الأمر الى أن حمل شاد بك أياز وآخر من الاينالية يقال له خاير بك ، وآخر يقال له سيباى ، فحملوا الى الملك المنصور فأشهد على نفسه بعتقهم . ثم نفى شاد بك الى دمشق ، وخاير بك الى طرابلس ، وشفع فى سيباى بأن يقعد بمصر بطالا . وقد بلغ السلطان ما غير خاطره عليهم ، قيل انهم قصدوا الوثوب على السلطان لما وثب المماليك على الأمير يشبك الدوادار ، فانكشف رخ جماعة الاينالية فى هذه الحركة ، وصار السلطان ينفى منهم جماعة بعد جماعة ، ممن كان رأس الفتنة فى هذه الحركة .

وفيه طلع الى السلطان شخص من الفقهاء يقال له شهاب الدين القلقيلى ، ورفع قصة يشكو فيها الشيخ عبد البر بن الشحنة ، بأنه سلط غلمانه وعبيده عليه ، فضربوه ضربا مبرحا . وذكر فى آخر القصة أن عبد البر جاهل ما يحسن قراءة الفاتحة ، وأن الصلاة خلفه لاتصح . فمال السلطان مع القلقيلى على عبد البر ، فرسم السلطان باحضار عبد البر وجماعة من مشايخ القراء ، وقرأ عبد البر بحضرتهم والسلطان جالس ، والقلقيلى حاضر . فلما سمعه المشايخ القراء شكروا قراءته ، فمال السلطان على القلقيلى ، وكان قد حلف برأس السلطان أن عبد البر ما يحسن قراءة الفاتحة ، فلما ظهر للسلطان كذب القلقيلى أمر بضربه ، فضرب بين يديه ضربا

مبرحا ، وأمر بحمله الى القاضى المالكى ليفعل به ما يوجبه الشرع . وانتصر عبد البر عليه .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الناصرى محمد بن شاد بك التركمانى الجلبى نائب طرابلس .

وفيه توفى يشبك الظاهرى السيفى على باى نائب قلعة دمشق ، وكان لا بأس به .

وفيه نزل السلطان للرماية ، فلما عاد شق من القاهرة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه وقع بين الأمير يشبك الدوادار وخشقدم الوزير ، حتى صرح الأمير يشبك بعزل نفسه من الدوادارية وأغلق بابه ولم يجتمع بأحد من الناس ، حتى ركب اليه الأمير الكبير أزبك وجماعة من الأمراء ، وتلطفوا به حتى طلع معهم الى القلعة ، وخلع السلطان عليه كاملية بسمور ، وأصلح بينه وبين خشقدم الوزير ، وباس خشقدم يد الأمير يشبك ، وخمدت هذه الفتنة التى بينهما .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة بلباى العلائى الظاهرى نائب صفد ، وكان لا بأس به ، وولى نيابة الاسكندرية ، ثم نيابة صفد ، ومات وهو فى عشر الستين .

❊ ❊ ❊

وفى شعبان توفى يكتمر البواب الأبو بكرى الأشرفى ، وكان لا بأس به .

وفيه نزل السلطان الى الاسطبل ، وحكم به ، وكاتب السر بين يديه على دكة لأجل قراءة القصص . وحضر يشبك الدوادار وشكا كاتب السر ، وهو واقف بين يدى السلطان ، فأمره أن ينزل ويقف بين يديه بازاء خصمه ، حتى يدعى عليه ، وحضر وشكا جانى بك الفقيه ، ففعل به كذلك .

وفيه توفيت خوند بدرية بنت الأشرف اينال وكانت لا بأس بها ، وتركت عدة أولاد ذكور واناث .

وفيه وصل قاضى القدس وهو فى الحديد ومعه جماعة من أعيان أهل القدس ، وهم فى الحديد بسبب هدم كنيسة هناك ، وقد ثار بسبب ذلك شر كبير بين العلماء ، وكتبت عدة فتاوى بسبب تلك الكنيسة ، وصار يفتى بعضهم بالهدم ، وبعضهم بالابقاء .

وفيه هجم طائفة من العربان المفسدين ، على جماعة من الناس فى أثناء طريق المنية ، واستمروا يعرون الناس من المنية الى قنطرة الحاجب ، وكان ذلك بعد العصر ، وكان أول الربيع . وسلبوا أثواب المتفرجين ، وطلعوا من على قناطر الأوز ، وخرجوا الى الفضاء ، وكانوا نحوا من عشرين خيالا . فكان من جملة ما سلبوه أثواب شخص من الأمراء العشراوات ، يقال له كسباى المغربى ، وكان راجعا من طريق المنية ، فأخذوا سلاريته من فوقه .

وفيه توفى تانى بك الأزدمرى الحاجب الثانى وكان قد شاخ وبلغ من العمر نحوا من تسعين سنة .

وفيه عرض السلطان من فى السجون ، فأطلق منهم أربعة أنفار لا غير وأعاد البقية الى السجون .

❊ ❊ ❊

وفى رمضان صعد القضاة الأربعة ومشايخ العلم ليهنئوا السلطان بالشهر ، فأمر السلطان بعقد مجلس بين يديه بسبب كنيسة اليهود التى هدمت بالقدس ، فأفتى الشيخ أمين الدين الأقصرائى بجواز هدمها . وكذلك شمس الدين الجوجرى ، وزين الدين الأبناسى . وأفتى الشيخ سراج الدين العبادى ، وقاضى الجماعة القلجانى المغربى المالكى ، وآخرون من العلماء بعدم جواز

الهدم ، وأنها تعاد الى ما كانت عليه ... فوقع فى المجلس القال والقيل من العلماء ، وكثر الخبط ، وانفض المجلس على غير طائل . وأمر السلطان بعقد مجلس آخر فى دار يشبك الدوادار ، وكان السلطان مائلا الى عدم هدم الكنيسة واعادتها الى ما كانت عليه ، وقد مال جماعة من العلماء مع غرض السلطان ، وحكم باعادتها الى ما كانت عليه ، ووقع بين قاضى القضاة المالكى اللقانى وقاضى الجماعة ما لا خير فيه . وكذلك سراج الدين العبادى والجوجرى . ومما هجى به السراج العبادى :

أيا سراج اليهود طرا
ومن لدين العزير أفتى
عصبة آهل الكتاب قالوا
لن ترضى عنك اليهود حتى

وقيل فى قاضى الجماعة من جملة أبيات فى ذلك المعنى :

تفتى بعود كنيسة يامغربى ما أنت الا

وفيه توفى اينال الأشقر البجاوى الظاهرى أمير سلاح ، وكان أميرا جليلا شجاعا بطلا ، وكان ظالما غشوما عسوفا ، كثير الاسراف على نفسه ، وكان عنده كرم زائد مع اتضاع ، وأصله من مماليك الظاهر جقمق . وولى عدة وظائف سنية ، منها ولاية القاهرة ، ونيابة ملطية ونيابة حلب ، ورأس نوبة كبير وامرية سلاح ، وغير ذلك من الوظائف . وكان فى آخر عمره ظهر به جذام وبرص فاحش جدا .

وفيه قرر يشبك قرقماس الأشرفى فى نيابة دمياط .

وفيه توجه السلطان نحو الطرانة ، وكان معه الأتابكى أزبك ، فأقام هناك أياما وعاد .

وفيه قرر مغلباى سرق الأشرفى فى حجوبية الحجاب بدمشق .

وفيه فر من العربان من حبس الدلم شخص من بنى حرام يقال له عمر بن معروف ، وفر من سجن القاعة شخص يقال له محمد بن زامل ، وفر من سجن المقشرة أيضا شخص يقال له ابن صالح ... الكل فروا فى مدة يسيرة من هذا الشهر .

* * *

وفى ثالث شوال خرج الأتابكى أزبك مسافرا الى الحجاز ، وصحبته زوجته بنت الملك الظاهر جقمق ، وخرج معهم الأمير أزبك اليوسفى ، ومعه زوجته خوند بنت عم الملك الظاهر جقمق وخرج معهم الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، وولده أبو السعود ، فحج الشيخ أمين الدين فى محفة ، وقد بعث له السلطان سبعمائة دينار يستعين بها على الحج . وخرج صحبتهم الكثير من الناس . وقد سبقوا الحاج بعشرين يوما .

وفيه خلع السلطان على قريبه أزدمر بن مزيد وقرره فى نيابة صفد عوضا عن بلباى العلائى الظاهرى بحكم وفاته .

وفيه خرج الحاج على العادة . ولما حج الشيخ أمين الدين الأقصرائى فى المحفة قال فيه بعض شعراء العصر هذين البيتين :

محفة الشيخ الأقصرائى
تنشد جدواه فى المشاهد
تقول طوبى لمثل هذا
قد حج بالناس وهو قاعد

وكان أمير الركب فى السنة المذكورة جانى بك الأشقر ، أحد خواص السلطان . وبالركب الأول جانى باى الخشن الاينالى تاجر المماليك .

وفى السنة المذكوره حجت خوند فاطمة ، زوجة السلطان ، بنت العلائى علاء الدين بن خاص بك ، فكان يوم خروجها يوما مشهودا ، وكان لها موكب حافل ، وخرجت فى محفة زركش برصفيات لؤلؤ مرصعة بأنواع المعادن المثمنة ، وخرجت صحبتها أخت السلطان فى محفة زركش . وخرج معها خمسون جملا من المحاير المخمل الملون ، ومشى قدام محفتها بالرميلة جميع أرباب الوظائف والدولة ، وغير ذلك من المباشرين . ومشى الزمام ومقدم المماليك ، وأعيان الخدام بأيديهم العصى ، وقدامها من الحداة أربعة ، منهم ابراهيم بن الجندى المغنى ، وأبو الفوز الواعظ ، وغير ذلك . فكان تجملا زائدا قل أن يقع لأحد من الخوندات مثله ، فعد ذلك من النوادر . وكان المتسفر عليها والدها العلائى على بن خاص بك ، وبرسباى المحمودى الخازندار .

وفيه من الحوادث أنه قبل خروج خوند الى السفر رسم السلطان بشنق جارية بيضاء جركسية فشنقت على جميزة بالقرب من حدرة ابن قميحة عند الأحواض التى بطريق مصر العتيقة . وكانت هذه الجارية حملت من بعض مماليك السلطان ، فلما علم السلطان بذلك شنق الجارية ، وأغرق المملوك ، وقيل بل خصاه ونفاه الى الشام .

وفيه اضطربت أحوال الشرقية بسبب فساد العربان من بنى حرام وبنى وائل ، فعين السلطان لهم الأمير يشبك الدوادار فخرج مبادرا .

* * *

وفى ذى القعدة هجم عرب غزالة على ضواحى الجيزة ، ونهبوا خيول المماليك ، وقتلوا جماعة من الغلمان ، وأطلقوا من كان فى السجن . فتنكد السلطان لهذا الخبر ، وعين عدة من الأمراء والجند ، فخرجوا على حمية . فأقاموا هناك أياما وعادوا ولم يظفروا بأحد من العربان المفسدين .

وفيه توفى بيبرس الطويل الأشقر بن ططخ أحد مقدمى الألوف بدمشق ، وكان لا بأس به .

وفى ذى الحجة جاءت الأخبار من الاسكندرية بوفاة الملك الظاهر تمربغا ، أبى سعيد الظاهرى الرومى ، مات بثغر الاسكندرية وقد جاوز الستين سنة من العمر . وكان ملكا جليلا شجاعا بطلا عارفا بأنواع الفروسية ، وافر العقل كامل الهيئة . واليه تنسب أشياء كثيرة من آلة الحرب ، ورمى النشاب ، ولعب الرمح . وكان من خيار الظاهرية ... اشتراه الملك الظاهر جقمق فى سنة سبع وعشرين وثمانمائة وأعتقه ، ثم آل أمره الى أن بقى سلطانا ، وجرى عليه شدائد ومحن ونفى عدة مرار وجرى عليه من المماليك الخشقدمية ما لا خير فى اعادته . وخلع من السلطنة بعد ثمانية وخمسين يوما ، وآخر الأمر مات قهرا كما قيل فى المعنى :

هى الدنيا اذا كملت ... وتم سرورها خذلت
وتفعل بالذين بقوا ... كما فى من مضى فعلت

وفيه أمر السلطان بتوسيط كاشف البحيرة ، وهو شخص يسمى خشقدم الزينى ، فوسطه هو وشخص من الكتاب يقال له ابن الطواب . وقد تجمد عليهما مال لم يقوما به .

وفيه ضرب السلطان فلوسا جددا . ثم نودى عليها كل رطل بستة وثلاثين . ونودى على الفلوس العتق كل رطل بأربعة وعشرين . فخسر الناس فى هذه الحركة ثلث أموالهم . وكانت الفلوس تخرج بالعدد كل أربعة أفلاس بدرهم .

وفيه قدم مبشر الحاج ، وأخبر بالأمن والسلامة. وكان المبشر يومئذ شخصا من الخاصكية يقال

له جان بلاط الغورى ، فأخبر بوفاة أبى السعود محمد ابن الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، مات وهو عائد من مكة ، ودفن فى أثناء الطريق ، وكان شابا حشما رئيسا من أهل العلم والفضل . وتوفى كاتب السر الذى بطرابلس ، السيد الشريف تقى الدين أبو بكر بن أحمد ، وكان لا بأس به .

سنة ثمانين وثمانمائة (١٤٧٥/١٤٧٦ م) :

فيها ، فى المحرم ، خلع السلطان على الشيخ بدر الدين بن الغرس الحنفى ، وقرره فى مشيخة تربة الأشرف برسباى ، عوضا عن الكافيجى بحكم وفاته .

وفيه رسم السلطان بتوسيط عمر ابن أبى الشوارب شيخ قليوب ، وقد ضرب بالمقارع بين يدى السلطان ، وشهر على جمل ، ووسط بقليوب .

وفيه فى سابع عشره كان وصول الأتابكى أزبك من مكة المشرفة . وحضر صحبته الشيخ أمين الدين ، وهو فى غاية التشويش على فقد ولده أبى السعود ، وقد وقع له ما يشبه الذهول فلم يلبث بعد دخوله القاهرة سوى تسعة أيام ومات . فلما طلع الى السلطان خلع عليه ، وعلى الأتابكى أزبك ونزلا الى دورهما .

وفيه فى رابع عشريه دخل الحاج الى القاهرة ، وقد تأخر عن ميعاده بأربعة أيام ، وحصل للحاج عطشة شديدة عند العود ، وكان الحاج فى تلك السنة كثيرا . ثم دخلت خوند زوجة السلطان الى بركة الحاج وهى فى تجمل زائد ، ولاقاها الأمراء قاطبة — حتى القضاة — وترجلوا اليها من فوق بغالهم وهى فى المحفة ، ولاقتها المغانى من البيوت ومدت لها هناك أسمطة حافلة . فلما طلعت الى القلعة رفعت على رأسها القبة والطير ، ونثرت عليها صنائف الذهب والفضة . وكان لها بالقلعة يوم مشهود . ودخل اليها التقادم من أرباب الدولة وأعيان الناس .

وفيه فى سابع عشريه كانت وفاة شيخ الاسلام أمين الدين يحيى بن محمد الأقصرائى الحنفى رحمه الله تعالى . وكان قد نيف على الثمانين سنة من العمر ، وكان مولده سنة سبع وتسعين وسبعمائة . وكان اماما عالما فاضلا مفتيا به نفع للمسلمين ، من أجل علماء الحنفية ، بارعا فى الفقه دينا خيرا قائما فى الحق . يخاشن الملوك والسلاطين ويغلظ عليهم فى القول ، ولا يخشى الا الله تعالى . وكان فى سعة من المال ، وولى عدة وظائف سنية منها مشيخة المدرسة الأشرفية ، ومشيخة المدرسة الصرغتمشية والأيتمشية والجانبكية ، وكان بيده عدة تداريس ، وطلب ليلى القضاء غير ما مرة وهو يتمنع .

* * *

وفى صفر خلع السلطان على قريبه جانم الشريفى ، وقرره فى نظر الجوالى ... وهذا أول استظهاره فى الوظائف .

وفيه توفى الأمير قانى باى الساقى الطويل الظاهرى أحد الأمراء الطبلخاناة ، والحاجب الثانى وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه نزل السلطان الى طرا ، ومعه الأتابكى أزبك ، فبات هناك . ومد له الأتابكى أسمطة حافلة ، فبات وعاد من غده .

وفيه توفى الشيخ نجم الدين اسحق القرشى الحنفى ، كان من أعيان علماء الحنفية ، ومولده قبل التسعين وسبعمائة . وكان لا بأس به .

وفيه توفى تمر حاجب الحجاب ، وهو تمر بن محمود شاه الظاهرى ، وكان ظالما غشوما عسوفا شديد القسوة . تولى ولاية القاهرة ، وحجوبية

الحجاب ، وكان فى أيام ولايته صارما على العبيد والغلمان وغير ذلك ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، حتى قيل أحصى من قتله فى أيام ولايته ، فكان زيادة على السبعمائة انسان ... فلما مات قال جماعة من أهل الصحراء انهم سمعوه يعوى فى قبره كما تعوى الكلاب ، نعوذ بالله من ذلك .

وفيه طلع القلعة شخص من الأمراء العشروات — يقال له دولات باى حلاوة المحمودى — فبينما هو واقف بين الأمراء اذ اضطرب فحملوه الى تحت الكرمة التى بالحوش ، فمات لوقته ، فأحضر له تابوت ، وأنزلوه الى داره ، ودفن من يومه ، وكان دينا خيرا لابأس به .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا ، وحضره القضاة الأربعة وأعيان الناس من الأمراء وغيرهم .

وفيه خلع السلطان على القاضى تاج الدين ابن المقسى ، وأعيد الى نظر الخاص ، وقد نسى العلقة بالمقارع التى دخلت فى أجنابه ، وانفصل عنها القاضى بدر الدين بن كاتب السر بن مزهر .

وفيه خلع السلطان على الأمير أزدمر الابراهيمى الطويل الاينالى ، وقرر فى حجوبية الحجاب عوضا عن تمر بحكم وفاته .

وفيه قرر السلطان فى الحجوبية الثانية سيباى الظاهرى الذى كان أمير آخور ثانى . وقرر أزدمر المسرطن فى الخازندارية الكبرى ، عوضا عن أزبك اليوسفى ، بحكم انتقاله الى تقدمة ألف .

وفيه توفى الأمير يشبك حلس بن أقبردى الأشرفى أحد الأمراء العشراوات . وكان دينا خيرا لا بأس به .

* * *

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على الشيخ برهان الدين بن الكركى ، وقرره فى مشيخة المدرسة الأشرفية ، عوضا عن الشيخ أمين الدين الأقصرائى بحكم وفاته .

وفيه أشيع بين الناس أن السلطان يقصد السفر والخروج بنفسه الى البلاد الشامية ، فنزل بالميدان الكبير الذى بالناصرية ، وعرض هناك خيول الدشار . ثم توجه الى بولاق ، ونزل فى بيت شرف الدين الأنصارى الذى ببولاق ، فأضافه الانصارى هناك ضيافة حافلة ، وكان الأنصارى قد أنشأ غرايا تحت داره . فنزل السلطان فيه ، وتوجه الى شبرى ، ثم عاد قريب المغرب وطلع الى القلعة .

وفيه فى ثانى عشر مسرى كان وفاء النيل المبارك . ونزل الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن أعزلو بن حسن الطويل قد وقع بينه وبين أبيه ، وقد بعث يستنجد بنائب حلب على أبيه ، فجهز نائب حلب معه جماعة من عساكر حلب ، وجعل عليهم باش اينال الحكيم أتابك حلب ، وجانم السيفى ، وجانى بك نائب جدة . وكان يومئذ نائب البيرة ، ودولات باى المحوجب ، وآخرين من أمراء حلب فلما خرجوا الى عسكر حسن الطويل ، تقاتلوا معهم ، فانكسر عسكر حلب ، وجرح محمد أعزلو جرحا بليغا ، ورجع الى حلب فى خمسة أنفار ، وأن اينال الحكيم فقد فى المعركة ، وأن دولات باى أسر فى المعركة ، وقتل من عسكر حلب جماعة كثيرة . فلما بلغ السلطان هذا الخبر تشوش له ، وعين جماعة من الأمراء . منهم الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ، وتمراز رأس نوبة النوب ، وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ، وبرسباى قرا وخاير بك بن حديد ووردبش ، وعين من الأمراء الطبلخانات والعشراوات عدة وافرة ، وأمرهم بأن يتجهزوا ويكونوا على يقظة حتى يرد عليهم من

أمر حسن الطويل ما يكون ... فاضطربت أحوال العسكر . فبينما هم على ذلك اذ ورد كتاب من ابن الصوا يخبر فيه بأن عسكر حسن الطويل عاد الى بلاده ، ولم يحصل منه ضرر . فانشرح السلطان لهذا الخبر ، وبطلت التجريدة التى تعينت الى حسن الطويل فكان كما قيل :

وكم هم تساء به صباحا فتأتيك المسرة بالعشى

وفيه توفى عضد الدين السيرامى شيخ المدرسة البرقوقية ، وهو عبد الرحمن بن يحيى بن سيف ابن محمد بن عيسى ، الحنفى السيرامى . وكان عالما فاضلا رئيسا حشما من أعيان علماء الحنفية ، بارعا فى الفقه مفتيا ، وكان لا بأس به . فلما توفى خلع السلطان على قاضى القضاة شمس الدين الامشاطى ، وقرره فى مشيخة البرقوقية عوضا عن السيرامى .

وفيه خلع السلطان على أزبك فشق الظاهرى ، وقرره فى امرية الآخورية الثالثة عوضا عن سيباى بحكم انتقاله الى الحجوبية الثانية .

وفيه خلع السلطان على ولد برهان الدين النابلسى ، وأعيد الى نظارة الجيش بدمشق ، وصرف عنها الشريف موفق الدين الحموى .

وفيه توفى جمال الدين الباعونى قاضى القضاة الشافعية بدمشق . وكان عالما فاضلا رئيسا حشما . وكان قد ترشح أمره ليلى قضاء مصر فلم يتم له قضاء مصر . وكان مولده سنة خمس وثمانمائة .

* * *

وفى جمادى الأولى خلع السلطان على قجماس الاسحاقى ، وقرره فى الأمير اخورية الكبرى ، عوضا عن جانى بك الفقيه الظاهرى بحكم انتقاله الى امرية سلاح عوضا عن اينال الأشقر بحكم وفاته ، وخلع على قانم قشير الظاهرى أحد العشراوات ، وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن قجماس الاسحاقى ، بحكم انتقاله الى أمرية الآخورية الكبرى .

وفيه خلع على برد بك السيفى جرباش كرت ، وقد ظهر أنه قريب السلطان ، فقرره فى نيابة صفد عوضا عن أزدمر بن مزيد قريب السلطان أيضا ، وفيه نقل أزدمر المذكور الى نيابة طرابلس عوضا عن يشبك البجاسى ، وكان برد بك السيفى يومئذ شاد الطرانة ، فاستكثر عليه الناس نيابة صفد دفعة واحدة .

وفيه توجه الى دمشق برهان الدين النابلسى ، وكيل بيت المال ، وقد خرج فى بعض أشغال السلطان .

وفيه وصل القاضى شمس الدين بن أجا قاضى العسكر ، وكان قد توجه قاصدا الى حسن الطويل ، فأخبر بأن الطاعون قد هجم فى بلاده ومات من عسكره ما لا يحصى ، وقد تلاشى أمره . فسر السطان بهذا الخبر .

وفيه قدمت الى القاهرة زوجة حسن الطويل أم ولده محمد أعزلو ، تستجير لولدها محمد بالسلطان بأن يشفع له عند أبيه ، ويصلح بينهما . فلما قدمت أكرمها السلطان وأنزلها بدور الحريم .

وفيه نقبت قاعة الذهب ، وسرق منها عدة سبائك وشريط ذهب . فلما بلغ السلطان ذلك ضيق على والى القاهرة حتى يفحص عمن فعل ذلك . ثم بعد أيام ظهر أن شخصا يقال له يوسف ، وكان من جملة صناع القاعة ، أنه هو

الفاعل لهذا فقبض عليه ، وعرض على السلطان ، وأخذ ما كان معه من السبائك الذهب ، وسجن بالمقشرة الى أن يرد أمر مولانا السلطان فيه بما يقتضيه .

***

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار من دمشق بأن برهان الدين النابلسى وكيل السلطان ، لما دخل الى دمشق ، صدرت منه القبائح العظيمة بأهـل دمشق ، فما أطاقوا ذلك ، ورجموه ورموا عليـه بالسـهام ، وأحرقوا داره بالنار ، وأرادوا قتله ، فركب نائب قلعة دمشق بنفسه ، وتلطف بالعوام حتى سكنت هذه الفتنة قليلا . وقد كادت أن تخرب دمشق فى هذه الحركة بسبب ظلم النابلسى . وكان قد طغى على الناس وتجبر ، وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حقه ، حتى آل أمره الى ما سنذكره فى موضعه .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو طرا ، فأضافه هناك ابن البلاح ، وكان أحضر بين يديه قدورا مختومة بها شهد ، ففتحت منها قدرة بين يدى السلطان وهو جالس على السماط . فلما فتحت خرج منها نحلة كبيرة فقصدت وجه السلطان دون الجماعة الذين على السماط ، فلدغته فى جفن عينه فورم وجهه فى الحال ، وتشوش لذلك ورجع من وقته . فطلع الى القلعة ، فانقطع عن اقامة الخدمة أياما حتى شفى .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الشرق بوقوع فتنة بين شاه بضاع بن دلغادر ، وصاحب الأبلستين ، وبين ابن قرمان ، ووقع بينهما مقتلة عظيمة . ووقع أيضا بين حسن الطويل وبين أخيه أويس ، وبعث اليه طائفة من عسكره بالرها فحاربوا أويسا وقتلوه ومن معه من العسكر .

وفيه توجه السلطان الى ثغر دمياط ، وقد توجه الى دمياط مرة أخرى قبل ذلك . وفى هذه السفرة الثانية توجه الى دمياط من البحر فى عدة مراكب كثيرة نحـو من مائة مـركب ، وكان معـه من الأمـراء يشبك الدوادار ، وآخرون من الأمـراء المقـدمين والعشراوات ، وجماعة من المبـاشرين والخاصكية من المماليك السلطانية . ووقع له وهو حادر فى البحر ، أنه رمى على كركى من الكراكى بجزيرة فى البحر ، فصرع الكركى ، فتحامل وألقى نفسه فى البحر ، فبادر اليه بعض السلحدارية ، ونزل فى البحر ليحضر الكركى ، فقوى عليه التيار فغرق من وقته . فتنكد السلطان بسبب ذلك . فلما طلع الى ثغر دمياط لاقاه النائب ومد له مدة حافلة ، فأقام بها أياما وهو فى أرغد عيش ، وتنزه فى غيطان البلد ، وتوجه الى مكان يصـاد فيـه السـمك البورى ، ونزل فى مركب صغير وعاين كيف يصاد البورى ، وانشرح فى هذه السفرة الى الغاية . فلما أراد العود الى القاهرة عاد فى البحر أيضا ، ونزل فى المركب قاصدا الديار المصرية . فلما أن وصلوا الى بولاق ، سيب النفطية صواريخ نفط ، فجاء منها صاروخ فى مركب الأمير يشبك الدوادار ، فعملت النار فى قلع المركب فاحترق . فاضطرب الأمير يشبك من ذلك ، وصار يدفع عن وجهـه النـار بالمخدة ، فأدركه طواشى يقـال له مرجان الحبشى ، فبينما هو يطفىء النار اذ سقط عليـه الصارى فمات لوقته ، هو وشخص من المماليك السلطانية . فكانت مدة غيبة السلطان فى هـذه

السـفرة نحوا من خمسـة عشر يوما ، وطلع الى القلعة فى سلخ الشهر .

* * *

وفى رجب صعد القضاة الى القلعة للتهنئة بالشهر وقدوم السلطان من السفر ، فخلع فى ذلك اليوم على أبى البقا ابن قاضى القضـاة ابن الشحنة ، وقرر فى قضاة الشافعية بحلب ، عوضا عن عز الدين الحساوى ، بحكم صرفه عنها . وفى أثناء هـذا خرج السلطان على حين غفلة ، وقصد التوجه الى القدس الشريف ، وكان معـه الأتابكى أزبك ، ويشـبك الدوادار ، وآخـرون من الأمـراء والخاصكية ، وجماعة من أعيان المباشرين وغيرهم . فلما دخل الى القدس أظهر به العدل ، وأقام به ثلاثة أيام . ثم زار الخليل عليه السلام ، وتصدق فى القدس والخليل بستة آلاف دينار وأزال بهما ما كان من المظالم التى كانت حادثة هناك . ولما مر بالقرين أمر ببناء جامع وسبيل هناك ، وحصل له جملة تقادم حافلة من أعيان الناس هناك . ولما دخل الى غزة خلع على سيباى الظاهرى أحد العشراوات ، وقرره فى نيابة غزة ، عوضا عن يشبك العلائى ، بحكم انتقاله الى أتابكية دمشق . ثم ان القاضى تاج الدين بن المقسى ناظر الخاص قدم من عنـد السلطان ، وأخبر أنه قد وصل الى قطيا ، فخرج جماعة من الأمراء الى لقائه .

* * *

وفى عشرى شعبان وصل السلطان ودخل الى القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه الأمراء بالشاش والقماش . وخرج طائفة اليهود والنصارى وبأيديهم الشموع الموقـدة ، وشق من القاهرة ، وكان له يوم مشهود حتى طلع الى القلعة . وكان فيه ختان بدر الدين ابن القاضى كمال الدين ناظر الجيش ، وكان له مهم حافل .

وفيه توفى القاضى محيى الدين الطوخى أحـد نواب الشافعية ، وهو عبد القادر بن محمد بن محمد القاهرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا وجيها عنـد الناس ... ناب فى القضاء مدة طويلة ، وحمـدت سيرته ، وكان لا بأس به .

وتوفى السيد الشريف أمير جان تاجر المماليك ، وكان رئيسا حشما فى سعة من المال ، وكان وجيها عند الناس والملوك والسلاطين ، وجلب غالب أمراء عصرنا ، وصاروا يعرفون بالشريفى الى الآن .

وفيه حضر مهنا بن عطية بين يدى السلطان ، وقد بعث اليه بمنديل الأمان ، وكان رأس العربان المفسدين ، وقد أعيا الأمراء والكشاف ومشايخ العربان ، ولم يقدروا على تحصيله ، فترامى مهنا بن عطية على أحمد بن طفيش حتى قابل به السلطان ، وخلع عليه خلعة الرضا ودخل تحت طاعة السلطان .

وفيه توفى جانى بك الأشقر الدوادار أحد خواص السلطان ، وكان رئيسا حشما عارفا سيوسا توجه الى الحجاز أمير حاج غير ما مرة ، وكان مقربا عند السلطان ، وكان أصله من مماليك قانى باى قرقور واتصل بخدمة جماعة من الأمراء ، ثم خدم الأشرف قايتباى — من حين كان أمير طبلخاناه الى أن بقى سلطانا — فأنعم عليه السلطان بامرية عشرة . وكان فى سعة من المال .

وفيه توفى شاهين الفقيه الزينى وكان من أعيان الخاصكية ، محمود السيرة دينا خيرا لا بأس به .

* * *

وفى رمضان خلع السـلطان على الأ
الظاهرى أمير مجلس ، وقرره أمير ر

عوضا عن جانى بك الأشقر المتوفى ، وكان قرره أمير ركب المحمل قبل موته .

وفيه وصل دولات باى المحوجب ، وكان قد أسر عند حسن الطويل ، فأطلقه وخلع عليه .

وفيه توفى سيباى أمير آخور ثالث ، وكان قد ولى حاجب ثان ، وأصله من مماليك الظاهر جقمق . وكان يعرف بسيباى بن بخشباى ، وكان لابأس به .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن بعض تجار الافرنج احتال على تجار الاسكندرية حتى أسرهم ، وكان فيهم تجار السلطان ، وهم ابن عليبه يعقوب ، وعلى الكيزانى ، وعلى التمراوى . فلما أسروهم خرجوا بهم من الاسكندرية فى الوقت والساعة ، وتوجهوا بهم الى بلاد الافرنج . فاضطربت أحوال الاسكندرية وكادت أن تخرب ، فلما كاتبوا السلطان بذلك تأثر لهذا الخبر ، وعين فى الوقت خاصكيا من خواصه يقال له قيت الساقى ، الذى تولى ولاية القاهرة فيما بعد . وكتب معه مراسيم شريفة لنائب ثغر الاسكندرية بالقبض على جميع تجار الافرنج الذين بالاسكندرية . فلما توجه قيت الساقى هناك قبض على تجار الأفرنج من سائر السواحل ، وضيق عليهم ، وأودعهم فى الحديد ، وألزمهم بان يكاتبوا ملوك الافرنج بما جرى عليهم من السلطان ، بسبب التجار . وقد قام السلطان فى هذه الحادثة قياما تاما ، وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها . وآخر الأمر اشترى التجار الذين أسروا أنفسهم من ملوك الأفرنج بمال له صورة حتى أطلقوهم ، وأتوا بهم الى الأسكندرية ، كما سيأتى الكلام على ذلك .

وفيه خلع السلطان على قانى باى جشحة العلائى الظاهرى الرماح ، وقرره فى الحجوبية الثانية ، عوضا عن سيباى الظاهرى بحكم وفاته . وخلع على دولات باى الحسنى ، وقرره فى شادية الشون عوضا عن قانى باى جشحة .

وفيه توفى الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن اسماعيل الكركى الحنفى ، والد برهان الدين امام السلطان ، وكان دينا خيرا من صوفية خانقاه الشيخونية وكان لا بأس به .

وفيه توفى مقبل الدوادار وكان أصله من مماليك تغرى بردى المؤيدى ، وكان متكلما على شعير الذخيرة .

وفيه قرر فى مشيخة الحرم الشريف النبوى اينال الاسحاقى ، وكانت عادة مشيخة الحرم للخدام الطواشية من قديم الزمان . وقرر فى باشية الجند بمكة المشرفة قانى باى اليوسفى .

* * *

وفى شوال خلع السلطان على أبى الفتح المنوفى وقرره فى نيابة جدة على العادة .

وفيه خلع السلطان على شخص من النصارى يقال له ميخاييل من نصارى منفلوط وقرره بترك النصارى .

وفيه خرج الحاج وكان أمير ركب المحمل لاچين الظاهرى ، أمير مجلس . وبالركب الأول جانى باى الخشن الاينالى ، وخرج صحبة الحاج شرف الدين الأنصارى . وكان الأمير يشبك الدوادار حاطا عليه ، فخرج الى مكة المشرفة ، وكان آخر عهده بالقاهرة . وقد تسلط عليه برهان الدين النابلسى ، وأخذ منه وكالة بيت المال ، فضاق الأمر عليه فترك مصر ومضى عنها كما قيل فى المعنى :

لعمرى ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق

* * *

وفى ذى القعدة أشيع بين النـاس أن خزانة السلطان سرق منها مال له صورة ، فظهر بعد أيام أن الفـاعل لذلك جمـاعة من بوابى الدهيشـة الألواحية ، فقبض السلطان على بعضهم وضربه ، فأحضر المال . فرسم بسجنه فى المقشرة فسجن .

وفيه سافر السلطان الى الفيوم ، وهى السفرة الثانية ، وكان معـه الأتابكى أزبك ، ويشـبك الدوادار ، وجمـاعة من المقدمين والعشراوات . وكان سبب توجهـه الى الفيوم أن خاير بك بن حديد أنشأ هناك ضيعة ، وجعل بها طاحونا تدور بالماء ، وأنشأ بها بستانا هائلا ، فتوجه السلطان ليرى ذلك .

وفيه خسف القمر خسوفا تاما حتى أظلم الجو . وأقام الخسوف نحوا من أربعين درجة .

* * *

وفى ذى الحجة كان عيد النحر يوم الجمعة . وخطب فيه خطبتان .

وفيه قدم قطب الدين الخضيرى من دمشق ، وقد أتى يشكو من بدر الدين النابلسى وقد تزايد ظلمه وجوره فى حق الناس جدا .

وفيه كان ختان أولاد الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، وكان الختان بثغر دمياط ، فبعث السـلطان اليه بألفى دينار بسبب احتياج المهم ، وتوجـه بن رحاب المغنى ، وصـار بخدمته حتى انقضى مهمه ، وكان له مهم حافل .

وفيه وصـل مبشر الحـاج ، وأخبـر بالأمن والسـلامة ، وأخبر بوفاة القاضى المالكى محيى الدين عبد القادر بن أبى القاسم بن أحمد بن محمد ابن عبد الله بن عبد المعطى ، الأنصارى السعدى ، المالكى ، قاضى مكة المشرفة ، وكان عالما فاضلا فقيها نحويا ، ولى قضاء مكة مدة طويلة ، وكان محمود السيرة .

وفيه توفى تنم الفقيه الأبو بكرى المؤيدى أحد الأمراء العشراوات . وكان صهر الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، وكان لا بأس به .

وتوفى اينال الابراهيمى الحكيم الأشرفى أتابك حلب ، وكان لا بأس به .

وتوفى جقمق المؤيدى أحد العشراوات ، وكان دينا خيرا انسانا حسنا لا بأس به .

وفى هذه السنة المذكورة — أعنى سنة ثمانين وثمانمائة (١٤٧٥ م) — كان ابتداء منشأ الأزبكية على يد المقـر الأتابكى أزبك بن ططخ الظاهرى ، والذى نسبت الأزبكية اليه .

وكانت هذه البقعة أرض ساحة خرابا ، ذات كيمان فى أرض مباخ ، وبها أشجار أثل ونبط ، وبها مزار سيدى عنتر وسيدى وزير ، وغيرهما من الأولياء رضى الله عنهم ورحمهم . وكان فى هـذه الأرض جامع الجاكى وهو باق الى الآن . وكانت هذه الأرض قديما عامرة ، بها المناظر والبساتين ، وتسمى مناظر اللوق ، وكانت قريبة من بحر النيل . ثم ان بعض الملوك حفر بها خليجا ، وأجرى اليه الماء من فم الخور . وصار هذا الخليج يعرف بخليج الذكر ، وبقى من جملة متنزهات القاهرة ، وبنى على هـذا الخليج قنطرة وفوقهـا دكة للمتفرجين يجلسون عليهـا للفرجة ، وفيهـا يقول ابراهيم المعمار :

ياطالب التـكة نلت المنى
وفزت منهـا ببلوغ الوطر

قنطـرة من فوقهـا تكة
وتحتها تلقى خليج الذكر

واستمرت هذه البقعة على ماذكرناه الى سنة خمس وخمسين وستمائة (١٢٥٧ م) . فلما تلاشى أمرها ، وضعف جريان الماء فى خليج الذكر ، وحفر الملك الناصر بن قلاون خليجه المسمى بالخليج الناصرى ، وذلك فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٣ م) ، طم خليج الذكر ، وخربت مناظر اللوق التى هناك ، وصارت هـذه البقعة خربة مقطع طريق ، واستمرت على ذلك مدة طويلة لم يلتفت اليهـا أحد من الناس . ثم ان شخصا من الناس عمر حماما كان هناك ، وفتح له بجمونا من الخليج الناصرى ، فجرى فيـه الماء فى أيام زيادة النيل . فلا زال يجريه حتى أوصله بأرض الأزبكية ، فصار يدخل اليها الماء فى آخر الزيادة ، ويروى بها بعض أراضيها ، ويزرع بها البرسيم والشعير ، واستمرت على ذلك مدة الى سنة ثمانين وثمانمائة (١٤٧٥ م) فى دولة الأشرف قايتباى . فحسن ببال الأتابكى أزبك أن يعمر هناك مناخا لجماله . وكان ساكنا بالقرب من هذه البقعة . فلما أن عمر المناخ ، حلت له العمـارة هنـاك ، فبنى القاعات الجليلة ، ثم الدوار والمقعد ، والمبيتات والحواصل ، وغير ذلك . ثم انه أحضر أبقارا ومحاريث ، وجرف الكيمان التى كانت هناك ومهدها ، ثم حفر بها هذه البركة الموجودة الآن ، وأجرى اليها الماء من الخليج الناصرى وجدد عمارة قنطرة خليج الذكر التى كانت قديمة . ثم بنى على هذه البركة رصيفا محتاطا بها ، وتعب فى ذلك تعبا عظيما حتى تم له ما أراد من ذلك . وكان فى قوة الحر يدور خلف المحاريث فى الكيمان وغيرها ، وصرف على ذلك مالا له صورة يزيد على مائتى ألف دينار ... وكان ذلك فى غير طاعة الله تعالى ، ولا به نفع للمسلمين .

ثم شرعت الناس تبنى على هذه البركة القصور الفاخرة ، والأماكن الجليلة . ولا زالت تتزايد فى العمارة الى سنة احدى وتسعمائة (١٤٩٥ م) وقد رغب الكثير من النـاس فى سكنى الأزبكيـة وصارت مدينة على انفرادها ، ثم أنشأ بها الجامع الكبير ، وجعل به خطبة ، وأنشأ به منارة عظيمة ، فجاء غاية فى الحسن والتزخرف والبناء .

وفيه يقول شمس الدين القادرى :

بنى جامعـا لله يلتمس الرضا
به ونجـاة من أليم عقـابه
وفكر فى الحشر الذى عقبـاته
طوال يهول المرء قطع عقـابه
فأكرم به من جامع من ثوى به
فلم يخل منشـيه اذا من ثوابه
فيا فوز عبد مؤمن قد جنى به
ثمار أجور من رياض جنـابه
عظيم أجور لا ينـوب منابه
سـواه لأجر نال كل المنى به

ثم أنشأ حول هذا الجامع الربوع ، والحمامات والقيـاصر والطواحين والأفران ، وغير ذلك من المنافع . وسكن فى تلك القصور ، وتمتع بها مدة طويلة ، حتى مات . وبقى له تذكار الأزبكية على مر الأيام والأوقـات . وقال فيـه شمس الدين القادرى رحمه الله تعالى :

لأزبك مولانا المقـر عمـارة
بها السعد يسمو للنجوم الشوابك
بمملـكة الاسـلام لم أر مثلهـا
ولا النـاس طرا فى جميع الممالك
بنى جامعا للحسن أصبح جامعـا
تقر به العينان من كل ناسـك

وفيه توفى الشيخ تقى الدين الحصنى الشافعى وهو أبو بكر بن محمد بن شادى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى الفقه والعربية وغير ذلك من العلوم ، وكان دينا خيرا لا بأس به . وولى عدة وظائف أى تداريس ، منها تدريس المدرسة الصلاحية ، التى بجوار قبة الشافعى رحمه الله تعالى ورضى عنه . فلما مات قرر بها الشيخ زين الدين زكريا الأنصارى عوضا عن الحصنى .

وفيه توفى قاضى القضاة شهاب الدين أحمد المعروف بالمكينى ، وهو أحمد بن محمد بن بركوت الحبشى التاجر الكارمى . وكان عالما فاضلا رئيسا حشما ، ربيب قاضى القضاة صالح البلقينى ، وولى عدة وظائف سنية ، منها حسبة القاهرة ، ثم ولى قضاء الشافعية ، وغرم بسببها مالا له صورة ، ولم يمكث فى القضاء سوى مدة يسيرة ، وعزل عنها .

وفيه حضر نجاب من مكة ، وأخبر بوفاة القاضى شرف الدين الأنصارى ، وهو موسى بن على بن سليمان التتائى الشافعى ، وكان رئيسا حشما ، غير خال من فضيلة ، عارفا بأحوال المملكة ، سيوسا حسن الرأى ، وولى عدة وظائف سنية ، منها نظر الجيش ، ونظر الخاص ، ووكالة بيت المال ، وغير ذلك من الوظائف السنية ، حتى عد مدبر المملكة ، وكان مولده بعد العشرين وثمانمائة .

وفيه أرسل نائب الشام جانى بك قلقسير ، هدية للسلطان ، من جملتها من الذهب النقد عشرة آلاف دينار ، وعدة حمالين ما بين سمور ، ووشق وسنجاب وصوف ، وغير ذلك .

* * *

وفى ربيع الآخر وقع حريق عظيم بباب السلسلة ، فاحترق من خيول السلطان الخاص ستة أرؤس .

وقد أعيا المماليك طفيه . وهدم من سور باب السلسلة جانب عظيم .

وفيه فى ثالث مسرى كان وفاء النيل المبارك ، وتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

وفيه توفى نائب الاسكندرية قانم قشير الظاهرى ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى جمادى الأولى عاد الأمير يشبك من بلاد الصعيد ، ولم يظفر بأولاد ابن عمر .

وفيه قرر فى امرية الحاج بركب المحمل تانى بك الجمالى الظاهرى ، أحد مقدمى الألوف ، وقرر اقبردى الأشرفى أمير ركب الأول .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة قانصوه اليحياوى نائب حلب ، وكان قد أشيع عنه أنه خرج عن الطاعة ، فلما حضر خلع عليه السلطان باستمرار ، وبطلت تلك الاشاعة عنه . وكان القائم فى أمر مساعدته الأتابكى أزبك أمير كبير .

* * *

وفى جمادى الآخرة نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى خليج الزعفران ، لضيافة أبى بكر بن عبد الباسط ، فأضافه ضيافة حافلة . ثم ركب من خليج الزعفران وتوجه الى الخانقاه ، فصلى بها صلاة الجمعة . وأضافه هناك الأمير يشبك الدوادار ضيافة حافلة .

* * *

وفى رجب وقع بالقاهرة زلزلة فى الليل عظيمة ، وقع منها بعض أماكن ، ولو أنها دامت درجة أخرى لحصل منها غاية الضرر للناس .

وفيه تعطلت أسباب الناس لأجل الفلوس العتق ،

وكثر الضرر منها على البائع ، وصار النصف الفضة يصرف بثمانية عشر من الفلوس العتق ، وصارت البضائع بسعرين : سعر الفضة ، وسعر الفلوس . فحصل للناس بذلك غاية المشقة .

وفيه وقع بين الأمير يشبك الدوادار الكبير وبين خاير بك بن حديد تشاجر بالقلعة . فحنق منه الأمير يشبك الدوادار ولكمه بيده ، فرمى تخفيفته عن رأسه . فدخلت بينهما الأمراء ، وخلصوا بينهما . واستمرت القلوب معمرة بالعداوة حتى كان من أمر خاير بك بن حديد ما سنذكره .

* * *

وفى شعبان نزل السلطان الى الرماية ، وعاد فى موكب حافل ، ولكنه لم يشق من القاهرة ، وطلع من بين الترب . وقد تكرر نزوله فى الشهر المذكور ثلاث مرات ، وهو يطلع من بين الترب ، ولا يشق المدينة . وسبب ذلك الفلوس الجدد ، حتى لا يشكو له الناس من ذلك .

* * *

وفى رمضان نودى على الفلوس بستة وثلاثين الرطل ، وصارت بالميزان ، وأبطل عددها . ونودى على الفضة المضروبة بألا يتعامل بها الا بالميزان ، وكذلك الذهب . وبطل أمر العادة .

وفيه أشيع بين الناس بأن السلطان يتزيا بزى المغاربة وينزل الى الجامع الأزهر ويصلى به ، وكان يسأل فى بعض الطرقات من الناس عن سيرة نفسه ، ووقع له بين الناس فى هذا الأمر أشياء غريبة يطول الشرح فى ذكرها . وبعض الناس كان يحط عليه فى أفعاله ، وهو يسمع كلامه بأذنه ممن يسأله .

وفيه توفى جانى بك المشد ، وكان موته فجأة بعد أن صلى التراويح . وكان قد شاخ وكبر سنه . وأصله ممن مماليك الأشرف برسباى ، وولى شادية الشراب خاناه فى دولة الأشرف اينال . ثم بقى مقدم ألف ، ونفى الى دمياط فى دولة الظاهر خشقدم ، ثم حضر الى القاهرة فى دولة الأشرف قايتباى ومات بها وهو طرخان .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة على العادة . وفرقت الخلع والصرر على الفقهاء .

وفيه فشا أمر الطاعون بالقاهرة . وهذا هو الطاعون الثانى الذى وقع فى دولة الأشرف قايتباى.

ومات به فى الشهر المذكور القاضى عبد الكريم ابن جلود ، وهو عبد الكريم بن أبى الفضل بن اسحاق القبطى . وكان رئيسا حتشما ، وولى كتابة المماليك بعد أبيه ، وكان فى حداثة سنه لم يلتح ، وباشرها أحسن مباشرة . وكان له حرمة وافرة ، وكان مولده قبل السبعين والثمانمائة .

وفيه توفى قانصوه رفرف ، وكان من أعيان الخاصكية مقربا عند السلطان ، شابا مليح الشكل ، حسن الهيئة ، كثير الأدب والحشمة ، عارفا بالفروسية ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى شوال تزايد أمر الطاعون ، وفتك بالمماليك والأطفال والعبيد والجوارى والغرباء فتكا ذريعا . وكان طاعونا مهولا يموت فيه الانسان من يومه .

وفيه يقول الشهاب المنصورى رحمه الله تعالى :

لهفى على مصر وولدانها
أضحوا الى الموت يساقونا

ما لشر الفصل سهام الردى
عليهم الا طواعينا

وفيه حضر دولات باى النجمى الأشرفى ، حاجب الحجاب بدمشق ، وكان السلطان قد تغير خاطره عليه . ولما حضر خلع عليه ، وأظهر له الرضا .

وفيه وصل السيد الشريف على بن بركات أخو أمير مكة المشرفة . وكان حضر قبل ذلك الى

القاهرة ، فمشى السلطان بينه وبين أخيه بالصلح . وتوجه الى مكة المشرفة ، فأقام بها مدة يسيرة ، ووقع بينه وبين أخيه ثانيا ، فعاد الى القاهرة هو وولده ، فأكرمه السلطان ورتب له ما يكفيه ، وأقام بمصر حتى مات .

وفيه خلع السلطان على قراجا السيفى جانى بك نائب جدة ، وقرره فى نيابة جدة ، عوضا عن أبى الفتح المنوفى بحكم انفصاله عنها .

وفيه خرج الحاج من القاهرة على عادته ، وكان يوما مشهودا .

* * *

وفى ذى القعدة تناهى أمر زيادة الطاعون ، ومات فيه من الأعيان جماعة كثيرة ، منهم الشيخ المسلك العارف بالله تعالى ، الولى الصالح محمد بن أحمد ابن محمد التونسى الشاذلى الوفائى ، المعروف بأبى المواهب رحمة الله عليه ، وكان أصله مغربيا يعرف بابن رغدان . وكان عالما صوفيا محققا أخذ عن أبى السعادات بن أبى الوفاء ، وألف عدة أجزاء جليلة ، وكان قد جاوز الستين سنة من العمر ، ودفن بتربة الشاذلية .

وتوفيت أخت السلطان ، خوند جان باى الجركسية وكانت لا بأس بها .

ومات جكم المصارع الأشرفى الخاصكى وكان لا بأس به .

ومات طوغان المحمدى الأشرفى ، وكان فى عشر الثمانين سنة ، وله اشتغال بالعلم .

ومات الشيخ عبد الكريم السيوامى الحنفى ، وكان من أهل العلم والفضل .

ومات عيسى بك أخو شاه سوار ، وكان مقيما بالقاهرة .

ومات كسباى بن ولى الدين الظاهرى الخشقدمى ، الذى كان دوادارا ثانيا فى دولة الظاهر تمربغا .

ومات تمربغا كاشف الشرقية وكان من مماليك السلطان وكان أمير عشرة ، فلما مات قرر عوضه على باى الذى ولى نيابة الأسكندرية فيما بعد .

ومات كرتباى كاشف البحيرة وكان أصله من مماليك جانى بك نائب جدة ، ثم ظهر أنه من قرابة السلطان .

وفيه مات الامام العالم العلامة الشيخ سيف الدين الحنفى وهو محمد بن محمد بن عمر بن قطلوبغا التركى القاهرى ، وكان عالما فاضلا ، ورعا ، زاهدا ، خيرا ، دينا ، صالحا ، ماهرا فى الفقه والحديث . ولى مشيخة الجامع المؤيدى ، ومشيخة الخانقاه الشيخونية ، وغير ذلك من التداريس . وكان متقشفا زاهدا عن أبناء الدنيا . ومولده سنة ثلاث وثمانمائة . وكان من خيار الحنفية ، ولما مات رثاه الشيخ العلامة العمدة الجلال السيوطى بهذه الأبيات :

مات سيف الدين منفردا	وغدا فى اللحد منغمدا
عالم الدنيا وصالحها	لم تزل أحواله رشدا
ناصر دين النبى اذا	ما أتاه ملحد كمدا
فى الذى قدكان من ورع	لم يخلف بعده أحدا
لم يكن فى دينه وضر	لا ولا للكبر منه ردا
عمره أفناه فى نصب	لاله العرش مجتهدا
ليت شعرى من نؤمله	بعد هذا الحبر ملتحدا
ثلمة فى الدين موتته	ما لها من جابر أبدا
قد روينا ذاك فى خبر	وهو موصول لنا سندا
فعليه هاملات رضا	ومن الغفران سحب ندا
وبعثنا ضمن زمرته	مع أهل الصدق والشهدا

* * *